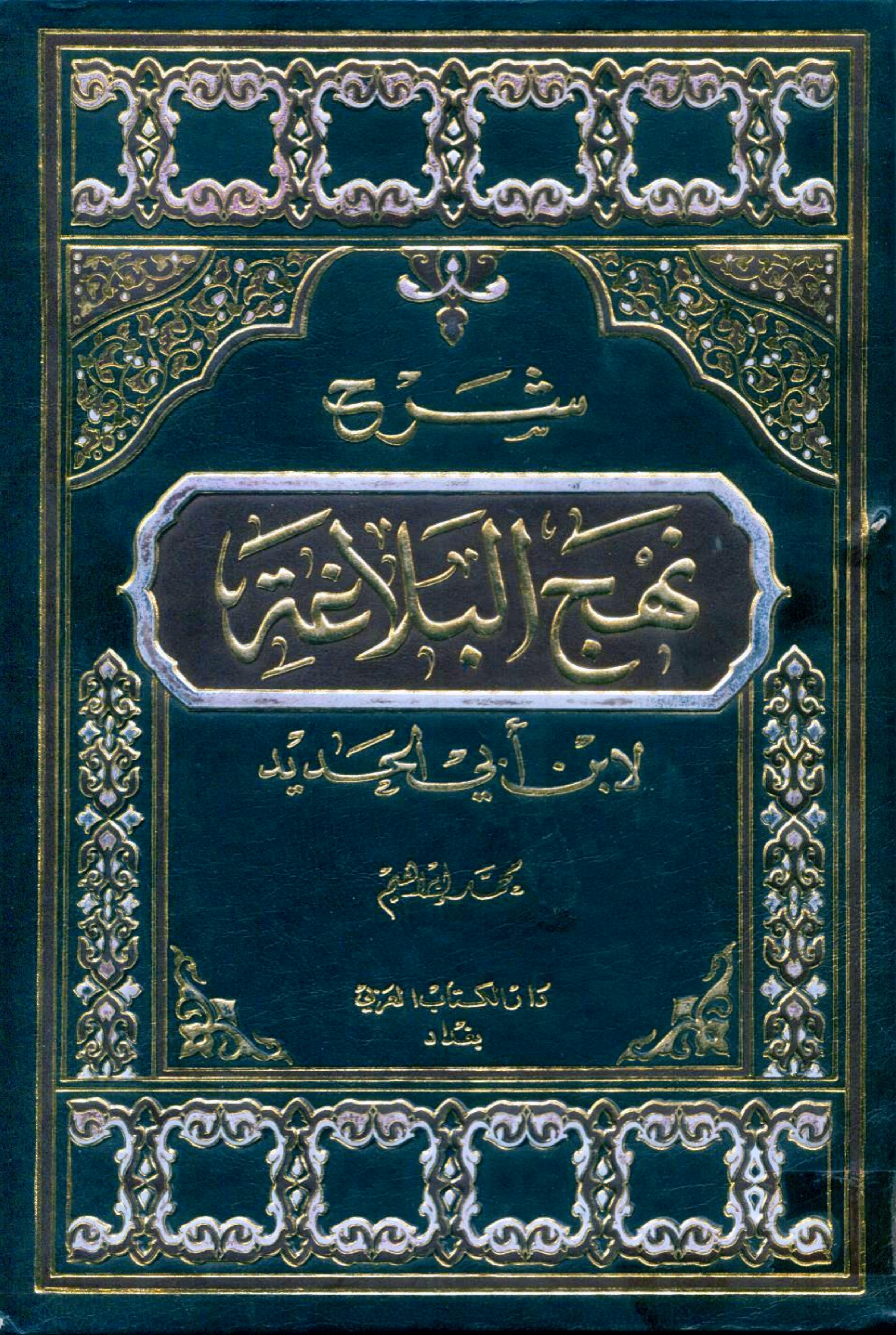


شرح
نهج البلاغة
لابن أبي الحديد
محمد أبو الفضل إبراهيم
دار الكتاب العربي
بغداد

شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

تحقيق

محمد إبراهيم

المجلد العاشر

١٩ - ٢٠

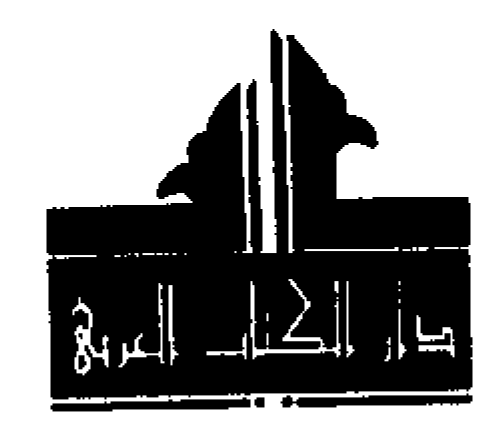
شرح
نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

١٩ ـ ٢٠

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م



دار الكتاب العربي

بغداد - شارع المتنبي

تلفون: ٤١٥٤٥٦١ - ٠٧٩٠١٤١٩٣٧٥

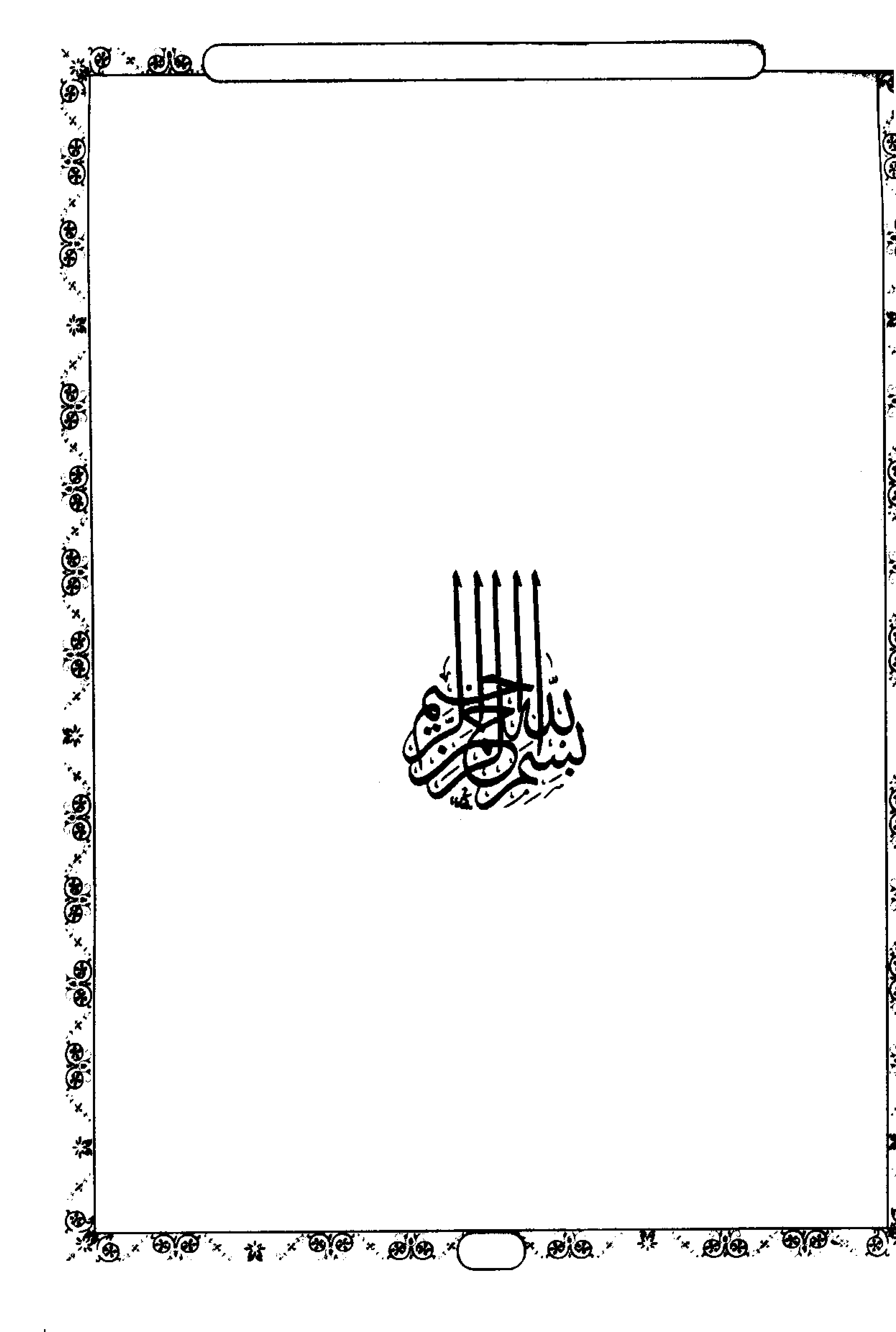


للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

خليوي: ٠٣/٩٤٦٦٦١١ - ٠٢/١٥٤٢٥ ص.ب - تلفاكس: ٠١/٧٣٢٦٤٠٨

http://www.Dar-ALamira.com
email:info@dar-alamira.com


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل

- ١٨٦ -

الأصل: إِنَّمَا الْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا، وَنَهْبٌ تُبَادِرُهُ الْمَصَائِبُ، وَمَعَ كُلِّ جُرْعَةٍ شَرَقٌ، وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ، وَلا يَنَالُ الْعَبْدُ نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى، وَلا يَسْتَقْبِلُ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا بِفِرَاقِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ، فَنَحْنُ أَعْوَانُ الْمَنُونِ، وَأَنْفُسُنَا نَصْبُ الْحُتُوفِ، فَمِنْ أَيْنَ نَرْجُو الْبَقَاءَ، وَهَذَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَمْ يَرْفَعَا مِنْ شَيْءٍ شَرَفاً، إِلَّا أَسْرَعَا الْكَرَّةَ فِي هَدْمِ مَا بَنَيَا، وَتَفْرِيقِ مَا جَمَعَا!

الشرح: قد سبق ذرءٌ[1] من هذا الكلام في أثناء خطبته عليه السلام، وقد ذكرنا نحن أشياءَ كثيرةً في الدنيا وتقلّبها بأهلها.

ومن كلام بعض الحكماء: طوبَى للهارب من زخارف الدنيا، والصادّ عن زَهرة دِمْنَتِها[2]، والخائف عند أمانها، والمتّهم لضمانها، والباكي عند ضحكها إليه، والمتواضع عند إعزازها له، والناظر بعين عقله إلى فضائحها، والمتأمّل لقبح مصارعها، والتارك لكلابِها على جِيَفها، والمكذِّب لمواعيدها، والمتيقّظ لخُدَعها، والمعرِض عن لُمَعها، والعامل في إمهالها، والمتزوّد قبل إعجالها.

قوله: «تنتضل» النَّضْل شيء يرمى، ويروى «تبَادره» أي تتبادره، والغرض: الهدفُ.

والنّهب: المال المنهوب غنيمة، وجمعه نِهاب.

وقد سبق تفسير قوله: «لا ينال العبد نعمة إلا بفراق أخرى»، وقلنا: إنّ الّذي حصلت له لذّة الجماع حالَ ما هي حاصلة له، لا بدّ أن يكون مفارقاً لذّة الأكل والشرب، وكذلك من يأكل ويشرب يكون مفارقاً حال أكلِهِ وشربه لذّة الرّكْض على الخيل في طلب الصّيد، ونحو ذلك.

---

(١) ذرء من هذا الكلام: شيء منه. القاموس، مادة (ذرأ).
(٢) دمنتها: آثارها. اللسان، مادة (دمن).

قوله: «فنحن أعوان المنون»، لأنّا نأكل، ونشرب، ونجامع، ونركب الخيل، والإبل، ونتصرّف في الحاجات والمآرب، والموت إنما يكون بأحد هذه الأسباب، إمّا من أخلاط تحدثها المآكل والمشارب، أو من سقطة يسقط الإنسان من دابة هو راكبها، أو من ضعف يلحقه من الجماع المفرِط، أو لمصادمات واصطكاكات تصيبه عند تصرفه في مآربه وحركته وسعيه، ونحو ذلك، فكأنّا نحن أعنّا الموت على أنفسنا.

قوله: «نصب الحتوف» يروى: بالرفع والنصب، فمن رفع فهو خبر المبتدأ، ومن نصبه جعله ظرفاً.

- ١٨٧ -

الأصل: لا خَيْرَ فِي الصَّمْتِ عَنِ الْحُكْمِ، كَمَا أَنَّهُ لا خَيْرَ فِي الْقَوْلِ بِالْجَهْلِ.

الشرح: قد تكرَّر ذِكرُ هذا القول، وتكرّر منا شرحُه وشرحُ نظائِره. وكان يقال: ما الإنسان لولا اللسانُ إلّا بهيمةٌ مُهمَلة، أو صورةٌ ممثّلة. وكان يقال: اللّسان عضوٌ إنْ مرّنْتَه مَرَن، وإن تركتَه خَزِن.

- ١٨٨ -

الأصل: يَا بْنَ آدَمَ، مَا كَسَبْتَ فَوْقَ قُوَّتِكَ، فَأَنْتَ فِيهِ خَازِنٌ لِغَيْرِكَ.

الشرح: أخَذ هذا المعنى بعضُهم، فقال

مـا لـي أراكَ الـدّهـر تَـجـمـعُ دائـبـاً ... أَلِبَـعْـلِ عِـرْسِـك لا أبـا لـك تَـجـمَـعُ!

وعاد الحسنُ البَصريُّ عبدَ اللّه بن الأهتم في مرضه الّذي مات فيه، فأقبل عبدُ اللّه يَصرِف بصرَه إلى صُندوق في جانب البيت، ثم قال للحسن: يا أبا سعيد، فيه مائةُ ألفٍ لم يؤدَّ منها زكاة، ولم تُوصَل بها رَحِم، قال الحَسَن: ثَكِلَتْك أمُّك! فلِمَ أعددْتَها؟ قال: لرَوْعة الزّمان، ومُكاثرة الإخوان، وجفوة السلطان.

ثم مات، فحضر الحسن جنازتَه، فلمّا دُفن صَفَق بإحدى راحتَيْه الأُخرى، وقال: إنّ هذا

تاهَ شَيْطانه، فحذّرَه رَوْعة زمانه، وجفوَة سلطانه، ومكاثَرة إخوانه، فيما أستودَعَه اللهُ إيّاه فادّخره، ثمّ خرج منه كئيباً حزيناً، لم يؤدِّ زكاةً، ولم يَصِل رَحِماً. ثمّ التفت فقال: أيّها الوارث، كلْ هنيئاً، فقد أتاك هذا المالُ حلالاً، فلا يكن عليك وَبالاً، أتاك ممّن كان له جَموعاً مَنوعاً، يَركَب فيه لُجَجَ البحار، ومَفاوِزَ القِفار، مِن باطلِ جَمعه، ومن حَقِّ مَنْعه، لم ينتفِع به في حياته، وضَرَّه بعد وفاته، جمعَه فأوْعاه، وشدَّه فأوْكاه إلى يوم القيامة، يوم ذِي حَسَرات، وإنَّ أعظَمَ الحَسَرات أن تَرَى مالَك في ميزانِ غيرك، بخلتَ بمالٍ أُوتيتَه من رِزقِ الله أنْ تُنفِقه في طاعة الله، فخزنْتَه لغيرك، فأنفقَه في مرضاة ربِّه، يا لها حَسْرةً لا تُقال، ورحمةً لا تُنال! إنّا لله وإنّا إليه راجعون!.

– ١٨٩ –

الأصل: إنَّ لِلقُلُوبِ شَهْوَةً وَإقْبَالاً، وَإدْبَاراً، فَأْتُوهَا مِنْ قِبَلِ شَهْوَتِهَا وَإقْبَالِهَا، فَإنَّ ٱلْقَلْبَ إذَا أُكْرِهَ عَمِيَ.

الشرح: قد تقدّم القوْل في هذا المعنى.

والعِلّة في كون القلب يَعمَى إذا أُكْرِه على ما لا يحبّه، أنّ القلبَ عُضو من الأعضاء، يَتعَب ويستريح كما تتعب الجُثّة عند استعمالها وأحمالِها، وتستريح عند تَرْك العَمَل، كما يتعب اللّسان عند الكلام الطويل، ويستريحُ عند الإمساك، وإذا تَواصَل. إكراه القلبِ على أمرٍ لا يحبّه ولا يؤثِرُه تَعِب، لأنّ فِعلَ غيرَ المحبوب مُتعِب، ألا ترى أنّ جِماعَ غيرِ المَحْبوب يُحدِث من الضّعف أضعافَ ما يُحدِثه جِماعُ المَحْبوب، والرّكوب إلى مكان غيرِ محبوبٍ مُتعِب ولا يُشتَهى يُتعِب البَدَن أضعافَ ما يُتعِبه الركوب إلى تلك المسافة إذا كان المكان محبوباً، وإذا أُتعِب القلب وأعْيا، عَجَزَ عن إدراك ما نكلفه إدراكه، لأنّ فعلَه هو الإدراك، وكلّ عضو يَتعَب فإنه يَعجَز عن فعلِه الخاصِّ به، فإذا عجز القلبُ عن فِعلِهِ الخاصّ به وهو العِلم والإدراك، فذاك هو عماه.

– ١٩٠ –

الأصل: وكان عليه السلام يقول: مَتَى أَشْفِي غَيْظِي إذَا غَضِبْتُ! أَحِينَ أَعْجَزُ عَنِ الانْتِقَامِ فَيُقَالُ لِي: لَوْ صَبَرْتَ! أَمْ حِينَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لِي: لَوْ عَفَوْتَ!

الشرح: قد تقدّم القولُ في الغَضَب مراراً.

وهذا الفصل فصيحٌ لطيفُ المَعْنى، قال: لا سبيل لي إلى شفاءِ غَيْظي عند غضبي، لأنّي إمّا أن أكون قادراً على الانتقام فيصدّني عن تعجيلهِ قولُ القائل: لو غَفرتَ لكان أولى! وإمّا ألّا أكون قادراً على الانتقام فيصدّني عنه كوني غيرَ قادرٍ عليه، فإذَنْ لا سبيلَ لي إلى الانتقام عند الغضب.

وكان يقال: العقل كالمِرآة المجلوّة يُصْدِئه الغَضَب، كما تَصْدَأ المرآة بالخَلّ، فلا يَثْبتُ فيها صورةُ القُبْح والحُسْن.

واجتمع سُفيان الثَّوْريُّ وفُضَيل بن عِياض فتذاكرَا الزّهدَ، فأجمَعا على أنّ أفضل الأعمالِ الحِلمُ عند الغضب، والصبرُ عند الطّمَع.

\- ١٩١ -

الأصل: وقال عليه السلام وقدْ مَرَّ بِقَذَرٍ على مَزْبلةٍ: هَذَا ما بَخلَ بِهِ الْباخلونَ. وفِي خَبَرٍ آخَرَ أَنَّهُ قال: هَذَا مَا كُنْتُم تَتنافَسُونَ فيه بالأَمْس!

الشرح: قد سبق القولُ في مثل هذا، وأن الحَسن البَصريّ مرّ على مَزْبلَة، فقال: انظروا إلى بَطِّهم ودَجاجهم وحَلْوائهم وعَسَلهم وسمْنهم، والحَسن إنما أخذه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وقال ابن وَكيع في قول المتنبّي:

لو أفكَر العاشقُ في مُنتهى ... حُسنِ الذي يَسبيه لم يَسبِهِ

إنه أراد: لو أفكَر في حاله وهو في القبر، وقد تغيّرتْ محاسنُه، وسالت عَيْناه، قال: وهذا مثلُ قولهم: لو أفكرَ الإنسان فيما يؤول إليه الطعام فعافَتْه نفسُه.

وقد ضَرَب العلماءُ مَثلاً للدنيا ومخالفة آخرِها أولها، ومضادّة مَباديها عَواقبها، فقالوا: إنّ شهوات الدنيا في القَلب لذيذةٌ كشَهَوات الأطْعِمة في المعدة، وسَيجِد الإنسان عند الموتِ لشهوات الدنيا في قلبه من الكَراهة والنَّتْن والقبْح ما يَجده للأطعمة اللّذيذة إذا طبختها المَعِدة وبلغتْ غاية نُضْجها، وكما أن الطعام كلّما كان ألذَّ طَعْماً وأظهر حلاوة، كان رجيعه أقذر وأشدَّ نَتْناً، فكذلك كلُّ شهوة في القلْب أشهى وألذّ وأقوى، فإنّ نتنَها وكراهتها والتأذّي بها عند الموت أشدّ، بل هذه الحال في الدّنيا مُشاهدة، فإن من نُهبتْ دارُه، وأخذ أهلُه وولدهُ ومالُه، تكون مصيبتهُ وألمه وتفجُّعه في الذي فَقَدَ بمقدار لذّته به، وحبّه له، وحرصه عليه، فكلُّ ما كان في الوجود أشهى وألذّ، فهو عند الفَقْد أدهى وأمرّ، ولا معنى للموت إلّا فقد ما في الدنيا.

وقد رُوي أنّ النبيّ ﷺ قال للضحّاك بن سُفْيان الكلابيّ: «ألست تُؤتَى بطعامك وقد قُزّح وملح، ثم تشرَب عليه اللّبنَ والماء»! قال: بلى، قال: «فإلى ماذا يصير»؟ قال: إلى ما قد علمتَ يا رسولَ الله، قال: فإنَّ الله عزَّ وجلّ ضَرَب مَثل الدّنيا بما يصير إليه طعام ابن آدمَ[1].

وَرَوَى أبيّ بن كعب أنّ رسول الله ﷺ قال: «إن أنت ضَربتَ مَثلاً لابن آدم فانظر ما يَخرُج من ابن آدم، وإن كان قَزّحه وملحُه إلى ماذا صار»[2].

وقال الحَسن رحمه الله: قد رأيتُهم يطيّبونه بالطّيب والأفاويه ثمّ يرمونه حيث رأيتم، قال الله عز وجل: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾[3]، قال ابن عباس: إلى رَجيعِه.

وقال رجل لابن عمر: إنّي أريد أن أسألك وأستحيي، فقال: لا تَسْتَحْيِ وسَلْ، قال: إذا قَضَى أحدُنا حاجتَه فقام، هل ينظر إلى ذلك منه؟ فقال: نعم، إن المَلَكَ يقولُ له: انْظُر هذا ما بَخلتَ به، انظُر إلى ماذا صار!.

- ١٩٢ -

الأصل: لَمْ يَذْهَبْ منْ مالكَ ما وَعظَكَ.

الشرح: مثل هذا قولهم: إن المصائبَ أثمانُ التَّجارب.

وقيل لعالم فقير بعد أن كان غنيًّا: أين مالك؟ قال: تَجَرتُ فيه فابتعتُ به تجربةَ الناس والوقت، فاستفدْتُ أشرَفَ العِوَضين.

- ١٩٣ -

الأصل: إنَّ هَذِه الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الأبْدَانُ، فابْتَغُوا لها طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ.

---

(١) أخرج نحوه أحمد، كتاب: مسند المكيين، باب: حديث الضحاك (١٥٣٢٠)، والطبراني في «الكبير» (٨١٣٨)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٤٧٢).

(٢) أخرج نحو أحمد، كتاب: مسند الأنصار، باب: حديث عتي بن ضمرة السعدي (٢٠٧٣٣)، وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٤٩٤)، ونحوه ابن حبان (٧٠٢)، والطبراني (٥٣١).

(٣) سورة عبس، الآية: ٢٤.

الشرح: هذا قد تكرّر، وتكرّر منّا ذِكرُ ما قيل في إجمام النّفس والتنفيس عنها من كَرْب الجِدّ والإحماض وفسرنا معنى قولِهِ عليه السلام: «فابتغُوا لها طرائف الحكمة» وقلنا: المراد ألّا يَجْعَلَ الإنسانُ وقته كلّه مصروفاً إلى الأنظار العقليّة في البراهين الكلاميّة والحِكَميّة، بل ينقلها من ذلك أحياناً إلى النظر في الحِكمة الخُلُقيّة فإنها حِكمة لا تحتاج إلى إتعاب النفس والخاطر.

فأمّا القول في الدُّعابة فقد ذكرْناه أيضاً فيما تقدّم، وأوضحْنا أنّ كثيراً من أعيان الحُكماء والعلماء كانوا ذوي دُعابة مقتصدة لا مسرِفة، فإن الإسراف فيها يُخرِج صاحبَه إلى الخلاعة، ولقد أحسنَ من قال:

أفِدْ طبعَكَ المكدودَ بالجدّ راحةً | تجمّ وعَلِّلْه بشيءٍ من المَزْحِ
ولكنْ إذا أعطيْتَه ذاكَ فليَكُنْ | بمقدارِ ما يُعْطى الطعامُ من المِلْحِ

- ١٩٤ -

الأصل: وقال عليه السلام لَمَّا سَمِعَ قَوْلَ الخَوَارِجِ: لا حُكْمَ إلاَّ لله، كلِمَةُ حَقٍّ يُرادُ بها بَاطِل.

الشرح: معنى قوله سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، أي إذا أراد شيئاً من أفعالِ نفسه فلا بدّ من وقوعه، بخلاف غيره من القادرين بالقدرة فإنه لا يجب حصولُ مرادهم إذا أرادوه، ألا ترى ما قَبْل هذه الكلمة: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ خاف عليهم من الإصابة بالعين إذا دخلوا من بابٍ واحد، فأمرهم أن يدخلوا من أبوابٍ متفرقة، ثم قال لهم: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾[1]، أي إذا أراد الله بكم سوءاً لم يَدفع عنكم ذلك السُّوءَ ما أشرتُ به عليكم من التفرّق، ثم قال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ليس حيٌّ من الأحياء يَنْفُذُ حكمه لا محالة ومرادُه لما هو من أفعاله إلّا الحيّ القديم وحدَه، فهذا هو معنى هذه الكلمة، وضلّت الخوارج عندها فأنكروا علي أمير المؤمنين عليه السلام موافَقَته على التحكيم، وقالوا: كيف يحكم وقد قال الله سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، فغلَطوا لموضع اللّفظ المشترك، وليس هذا الحُكْم هو ذلك الحكْم، فإذَنْ هي كلمةُ حقٍّ يرادُ بها باطل، لأنّها حقٌّ على المفهوم الأوّل، ويريد بها الخوارجُ نَفي كلّ ما يسمّى حكماً إذا صَدر عن غير الله تعالىٰ، وذلك باطل، لأنّ الله تعالى قد أَمضَى حُكم المخلوقين في كثيرٍ من الشرائع.

(١) سورة يوسف، الآية: ٦٧.

- ١٩٥ -

الأصل: وقال عليه السلام في صِفة الغَوْغاءِ: هُمُ الَّذِينَ إذَا اجْتَمَعُوا غَلَبُوا، وإذَا تَفَرَّقُوا لَمْ يُعْرَفُوا.

وقيل: بَلْ قال عليه السلام: هُمُ الَّذِينَ إذَا اجْتَمَعُوا ضَرُّوا، وإذا تَفَرَّقُوا نَفَعوا، فَقِيلَ: قَدْ عَلِمْنا مَضَرَّةَ اجْتِماعِهِمْ، فما مَنْفَعةُ افْتِرَاقِهِم؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ: يَرْجِعُ أهلُ الْمِهَنِ إلَى مِهنِهِمْ، فَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِهِمْ، كَرُجُوعِ البَنَّاءِ إلَى بِنائِهِ، والنَّسَّاجِ إلَى مَنْسَجِهِ، والخَبَّازِ إلَى مَخْبَزِه.

الشرح: كان الحسن إذا ذَكَر الغَوْغاء وأهل السّوق قال: قتلة الأنبياء، وكان يقال: العامّة كالبحر إذا هاج أهْلَكَ راكبه. وقال بعضهم: لا تسبُّوا الغَوْغاء فإنهم يُطْفِئون الحريق، ويُنْقِذون الغريق، ويسُدّون البُثوق.

وقال شيخنا أبو عثمان: الغاغَة والباغة والحاكَة كأنّهم أعذارُ عام واحد، ألا ترى أنّك لا تجد أبداً في كلّ بلدةٍ وفي كل عصر هؤلاء بمقدارٍ واحد وجهةٍ واحدة من السُّخف والنَّقْص والخمول والغباوة، وكان المأمون يقول: كلّ شرّ وظُلْم في العالم فهو صادرٌ عن العامّة والغوْغاء، لأنهم قتلةَ الأنبياء والمُغْرُون بين العلماء، والنَّمّامُون بين الأوِدّاء، ومنهم اللّصوص، وقُطّاع الطّريق، والطّرّارون، والمحتالُون والساعون إلى السلطان، فإذا كان يوم القيامة حُشِروا على عادتهم في السّعاية فقالوا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ۝ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝﴾[1].

- ١٩٦ -

الأصل: وقال عليه السلام وقد أتي بجانٍ ومعه غوغاء فقال: لا مَرْحَباً بِوُجُوهٍ لا تُرَى إلّا عِنْدَ كُلّ سَوْءَةٍ.

الشرح: أخذ هذا اللّفظ المستعينُ بالله وقد أُدْخِل عليه ابنُ أبي الشّوارب القاضي ومعه الشّهود ليَشهَدوا عليه أنّه قد خَلَع نفسه من الخلافة وبايَع للمعتزّ بالله، فقال: لا مرحباً بهذه الوجوه الّتي لا تُرى إلّا يوم سوء.

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٦٧، ٦٨.

وقال من مدح الغوغاء والعامّة: إنّ في الحديث المرفوع: إنّ الله يَنصرُ هذا الدِّين بقوم لا
وكان الأحنفُ يقول: أكرِموا سُفهاءكم فإنّهم يكفُونكم النارَ والعَار.

وقال الشاعر:

وإنّي لأستبقي امرأ السّوء عُدّةً ... لعَدوةِ عرّيض من الناسِ جائبِ
أخافُ كلابَ الأبعَدِين وهَرْشَها ... إذا لم تُجاوِبْها كِلابُ الأقاربِ

- ١٩٧ -

الأصل: إنَّ مَعَ كُلِّ إنْسَانٍ مَلَكَيْنِ يَحْفَظَانِه، فَإِذَا جَاءَ الْقَدَرُ خَلَّيَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَإِنَّ الأَجَلَ جُنَّةٌ حَصِينَةٌ.

الشرح: قد تقدّم هذا، وقلنا: إنّه ذهب كثيرٌ من الحكماء هذا المَذهَب، وإنّ لله تعالى ملائكةً مُوَكَّلَةً تحفظُ البَشرَ من التردّي في بئرٍ، ومِن إصابةِ سَهْم معترض في طريق، ومن رَفْس دابّة، ومن نَهش حيّة، أو لَسْع عَقرب، ونحو ذلك. والشرائع أيضاً قد وردتْ بمثله وإنّ الأجل جُنّة، أي دِرْع، ولهذا في علم الكلام مخرَج صحيحٌ، وذلك لأن أصحَابنا يقولون: إنّ الله تعالى: إذا عَلِمَ أنّ في بقاء زيدٍ إلى وقت كذا لُطْفاً له أو لغيرِهِ من المكلّفين صدَّ من يهمّ بقَتْله عن قتلِه بألطافٍ يفعَلها تصدُّه عنه أو تَصرِفه عنه بصارف، أو يَمنَعه عنه بمانع، كي لا يَقطَع ذلك الإنسانُ بقَتْل زيدٍ الألطافَ الّتي يَعلَم اللهُ أنّها مقرِّبة من الطاعة، ومُبعِدة من المعصِية لزيد أو لغيره، فقد بان أنّ الأجل على هذا التقدير جُنّة حَصِينة لزيْد، من حيثُ كان الله تعالى باعتبار ذلك الأجل مانعاً من قتله وإبطال حياتِهِ، ولا جُنّة أحصَنُ من ذلك.

- ١٩٨ -

الأصل: وقال عليه السلام: وَقَدْ قالَ لَهُ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ: نُبَايِعُكَ عَلَى أَنّا شُرَكَاؤُكَ فِي هَذَا الأَمْر، فقالَ: لا: وَلَكِنَّكُما شَرِيكَانِ فِي الْقُوَّةِ وَالاسْتِعَانَةِ، وَعَوْنانِ على الْعَجْزِ وَالأَوَدِ.

الشَّرْحُ: قد ذكَرْنا هذا فيما تقدّم حيث شرحْنا بيعة المسلمين لعليّ عليه السلام كيف وقعتْ بعدَ

مَقتل عثمانَ، ولقد أحسنَ فيما قال لهما لمّا سألاه أن يُشرِكَاه في الأمْر، فقال: أمّا المُشارَكة في الخلافة فكيف يكون ذلك؟ وهل يصحُّ أن يدبّر أمرَ الرعيّة إمامان!

وهل يُجْمَع السَّيفَان ويحك في غِمْدِ

وإنما تُشرِكاني في القوّة والاستعانة أي إذا قويَ أمري وأمرُ الإسلام بي قوِيتما أنتما أيضاً، وإذا عجزتُ عن أمر، أو تأوّد عليَّ أمر - أي أعوَجَّ - كنتما عَوْنين لي ومساعِدَيْن على إصلاحِهِ.

فإن قلت: فما معنى قوله: «والاستعانة»؟

قلتُ: الاستعانة هاهنا الفوزُ والظّفَرُ، كانوا يقولون للقامِر يفوز قِدْحه: قد جَرَى ابنا عِنان. وهما خَطّان يُخطّان في الأرض يُزجر بهما الطير، واستعانَ الإنسانُ، إذا قال وقتَ الظّفَر والغَلَبة هذه الكلمة.

- ١٩٩ -

الأصل: أيُّها النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِنْ قُلْتُمْ سَمِعَ، وَإِنْ أَضْمَرْتُمْ عَلِمَ، وَبَادِرُوا الْمَوْتَ الَّذِي إِنْ هَرَبْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ، وَإِنْ أَقَمْتُمْ أَخَذَكُمْ، وَإِنْ نَسِيتُمُوهُ ذَكَرَكُمْ.

الشرح: قد تقدّم منّا كلامٌ كثير في ذكر الموت، ورأى الحَسَنُ البَصريُّ رجلاً يجود بنفْسه، فقال: إنّ أمْراً هذا آخرُه، لجدير أن يُزهَد في أوّله، وإن أمراً هذا أوّله لجدِيرٌ أن يُخَاف مِن آخره.

ومن كلامِه: فَضَح الموْت الدّنيا.

وقال خالد بنُ صَفْوان: لو قال قائل: الحَسَنُ أفصَحُ الناس لهذه الكلمة لما كان مخطئاً. وقال لرجل في جنازةٍ: أترى هذا الميّت لو عادَ إلى الدّنيا لكان يَعمَل عملاً صالحاً؟ قال: نعم، قال: فإن لم يكن ذلك فكن أنت ذاك.

- ٢٠٠ -

الأصل: لا يُزَهِّدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَنْ لا يَشْكُرُهُ لَكَ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لا يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَقَدْ يُدْرَكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ الْكافِرُ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

الشرح: قد أخذتُ أنا هذا المعنى فقلتُ من جملةِ قصيدةٍ لي حِكْميّة:

لا تُسدِيَنّ إلى ذي اللّؤم مَكرُمةً ... فإنّه سَبَخٌ لا يُنبت الشجَرا
فإنْ زرعتَ فمحفوظٌ بمَضيَعةٍ ... وأكْلُ زَرْعِك شكرُ الغَيْرِ إن كفَرا

وقد سبق منّا كلامٌ طويلٌ في الشكر.

ورأى العبّاس بنُ المأمون يوماً بحضرة المعتصِم خاتماً في يد إبراهيم بن المهديّ، فاستحسَنه، فقال له: ما فَصُّ هذا الخاتم، ومن أين حصّلته؟ فقال إبراهيم: هذا خَاتمٌ رهنتُه في دولةِ أبيك، وافتككْتُه في دولةِ أمير المؤمنين، فقال العبّاس: فإن لم تشكر أبي على حَقْنِه دَمَك، فأنت لا تَشْكُر أميرَ المؤمنين على فَكّه خاتمَك.

وقال الشاعر:

لَعَمْرُكَ ما المعروفُ في غيرِ أهلِه ... وفي أهلِه إلّا كبعض الوَدائِع
فمستودَعٌ ضاع الّذي كان عندَه ... ومستودِعٌ ما عندَه غيرُ ضائعِ
وما النّاس في شكرِ الصّنيعة عندهمْ ... وفي كفرها إلّا كبَعض المزارِع
فمزرَعةٌ طابتْ وأضعفَ نَبْتُها ... ومَزْرَعةٌ أكدَت على كلّ زارعِ

– ٢٠١ –

الأصل: كُلُّ وِعَاءٍ يَضِيقُ بِمَا جُعِلَ فِيهِ، إلّا وِعَاءُ الْعِلْمِ فَإنَّهُ يَتَّسِع بِهِ.

الشرح: هذا الكلام تَحته سرٌّ عظيم، ورَمْزٌ إلى معنى شريف غامض، ومنه أخذ مُثبِتو النفس الناطِقة الحجّة على قولهم، ومحصولُ ذلك أن القُوَى الجُسمانيّة يُكِلُّها ويُتعِبُها تكرارُ أفاعيلِها عليها، كقوّة البصر يُتْعِبها تكرار إدراك المَرْئِيّات، حتّى ربّما أذهبَها وأبطَلَها أصلاً، وكذلك قوّة السمع يُتعِبها تكرار الأصوات عليها، وكذلك غيرها من القُوَى الجُسْمانيّة، ولكنّا وجدْنا القوّة العاقلة بالعكس من ذلك، فإنّ الإنسان كلّما تكرّرتْ عليه المعقولات ازدادتْ قوّته العقليّة سَعةً وانبساطاً واستعداداً لإدراكِ أمور أخرى غير ما أدركتْه من قبلُ، حتّى كانَ تكرارُ المَعْقولات عليها يَشْحذها ويَصْقُلها، فهي إذَنْ مخالِفة في هذا الحكم للقُوى الجُسمانية، فلَيْست منها، لأنّها لو كانت منها لكان حُكْمها حكمَ واحدٍ من أخواتها، وإذا لم تكن جُسْمانيّة فهي مجرَّدة، وهي التي نسميها بالنفس الناطقة.

- ٢٠٢ -

الأصل: اوّلُ عِوَضِ الحَليمِ مِنْ حِلْمِهِ، أنَّ النَّاسَ أَنصَارُهُ على الْجَاهِلِ.

الشرح: قد تقدّم من أقوالنا في الحلْم ما في بعضِه كفاية.

وفي الحِكَم القديمة: لا تَشِنْ حُسْنَ الظَّفَر بقُبْح الانتقام.

وكان يقال: اعفُ عمّن أبطأ عن الذّنب، وأسرع إلى النّدم.

وكان يقال: شاور الأناة والتثبُّت، وذاكِر الحفيظةَ عند هَيجانها ما في عواقب العُقُوبة من النّدم، وخاصِمْها بما يؤدّي إليه الحِلْم من الاغتباط.

وكان يقال: ينبغي للحازم أن يقدِّم على عذابه وصفحِه تعريف المُذنِب بما جناه، وإلّا نُسِب حلمُه إلى الغَفْلة وكلال حدِّ الفِطْنة. وقالت الأنصار للنّبيّ ﷺ يومَ فتحِ مكّة: إنّهم فعلوا بك ثمّ فعلوا، يُغْرُونه بقريش، فقال: «إنما سُمِّيت محمداً لأحْمَد».

- ٢٠٣ -

الأصل: إنْ لَمْ تَكُنْ حَليماً فَتَحَلَّمْ، فَإنَّهُ قَلَّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ إِلَّا أَوْشَكَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ.

الشرح: التحلُّم: تكلُّف الحِلْم، والّذي قاله عليه السلام صحيح في مَناهِج الحكمة، وذلك لأنّ من تشبَّه بقومٍ وتكلف التخلّق بأخلاقِهم، والتأدّبَ بآدابهم، واستمرّ على ذلك ومَرَن عليه الزمان الطويل، اكتَسَبَ رياضةً قويّة، ومَلَكة تامّة، وصار ذلك التكلّف كالطَّبْع له، وانتقل عن الخُلُق الأوّل، ألا تَرَى أنّ الأعرابيّ الجِلْف الجافي إذا دَخَل المُدُن والقُرَى وخَالطَ أهلَها وطال مُكْثُه فيهم انتقل عن خُلُق الأعراب الّذي نشأ عليه، وتلطَّف طَبْعُه، وصار شبيهاً بساكِني المُدُن، وكالأجنبيّ عن ساكني الوَبَر، وهذا قد وجدناه في حيواناتٍ أخرى غيرِ البشر كالبازِي والصّقر والفَهْد التي تُرَاضُ حتّى تَذِلّ وتأنس وتَترُك طبعَها القديم، بل قد شاهَدْناه في الأسَد، وهو أبعَدُ الحيوان من الإنْس.

وذَكَر ابن الصابي أنّ عَضُد الدُّولة بن بُوَيه كانت له أُسُود يصطاد بها كالفُهود فتُمسِكه عليه حتّى يُدرِكه فيذكّيه، وهذا من العجائب الطريفة.

- ٢٠٤ -

الأصل: مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ رَبِحَ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْهَا خَسِرَ، وَمَنْ خَافَ أَمِنَ، وَمَنِ اعْتَبَرَ أَبْصَرَ، وَمَنْ أَبْصَرَ فَهِمَ، وَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ.

الشرح: قد جاء في الحديث المرفوع: «حاسبوا أنفسَكم قبلَ أن تحاسَبوا»[1].

قوله: «ومن خاف أمن» أي مَن اتّقى الله أَمِنَ مِنْ عذابه يوم القيامة.

ثم قال: «ومن اعتبر أبصر» أي من قاس الأمور بعضها ببعض، واتّعظ بآيات الله وأيامه أضاءت بصيرته، ومن أضاءت بصيرته فهم، ومن فهم علم.

فإن قلتَ: الفهم هو العلم، فأيّ حاجةٍ له إلى أن يقول: «ومن فهم علم»؟

قلت: الفهم هاهنا هو معرفة المقدّمات، ولا بد أن يستعقب معرفة المقدمات معرفة النتيجة، فمعرفة النتيجة هو العلم، فكأنّه قال: من اعتبر تنوّر قلبه بنور الله تعالى ومَنْ تنوّر قلبه عَقَل المقدّمات البرهانية، ومن عَقل المقدمات البرهانية علم النتيجة الواجبة عنها، وتلك هي الثمرة الشريفة التي في مثلها يتنافس المتنافسون.

- ٢٠٥ -

الأصل: لَتَعْطِفَنَّ الدُّنْيَا عَلَيْنا بَعْدَ شِمَاسِهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ عَلَى وَلَدِهَا. وَتَلا عقِيبَ ذَلِكَ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[2].

الشرح: الشّماس: مصدر شَمس الفرسُ إذا منع من ظهره.

والضّروس: الناقة السّيئة الخلقُ تعضُّ حالبَها، والإماميّة تزعم أن ذلك وعدٌ منه بالإمام الغائب الذي يملك الأرض في آخر الزمان. وأصحابنا يقولون: إنه وعدٌ بإمام يملك الأرض

---

(١) رُوي موقوفاً على عمر بن الخطاب في «المصنف» لابن أبي شيبة (٧/ ٩٦)، و«الزهد» لابن المبارك (٣٠٦).

(٢) سورة القصص، الآية: ٥.

ويستولي على الممالك، ولا يلزم من ذلك أنه لا بُدَّ أن يكون موجوداً، وإن كان غائباً إلى أن يظهر، بل يكفي في صحّة هذا الكلام أن يُخلق في آخر الوقت.

وبعض أصحابنا يقول: إنّه إشارة إلى مُلْك السفّاح والمنصور وابني المنصور بعده. فإنهم الذين أزالوا ملكَ بني أميّة، وهم بنو هاشم، وبطريقهم عطفت الدنيا على بني عبد المطّلب عطف الضّروس.

وتقول الزيديّة: إنه لا بدّ من أن يملك الأرض فاطميٌّ يتلوه جماعة من الفاطميِّين على مذهب زيد، وإن لم يكن أحد منهم الآن موجوداً.

– ٢٠٦ –

الأصل: اتَّقُوا الله تُقَاةَ مَنْ شَمَّرَ تَجْرِيداً، وَجَدَّ تَشْمِيراً، وَأَكْمَشَ فِي مَهَلٍ، وَبَادَرَ عَنْ وَجَلٍ، وَنَظَرَ فِي كَرَّةِ المَوْئِلِ، وَعَاقِبَةِ المَصْدَرِ، وَمَغَبَّةِ المَرْجِعِ.

الشرح: لو قال: «وجرّد تشميراً»، لكان قد أتى بنوع مشهور من أنواع البديع، لكنه لم يحفِل بذلك، وجرى على مقتضى طبعه من البلاغة الخالية من التكلّف والتصنّع، على أن ذلك قد روي، والمشهور الرواية الأولى.

وأكمش: جدّ وأسرع، ورجل كميش، أي جادّ.

وفي مَهَل: أي في مهلة العمل قبل أن يضيق عليه وقتُه بدنوّ الأجَل.

– ٢٠٧ –

الأصل: الجُودُ حَارِسُ الأَعْرَاضِ، وَالْحِلْمُ فِدَامُ السَّفِيهِ، وَالْعَفْوُ زَكَاةُ الظَّفَرِ، وَالسُّلُوُّ عِوَضُكَ مِمَّنْ غَدَرَ، وَالاسْتِشَارَةُ عَيْنُ الهِدَايَةِ.

وَقَدْ خَاطَرَ مَنِ اسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ، وَالصَّبْرُ يُنَاضِلُ الحِدْثَانَ، وَالْجَزَعُ مِنْ أَعْوَانِ الزَّمَانِ، وَأَشْرَفُ الْغِنَى، تَرْكُ المُنَى.

وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ عِنْدَ هَوَى أَمِيرٍ! وَمِنَ التَّوْفِيقِ حِفْظُ التَّجْرِبَةِ، وَالمَوَدَّةُ قَرَابَةٌ مُسْتَفَادَةٌ، وَلا تَأْمَنَنَّ مَلُولاً.

الشرح: مثل قوله: «الجود حارس الأعراض» قولهم: كلّ عيب فالكَرَم يغطّيه.

والفِدَام: خِرْقة تجعل على فَمِ الإبريق، فشبّه الحلم بها، فإنّه يردّ السفيهَ عن السَّفَه كما يردّ الفدامُ الخمرَ عن خروج القَذَى منها إلى الكأس.

فأمّا «والعَفْو زَكاة الظَّفَر» فقد تقدّم أنّ لكلّ شيء زَكاة، وزكاة الجاه رِفْدُ الْمُسْتَعِين، وزكاة الظَّفَر العَفْو.

وأمّا «السُّلُوّ عوضك ممّن غدر» فمَعْناه أنّ من غدرَ بك من أحبّائك وأصدقائك فاْسلُ عنه وتناسَه، واذكرْ ما عَامَلَك به من الغَدْر، فإنّك تسلو عنه ويكون ما اْستفدتَه من السلوّ عوضاً عن وِصالِه الأوّل، قال الشاعر:

أعتقَني سوءُ ما صنعتَ من الرّقّ ... فيا بَرْدَهَا على كَبِدي

فصرتُ عبداً للسّوءِ فيك وما ... أحسنَ سوءٌ قَبْلِي إلى أحدِ

وقد سبقَ القولُ في الاستشارة، وأنّ المستغنَى برأيه مخاطِر، وكذلك القولُ في الصّبر.

والمناضَلة: المراماة.

وكذلك القولُ في الجزع، وأنّ الإنسان إذا جَزِع عند المصيبة فقد أعان الزمانَ على نفسِه، وأضاف إلى نفسِه مصيبةً أخرى.

وسبق أيضاً القولُ في المُنى، وأنّها من بضائِع النَّوْكَى.

وكذلك القولُ في الهوى، وأنه يَغلب الرأي ويأسِره.

وكذلك القولُ في التّجربة، وقولُهم: من حارب المجرَّب حلّت به النّدامة، وإنّ من أضاع التجربة فقد أضاع عقلَه ورأيَه.

وقد سبق القولُ في المودّة، وذكرنا قولَهم: الصّديقُ نسيبُ الرُّوح، والأخُ نسيبُ الجسم، وسبق القولُ في المَلال.

وقال العبّاس بن الأحنف:

لو كنتِ عاتبةً لسكَّن عبْرَتي ... أمَلِي رضاكِ وزرتُ غيرَ مُراقَبِ

لكنْ مللتِ فلم يكن لي حيلةٌ ... صَدُّ المَلُولِ خلاف صَدِّ العاتبِ

— ٢٠٨ —

الأصل: عُجْبُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَّادِ عقْلِهِ.

الشرح: قد تقدّم القول في العُجب، ومعنى هذه الكلمة أنّ الحاسد لا يزال مجتهداً في إظهار معايب المحسود وإخفاءِ محاسنه، فلمّا كان عُجْب الإنسان بنفسه كاشفاً عن نقص عقله كان كالحاسد الذي دأبُه إظهارُ عيب المحسود ونقصه.

وكان يقال: مَنْ رضيَ عن نفسه كثر الساخط عليه.

وقال مطرِّف بن الشِّخِير: لَأن أبيت نائماً، وأصبح نادماً، أحبُّ إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح نادِماً.

– ٢٠٩ –

الأصل: أَغْضِ عَلَى القَذَى وَالألَمِ تَرْضَ أَبَداً.

الشرح: نظير هذا قول الشاعر:

وَمَنْ لَمْ يُغَمِّضْ عَيْنَهُ عن صديقِهِ ... وَعَنْ بَعْضِ ما فيه يمتْ وهو عاتبُ
ومَن يتتبَّعْ جاهداً كلّ عثرة ... يجدها ولا يسلمْ له الدهرَ صاحب

وقال الشاعر:

إذا أنتَ لم تشرَبْ مراراً على القَذَى ... ظَمِئْتَ، وأيّ النَّاس تصفُو مشاربُهْ!

وكان يقال: أغْضِ عن الدّهر وإلّا صرعك.

وكان يقال: لا تحارب الأيام وإن جنحتْ دون مطلوبك منها، واصحبها بسلاسة القياد، فإنّك إن تَصحبها بذلك تعطِك بعد المنع، وتلِن لك بعد القساوة، وإن أبَيت عليها قادتْك إلى مكروهِ صُروفِها.

– ٢١٠ –

الأصل: مَنْ لان عُودُهُ كَثُفَتْ أَغْصَانُهُ.

الشرح: تكادُ هذه الكلمة أن تكون إيماء إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾[1]، ومعنى هذه الكلمة أنّ مَنْ حَسُن خُلقه، ولانت كلمته، كثر محبُّوه وأعوانه واتباعه.

ونحوه قوله: «مَنْ لانتْ كلمته، وجبتَ محبّته»[2].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[3]، وأصل هذه الكلمة مطابِقٌ للقواعد الحكميّة، أعني الشجرة ذات الأغصان حقيقة، وذلك لأنّ النبات كالحيوان في القوى النفسانيّة، أعني الغاذيّة والمنمّية، وما يخدم الغاذيّة من القوَى الأربع، وهي الجاذبة، والماسكة، والدافعة، والهاضمة، فإذا كان اليَبس غالباً على شجَرة كانت أغصانُها أخفَّ، وكان عودها أدقَّ، وإذا كانت الرُّطوبة غالبةً كانت أغصانها أكثر، وعودها أغلَظ، وذلك لاقتضاء اليَبَس الذبول، واقتضاء الرطوبة الغِلظ والعبالة والضخامة، ألا تَرى أنّ الإنسان الّذي غلب اليَبَسُ على مزاجه، لا يزال مَهْلُوساً نحيفاً، والذي غلبت الرطوبة عليه لا يزال ضخماً عَبْلاً.

- ٢١١ -

الأصل: الخِلافُ يَهْدِمُ الرَّأيَ.

الشرح: هذا مثل قوله عليه السلام في موضع آخر: «لا رأي لمن لا يُطاع».

ويُروَى: لا إمرة لمن لا يطاع.

وفي أخبار قصير وجَذِيمة: «لو كان يطاع لقصيرٍ أمرا».

وكان يقال: اللّجاج يَشحَذ الزّجاج، ويثير العَجاج.

وقال دُريد بن الصِّمّة:

أمرتُهُمُ أمري بمنعرَجِ اللوَى ... فَلَمْ يَسْتَبينوا النُّصح إلّا ضُحَى الْغَدِ
فَلَمَّا عصوْني كنتُ منهمْ وقد أرَى ... غَوايتَهم وأنّني غيرُ مهتدِي

وكان يقال: أهدى رأيِ الرّجل ما نفذ حكمُه، فإذا خولف فسد.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٨.

(٢) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء: ٢/ ٢٨٥ رقم: ٢٦٤٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

ومن كلام أفلاطون: اللّجاج عسر انطباع المعقولات في النّفس، وذلك إمّا لفرْطِ حِدّةٍ تكون في الإنسان، وإما لغلظ طبعٍ فلا ينقاد للرأي.

- ٢١٢ -

الأصل: مَنْ نَالَ اسْتَطَالَ.

الشرح: يجوز أن يريد به: مَنْ أَثْرَى ونال من الدنيا حظًّا استطال على النّاس.

ويجوز أن يريد به: مَنْ جاد استطال بجوده.

يقال: نالني فلان بكذا أي جادَ به عليّ، ورجل نالٌ، أي جوادٌ ذو نائل، ومثله رجل طانٌ أي ذو طين، ورجل مالٌ أي ذو مال.

- ٢١٣ -

الأصل: في تَقَلُّبِ الأَحْوالِ، عِلْمُ جَوَاهِرِ الرِّجَالِ.

الشرح: معناه: لا تُعلَم أخلاق الإنسان إلّا بالتجربة، واختلاف الأحوال عليه. وقديماً قيل:

تَرى الفتيان كالنَّخْلِ، وما يدريك ما الدَّخْلُ.

وقال الشاعر:

لا تَحمَدنّ امرأً حتّى تجرّبَهُ ... ولا تذمّنّه إلّا بتجريبِ

وقالوا: التجربة محكّ، وقالوا: مثل الإنسان مثلُ البطّيخة، ظاهرها مونق، وقد يكون في باطنها العيب والدود، وقد يكون طعمها حامضاً وتفِهاً.

وقالوا للرجل المجرّب يمدحونه: قد آل وائل عليه.

وقال الشاعر يمدح:

ما زال يحلُبُ هذا الدَّهرَ أشطُرَهُ ... يكون متّبِعاً طوراً ومتّبَعا

حتى استمرّت على شَزْرٍ مَرِيرته ... مستحكَم الرأيِ لا قَحْماً ولا ضَرَعا

- ٢١٤ -

الأصل: حَسَدُ الصَّدِيقِ مِنْ سُقْمِ المَوَدَّةِ.

الشرح: إذا حسدك صديقُك على نعمة أُعطيتَها لم تكن صداقته صحيحة، فإنّ الصديق حقاً من يَجري مَجرَى نفسِك، والإنسان لم يحسدْ نفسه.

وقيل لحكيم: ما الصديق؟ فقال: إنسان هو أنت، إلّا أنه غيرُك.

وأخذ هذا المعنى أبو الطيّب فقال:

مَا الخِلُّ إلّا مَنْ أَوَدُّ بقَلْبِهِ ... وأَرَى بطَرفٍ لا يرى بسوائِه

ومن أدعية الحكماء: اللّهمّ اكفني بوائق الثقات، واحفظني من كيد الأصدقاء. وقال الشاعر:

احذر عَدُوَّكَ مَرّةً ... واحْذَرْ صديقك ألفَ مَرّهْ

فلربّما انقلب الصديـ ... ـقُ فكَانَ أعرَف بالمضرّهْ

وقال آخر:

احذر مودّة ماذقٍ ... شابَ المرارة بالحلاوهْ

يحصي الذّنوب عليك أيّـ ... ـامَ الصداقةِ للعداوهْ

وذكر خالد بن صفوان شبيبَ بن شيبة، فقال: ذاك رجل ليس له صديق في السرّ ولا عدوٌّ في العلانية.

وقال الشاعر:

إذا كان دَوّاماً أخوك مصارماً ... موجَّهةً في كلّ أوبٍ رَكائبُهْ

فخلِّ له ظهرَ الطريقِ ولا تكنْ ... مطيَّة رَحّالٍ كثيرٍ مذاهبُهْ

- ٢١٥ -

الأصل: أكْثَرُ مَصارع العُقُول تَحْتَ بُرُوقِ المطامِعِ.

الشرح: قد تقدّم منّا قولٌ في هذا المعنى.

ومنه قولُ الشاعر:

طَمِعتَ بلَيلَى أن تَريعَ وإنّما ... تُقطّع أعناقَ الرِّجالِ المطَامِعُ

وقال آخر:

إذا حدَّثتك النفسُ أنّك قادرٌ ... على ما حَوتْ أيدي الرجالِ فكذِّبِ

وإيّاك والأطماعَ إنّ وُعودَها ... رَقارِقُ آلٍ أو بَوَارِقُ خُلّبِ

– ٢١٦ –

الأصل: لَيسَ مِنَ الْعَدْلِ الْقضَاءُ عَلَى الثِّقَةِ بِالظَّنِّ.

الشرح: هذا مِثلُ قولِ أصحاب أصُول الفقه: لا يجوز نَسْخ القرآن والسنّة المتواتِرة بخبَر الواحد، لأن المَظْنون لا يَرفَع المَعلوم.

ولفظ الثِّقة هاهنا مرادِفٌ للفظ العِلم، فكأنه قال: لا يجوز أن يُزال ما عُلم بطريق قطعيةٍ لأمرٍ ظَنّي.

فإنْ قلت: أليس البراءة الأصليّة معلومة بالعقل، ومع ذلك تُرفَع بالأمارات الظّنّية كأخبار الآحاد؟

قلت: ليست البراءةُ الأصليّة معلومةً بالعقل مطلقاً، بل مشروطة بعدم ما يرفعها من طريق عِلميّ أو ظنّي، ألا ترى أنّ أكلَ الفاكهة وشربَ الماء معلوم بالعقل حسنه، ولكن لا مطلقاً، بل بشَرْط انتفاءِ ما يَقتضي قبحه، فإنا لو أخبَرَنا إنسانٌ أنّ هذه الفاكهةَ أو هذا الماءَ مسموم لقَبُح منّا الإقدامُ على تَناولهما، وإن كان قولُ ذلك المخبر الواحِد لا يفي العِلم القَطعِيّ.

– ٢١٧ –

الأصل: بِئْسَ الزَّادُ إِلَى المَعادِ، اَلْعُدْوَانُ عَلَى الْعِبادِ.

الشرح: قد تقدَّم من قَولِنا في الظّلم والعُدْوان ما فيه كفاية.

وكان يقال: عَجَباً لمن عُومِل فأنْصِف، إذا عامَلَ كيف يَظلِم! وأعجب منه: من عُومل فظُلِم إذا عامَل كيف يَظلم!

وكان يقال: العدوّ عدوّان: عَدوٌّ ظلمتَه، وعدوٌّ ظَلَمَك، فإن اضطرّكَ الدهرُ إلى أحدهما فاستَعن بالذي ظلَمك، فإن الآخر مَوْتُور.

– ٢١٨ –

الأصل: مِنْ أَشْرَفِ أَفْعَالِ الْكَرِيمِ غَفْلَتُهُ عَمَّا يَعْلَمُ.

الشرح: كان يقال: التغافُل من السُّؤْدُد.

وقال أبو تمّام:

لـيـس الـغَـبِـيُّ بـسَـيِّـدٍ فـي قـومِـه   لـكـنّ سـيِّـد قـومِـه الـمُـتَـغـابِـي

وقال طاهرُ بنُ الحسين بن مصعَب:

ويـكـفـيـك مـن قـومٍ شـواهـدُ أمـرِهـم   فخذ صفوَهمْ قبل امتحانِ الضَّمائِر

فـإنّ امـتـحـانَ الـقـومِ يُـوحـش مـنـهـمُ   ومـا لَـكَ إلّا مـا تَـرَى فـي الـظَّـواهِـرِ

وإنّـك إن كـشّـفـتَ لـم تـر مُـخـلِـصـاً   وأبدَى لك التجريبُ خبثَ السَّرائر

وكان يقال: بعضُ التغافل فضيلة، وتمام الجود الإمساك عن ذكر المواهب، ومن الكرَم أن تَصفَح عن التّوبيخ، وأن تلتمس ستْر هَتْك الكريم.

– ٢١٩ –

الأصل: مَنْ كَسَاهُ الْحَيَاءُ ثَوْبَهُ، لَمْ يَرَ النَّاسُ عَيْبَهُ.

الشرح: قد سبق منّا قولٌ كثيرٌ في الحياء.

فصل: بعض ما قيل في الحياء

وكان يقال: الحياء تمام الكَرَم، والحِلم تمام العقل.

وقال بعضُ الحكماء: الحياء انقباض النّفس عن القبائح، وهو من خصائص الإنسان؛ لأنّه لا يوجد في الفرَس ولا في الغنم والبقر، ونحو ذلك من أنواع الحيوانات، فهو كالضّحك الّذي يختصّ به نوع الإنسان، وأوّل ما يَظهر من قوّة الفهم في الصبيان الحياء، وقد جَعَله الله تعالى في الإنسان ليرتدِع به عمّا تَنزع إليه نفسُه من القبيح، فلا يكون كالبَهمية، وهو خُلُقٌ مركّب من جُبْن وعفّة، ولذلك لا يكون المستحي فاسقاً، ولا الفاسقُ مستحياً، لتنافي اجتماع العفّة والفِسْق، وقلّما يكون الشجاع مستحيًا والمستحي شجاعاً لتنافِي اجتماعِ الجُبْن والشجاعة، ولعِزّة وجودِ ذلك ما يجمع الشعراء بين المدح بالشّجاعة والمدْح بالحياء نحو قول القائل:

يَجرِي الحياءُ الغَضُّ من قَسَماتِهِمْ   في حينِ يَجرِي من أكفِّهم الدَّمُ

وقال آخر:

كريمٌ يَغُضُّ الطَّرفَ فَضلُ حيائهِ   ويَدْنُو وأطرَافُ الرِّماح دَوانِ

ومتى قصد به الانقباض فهو مدحٌ للصبيان دون المشايخ، ومتى قُصِد به ترك القبيح فهو مَدْح لكل أحد، وبالاعتبار الأوّل قيل: الحياء بالأفاضل قبيح، وبالاعتبار الثاني وَرَد: إن الله ليستحيي من ذي شَيْبة في الإسلام أن يعذِّبه، أي يُترك تعذيبه ويستقبح لكرمه ذلك.

فأمّا الخجل فحيْرة تَلحَق النّفس لفَرْط الحياء، ويحمَد في النّساء والصبيان ويُذَمّ بالاتفاق في الرّجال. فأمّا القِحّة فمذْمومة بكلّ لسان، إذ هي انْسلاخٌ من الإنسانية، وحقيقتُها لجاجُ النفس في تعاطي القبيح، واشتقاقها من حافرَ وَقَاح أي صُلْب.

ولهذه المناسبة قال الشاعر:

يا ليتَ لي مِن جِلْدِ وجهك رُقْعةً   فأُعدَّ منها حافِراً للأشهَبِ

وما أصدَقَ قول الشاعر:

صلابةُ الوجْه لم تغلبْ على أحدٍ   إلّا تكامَل فيه الشرُّ واجتمعا

فأمّا كيف يُكتَسب الحياء، فمن حقّ الإنسان إذا هَمّ بقبيح أن يتصوّر أجلّ من نفسِه أنه يراه، فإنّ الإنسان يَستحيي ممن يَكبُر في نفسهِ أن يطّلع على عَيْبه ولذلك لا يستحيي من الحيوان غير الناطق، ولا مِن الأطفال الذين لا يميِّزون، ويستحيي من العالم أكثر مما يستحيي من الجاهل ومن الجماعة أكثر مما يستحيي من الواحد، والذين يستحيي الإنسانُ منهم ثلاثة: البشر، ونفسُه، والله تعالى، أما البَشَر فهم أكثر من يستحيي منه الإنسان في غالب الناس، ثمّ نفسه، ثمّ خالقه، وذلك لقلّة توفيقه وسوء اختياره.

واعلم أن من استحيَا من الناس ولم يستحي من نفسه فنفسه عنده أخسّ من غيره، ومن استحيا منهما ولم يستحي من الله تعالى فليس عارِفاً، لأنه لو كان عارفاً بالله لما استحيا من المخلوق دون الخالق، ألا تَرَى أن الإنسان لا بدّ أن يستحييَ من الذي يعظمه ويعلم أنه يراه أو يستمع بخبره فيُبكِّته، ومن لا يعرف الله تعالى كيف يستعظمه! وكيف يَعلَم أنه يطلع عليه! وفي قول رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حقَّ الحياء»[1]، أمرٌ في ضمْن كلامه هذا بمعرفته سبحانه وحَثّ عليها، وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[2]، تنبيهاً على أن العبد إذا علم أن ربّه يراه استحيا من ارتكاب الذنب.

وسُئل الجُنيد رحمه الله عمّا يتولّد منه الحياء من الله تعالى، فقال: أنْ يَرَى العبدُ آلاءَ الله سبحانه ونعمَه عليه، ويرى تقصيره في شكره.

فإن قال قائل: فما معنى قول النبيّ ﷺ: «مَن لا حياء له فلا إيمان له»[3].

قيل له: لأنّ الحياء أوّل ما يظهر من أمارة العَقْل في الإنسان، وأما الإيمان فهو آخر المراتب، ومُحَالٌ حصول المرتبة الآخِرة لمن لم تحصل له المرتبة الأولى، فالواجب إذن أن مَنْ لا حياء له فلا إيمان له.

وقال عليه السلام: «الحياءُ شُعْبة من الإيمان»[4].

وقال: «الإيمان عُرْيان، ولباسُه التقوى، وزينته الحياء»[5].

– ٢٢٠ –

الأصل: **بِكَثْرَةِ الصَّمْتِ تَكُونُ الهَيْبَةُ، وبالنَّصَفَةِ يَكْثُرُ المُوَاصِلُونَ، وبالإفْضالِ تَعْظُمُ الأقْدارُ، وبالتَّوَاضُعِ تَتِمُّ النِّعْمَةُ، وباحْتِمال المُؤَنِ يَجِبُ السُّؤْدُدُ، وبالسِّيرَةِ العادِلَةِ يُقْهَرُ المُناوِئ، وبالحِلْمِ عَنِ السَّفِيهِ تَكْثُرُ الأنْصارُ عَلَيْهِ.**

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: صفة القيامة، الرقائق (٢٤٥٨)، وأحمد، كتاب: «مسند المكثرين» من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن مسعود (٣٦٦٢). والحاكم في «المستدرك» (٧٩١٥).

(٢) سورة العلق، الآية: ١٤.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: أمور الإيمان (٩)، ومسلم كتاب: الإيمان، باب: بيان عدد «شعب الإيمان» (٣٥)، والنسائي، كتاب: الإيمان وشرائعه، باب: ذكر «شعب الإيمان» (٥٠٠٤)، وأبو داود، كتاب: السنة، باب: رد الإرجاء (٤٦٧٦).

(٤) أخرجه الحكيم الترمذي في «النوادر» (١/ ٤١)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٣٨٠).

(٥) أخرجه الحكيم الترمذي في «النوادر» (٢/ ٢٠٧)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٣٨٠).

الشرح: قال يحيى بن خالد: ما رأيت أحداً قطّ صامتاً إلا هِبْتُه حتى يتكلّم، فإما أن تزداد تلك الهيْبة أو تنقص. ولا رَيْب أن الإنصاف سببُ انعطاف القلوب إلى المنصف، وأن الإفضال والجود يقتضي عِظَم القَدْر، لأنه إنعام، والمُنعِم مشكور، والتواضع طريقٌ إلى تمام النعمة، ولا سؤدُدَ إلا باحتمال المُؤن، كما قال أبو تمّام:

والحمدُ شَهْدٌ لا تَرى مُشتارَه يجْنِيه إلّا من نقِيع الحَنْظَلِ
غُلٌّ لحَامِلِهِ ويَحسَبه الذي لم يُوهِ عاتِقَهُ خفيفَ المَحْمَلِ

والسِّيرة العادلة سببٌ لقَهْر الملِك الذي يُسيِّر بها أعداءَه، ومَن حَلُم عن سَفيهٍ وهو قادرٌ على الانتقام منه نَصَره الناس كلُّهم عليه، واتّفقوا كلُّهم على ذَمّ ذلك السفيه وتقبيح فِعْلِهِ، والاستِقراءُ واختبارُ العادات تَشهَد بجميع ذلك.

– ٢٢١ –

الأصل: الْعَجَبُ لِغَفْلَةِ الحُسَّادِ، عَنْ سَلامَةِ الأَجْسادِ!

الشرح: إنما لم يَحسد الحاسد على صحّة الجسد لأنه صحيحُ الجسد، فقد شارك في الصحّة، وما يُشارك الإنسانُ غيره فيه لا يَحسده عليه، ولهذا أرباب الحَسد إذا مَرِضوا حَسدوا الأصحّاء على الصحّة.

فإن قلت: فلماذا تَعجّب أميرُ المؤمنين عليه السلام؟

قلت: لكلامه عليه السلام وَجه، وهو أن الحسد لمّا تمكن في أربابه، وصار غريزة فيهم، تعجب كيف لا يتعدّى هذا الخُلُق الذّميم إلى أن يحسد الإنسان غيره على ما يشاركه فيه، فإن زيداً إذا أبغض عَمْراً بُغْضاً شديداً وَدّ أن تزول عنه نِعْمته إليه، وإن كان ذا نِعْمة كنِعمتِه، بل ربما كان أقوى وأحسن حالًا.

ويجوز أن يريد معنى آخر، وهو تعجُّبه من غَفْلة الحُسّاد، على أن الحسد مؤثّر في سلامة أجسادهم، ومقتضٍ سُقْمَهُم، وهذا أيضاً واضح.

- ٢٢٢ -

الأصل: الطَّامِعُ فِي وِثَاقِ الذُّلّ.

الشرح: من أمثال البُحْتريّ قوله:

وَالْيَأْسُ إِحدَى الرَّاحَتَيْنِ وَلَن تَرَى　　تَعِباً كَظَنٍّ الخَائِبِ المَكْدُودِ

وكان يقال: ما طمِعتُ إلّا وذَلّت - يَعْنون النّفس.

وفي البيت المشهور:

تُقطِّعُ أعناقَ الرِّجالِ المَطامِعُ

وقالوا: عَزَّ من قَنِع، وذَلَّ من طَمِع.

وقد تقدّم القولُ في الطّمع مراراً.

- ٢٢٣ -

الأصل: وقال عليه السلام وقد سئل عن الإيمان: الإِيمانُ مَعْرِفَةٌ بالقَلْبِ، وَإِقْرَارٌ باللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالأَرْكَانِ.

الشرح: قد تقدّم قولُنا في هذه المسألة.

وهذا هو مذهبُ أصحابنا المعتزِلة بعَيْنه، لأنّ العمل بالأركان عندنا داخلٌ في مسمّى الإيمان - أعني فعل الواجبات، فمن لم يَعمَل لم يُسمَّ مؤمناً وإن عَرَف بقلبه وأقَرَّ بلسانه، وهذا خلافُ قول المُرْجئة من الأشعريّة والإماميّة، والحشويّة.

فإن قلت: فما قَوْلك في النوافل: هل هي داخلةٌ في مسمّى الإيمان أم لا؟ قلت: في هذا خلافٌ بين أصحابنا، وهو مستقصًى في كتبي الكلاميّة.

- ٢٢٤ -

الأصل: مَنْ أَصْبَحَ علَى الدُّنْيَا حَزِيناً، فَقَدْ أَصْبَحَ لِقَضَاءِ الله سَاخِطاً.

وَمَنْ أَصْبَحَ يَشْكُو مُصِيبَةً نَزَلَتْ بِهِ، فَإِنَّمَا يَشْكُو رَبَّهُ.

وَمَنْ أَتَى غَنِيًّا فَتَوَاضَعَ لَهُ لِغِنَاهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ.

وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ، فَهُوَ كَانَ مِمَّنْ يَتَّخِذُ آيَاتِ الله هُزُواً.

وَمَنْ لَهِجَ قَلْبُهُ بِحبِّ الدُّنْيَا الْتَاطَ مِنْهَا بِثَلاثٍ: هَمٍّ لا يُغِبُّهُ، وَحِرْصٍ لا يَتْرُكُهُ، وَأَمَلٍ لا يُدْرِكُهُ.

الشرح: إذا كان الرّزق بقضاء الله وقَدَره، فمن حَزِن لفواتِ شيءٍ منه فقد سَخِط قضاءَ الله وذلك معصية، لأنّ الرّضا بقضاء الله واجب، وكذلك من شَكا مصيبةً حلّت به، فإنّما يشكو فاعلَها لا هي، لأنّها لم تنزل به من تِلقاءِ نفسِها، وفاعلها هو الله، ومن اشتكى الله فقد عَصاه، والتواضُع للأغنياء تعظيماً لِغناهم أو رجاءَ شيءٍ ممّا في أيديهم فسْق.

وكان يقال: لا يُحمَد التّيه إلّا من فقيرٍ على غنيّ.

فأمّا قولُه ﷺ: «ومن قرأ القرآن فماتَ فدخل النار، فهو ممن كان يتخذ آياتِ الله هُزُواً».

فلِقائل أن يقول: قد يكون مؤمناً بالقرآن ليس بمتّخذٍ له هُزُواً، ويقرؤه ثمّ يدخل النار، لأنه أتى بكَبيرة أخرى نحوَ القتل والزّنى والفِرار من الزَّحف وأمثال ذلك!

والجواب أن معنى كلامه ﷺ هو أنّ من قَرَأ القرآن فمات فدَخَل النار لأجلِ قراءتِهِ القرآن فهو ممّن كان يتّخذ آياتِ الله هُزُواً، أي يقرؤه هازِئاً به، ساخراً منه، مستهيناً بمواعظه وزواجره، غير معتقِد أنّه من عندِ الله.

فإن قلت: إنما دخل مَن ذكرتَ النارَ، لا لأجل قراءته القرآن، بل لهُزئه به، وجحوده إيّاه، وأنت قلت: معنى كلامه أنّه من دَخل النار لأجل قراءته القرآن فهو ممّن كان يستهزئُ بالقرآن!

قلت: بل إنّما دخل النار لأنه قرأه على صفة الاستهزاء والسُّخرية، ألا ترى أنّ الساجد للصّنَم يُعاقَب لسجودِه له على جهة العبادة والتعظيم، وإن كان لولا ما يحدثه مضافاً للسّجود من أفعال القلوب لما عُوقب.

ويمكن أن يُحمَل كلامُه ﷺ على تَفسيرٍ آخرَ، فيقال: إنّه عَنَى بقوله: إنّه كما كان ممّن

يتّخذ آيات الله هُزُواً: أنّه يعتقد أنّها من عند الله، ولكنّه لا يَعمَل بمُوجبها كما يَفعَله الآن كثيرٌ من الناس.

قولُه عليه السلام: «التاط بقَلْبه» أي لَصِق. ولا يُغِبُّه، أي لا يَأْخُذُه غِبًّا، بل يلازمه دائماً، وصَدَق عليه السلام فإنّ حُبّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة، وحبُّ الدنيا هو المَوجِب للهَمّ والغمّ والحِرْص والأمَل والخَوْف على ما اكتَسَبه أن يَنفَد، وللشُّحّ بما حَوَتْ يدُه، وغير ذلك من الأخلاق الذميمة.

- ٢٢٥ -

الأصل: كَفَى بِالْقَنَاعَةِ مُلْكاً، وَبِحُسْنِ الخُلُق نَعِيماً.

الشرح: قد تقدّم القولُ في هذين، وهما القناعة وحُسْن الخُلُق.

وكان يقال: يستحقّ الإنسانيّة مَن حَسُن خُلقه، ويكاد السيّىءُ الخُلُق يُعَدّ من السّباع.

وقال بعضُ الحكماء: حدُّ القناعة هو الرّضا بما دون الكفاية، والزّهد: الاقتصار على الزّهيد، أي القليل، وهما مُتقاربان، وفي الأغلب إنما الزهد هو رَفْض الأمور الدنيويّة مع القُدرة عليها، وأما القَناعة فهي إلزام النّفس الصبرَ عن المشتهيَات الّتي لا يقدر عليها، وكلّ زُهْد حَصَل عن قَناعةٍ فهو تزهّد، وليس بزُهد، وكذلك قال بعض الصُّوفيّة: القناعة أوّل الزُّهد، تنبيهاً على أنّ الإنسان يحتاج أوّلاً إلى قدعْ نفسه وتخصّصه بالقناعة ليَسهُل عليه تَعاطِي الزّهد، والقناعة التي هي الغنى بالحقيقة، لأنّ الناسَ كلّهم فقراء من وجهين: **أحدُهما** لافتقارِهم إلى الله تعالى كما قال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[1].

والثاني: لكَثْرة حاجاتهم فأغناهم لا مَحالة أقلّهم حاجة، ومن سدّ مَفاقِره بالمُقتَنيَات فما في انسدادِها مطمَع، وهو كَمَن يَرقَع الخَرْق بالخَرْق، ومن يَسُدّها بالاستغناء عنها بقَدْر وُسْعه والاقتصار على تَناوُل ضروريّاته فهو الغنيّ المقرَّب من الله سبحانه، كما أشار إليه في قصّة طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾[2]، قال أصحاب المعاني والباطن: هذا إشارةٌ إلى الدنيا.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

- ٢٢٦ -

الأصل: وسئل عليه السلام عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾(١)، فَقَالَ: هِيَ الْقَنَاعَةُ.

الشرح: لا ريبَ أنّ الحياةَ الطّيبة هي حياةُ الغِنَى، وقد بيّنا أن الغنيَّ هو القَنُوع، لأنّه إذا كان الغِنَى عدمُ الحاجة فأغنى النّاس أقلُّهم حاجةً إلى الناس، ولذلك كان الله تعالى أغْنَى الأغنياء، لأنّه لا حاجةَ به إلى شيء، وعلى هذا دَلّ النبيُّ بقوله ﷺ: «ليس الغِنَى بكَثْرة العَرَض، إنّما الغِنَى غِنَى النّفس»(٢).

وقال الشاعر:

فَمن أشرب اليأسَ كان الغنيَّ ومن أشربَ الحِرْصَ كان الفَقيرَا

وقال الشاعر:

غِنَى النّفْسِ ما يَكْفِيك من سَدِّ خَلّةٍ فإنْ زَادَ شيئاً عادَ ذاكَ الغِنَى فَقرا

وقال بعض الحكماء: المخيَّر بين أن يستغنيَ عن الدنيا وبين أن يستغنيَ بالدّنيا كالمخيَّر بين أن يكون مالِكاً أو مَمْلوكاً.

ولهذا قال عليه السلام: «تَعِس عبدُ الدِّينار والدّرهم، تَعِس فلا انتَعَش، وشِيكَ فلا انتقش»(٣).

وقيل لحكيم: لم لا تَغتَمّ؟ قال: لأنّي لم أتّخذ ما يَغُمُّني فقْدُه.

وقال الشاعر:

فَمن سَرَّه ألّا يَرَى ما يَسُوءُه فلا يتّخِذْ شيئاً يَخافُ له فَقْدَا

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: الغنى غنى النفس (٦٤٤٦)، ومسلم، كتاب: الزكاة باب: ليس الغنى عن كثرة العرض (١٠٥١)، والترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء أن الغنى غنى النفس (٢٣٧٣) وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: القناعة (٤١٣٧) بلفظ: «ولكن الغنى» بدل قوله: «إنما الغنى».

(٣) أخرج نحوه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: الحراسة في الغزو (٢٨٨٧)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: في المكثرين (٤١٣٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٨٢٧٩)، والطبراني في «الأوسط» (٢٥٩٥).

وقال أصحابُ هذا الشأن: القَناعة من وجهٍ صَبْر، ومِنْ وَجْهٍ جُود، لأنّ الجُودَ ضَرْبان: جودٌ بما في يدك منتزَعاً، وجودٌ عمّا في يدِ غيرك متورِّعاً، وذلك أشرَفهما، ولا يحصُل الزّهد في الحقيقةِ إلّا لمن يَعرِف الدّنيا ما هيَ، ويَعرِف عيوبَها وآفاتِها، ويَعرِف الآخرة وافتقاره إليها، ولا بدّ في ذلك من العِلْم، ألا ترَى إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾[1].

ولأنّ الزّاهد في الدنيا راغبٌ في الآخرة وهو يبيعُها بها، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾[2] الآية.

والكَيّس لا يَبيعُ عَيْناً بأثر، إلّا إذا عَرَفهما وعَرَف فضلَ ما يَبتاعُ على ما يَبيع.

- ٢٢٧ -

الأصل: شَارِكُوا الَّذِينَ قَدْ أَقْبَلَ عَلَيْهِمُ الرِّزْقُ، فَإِنَّهُ أَخْلَقُ لِلْغِنَى، وأَجْدَرُ بِإِقْبالِ الحظّ.

الشرح: قد تقدّم القول في الحظ والبخْتِ.

وكان يقالُ: الحظّ يُعدِي كما يُعدِي الْجَرَب، وهذا يُطابق كلمة أمير المؤمنين عليه السلام لأنّ مخالطة المجْدود ليست كمخالطة غير المجْدود، فإن الأولى تقتضي الاشتراك في الحظ والسعادة، والثانية تقتضي الاشتراك في الشقاء والحرمان.

والقول في الحظ وسيعٌ جداً.

وقال بعضهم: البَخْت على صورةِ رجلٍ أعمى أصمّ أخرس، وبين يديه جواهرُ وحِجارة، وهو يَرمي بكلتا يَدَيه.

وكان مالكُ بن أنس فقيهَ المدينة، وأخذ الفقه عن اللَّيْث بن سعد، وكانوا يزدحمون عليه واللَّيْثُ جالس لا يلتفتون إليه، فقيل للّيث: إنّ مالِكاً إنما أخذ عنك فما لَكَ خاملاً وهو أنبَهُ الناسِ ذِكْراً! فقال: دانِقُ بَخْتٍ خيرٌ من جملِ بُخْتِي حُمّل عِلماً.

وقال الرّضيّ:

---

(١) سورة القصص، الآيتان: ٧٩، ٨٠. (٢) سورة التوبة، الآية: ١١.

أسِيغ الغيظ من نُوَب اللّيَالي ... وما يَحفِلْن بالحنِق المَغيظِ
وأرجو الرّزق من خَرْق دَقيقٍ ... يُسَدُّ بسلك حرمانٍ غَليظِ
وأرجِع ليس في كَفّيّ منه ... سِوَى عَضّ اليَدَيْن على الحظوظ

- ٢٢٨ -

الأصل: وقالَ عليه السلام في قوْلِهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾[1]: **الْعَدْلُ الإنصافُ، والإحْسانُ التَّفضُّلُ.**

الشرح: هذا تفسيرٌ صحيح اتّفق عليه المفسرون كافّة، وإنما دخل النّدْب تحت الأمر لأنّ له صفةً زائدة على حُسْنه، وليس كالمُباح الذي لا صِفَة له زائدة على حُسْنه.

وقال الزّمخشريّ: العَدْل هو الواجب؛ لأنّ الله عزّ وجلّ عَدَل فيه على عباده، فجعل ما فَرَضَه عليهم منه واقعاً تحت طاقتِهم، والإحسان النّدْب، وإنما علق أمره بهما جميعاً؛ لأنّ الفَرْض لا بدّ أن يقع فيه تفريط، فيَجْبُره النّدب، ولذلك قال رسولُ الله ﷺ لإنسان علّمه الفرائض فقال: والله لا زدتُ فيها ولا نقصْتُ منها: «أفْلح إنْ صَدَق»[2]، فعقدَ الفلاح بشَرْط الصِّدق والسلامة من التّفريط، وقال ﷺ: «استقيموا، ولن تحصوا»[3]، فليس ينبغي أن يترك ما يَجبر كَسْر التّفريط من النوافل.

ولقائل أن يقول: إن كان إنما سمى الواجب عَدْلاً لأنه داخلٌ تحت طاقة المكلّف فليسمّ النّدْب عَدْلاً لأنه داخلٌ تحت طاقة المكلف، وأما قوله: إنما أمر بالنّدْب لأنه يجبر ما وَقَع فيه التفريط من الواجب، فلا يصحّ على مذهبه، وهو من أعيان المعتزلة لأنه لو جُبرت النافلة بالتفريط في الواجب لكانت واجبةً مثله، وكيف يقول الزمخشريّ هذا ومن قول مشايخنا إن

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.
(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: الزكاة في الإسلام (٤٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان باب: بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام (١١)، والنسائي، كتاب: الصلاة، باب: كم فرضت في اليوم والليلة (٤٥٨)، وأبو داود، كتاب: الصلاة، باب: فرض الصلاة (٣٩١).
(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٤٧)، والدارمي، كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في الطهور (٦٥٥)، وابن ماجه، كتاب: الطهارة باب: المحافظة على الوضوء (٢٧٧)، وأحمد في كتاب: مسند الأنصار، باب: ومن حديث ثوبان (٢١٨٧٣).

تارِك صلاة واحدةٍ من الفرائض لو صلى مائة ألف ركعةٍ من النوافل لم يكفِّر ثوابها عقاب تَرْك تلك الصلاة!

- ٢٢٩ -

الأصل: وقال عليه السلام: مَنْ يُعْطِ باليَدِ القَصِيرَةِ يُعْطَ باليَدِ الطَّوِيلَةِ.

قال الرَّضيّ رَحمهُ الله تعالى: ومَعْنَى ذَلِكَ أنَّ ما يُنْفِقُهُ المَرْءُ مِنْ مالِهِ في سَبِيلِ الخير والبرّ وإنْ كان يَسِيراً فإنَّ الله تعالى يَجْعَلُ الجزاءَ عَلَيه عظيماً كَثِيراً، واليَدَانِ ها هنا عِبارَةٌ عَنِ النِّعْمَتَيْنِ فَفَرَقَ عليه السلام بَيْنَ نِعْمَةِ العَبْدِ ونِعْمةِ الرَّبِّ تَعالَى ذِكْرُهُ، بالقَصِيرَةِ والطَّوِيلَةِ، فجَعلَ تِلْكَ قَصِيرَةً وهَذِهِ طَوِيلَةً؛ لأنَّ نِعَمَ اللهِ أبَداً تُضَعَّفُ على نِعَمِ المخْلُوقِينَ أضْعَافاً كَثيرَةً، إذْ كَانتْ نِعَمُ الله أصْلَ النِّعَمِ كلها، فكُلُّ نِعْمَةٍ إلَيْها تَرْجِعُ، ومنها تُنْزَعُ.

الشرح: هذا الفَصْل قد شرحه الرضيّ رحمه الله، فأغنى عن التعرّض بشَرْحِه.

- ٢٣٠ -

الأصل: وقال عليه السلام لابْنِهِ الحَسنِ: لا تَدْعُوَنَّ إلى مُبارَزَةٍ، فإنْ دُعِيتَ إليها فأجب، فإنَّ الدَّاعيَ إلَيْها باغٍ، والباغِي مَصْرُوعٌ.

نُبَذٌ عن شجاعة علي عليه السلام

الشرح: قد ذَكر عليه السلام الحِكْمة، ثم ذكر العِلّة، وما سمِعْنا أنه عليه السلام دعا إلى مُبارَزةٍ قَطّ، وإنما كان يدعَى هو بعينه، أو يدعو من يبارز، فيَخْرُج إليه فيقتله، دعا بنو ربيعة بن عبد بن شمس بني هاشم إلى البراز يوم بدْر، فخرج عليه السلام فقتل الوليد واشترك هو وحمزة عليه السلام في قَتْل عُتْبة، ودعا طَلْحة بن أبي طَلحة إلى البراز يوم أحد، فخرج إليه فقتله، ودعا مَرْحبٌ إلى البراز يوم خَيْبَر فخرج إليه فقتله.

فأما الخَرْجة التي خرَجها يوم الخَنْدق إلى عمرو بن عبد وُدّ فإنّها أجلّ من أن يقال جليلة،

وأعظم من أن يقال عظيمة، وما هي إلا كما قال شيخنا أبو الهذيل وقد سأله سائلٌ: أيّما أعظم منزلة عند الله، عليٌّ أم أبو بكر؟ فقال: يا بن أخي، والله لمبارزة عليٍّ عَمْراً يوم الخنْدق تَعدِل أعمال المهاجرين والأنصار وطاعاتهم كلها وتُرْبِي عليها فضلاً عن أبي بكر وحده. وقد رُوِي عن حذيفة بن اليمان ما يُناسِب هذا، بل ما هو أبلغ منه، رَوَى قيسُ بن الرّبيع عن أبي هارون العبْدي، عن ربيعة بن مالك السعديّ، قال: أتيتُ حذيفة بن اليمان فقلت: يا أبا عبدِ اللّه، إن الناس يتحدثون عن عليّ بن أبي طالب ومناقِبه، فيقول لهم أهل البصيرة: إنكم لتُفرطون في تقريظ هذا الرجل، فهل أنت محدِّثي بحديثٍ عنه أذكرُهُ للناس؟ فقال: يا ربيعة، وما الذي تسألني عن عليّ، وما الذي أحدّثك عنه! والذي نفسُ حُذيفة بيدِه لو وضِع جميعُ أعمال أمة محمد ﷺ وآله في كِفّة الميزان مُنذ بَعث الله تعالى محمداً إلى يوم الناس هذا، ووُضِع عملٌ واحدٌ من أعمال عليٍّ في الكفة الأخرى لرَجَح على أعمالهم[1] كلِّها.

فقال ربيعة: هذا المدْح الذي لا يقام له ولا يُقعد ولا يُحمل، إني لأظنه إسرافاً يا أبا عبد اللّه! فقال حذيفة: يا لُكَع، وكَيْف لا يُحمل! وأين كان المسلمون يوم الخنْدق وقد عبر إليهم عمرو وأصحابه فملكهم الهلع والجزع، ودعا إلى المبارزة فأحْجَموا عنه حتى برز إليه عليٌّ فقتله! والذي نفسُ حذيفة بيده لَعمله ذلك اليوم أعظم أجْراً من أعمال أمة محمدٍ ﷺ إلى هذا اليوم وإلى أن تقوم القيامة.

وجاء في الحديث المرفوع: «إنّ رسول الله ﷺ قال ذلك اليومَ حينَ برز إليه: «برَزَ الإيمان كلّه إلى الشّرْك كلّه»[2].

وقال أبو بكر بن عيّاش: لقد ضَرَبَ عليٌّ بنُ أبي طالب عليه السلام ضربةً ما كان في الإسلام أيْمَنَ منها ضَرْبَتُه عَمْراً يومَ الخندق، وقد ضُرِب عليٌّ ضربة ما كان في الإسلام أشأَم منها - يعني ضربة ابن مُلْجَم لعَنه الله.

وفي الحديث المرفوع أنّ رسول الله ﷺ لَمّا بَارَزَ عليٌّ عَمْراً ما زال رافعاً يَدَيْه مُقْمِحاً رأسَه نحوَ السماء، داعيًا ربّه قائلاً: «اللهم إنّك أخذْتَ منّي عُبيدَة يومَ بَدْر، وحمزةَ يوم أُحد، فاحفظ عليّ اليومَ عليًّا ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾»[3].

---

(١) هو مأخوذ من قول النبي ﷺ: لو أن السموات والأرض وضعتا في كفة ووضع إيمان علي في كفة لرجح إيمان علي، أخرجه المغازلي في المناقب رقم ٣٣٠، والديلمي في الفردوس رقم ٥١٠٠ - ٥١٣٨.

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٠/ ٢١٥.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٨٩.

وقال جابرُ بنُ عبد اللّه الأنصاري: والله ما شبّهتُ يومَ الأحزاب، قتلَ عليّ عمْراً وتخاذُل المُشركين بعدَه، إلا بما قصّه الله تعالى من قِصّة طالوتَ وجالُوت في قوله: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾(١).

ورَوَى عمرو بن أزهر، عن عَمْرو بن عُبيد، عن الحسن أنّ عليًا عليه السلام لمّا قَتلَ عَمراً احتزّ رأسَه وحَمَله فألقاه بين يَديْ رسولِ الله صلى الله عليه وآله، فقام أبو بكر وعُمَر فقبّلا رأسَه، ووَجْه رسولِ الله صلى الله عليه وآله يتهلّل، فقال: «هذا النّصر»! أو قال: هذا أوّل النّصر.

وفي الحديث المرفوع: أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال يومَ قُتِل عمرو: «ذهبت ريحُهم، ولا يغْزوننا بعد اليوم، ونحن نَغْزُوهم إن شاء الله».

خبر غزوة الخندق

وينبغي أن نذكُر ملخّص هذه القصّة من مغازِي الواقديّ وابن إسحاق، قالا: خرج عَمرو بن عبدِ ودّ يومَ الخندق وقد كان شهد بدْراً فارتُثّ جريحاً، ولم يشهد أُحُداً، فحضر الخندقَ شاهراً سيفه معلِماً، مُدِلّاً بشجاعته وبأسِه، وخرج معه ضِرارُ بنُ الخطّاب الفِهْريّ وعِكْرمةُ بنُ أبي جهل وهُبيرة بن أبي وَهْب ونَوفَل بن عبد اللّه بن المغيرة المخزوميّون، فطافوا بخُيولهم على الخَندق إصعاداً وانحداراً، يَطلُبون مَوْضعاً ضيّقاً يَعبُرونه، حتّى وقفوا على أضيق موضع فيه في المكان المعروف بالمزار، فأكرهوا خيولهم على العُبور فعبرتْ، وصاروا مع المسلمين على أرضٍ واحدة ورسولُ الله صلى الله عليه وآله جالسٌ وأصحابُه قيام على رأسِه، فتقدّم عمرو بن عَبْد ودّ فدعا إلى البراز مراراً، فلم يقم إليه أحد، فلمّا أكثَر، قام عليٌّ عليه السلام فقال: أنا أبارزه يا رسول الله، فأمَرَه بالجلوس، وأعاد عمرو النّداء والناسُ سُكوت كأنّ على رؤوسهم الطّير، فقال عَمرو: أيّها الناس، إنّكم تزعمون أنّ قتلاكم في الجنّة وقَتْلانا في النار، أفما يحبّ أحدكم أن يَقدم على الجنّة أن يُقدِّم عدوًّا له إلى النار! فلم يقمْ إليه أحد، فقام عليٌّ عليه السلام دفعةً ثانية وقال: أنا له يا رسول الله، فأمَره بالجلوس، فجال عَمرو بفرسَه مُقْبِلاً ومدبِراً، وجاءت عُظماء الأحزاب فوقفتْ مِن وراء الخندق ومدّت أعناقَها تَنظر، فلمّا رأى عَمرو أنّ أحداً لا يجيبه، قال:

ولقد بُحِحْتُ من النّدا ... ءِ بجَمْعِهِمْ: هل مِنْ مُبارِزْ
ووقفتُ مذ جَبُنَ المشيَّـ ... ـع مَوقفَ القِرْنِ المُناجِزْ
إنّي كذلكَ لم أزَلْ ... متسرِّعاً قبل الهزاهِزْ
إنّ الشجاعةَ في الفَتَى ... والجود من خير الغرائزْ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

فقامَ عليٌّ عليه السلام فقال: يا رسول الله، آئذَن لي في مُبارَزته، فقال: ادْن، فدنا فقلّده سيفَه، وعمَّمه بعِمامته، وقال: امضِ لشأنِك، فلمّا انصرَف قال: «اللّهمّ أعِنه عليه»[1]، فلمّا قَرُب منه قال له مجيباً إيّاه عن شِعره:

لا تَـعْـجـلـنَّ فـقـد أتـا ... كَ مجيبُ صَوتك غير عاجزْ

ذو نِـيّـةٍ وبَـصـيـرةٍ ... يـرجـو بـذاك نَـجـاةَ فـائـزْ

إنّـي لأمُـلُ أن أقِـيـ ... ـمَ عـلـيـكَ نـائـحـةَ الـجـنـائـزْ

مِـن ضَـرْبـةٍ فَـوْهَـاءَ يَـبْـ ... ـقـى ذِكـرُهـا عـنـد الـهـزاهِـزْ

فقال عَمرو: منْ أنت! وكان عَمرو شيخاً كبيراً قد جاوزَ الثّمانين، وكان نديمَ أبي طالب بن عبد المطّلب في الجاهليّة، فانتَسب عليٌّ عليه السلام له وقال: أنا عليُّ بنُ أبي طالب، فقال: أجَلْ، لقد كان أبوك نديماً لي وصديقاً، فارجع فإنّي لا أحبّ أن أقتلَك - كان شيْخنا أبو الخير مصدَّق بن شَبيب النحويّ يقول إذا مرَرْنا في القراءة عليه بهذا الموضع: والله ما أمَره بالرّجوع إبقاءً عليه، بل خوفاً منه، فقد عَرَف قَتْلاه ببَدْر وأُحُد، وعَلِم أنّه إنْ ناهَضَه قتَلَه، فاستَحْيا أن يُظهِر الفَشَل، فأظهر الإبْقاء والإرعاء، وإنّه لكاذب فيهما - قالوا: فقال له عليٌّ عليه السلام: لكنّي أحِبُّ أن أقتلَك، فقال يا بْن أخي، إنّي لأكره أن أقتلَ الرجلَ الكريم مِثلك، فارجع وراءَك خيرٌ لك، فقال عليٌّ عليه السلام: إن قريشاً تتحدّث عنك أنّك قلت: لا يدعوني أحدٌ إلى ثلاثٍ إلا أجبتُ ولو إلى واحدةٍ منها، قال: أجَلْ، فقال عليٌّ عليه السلام: فإنّي أدعوك إلى الإسلام، قال: دعْ عنك هذه، قال: فإنّي أدعوك إلى أن تَرجع بمن تَبِعك من قريش إلى مكّة، قال: إذَنْ تتحدّث نساء قريش عنّي أنّ غلاماً خَدَعني، قال: فإني أدْعُوك إلى البراز، فحميَ عمرو وقال: ما كنتُ أظنّ أن أحداً من العرب يَرومُها منّي، ثمّ نزل فعَقَر فرَسَه - وقيل: ضرب وجهه ففرّ - وتجاوَلا، فثارت لهما غبرةٌ وارَتْهما عن العيون، إلى أن سمع الناسُ التكبيرَ عالياً من تحت الغَبْرة، فعَلِموا أنّ عليّاً قَتَله، وانجلت الغَبَرة عنهما، وعليٌّ راكب صدره يحزّ الغَبْرة، وفرّ أصحابه ليَعبرُوا الخنْدق، فظفرتْ بهمْ خيلُهم إلّا نوْفل بن عبد اللّه، فإنه قصر فرسه، فوقع في الخندق، فرماه المسلمون بالحجارة، فقال: يا معاشر الناس، قتلة أكرمُ من هذه، فنزل إليه عليٌّ عليه السلام فقَتَله، وأدرك الزُّبيرُ هبيرة بن أبي وهب فضَرَبَه فقَطع ثفر فرسهِ وسقطتْ دِرْعٌ كان حَمَلَها مِن ورائه، فأخَذَها الزبير، وألقى عِكْرمة رمْحه، وناوش عُمَر بن الخطّاب ضرار بن عمرو، فحَمل عليه ضِرار حتى إذا وجد عمرُ مسَّ الرّمْح رَفَعه عنه وقال: إنها لَنِعمة مشكورة، فاحفَظْها يا بنَ الخطّاب، إنّي كنتُ آليتُ ألّا تُمكِنَني يَدايَ من قتلِ قرشيّ فأقتله. وانصرَف ضِرارٌ راجعاً إلى

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٦٨).

أصحابه، وقد كان جرى له معه مِثل هذه في يوم أُحُد. وقد ذَكَر هاتَيْن القصّتين معاً محمدُ بنُ عُمَر الواقديّ في كتاب المَغازي[1].

- ٢٣١ -

الأصل: خِيَارُ خِصَالِ النِّسَاءِ شِرارُ خِصَالِ الرِّجَالِ: الزَّهْوُ وَالْجُبْنُ وَالْبُخْلُ، فَإِذَا كَانَتِ المَرْأَةُ مَزْهُوَّةً لَمْ تُمَكِّنْ مِنْ نَفْسِها، وَإِذَا كَانَتْ بَخِيلَةً حَفِظَتْ مَالَهَا وَمَالَ بَعْلِهَا، وَإِذَا كَانَتْ جَبَانَةً فَرِقَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَعْرِضُ لَهَا.

الشرح: أَخَذ هذا المعنَى الطُّغرائيُّ شاعرُ العَجَم فقال:

الجودُ والإقدامُ في فِتْيانِهِمْ ... والبُخلُ في الفَتَيات والإشفاقُ
والطّعنُ في الأحداقِ دأبُ رُماتِهِمْ ... والراميات سِهامُها الأحداقُ

وله:

قد زادَ طيبَ أحاديث الكِرامِ بها ... ما بالكرائم من جُبْن ومن بَخَلِ

وفي حكمةِ أفلاطون: مِن أقوى الأسباب في محبّة الرجل لامرأته واتّفاق ما بينهما أن يكون صوتُها دونَ صوتهِ بالطَّبْع، وتميزّها دون تميُّزِه، وقلبُها أضعف من قلبهِ، فإذا زاد من هذا عندها شيء على ما عندَ الرجل تنافرَا على مقداره.

وتقول: زُهِيَ الرجلُ علينا فهو مَزْهُوٌّ، إذا افتخَر، وكذلك نُخِيَ فهو مَنْخُوّ، من النَّخْوة، ولا يجوز زَهَا إلّا في لغةٍ ضعيفة. وفَرِقتْ: خافتْ. والفَرَق: الخوف.

- ٢٣٢ -

الأصل: وَقِيلَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ: صِفْ لَنَا العَاقِلَ، فَقَالَ: هُوَ الَّذِي يَضَعُ الشيْءَ مَوَاضِعَهُ. فَقِيل: فَصِف لَنَا الجَاهِلَ، قَالَ: قَدْ قلت.

قالَ الرَّضيّ رَحمهُ اللهُ تَعَالَى: يَعْنِي أنَّ الْجَاهِلَ هُوَ الَّذِي لا يَضَعُ الشَّيءَ مَوَاضِعَهُ، فَكَأَنَّ صِفَةٌ لَهُ، إِذْ كَانَ بِخِلافِ وصف العَاقِلِ.

(١) اخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٦/٣٩.

الشرح: هذا مثلُ الكلام الذي تَنسبُه العربُ إلى الضَّبّ. قالوا: اختَصَمَت الضَّبُع والثعلبُ إلى الضَّبّ، فقالت الضبع: يا أبا الحِسْل إنّي التقَطْتُ تَمْرة، قال: طيّباً جنيتِ، قالت: وإن هذا أخذها منّي، قال: حظَّ نفسه أحرز، قالت: فإنّي لَطمْتُه، قالَ: كريمٌ حَمَى حقيقتَه، قالت: فلَطَمني، قال: حُرٌّ انتَصَر، قالت: اقضِ بينَنا، قال: قد فعلتُ.

- ٢٣٣ -

الأصل: واللهِ لَدُنْياكُمْ هَذِهِ أَهْوَنُ فِي عَيْنِي مِنْ عُراقِ خِنْزِيرٍ فِي يَدِ مَجْذُومٍ.

الشرح: العُراق: جمع عَرْق، وهو العَظْم عليه شيءٌ من اللَّحم، وهذا من الجمُوع النادرة، نحو رَخْل ورُخال وتَوْءم وتُؤام، ولا يكون شيء أحقر ولا أبغَضُ إلى الإنسان من عُراق خنزير في يدِ مَجْذوم، فإنّه لم يَرْضَ بأن يجعله في يد مَجْذوم - وهو غاية ما يكون مِن التّنفير - حتّى جَعله عُراق خنزير.

ولعَمْري لقد صَدَقَ - وما زال صادقاً - ومن تأمّل سِيرتَه في حالتَيْ خلوّه من العمل ووِلايته الخلافة عَرَف صحة هذا القول.

- ٢٣٤ -

الأصل: إنَّ قَوْماً عَبَدُوا الله رَغْبَةً فَتِلْكَ عبادَةُ التُّجّارِ، وإنَّ قَوْماً عَبَدُوا الله رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبادَةُ العَبِيدِ، وإنَّ قَوْماً عَبَدُوا الله شُكْراً فَتِلْكَ عبادَةُ الأحْرارِ.

الشرح: هذا مقامٌ جليلٌ تَتقاصر عنه قُوَى أكثر البَشَرِ، وقد شرَحْناه فيما تقدّم، وقلنا: إنّ العبادة لرجاء الثواب تجارةٌ ومُعاوضة، وإن العبادة لخوفِ العِقاب لمنزِلَةُ مَن يَستجدي لسلطانٍ قاهر يخاف سطوَته.

وهذا معنَى قولِه: «عبادةُ العبيد»، أي خَوف السّوط والعصا، وتلك ليس عبادةً نافعة، وهي كمن يَعتذِر إلى إنسان خوفَ أذاه ونقْمته، لا لأنّ ما يَعتذِر منه قبيح لا ينبغي له فِعْلُه، فأمّا العبادة

لله تعالى شكراً لأنعُمه فهي عبادة نافعة؛ لأنّ العبادة شكرٌ مخصوص، فإذا أوقَعها على هذا الوجه فقد أوقَعها الموقع الّذي وُضِعتْ عليه.

فأما أصحابُنا المتكلِّمون فيقولون: ينبغي أن يَفعَل الإنسان الواجبَ لوجْهِ وجوبه، ويترك القبيح لوجه قبحه، وربّما قالوا: يُفعل الواجبُ لأنّه واجب، ويُترك القبيحُ لأنّه قبيح، والكلامُ في هذا الباب مشروحٌ مبسوط في الكُتُب الكلاميّة.

- ٢٣٥ -

الأصل: المَرْأَةُ شَرٌّ كُلُّهَا، وَشَرٌّ مَا فِيهَا أنَّهُ لا بُدَّ مِنْهَا.

الشرح: حَلَف إنسانٌ عند بعض الحكماء أنه ما دخل بابِي شَرٌّ قطّ، فقال الحكيم: فمِنْ أينَ دَخَلَتِ امرأتُك!.

وكان يقال: أسباب فِتنة النساء ثلاثة: عينٌ ناظرة، وصورةٌ مستحسَنةٌ، وشَهوةٌ قادرة، فالحكيم من لا يردِّد النظرة حتّى يَعرفَ حقائقَ الصّورة، ولو أنّ رجلاً رأى امرأةً فأعجبتْه ثمّ طالَبها فأمتنعتْ، هل كان إلّا تارِكَها! فإن تأبّى عَقلُه عليه في مُطالَبتها كتأبّيها عليه في مُساعَفتها قَدَع نفسَه عن لذّته قَدْع الغَيُور إيّاه عن حُرْمةِ مُسلم.

وكان يقال: من أتعب نفسَه في الحلال من النّساء لم يَتُقْ إلى الحرام منهنّ كالطّليح مُناه أن يَستريح.

- ٢٣٦ -

الأصل: مَنْ أَطَاعَ التَّوَانِيَ ضَيَّعَ الحُقُوقَ، وَمَنْ أَطَاعَ الْوَاشِيَ ضَيَّعَ الصَّدِيقَ.

الشرح: قد تقدّم الكلامُ في التّواني والعَجْز، وتقدّم أيضاً الكلامُ في الوِشاية والسّعاية.

ورُفِع إلى كسرَى أبرَويز أنّ النصارى الّذين يَحضُرون بابَ المَلِك يُعرَفون بالتجسّس إلى مَلِك الروم، فقال: مَن لم يَظهَر له ذنب لم يظهر منّا عُقوبة له.

ورُفع إليه أنّ بعض الناس يُنكِر إصغاءَ المِلك إلى أصحاب الأخبار، فوقّع هؤلاء بمنزلةِ مَداخِل الضِّياء إلى البيت المُظلِم، وليس لقَطْع موادِّ النور مع الحاجة إليه وجهٌ عند العقلاء.

قال أبو حيّان: أمّا الأصل في التدبير فصحيح؛ لأنّ المَلِك محتاج إلى الأخبار، لكن الأخبار تنقسم إلى ثلاثة أوجه:

خبرٌ يتّصل بالدِّين، فالواجب عليه أن يُبالِغ ويَحتاط في حِفظه وحِراسته وتحقيقِهِ ونفي القَذَى عن طريقه وساحته.

وخبرٌ يتّصل بالدّولة ورسومها، فينبغي أن يتيقّظ في ذلك خوفاً من كيدٍ ينفّذ، وبغيٍ يَسرِي.

وخبر يدور بينَ الناس في منصرَفِهم وشأنِهم وحالهم، متى زاحمتَهم فيه اضطَغَنوا عليك، وتمنَّوْا زَوالَ مُلْكِكَ، وأرصدوا العَداوَة لك، وجَهَروا إلى عدوّك وفتحوا له بابَ الحيلة إليك.

وإنّما لحقَ الناسَ من هذا الخبر هذا العارض، لأنّ في مَنع الملك إيّاهم عن تصرّفاتهم وتتبّعه لهم في حركاتهم، كَرْباً على قلوبهم، ولهيباً في صُدورهم، ولا بدّ لهم في الدّهر الصالح والزّمان المعتدل، والخِصب المتتابع، والسبيل الآمن، والخيْرِ المتّصل، من فُكاهة وطِيب واستِرسال وأَشَر وبَطَر، وكلّ ذلك من آثار النعمة الدارّة، والقلوب القارّة، فإنْ أغضى المَلِك بصرَه على هذا القِسم عاشَ محبوباً، وإن تنكّر لهم فقد استأسَدَهم أعداءً. والسلام.

– ٢٣٧ –

الأصل: ٱلْحَجَرُ ٱلْغَصْبُ في الدَّارِ رَهْنٌ عَلَى خَرَابِهَا.

قال الرضي رحمه الله تعالى: وقَدْ رُوِيَ مَا يناسِبُ هذَا الْكَلامَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلا عَجَبَ أن يَشْتَبِهَ الكَلامَانِ فَإِنَّ مُسْتَقَاهُما مِنْ قَلِيبٍ، وَمَفْرَغَهُمَا مِنْ ذَنُوبٍ!.

الشرح: الذَّنُوب: الدلو المَلأى، ولا يقال لها وهيَ فارغةٌ: ذَنُوب، ومعنى الكلمة أن الدّار المبنيّة بالحجارة المَغْصوبة ولو بحَجَر واحد، لا بدّ أن يتعجّل خرابُها، وكأنّما ذلك الحجَر رَهن على حصول التخرب، أي كما أنّ الرّهن لا بدّ أن يُفتَكّ، كذلك لا بدّ لما جُعل ذلك الحجرُ رَهْناً عليه أن يَحصُل.

وقال ابن بسّام لأبي عليّ بن مُقْلة لمّا بَنَى داره بالزّاهر ببغداد من الغَصْب وظُلمِ الرعيّة:

بِجَنْبِك داران مَهْدومَتانِ ... ودارُك ثالثةٌ تُهدَمُ

فَليتَ السلامَةَ للمُنْصِفِين دامتْ فكيفَ لمن يَظلمُ!

والدّاران: دارُ أبي الحسن بنِ الفُرات، ودارُ محمّد بن داودَ بن الجرّاح.

وقال فيه أيضاً:

قلْ لابنِ مُقلَة مهلاً لا تكن عَجِلاً فإنما أنتَ في أضغاثِ أحلامِ
تَبْني بأنقاضِ دُورِ الناس مجتهداً داراً ستُنقَضُ أيضاً بعد أيّامِ

وكان ما تفرّسه ابنُ بسّام فيه حقًّا، فإنّ داره نُقِضتْ حتى سوّيت بالأرض في أيّام الراضي بالله.

- ٢٣٨ -

الأصل: يَوْمُ المَظْلُومِ عَلَى الظَّالِمِ، أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ الظَّالِمِ عَلَى المَظْلُومِ.

الشرح: قد تقدّم الكلامُ في الظلم مراراً.

وكان يقال: اذكُر عندَ الظّلم عدلَ الله تعالى فيكَ، وعند القُدْرة قدرةَ الله تعالى عليك.

وإنما كان يومُ المظلوم على الظالم أشدَّ من يومه على المظلوم، لأن ذلك اليومَ يومُ الجَزاء الكُلّيّ، والانتقام الأعظم، وقُصارَى أمرِ الظالم في الدنيا أن يَقتُل غيرَه فيُميته مِيتةً واحدة، ثمّ لا سبيلَ له بعد إماتته إلى أن يُدخِل عليه ألماً آخر، وأمّا يومُ الجَزاء فإنه يومٌ لا يموت الظالم فيه فيَستريح، بل عذابُه دائمٌ متجدِّد، نعوذ بالله من سُخطِه وعِقابه!

- ٢٣٩ -

الأصل: اتَّقِ اللهَ بَعْضَ التُّقَى وإِنْ قَلَّ، وَٱجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَ اللهِ سِتْراً وإِنْ رَقَّ.

الشرح: يقال في المَثَل: ما لا يُدرَك كلُّه لا يُترَك كلُّه.

فالواجب على من عَسُرتْ عليه التقوى بأجمعها أن يتقي الله في البعض، وأن يجعل بينه وبينه سِتْراً وإن كان رَقيقاً.

وفي أمثال العامّة: اجعل بينك وبين الله رَوزنة، والرَّوْزَنة لفظة صحيحةٌ مُعَرَّبة، أي لا تَجعل ما بينَك وبينه مَسْدوداً مظلماً بالكلّية.

- ٢٤٠ -

الأصل: إِذَا ٱزْدَحَمَ الْجَوَابُ، خَفِيَ الصَّوَابُ.

الشرح: هذا نحو أن يورد الإنسانُ إشكالاً في بعض المسائل النّظرية بحضرةِ جماعةٍ من أهل النظر، فيتغالب القومُ ويتسابقون إلى الجواب عنه، كلٌّ منهم يورِد ما خَطَر له.

فلا رَيْب أنّ الصواب يَخفى حينئذ، وهذه الكلمة في الحقيقة أمر للنّاظر البَحّاث أن يتحرّى الإنصاف في بحثه ونظره مع رفيقه، وألا يقصد المِراءَ والمغالَبة والقَهرَ.

- ٢٤١ -

الأصل: إنَّ لله تعالى في كُلِّ نِعْمَةٍ حَقًّا، فَمَن أَدَّاهُ زَادَهُ مِنْها، وَمَنْ قَصَّرَ فِيهِ خاطَرَ بِزَوَالِ نِعْمَتِهِ.

الشرح: قد تقدّم الكلامُ في هذا المعنى.

وجاء في الخبر: مَن أوتي نعمةً فأدّى حقَّ الله منها بِرَدِّ اللّهفة، وإجابةِ الدّعوة وكشْف المظلمة، كان جديراً بدوامها ومَنْ قَصَّر قُصِّرَ به.

- ٢٤٢ -

الأصل: إِذَا كَثُرتِ المُقْدُرَةُ قَلَّتِ الشَّهْوَةُ.

الشرح: هذا مِثلُ قولهم: كلُّ مقدورٍ عليه مملول، ومثل قول الشاعر.

وكـلُّ كـثـيـرٍ عـدوُّ الـطّـبـيـعـة

ومثل قولِ الآخر:

واخٍ كَـثُـرْتُ عـلـيـه حـتّـى مَـلّـنـي ... والـشـيءُ مـمـلـولٌ إذا هـو يـرخُـصُ

يـا لـيـتـه إذْ بَـاعَ وُدّيَ بـاعَـه ... مـمّـن يـزيـد عـلـيـه لا مـن يَـنـقُـصُ

ولهذا الحُكم عِلّة في العِلْم العقليّ، وذلك أنّ النفس عندهم غنيّة بذاتها، مكتفِيَة بنفسها، غيرُ محتاجة إلى شيء خارج عنها، وإنما عَرضتْ لها الحاجة والفَقْر إلى ما هو خارج عنها لمقارَنتها الهَيُولَى، وذلك أن أمْرَ الهيُولي بالضدّ من أمرِ النّفس في الفَقْر والحاجة، ولمّا كان الإنسانُ مركّباً من النّفس والهيُولَى عرض له الشوقُ إلى تحصيلِ العلوم والقنيات لانتفاعِه بهما، والتذاذِه بحصولهما، فأما العلوم فإنه يحصّلها في شبيهٍ بالخزانة له، يَرجِع إليها متى شاء، ويستخرج منها ما أراد، أعني القُوَى النفسانيّة الّتي هي محلّ الصّوَر والمعاني على ما هو مذكور في موضعه. وأما القنيات والمحسوسات فإنّه يروم منها مِثل ما يَرومُ من تلك، وأن يُودِعها خِزانةً محسوسةً خارجةً عن ذاته، لكنّه يَغلَط في ذلك من حيث يَستكْثِر منها، إلى أن يتنبّه بالحِكْمة على ما ينبغي أن يقتنَى منها، وإنّما حَرَص على ما مُنِع لأنّ الإنسان إنما يطلُب ما ليسَ عندَه، لأن تحصيلَ الحاصِل مُحال، والطّلَب إنما يتوجّه إلى المعدوم، لا إلى الموجود، فإذا حصّله سَكَن وعَلِم أنه قد ادّخره، ومتى رَجَع إليه وَجَده إن كان ممّا يَبقَى بالذّات، خَزَنَه وتَشوّق إلى شيءٍ آخر منه، ولا يزال كذلك إلى أن يعلم أنّ الجُزئيّات لا نهايةَ لها وما لا نهاية له، فلا مَطْمع في تحصيله، ولا فائدَة في النزوع إليه، ولا وَجه لَطَلَبِه سواء كانَ معلوماً أو محسوساً، فوَجَب أن يقصد من المعلومات إلى الأهمّ ومن المُقْتَنَيات إلى ضَرُورات البدن ومُقيماتِه، ويَعدِل عن الاستكثار منها، فإنّ حصولها كلّها مع أنّها لا نهاية لها غيرُ ممكن، وكلّما فضل عن الحاجة وقَدْر الكفاية فهو مادّة الأحزان والهموم، وضُروب المكاره. والغَلَط في هذا الباب كثير، وسبب ذلك طمعُ الإنسان في الغِنَى من مَعدِن الفقر، لأن الفقر هو الحاجة، والغنَى هو الاستقلال، إلى أن يحتاج إليه، ولذلك قيل: إن الله تعالى غَنيّ مُطلَقاً، لأنه غيرُ محتاج البتّة، فأما من كثرت قنياته فإنّه يستكثر حاجاتِه بحَسَب كثرة قنياته، وعلى قدْرها رغّبه إلى الاستكثارِ بكثرة وجوه فَقْره، وقد بُيّن ذلك في شرائع الأنبياء، وأخلاقِ الحكماء، فأما الشيء الرخيصُ الموجود كثيراً فإنّما يُرغَب عنه، لأنّه معلوم أنه إذا التمسَ وُجد والغالي فإنّما يقدر عليه في الأحيان ويصيبه الواحدُ بعدَ الواحد، وكلّ إنسان يتمنى أن يكون ذلك الواحدَ ليصيبَه وليحصُلَ له ما لا يَحصُل لغيره.

- ٢٤٣ -

الأصل: احْذرُوا نِفارَ النِّعَم، فَمَا كُلُّ شَارِدٍ بِمَرْدُودٍ.

الشرح: هذا أمرٌ بالشُّكر عَلَى النعمة وتركِ المعاصي، فإنّ المعاصيَ تُزِيل النِّعَم كما قيل:

إذا كـنـتَ فـي نِـعـمـةٍ فـارْعَـهـا   فـإنّ الـمَـعـاصـي تُـزيـل الـنِّـعَـمْ

وقال بعض السلف: كُفْران النِّعْمة بَوار، وقلّما أقلعتْ نافرةٌ فرجعتْ في نصابها، فاستَدْعِ شارِدَها بالشّكر، واستَدِمْ راهنها بكَرَم الجِوار، ولا تحسب أنّ سُبوغَ ستر الله عليك غير متقلّص عمّا قليل عنك إذا أنتَ لم ترْجُ لله وَقاراً.

وقال أبو عصمة: شَهِدتُ سُفيانَ وفُضَيْلاً فما سمعتُهما يتذاكران إلّا النعم، يقولان: أنعم الله سبحانَه علينا بكذا، وفَعل بنا كذا.

وقال الحسن: إذا استوى يَوْماك فأنتَ ناقص، قيل له: كيف ذاك؟ قال: إنْ زَادَكَ الله اليومَ نِعَماً فعليك أن تَزْدَاد غَداً له شُكراً.

وكان يقال: الشكرُ جُنّة من الزّوال، وأَمَنة من الانتقال.

وكان يقال: إذا كانت النعمة وَسيمةً فاجعَل الشكرَ لها تَميمة.

– ٢٤٤ –

الأصل: الكَرَمُ أَعْطَفُ مِنَ الرَّحِمِ.

الشرح: مِثلُ هذا المعنى قولُ أبي تمام لابن الجَهْمِ:

إلّا يَـكُـنْ نـسـبٌ يـؤلّـفُ بـيـنـنـا   أدبٌ أقـمـنـاه مـقـامَ الـوَالـدِ
أو يـخـتـلِـفْ مـاءُ الـوصـالِ فـمـاؤُنـا   عَـذْبٌ تـحـدَّرَ مـن غـمـامٍ واحـدِ

ومن قصيدةٍ لي في بعض أغراضي:

وشـائـجُ الآدب عـاطِـفـةُ الـ   ـفُـضَـلاء فـوقَ وَشـائـج الـنَّـسَـبِ

– ٢٤٥ –

الأصل: مَن ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ.

الشرح: هذا قد تقدّم في وصيّته عليه السلام لولَدِه الحسن.

ومن كلام بعضهم: إنّي لأستحيي أن يأتيَني الرجُلُ يحمَرُّ وجهُه تارةً من الخَجَل، أو يصفَرّ أخرى من خوف الرّدّ قد ظَنّ بي الخيرَ وباتَ عليه وغَدَا عليَّ أن أردَّه خائباً.

- ٢٤٦ -

الأصل: أَفْضَلُ الأَعْمَالِ مَا أَكْرَهْتَ نَفْسَكَ عَلَيْهِ.

الشرح: لا رَيْب أنّ الثواب على قدر المَشقّة، لأنه كالعِوَض عنها، كما أنّ العِوَض الحقيقيّ عِوَضٌ عن الألم، ولهذا قال ﷺ: «أفضل العبادة أحمزُها»[1]. أي أشقّها.

- ٢٤٧ -

الأصل: عَرَفْتُ الله سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ العَزَائِمِ، وَحَلّ العُقُودِ، وَنَقْضِ الْهِمَمِ.

الشرح: هذا أحدُ الطُّرُق إلى معرفة البارئ سبحانه، وهو أن يَعزِم الإنسانُ على أمرٍ، ويصمّمَ رأيه عليه، ثمّ لا يَلبَثَ أن يُخطِر الله تعالى بباله خاطراً صارِفاً له عن ذلك الفعل، ولم يكنْ في حِسابه، أي لولا أن في الوجود ذاتاً مدبّرة لهذا العالم لما خَطَرت الخواطرُ الّتي لم تكن محتَسَبة، وهذا فصلٌ يتضمّن كلاماً دقيقاً يذكره المتكلّمون في الخاطر الّذي يَخطِر عن غيرِ مُوجب لخُطُوره، فإنه لا يجوز أن يكون الإنسان أخطَرَه بباله، وإلّا لكان ترجيحاً من غير مرجّح لجانب الوجود على جانب العدم، فلا بدّ أن يكون المخطِر له بالبال شيئاً خارجاً عن ذات الإنسان، وذاك هو الشيء المسمّى بصانِع العالم.

وليس هذا الموضع ممّا يحتمِل استقصاءَ القولِ في هذا المبحَث.

ويقال: إنّ عَضُد الدّولة وقعتْ في يده قصّة وهو يَتصفّح القِصص، فأمر بصَلْب صاحبها، ثمّ أتبع الخادمَ خادماً آخر يقول له: قل للمطهّر - وكان وزيرَه - لا يَصلُبه، ولكن أخرِجه من الحبْس فاقطعْ يدَه اليمنى، ثم أتبَعه خادماً ثالثاً، فقال: بل تقول له: يقطع أعصابَ رجليْه، ثم

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٤٥٩) وقال: لا يُعرف.

أتبعه خادماً آخرَ فقال له: ينقله إلى القَلْعة ببيراف في قيودِه فيَجعله هناك، فاختلفتْ دَواعيه في ساعةٍ واحدة أربع مرّات.

– ٢٤٨ –

الأصل: مَرَارَةُ الدُّنْيَا حَلاوَة الآخِرَةِ، وَحَلاوَةُ الدُّنْيَا مَرَارَةُ الآخِرَةِ.

الشرح: لمّا كانت الدنيا ضدَّ الآخرة، وجَب أن يكون أحكام هذه ضدّ أحكام هذه، كالسّواد يجمَع البَصر والبَياض يفرق البصر، والحَرارة توجب الخفّة، والبُرودة توجب الثّقل، فإذا كان في الدّنيا أعمالٌ هي مرة المَذاق على الإنسان قد ورد الشرعُ بإيجابِها فتلك الأفعال تَقتضِي وتوجِب لفاعلها ثواباً حُلْوَ المَذاق في الآخرة.

وكذاك بالعكس ما كان من المشتَهيَات الدنياويّة الّتي قد نَهَى الشرعُ عنها تُوجب، – وإن كانت حُلْوة المذاق – مَرارة العقوبة في الآخرة.

– ٢٤٩ –

الأصل: فَرَضَ الله الإيمَانَ تَطْهِيراً مِنَ الشِّرْكِ، وَالصَّلاةَ تَنْزِيهاً عَنِ الْكِبْرِ، والزَّكَاةَ تَسْبيباً للرزْقِ، وَالصِّيامَ ابْتِلاءً لإخْلاصِ الخَلْقِ، وَالحَجَّ تَقْوِيَةً لِلدِّين، وَالْجِهَادَ عِزّاً للإسْلام، وَالأمْرَ بِالمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعَوَامِّ، وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ رَدْعاً لِلسُّفَهَاءِ، وَصِلَةَ الرَّحِمِ مَنْمَاةً لِلْعَدَدِ، وَالْقِصَاصَ حَقْناً لِلدِّمَاءِ، وَإِقَامَةَ الحُدُودِ إعْظاماً لِلْمَحَارِمِ، وَتَرْكَ شُرْبِ الْخَمْرِ تَحْصِيناً لِلْعَقْلِ، ومُجَانَبَةَ السَّرِقةِ إيجَاباً لِلْعِفَّةِ، وَتَرْكَ الزِّنَى تَحْصِيناً لِلنَّسَبِ، وَتَرْكَ اللِّوَاطِ تَكْثِيراً لِلنَّسْل، والشَّهَادَاتِ اسْتِظْهَاراً عَلَى المُجَاحَدَاتِ، وَتَرْكَ الكَذِبِ تَشْرِيفاً لِلصِّدْقِ، وَالسَّلامَ أمَاناً مِنَ المَخَاوِفِ، وَالأمَانَةَ نِظَاماً للأمّةِ، وَالطَّاعَة، تَعْظِيماً لِلإمَامَةِ.

الشرح: هذا الفصلُ يتضمّن بيانَ تعليل العبادات إيجاباً وسَلْباً.

قال عليه السلام: فَرَضَ الله الإيمانَ تَطْهيراً مِن الشِّرْك، وذلك لأنَّ الشِّرْك نَجاسَة حُكْمِية لا

عينية، وأيّ شيء يكون أنجس من الجَهْل أو أقبح! فالإيمان هو تطهيرُ القَلْب من نجاسةِ ذلك الجهل.

وفُرِضت الصّلاة تنزيهاً من الكِبْر، لأن الإنسان يقوم فيها قائماً، والقيام مُنافٍ للتكبُّر وطاردٌ له، ثم يَرفع يديه بالتكبير وقتَ الإحرام بالصّلاة فيصير على هيئة من يمدّ عنقَه ليوسِّطه السَّيَّاف، ثم يستكتف كما يفعَله العبيد الأذلاء بين يدَي السادة العظماء، ثمّ يركَع على هيئة من يمدّ عنقه ليضربَها السيّاف، ثمّ يَسجُد فيضعَ أشرَف أعضائه وهو جَبْهته على أدوَنِ المواضع، وهو التراب. ثم تتضمّن الصلاةُ من الخضوع والخشوع والامتناع من الكلام والحركة الموهمة لمن رآها أنَّ صاحبَها خارجٌ عن الصّلاة، وما في غضونِ الصلاة من الأذكار المتضمِّنة الذُّلَّ والتواضع لعظمةِ الله تعالى.

وفُرِضت الزّكاة تسبيباً للرزق، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾[١]، وقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾[٢].

وفُرِض الصيامُ ابتلاءً لإخلاص الخلْق، قال النبيّ ﷺ حاكياً عن الله تعالى: «الصومُ لي وأنا أَجْزِي به»[٣]، وذلك لأنّ الصوم أمرٌ لا يطّلع عليه أحد، فلا يقوم به على وجهه إلّا المخلِصون.

وفُرِض الحجّ تقويةً للدِّين، وذلك لما يحصُل للحاجّ في ضِمنهِ من المتاجِر والمكاسِب، قال الله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾[٤]. وأيضاً فإنّ المشركين كانوا يقولون: لولا أنّ أصحاب محمّد كثير وأولُو قوّة لما حجّوا، فإنّ الجيشَ الضعيفَ يعجز عن الحجّ من المكان البعيد.

وفُرِض الجهادُ عزًّا للإسلام، وذلك ظاهر، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[٥]، وقال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[٦].

وفُرِض الأمر بالمعروف مصلحةً للعوامّ، لأنّ الأمر بالعدل والإنصاف وردِّ الودائع، وأداءِ

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٩. (٢) سورة الحديد، الآية: ١١.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ (٧٤٩٢)، ومسلم، كتاب: الصيام، باب: فضل الصيام (١١٥١)، والترمذي، كتاب: الصوم، باب: ما جاء في فضل الصوم (٧٦٤)، والنسائي، كتاب: الصيام، باب: فضل الصيام (٢٢١١).

(٤) سورة الحج، الآية: ٢٨. (٥) سورة الحج، الآية: ٤٠.

(٦) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

الأمانات إلى أهلها، وقضاءِ الديون، والصِّدق في القول، وإيجاز الوعد، وغير ذلك من محاسن الأخلاق، مصلحة للبَشَر عظيمة لا محالة.

وفُرِض النهيُ عن المنكَر رَدْعاً للسّفهاء، كالنّهي عن الظلم والكَذِب والسَّفَه، وما يَجري مَجرَى ذلك. وفُرِضت صِلَة الرَّحِم مَنْماةً للعَدَد، قال النبيّ ﷺ: «صلة الرَّحم تَزيد في العمر وتُنَمّي العَدَد»[1].

وفُرِض القِصاصُ حَقْناً للدِّماء، قال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2]

وفُرِضت إقامة الحدود إعظاماً للمحارم، وذلك لأنه إذا أقيمتْ الحدودُ امتنع كثيرٌ من الناس عن المعاصي التي تجبُ الحدُودُ فيها، وظهر عظم تلك المعاصِي عند العامّة فكانوا إلى تركها أقرب.

وحُرِّم شربُ الخمْر تحصيناً للعقل، قال قوم لحكيم: اشرَبْ اللّيلة معنا، فقال: أنا لا أشرَب ما يَشرَب عَقْلي، وفي الحديث المرفوع: «إنَّ مَلكاً ظالماً خيَّر إنساناً بين أن يُجامِع أمّه أو يَقتُل نفساً مؤمِنة، أو يَشرَب الخمر حتّى يَسكر، فرأى أنّ الخمر أهوَنُها، فشَرِب حتّى سَكِر، فلمّا غَلَبه قام إلى أمّه فوَطِئها، وقام إلى تلك النفس المؤمنةِ فقتَلها»، ثم قال عليه السلام: «الخمرُ جماعُ الإثم، الخمر أمُّ المعاصي»[3].

وحُرِّمت السَّرِقة إيجاباً للعفّة، وذلك لأنّ العفّة خُلُقٌ شريف، والطمعُ خُلُقٌ دنيءٌ، فحرمت السّرقة ليتمرَّن الناسُ على ذلك الخُلقِ الشريف، ويجانبوا ذلك الخُلُقَ الذميمَ، وأيضاً حُرِّمت لما في تحريمها من تحصين أموال الناس.

وحرِّم الزنى تحصيناً للنَّسَب، فإنَّه يُفضِي إلى اختلاط المِياه واشتباهِ الأنساب، وألّا يُنسَب أحدٌ بتقدير ألّا يشرَع النكاح إلى أب، بل يكون نَسبُ الناس إلى أمّهاتهم، وفي ذلك قلبُ الحقيقة، وعكسُ الواجب؛ لأنّ الولد مخلوقٌ من ماء الأب، وإنّما الأمّ وعاء وظَرْف.

وحُرِّم اللّواط تكثيراً للنَّسل، وذلك اللّواط بتقدير استفاضتِه بين الناس والاستغناء به عن النّساء يُفضِي إلى انقطاع النّسل والذّرّية، وذلك خلاف ما يريد الله تعالى من بقاء هذا النوع الشّريف الّذي ليس في الأنواع مِثله في الشّرف، لمكان النفس الناطقة الّتي هي نسخةٌ ومِثالٌ للحَضْرة الإلهية، ولذلك سمَّت الحكماءُ الإنسانَ العالَمَ الصغير.

---

(١) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٩٤)، والطبراني في «الأوسط» (٩٤٣) دون قوله: «وتنمي العدد».

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٩.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه رقم: ١٢٥٧٩، وذكره القرطبي في تفسيره: ٧/ ١٣٢.

وحُرِّم الاستمناء باليد وإتيان البهائِم للمعنى الّذي لأجلِه حُرِّم اللّواط، وهو تقليل النّسْل، ومن مستحسَن الكلمات النبويّة قولُه ﷺ في الاستمناء باليد: «ذلك الوَأْد الخَفيّ»[1]؛ لأنّ الجاهليّة كانت تَئِد البناتِ أي تَقتُلُهنّ خَنْقاً، وقد قدّمنا ذكر سبب ذلك، فشبَّه ﷺ إتلاف النطفة الّتي هي ولدٌ بالقوّة بإتلاف الولد بالفعل.

وأوجبتْ الشهاداتُ على الحقوق استظهاراً على المجاحَدات، قال النبيّ ﷺ: «لو أُعطِيَ الناسُ بدعاوِيهم لاسْتَحلَّ قومٌ من قوم دماءَهم وأموالهم»[2]، ووَجَب تركُ الكذبِ تشريفاً للصّدق، وذلك لأنّ مصلحة العامة إنما تتمّ وتنتظم بالصّدق، فإنّ الناس يَبنُون أكثرَ أمورهم في معاملاتهم على الأخبار، فإنّها أعمّ من العِيان والمُشاهَدة، فإذا لم تكن صادقةً وقع الخطأ في التدبيرات، وفسَدتْ أحوالُ الخَلْق.

وشُرِع رَدُّ السلام أماناً من المخاوِف؛ لأنّ تفسير قولِ القائل: «سلامٌ عليكم»، أي لا حَرْبَ بيني وبينكم، بل بيني وبينكم السلام، وهو الصلح.

وفُرِضت الإمامة نظاماً للأمّة، وذلك لأنّ الخَلق لا يرتفع الهرْج والعَسْف والظّلم والغَضَب والسّرقة عنهم إلا بوازعٍ قويٍّ، وليس يَكْفِي في امتناعهم قُبح القبيح، ولا وعيدُ الآخرة، بل لا بدّ لهم من سلطان قاهر ينظّم مصالحهم، فيَردَع ظالمَهم، ويأخذ على أيدي سُفَهائهم.

وفُرضت الطّاعة تعظيماً للإمامة، وذلك لأن أمْرَ الإمامة لا يتم إلّا بطاعة الرّعيّة، وإلّا فلو عَصَت الرعيّة إمامَها لم ينتفعوا بإمامتِه ورئاستِه عليهم.

– ٢٥٠ –

الأصل: وكان ﷺ يقول: **أَحْلِفُوا الظَّالِمَ إِذَا أَرَدْتُمْ يَمِينَهُ بِأَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ حَوْلِ الله وَقُوَّتِه، فَإِنَّهُ إِذَا حَلَفَ بِهَا كَاذِباً عُوجِلَ، وَإِذَا حَلَفَ بالله الَّذِي لا إِلهَ إِلّا هُوَ لَمْ يُعَاجَلْ، لأنه قَدْ وَحَّدَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.**

---

(١) ذكر القضاعي في «مسند الشهاب (٥٦)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١٢٢٥)، دون قوله: «الخمر أم المعاصي».

(٢) أخرج نحوه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً (٤٥٥٢)، ومسلم، كتاب: القضية، باب: اليمين على المدعى عليه (١٧١١)، والنسائي، كتاب: آداب القضاة، باب: عظة الحاكم اليمين (٥٤٢٥)، وابن ماجه، كتاب: الأحكام، باب: البينة على المدعي (٢٣٢١).

الشرح: رَوَى أبو الفرج عليُّ بن الحسين الأصبهانيّ في كِتاب «مَقاتِل الطالبِيّين» أن يحيى بن عبد الله بن الحسَن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام لمّا آمّنه الرشيدُ بعد خروجه بالدّيْلم وصار إليه بالغَ في إكرامه وبِرّه، فسَعَى به بعد مدّة عبدُ الله بنُ مصعب الزبيريّ إلى الرشيد – وكانَ يُبغضه – وقال له: إنه قد عاد يدعو إلى نفسه سِرًّا، وحَسّنَ له نقضَ أمانه، فأحضرَه وجَمَع بينه وبين عبد الله بن مصعب ليناظِرَه فيما قَذَفَه به ورفَعَه عليه فجَبَهَه ابنُ مصعب بحضرة الرشيد، وادّعى عليه الحركة في الخروج وشقّ العصا، فقال يحيى: يا أمير المؤمنين، أتصدّق هذا عليّ وتَستنصِحه، وهو ابنُ عبدِ الله بن الزّبير، الذي أدخَل أباك عبدَ الله وولده الشِّعب، وأضرَم عليهم النار حتى خلّصه أبو عبد الله الجدليّ، صاحب عليّ بن أبي طالب عليه السلام منه عَنْوة، وهو الذي ترك الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله أربعين جُمُعة في خُطبته، فلمّا الْتاثَ عليه الناسُ قال: إن له أُهَيل سُوء إذا صَلّيت عليه أو ذكرتُه أتْلعوا أعناقَهم واشرأبُّوا لِذِكره، فأكْرَه أن أسرَّهم أو أقِرّ أعينهم، وهو الّذي كان يَشتُم أباك ويُلصِق به العيوب حتى وَرِم كبدُه، ولقد ذبحتُ بقرةً يوماً لأبيك فوُجِدتْ كبدُها سَوْداء قد نقِبت، فقال عليّ ابنه: أما تَرى كبدَ هذه البقرة يا أبت! فقال: يا بنيّ هكذا ترك ابنُ الزّبير كبد أبيك، ثمّ نفاه إلى الطائف، فلمّا حضرتْه الوَفاة قال لابنه عليّ: يا بنيّ إذا مِتّ فالحقْ بقومِك من بني عبد مناف بالشام، ولا تُقِم في بلدٍ لابن الزبير فيه إمْرة، فاختار له صحبة يزيد بن معاوية على صحبة عبد الله بن الزبير. ووالله إنّ عداوةَ هذا يا أميرَ المؤمنين لنا جميعاً بمنزلةٍ سواء، ولكنّه قَوِي عليّ بك، وضعُفَ عنك، فتقرَّبَ بي إليك ليَظفَر منك بي بما يريد، إذا لم يَقدِر على مثله منك، وما ينبغي لك أن تسوّغه ذلك فيّ، فإن معاوية بن أبي سُفْيان وهو أبعَد نسباً منك إلينا ذَكَر الحسنَ بن عليّ يوماً فَسَبَّه، فساعَدَه عبدُ الله بن الزبير على ذلك، فزَجَره وانتهرَه، فقال: إنما ساعدتُك يا أمير المؤمنين، فقال: إن الحَسَن لحمي آكُلُه ولا أُوكِلُه. ومع هذا فهو الخارجُ مع أخي محمّد على أبيك المنصور أبي جعفر، والقائِل لأخي في قصيدة طويلةٍ أولها:

إنّ الحمامة يوم الشّعب مِن وثنٍ ... هاجت فؤاد مُحِبٌّ دائِم الْحَزنِ

يُحرِّض أخي فيها على الوثوب والنهوض إلى الخلافة، ويَمدَحُه ويقول له:

لا عَزَّ رُكْنَا نزارٍ عند سَطْوَتِها ... إن أسلَمَتْك ولا رُكنَا ذَوِي يَمَنِ

ألستَ أكرمهم عُوداً إذا انتَسَبوا ... يوماً وأطهَرهم ثوباً من الدَّرَنِ!

وأعظَمَ الناس عند الناس منزلةً ... وأبعَدَ الناسِ من عَيْبٍ ومن وَهَنِ!

قومُوا بِبَيْعَتكم نَنْهض بطاعتها ... إنّ الخلافة فيكُمْ يا بني حَسَنِ

إنّا لنأمُل أن ترتدّ أُلْفتنا ... بعد التّدابُر والبغضاءِ والإحَنِ

حتّى يثابَ على الإحسان مُحسِنُنا ... ويأمَنَ الخائِفُ المأخوذُ بالذّمنِ

وتنقضِي دولةٌ أحكامُ قادتِها ... فينا كأحكام قوم عابدِي وثنِ

فطالما قد بروا بالجوْر أعظمنا   بَرْي الصّناع قِداحَ النَّبْع بالسفنِ

فتغيّر وجهُ الرّشيد عند سماع هذا الشعر، وتغيّظ على ابن مصعب، فابتدأ ابنُ مصعب يَحلِف بالله الّذي لا إله إلّا هو وبأيمان البيعة أنّ هذا الشّعر ليس له، وأنه لسَدِيف، فقال يحيى: والله يا أمير المؤمنين ما قاله غيرُه، وما حلفتُ كاذباً ولا صادقاً بالله قبل هذا، وإنّ الله عزّ وجلّ إذا مجّده العبدُ في يمينه فقال: واللّهِ الطالب الغالب الرحمن الرحيمُ، استَحْيَا أن يعاقِبه، فدَعْني أن أحلّفه بيمينٍ ما حَلف بها أحدٌ قطّ كاذباً إلا عُوجِل، قال فحلّفه، قال قل: بَرِئتُ من حَوْل الله وقوّته، واعتصمتُ بحولي وقوّتي، وتقلّدت الحولَ والقُوّة من دون اللهِ، استكباراً على الله واستعلاء عليه، واستغناء عنه إن كنتُ قلتُ هذا الشِّعْر! فامتنَع عبدُ اللّهِ من الحِلف بذلك، فغَضِب الرشيد، وقال للفضل بن الربيع: يا عباسيُّ ما لَه لا يَحلِف إن كان صادقاً! هذا طَيْلَساني عليّ، وهذه ثيابي لو حَلّفني بهذه اليمين أنّها لي لحلفتُ. فوَكزَ الفضلُ عبدَ اللّه برِجْله - وكان له فيه هَوًى - وقال له: احلِف وَيحك! فجعل يحلِف بهذه اليمين، ووجْهُهُ متغيِّر، وهو يُرعَد، فضَرَب يحيى بين كتفيه، وقال: يا بن مُصعب، قَطَعتَ عُمرَك، لا تُفْلِح بعدَها أبداً!

قالوا: فما بَرِح من موضعه حتى عَرَضَ له أعراضُ الجذام، استدارَتْ عيناه، وتفقأ وجهُه، وقام إلى بيته فتقطّع وتشقّق لحمه وانتثر شَعرُه، ومات بعد ثلاثة أيام، وحضر الفضلُ بن الربيع جَنازَته، فلمّا جُعل في القبر انخَسَفَ اللّحد به حتى خرجتْ منه غَبرة شديدة، وَجَعل الفضلُ يقول: الترابَ التُّرابَ! فطرح الترابُ وهو يَهوي، فلم يستطيعوا سَدّه حتى سقف بخشب، وطمّ عليه، فكان الرشيد يقول بعد ذلك للفضل: أرأيت يا عباسيّ ما أسرَع، ما أديل ليحيى من ابن مصعب!

- ٢٥١ -

الأصل: يَا بْنَ آدَمَ، كُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ، وَاعْمَلْ فِي مَالِكَ ما تُؤْثِرُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهِ مَنْ بَعْدَكَ.

الشرح: لا ريبَ أن الإنسان يُؤثِر أن يُخرَج مالُه بعد موته في وجوه البِرّ والصدقات والقُرُبات ليَصِل ثوابُ ذلك إليه، لكنّه يضِنّ بإخراجه وهو حيٌّ في هذه الوجوه لحبّه العاجلة وخوفِه من الفقر والحاجة إلى الناس في آخِر العُمر، فيقيم وصيًّا يَعْمَل ذلك في ماله بعد موته.

وأوصَى أميرُ المؤمنين عليه السلام الإنسانَ أن يَعمَل في ماله وهو حيّ ما يُؤثِر أن يُجعَل فيه وصيّة بعد موته، وهذه حالة لا يَقدِر عليها إلّا من أخَذَ التوفيقُ بيَدِه.

- ٢٥٢ -

الأصل: اَلحِدَّةُ ضَرْبٌ مِنَ الْجُنُونِ، لأنَّ صَاحِبَهَا يَنْدَمُ، فَإِنْ لَمْ يَنْدَمْ فَجُنُونُهُ مُسْتَحْكِمٌ.

الشرح: كان يقال: الحِدّة كُنْيَة الجهل.

وكان يقال: لا يصحّ لحَديدٍ رَأيٌ؛ لأنّ الحِدّة تُصْدِئُ العَقْل كما يُصْدِئ الخَلُّ المِرآة، فلا يَرَى صاحبُه فيه صورة حَسن فيَفعَله، ولا صُورة قبيح فيجتنِبَه.

وكان يقال: أوّل الحِدّة جنون وآخِرها نَدَم.

وكان يقال: لا تَحمِلنّك الحِدّة على اقتراف الإثم، فتَشفِيَ غيظَك، وتُسقِم دِينَك.

- ٢٥٣ -

الأصل: صِحَّةُ الجَسَدِ مِنْ قِلَّةِ الحَسَدِ.

الشرح: معناه أنّ القليل الحَسدِ لا يزال مُعافًى في بدنه، والكثير الحَسد يُمْرِضه ما يجده في نفسه من مَضاضَة المُنافسة، وما يتجرّعه من الغيظ، ومزاجُ البدَن يتّبع أحوالَ النّفس.

قال المأمون: ما حَسَدْتُ أحداً قطّ إلّا أبا دُلفٍ على قول الشاعر فيه:

إنَّما الدّنيا أبو دُلَفٍ ... بين باديهِ ومحتَضَرِهْ

فإذا وَلَّى أبُو دُلَفٍ ... ولّت الدنيا على أثَرِهْ

وَرَوَى أبو الفرج الأصْبَهانيّ عن عَبْدوس بن أبي دُلفٍ قال: حدّثني أبي، قال: قال لي المأمون: يا قاسم، أنت الذي يقول فيك عليُّ بنُ جَبَلة:

إنما الدُّنيا أبو دُلَفٍ

البيتين، فقلت مُسرِعاً: وما ينفَعني ذلك يا أمير المؤمنين مع قوله فيّ:

أبا دلفٍ يا أكذبَ الناس كلِّهمْ ... سِوايَ فإنّي في مَديحك أكذَبُ

ومع قول بكر بن النطّاح فيّ:

أبا دُلَفٍ إنّ الفقير بعَيْنه ... لَمَنْ يَرتجي جَدْوَى يديْكَ ويأمُلُهْ

أرى لـك بـابـاً مُـغـلَـقـاً مـتـمـنّـعـاً إذا فَـتَـحـوه عـنـك فـالـبـؤسُ داخـلُـهْ
كـأنّـك طـبـلٌ هـائـلُ الـصّـوت مـعـجِـبٌ خَـلِيٌّ مـن الـخَـيْـرات تَـغْـشّ مَـدَاخِـلُـهْ
وأعـجـب شـيء فـيـك تـسـلـيـمُ إمْـرَةٍ عـلـيـك عـلـى طَـنْـزٍ وأنّـك قـابِـلُـهْ

قال: فلما انصرَفْتُ قال المأمون لمن حوله: لله دَرّه! حَفِظَ هجَاءَ نفسِه حتى انتفع به عندي، وأطفأ لهيبَ المُنافَسة.

– ٢٥٤ –

الأصل: وقالَ عليه السلام لكُمَيْلِ بنِ زِيادٍ النَّخعيّ:

يا كُمَيْلُ، مُرْ أَهْلَكَ أَنْ يَرُوحُوا في كَسْبِ المَكَارِمِ، وَيُدْلِجُوا فِي حَاجَةِ مَنْ هُوَ نَائِمٌ، فَوَالذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأصواتَ، ما مِنْ أَحَدٍ أَوْدَعَ قلباً سُرُوراً إلّا وَخَلَقَ الله لَهُ مِنْ ذَلِكَ السُّرُورِ لُطفاً، فَإِذَا نَزَلَتْ بِهِ نَائِبَةٌ جَرَى إِلَيْهَا كَالْمَاءِ فِي ٱنْحِدَارِهِ، حَتَّى يَطْرُدَها عَنْهُ كما تُطْرَدُ غَرِيبةُ الإبِلِ.

الشرح: قال عمرو بنُ العاصِ لمعاوية: ما بقِيَ من لذّتك؟ فقال: ما من شيءٍ يُصيبُه الناس من اللّذّة إلّا وقد أصبتُه حتى مَللتُه، فليس شيءٌ عندي اليوم ألذّ من شربةِ ماءٍ بارد في يوم صائف، ونظري إلى بَنِيَّ وبناتي يَدرُجون حولي، فما بقِيَ من لذّتك أنت؟ فقال: أرضٌ أغرسُها وآكلُ ثمرتها، لم يبق لي لذّة غير ذلك. فالتفت معاويةُ إلى وَرْدان غلام عَمْرو، فقال: فما بقي من لذّتك يا وُرَيْد؟ فقال: سرورٌ أُدخِله قلوب الإخوان، وصنائعُ أعتقِدُها في أعناق الكرام، فقال معاوية لعَمْرو: تبًّا لمجلسي ومجلسك! لقد غلبني وغلبك هذا العبد، ثم قال: يا وَرْدان، أنا أحقُّ بهذا منك، قال: قد أمكنتك فافعَلْ.

فإن قلت: السرور عَرَضٌ، فكيف يخلُق الله تعالى منه لُطْفاً؟

قلت: مِنْ هاهنا هي مِثلُ «مِن» في قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾[1]، أي عِوَضاً منكم.

ومثلُه:

فـلـيـتَ لـنـا مـن مـاءِ زمـزم شَـرْبَـةً مـبـرَّدة بـاتـتْ عـلـى طَـهْـيـانِ

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٠.

أي ليت لنا شربةً مبرَّدة باتتْ على طَهَيان، وهو اسمُ جَبَل، بدلاً وعِوضاً من ماءِ زَمْزم.

— ٢٥٥ —

الأصل: إذا أمْلَقْتُمْ فَتاجِرُوا الله بالصَّدَقَةِ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في الصّدقة.

وقالت الحكماء: أفضل العِبادات الصَّدَقة، لأنّ نفعها يتعدّى، ونفعُ الصلاة والصّوم لا يتعدّى.

وجاء في الأثر أنّ عليًّا عليه السلام عَمِل ليهوديٍّ في سَقْيِ نَخْلٍ له في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله بمُدّ من شَعير، فخبزه قُرْصاً، فلمّا همّ أن يُفطر عليه، أتاه سائل يستطعم، فدفعه إليه، وبات طاوياً وتاجَر الله تعالى بتلْك الصدقة، فعَدّ الناس هذه الفعلة من أعظم السّخاء، وعدُّوها أيضاً من أعظم العبادة.

وقال بعضُ شعراء الشّيعة يذكر إعادة الشمس عليه، وأحسن فيما قال:

جادَ بالقُرْص والطَّوى مِلءُ جَنْبَيْـ ـهِ وعَافَ الطَّعامَ وهو سَغُوبُ

فأعاد القُرْصُ المنيرُ عليه الـ ـقُرْص المُقرِض الكرامِ كَسوبُ

— ٢٥٦ —

الأصل: الْوَفاءُ لأهْلِ الْغَدْرِ غَدْرٌ عِنْدَ الله، وَالغَدْرُ بأهْلِ الْغَدْرِ وَفاءٌ عِنْدَ الله.

الشرح: معناه أنه إذا اعتِيدَ من العدوّ أن يغدِر ولا يفي بأقواله وأيْمانه وعهوده، لم يجزْ الوفاء له، ووَجَب أن ينقض عهوده ولا يوقّف مع العهد المعقود بيننا وبينه، فإنّ الوفاء لمن هذه حالُه ليس بوفاءٍ عند الله تعالى، بل هو كالغَدْر في قُبْحه، والغدر بمن هذه حاله ليس بقبيح، بل هو في الحسن كالوفاءِ لمن يَستحِقُّ الوفاء عند الله تعالى.

- ٢٥٧ -

الأصل: كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالإِحْسَانِ إِلَيْه، ومَغْرُورٍ بالسِّتْرِ عَلَيْهِ، وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيه، وَما ابْتَلى الله سُبْحَانَهُ أَحَداً بِمِثْلِ الإِمْلاءِ لَهُ.

قَالَ الرَّضيُّ رَحِمَهُ الله تعالى: وَقَدْ مَضَى هَذَا الكلامُ فيما تقدَّمَ، إلّا أنَّ فيه هاهنا زِيادَةً جيِّدَةً.

الشرح: قد تقدم الكلام في الاستدراج والإملاء.

وقال بعضُ الحكماء: احذر النِّعم المتواصلة إليك أن تكون استدراجاً، كما يحذر المحارِب من اتباعِ عدوِّه في الحربِ إذا فرَّ من بين يديه من الكمِين، وكم من عدوٍّ فرَّ مستدرَجاً، ثمّ إذ هو عاطِفٌ، وكم من ضارعٍ في يديك ثمّ إذ هو خاطف.

- ٢٥٨ -

الأصل: ومن كلامه عليه السلام المتضمِّن ألفاظاً منَ الغريبِ تحتاجُ إلى تفسير: قوله عليه السلام في حديثِهِ: فإذا كانَ ذَلِكَ ضَرَبَ يَعْسُوبُ الدِّينِ بِذَنَبِهِ، فَيَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ كَما يَجتَمِعُ قَزَعُ الخَريف.

قال الرَّضيُّ رَحمهُ الله تعالىٰ: يَعْسُوبُ الدِّينِ: السَّيِّدُ العَظِيمُ المَالِكُ لِأُمُورِ النَّاسِ يَوْمئِذٍ، والقَزَعُ: قِطَعُ الْغَيْمِ الَّتِي لا مَاءَ فيها.

الشرح: أصاب في اليَعْسوب، فأمّا القَزَع فلا يُشترط فيها أن تكون خاليةً من الماء، بل القَزَع قِطَعٌ من السحاب رقيقة، سواء كان فيها ماء أو لم يكن، الواحدة قَزَعة بالفتح، وإنما غرّه قولُ الشاعر يصف جيشاً بالقلةِ والخفّة.

كأنّ رعالَه قَزَع الجَهام

وليس يدلّ ذلك على ما ذكَره، لأنّ الشاعر أراد المبالَغة، فإنّ الجهام الّذي لا ماءَ فيه إذا كان أقطاعاً متفرّقة خفيفة، كان ذِكرُه أبلَغ فيما يريدُه من التشبيه، وهذا الخبر من أخبار المَلاحِم

الّتي كان يُخبِر بها عليه السلام، وهو يَذكُر فيه المهديَّ الّذي يُوجَد عند أصحابنا في آخر الزمان.
ومعنى قوله: «ضَرَب بذَنَبه» أقام وثبت بعد اضطرابه، وذلك لأنّ اليَعسوب فَحْل النَّحْل وسَيِّدها، وهو أكثرُ زمانه طائرٌ بجَناحَيه، فإذا ضرَب بذَنَبه الأرضَ فقد أقامَ وتَرَكَ الطَّيَران والحركة.

فإن قلت: فهذا يشبه مذهبَ الإماميّة في أنّ المهديّ خائف مستتِر ينتقل في الأرض، وأنّه يظهر آخر الزمان ويثبت ويقيم في دار ملكه.

قلت: لا يبعد على مذهبنا أن يكون الإمام المهديّ الذي يظهر في آخر الزمان مضطرب الأمر، منتشرَ المُلك في أوّل أمرِه لمصلحة يَعلَمها الله تعالى، ثمّ بعد ذلك يثبُت مُلكُه، وتنتظم أمورُه.

وقد وردتْ لَفظةُ اليَعْسوب عن أمير المؤمنين عليه السلام في غير هذا الموضع، قال يومَ الجمل لعبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد وقد مرّ به قتيلاً: «هذا يَعْسوب قريش»، أي سيِّدُها.

— ٢٥٩ —

الأصل: وفي حديثِه عليه السلام: هَذا الخطِيبُ الشَّحْشَحُ.

قالَ: يُرِيدُ المَاهِرَ بالخُطْبةِ، الماضِيَ فيهَا، وكُلُّ ماضٍ في كَلامٍ أوْ سَيْر فَهُوَ شَحْشحٌ. والشَّحْشَحُ في غَيْرِ هذا المَوْضع: الْبَخِيلُ المُمْسِكُ.

الشرح: قد جاء الشَّحْشح بمعنى الغَيُور، والشحْشَح بمعنى الشُّجاع، والشَّحْشَح بمعنى المواظِب على الشيء الملازِم له، والشَّحْشَح: الحاوِي، ومِثله الشَّحْشحان.

وهذه الكلمة قالها عليٌّ عليه السلام لصَعْصعة بن صُوحان العبديّ رحمه الله، وكَفَى صعصعةَ بها فخراً أن يكون مِثل عليٍّ عليه السلام يُثني عليه بالمهارة وفَصاحة اللّسان، وكان صَعصعةُ من أفصح الناس، ذكَرَ ذلك شيخُنا أبو عثمانَ الجاحظ.

— ٢٦٠ —

الأصل: ومنهُ: إنَّ لِلْخُصُومَةِ قُحَماً.

قال الرَّضيُّ رَحمهُ الله: يُرِيدُ بالقُحَم المَهَالِكَ؛ لأنَّهَا تُقحِمُ أَصْحَابَهَا فِي المَهَالِكِ وَالمَتَالِفِ فِي الأَكْثَر فَمِنْ ذَلِكَ قُحْمَةُ الأَعْرابِ، وَهُوَ أَنْ تُصِيبَهُمُ السنَة فَتَتَفَرَّقُ أَمْوَالُهُمْ، فَذَلِكَ تَقَحُّمُهَا فِيهِمْ. وَقِيلَ فِيهِ وَجْهٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنَّهَا تُقْحِمُهُمْ بِلادَ الرِّيف، أَيْ تُحْوِجُهُمْ إِلَى دُخُولِ الحضر عِنْدَ مُحُولِ البَدوِ.

الشَّرْحُ: أصلُ هذا البناءِ للدُّخول في الأمر على غير رويّة ولا تثبُّت، قَحَمَ الرجلُ في الأمر بالفتح قُحوماً، وأقحَم فلانٌ فرسَه البحرَ فانقحَم، واقتحَمْتُ أيضاً البحرَ دخلتُه مكافحة، وقَحّم الفرسُ فارِسَه تقحيماً على وجهه، إذا رماه، وفحلٌ مِقْحَام، أي يَقتحِم الشَّوْلَ مِن غير إرسالٍ فيها.

وهذه الكلمة قالها أمير المؤمنين حين وَكَّل عبدَ اللّه بن جعفرٍ في الخصومة عنه، وهو شاهد.

وأبو حنيفةَ لا يُجيز الوَكالة على هذه الصّورة، ويقول: لا تجوز إلا من غائبٍ أو مريض، وأبو يوسف ومحمد يُجيزانها أخذاً بفعل أمير المؤمنين عليه السلام.

– ٢٦١ –

الأصل: ومنهُ: إذا بلغ النساءُ نَصَّ الحِقاقِ فالعَصَبة أولَى.

قال الرَّضيُّ رَحمهُ الله: ويروى «نصَّ الحقائقِ»، والنصُّ منتهى الأشياء ومبلغُ أقصاها كالنصّ في السير لأنه أقصى ما تقدرُ عليه الدابّة، ويقال: نصصتُ الرجلَ عن الأمرِ إذا استقصيتَ مسألته لتستخرجَ ما عنده فيه، ونصُّ الحقاقِ يريدُ به الإدراكَ، لأنه منتهى الصِّغر، والوقتُ الذي يخرجُ منه الصغيرُ إلى حدِّ الكِبر، وهو منْ أفصح الكِناياتِ عن هذا الأمرِ وأغربِها، يقولُ: فإذا بلغَ النساءُ ذلك فالعصَبةُ أولَى بالمرأةِ منْ أمِّها إذا كانوا محرماً مثلُ الإخوةِ والأعمامِ، وبتزويجها إنْ أرادوا ذلك.

والحِقاقُ: مُحاقَّةُ الأمّ للعصَبةِ في المرأةِ، وهو الجِدالُ، والخُصُومةُ، وقولُ كلِّ واحِدٍ منهما لِلآخرِ: أنا أحَقُّ منك بِهَذا، يُقالُ منهُ: حاققْتُهُ حِقاقاً، مِثْلُ جادلْتُهُ جِدالاً. قال: وقد قِيلَ إنَّ نَصَّ الحِقاقِ بُلُوغُ العقلِ وهو الإدراكُ؛ لأنه عليه السلام إنما أرادَ مُنتَهَى الأمرِ الذي تجبُ به الحُقوقُ والأحكامُ. قالَ: ومَنْ رواهُ «نصُّ الحَقائقِ» فإنما أرادَ جَمْعَ حقيقةٍ، هذا معنى ما ذكرهُ أبو عُبَيْدٍ القاسمُ بنُ سلاَّمٍ.

قال: والذي عندي أنَّ المرادَ بنصّ الحقاقِ هاهنا بُلُوغُ المرأةِ إلى الحَدِّ الذي يجوزُ فيه تزويجُها وتَصَرُّفُها في حقوقِها، تشبيهاً بالحِقاق مِنَ الإبِلِ، وهي جَمْعُ حِقَّةٍ وحِقٍّ، وهو الذي استكمَلَ ثلاثَ سنينَ ودخلَ في الرابعةِ، وعندِ ذلك يبلغُ إلى الحدِّ الذي يُمكِنُ فيه مِنْ رُكوبِ ظهرِه ونصِّهِ في سيره. والحقائِقُ أيضاً: جَمْعُ حِقَّةٍ، فالرِّوايتانِ جميعاً ترجِعانِ إلى مسمًّى واحِدٍ، وهذا أشبهُ بطريقَةِ العربِ مِنَ المعنى المذكور أوّلاً.

الشرح: أمّا ما ذكَره أبو عُبيد فإنّه لا يَشفِي الغليلَ؛ لأنه فسّر معنى النّصّ، ولم يفسّر معنى نَصّ الحقائق، بل قال: هو عبارةٌ عن الإدراك، لأنّه منتهى الصِّغَر، والوقت الذي يَخرُج منه الصغيرُ إلى حدّ الكِبَر، ولم يبيّن من أيّ وجهٍ يدلّ لفظ نَصّ الحقاق على ذلك، ولا اشتقاق الحِقاق وأصله، ليَظهَر من ذلك مُطابَقة اللّفظ للمعنى الّذي أشيرَ إليه.

فأمّا قولُهُ: «الحقاق هاهنا مَصدَر حاقّه يُحاقّه»، فلِقائلٍ أن يقول: إن كان هذا هو مقصودَه عليه السلام فقَبْل الإدراك يكون الحِقاق أيضاً، لأنّ كلّ واحدة من القرابات تقول للأخرى: أنا أحقُّ بها منك، فلا معنى لتخصيصِ ذلك بحالِ البُلوغ، إلا أن يزعُم زاعمٌ أنّ الأمّ قبل البُلوغ لها الحَضانة، فلا يُنازِعها قبلَ البلوغ في البِنْت أحد ولكنْ في ذلك خلافٌ كثير بين الفقهاء.

وأمّا التفسير الثاني، وهو أنّ المراد بنَصّ الحقاق منتهَى الأمر الذي تَجب به الحُقوق فإنّ أهلَ اللغة لم يَنقُلوا عن العَرَب أنّها استعمَلت الحِقاقَ في الحُقوق، ولا يُعرَف هذا في كلامهم.

فأمّا قولُه: «ومن رواه نَصَّ الحَقائِق»، فإنّما أراد جمع حقيقة، فلِقائلٍ أن يقول: وما معنى الحقائق إذا كانت جمعَ حقيقة هاهنا؟ وما معنى إضافة «نَصّ» إلى «الحَقائق» جمع حقيقة، فإنّ أبا عُبَيْدة لم يفسّر ذلك مع شدّة الحاجةِ إلى تفسيره!

وأمّا تفسيرُ الرضيّ - رحمه الله - فهو أشبَه من تفسير أبي عُبَيدة، إلّا أنّه قال في آخِره: والحقائق أيضاً جمعُ حِقّة، فالروايتان تَرجِعان إلى معنًى واحد. وليس الأمرُ على ما ذِكِر من أنّ الحقائق جمعُ حِقّة، ولكنّ الحقائق جمع حِقاق، والحِقاق جمع حِقّ، وهو ما كان من الإبل ٱبنَ ثلاث سنينَ، وقد دخل في الرابعة، فٱستَحقّ أن يُحمَل عليه ويُنتفع به، فالحقائق إذَن جمع الجَمْع لحِقّ لا لحِقّة، ومثل إفال وأفائل. قال: ويُمكِنِ أن يقال: الحقاق هاهنا الخصومة، يقال: ما لَه فيه حقّ ولا حِقاق أي ولا خصومة، ويقال لمن يُنازِع في صِغار الأشياء إنّه لبرق الحِقاق، أي خصومَتُه في الدَّنيء من الأمر، فيكون المعنى إذا بَلَغت المرأةُ الحَدَّ الَّذي يستطيع الإنسانُ فيه الخصومَة والجَدَالَ فَعَصَبتُها أولَى بها من أمّها، والحَدُّ الّذي تَكمُل فيه المرأة والغُلامُ للخُصومة والحكومة والجدال والمناظرة هو سِنُّ البُلوغ.

- ٢٦٢ -

الأصل: ومنهُ: إنَّ الإيمَانَ يَبْدُو لُمْظَةً في ٱلْقَلْبِ، كُلَّمَا ازْدَادَ الإيمَانُ ازْدَادَتْ اللُّمْظَةُ.

قال الرَّضيُّ رَحمهُ الله: اللُّمْظَةُ مِثْلُ النُّكْتَةِ أَوْ نَحْوِهَا مِنَ البَيَاضِ، وَمِنْهُ قِيلَ: فَرَسٌ ألْمَظُ إِذَا كَانَ بِجَحْفَلَتِهِ شَيْءٌ مِنَ الْبَيَاضِ.

الشرح: قال أبو عُبيدة: هي لُمْظَة بضم اللام، والمحدِّثون يقولون: لَمْظة بالفتح، والمعروفُ من كلام العَرَب الضّم، مِثْلُ الدُّهْمَة والشُّهْبة والحُمْرة. قال: وقد رواه بعضُهم: «لُمْطة» بالطّاء المهملة، وهذا لا نَعرِفه.

قال: وفي هذا الحديث حُجّة على مَنْ أنكر أن يكون الإيمانُ يزيدُ ويَنقُص، ألا تَرَاه يقول: كُلَّما ٱزدادَ الإيمانُ ٱزدادتْ اللُّمْظة.

- ٢٦٣ -

الأصل: ومنهُ: إنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ لَهُ الدَّيْنُ الظَّنُونُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُزَكِّيَهُ لِمَا مَضَى إِذَا قَبَضَهُ.

قال الرَّضيُّ رَحمهُ الله: الظَّنُونُ: الَّذِي لا يَعْلَمُ صَاحِبُهُ أَيَقْضِيهِ مِنَ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ أَمْ لا، فَكَأَنَّهُ الَّذِي يُظَنُّ بِهِ ذَلِكَ، فَمَرَّةً يَرْجُوهُ، وَمَرَّةً لا يَرْجُوهُ، وهو مِنْ أَفْصَحِ الكَلامِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ أَمْرٍ تَطْلُبُهُ وَلا تَدْرِي عَلَى أَيِّ شَيْءٍ أَنتَ مِنْهُ فَهُوَ ظَنُونٌ، وَعَلَى ذَلِكَ قَوْلُ الأَعْشَى:

مَنْ يَجْعَلِ الجُدَّ الظَّنُونَ الَّذِي ... جُنِّبَ صَوْبَ اللَّجِبِ المَاطِرِ

مِثْلَ الفُرَاتِيِّ إِذَا مَا طَمَا ... يَقْذِفُ بِالبُوصِيِّ وَالمَاهِرِ

والجُدُّ: البِئْرُ العَادِيَّةُ في الصَّحْرَاءِ. وَالظَّنُونُ: الَّتِي لا يُعْلَمُ هَلْ فِيهَا مَاءٌ أَمْ لا.

الشرح: قال أبو عُبَيْدة: في هذا الحديث من الفِقْه أنّ من كان له دَيْن على النّاس فليس عليه أن يُزَكّيَه حتّى يقبِضه، فإذا قَبَضه زَكّاه لما مضى، وإن كان لا يرجوه، قال: وهذا يردّه قول من قال: إنّما زَكاتُه على الّذي عليه المال؛ لأنّه المنتفِع به، قال: وكما يُروَى عن إبراهيم، والعَمَل عندنا على قول عليٍّ عليه السلام، فأمّا ما ذَكَره الرضيّ من أنّ الجُدّ هي البئرُ العاديّة في الصّحراء،

فالمعروف عند أهل اللّغة أن الجُدّ البئرُ التي تكون في موضع كثير الكَلأ، ولا تُسمّى البئرُ العاديّةُ في الصّحْراءِ المَوَاتِ جُدًّا، وشِعْر الأعشى لا يدلّ على ما فَسَّره الرضيّ؛ لأنه إنما شبّه عَلْقَمة بالبئرِ والكَلأ، يَظُنّ أن فيها ماءً لمكان الكَلأ، ولا يكون موضع الظن هذا هو مرادَه ومقصودَه، ولهذا قال: الظّنون، ولو كان عاديّة في بَيْداءَ مقفِرة لم تكن ظَنُوناً، بل كان يُعلَم أنّه لا ماء فيها، فسَقط عنها اسمُ الظَّنون.

– ٢٦٤ –

الأصل: وَمنهُ: أنهُ شَيَّع جيشاً يُغْزِيهِ فقالَ: اعْزُبُوا عَنِ النِّسَاءِ مَا اسْتَطَعْتُمْ.

ومَعْنَاهُ: اصْدِفُوا عَنْ ذِكْرِ النِّسَاءِ وَشَغْلِ القُلُوبِ بِهِنَّ، وَامْتَنِعُوا مِنَ الْمقارَبَة لَهُنَّ، لِأَنَّ ذَلِكَ يَفُتُّ فِي عَضُدِ الْحمِيَّةِ، وَيَقْدَحُ فِي مَعَاقِدِ الْعَزِيمةِ، وَيَكْسِرُ عَنِ العَدُوّ، وَيَلْفِتُ عَنِ الإِبْعَادِ فِي الْغزْوِ، فَكُلُّ مَنِ امْتَنَعَ مِنْ شَيْءٍ فَقَدْ أَعْزَبَ عَنْهُ، وَالْعَازِبُ وَالعَزُوبُ: المُمْتَنِعُ مِنَ الأَكْلِ والشُّرْبِ.

الشرح: التفسير صحيح، لكنّ قوله: «من امتنع من شيء فَقد أعزَب عنه» ليس بجيّد، والصحيح «فقد عَزَب عَنْه» ثلاثي، والصواب: وكلُّ مَنْ مَنعته من شيء فقد أعزَبْتَه عنه، تُعدِّيه بالهمزة، كما تقول: أقمْته وأقعدْته، والفعل ثُلاثيّ قامَ وقعَد، والدليل على أنّ الماضي ثلاثي هاهنا. قوله: «والعازِب والعزُوب: الممتنِع من الأكل والشرب، ولو كان رُباعيًّا لكان «المُعزِب»، وهو واضح، وعلى هذا تكون الهمزة في أوّل الحرف همزة وصلٍ مكسورة، كما في «اضرِبوا» لأنّ المضارع يعزِب بالكسر.

– ٢٦٥ –

الأصل: ومنهُ: كالياسِرِ الفالج، يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ.

قَالَ: الياسِرُونَ هُمُ الذين يَتَضارَبُونَ بِالقِدَاحِ عَلَى الْجَزُور، والفالِجُ: الْقَاهِرُ الْغَالِبُ، يُقَالُ: قَدْ فَلَجَ عَلَيْهِمْ وَفَلَجَهُمْ، قَالَ الرَّاجِزُ:

لـمّـا رأيـتُ فـالِـجـاً قـد فَـلَـجـا

الشرح: أوّل الكلام أنّ المرء المسلِم ما لم يغشَ دناءة يَخشَع لها إذا ذكرت، ويغري به لئامَ النّاس، كالياسِر الفالِج ينتظِر أوّل فوزَةٍ من قداحه، أو داعيَ الله، فما عند الله خيرٌ للأبرار، يقول: هو بين خيرتين: إما أن يصيرَ إلى ما يُحِبّ من الدنيا، فهو بمنزلة صاحب القِدْح المُعلّى، وهو أوفرُها نصيباً، أو يموت فما عند الله خيرٌ له وأبقى.

وليس يعني بقوله: الفالج: القامر الغالبَ كما فسّره الرّضيّ رحمه الله، لأنّ الياسر الغالبَ القامرَ لا ينتظر أوّل فوزةٍ من قداحِهِ، وكيف ينتظِر وقد غلَب! وأيّ حاجة له إلى الانتظار! ولكنّه يَعني بالفالج الميمونَ النَّقيبة الّذي له عادةٌ مطّردةٌ أن يَغلب، وقلّ أن يكون مَقهوراً.

- ٢٦٦ -

الأصل: ومنهُ: كُنّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنا برَسولِ الله فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ.

قَالَ: مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ إِذا عَظُمَ الخوْفُ مِنَ الْعَدُوِّ، وَاشْتَدَّ عِضَاضُ الحَرْب فَزِعَ المسْلِمُونَ إِلَى قِتَالِ رسُول الله ﷺ بِنَفسِهِ، فَيُنزِلُ الله تعالى النَّصْرَ عَلَيْهِمْ بِهِ، وَيَأْمَنُونَ مَا كانوا يَخَافُونَهُ بِمَكانِهِ.

وقَوْلُهُ: «إِذَا احْمَرَّ البَأْسُ»: كِنَايَةٌ عَنِ اشْتِدَادِ الأَمْرِ، وقد قِيل في ذَلِكَ أَقْوَالٌ، أَحْسَنُهَا أَنَّهُ شَبَّهَ حَمْيَ الْحَرْبِ بالنَّارِ الَّتِي تَجْمَعُ الْحَرَارَةَ وَالحُمْرَةَ بِفِعْلِهَا ولَوْنِهَا، ومِمَّا يُقَوِّي ذَلِكَ قَوْلُ الرَّسُول ﷺ وَقَدْ رَأَى مُجْتَلَد النَّاسِ يَوْمَ حُنَيْنٍ وهيَ حرب هَوَازِنَ: «الآن حَمِيَ الْوَطِيسُ»[1]، والوطيسُ: مُسْتَوْقَدُ النار، فَشَبَّه رسُولُ الله ﷺ ما استحَرَّ من جِلادِ الْقَوْمِ باحْتِدَامِ النَّارِ وَشِدَّةِ التِهابِها.

الشرح: الجيّد في تفسير هذا اللّفظ أن يقال: البأس الحرْب نفسَها، قال الله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾[2]، وفي الكلام حذفُ مضافٍ تقديرُه إذا احمر موضعُ البأس، وهو الأرْضُ التي عليها معرَكة القوم، واحمرارُها لِما يسيل عليها من الدّم.

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: في غزوة حنين (١٧٧٥)، وأحمد، كتاب: ومن مسند بني هاشم، باب: حديث العباس بن عبد المطلب (١٧٧٨).

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

من غريب كلام الإمام علي وشرحه لأبي عبيد

ولما كان تفسير الرضيّ رحمه الله قد تعرّض للغريب من كلامه عليه السلام، ورأينا أنّه لم يذكر من ذلك إلا اليسير، آثرنا أن نذكُر جملةً من غريب كلامِه عليه السلام ممّا نقلَه أربابُ الكُتُب المصنَّفة في غريب الحديث عنه عليه السلام.

فمن ذلك ما ذَكَره أبو عبيْد القاسمُ بنُ سلام رحمه الله في كتابه: لأنْ أطّليَ بجواءِ قِدْر أحبّ إليّ من أنْ أطّليَ بزعفرَان.

قال أبو عُبَيد: هكذا الرواية عنه «بجواءِ قدْر»، قال: وسمعت الأصمعيّ يقول: إنما هي الجاوة، وهي: الوِعاء الّذي يُجعَل القِدْر فيه وجَمْعُها جياء.

قال: وقال أبو عمَرو: يقال لذلك الوعاء: جواء وجياء، قال: ويقال للخرقة الّتي يُنزل بها الوعاءُ عن الأثافيّ: جِعال.

ومنها قولُه عليه السلام حين أقبَل يريد العراق فأشارَ إليه الحسنُ بنُ عليّ عليه السلام أن يرجع: واللهِ لا أكونُ مِثْلَ الضَّبُعُ تسمعُ ألدِم حتى تخرج فتُصاد.

قال أبو عبيد: قال الأصمعيّ: اللّدم صوتُ الحجر، أو الشيءُ يقَع على الأرض، وليس بالصّوت الشديد، يقال منه: لدم ألدِم بالكسرِ، وإنما قيل ذلك للضّبع، لأنّهم إذا أرادوا أن يصيدوها رمَوْا في جُحْرِها بحَجَر خفيف، أو ضرَبُوا بأيديهم فتحسَبه شيئاً تصيدُه فتخرج لتأخذه فتصاد، وهي زعموا أنها من أحمق الدّواب، بلَغ من حُمْقها أن يدخل عليها فيقال: أمّ عامر نائمة، أو ليست هذه! والضبع، هذه أمّ عامر، فتَسكُت حتى تؤخذ، فأراد علي عليه السلام: أني لا أُخدَع كما تُخدَع الضّبع باللّدم.

ومنها قولُه عليه السلام: من وَجد في بطنه رِزًّا فليَنْصرف وليتوضأ.

قال أبو عبيد: قال أبو عمرو: إنما هو أرْزًا مثل أرز الحيّة، وهو دَورانها وحَرَكتها، فشبه دَوَران الرّيح في بطنه بذلك.

قال: وقال الأصمعيّ: هو الرِّز، يعني الصّوتَ في البطن من القرْقرة ونحوها قال الراجز:

كأن في رَبابِه الكِبارِ ... رِزَّ عِشارٍ جُلْنَ في عِشار

وقال أبو عُبيد: فقْهُ هذا الحديث أن يَنصرِف فيتوضأ ويبني على صلاته ما لم يتكلّم، وهذا إنما هو قبل أن يُحَدث.

قلت: والّذي أعرفه من الأرزِ أنه الانقباض لا الدّوَران والحركة، يقال: أرز فلانٌ بالفَتْح وبالكسر، إذا تضامَّ وتقبّض من بُخله فهو أرُوز، والمصدَر أرْزاً وأروزاً، قال رؤبة:

فـذاك يَـخَـالُ أروز الأرز

فأضاف الاسمَ إلى المصدر كما يقال: عُمر العدْل وعَمْرو الدهاء، لما كان العدل والدّهاء أغلبَ أحوالهما، وقال أبو الأسود الدُّؤلي يذُمُّ إنساناً: إذا سئل أَزِر، وإذا دُعي اهتزّ - يعني إلى الطّعام، وفي الحديث: «إن الإسلام ليأرِز إلى المدينة كما تأرِز الحية إلى حُجْرها»[1]. أي يجتمع إليها وينضمّ بعضُه إلى بعض فيها.

ومنها قوله: لئن وليتُ بني أميّة لأنفُضَنّهم نفضَ القصّاب التُّرابَ الوذِمة. وقد تقدّم منّا شرحُ ذلك والكلامُ فيه.

ومنها قوله في ذي الثُّدَيّة المقتول بالنَّهْرَوان: إنه مُودن اليد أو مُثْدن اليد أو مخدَج اليد.

قال أبو عبيدة: قال الكسائيّ وغيره: المودن اليَدِ: القصيرُ اليَدِ، ويقال: أودنتُ الشيءَ أي قصّرته، وفيه لُغةٌ أخرى، ودَنْته فهو مَوْدون، قال حسّان يذمّ رجلاً:

وأمُّـك سـوداءُ مَـوْدونـةٌ ... كـأنّ أنـامِـلَـهـا الـحُـنـظُـبُ

وأمّا مُثْدن اليد، بالثاء فإنّ بعضَ الناسَ قال: نراه أخَذه من الثُّنْدُوة، وهي أصل الثَّدْي، فشَبّه يدَه في قِصَرها واجتماعها بذلك، فإنْ كان من هذا فالقياس أن يقال: مِثْنِدٍ، لأنّ النون قبل الدال في الثُّنْدُوَةِ، إلّا أن يكون من المقلوب، فذاك كثيرٌ في كلامهم.

وأمّا مُخدَج اليَد فإنّه القصيرُ اليد أيضاً، أُخِذ من إخداجِ الناقةِ وَلَدها، وهو أن تَضَعه لغير تَمام في خَلقه، قال: وقال الفرّاء: إنّما قيل ذو الثُّدَيّة، فأدخِلت الهاء فيها، وإنّما هي تصغير «ثَدْيٍ»، والثَّدْي مذكّر، لأنها كأنّها بقيّة ثَدْي قد ذَهَبَ أكثرُه فقلّلها كما تقول لُحَيمة وشُحَيمة، فأنّث على هذا التأويل، قال: وبعضُهم يقول ذو اليُدَيّة، قال أبو عُبيد: ولا أرى الأصْل كان إلّا هذا، ولكنّ الأحاديث كلّها تتابعتْ بالثاء ذو الثُّدَيّة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الحج، باب: الإيمان يأرز إلى المدينة (١٨٧٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً (١٤٧)، وابن ماجه، كتاب: المناسك، باب: فضل المدينة (٣١١١)، وأحمد، كتاب: باقي مسند الكثرين، باب: مسند أبي هريرة (٧٧٨٧).

ومنها قوله ﷺ لقومٍ وهو يعاتبهم: ما لَكُم لا تُنظِّفون عَذِراتكم!

قال: العَذِرة فِناءُ الدار، وإنما سُمِّيت تلك الحاجة عَذِرة لأنها بالأفنية كانت تُلقى، فكَنَى عنها بالعَذِرة كما كَنَى عنها بالغائط، وإنّما الغائطُ الأرضُ المطمئنّة، وقال الحُطَيئة يهجو قوماً:

لَعَمْرِي لقد جرّبْتُكُمْ فوجدْتُكُمْ قِباحَ الوُجوهِ سَيِّئِ العَذِراتِ

ومنها قولُه ﷺ: لا جُمُعة ولا تَشْريق إلّا في مصرٍ جامع.

قال أبو عبيد: التّشريق هاهنا صلاةُ العيد، وسُمّيت تشريقاً لإضاءة وقْتِها، فإنّ وقتَها إشراقُ الشّمس وصَفاؤُها وإضاءتُها، وفي الحديث المرفوع: «من ذبحَ قبل التّشريق فَلْيُعِدْ»[1]، أي قبلَ صلاة العيد.

قال: وكان أبو حنيفة يقول: التشريق هاهنا هو التّكبير في دُبُر الصلاة، يقول: لا تكبيرَ إلا على أهل الأمْصار تِلك الأيّام، لا على المسافرين أو مَن هو في غير مِصر.

قال أبو عبيد: وهذا كلامٌ لم نجد أحداً يَعرِفه، إنّ التكبير يقال له التّشريق، وليس يأخذ به أحدٌ من أصحابه لا أبو يوسفَ ولا محمّد، كلّهم يَرَى التكبيرَ على المسلمين جميعاً حيث كانوا في السّفر والحَضَر وفي الأمصار وغيرِها.

ومنها قوله ﷺ: «استكثِروا من الطّواف بهذا البيت قبل أن يُحَال بينكم وبينَه، فكأنّي برجلٍ من الحَبَشة أصعَلَ أصمعَ حَمش السّاقين قاعداً عليها وهي تُهْدَم»[2].

قال أبو عُبَيد: هكذا يُروَى «أصعَل» وكلامُ العَرَب المعروف «صَعْل» وهو الصغيرُ الرّأس، وكذا رُؤوس الحبشة، ولهذا قيل للظّليم: صَعْل، وقال عَنترةُ يصف ظَليماً:

صَعْلٌ يلوذُ بذي العشيرةِ بَيْضه كالعَبْد ذِي الفَرْوِ الطّويلِ الأصْلَمِ

قال: وقد أجازَ بعضُهم أصعَل في الصّعل، وذُكر أنّها لغة لا أدري عمّن هي! والأصمعُ: الصغيرُ الأُذن، وامرأة صَمْعاء.

وفي حديث ابن عَبّاس: إنّه كان لا يَرَى بَأساً أن يُضَحّيَ بالصّمْعاء. وحَمْش الساقين بالتّسْكين: دَقيقها.

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٦٠٥٨)، بلفظ: «قبل الصلاة» بدل قوله: «قبل التشريق».
(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٩١٧٨).

ومنها: أنّ قوماً أتَوْه برجل فقالوا: إنّ هذا يؤمُّنا ونحن له كارهون، فقال له: إنك لخَرُوط، أتؤمّ قوماً هم لَك كارهون!

قال أبو عبيد: الخَرُوط: المتهوّر في الأمور، الرّاكبُ برأيه جَهْلاً، ومنه قيل: انخَرَطَ علينا فلان، أي اندرَأ بالقَوْل السّيئ والفِعْل. قال: وفقهُ هذا الحديث أنّه ما أفتَى عليه السلام بفسادِ صلاتِه لأنه لم يأمُرْه بالإعادة، ولكنّه كَرِه له أن يؤمّ قوماً هم له كارهون.

ومنها: أنّ رجلاً أتاه وعليه ثوبٌ من قِهز، فقال: إنّ بني فلان ضَرَبوا بني فلانة بالكناسة، فقال عليه السلام: صَدَقني سِنّ بكْرِه.

قال أبو عبيد: هذا مَثل تَضرِبه العَرَب للرجل يأتي بالخبر على وَجْهه ويصدق فيه. ويقال: إنّ أصله أنّ الرجل ربّما باع بعَيره فيسأل المشترِي عن سِنّه فيكذبه، فعَرض رجلٌ بَكْراً له فصَدَق في سِنّه، فقال الآخر: صَدَقني سنُّ بَكْره، فصار مَثَلاً.

والقِهْز بكسر القاف: ثياب بيض يُخالطها حَرير، ولا أراها عربيّة، وقد استعملها العربُ، قال ذو الرّمّة يصف البُزَاة البِيض:

مِـن الـوُرْق أو صُـقـع كـأنّ رؤوسـهـا   من القِهْز والقُوهِيّ بيضُ المقَانعِ

ومنها: ذَكر عليه السلام آخر الزمان والفِتن، فقال: خير أهل ذلك الزمان كلّ نُومَة، أولئك مصابيح الهدى، ليسوا بالمسابيح ولا المَذاييع البُذُر.

وقد تقدّم شرح ذلك.

ومنها: أنّ رجلاً سافر مع أصحاب له فلم يرجع حين رجعوا، فاتّهم أهله أصحابه ورفعوهم إلى شُرَيح، فسألهم البيّنة على قتله، فارتفعوا إلى عليّ عليه السلام، فأخبروه بقول شُرَيح، فقال:

أوردَهـا سـعـدٌ وسـعـدٌ مُـشـتـمِـلْ   يـا سـعـد لا تَـروَى بـهـذاك الإبـلْ

ثمّ قال: إنّ أهْوَن السَّقْي التّشريع، ثمّ فرّق بينهم وسألهم، فاختلفوا، ثم أقرّوا بقتلهم، فقتلهم به.

قال أبو عُبيد: هذا مثل، أصلُه أنّ رجلاً أورَد إبله ماء لا تصلُ إليه الإبل إلّا بالاستقاء، ثم اشتمل ونامَ وتركها لم يستسق لها، والكلمة الثانية مثل أيضاً، يقول: إنّ أيسَر ما كان ينبغي أن

يُفعل بالإبل أن يمَكّنها من الشريعة ويَعرِض عليها الماء. يقول: أقلّ ما كان يَجب على شُرَيح أن يستقصي في المسألة والبحث عن خبر الرّجل ولا يقتصر على طلب البيّنة.

ومنها قوله، وقد خرج على الناس وهم ينتظرونه للصلاة قياماً: «ما لي أراكُمْ سامدين».

قال أبو عبيد: أي قائمين، وكلُّ رافِع رأسَه فهو سامد، وكانوا يَكرَهونَ أن ينتظروا الإمامَ قِياماً ولكنْ قُعوداً، والسامد في غير هذا الموضع: اللّاهي اللّاعب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾[1]، وقيل: السُّمود الغِناء بِلُغة حِمْيَر.

ومنها: أنه خرج فرأى قوماً يصلّون قد سَدَلوا ثيابهم، فقال: كأنهم اليهود خرجوا من فُهْرهم.

قال أبو عبيد: فُهْرُهم بضم الفاء: موضع مِدْراسهم الذي يجتمعون فيه كالعيد يصلّون فيه ويُسدِلون ثيابهم، وهي كلمةٌ نَبَطيّة أو عبْرانية أصلها بُهْر بالباء فعُرّبت بالفاء.

والسَّدل: إسبال الرّجل ثوبه من غير أن يضمّ جانبيه بين يديه، فإن ضمّه فليس بسَدْل، وقد رويتْ فيه الكراهة عن النبيّ ﷺ.

ومنها: أن رجلاً أتاه في فريضة وعنده شُرَيح، فقال: أتقول أنت فيها أيّها العبد الأَبْظَر!

قال أبو عبيد: هو الذي في شفَته العُلْيا طُول ونتوء في وسطها محاذِي الأنف. قال: وإنما نراه قال لشُريح: «أيّها العبد»، لأنه كان قد وقع عليه سَبْيٌ في الجاهليّة.

ومنها: أنّ الأشعث قال له وهو على المِنبر: غلبتْنا عليك هذه الحمراء، فقال عليه السلام: مَن يعذِرني من هؤلاء الضّياطرة، يتخلف أحدُهم يتقلّب على فراشِه وحشاياه كالعَير ويهجر هؤلاء للذكر! أأطْرُدهم؟ إني إنْ طَرَدْتهم لمن الظالمين، والله لقد سمعته يقول: والله ليضربنكم على الدّين عَوْداً كما ضَرَبْتموهم عليه بَدْءاً.

قال أبو عبيد: الحمراء: العَجَم والمَوَالي، سمّوا بذلك لأنّ الغالب على ألوان العرب السُّمْرة، والغالب على ألوان العجم البياض والحُمْرة. والضَّياطرة: الضِّخام الذين لا نَفْع عندهم ولا غَناء، واحدُهم ضَيْطار.

---

(١) سورة النجم، الآية: ٦١.

ومنها: قوله عليه السلام: اقتلوا الجانّ ذا الطُّفْيَتَيْن، والكلْب الأسود ذا الغُرَّتَين.

قال أبو عُبيد: الجانّ حية بيضاء، والطّفْية في الأصل: خُوصة المُقْل، وجمعُها طفيّ، ثم شُبهت الخُطّتان على ظَهْر الحية بِطُفْيَتَيْن. والغُرّة: البياض في الوجه.

من غريب كلام الإمام علي وشرحه لابن قتيبة

وقد ذكر ابنُ قُتيبة في غريب الحديث له عليه السلام كلمات أخرى:

فمنها قوله: من أراد البقاءَ - ولا بقاءَ - فليُباكِر الغداء، وليُخفّف الرِّداء، ولْيُقِلّ غِشْيان النساء. فقيل له: يا أمير المؤمنين، وما خِفّة الرّداء في البقاء؟ فقال: الدَّين.

قال ابن قتيبة: قوله «الرِّداء الدَّين» مذهب في اللغة حَسَنٌ جيّد، ووجهٌ صحيح، لأن الدَّيْن أمانةٌ، وأنت تقول: هو لك عليّ وفي عنقي حتى أؤدّيه إليك، فكأن الدين لازِم للعنق، والرِّداء موضِعه صَفْحتا العنق، فسمّى الدَّين رداءً وكَنَى عنه به، وقال الشاعر:

إن لي حاجةً إليك فقالت بين أُذْني وعاتقي ما تريد

يريد بقوله: «بين أُذني وعاتقي ما تريد» في عنقي، والمعنى أني قد ضمنته فهو عليّ، وإنما قيل للسيف رداء لأنّ حمالته تقع موقع الرداء، وهو في غير هذا الموضع العطاء، يقال: فلانٌ غمر الرداء أي واسعُ العطاء، قال: وقد يجوز أن يكون كَنَى بالرّداء عن الظّهر، لأنه يقع عليه، يقول: فليخفّف ظهره ولا يثقله بالدَّين، كما قال الآخر: «خماص الأُزُر»، يريد خماص البطون.

وقال: ويلغني نحو هذا الكلام عن أبي عبيد، قال: قال فقيه العرب: من سَرّه النساءُ - ولا نساء - فليُبكّر العشاء، وليُباكِر الغداء، وليخفّف الرِّداء، ولْيُقِلّ غِشيان النساء قال: فالنسء التأخيرُ، ومنه: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾[1].

وقوله: فليُبكّر العشاء، أي فليؤخّره، قال الشاعر:

فأكريتُ العشاء إلى سُهَيل

ويجوز أن يريد فلينقص العَشاء، قال الشاعر:

والطلّ لم يفضل ولم يكر

ومنها: أنه أُتِي عليه السلام بالمال فكوّم كَومةً من ذَهب وكَومة من فضة، فقال: يا حمراءُ ويا بيضاءُ احمرّي وابيضّي وغُرّي غَيْري.

هذا جَناي وخيارُه فيه وكلُّ جانٍ يَدُهُ إلى فيه

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٧.

قال ابن قُتيبة: هذا مَثَل ضَرَبه، وكان الأصمعيّ يقوله: «وهجانه فيه»، أي خالصُه، وأصل المثل لعَمرو بن عَديّ ابن أُخت جَذِيمة الأبرش، كان يجني الكمأة مع أتراب له، فكان أترابه يأكلون ما يجدون، وكان عمرو يأتي به خالَه ويقول هذا القول.

ومنها حديث أبي جاب قال: جاء عَمّي من البَصْرة يذهب بي وكنت عند أمي، فقالت: لا أتركك تذهب به، ثمّ أتت عليًا عليه السلام فذكرت ذلك له، فجاء عَمّي من البصرة، فقال: نعم والله لأذْهَبَنّ به وإن رغم أنفُك، فقال عليّ عليه السلام: كذبت والله، ووَلَقْت، ثم ضرب بين يَدَيه بالدُّرة. قال: ولَقْت مثل كَذبْتَ وكذلك وَلَعت بالعين، وكانت عائشة تقرأ: ﴿إِذْ تَلِقُونَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾[1] وقال الشاعر:

وهـنّ مـن الأحـلاف والـولَـعَـان

يعني النساء أي من أهل الأخلاف.

ومنها قوله عليه السلام: إن من ورائكم أموراً متماحلة رُدُحاً وبلاءً مكلِّحاً مبلِّحاً.

قال ابن قتيبة: المتماحلة الطِّوال: يعني فتناً يَطُول أمرُها ويعظم، ويقال: رجل مُتماحل وسَبْسَب مُتماحل، والرّدحُ جمع رِداح، وهي العظيمة، يقال للكتيبة إذا عَظمَتْ: رَدَاح، ويقال للمرأة العظيمة العَجيزة: رَداح.

قال: ومنه حديثُ أبي موسى، وقيل له زمن عليّ ومعاوية: أهيَ أهيَ، فقال: إنما هذه الفِتْنة حَيْضة مِن حيضات الفتن، وبقيت الرّداح المُظلمة التي من أشرَف أشرَفَت له.

ومكلِّحاً أي يكلح الناسُ بشدتها، يقال كلَح الرجل وأكلحَه، الكلحة الهمّ. والمبلِّح، من قولهم: بلّح الرجُل إذا انقطع من الإعياء، فلم يقدِر على أن يتحرّك، وأبلحَه السيرُ، وقال الأعشى:

واشـتـكـى الأوصـال مـنـه وبَـلَـحْ

ومنها قولُه عليه السلام يوم خَيْبَر:

أنـا الّـذي سَـمَّـتْـنِ أمِّـي حَـيْـدَرَهْ ... كـلـيـثِ غـابـاتٍ كـريـهِ الـمَـنْـظَـرَهْ

أُفِـيـهـم بـالـصّـاع كَـيْـلَ الـسَّـنْـدَرَهْ

---

(١) سورة النور، الآية: ١٥.

قال ابن قتيبة: كانت أمّ عليٍّ عليه السلام سمّته وأبو طالبٍ غائبٌ حين ولدَته أسَداً باسم أبيها أسَدِ بنِ هاشم بن عبد مَناف، فلمّا قَدم أبو طالب غيّر اسمَه وسمّاه عَليًّا. وحَيْدرة: اسمٌ من أسماءِ الأسَد، والسَّنْدرة: شجرةٌ يُعمَل منها القِسيّ والنَّبْل، قال:

حَـنـوْتُ لـهـم بـالـسَّـنْـدَرِيِّ الـمـوْتَـر

فالسَّندرة في الرَّجَز يُحتَمل أن تكون مِكْيالاً يُتّخذ من هذه الشجرة، سمّي باسمها كما يسمَّى القَوْس بنَبْعة. قال: وأحسب إن كان الأمرُ كذلك أنّ الكَيْل بها قد كان جُزافاً فيه إفراط، قال: ويحتمل أن تكون السَّنْدَرة هاهنا امرأةً كانت تَكِيل كَيْلاً وافِياً أو رَجُلاً.

ومنها قولُه عليه السلام: من يَطُلْ أيْر أبيه يَتمنطقْ به.

قال ابن قتيبة: هذا مثَل ضربَه، يريد من كثُرتْ إخوَتُه عَزّ واشتدّ ظهرُه، وضَرَبَ المِنطَقة إذا كانت تشدّ الظَّهر مثلاً لذلك، قال الشاعر:

فـلـو شـاءَ ربِّـي كـان أيـرُ أبـيـكُـمُ   طـويـلاً كـأيْـر الـحـارثِ بـن سَـدُوسِ

قيل: كان للحارث بن سَدوس أحدٌ وعِشرون ذَكَراً، وكان ضرارُ بنُ عَمْرو الضبيّ يقول: ألا إنّ شَرَّ حائلٍ أمّ، فزوّجوا الأمّهات، وذلك أنه صُرِع، فأخذتْه الرِّماح، فاشتبَك عليه إخوتُه لأمّه حتى خلّصوه.

قال: فأمّا المَثَل الآخرُ وهو قولهم: من يَطُلْ ذَيْلُه يتَمَنْطَقْ به، فليس من المَثل الأوّل في شيء، وإنما معناه من وَجَد سعةً وضَعَها في غير مَوضِعها، وأنفَق في غير ما يَلزمه الإنفاق فيه.

ومنها قولُه: خيرُ بئرٍ في الأرض زَمْزم، وشرُّ بئرٍ في الأرض برهوت.

قال ابن قتيبة: هي بئرٌ بحضْرَمَوْت يُروَى أن فيها أرواحَ الكُفار.

قال: وقد ذَكرَ أبو حاتم عن الأصمعيّ عن رجل من أهل حَضْرَمَوْت قال: نجد فيها الرائحة المنتِنة الفظيعة جداً، ثمّ نمكث حِيناً فيأتينا الخبرُ بأنّ عظيماً من عُظَماء الكفّار قد مات، فنرى أنّ تلك الرائحة منه، قال: وربما سُمع منها مثل أصوات الحاجّ، فلا يستطيع أحدٌ أن يُمشِيَ بها.

ومنها قولُه عليه السلام: أيّما رجلٍ تزوّج امرأة مجنونةً، أو جَذْماءَ، أو بَرْصاءَ، أو بها قَرْن، فهي امرأتُه، إن شاءَ أمْسَك، وإن شاء طَلّق.

قال ابن قُتَيبة: القَرْن بالتَّسْكين: العَفَلة الصغيرة، ومنه حديثُ شريح أنّه اختُصم إليه في قَرْن بجارِيَةٍ، فقال: أقعِدُوها فإن أصاب الأرضَ فهو عَيْب، وإن لم يُصِب الأرض فليس بعيب.

ومنها قوله عليه السلام : لوَدَّ معاويةُ أنّه ما بقيَ من بني هاشم نافِخُ ضِرْمة إلّا طَعن في نِيطه.

قال ابن قتيبة: الضِّرْمة النار، وما بالدار نافخُ ضِرْمة، أي ما بها أحد.

قال: وقال أبو حاتم عن أبي زيد: طُعِنَ فلانٌ في نِيطه أي في جِنَازته، ومن ابتدأ في شيء أو دَخَل فيه فقد طَعَن فيه، قال: ويقال: النَّيط: المَوْت، رماه الله بالنَّيط، قال: وقد روي «إلّا طُعِن» بضم الطاء، وهذا الرّاوي يذهَب إلى أن النَّيط نِيَاط القَلْب، وهي عَلاقَتُه الّتي يَتعلّق بها، فإذا طُعِن إنسانٌ في ذلك المكان مات.

ومنها قولُه عليه السلام : إنّ الله أوحَى إلى إبراهيمَ عليه السلام أن ابنِ لي بيتاً في الأرض، فضاقَ بذلك ذَرْعاً، فأرسَل الله إليه السَّكِينة، وهي رِيحٌ خَجُوج، فتطوّقتْ حولَ البَيْتِ كالجَحَفة.

وقال ابن قتيبة: الخَجُوج من الرِّياح: السريعةُ المرور، ويقال أيضاً: خَجَوْجاء، قال ابن أحمر:

هَوْجاءُ رَعْبَلة الرّواح خَجَوْ جاةُ الغُدُوّ رَواحُها شَهْرُ

قال: وهذا مثلُ حديث عليٍّ عليه السلام الآخر، وهو أنّه قال: السَّكينة لها وجهٌ كوَجْه الإنسان، وهي بعدُ ريحٌ هَفّافة، أي خفيفةٌ سريعةٌ، والجَحَفة: التُّرس.

ومنها أنّ مُكاتباً لبَعض بني أَسَد، قال: جئتُ بنَقَدٍ أجلِبُه إلى الكُوفة، فانتهيْتُ به إلى الجِسْر، فإنّي لأُسَرِّبُه عليه إذ أقبَل مولًى لبَكْر بن وائل يتخلّل الغَنَم ليَقطَعها، فَنَفَرَتْ نَقَدة، فقَطَرت الرَّجُل في الفُرات، فغَرِق، فأخذت. فارتفعْنا إلى عليٍّ عليه السلام فقَصَصْنا عليه القِصّة، فقال: انطلِقوا فإن عَرَفتم النَّقَدَة بعَيْنها فادفَعوها إليهم. وإن اختلَطت عليكم فادفَعوا شَرْواها من الغَنَم إليهم.

قال ابن قُتيبة: النَّقَد: غَنَم صِغار، الواحدةُ نَقَدة، ومنه قولُهم في المَثَل: «أذلّ من النَّقَد».

وقوله: «أُسَرِّبه» أي أُرْسِله قطعةً قطعةً. وشَرْواها: مثلها.

ومنها قولُه عليه السلام في ذِكر المَهْدِيّ من وَلَد الحُسَين عليه السلام ، قال: إنّه رجلٌ أجْلَى الجَبين، أقنَى الأنف، ضَخْم البَطْن، أزْيَل الفَخِذين، أفلَج الثَّنايا، بفَخِذه اليُمنَى شامة[1].

(١) أخرجه ابن منظور في لسان العرب: ١١/ ٣١٧، وأخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٥١/ ٤٠.

قال ابن قتيبة: الأجْلَى والأجْلَح شيءٌ واحد، والقَنا في الأنف: طولُه ودِقّة أرْنَبَته وحَدَبٌ في وَسَطه. والأزْبَل الفَخِذَين: المتباعدُ ما بينهما، وهو كالأفْحَج، تَزَبّل الشيءُ، أي انفَرَج، والفَلَج: صُفرةٌ في الأسْنان.

ومنها قوله عليه السلام: إنّ بني أُميّة لا يزالون يَطعُنون في مَسجَل ضَلالة، ولهم في الأرض أجَل حتى يُهَرِيقوا الدّم الحرامَ في الشّهر الحَرَام، والله لكأنّي أنظُرُ إلى غِرْنَوْق من قُرَيْش يتخبّط في دَمِه، فإذا فعلوا ذلك لم يَبقَ لهم في الأرض عاذِر، ولم يَبقَ لهم مُلْك، على وجهِ الأرض.

قال ابنُ قتيبة: هو من قولك: ركبَ فلانٌ مَسجَله، إذا جَدّ في أمرٍ هو فيه كلاماً كانَ أو غيرَه، وهو من السَّجْل وهو الصَّبّ. والغِرْنوق: الشابّ.

قلت: والغِرْنوق: القُرَشي الّذي قتَلوه، ثمّ انقضَى أمرُهم عقيبَ قتلِهِ إبراهيم الإمام، وقد اختَلَفت الرّواية في كيفيّة قتله، قُتِل بالسّيف، وقيل: خُنِق في جِراب فيه نُورَة، وحديث أميرِ المؤمنين عليه السلام يُسنِدُ الرّوايةَ الأولى.

ومنها ما رُوي أنّه اشترى قميصاً بثلاثة دَرَاهم ثم قال: الحمدُ لله هذا مِن رياشه.

قال ابنُ قتيبة: الرِّيش والرِّياش واحد، وهو الكِسْوة، قال عزّ وجلّ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾[1]، وقُرِىء: ﴿ورِياشا﴾.

ومنها قوله عليه السلام: لا قَوَد إلّا بالأسَل.

قال ابن قتيبة: هو ما أُرهِف وأرِقّ من الحديد، كالسِّنان والسيف والسكين، ومنه قيل: أسَلة الذّراع لما استدَقّ منه، قال: وأكثَرُ الناس على هذا المذهَب وقومٌ من الناس يقولون: قد يجوز أنّ القَوَد بغير الحديد كالحجر والعصا إن كان المقتول قُتل بغير ذلك.

ومنها أنه عليه السلام رأى رجلاً في الشمس، فقال: قُمْ عنها فإنها مَبْخَرة مَجْفَرة، تُنْقِل الرّيح، وتُبْلي الثّوب، وتُظهر الدّاءَ الدَّفِين.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.

قال ابنُ قتيبة: مَبخَرة: تُورِث البَخَر في الفَم. ومَجْفَرة: تَقطع عن النّكاح وتُذهبُ شَهوة الجماع، يقال جفر الفَحْل عن الإبل، إذا أكثر الضِّراب حتى يملَّ وينقطع، ومثله قَذَرَ، وتقذَّر، قذوراً، ومِثلُه أقْطَع فهو مقطع.

وجاء في الحديث أن عثمان بن مظعون قال: يا رسول الله، إني رجل تَشُقُّ عليَّ العُزْبة في المغازِي، أفتأذن لي في الخِصاء؟ قال: لا، ولكن عليك بالصَّوم فإنّه مُجْفِر.

قال: وقد رَوى عبدُ الرحمن عن الأصمعيّ عمّه، قال: تكلّم أعرابيّ فقال: لا تنكحنّ واحدة فتحيض إذا حاضت، وتمرض إذا مرضت، ولا تنكحنّ اثنتين فتكون بين ضَرّتين ولا تنكحن ثلاثاً فتكون بين أثافٍ، ولا تنكِحَنّ أربعاً فيفلِسْنك ويُهْرِمْنك، ويُنْحِلْنَكَ ويُجْفِرْنك فقيل له: لقد حَرَّمْتَ ما أحَلّ الله، فقال: سبحان الله! كُوزان، وقُرْصان، وطِمْران وعِبادة الرّحمن، وقوله: «تُثفِل الريح»، أي تُنْتِنُها، والاسم الثّفْل، ومنه الحديث «وليخرجنّ ثفلات». والداء الدّفين، المستتر الذي قد قَهَرَتْه الطّبيعة، فالشمسُ تُعينهُ على الطّبيعة وتُظْهِره.

ومنها قوله عليه السلام وهو يذكر مسجد الكوفة في زَاويته: فارَ التنّور، وفيه هَلَك يَغُوث ويَعُوق، وهو الفاروق، ومنه يستيِر جبلُ الأهْواز، ووَسَطه على رَوْضةٍ من رياضِ الجنّة، وفيه ثلاثُ أعيُنٍ أنبتتْ بالضِّغْثِ، تذهِب الرِّجس، وتُطهِّر المؤمنين: عَيْن من لَبن، وعَيْن من دُهْن، وعينٌ من ماءٍ، جانبهُ الأيْمن ذِكْر، وفي جانبه الأيسر مَكْر، ولو يَعلم الناسُ ما فيه من الفَضْل لأتَوْه ولو حَبْواً.

قال ابن قتيبة: قوله «أنبتتْ بالضِّغث» أحسِبُه الضِّغث الذي ضرب أيّوب أهله. والعَين التي ظهرت لما رَكَض الماءَ برجله. قال: والباء في «بالضِّغث» زائدة، تقديرُه: أنبتَت الضِّغْث، كقوله تعالى: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾[1]، وكقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾[2].

وأما قوله: «في جانبه الأيْمَن ذكر»، فإنّه يعني الصلاة: «وفي جانِبه الأيسر مَكْر» أراد به المَكْر به حتى قُتِل عليه السلام في مسجد الكوفة.

ومنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أبا رافع مولاه يتلقى جعفَر بنَ أبي طالب لمّا قَدِم من الحَبَشة، فأعطاه عليٌّ عليه السلام حَتِيًّا وعُكّة سَمْن، وقال له: أنا أعلم بجعفرْ أنّه إنْ عَلم ثرّاه مرّة واحدة ثم أطعَمه، فادفع هذا السَّمْن إلى أسماءَ بنت عُمَيس تَدْهنُ به بني أخي مِنْ صَمَر البَحْر، وتُطعِمهم من الحتِيِّ.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٠.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٦.

قال ابن قتيبة: الحتيّ: سَوِيق يُتّخذ من المُقلْ، قال الهذَليّ يذكُر أضيافه:

لا دَرَّ دَرِّيَ إن أطْعَمْتُ نازِلَكُمْ   قِرْفَ الحتِيّ وعندي البُرُّ مَكْنوزُ

وقوله: «ثرّاه مَرّة أي بَلّه دَفْعة واحدة وأطعمه الناسَ، والثرى: النَدا. وصَمَرُ البحرِ: نَتْنه وغَمَقُهُ، ومنه قيل للدُّبُرْ الصُّمَارَى.

ومنها قوله عليه السلام يوم الشُورَى لما تكلّم: الحمد لله الذي اتّخذ محمداً منّا نبياً، وابتَعثه إلينا رسولاً، فنحن أهلُ بيت النبوّة، ومَعدن الحِكْمة، أمانٌ لأهل الأرض، ونَجاةٌ لمن طَلَب، إنّ لنا حقًّا إن نُعْطَه نأخذه، وإن نُمنعْه نركب أعجازَ الإبل، وإن طالَ السرَى، لو عَهِد إلينا رسولُ الله صلى الله عليه وآله عهداً لجالَدْنا عليه حتى نموت، أو قال لنا قولاً لأنفذنا قوله على رَغْمِنا. لن يُسرع أحدٌ قَبْلي إلى صِلَةِ رَحِمٍ ودعوة حَقٍ، والأمرُ إليك يا بن عوف على صدْق النيّة، وجُهْد النُّصح، وأستغفرُ الله لي ولَكُم.

قال ابنُ قتيبة: أي أن مَعْناه رَكِبنا مركب الضَيْم والذلّ، لأنّ راكب عجزُ البعير يجد مَشقّة، لا سيما إذا تطاول به الرّكوب على تلك الحال، ويجوز أن يكون أراد نصبر على أن نكون أتباعاً لغَيْرِنا، لأنّ راكب عجزُ البعير يكون رِدْفاً لغيره.

ومنها قوله عليه السلام لما قَتل ابنُ آدم أخاه: غَمَصَ الله الخَلْق ونقص الأشياء.

قال ابن قتيبة: يقال غمَصْتُ فلاناً أغمِصه واغتمصتُه، إذا استصْغَرْته واحتَقَرْته، قال: ومعنى الحديث أنّ الله تعالى نقص الخَلْق من عظم الأبدان وطُولها من القوّة والبَطْش وطول العُمْر ونحو ذلك.

ومنها أنّ سلامة الكنديّ قال: كان عليٌ عليه السلام يعلّمنا الصلاة على رسولِ الله صلى الله عليه وآله فيقول: اللهم داحيَ المدحُوّات، وبارئ المَسْمُوكات، وجبّارَ القلوب على فِطْرَاتها، شقيّها وسعيدها، اجعلْ شرائف صلواتِك، ونواميَ بركاتِك، ورأفة تحيّاتك، على محمد عبدِك ورسولك، الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، والمُعْلِن الحقّ بالحقّ، والدامغ جيشات الأباطيل، كما حَمّلْته فاضطَلَع بأمْرِك لطاعتِك، مستوفزاً في مَرْضاتك، لغير نُكُل في قِدَم، ولا وَهَن في عَزْم، داعياً لوحْيك، حافظاً لِعَهْدِك، ماضياً على نفاذِ أمرك، حتى أورَى قَبَساً لقابس، آلاء الله تصل بأهله أسبابه به، هديت القلوب بعد خَوْضات الفتن والإثم، موضحات الأعلام، ونائرات الأحكام، ومنيرات الإسلام، فهو أمينك المأمون، وخازِنُ عِلْمك المخزون، وشهيدُك يوم الدِّين، وبعيثُك نعمة، ورسولك بالحق رحمة. اللهم افسح له مفسحاً في عَدْلك، واجْزه مضاعَفاتِ الخَير من

فضلك، مهنّآتٍ غير مكدَّرات، من فَوْزِ ثوابك المحْلول، وجَزْل عطائك المَعلول، اللهم أعلِ على بناء البانين بناءه، وأكرِم مثواهُ لديك ونُزُله، وأتمم له نورَه، واجزِه من ابتعاثِك له مقبول الشهادة، مَرْضيّ المقالة، ذا منطق عَدْل، وخُطّة فصل، وبرهان عظيم[1].

قال ابن قتيبة: داحي المدحوّات، أي باسط الأرَضِين، وكان الله تعالى خَلقها رَبْوة ثم بَسطها، قال سبحانه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾[2]، وكلّ شيء بسطتَه فقد دَحَوْتَه ومنه قيل لموضع بَيْض النَّعامة: أُدْحِيّ، لأنها تَدْحُوه للبَيْض أي تُوسِّعه، ووَزْنُه أفعول.

وبارئُ المَسْمُوكات: خالق السموات. وكلّ شيء رفعته وأعليته فقد سَمَكْته، وسَمْك البيت والحائط ارتفاعُه، قال الفرزْدَق:

إنّ الذي سَمَكَ السماءَ بَنَى لنا   بيتاً دعائمُه أعزُّ وأطولُ

وقوله: جبّار القلوب على فِطَرَاتها. من قولك جَبَرْت العَظْم فجُبِر إذا كان مَكْسوراً فلأمْتَه وأقَمْتَه، كأنّه أقامَ القلوب وأثبتَها على ما فَطَرها عليه من معرفته والإقرار به، شقيّها وسعيدها، قال: ولم أجعلْ جبّاراً هاهنا، من أجبرتُ فلاناً على الأمر إذا أدخلتَه فيه كَرْهاً، وقَسَرْته، لأنه لا يقال من أفعل فعّال، لا أعلم ذلك إلا أنّ بعض القرّاء قرأ ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[3] بتشديد الشين، وقال: الرشّاد الله، فهذا فعّال من أفعل، وهي قراءة شاذّة، غيرُ مستعمَلة، فأمّا قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾[4] فإنه أراد وما أنتَ عليهم بمسلَّط تَسليط الملوك. والجَبابِرة: الملوك، واعتبار ذلك قولُه: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[5] أي: بمُتَسلِّط تسلُّط الملوك، فإن كان يجوز أن يقال من أجبرتُ فلاناً على الأمر: أنا جَبّارٌ له، وكان هذا محفوظاً، فقد يجوز أن يُجعَل قولُ عليٍّ عليه السلام: جبّار القلوب من ذلك، وهو أحسَنُ في المعنى.

وقوله: «الدامغ جَيشات الأبَاطِيل»، أي مُهْلِك ما نَجَم وارتفع من الأباطيل، وأصل الدَّمْغ من الدِّماغ، كأنّه الذي يَضرِب وَسَط الرأسِ فيَدْمَغُه، أي: يصيب الدِّماغَ منه. ومنه قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾[6] أي يُبطِله والدِّماغ مَقتَل، فإذا أصيبَ هَلَكَ صاحبُه.

وجَيْشات: مأخوذٌ من جاشَ الشيءُ أي ارتَفَع، وجاش الماءُ إذا طَمى، وجاشَت النَّفسُ.

وقولُه: «كما حمل فاضطَلَع» افتعَل مِن الضَّلاعة وهي القوّة.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه رقم: ٣، وأخرجه الطبراني في الأوسط: ٩/ ٤٤.
(٢) سورة النازعات، الآية: ٣٠.
(٣) سورة غافر، الآية: ٣٨.
(٤) سورة قٓ، الآية: ٤٥.
(٥) سورة الغاشية، الآية: ٢٢.
(٦) سورة الأنبياء، الآية: ١٨.

وقوله: «الغيرِ نُكُل في قِدَم»، النُّكل: مَصدَر وهو النُّكول، يقال: نَكَل فلانٌ عن الأمر يَنكُل نُكولاً، فهذا المشهورُ ونكِل بالكسر يَنكل نُكلاً قليلة.

والقِدَم: التقدّم، قال أبو زيد: رجلٌ مِقْدام إذا كان شجاعاً، فالقدم يجوزُ أن يكون بمعنى التقدّم، وبمعنى المتقدِّم.

قوله: «ولا وَهْن في عَزم، أي ولا ضَعْف في رأي.

وقوله: «حتّى أورى قَبساً لقابِس»، أي أظهَر نوراً من الحق، يقال: أَوْرَيْت النارَ إذا قَدحْتَ ما ظهر بها، قال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾[1].

وقوله: «آلاءَ الله تصلُ بأهلهِ أسبابه»، يريد نِعَم الله تَصِل بأهلِ ذلك القَبَس، - وهو الإسلام والحقّ سبحانه - أسبابَه وأهله، المؤمنون به.

قلتُ: تقديرُ الكلام حتّى أورى قبساً لِقابس، تَصِل أسبابُ ذلك القَبَس آلاءُ الله ونِعَمُه بأهلهِ المؤمنين به. واعلم أنّ اللام في «الغير نُكُل» متعلّقةٌ بقوله: «مستوفِزاً»، أي هو مُستوفِزٌ لغير نُكول، بل للخوف منك، والخضوعِ لك.

قال ابنُ قُتَيبة: قولُه عَلَيْهِ السَّلَامُ: «به هُدِيَت القلوب بَعدَ الكُفر، والفِتَن مُوضحات الأعلام»، أي هديته لمُوضِحات الأعلام، يقال هَدَيتَ الطريقَ وللطّريق وإلى الطريق.

وقوله: «نائرات الأحكام، ومُنيرات الإسلام، يريد الواضحات البيّنات، يقال: نار الشيءُ وأنارَ، إذا وَضح.

وقولُه: «شَهيدك يومَ الدّين»، أي الشّاهد على النّاس يومَ القيامة. وبَعِيثُك رَحْمة، أي مَبعُوثُك، فَعِيل في معنى مَفْعول.

وقوله: «افسَح له مَفسَحاً»، أي أوسِع له سَعةً، ورُوِي «مُفْتسحاً» بالتاء.

قوله: «فِي عَدْلك» أي في دار عدلك، يعني يومَ القيامة، ومن رواه: «عَدْنِك» بالنّون، أراد جَنّةَ عَدْنٍ.

وقوله: «من جَزْل عَطائك المعْلول»، من العَلَل، وهو الشُّرْب بعد الشُّرْب، فالشُّرْب الأوّل نَهَل، والثاني عَلَل، يريد أنّ عَطاءَه عزّ وجلّ مُضاعَف، كأنّه يَعُلّ عِبادَه، أي يُعطِيهم عَطاءً بعد عَطاءٍ.

وقوله: «أعْلِ على بناء البانِين بِناءَه»، أي ارْفَع فَوقَ أعمالِ العامِلين عَمَلَه. وأكرِم مَثْواه، أي مَنزِلَه، من قولِك: ثويْت بالمكان أي نَزَلْته وأقمْت به، ونُزله: رزقه.

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٧١.

ونحن قد ذَكَرْنا بعضَ هذه الكلمات فيما تقدّم على رواية الرّضيّ رحمه الله وهي مخالِفةٌ لهذه الرواية، وشرحنا ما رَواه الرّضيّ، وذَكَرْنا الآن ما رواه ابنُ قُتَيْبَة وشرَحَه لأنّه لا يخلو من فائدة جديدة.

ومنها قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: خُذِ الحكمةَ أنّى أتتْك، فإنّ الكلمةَ من الحكمة تكونُ في صدر المنافق فتَلَجلَجُ في صَدْرِه حتّى تَسكُن إلى صاحبِها.

قال ابن قتيبة: يريدُ الكلمةَ قد يَعلَمها المنافقُ فلا تزال تتحرّك في صَدْرِه ولا تَسكُن حتّى يَسمَعَها منه المؤمنُ أو العالِم فيَعِيها ويَثْقَفُها ويَفْقهها منه، فتَسكُن في صَدْره إلى أخواتها من كَلِم الحِكْمة.

ومنها قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: البيتُ المَعْمور نِتاقُ الكَعْبة من فَوْقِها.

قال ابنُ قُتَيبة: نِتاقُ الكَعْبة، أي مُظلّ عليها من فوقِها، من قولِ الله سبحانه: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾[1]، أي زُعزِع فأظلّ عليهم.

ومنها قولُه عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أنا قَسيم النار»، قال ابن قُتَيبة: أراد أنّ الناسَ فريقان: فريقٌ معي فهم على هُدًى، وفريقٌ عليَّ فهمْ على ضَلالة، كالخَوارِج، ولم يَجْسُر ابن قُتيبة أن يقول: «وكأهل الشّام» يتورّع يزعم، ثمّ إن الله أنْطقَه بما تورّع عن ذِكْرِه، فقال متمّماً للكلام بقوله: فأنا قَسِيم النّار، نصفٌ في الجنّة معي، ونصفٌ في النار، قال: وقَسِيم في معنى مُقاسِم، مثل جَلِيس وأكِيل وشَرِيب.

قلت: قد ذكر أبو عُبَيد الهَرَويّ هذه الكلمةَ في الجَمْع بين الغَرِيبَيْن، قال: وقال قوم: إنّه لم يُرِد ما ذَكره، وإنما أراد: هو قَسِيم النّار والجنّة يومَ القيامة حقيقة، يقسم الأمّة فيقولُ هذا للجنّة، وهذا للنار.

خطبة الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ الخالية من الألف

وأنا الآن أذكُرُ من كلامِهِ الغريب ما لم يُورِدْه أبو عُبيد وابنُ قُتَيبة في كلامهما وأشرَحُه أيضاً، وهي خُطْبَةٌ رَواها كثيرٌ من الناس له عَلَيْهِ السَّلَامُ خاليَةٌ من حَرْف الألف، قالوا: تذاكر قوم من

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧١.

أصحاب رسول الله ﷺ: أيُّ حروف الهجاء أدخَل في الكلامِ؟ فأجمَعوا على الألف، فقال عليٌّ عليه السلام:

حَمِدْتُ مَنْ عظُمت مِنَّته، وسَبَغَت نعمتُه، وسبقَت غضبَه رحمتُه، وتمت كلمتُه، ونفذتْ مشيئتُه، وبلغت قضيَّتُه، حَمِدْته حَمد مُقِرٍّ برُبوبيته، متخضِّعٍ لعبوديَّته، متنصِّلٍ مِن خطيئتِه، متفرِّدٍ بتوحيدِهِ، مؤمِّلٍ منه مغفرةً تُنجيهِ، يومَ يُشْغَلُ عن فصيلتِهِ وبنيه.

ونستعينُهُ ونسترشدُهُ ونستهديه، ونُؤمِنُ بِهِ ونتوكَّلُ عليه، وشهِدْتُ له شهودَ مُخْلِصٍ موقِنٍ، وفَرَّدْتُهُ تفريدَ مُؤْمِنٍ مُتيقِّنٍ، ووحَّدْتُهُ توحيدَ عبدٍ مذعِنٍ، ليس له شريكٌ في مُلكِهِ، ولم يكن له وليٌّ في صنعِهِ، جَلَّ عن مشيرٍ ووزيرٍ، وعن عوْنٍ مُعِينٍ ونصيرٍ ونظيرٍ.

عَلِمَ فستر، وبَطَن فخبرَ، وملكَ فقهرَ، وعُصي فغفر، وحكم فعدلَ، لم يزلْ ولن يزولَ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1]، وهو بعد كلِّ شيءٍ ربٌّ متعزِّزٌ بعزَّتِهِ، متمكِّنٌ بقُوَّتِهِ، متقدِّسٌ بعلوِّهِ، متكبِّرٌ بسموِّهِ، ليس يدركُهُ بصرٌ، ولم يُحِطْ به نظرٌ، قويٌّ منيعٌ، بصيرٌ سميعٌ، رؤوفٌ رحيمٌ.

عَجزَ عن وصفِهِ من يصفُهُ، وضلَّ عن نعته من يعرفه.

قَرُبَ فبَعُدَ، وبعُد فقرُب، يُجِيبُ دعوةَ من يدعوه، ويرزقُهُ ويحبوه، ذو لطف خَفِيٍّ، وبطشٍ قويٍّ، ورحمةٍ مُوسَعةٍ، وعقوبةٍ موجِعةٍ، رَحْمَتُهُ جنة عريضةٌ مونقةٌ، وعقوبته جحيمٌ ممدودةٌ موبقةٌ.

وشهِدْتُ ببعث محمدٍ رسولِهِ، وعبدِهِ وصفيِّهِ، ونبيِّهِ ونَجيِّه، وحبيبِهِ وخليلِهِ، بعثه في خيرِ عصرٍ، وحين فترةٍ وكفرٍ، رحمةً لعبيدِهِ، ومِنَّةً لمزيدِهِ، ختم به نبوَّتَهُ، وشيَّدَ به حجّته، فوعظ ونصح، وبلغ وكدح، رؤوفٌ بكلِّ مُؤْمِنٍ، رحيمٌ سخيٌّ، رضيٌّ وليٌّ زكيٌّ، عليه رحْمةٌ وتسليمٌ، وبركةٌ وتكريمٌ، مِنْ رَبٍّ غفورٍ رَحيمٍ، قريبٍ مُجيبٍ.

وَصيَّتُكُمْ معشرَ منْ حضرَنِي بوصيَّةِ ربِّكُم، وذكَّرْتُكُمْ بسنَّةِ نبيِّكُمْ، فعليكم برَهْبَةٍ تَسْكُنُ قلوبَكم، وخشيةٍ تُذْرِي دُمُوعكم، وتقيَّةٍ تنجيكُمْ قَبْل يوْم تُبْلِيكم وتذهِلكم، يوْمَ يفوزُ فِيه منْ ثقلَ وزنُ حَسنتِهِ، وخفَّ وزنُ سيِّئتِهِ، ولتكُنْ مسألتكم وتملُّقكُمْ مسألة ذلٍّ وخضوعٍ، وشكْرٍ وخشوعٍ، بتوْبةٍ وتورُّعٍ، وندمٍ ورجُوعٍ، وليغتنمْ كلُّ مُغتنِمٍ منكُمْ صحَّتُهُ قبل سقمه، وشبيبته قبل هَرَمِهِ، وسعتهُ قبلَ فَقْرِهِ، وفرْغَتَهُ قَبل شُغله، وحَضرَه قَبل سفره، قبلَ تكبُّرٍ وتَهَرُّمٍ وتسقُّمٍ، يملُّهُ طبيبُهُ، ويعْرِضُ عَنْهُ حبيبهُ وينقطعُ غمْدُهُ، ويتغيَّرُ عقلهُ، ثم قِيلَ: هُوَ موعُوكٌ، وجسمُهُ مَنْهُوكٌ، ثمَّ جُدَّ في نزعٍ شدِيدٍ، وحضرَهُ كلُّ قريبٍ وبعيدٍ، فشَخصَ بصرُهُ، وطمِح نظرُهُ، ورَشَحَ جبينُهُ، وعطفَ عَرِينُهُ، وسَكَن حَنِينُهُ، وحزَنَتْهُ نفسهُ، وبكتهُ عِرسُهُ، وحُفِرَ رَمسهُ، ويُتِّمَ منْهُ ولَدُهُ، وتفرّق منْهُ عدَدُهُ، وقُسِمَ جَمْعُه، وذَهَبَ بصرهُ وسَمْعُهُ، ومدِّدَ وجُرِّدَ، وعُرِّيَ وغسِلَ، ونُشِّفَ وسُجِّيَ،

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

وبُسِطَ لَهُ وهُيِّئَ، ونُشِر عليهِ كَفَنُهُ، وشُدَّ منهُ ذَقَنُهُ، وقُمِّصَ وعُمِّمَ، ووُدِعَ وسلَّمَ، وحُمِلَ فوقَ سَريرٍ، وصُلِّيَ عليهِ بتكبيرٍ، ونُقِلَ مِنْ دُورٍ مُزَخْرَفَةٍ، وقُصورٍ مُشيَّدَةٍ، وحُجَرٍ مُنجَّدَةٍ، وجُعِلَ في ضريحٍ ملْحُودٍ وضيقٍ مرصُودٍ، بِلَبِنٍ مَنضُودٍ، مُسقَّفٍ بجُلْمُودٍ، وهيلَ عليهِ حفرُهُ، وحُثِيَ عَلَيْهِ مَدَرُهُ، وتحققَ حِذْرُهُ، ونُسِيَ خبرُهُ، ورَجَعَ عنهُ وليُّه وصفيّه، ونديمُهُ ونَسيبه، وتبدَّل به قرينه وحبيبُهُ، فهو حشو قبرٍ، ورهينُ قفرٍ، يسعى بجسمه دُود قبرِهِ، ويسيل صديدهُ مِنْ مَنْخِرِهِ، يسحقُ تُرْبُه لحمهُ، وينشَفُ دَمَهُ، ويَرَمّ عظمَهُ حَتَّى يَوْم حشرِهِ، فتُنشَرَ مِنْ قَبْرِهِ حِينَ يُنْفَخُ في صُورٍ، ويُدْعَى بحشْرٍ ونُشُورٍ.

فثمَّ بعثِرتْ قُبورٌ، وحُصِّلَتْ سريرةُ صُدُورٍ، وَجيءَ بِكلِّ نبيٍّ وصدِّيقٍ وشهيدٍ، وتوحَّد لِلفَصْلِ قديرٌ بعبيدِهِ خبيرٌ بصير، فكَمْ مِنْ زَفْرة تُضْنيهِ، وحسرةٍ تنضيهِ، في مَوْقفٍ مَهُولٍ، ومشهدٍ جَليلٍ، بَيْنَ يَدَيْ ملكٍ عظيمٍ، وبِكلِّ صَغيرٍ وكَبيرٍ عَليمٍ، فحينئذٍ يُلْجِمُهُ عرَقُهُ، ويُحصِرُه قلقهُ، عبْرَتُهُ غير مرحومةٍ، وصرْخته غيرُ مسموعة، وحجّتهُ غيرِ مقبولة، زَالتْ جريدته، ونشرَتْ صحيفتُه، نظرَ في سوءِ عملِهِ، وشهدتْ عليْه عيْنه بنظره، ويدهُ بِبَطْشِهِ، ورجلُهُ بخطْوِهِ، وفرْجهُ بلمسِهِ، وجلدُه بمسِّهِ، فسلسِلَ جيدُه، وغُلَّتْ يده، وسيقَ فسحب وحْدَه، فوَرَد جهنَّمَ بكرْبٍ وشدَّةٍ، فظلَّ يعذَّبُ في جحيمٍ، ويُسْقى شَرْبةً مِنْ حَمِيمٍ، تَشْوي وجْهَهُ، وتسلخُ جلْدَهُ، وتضربهُ زبَنيَةٌ بمقْمَعٍ من حَديدٍ، ويعودُ جلْده بَعْدَ نُضْجه كجِلْدٍ جَديدٍ، يستغيثُ فتعرض عنه خزنةُ جهنَّمَ، ويستصرِخُ فيلبث حقبةً يَنْدَمُ.

نَعوذُ بربٍّ قَديرٍ، مِنْ شَرِّ كلِّ مصيرٍ، ونَسْأله عفو مَنْ رَضيَ عنْه، ومغفرة مَنْ قبله، فهوَ وليُّ مسألتِي، ومُنجحُ طلبتي، فمنْ زُحْزِحَ عَنْ تعذِيب رَبِّهِ جُعِلَ في جَنَّتِهِ بِقُرْبِهِ، وخلد في قصورٍ مُشيَّدة، ومُلْكٍ بحورٍ عينٍ وحفدةٍ، وطيفَ عليْهِ بكؤوسٍ، أُسْكِنَ في حَظِيرَةِ قُدُّوس، وتقلَّبَ في نعيمٍ، وسُقِيَ مِنْ تسنيمٍ، وشرب مِنْ عيْنٍ سَلْسَبيلٍ، ومُزِجَ له بزنْجبيلٍ، مُخَتَّمٍ بِمسكٍ وعبيرٍ، مُسْتَدِيمٍ للملكِ، مُستشعرٍ لِلسُّرُر، يشربُ مِنْ خُمُورٍ، في روْضٍ مُغْدِقٍ، لَيْسَ يُصَدَّعُ مَنْ شَرِبَه، ولَيْسَ يُنْزَف.

هَذِهِ منْزِلَةُ مَنْ خشيَ ربَّهُ، وحذر نفسَهُ معصيتهُ، وتلك عُقوبةُ مَنْ جَحَد مشيئتهُ، وسوّلتْ له نفسه معصيتهُ، فهو قَوْلٌ فصلٌ، وحكم عدْلٌ وخبر قصص قصٌّ، وَوَعْظ نَصٌّ، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1] نَزَلَ بِهِ رُوحُ قُدُسٍ مُبين، عَلَى قَلْب نبيٍّ مُهْتَدٍ رَشِيدٍ، صلَّتْ عَليهِ رُسُلٌ سفرَةٌ، مُكرَّمُونَ بَرَرَةٌ، عُذتُ بربٍّ عَلِيمٍ، رَحِيمٍ كَريمٍ، مِنْ شَرِّ كلِّ عدُوٍّ لَعِينٍ رَجِيمٍ، فلْيَتضرَّعْ مُتضرِّعكم، ولْيبتهلْ مُبتهلُكُمْ، وليستغفرْ كلُّ مَرْبوبٍ منكُمْ لي وَلكم، وَحسبي رَبِّي وحدَهُ.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

الشرح: فصيلةُ الرجل: رهطُه الأدْنَوْن. وكَدح: سعى سعياً فيه تعب، وفرْغته: الواحدةُ من الفَراغ، تقول: فَرَغْت فرْغةً، كقولك: ضربتُ ضربةً. وسَجَّى الميّتَ: بسط عليه رداءً. ونَشَر الميّت من قبْره بفتح النون والشين، وأنشَرَه الله تعالى.

وبُعثِرت قبور: انتثرتْ ونُبِشَتْ.

قوله: «وسيق بسحب وحدَه»، لأنه إذا كان معه غيره كان كالمتأسّي بغيره، فكان أخفّ لألمه وعذابه، وإذا كان وحده كان أشدّ ألماً وأهوَل، وروي «فسيقَ يُسحَب وحدَه» وهذا أقرب إلى تناسُب الفَقْرتَين، وذاك أفخم معنًى.

وزِبْنية على وَزْن «عِفْرِية» واحد الزبانية، وهم عند العرب الشّرط، وسُمّيَ بذلك بعض الملائكة لدَفْعهم أهل النار إليها كما يَفعل الشّرط في الدُّنيا، ومن أهل اللّغة من يجعَل واحد الزّبانية زبانيّ. وقال بعضهم: زَابن، ومنهم من قال: هو جمع لا واحدَ له، نحو أبابيل وعبادِيد، وأصل الزبْن في اللّغة الدَّفْع، ومنه ناقةٌ زَبُون: تَضرِب حالبَها وتَدفعه.

وتقول: مَلك زيدٌ بفلانةَ بغير ألف، والباء هاهنا زائدة كما زيدت في «كَفَى بالله حسيباً»، وإنما حَكمنا بزيادتها لأنّ العَرَب تقول: ملكتُ أنا فلانةً أي تزوّجتُها، وأملكْت فلانةً بزيْدٍ أي زوّجْتها به، فلمّا جاءت الباء هاهنا ولم يكن بُدٌّ من إثبات الألف لأجلِ مجيئها جعلناها زائدة، وصار تقديرُه: وملَك حُوراً عيناً.

وقال المفسِّرون في تَسْنيم: إنه اسمُ ماءٍ في الجنة سُمّي بذلك لأنّه يجري من فوق الغُرَف والقُصور.

وقالوا في سلسبيل: إنه اسمُ عَيْنٍ في الجنة ليس يُنزِف ولا يُخمِّرُ كما يُخمَر شارب الخمْر في الدنيا.

انقضَى هَذا الفصلُ، ثم رَجعنا إلى سَنَن الغرَضِ الأوّل.

- ٢٦٧ -

الأصل: وقال عليه السلام: لمّا بَلغهُ إغارَةُ أَصْحابِ معاوِيةَ على الأنْبار، فخرج بنفْسِهِ ماشياً حتى أتى النُّخَيْلَةَ، وأدْرَكهُ النَّاس وقالُوا: يا أمير المؤمنين، نحْن نَكْفِيكهُمْ، فَقال عليه السلام:

وَالله ما تَكْفُونَنِي أَنْفُسَكُمْ، فَكَيْفَ تَكْفُونَنِي غَيْرَكُمْ! إِنْ كَانَتْ الرَّعَايَا قَبْلِي لَتَشْكُو حَيْفَ رُعَاتِهَا، فَإِنِّي اليَوْمَ لأَشْكُو حَيْفَ رَعِيَّتِي، كَأَنَّني المَقُودُ وَهُمُ القَادَةُ، أَوِ المَوْزُوعُ وَهُمُ الوَزَعَةُ.

قال: فلمّا قال هذا القول في كلام طويلٍ قد ذكرْنا مُخْتَارَهُ في جملةِ الخُطَب، تقدَّم إلَيْه رَجُلان من أصحابه، فقال أحدهما: ﴿إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾[1]، فمُرْنَا بِأَمْرِكَ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ نُنَفِّذْ، فقال: وَأَيْنَ تَقَعَانِ مِمَّا أُرِيدُ!

الشرح: السّنن: الطريقة، يقال: تَنحَّ عن السَّنن، أي عن وَجْه الطّريق. والنُّخَيْلة: بظاهر الكُوفة، ورُوِي «ما تكفُوني» بحذف النون.

والحيْف: الظلم.

والوَزَعة: جمع وازِع، وهو الدافع الكافّ.

ومعنى قوله: «ما تكفُونني أنفسَكم»، أي أفعالُكم رديئةٌ قبيحةٌ تحتاجُ إلى جند غيركم أستعين بهمْ على تثقيفِكم وتهذيبكم، فَمَنْ هذه حاله كيف أثقِّف به غيره، وأهذِّب به سواه!

وإن كانت الرعايا: إنْ هاهنا مخفَّفة من الثقيلة، ولذلك دَخلت اللام في جوابها.

وقد تقدّم ذكرُنا هذين الرّجلين، وإن أحدَهما قال: يا أمير المؤمنين، أقول لكَ ما قاله العبْد الصالح: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾. فشكر لهما وقال: وأين تقعان ممّا أريد!

— ٢٦٨ —

الأصل: وَقِيلَ: إِنَّ الحَارِثَ بنَ حَوْطٍ أتاهُ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَقَالَ لَهُ: أَتُرَانِي أَظُنُّ أَنَّ أَصْحَابَ الجَمَلِ كَانُوا عَلَى ضَلالةٍ؟

فَقَالَ عليه السلام: يَا حَارِ، إِنَّكَ نَظَرْتَ تَحْتَكَ، وَلَمْ تَنْظُرْ فَوْقَكَ فَحِرْتَ، إِنَّكَ لَمْ تَعْرِفِ الحَقَّ فَتَعْرِفَ أَهْلَهُ، وَلَمْ تَعْرِفِ الْبَاطِلَ فَتَعْرِفَ مَنْ أَتَاهُ.

فَقَالَ الْحَارِثُ: فَإِنِّي أَعْتَزِلُ مَعَ سَعْدِ بنِ مَالِكٍ وَعَبْدِ اللهِ بنِ عُمَر.

فقَالَ عليه السلام: إِنَّ سَعْداً وَعَبْدَ اللهِ بنَ عُمَرَ لَمْ يَنْصُرَا الحَقَّ، وَلَمْ يَخْذلا البَاطِلَ.

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٥.

الشرح: اللّفظة الّتي وردتْ قبلُ أحسَنُ من هذه اللفظة، وهي: أولئك قومٌ خَذَلوا الحقَّ ولم ينصرُوا الباطل، وتلك كانَت حالُهم، فإنّهم خذلوا عليًا ولم يَنصُروا مُعاوِيَة ولا أصحابَ الجَمَل.

فأمّا هذه اللّفظة ففيها إشكالٌ، لأنّ سعداً وعبد اللّه لَعَمْرِي إنَّهما لم يَنصُرا الحقّ، وهو جانبُ عليّ عليه السلام، لكنّهما خَذَلا الباطلَ، وهو جانبُ معاويةَ وأصحاب الجَمَل، فإنّهم لم يَنصُروهم في حَرْب قط، لا بأنفسهم ولا بأموالهم ولا بأولادهم، فينبغي أن تتأوّل كلامَه فنقول: إنّه ليس يَعني بالخذلان عدمَ المُساعَدة في الحرب، بل يَعني بالخِذْلان هاهنا كلَّ ما أثّر في مَحْق الباطل وإزالته، قال الشاعر يصف فَرَساً:

وهو كالدَّلْوِ بكفِّ المستَقِي خذلتْ عنه العَراقِي فانْجَذَمْ

أي بايَنَتْه العَراقِي، فلمّا كان كلُّ مؤثّر في إزالةِ شيءٍ مُبايناً له نقل اللّفظ بالاشتراك في الأمر العامّ إليه، ولمّا كان سعدٌ وعبدُ اللّه لم يَقُوما خَطِيبَين في النّاس يُعلِّمانهم باطلَ معاوية وأصحاب الجمل، لم يَكشِفا اللَّبْس والشُّبْهة الداخلةَ على الناس في حَرْب هذين الفَرِيقين، ولم يُوضّحا وجوبَ طاعة عليّ عليه السلام فيرد النّاسَ عن اتّباع صاحب الجَمَل وأهل الشام صدقَ عليهما أنّهما لم يَخذُلا الباطلَ. ويُمكن أن يتأوّل على وجهٍ آخر، وذلك أنّه قد جاء خذلت الوحشيّة إذا قامَتْ على ولدِها، فيكون معنَى قوله: «ولم يَخذُلا الباطل»، أي لم يقِيما عليه ويَنصُراه، فترجع هذه اللّفظة إلى اللّفظة الأولى، وهي قوله: «أولئك قوم خذلُوا الحقّ ولم يَنصروا الباطلَ».

والحارث بن حَوط بالحاء المهملة. ويقال: إن الموجود في خَطّ الرضيّ «ابن خوط» بالخاء المعجمة المضمومة.

- ٢٦٩ -

الأصل: صَاحِبُ السُّلْطانِ كَرَاكِبِ الأَسَدِ يُغْبَطُ بِمَوْقِعِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَوْضِعِهِ.

بعض ما قيل في صحبة السلطان

الشرح: قد جاء في صُحْبة السّلطان أمثال حِكَميّة مستحسَنةٌ تُناسِب هذا المعنى، أو تَجرِي مَجْراه في شَرْح حالِ السلطان، نحو قولهم: صاحب السُّلْطان كراكبِ الأسَد يهابُه الناس، وهو لمرْكُوبه أهْيَب.

وكان يقال: إذا صَحِبْتَ السلطانَ فلتكنْ مُدَارَاتُك له مُداراةَ المرأةِ القبيحةِ لبَعْلِها المُبغِض لها، فإنّها لا تَدَع التصنُّع له على حالٍ.

قيل للعَتَّابيّ: لم لا تَقصِد الأميرَ؟ قال: لأني أراه يُعطِي واحداً لغيرِ حَسَنة ولا يَدٍ، ويَقتُل آخرَ بلا سيئةٍ ولا ذَنْب، ولستُ أدرِي أيَّ الرَّجُلين أكون! ولا أرجو منه مقدارَ ما أُخاطِر به.

وكان يقال: العاقل مَن طَلَب السلامةَ مِن عَمَل السلطان، لأنّه إن عَفَّ جَنى عليه العَفاف عداوةَ الخاصّة، وإن بَسَط يدَه جنَى عليه البَسْط ألسِنَة الرّعِيّة.

وكان سعيدُ بنُ حُمَيد يقول: عملُ السّلطان كالحمّام، الخارجُ يُؤثِر الدُّخول، والدّاخل يُؤثِر الخرُوج.

ابن المقفَّع: إقبالُ السّلطان على أصحابِه تَعَب، وإعراضُه عنهم مَذَلّة.

وقال آخر: السلطان إنْ أرضَيْتَه أتعبَك، وإنْ أغضبته أعطَبَك.

وكان يقال: إذا كنتَ مع السلطان فكُنْ حَذِراً منه عند تقريبه، كاتماً لسِرّه إذا استَسرّك، وأميناً على ما ائتمَنَك، تشكُر له ولا تكلّفه الشُّكر لك، وتُعلِّمه وكأنّك تتعلّم منه وتؤدّبه وكأنه يؤدِّبُك، بصيراً بهوَاه، مؤثراً لمَنفَعته، ذليلاً إنْ ضامَك، راضياً إن أعطاك، قانعاً إنْ حَرَمك، وإلّا فأبعدْ منه كلّ البُعْد.

وقيل لبعضِ مَن يَخدُم السلطانَ: لا تَصحَبْهم، فإنّ مَثَلهم مَثَل قِدْر التنُّور، كلّما مسّه الإنسانُ اسوَدّ منه، فقال: إن كان خارج تلك القِدْر أسوَد فداخِلُها أبيَض.

وكان يقال: أفضَل ما عُوشِر به المُلوك قِلّة الخِلاف، وتَخفيف المؤونة.

وكان يقال: لا يَقدِر على صُحْبة السلطان إلا من يستقلّ بما حملوه، ولا يُلحِف إذا سألَهم، ولا يغترّ بهم إذا رَضُوا عنه، ولا يتغيّر لهم إذا سَخِطوا عليه، ولا يَطغَى إذا سَلّطوه، ولا يَبطر إذا أكرَموه.

وكان يقال: إذا جعلك السلطانُ أخاً فاجعله رَبًّا، وإن زادك فزِدْه.

وقال أبو حازم: للسُّلطان كُحْل يَكحَل به مَنْ يُولِّيه، فلا يُبصِر حتى يُعزَل.

وكان يقال: لا يَنبغِي لصاحب السلطان أن يبتدئه بالمسألة عن حاله، فإن ذلك من كلام النَّوْكَى، وإذا أردت أن تقول: كيف أصبح الأمير؟ فقل: صَبّح الله الأميرَ بالكرامة، وإن أردتَ أن تقول: كيف يَجِد الأميرُ نفسَه؟ فقل: وهَب الله الأمير العافية، ونحو هذا، فإن المسألة تُوجِب الجَواب، فإن لم يُجِبْك اشتدّ عليك، وإن أجابَك اشتدّ عليه.

وكان يقال: صُحبةُ المُلوك بغير أدبٍ كركُوب الفلاةِ بغيرِ ماء.

وكان يقال: ينبغي لمن صَحِب السلطانَ أن يستعدّ للعُذْرِ عن ذَنْبٍ لم يَجْنِه، وأن يكون آنَسَ ما يكونُ به، أوحشَ ما يكونُ منه.

وكان يقال: شِدّة الانقباضِ من السّلطان تُورِث التّهمة، وسُهولة الانبساط إليه تُورِث الملالة.

وكان يقال: أصحَب السلطانَ بإغمالِ الحَذَر، ورَفْض الدّالّة، والاجتهاد في النّصيحة، ولْيَكُن رأس مالِكَ عندَه ثلاث: الرّضا، والصبر، والصِّدْق.

واعلَمْ أنّ لكل شيء حَدًّا، فما جاوَزَه كان سَرَفاً، وما قَصّر عنه كان عَجْزاً، فلا تبلُغ بك نصيحةُ السّلطان أن تُعادِيَ حاشيَته وخاصّتَه وأهلَه، فإنّ ذلك ليس من حَقّه عليك، وليَكُن أقضَى لحقِّه عنك، وأدعَى لاستمرارِ السّلامة لك، أن تستصلح أولئك جُهْدَك، فإنّك إذا فعلتَ ذلك شكرتَ نعمَته، وأمِنْتَ سطوَتَه، وقلّلت عدوّك عندَه، وإذا جاريْتَ عند السلطان كُفْوًا من أكفائِك فلتكنْ مُجاراتُك ومُباراتُك إيّاه بالحجّة، وإن عَضَهك، وبالرّفق وإن خَرِف بك. واحذر أن يستلحّك فتَحمَى، فإنّ الغَضَب يُعمِي عن الفرصة، ويَقطَع عن الحجّة، ويُظهِر عليكَ الخَصْم، ولا تتورّدَنّ على السّلطان بالدّالّة وإن كان أخاك، ولا بالحجّة وإن وثِقتَ أنّها لك، ولا بالنصيحة وإن كانت له دونَك، فإنّ السلطانَ يَعرِض له ثلاثٌ دونَ ثلاث: القدرة دونَ الكَرَم، والحَمِيّة دون النَّصَفة، واللَّجاج دونَ الحَظّ.

- ٢٧٠ -

الأصل: احْسِنُوا في عَقِبِ غَيْرِكُمْ تُحْفَظُوا في عَقِبِكُمْ.

الشرح: أكثر ما في هذه الدنيا يقع على سبيل القَرْض والمكافأة، فقد رأينا عِياناً مَن ظَلم الناس فظُلِم عقِبُه ووَلَدُه، ورأينا من قَتَلَ الناس فقُتِل عَقِبه وولدُهُ، ورأينا من أخْرَب دُوراً فأُخرِبتْ دارُه، ورأينا من أحسَن إلى أعقاب أهل النعم فأحسَنَ الله إلى عَقِبِه وولدِهِ.

وقرأتُ في تاريخ أحمد بن طاهر أنّ الرشيد أرسَل إلى يحيى بن خالد وهو في محبسه يقرّعه بذنوبه، ويقول له: كيف رأيت! ألَمْ أُخرّبْ دارك؟ ألم أقتُل ولدك جعفراً؟ ألم أنْهَبْ مالك؟ فقال يحيى للرسول: قُلْ له: أما إخرابُك دارِي فستُخرَّب دارُك، وأما قتلُك ولدِي جعفراً فسيُقْتل ولدُكَ محمد، وأما نهبُك مالي فسيُنْهَب مالُك وخِزانَتُك. فلما عاد الرسولُ إليه بالجواب وَجَم طويلاً وحزن، وقال: والله ليكوننّ ما قال، فإنه لم يَقُل لي شيئاً قطّ إلا وكان كما قال، فأُخرِبَتْ

دارُه - وهي الخلَد - في حِصارِ بَغْداد، وقُتِل ولدُه محمد، ونُهِب مالُه، وخِزانتُه، نهبها طاهر بنُ الحسين.

- ٢٧١ -

الأصل: إنَّ كَلام الحُكماءِ إذا كَانَ صَوَاباً كَانَ دَوَاءً، وإذا كَان خَطَأً كانَ دَاءً.

الشرح: كلّ كلام يقلّد المتكلّم به لحسن عقيدةِ الناس فيه نحو كلام الحُكماء وكلام الفُضلاء والعُلماء من الناس إذا كان صواباً كان دواءً وإذا كان خطأً كان داءً، لأنّ الناس يَحذُون حَذْوَ المتكلّم به، ويقلّدونه فيما يتضمّنه ذلك الكلامُ من الآداب والأوامر والنّواهي، فإذا كان حقًّا أفلحوا، وحَصَل لهم الثّواب واتّباع الحقّ، وكانوا كالدَّواءِ المُبرِئ للسّقَم، وإذا كان ذلك الكلامُ خطأً واتّبعوه خسِروا ولم يُفلِحوا، فكان بمنزلة الداء والمَرَض.

- ٢٧٢ -

الأصل: وقالَ عليه السلام حينَ سألهُ رجلٌ أنْ يُعَرِّفَهُ ما الإيمانُ، فقال: إذَا كَانَ غدٌ فَأْتِنِي حَتَّى أُخبِرَكَ على أسماعِ النَّاس، فإنْ نَسِيت مقَالتي حَفِظها عَلَيْكَ غَيْرُك، فإنَّ الكَلامَ كالشَّارِدَةِ يَنْقُفُهَا هَذَا ويُخْطِئُهَا هَذَا.

قال: وقد ذكرنا ما أجابَه عليه السلام فيما تقدَّم من هذا الباب، وهو قوله: «الإيمانُ على أربع شعب».

الشرح: يقول: إذا كان غَدٌ فأْتني فتكون «كان» هاهنا تامّة، أي إذا حَدَث ووُجِد، وتقول: إذا كان غداً فأتني فيكون النصب باعتبارٍ آخر، أي إذا كان الزمان غداً، أي موصوفاً بأنه من الغَدِ، ومن النحويين من يقدِّره: إذا كان الكونُ غداً، لأنّ الفِعل يدلّ على المَصدَر، والكَوْن هو التجدّد والحدُوث.

وقائل هذا القول يُرجّحه على القول الآخَر، لأنّ الفاعل عندهم لا يُحذَف إلّا إذا كان في الكلام دليلٌ عليه.

ويثقَفها، يَجدها، ثَقِفتُ كذا بالكسر، أي وجدته وصادفته.

والشاردة: الضّالة.

- ٢٧٣ -

الأصل: يا بنَ آدَمَ، لا تَحمِلْ هَمَّ يَوْمِكَ الَّذِي لَمْ يَأتِكَ عَلَى يَوْمِك الَّذِي أتاكَ، فإنهُ إنْ يكُنْ مِنْ عُمُرِكَ يَأتِ اللهُ فيهِ بِرِزْقِكَ.

الشرح: قد تقدّم هذا الفصلُ بتمامه. واعلَمْ أنّ كلّ ما ادّخَرْتَه ممّا هو فاضل عن قُوتك فإنما أنت فيه خازنٌ لغَيْرك.

وخلاصةُ هذا الفصل النهْيُ عن الحِرْص على الدّنيا والاهتمام لها، وإعلامُ الناس أن الله تعالى قد قَسم الرّزق لكل حَيٍّ مِن خلقِه، فلو لم يتكلّف الإنسانُ فيه لأتاه رِزْقه من حيث لا يحتسِب.

وفي المَثل: يا رزّاقَ البُغاث في عُشّه.

وإذا نظر الإنسانُ إلى الدّودة المكنونة داخلَ الصخرة كيف تُرزَق، عَلم أنّ صانع العالم قد تكفّل لكلّ ذي حياةٍ بمادّةٍ تقيم حياته إلى انقضاءِ عُمُرِه.

- ٢٧٤ -

الأصل: أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً ما، عَسَى أنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا، وَأَبْغِض بَغِيضَكَ هَوْناً ما، عَسَى أن يَكُونَ حَبِيبكَ يَوْماً مَا.

الشرح: الهوْن بالفتح: التأنّي، والبَغِيض: المبغض.

وخلاصةُ هذه الكلمة: النّهي عن الإسراف في المودّة والبِغْضة، فربّما انقلب من تَودّ فصار عدوًّا، وربّما انقَلب مَنْ تُعادِيه فصار صدِيقاً.

وقد تقدّم القولُ في ذلك على أتمّ ما يكون.

وقال بعضُ الحكماء: توَقَّ الإفراطَ في المحبّة، فإن الإفراط فيها داعٍ إلى التقصير منها، ولأنْ تكونَ الحالُ بينَك وبينَ حبيبك نامية أَوْلَى من أنْ تكون مُتناهية.

ومن كلام عمَرَ: لا يكن حبُّك كلَفاً، ولا بغضُك تلفاً.

وقال الشاعر:

وأحبِبْ إذا أحبَبْتَ حُبًّا مقارِباً ... فإنّك لا تدْري متى أنت نازعُ!

وأبغضْ إذا أبغَضْت غيرَ مُبايِنٍ ... فإنك لا تدْرِي متى أنتَ راجعُ!

وقال عَدِيُّ بنُ زيْد:

ولا تأمَنن من مُبْغِضٍ قربَ داره ... ولا مِنْ محِبٍّ أن يملَّ فيبعدا

- ٢٧٥ -

الأصل: النَّاسُ فِي الدُّنْيَا عَامِلان:

عَامِلٌ فِي الدُّنْيَا للدُّنْيَا، قَدْ شَغَلَتْهُ دُنْيَاهُ عَنْ آخِرَتِهِ، يَخْشَى عَلَى مَنْ يُخَلِّفُ الْفَقْرَ، وَيَأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَيُفْنِي عُمُرَهُ فِي مَنْفَعَةِ غَيْرِهِ.

وَعَامِلٌ عَمِلَ فِي الدُّنْيَا لِما بَعْدَهَا، فَجَاءَهُ الَّذِي لَه مِن الدنيا بِغَيْرِ عَمَلٍ، فَأَحْرَزَ الحظَّيْنِ معاً، وَمَلَكَ الدَّارَيْنِ جَمِيعاً، فَأَصْبَحَ وَجِيهاً عِنْدَ الله، لا يَسْأَلُ الله حَاجَةً فَيَمْنَعَهُ.

الشرح: معنى قوله: «ويأمنُه على نَفْسِه»، أي ولا يبالي أن يكون هو فقيراً، لأنه يعيش عَيْشَ الفقراء وإن كان ذا مالٍ، لكنّه يدخر المَال لولده فيُفنِي عمرَه في منفعة غيره.

ويجوز أن يكون معناه إنه لكثرةِ مالِه قد أَمِن الفقر على نفسه ما دام حَيًّا، ولكنه لا يأمَن الفقرَ على ولده لأنه لا يَثِق من وَلده بحُسْن الاكتساب كما وَثِق من نفسِه، فلا يزال في الاكتساب والازدياد منه لمنفعة ولدِه الّذي يخاف عليه الفقرَ بعد مَوْته.

فأما العاملُ في الدنيا لما بعدَها فهمْ أصحابُ العبادة، يأتيهم رزقُهم بغير اكتساب ولا كَدٍّ، وقد حصلتْ لهم الآخرةُ، فقد حَصَل لهم الحظّان جميعاً.

- ٢٧٦ -

الأصل: وَرُوِيَ أنهُ ذُكرَ عِنْدَ عمر بن الخطابِ في أيّامِهِ حَلْيُ الكَعبةِ وكثرَتُهُ، فقالَ قومٌ: لوْ أخذْتَهُ فَجَهَّزْتَ بِهِ جيوشَ المسلمينَ، كانَ أعظمَ للأجرِ، وما تَصْنعُ الكعبةُ بالحلْيِ! فهمَّ عُمرُ بذلك، وسأَلَ عنهُ أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: إنَّ هَذا القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالأَمْوَالُ أَرْبَعَةٌ: أَمْوَالُ المُسْلِمِينَ، فَقَسَّمَها بَيْنَ الوَرَثَةِ في الفَرَائِضِ، وَالفَيْءُ فَقَسَّمَهُ عَلَى مُسْتَحِقِّيهِ، وَالخُمُسُ فَوَضَعَه اللهُ حَيْثُ وَضَعَهُ، والصَّدَقاتُ فَجَعَلَهَا اللهُ حَيْثُ جَعَلها، وكَانَ حَلْيُ الكَعْبَةِ فِيها يَوْمَئِذٍ، فَتَرَكَهُ اللهُ عَلَى حالِهِ، ولَمْ يَتْرُكْهُ نِسْياناً، وَلَمْ يَخْفَ عنه مَكاناً، فَأَقِرَّهُ حَيْثُ أَقَرَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ. فَقَالَ لَهُ عُمر: لَوْلاكَ لافْتَضَحْنَا! وَتَرَكَ الحلْيَ بِحَالِهِ.

الشرح: هذا استدلال صحيح، ويمكن أن يورد على وجهين:

أحدهما: أن يقال: أصلُ الأشياء الحظْر والتحريم، كما هو مَذهب كثيرٍ من أصحابنا البغداديين، فلا يجوز التصرف في شيء من الأموال والمنافع إلا بإذن شرعيّ، ولم يوجد إذن شَرْعي في حَلْي الكَعْبة، فبقينا فيه على حُكم الأصل.

والوجه الثاني: أن يقال: حلي الكعبة مال مختصّ بالكعبة، هو جَارٍ مَجرى سُتور الكعبة، ومَجرَى باب الكَعْبة، فكما لا يجوز التصرف في ستُور الكعبة وبابها إلّا بنصّ فكذلك حَلْي الكعبة، والجامع بينهما الاختصاص الجاعلُ كلَّ واحد من ذلك كالجزء من الكعبة، فعَلَى هذا الوجه يَنبغِي أن يكون الاستدلالُ.

ويجب أن يُحمل كلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام عليه، وألّا يُحمَل على ظاهره، لأنّ لمعترِضٍ أن يعترِض استدلاله إذا حمل على ظاهرِه، بأن يقول: الأموالُ الأربعة التي عدّدها إنما قَسَمها الله تعالى حيث قسَمها لأنّها أموالٌ متكرِّرة بتكرُّر الأوقات على مرّ الزمان يَذهَب الموجودُ منها ويَخلُفه غيرُه، فكان الاعتناء بها أكثر، والاهتمامُ بوجوهِ متصرّفها أشدّ، لأنّ حاجات الفقراء والمساكين وأمثالهم من ذَوِي الاستحقاق كَثيرة ومتجدّدة بتجدّد الأوقات، وليس كذلك حَلْي الكَعْبة، لأنّه مال واحدٌ باقٍ غير متكرّر، وأيضاً فهو شيء قليلٌ يسير، ليسَ مِثله ممّا يقال: ينبغي أن يكون الشارعُ قد تعرّض لوجوهِ مصرفه حيث تعرّض لوجوهِ مصرف الأموال، فافترق الموضعان.

- ٢٧٧ -

الأصل: رُوِيَ أَنَّهُ رُفِعَ إِلَيْهِ رَجُلانِ سَرَقا مِنْ مَالِ الله، أَحَدُهُما عَبْدٌ مِنْ مَالِ الله، والآخَرُ مِنْ عُرُضِ النَّاسِ، فَقَالَ: أَمَّا هَذَا فَهُوَ مِنْ مَالِ الله فَلا حَدَّ عَلَيْهِ، مَالُ الله أَكَلَ بَعْضُهُ بَعْضاً، وَأَمَّا الآخَرُ فَعَلَيْهِ الحَدُّ الشَّدِيدُ. فَقَطَعَ يَدَهُ.

الشرح: هذا مَذهَب الشّيعة أنّ عبد المغنَم إذا سرَق من المَغنَم لم يُقطَع، فأمّا العبدُ الغريبُ إذا سَرَق من المَغنَم فإنّه يُقطَع إذا كان ما سَرَقه زائداً عمّا يَستحِقّه من الغنيمة بمقدار النّصاب الّذي يجب فيه القَطْع، وهو رُبْع دينار، وكذلك الحُرّ إذا سَرَق من المَغنَم حُكمُه هذا الحُكم بعَيْنه، فوَجَب أن يحمَل كلامُ أميرِ المؤمنين على أنّ العبدَ المقطوعَ قد كان سَرَق من المَغنَم ما هو أزيَدُ من حَقّه من الغنيمة بمقدارِ النّصاب المذكور أو أكثر.

فأمّا الفقهاء فإنّهم لا يُوجِبون القَطْع على مَنْ سَرَق من مال الغنيمة قبل قِسْمَتها، سواءٌ كان ما سَرَقه أكثر من حَقّه أو لم يكن، لأنّ مُخالَطَة حقّه ومُمازَجته للمسروق شُبْهة في الجملة تَمنَع من وجوب القَطْع، هذا إن كان له حقٌّ في الغنيمة بأن يكونَ شَهِد القتالَ بإذنِ سَيّده، فإن لم يكن ذلك وكان لسيّده فيها حقٌ لم يُقطَع أيضاً، لأنّ حِصّةَ سيّده المُشاعةَ شُبهة تَمنعُ من قَطعه، فإن لم يَشهَد القتالَ ولا شَهِدَه سيِّدُه وسَرَق من الغنيمة قبل القِسْمة ما يجب في مِثلِه القَطْع وَجَب عليه القَطْع.

- ٢٧٨ -

الأصل: لَوْ قَدِ اسْتَوَتْ قَدَمايَ مِنْ هَذِهِ المَدَاحِضِ لغَيَّرْتُ أَشْياءَ.

الشرح: لسنا نَشُكّ أنّه كان يَذهب في الأحكام الشرعيّة والقضايا إلى أشياءَ يُخالِف فيها أقوالَ الصّحابة، نحو قطعه يد السارق من رُؤوس الأصابع، وبيعِه أمّهات الأولاد، وغير ذلك، وإنّما كان يَمنَعه من تغيُّر أحكام مَن تَقدّمه اشتغالُه بحَرب البُغاة والخَوارج، وإلى ذلك يشيرُ بالمَداحض الّتي كان يؤمِّل استواءَ قدمَيْه منها، ولهذا قال لقُضاتِه: «اقضُوا كما كنتم تَقضون حتّى يكونَ للنّاس جماعةٌ»، فَلَفظة «حتّى» - هاهنا - مُؤذِنةٌ بأنّه فَسَح لهم في اتّباع عادَتِهم في القضايا

والأحكام الّتي يَعهَدونها إلى أن يصيرَ للنّاس جماعة، وما بعد «إلى» و«حتّى» ينبغي أن يكون مخالِفاً لما قبلهما.

فأمّا أصحابُنا فيقولون: إنّه كان فيما يُحاوِل أن يَحكُم بين الناس مجتهِداً، ويجوز لغيرِه من المجتهدين مخالَفَتُه.

والإماميّة تقول: ما كان يَحكُم إلّا عن نصّ وتوقيف، ولا يجوز لأحد من الناسِ مخالَفته.

والقول في صحّة ذلك وفسادِه فَرْعٌ من فروع مسألة الإمامة.

- ٢٧٩ -

الأصل: اعْلَمُوا عِلْماً يَقِيناً أنَّ الله لَمْ يَجْعَلْ لِلْعَبْدِ وَإنْ عَظُمَتْ حِيلَتُهُ، وَاشْتَدَّتْ طَلِبَتُهُ، وَقَوِيَتْ مَكِيدَتُهُ، أكْثَرَ مِمَّا سُمِّيَ لَهُ فِي الذِّكْرِ الحَكِيمِ، وَلَمْ يَحُلْ بَيْنَ الْعَبْدِ في ضَعْفِهِ وَقِلَّةِ حِيلَتِهِ، وَبَيْنَ أنْ يَبْلُغَ ما سُمِّيَ لَهُ في الذِّكْرِ الحَكِيم. وَالعَارِفُ لهذَا، العَامِلُ بِهِ، أعْظَمُ النَّاسِ رَحْمَةً فِي مَنْفَعَةٍ، وَالتَّارِكُ لَهُ، الشَّاكُّ فِيهِ، أعْظَمُ النَّاسِ شُغْلاً في مَضَرَّةٍ.

ورُبَّ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ مُسْتَدْرَجٌ بالنُّعْمَى، ورُبَّ مُبْتَلًى مَصْنُوعٌ لهُ بالْبَلْوَى. فَزِدْ أيُّها المُسْتَمِعُ في شُكْرِك، وقصِّرْ مِنْ عَجَلَتِكَ، وقِفْ عِنْدَ مُنْتَهَى رِزْقِكَ.

الشرح: قد تقدّم القول في الحِرْص والجشع وذمُّهما وذمّ الكادِح في طلَب الرّزق، ومدْح القَناعة والاقتصار، ونذكر هُنا طَرَفاً آخر من ذلك. قال بعضُ الحكماء: وجدتُ أطول الناس غمًّا الحَسودَ، وأهناهم عيْشاً القَنُوعَ، وأصبَرَهم على الأذى الحريصَ، وأخفَضهم عَيْشاً أرفَضُهم للدنيا، وأعظَمهم ندامةً العالمَ المفرّط.

وقال عمر: الطّمع فَقْر، واليأس غِنًى، ومن يئس ممّا عند الناس استغنى عنهم.

وقيل لبعض الحكماء: ما الغِنَى؟ قال: قلّةُ تمنّيك، ورِضاكَ بما يَكْفِيك، ولذلك قيل: العيشُ ساعات تمرّ، وخُطوب تكُرّ.

وقال الشاعر:

اقْنَعْ بِعَيْشِك تَرْضَهُ ... واترُكْ هواكَ وأنتَ حُرُّ
فلَرُبَّ حَتْفٍ فَوقَهُ ... ذَهَبٌ وياقوتٌ ودرُّ

وقال آخر:

إلى مَتى أنا في حِلٍّ وتَرْحالِ ... من طول سَعْيٍ وإدبارٍ وإقبالِ!
ونازحُ الدارِ لا أنفكُّ مغترباً ... عن الأحبّةِ لا يَدْرون ما حالِي
بمشرقِ الأرضِ طَوْراً ثم مَغربها ... لا يخطرُ الموتُ مِن حِرصٍ على بالِي
ولو قَنِعْتُ أتاني الرزقُ في دَعَةٍ ... إنّ القُنُوعَ الغِنَى لا كثرةُ المالِ

وجاء في الخبر المرفوع: «أجملوا في الطلب، فإنه ليس لعبدٍ إلا ما كُتِب له، ولن يَخرُج عبدٌ من الدّنيا حتى يأتيَه ما كُتِب له في الدنيا وهي راغمة»(1).

- ٢٨٠ -

الأصل: لا تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلاً، ويَقِينَكُمْ شكًّا، إذَا عَلِمْتُمْ فاعْمَلُوا، وإذَا تَيَقَّنْتُمْ فأقْدِمُوا.

الشرح: هذا نهيٌ للعلماء عن تَرْك العمل، يقول: لا تجعلوا عِلمَكم كالجهل، فإنّ الجاهل قد يقول: جَهِلتُ فلم أعمَل، وأنتم فلا عُذْر لكم، لأنكم قد عَلِمتم وانكشفَ لكم سِرُّ الأمر، فوَجَب عليكم أن تَعملوا، ولا تجعَلوا عِلمَكم جَهْلاً، فإنّ مَنْ عَلِم المنفعة في أمرٍ ولا حائل بينه وبينه ثم لم يأتِه كان سفيهاً.

- ٢٨١ -

الأصل: إنّ الطَّمَعَ مُورِدٌ غَيْرُ مُصْدِرٍ، وضامِنٌ غَيْرُ وَفِيٍّ، ورُبَّما شَرِقَ شارِبُ المَاءِ قَبْلَ رِيِّهِ، وكُلَّما عَظُمَ قَدْرُ الشيء المُتَنَافَسِ فيهِ عَظُمَت الرَّزِيَّةُ لِفقْدِهِ، والأماني تُعْمِي أعْيُنَ البَصائِرِ، والحظّ يأتي مَنْ لا يأتِيهِ.

الشرح: قد تقدم القول في هذه المعاني كلِّها.

وقد ضرب الحكماءُ مِثالاً لفرط الطّمع، فقالوا: إن رجلاً صادَ قُبَّرةً فقالت: ما تريد أن

(1) أخرج نحوه ابن ماجه، كتاب: التجارات، باب: الاقتصاد في طلب المعيشة (٢١٤٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠١٤٧).

تصنع بي؟ قال: أذبحك وآكلُك، قالت: والله ما أشفِي مِنْ قَرَم، ولا أُشبع من جُوعٍ، ولكني أعلِّمك ثلاث خِصالٍ هُنّ خيرٌ لك من أكْلي، أمّا واحدة فأعلِّمك إيّاها وأنا في يدِك، وأمّا الثانية فإذا صِرْتُ على الشّجرة، أمّا الثالثة فإذا صرتُ على الجبل. فقال: هاتي الأولى، قالت: لا تَلَهَّفَنّ على ما فات، فخلّاها، فلما صارت على الشّجرة قال: هاتي الثانية، قالت: لا تُصَدِّقَنّ بما لا يكون أنه يكون، ثمّ طارت، فصارت على الجبل، فقالت: يا شقيّ لو ذَبَحْتني لأخرجْتَ من حَوْصَلَتي دُرّتَين وزنُ كلّ واحدةٍ ثلاثون مِثقالاً، فعَضّ على يَدَيه وتلهّف تلهُّفاً شديداً، وقال: هاتي الثالثة، فقالت: أنت قد أُنسِيتَ الاثنتين، فما تصنع بالثالثة؟ ألم أقل لك: لا تَلَهَّفَنّ على ما فات! وقد تَلَهَّفْتَ، وألم أقل لك لا تصدِّقن بما لا يكون أنه يكون، وأنا وَلحْمَى ودَمِي ورِيشي لا يكون عشرين مثقالاً، فكيف صدّقت أنّ في حَوْصَلتي درّتين كلّ واحدة منهما ثلاثون مثقالاً! ثم طارت وذهبتْ.

وقوله: «وربما شَرِق شاربُ الماءُ قبلَ رِيِّه»، كلامٌ فصيح، وهو مَثَلٌ لمن يُخْتَرم بَغتةً، أو تَطرُقه الحوادثُ والخُطوب وهو في تَلْهِيَةٍ مِنْ عَيْشه.

ومثل الكلمة الأخرى قولهم: على قدْر العَطِيّة تكون الرّزِية.

والقولُ في الأماني قد أوسَعْنا القول فيه مِن قبل، وكذلك في الحظوظ.

- ٢٨٢ -

الأصل: اللَّهُمّ إنّي أعُوذُ بِكَ مِنْ أنْ تَحْسُنَ في لامِعَةِ العُيُونِ عَلانِيَتي، وتَقْبُحَ فيما أُبْطِنُ لَكَ سَرِيرَتِي، مُحافِظاً على رِياءِ النَّاسِ مِنْ نفْسي بجَميعِ ما أنْتَ مُطّلِعٌ عَلَيْهِ مِني، فأُبْدِيَ لِلنَّاسِ حُسْنَ ظاهِرِي، وأُفْضِيَ إلَيْكَ بِسُوءِ عَمَلِي، تَقَرُّباً إلى عِبَادِكَ، وَتَبَاعُداً مِنْ مَرْضَاتِكَ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في الرِّياء، وأن يُظهِر الإنسانُ من العبادة والفعل الجميل ما يُبطن غيره، ويقصد بذلك السُّمعة والصّيت لا وجه الله تعالى.

وقد جاء في الخبر المرفوع: «أخوَفُ ما أخافُ على أمّتي الرِّياء والشَّهوة الخفيّة»(١).

قال المفسِّرون: والرِّياء من الشّهوة الخفيّة، لأنه شَهوة الصّيت والجاه بين الناس بأنه مَتين

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦٨٢٤)، وابن المبارك في الزهد (١١١٤).

الدِّين، مُواظِب على نوافِل العِبادات، وهذه هي الشّهوة الخفيّة، أي ليست كشهوة الطعام والنكاح وغيرِهما من المَلاذّ الحسيّة.

وفي الخبر المرفوع أيضاً: أنّ اليَسير من الرِّياء شِرْكٌ، وأن الله يُحِبّ الأتقياءَ الأخفياء الذين هم في بُيُوتهم إذا غابوا لم يُفتقدوا، وإذا حَضَروا لم يُعرَفوا، قلوبهم مَصابيحُ الهدى، ينجون من كلّ غَبراءَ مُظلِمة[1].

- ٢٨٣ -

الأصل: وقال ﷺ: لا والَّذِي أَمْسَيْنَا مِنْهُ فِي غُبَّرِ لَيْلَةٍ دَهْماءَ، تَكْشِرُ عَنْ يَوْمٍ أَغَرَّ، مَا كَانَ كَذَا وَكَذَا.

الشرح: قد رُوِي: «تفترّ عن يومٍ أغرّ».

والغُبّر: البقايا، وكذلك الإغبار، وكَشَر أي بَسم، وأصلُه الكَشْف.

وهذا الكلام إما أن يكون قالَه على جهة التفاؤل، أو أن يكون إخباراً بغَيْب، والأوّل أوجَه.

- ٢٨٤ -

الأصل: قَلِيلٌ تَدُومُ عَلَيْهِ، أَرْجَى مِنْ كَثِيرٍ مَمْلُولٍ مِنْهُ.

الشرح: لا ريبَ أنّ من أراد حِفْظَ كتاب من الكُتُب العلميّة فحَفِظ منه قليلاً قليلاً، ودام على ذلك، فإنّ ذلك أنفعُ له وأرجَى لِفَلاحه من أن يَحفَظ كثيراً، ولا يَدُوم عليه لمَلالِه إيّاه وضَجَره منه، والتجربة تَشهد بذلك.

والقول في غير الحفظ كالقول في الحِفظ، نحو الزّيارة القليلة للصّديق، ونحو العطاء اليسير الدائم الّذي هو خيرٌ من الكَثير المنقطِع، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب من ترجى له السلامة من الفتن (٣٩٨٩).

- ٢٨٥ -

الأصل: إِذَا أَضَرَّتِ النَّوَافِلُ بِالْفَرَائِضِ فَارْفُضُوهَا.

الشرح: قد تقدّم القولُ في النافلة: هل تصحّ ممّن عليه فريضة لم يؤدّها، وذكَرْنا مذاهبَ الفُقَهاء في ذلك.

ولا ريبَ أنّ مَن استغرَق الوقتَ بالنّوافل حتّى آنَ أوقاتِ الفرائض لم يفعل الفرائضَ فيها، وشَغَلها بالعبادة النَّفْليّة، فقد أخطأ، والواجب أن يَرفُض النافلَة حيث يتضيّق وقتُ الفريضة، لا خلافَ بين المسلمين في ذلك، ويَصلُح أن يكون هذا مَثَلاً ظاهرُه ما ذكرْنا، وباطنُه أمرٌ آخر.

- ٢٨٦ -

الأصل: مَنْ تَذَكَّرَ بُعْدَ السَّفَرِ اسْتَعَدَّ.

الشرح: هذا مِثل قولهم في المَثَل: «الليلُ طويل، وأنتَ مُقمِر»، وقال أيضاً: عَشِّ ولا تَغْتَرّ.

وقال أصحابُ المعاني: مَثَل الدنيا كرَكْبٍ في فَلاة وَرَدوا ماءً طيّباً، فمنهم من شَرِب من ذلك الماء شُرْباً يسيراً، ثمّ أفكر في بُعد المسافة الّتي يَقصِدونها، وأنّهُ ليس بعد ذلك الماء ماءٌ آخر، فتزوّد منه ماءً أوصَلَه إلى مَقصِده، ومنهم من شرِب من ذلك الماءِ شُرْباً عظيماً، ولَها عن التزوّد والاستعداد، وظنّ أنّ ما شَرِب كافٍ له ومُغْنٍ عن ادّخار شيء آخَر، فقطع به، وأخلَفَه ظَنُّه، فعَطِش في تلك الفَلاة ومات.

وقد رُوِي عن النّبيّ ﷺ أنه قال لأصحابه: «إنّما مَثَلي وَمَثَلَكُم ومَثَلُ الدّنيا كقوم سَلَكوا مَفازةً غَبْراء حتّى إذا لم يَدْرُوا ما سَلَكوا منها أكثَرُ أمْ ما بَقِي! أنفَدوا الزّاد وحَسَروا الظّهر، وبقُوا بين ظَهْرانَي المَفازة لا زاد ولا حَمولة، فأيقَنوا بالهَلَكة، فبينما هم كذلك خرج عليهم رجل في حُلّة يقطُر رأسُه ماءً، فقالوا: هذا قريب عهدٍ بريف، وما جاءكم هذا إلا من قريب، فلمّا انتهى إليهم وشاهد حالَهم قال: أرأيتم إن هدَيْتُكم إلى ماءٍ رَواء، ورِياض خُضرٍ ما تعملون؟ قالوا: لا نَعْصِيك شيئاً، قال: عُهودَكم ومواثيقَكم بالله، فأعْطَوْه ذلك، فأوردَهم ماءً رَواءً ورِياضاً خُضراً، ومَكث بينهم ما شاء الله، ثم قال: إنّي مُفارِقكم، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماءٍ ليس

كمائِكم، ورِياضٍ ليست كرِياضِكم، فقال الأكثرون منهم: والله ما وَجَدْنا ما نحن فيه حتّى ظنّنا أنا لا نجده، وما نَصنَع بمنزلٍ خير من هذا! وقال الأقلّون منهم: ألم تُعطُوا هذا الرجلَ مَواثيقَكم وعهودَكم بالله لا تَعصُونه شيئاً، وقد صدقكم في أوّل حديثِه، والله ليصدُقَنَّكم في آخِره، فراحَ فيمَن تَبِعه منهم، وتخلّف الباقون، فدَهَمهم علوٌّ شديد البأس عظيم الجَيْش، فأصبَحوا ما بين أسيرٍ وقَتيل»[1].

- ٢٨٧ -

الأصل: لَيْسَتِ الرُّؤْيَةُ مَعَ الإِبْصَارِ، فَقَدْ تَكْذِبُ العُيُونُ أَهْلَهَا، وَلا يَغُشُّ العَقْلُ مَنِ اسْتَنْصَحَهُ.

الشرح: هذا مِثلُ قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[2].

أي ليس العَمَى عَمَى العين، بل عَمَى القَلْب. كذلك قولُ أمير المؤمنين عليه السلام، ليست الرؤية مع العُيون، وإنما الرؤية الحقيقيّة مع العُقول.

وقد ذهبَ أكابرُ الحُكماء إلى أن اليَقينيّات هي المَعْقولات لا المَحْسوسات، قالوا: لأنّ حُكمَ الحِسّ في مَظِنّة الغَلَط، وطالَ ما كذَبَ الحِسّ، واعتقدْنا بطريقِهِ اعتقاداتٍ باطلة، كما نرى الكبيرَ صغيراً، والصغيرَ كبيراً، والمتحرِّك ساكناً، والساكنَ متحرِّكاً، فأمّا العقل فإذا كان المعقول به بَدِيهيًا أو مُستنِداً إلى مقدّمات بَديهيّة فإنّه لا يَقَع فيه غَلَط أصْلاً.

- ٢٨٨ -

الأصل: بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ حِجَابٌ مِنَ الغِرَّةِ.

الشرح: قد تقدّم ذِكرُ الدّنيا وغُرورها، وأنّها بشَهَواتها ولذّاتِها حِجابٌ بين العبد وبين المَوْعِظة، لأنّ الإنسانَ يَغترّ بالعاجِلة، ويتوهّم دَوامَ ما هو فيه، وإذا خَطَر بباله الموتُ والفَناء وَعَد

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ١٧٦)، وابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٨١).

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٦.

نفسَه رحمةَ الله تعالى وعفوَه، هذا إن كان ممّن يَعترِف بالمعَادِ، فإنّ كثيراً ممّن يُظهِر القول بالمَعاد هو في الحقيقة غيرُ مستيقِنٍ له، والإخلاد إلى عفوِ الله تعالى والاتّكال على المغفرة مع الإقامة على المعصية، غرورٌ لا محالةَ، والحازمُ من عَمِل لما بعدَ الموت، ولم يُمَنّ نفسَه الأمانيّ التي لا حَقيقةَ لها.

- ٢٨٩ -

الأصل: جَاهِلُكُمْ مُزْدَادٌ، وَعَالِمُكُمْ مُسَوِّفٌ.

الشرح: هذا قريب ممّا سلف: يقول: إنّ الجاهِل من الناس مُزداد من جَهْلِه، مُصِرٌّ على خطيئته، مسوِّف من توهُّماته وعقيدته الباطلة بالعَفْو عن ذَنْبه، وليس الأمر كما توهمه. ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[1].

- ٢٩٠ -

الأصل: قَطَعَ العِلْمُ عذرَ المُتَعَلِّلِينَ.

الشرح: هذا أيضاً قريبٌ ممّا تقدم، يقول: قَطع العِلْم عُذرَ الّذين يُعلِّلون أنفسهم بالباطل، ويقولون: إنّ الربّ كَريم رحيم، فلا حاجة لنا إلى إتعاب أنفِسنا بالعبادة، كما قال الشاعِر:

قَدِمتُ على الكريم بغير زادٍ ... من الأعمال ذَا ذنبٍ عظيمِ
وسُوء الظنّ أن تَعتَدّ زاداً ... إذا كانَ القدومُ على الكريمِ

وهذا هو التعليل بالباطل، فإن الله تعالى وإن كان كريماً رحيماً عفوّاً غفوراً، إلا أنه صادقُ القول، وقد توعّد العُصاةَ وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝﴾[2]، وقال: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٣.
(٢) سورة الانفطار، الآيات: ١٤ - ١٦.

لِلْعَبِيدِ﴾(1)، ويكفي في رحمته وعفوه وكرمه أن يغفر للتائب أو لمن ثوابُه أكثر ممّا يستحقّه من العِقاب، فالقَول بالوعيد معلوم بأدِلّة السّمع المتظاهِرة المتناصرة الّتي قد أطنَب أصحابُنا في تعدادها وإيضاحِها، وإذا كان الشيءُ معلوماً، فقد قَطَعَ العلمُ به عذرَ أصحاب التعلّل والتّمنّي، وَوجَب العملُ بالمعلوم ورفض ما يُخالِفه.

- ٢٩١ -

الأصل: كُلُّ مُعَاجَلٍ يَسْأَلُ الإنْظَارَ، وكُلُّ مُؤجَّلٍ يَتَعَلَّلُ بالتَّسْوِيفِ.

الشرح: قال الله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(2).

فهذا هو سؤال الإنظار لمن عُوجِل، فأمّا من أُجّل فإنّه يعلّل نفسَه بالتسويف، ويقول: سوفَ أتوبُ، سَوْف أقلِع عمّا أنا عليه، فأكثرُهم يُختَرم من غير أن يَبلُغ هذا الأمل، وتأتيه المنيّة وهو على أقبَح حال وأسوئها، ومنهم من تشمَله السّعادة فيتوب قبل الموت، وأولئك الذين خُتِمت أعمالُهم بخاتِمة الخير، وهم في العالَم كالشّعرة البيضاءِ في الثّور الأسوَد.

- ٢٩٢ -

الأصل: ما قالَ النّاسُ لِشَيْءٍ: طُوبَى لهُ! إلّا وَقَدْ خَبَأَ لَهُ الدَّهْرُ يَوْمَ سَوْءٍ.

الشرح: قد تقدم هذا المعنى، وذكَرْنا فيه نُكَتاً جيّدة حميدة.

بعض ما ورد في تقلبات الدهر

كان محمّد بنُ عبد اللّه بنِ طاهر أميرَ بغداد في قَصْره على دِجْلة يوماً، وإذا بحشيشٍ على وَجه الماء، في وَسَطه قَصَبة عليها رُقْعة، فأمر بأخذِها، فإذا فيها:

(1) سورة قٓ، الآيتان: ٢٨، ٢٩.

(2) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

تَاهَ الأُعَيْرِج واستولَى به البَطَرُ ... فقل له: خيرُ ما استعملْتَه الحَذَرُ
أحسنتَ ظنَّك بالأيّام إذ حَسُنتْ ... ولم تَخَفْ سوءَ ما يأتي به القَدَرُ
وسالَمَتْك اللّيالي فاغتَرَرْتَ بها ... وعند صفوِ اللّيالي يَحدُث الكَدَرُ

فما انتفَع بنفسه مدّة. وفي المَثَل: الدّهر إذا أتى بسَحْوَاءَ سَحْسَح، يُعقبها بنَكْباء زَعْزَع. وكذاك شربُ العيش فيه تلوُّن، بَيْناه عَذْباً إذْ تحوَّل آجِناً.

يحيى بن خالد:

أعطانا الدهر فأسرَف، ثمّ مال علينا فأجْحَف.

وقال الشاعر:

فيا لنَعيم ساعدَتْنَا رِقابُه ... وخاسَتْ بنا أكفالُه والرَّوادِفُ[1]

إسحاق بنُ إبراهيمَ المَوْصِليّ:

هيَ المقاديرُ تجرِي في أعِنّتِها ... فاصبرْ فليس لها صبرٌ على حالِ
يوماً تَرِيشُ[2] خَسيسَ الحالِ تَرفَعه ... إلى السّماء ويوماً تَخفِض العالِي

إذا أدبرَ الأمر أتَى الشرُّ من حيث كان يأتي الخير.

هانئ بنُ مسعود:

إنّ كِسرَى أبَى على المَلِك النُّعْـ ... ـمانِ حتّى سقاهُ أمّ الرَّقوبِ
كلُّ مُلْكٍ وإن تصعَّدَ يوماً ... بأُناسٍ يَعودُ للتّصويبِ

أُحَيْحَة بنُ الجُلاح:

وما يَدرِي الفقيرُ متَى غِناهُ ... وما يَدرِي الغنيُّ متى يَعيلُ
وما تَدْري إذا أضرَبْتَ شَوْلاً ... أتُلقِح بعد ذلك أم تحِيلُ
وما تَدرِي إذا أزمَعْت سَيْراً ... بأيّ الأرض يُدرِكُك المَقِيلُ!

آخَر:

فما درَن الدنيا بباقٍ لأهلِه ... ولا شِرّة الدنيا بضَربةِ لازِمِ

آخَر:

رُبّ قومٍ غَبَروا من عيشِهمْ ... في سرورٍ ونعيمٍ وغَدَقْ

---

(١) الروادف: رواكيب النخلة، والراكوب ما نبت في أصل النخلة وليس له في الأرض عرق. اللسان، مادة (ردف).

(٢) تريش: من الريش وهو الخصب والمعاش والمال والأثاث واللباس الحسن الفاخر. اللسان، مادة (ريش).

سَكَتَ الدهرُ زَماناً عنهمُ ... ثم أبكاهمْ دماً حين نَطَقْ

ومن الشعر المنسوب إلى محمّد الأمين بن زُبَيْدة:

يا نَفْس قد حَقَّ الحذَرْ ... أينَ الفِرارُ من القَدَرْ

كلّ امرئٍ ممّا يخا ... ف ويرتجيه على خَطَرْ

من يرتشِفْ صفوَ الزما ... ن يَغَصّ يوماً بالكَدَرْ

- ٢٩٣ -

الأصل: وقالَ عليه السلام وقد سُئِلَ عنِ القَدَرِ: طَرِيقٌ مُظْلِمٌ فَلا تَسْلُكوه. ثم سئلَ ثانياً فقال: بَحْرٌ عَمِيقٌ فَلا تَلِجُوهُ، ثم سئل ثالثاً، فقالَ: سِرُّ الله فلا تتكلَّفُوهُ.

الشرح: قد جاء في الخبر المرفوع: القَدَرُ سِرّ الله في الأرض، ورُوِي: سر الله في عباده، والمرادُ نهيُ المستضعفين عن الخوض في إرادة الكائنات، وفي خلق أعمال العباد، فإنّه ربما أفضى بهم القول بالجبْر، لما في ذلك من الغُموض، وذلك أنّ العامّيّ إذا سَمِع قول القائل: كيف يجوز أن يَقَع في عَالَمِه ما يكرَهه، وكيف يجوز أن تَغلِب إرادةُ المخْلوق إرادةَ الخالق!

ويقول أيضاً: إذا علم في القِدَم أنّ زيداً يَكْفُر، فكيف لزيدٍ أن لا يَكْفُر! وهل يُمكن أن يقع خلافُ ما عَلِمه الله تعالى في القِدَم، اشتبه عليه الأمر، وصار شُبهةً في نفسِه، وقوِيَ في ظنّه مذهبُ المجْبرة، فَنهَى عليه السلام هؤلاء عن الخوْض في هذا النحو من البَحْث، ولم يَنْه غيرَهم من ذوي العقول الكاملة، والرياضة القويّة، والملكة التامّة، ومن له قدرةٌ على حَلّ الشُّبَه، والتقصّي عن المشكلاتِ. فإن قلت: فإنّكم تقولون: إنّ العاميّ والمستضعَف يجب عليهما النظرُ!

قلت: نعمْ إلا أنه لا بد لهما من موقف بعد إعمالها ما يَنتهي إليه جُهْدُهما من النظر، بحيث يُرشِدها إلى الصّواب، والنّهي إنما هو لمن يَستبدّ من ضعفاء العامّة بنفسه في النظر ولا يَبْحث مع غيرِه ليُرشِدَه.

- ٢٩٤ -

الأصل: إذَا أرْذَلَ اللهُ عَبْداً حَظَرَ عَلَيْهِ الْعِلْمَ.

الشرح: أرذَلَه: جعله رَذْلاً، وكان يقال: مِنْ علامةِ بُغض الله تعالى للعبد أن يُبغِّض إليه العِلْم.

وقال الشاعر:

شكوتُ إلى وَكِيعٍ سُوءَ حِفظِي ... فأرشَدَني إلى تَرْكِ المعاصي

وقال لأنّ حفظَ العلم فَضْلٌ ... وفضلُ اللّه لا يُؤتيه عاصي

وقال رجل لحكيم: ما خيرُ الأشياء لي؟ قال: أن تكون عالماً، قال: فإن لم أكن؟ قال: أن تكون مُثرياً، قال: فإن لم أكن؟ قال: أن تكون شارِياً، قال: فإن لم أكن؟ قال: فأن تكونَ ميتاً.

أخذ هذا المعنى بعضُ المحدثين فقال:

إذا فاتَكَ العلمُ جُدْ بالقِرَى ... وإن فاتَكَ المال سُدْ بالقراعِ

فإنْ فاتَ هذا وهذا وذاك ... فمتْ فحياتُك شرُّ المتاعِ

وقال أيضاً في المعنى بعينه:

ولولا الحجا والقرى والقراع ... لَمَا فَضَل الآخِر الأوّلا

ثلاثٌ متى يَخْلُ منها الفتى ... يكن كالبهيمة أو أرْذلا

— ٢٩٥ —

الأصل: وقال عليه السلام: كانَ لِي فِيمَا مَضَى أخٌ فِي الله، وَكَانَ يُعَظِّمُهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ الدُّنْيَا في عَيْنِهِ، وَكَانَ خارِجاً مِنْ سُلْطانِ بَطْنِهِ، فَلا يَتَشَهَّى مَا لا يَجِدُ، وَلا يُكْثِرُ إِذَا وَجَدَ، وَكَانَ أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَامِتاً، فَإِنْ قَالَ بَذَّ القَائِلِينَ، وَنَقَعَ غَلِيلَ السَّائِلِينَ، وَكَانَ ضَعِيفاً مُسْتَضْعَفاً، فَإِنْ جَاءَ الجِدُّ فَهُوَ لَيْثُ عَادٍ، وصِلُّ وَادٍ، لا يُدْلِي بِحُجَّةٍ حَتَّى يَأْتِيَ قَاضِياً، كَانَ لا يَلُومُ أَحَداً عَلَى مَا لا يَجِدُ العُذْرَ في مِثْلِهِ حَتَّى يَسْمَعَ اعْتِذَارَهُ، وَكَانَ لا يَشْكُو وَجَعاً إِلَّا عِنْدَ بُرْئِهِ، وَكَانَ يَفْعَلُ مَا يَقُولُ، وَلا يَقُولُ مَا لا يَفْعَلُ، وَكَانَ إِنْ غُلِبَ عَلَى الكَلامِ لَمْ يُغْلَبْ عَلَى السُّكُوتِ، وَكَانَ عَلَى أَنْ يَسْمَعَ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ، وَكَانَ إِذَا بَدَهَهُ أَمْرَانِ نَظَرَ أَيُّهُمَا أَقْرَبُ إِلَى الْهَوَى فَخَالَفَهُ، فَعَلَيْكُم بِهذِهِ الخَلائِقِ فَالْزَمُوهَا، وَتَنَافَسُوا فِيهَا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوهَا فَاعْلَمُوا أَنَّ أَخْذَ القَلِيلِ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الْكَثِير.

الشرح: قد اختلَف الناسُ في المعنيّ بهذا الكلام، ومَن هو هذا الأخُ المشار إليه؟ فقال قوم: هوَ رسولُ الله ﷺ، واستبْعَدَهُ قومٌ لقوله: «وكان ضعيفاً مستضعفاً»، فإن النبيّ ﷺ لا يقال في صفاته مِثل هذه الكلمة، وإن أمكن تأويلُها على لين كلامه وسماحةِ أخلاقه، إلّا أنّها غَيرُ لائقة به عليه السلام.

وقال قومٌ: هو أبو ذَرٍّ الغِفاريّ واستبعَدَه قومٌ «لقوله: فإن جاء الجِدّ فهو لَيث عادٍ، وصِلُّ وادٍ»، فإن أبا ذَرٍّ لم يكن من الموصوفين بالشّجاعة، والمعروفين بالبَسالة.

وقال قومٌ: هو المقدادُ بن عَمرو المعروفُ بالمقداد بن الأسوَد، وكان من شِيعة عليٍّ عليه السلام المخلصِين، وكان شُجاعاً مُجاهِداً حسنَ الطريقة، وقد ورد في فضلِهِ حديث صحيح مرفوع.

وقال قومٌ: إنه ليس بإشارةٍ إلى أخٍ مُعيّن، ولكنه كلامٌ خارجٌ مخرج المثل، وعادةُ العرب جارية بمثل ذلك، مِثل قولهم في الشّعر: فقلت لصاحبي، ويا صاحبي، وهذا عندي أقوَى الوجوه.

بعض ما ورد في حمد القناعة وقلة الأكل

وقد مضَى القولُ في صِغر الدنيا في عَيْن أهل التّحقيق، فأمّا سلطان البَطْن ومَدْح الإنسان بأنه لا يكثِر من الأكل إذا وَجد أكلاً، ولا يَشتهي من الأكل ما لا يجده، فقد قال الناسُ فيه فأكثروا.

قال أعشى باهلة يرثي المنتشرَ بنَ وَهْب:

طاوِي المَصيرِ على العَزّاءِ مُنصلِتٌ ... بالقوم ليلَة لا ماءٌ ولا شَجَرُ

تَكفِيه فلذةُ لَحمٍ إنْ ألَمَّ بها ... من الشّواء ويُروِي شربَه الغَمرُ

ولا يُبارِي لِما في القِدْر يَرْقُبُه ... ولا تَراه أمامَ القوم يفتقِرُ

لا يغمز الساقَ مِن أيْنٍ ولا وَصَبٍ ... ولا يَعَضّ على شُرْسُوفهِ الصَّفَرُ

وقال الشّنفَرَى:

وأطْوِي على الخُمصِ الحوَايا كما انطَوَتْ ... خيوطة ماريٍّ تُغار وتُفتَلُ

وإن مدّت الأيدِي إلى الزاد لم أكن ... بأعجلِهم إذ أجشعُ القوم أعجلُ

وما ذاكَ إلّا بَسْطة عن تفضّلٍ ... عليهمْ وكان الأفضلَ المتفضِّلُ

وقال بعضهم لابنه: يا بُنَيّ عوِّد نفسَك الأثرَة، ومجاهَدةَ الهوى والشهوة، ولا تَنهَش نَهْشَ السّباع، ولا تَقضِم قَضْمَ البَراذين، ولا تُدْمِن الأكلَ إدمانَ النّعاجِ، ولا تلقمْ لَقْمَ الجِمال، إنّ الله جعلك إنساناً، فلا تَجعَل نفسَك بَهيمة ولا سَبُعاً، واحذَرْ سُرعة الكِظّة، وداءَ البِطْنة، فقد قال الحكيم: إذا كنت بَطِناً فعُدَّ نفسك من الزَّمْنى وقال الأعشى:

والبِطْنَةُ يوماً تُسفِّه الأحلاما

واعلم أن الشّبَع داعيةُ البَشَم، والبَشَم داعية السَّقَم، والسَّقَم داعيةُ الموت، ومن ماتَ هذه الميتةَ فقد مات موتةً لئيمة، وهو مع هذا قاتِلُ نفسه، وقاتلُ نفسِه ألوَم من قاتِلِ غيره. يا بُنيّ، والله ما أدّى حقَّ السجود والرّكوع ذو كِظّة، ولا خَشَع لله ذو بِطْنة، والصومُ مصحّة، ولربّما طالت أعمارُ الهِنْد، وصحت أبدانُ العَرَب، ولله دَرُّ الحارثِ بن كَلَدة حيث زَعَمَ أن الدَّوَاء هو الأزْم، وأنّ الدّاء إدخالُ الطعام في أثَر الطعام، يا بُنَيّ لم صَفَتْ أذهانُ الأعرابِ، وصَحّت أذهان الرُّهْبان مع طُول الإقامة في الصوامع، حتّى لم تَعرف وجعَ المفاصل، ولا الأورام، إلّا لقلّة الرّزء، ووقاحة الأكل، وكيف لا تَرغب في تدبير يَجمَع لك بين صحّة البدن وذَكاءِ الذّهن وصلاحِ المَعاد والقرب وعَيْش الملائكة. يا بُنَيّ لم صار الضَّبُّ أطوَل شيء ذَماءً! إلّا لأنّه يتبلّغ بالنّسيم. ولم زَعَم رسولُ الله ﷺ أنّ الصومَ وِجاء! إلّا ليَجعله حجاباً دونَ الشّهوات! فافهمْ تأديبَ الله ورسولِه، فإنهما لا يَقْصدان إلّا مِثْلَك. يا بُنَيّ، إني قد بلغت تسعين عاماً ما نَقَص لي سِنّ، ولا انتَشَر لي عَصَب، ولا عرفتُ دنِينَ أنف، ولا سَيَلان عَيْن، ولا تقطير بَوْل، ما لذلك علة إلّا التّخفيف من الزاد، فإن كنتَ تحبّ الحياةَ فهذه سبيلُ الحياة، وإن كنتَ تريدُ الموت فلا يُبعِد الله إلا من ظَلَم.

وكان يقال: البِطْنة تذهِب الفِطْنة.

وقال عَمرو بنُ العاص لأصحابه يومَ حكم الحَكَمان: أكثِروا لأبي موسى من الطّعام الطيّب فوالله ما بُطِنَ قومٌ قطّ إلّا فَقَدوا عُقولَهم أو بعضها، وما مضى عزمُ رجلٍ باتَ بَطِيناً.

وكان يقال: أقْلِل طَعاماً تَحمَد مَناماً.

ودعا عبدُ الملك بن مروانَ رجلاً إلى الغَدَاء فقال: ما فيَّ فضْل، فقال: إني أحبّ الرجلَ يأكل حتّى لا يكون فيه فضل، فقال: يا أميرَ المؤمنين، عندي مُسْتَزاد، ولكنّي أكرَه أن أصِير إلى الحال التي استَقْبَحَها أميرُ المؤمنين.

وكان يقال: مسكينٌ ابن آدم، أسيرُ الجُوع، صَرِيع الشّبَع.

وسأل عبْد الملك أبا الزُّعَيْرعة، فقال: هل أتخِمتَ قَطّ؟ قال: لا، قال: وكيف؟ قال: لأنّا إذا طَبَخْنا أنضجْنا، وإذا مضَغْنَا دقّقنا، ولا نَكِظّ المَعدة ولا نُخْليها.

وكان يقال: من المُروءة أن يَترك الإنسانُ الطعامَ وهو بعدُ يَشتهيه.

وقال الشاعر:

فإنّ قِرابَ البَطْن يكفيك مَلْؤهُ ... ويكفيكَ سَوءاتِ الأمور اجتنابُها

وقال عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي: كان عمي يقول لي: لا تخرج يا بنيّ من منزلك حتّى تأخذَ حِلْمَك - يعني تتغذّى - فإذا أخذتَ حِلْمَك فلا تزددْ إليه حِلْماً، فإنّ الكثرة تؤول إلى

قِلّة. وفي الحديث المرفوع: ما ملأ ابنُ آدم وعاءً شرًّا من بَطْن، بحَسْب الرّجُل من طعامِه ما أقامَ صُلْبه، وأمّا إذا أبَيْتَ فثُلث طعام، وثلثُ شَراب، وثلث نَفَس[1].

ورَوَى حُذَيفة عن النبي ﷺ: «من قَلّ طعمُه، صَحّ بطنُه، وصفا قَلبُه، ومَن كَثُر طعمهُ، سَقُم بَطْنه وقسا قلبُه»[2].

وعنه ﷺ: «لا تُميتوا القلوبَ بكثرة الطّعام والشّراب فإنّ القلبَ يموت بهما، كالزّرع يموت إذا أكثر عليه الماء»[3]. ورَوَى عَوْن بنُ أبي جُحَيفة عن أبيه قال: أكلتُ يوماً ثَريداً ولحماً سَميناً، ثمّ أتيتُ رسولَ الله وأنا أتجشّأ، فقال: «احبِسْ جَشَأَك أبا جُحَيفة، إن أكثَرَكم شِبَعاً في الدّنيا أكثرُكُم جُوعاً في الآخرة»[4]، قال: فما أكَل أبو جُحَيْفة بعدها مِلءَ بطنِه إلى أن قَبَضه الله. وأكَل عليّ عليه السلام[5] قليلاً من تَمْر دَقَل وشَرِب عليه ماءً، وأمَرَّ يدَه على بطنه وقال: من أدخلَه بطنُه النارَ فأبعده الله، ثم تَمثّل:

فـإنّـك مَـهْـمـا تُـعـطِ بـطـنَـكَ سُـؤلَـهُ وفَـرْجَـك نـالا مُـنـتَـهـى الـذمّ أجـمَـعَـا

وكان عليه السلام يُفطِر في رمضان الّذي قُتِل فيه عند الحَسَن ليلةً، وعند الحُسَين ليلةً، وعند عبد اللّه بن جعفر ليلة، لا يزيد على اللُّقْمَتين أو الثلاث، فيقال له، فيقول: إنّما هي ليالٍ قلائل، حتّى يأتيَ أمرُ الله وأنا خَمِيصُ البَطْن، فضَرَبه ابنُ مُلجَم لعنه الله تلك الليلة.

وقال الحسن: لقد أدركتُ أقواماً ما يأكل أحدُهم إلّا في ناحية بطنِه، ما شَبِع رجلٌ منهم من طعامٍ حتّى فارَقَ الدنيا، كان يأكل، فإذا قارَب الشِّبَع أمسَك. وأنشد المبرِّد:

فإنّ امتلاءَ البَطْن في حَسَب الفَتَى قليلُ الغَناءِ وهو في الجِسم صالِحُ

وقال عيسى عليه السلام: يا بني إسرائيل، لا تُكثِروا الأكل، فإنّه مَن أكثر من الأكْل أكثر من النّوم، ومن أكثَر النّوم أقَلّ الصّلاة، ومن أقلّ الصلاة كُتِب من الغافلين: وقيل ليوسفَ عليه السلام: ما لك لا تَشبَع وفي يديك خزائنُ مِصرَ؟ قال: إنّي إذا شبِعتُ نسيت الجائِعين.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل (٢٣٨٠)، وابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب الاقتصاد في الأكل وكراهية الشبع (٣٣٤٩).

(٢) ذكره أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٥١)، مختصراً من كلام محمد بن واسع.

(٣) أخرجه الطبرسي في مشكاة الأنوار: ١٦٢.

(٤) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال: ٦/ ٤٦٨.

(٥) أخرجه الترمذي، كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله (٢٤٧٨)، وابن ماجه كتاب: الأطعمة، باب: الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع (٣٣٥٠)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٣١).

وقال الشاعر:

وأكلةٍ أوْقعتْ في الهُلْك صاحِبَها ... كحَبّة القَمْح دَقّت عُنُقَ عُصْفورِ

لَكِسْرَةٌ بجَرِيش المِلح آكُلُها ... ألذُّ مِن تَمرةٍ تُحشَى بزُنْبور

ووُصِف لسابورَ ذي الأكتافِ رجلٌ من إصْطَخْرَ لِلقضاء، فاستقدَمَه، فدعاه إلى الطّعام، فأخَذ المَلِك دَجاجةً من بين يديه فنصَّفَها، وجعل نِصفَها بين يديْ ذلك الرجل، فأتى عليه قبل أن يَفرُغ المَلك من أكْل النّصف الآخر، فصَرَفه إلى بلده، وقال: إنّ سَلَفنا كانوا يقولون: مَنْ شَرِه إلى طعام المَلِك كان إلى أموال الرّعيّة أشْرَه.

قيل لسُمَيْرة بن حبيب: إنّ ابنَك أكل طعاماً فأتْخم، وكاد يموت، فقال: والله لو مات منه ما صَلّيت عليه. أنس يرفَعه: إنّ من السَّرَف أن تأكل كلَّ ما اشتَهَيْت[١].

دخل عمرُ على عاصم ابنِه وهو يأكُل لَحماً، فقال: ما هذا؟ قال: قَرِمْنا إليه، قال: أوَ كُلّما قَرِمْت إلى اللّحْم أكلْته! كَفَى بالمرءِ شَرَهاً أن يَأكُلَ كُلَّ ما يَشتهِي.

أبو سعيد يَرفَعه: استعيذُوا بالله من الرُّغب[٢]، قالوا: هو الشَّرَه، ويقال: الرّغب شُؤم. أنَس يَرفَعه: أصلُ كلِّ داء البردة[٣]، قالوا: هي التُّخمَة، وقال أبو دُرَيد: العَرَب تعيِّر بكَثْرة الأكل، وأنشَد:

لستُ بأكّال كأكْل العَبْدِ ... ولا بِنَوّامٍ كنَوْمِ الفَهْدِ

وقال الشاعر:

إذا لَم أزُرْ إلا لآكُلَ أكْلةً ... فلا رَفعتْ كَفّي إليَّ طعامِي

فما أكلةٌ إن نِلتُها بغنيمةٍ ... ولا جَوْعة إن جُعْتُها بغَرامِ

ابن عباس: كان رسولُ الله ﷺ يبيت طاوياً ليالي ما له ولأهلِهِ عَشاء، وكان عامّةَ طعامِه الشّعيرُ[٤]، وقالت عائشة: والذي بَعثَ محمداً بالحق ما كان لنا مُنخُل، ولا أكل رسولُ الله ﷺ خُبزاً مَنْخُولاً منذ بَعَثه الله إلى أن قُبِض[٥]، قالوا: فكيفَ كنتم تأكلون دقيق الشعير؟ قالت: كنّا نقول: أفّ أفّ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب من الإسراف أن تأكل كل ما اشتهيت (٣٣٥٢).

(٢) ذكره السيوطي في الجامع الصغير رقم ٣٣٣٥، والمتقي في الكنز رقم ٦١٦٠.

(٣) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (١٦٩٨)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٨٣).

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد، باب: معيشة النبي ﷺ وأهله (٢٣٦٠)، وابن ماجه في الأطعمة، باب: خبز الشعير (٣٣٤٧)، وأحمد في مسند بني هاشم، باب: بداية مسند عبد الله بن العباس (٢٣٠٣).

(٥) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣١٢)، والطبراني في «الكبير» (٦/ ١٥٩).

أنس: ما أكل رسولُ الله ﷺ رغيفاً مُحَوَّراً إلى أن لَقي ربَّه عزّ وجلّ[١].

أبو هريرة: ما شَبِع رسولُ الله ﷺ وأهله ثلاثةَ أيام مُتوالية من خُبْز حِنْطة حتى فَارَقَ الدنيا[٢].

وروَى مَسْروق قال: دخلتُ على عائشة وهي تبكي، فقلتُ: ما يبكيك؟ قالت: ما أشاء أن أبكي إلّا بَكَيتُ، مات رسولُ الله ﷺ ولم يَشبَع من خُبز البُرّ في يومٍ مرّتين، ثم انهارَتْ علينا الدنيا[٣].

حاتم الطائيّ:

وإنّي لأستحيي صحابيَ أن يَرَوْا ... مكانَ يَدِي من جانِب الزاد أقْرَعَا

أقصِّر كَفِّي أن تَنال أكفَّهمْ ... إذا نحنُ أهوَيْنا وحاجاتُنا مَعَا

أبيتُ خَمِيصَ البطنِ مضطمِرَ الحشَا ... حياءً أخافُ الضَّيمَ أن أتضلَّعا

فإنّك إن أعطَيتَ نَفْسَك سُؤْلها ... وفَرْجَك نالا مُنتَهى الذمّ أجمعا

فأما قولُه ﷺ: «كان لا يَتَشهَّى، ما لا يَجد» فإنّه قد نهى أن يتشهى الإنسانُ ما لا يَجِد، وقالوا: إنّه دليلٌ على سُقوط المُروءة.

وقال الأحنف: جنّبوا مَجَالسنا ذِكرَ تشهّي الأطعِمة وحديث النكاح.

وقال الجاحظ: جلَسْنا في دارٍ فجعَلْنا نتشهّى الأطعمة، فقال واحد: وأنا أشتَهي سِكْبَاجاً كثيرة الزعفران.

وقال آخَر: أنا أشتهي طَبَاهجة ناشِفة، وقال آخر: أنا أشتهي هَرِيسة كثيرة الدّارصيني، وإلى جانبنا امرأةٌ بيننا وبينها بئر الدار، فضربَتِ الحائط وقالت: أنا حامل، فأعطُوني مِلءَ هذه الغَضَارة من طبيخِكم، فقال ثمامة: جارتُنا تَشمُّ رائحة الأمانيّ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الأطعمة، باب: الحواري (٣٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة، باب: ما كان السلف يدخرون في بيوتهم (٥٤٢٣)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٧٠)، والترمذي في الزهد، باب: ما جاء في معيشة النبي ﷺ وأهله (٢٣٥٨) واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأطعمة، باب ما كان السلف يدخرون في بيوتهم (٥٤٢٣)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب منه (٢٩٧٠).

- ٢٩٦ -

الأصل: لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدِ الله سُبْحَانَهُ على مَعْصِيَتِهِ، لَكَانَ يَجِبُ ألّا يُعْصَى شُكْراً لِنِعَمِهِ.

الشرح: قالت المعتزلة: إنّا لو قدّرنا أنّ الوَعِيد السّمعيّ لم يرد لما أخلّ ذلك بكون الواجب واجباً في العقل، نحو العدل والصّدق، والعلم، وردّ الوديعة، هذا في جانب الإثبات، وأما في جانب السَّلْب فيَجب في العَقْل ألّا يَظلِم، وألّا يَكذِب، وألّا يَجهَل، وألّا يَخُون الأمانة، ثمّ اختَلَفُوا فيما بينهم، فقالت معتزِلة بغداد: ليس الثوابُ واجباً على الله تعالى بالعَقْل، لأنّ الواجباتِ إنّما تَجِب على المكلَّف، لأنّ أداءَها كالشُّكر لله تعالى، وشكر المُنعِم واجب، لأنّه شكْر منعِم، فلم يَبْقَ وجهٌ يَقتضِي وجوبَ الثّواب على الله سبحانه، وهذا قريبٌ من قولِ أميرِ المؤمنين عليه السلام.

وقال البَصْريُّون: بل الثواب واجبٌ على الله تعالى عَقْلاً، كما يجب عليه العِوَض عن إيلامِ الحيّ، لأنّ التكليف إلزامٌ بما فيه مَضَرّة، كما أنّ الإيلامَ إنزالُ مَضَرّة، والإلزام كالإنزال.

- ٢٩٧ -

الأصل: وقالَ عليه السلام للأشعث بن قيس وقد عزاه عن ابن له:

يا أَشعَثُ، إنْ تَحْزَنْ على ابْنِكَ فَقَدِ اسْتَحَقَّتْ ذَلِكَ مِنْكَ الرَّحِمُ، وإنْ تَصْبِرْ فَفي الله مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ خَلَفٌ.

يا أَشعَثُ، إنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وأنْتَ مَأْجُورٌ، وإنْ جَزِعْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وأنتَ مَأْزُورٌ. يا أَشعَثُ، ابْنُكَ سَرَّكَ، وَهُوَ بَلاءٌ وفِتْنَةٌ، وحَزَنَكَ، وهُوَ ثَوَابٌ ورَحْمَةٌ.

الشرح: قد رُوِي هذا الكلام عليه السلام على وجوهٍ مختلِفة ورواياتٍ متنوّعة، هذا الوجهُ أحدها، وأخَذَ أبو العتاهية ألفاظَه عليه السلام فقال لمن يعزّيه عن ولَد:

ولا بدّ مِن جَرَيانِ القَضاءِ ... إمّا مُثاباً وإمّا أثِيما

ومن كلامهم في التعازي: إذا استأثَرَ الله بشيء فالْهَ عنه، وتُنسَب هذه الكلمة إلى عُمَر بن عبد العزيز.

وذكر أبو العبّاس في الكامل أنّ عُقْبة بنَ عِياض بن تميم أحد بني عامر بن لؤيّ استُشهِد، فعَزَّى أباه مُعَزٍّ، فقال: احتَسِبْه ولا تَجزَع عليه، فقد ماتَ شهيداً، فقال عِياض: أتراني كنتُ أُسَرُّ به وهو مِن زينةِ الحياة الدنيا، وأُساءُ به وهو من الباقيات الصالحات!

وهذا الكلام مأخوذٌ من كلامِ أميرِ المؤمنين عليه السلام.

ومن التَّعازِي الجيِّدةِ قولُ القائل:

ومن لم يَزَلْ غَرَضاً للمَنُو ... نِ يَتْرُكُه كلّ يومٍ عَميدَا
فإنْ هُنَّ أخطأنَه مرَّةً ... فيوشِك مُخطِئها أن يَعودا
فبَيْنَا يَحيد وأخطأنَهُ ... قصدنَ فأعجَلْنه أن يَحيدا

وقال آخر:

هو الدّهر قد جرّبتُه وعرفتُه ... فصبراً على مكروهه وتَجلُّدَا
وما النّاسُ إلّا سابقٌ ثمّ لاحِقٌ ... وفائتُ موتٍ سوفَ يَلحَقُه غَدا

وقال آخر:

أيُّنا قدّمتْ صُرُوفُ اللّيالي ... فالّذي أخِّرت سريعُ اللّحاقِ
غَدَراتُ الأيّام منتزِعاتٌ ... عُنُقَيْنا من أنسِ هذا العِناقِ

ابنُ نُباتَةَ السَّعديّ:

نُعلِّل بالدَّواء إذا مَرِضْنا ... وهل يَشفي من الموتِ الدَّوَاءُ!
ونَختارُ الطبيبَ وهل طبيبٌ ... يؤخّر ما يقدِّمه القَضاءُ!
وما أنفاسُنا إلا حسابٌ ... وما حَركاتُنا إلا فَناءُ

البُحتُرِيّ:

إن الرزيّة في الفقيد فإن هَفَا ... جزعٌ بلبِّك فالرّزيّة فِيكَا
وَمَتَى وجدْتَ النَّاس إلا تاركاً ... لحميمِهِ في التُّرْب أو متروكا
لو ينجلي لك ذخرها من نكبةٍ ... جللٍ لأضحكَك الذي يُبكِيكا

وكتب بعضهم إلى صديق له مات ابنُه: كيف شُكرُكَ لله تعالى على ما أَخذ من وديعته، وعَوّض من مَثُوبته!

وعَزَّى عمر بنُ الخطاب أبا بكرٍ عن طفلٍ، فقال: عَوّضك الله منه ما عَوّضه منك، فإنّ الطفل يعوَّض من أبوَيْه الجنّة.

وفي الحديث المرفوع: «مَنْ عزَّى مصاباً كان له مِثل أجْرِه»[1].

وقال عليه السلام: «من كُنوز السِّرّ كتمانُ المصائب، وكِتْمانُ الأمراض وكتمانُ الصَّدقة».

وقال شاعرٌ في رِثاء ولدِه:

وسمَّيْتُه يَحْيَى لِيَحْيَا ولم يكنْ ... إلى رَدّ أمرِ اللّه فيه سَبيلُ
تخيّرتُ فيه الفَألَ حين رُزِقْتُه ... ولم أدرِ أنّ الفَألَ فيه يَفيلُ

وقال آخر:

وهَوّنَ وَجْدي بعد فقدِك أنني ... إذا شئتُ لاقيتُ امرأً مات صاحِبُهْ

آخر:

وقد كنتُ أرجو لو تملّيت عِيشةً ... عليكَ اللّيالي مَرّها وانتقالَها
فأمّا وقد أصبحتَ في قَبْضَة الرَّدَى ... فقُلْ لليالي فلتُصِبْ مَن بَدَا لها

أخَذه المتنبي فقال:

قد كنتُ أُشفِق من دَمْعي على بَصَرِي ... فاليوم كلّ عزيز بعدكم هانَا

ومِثلُه لغيره:

فراقَك كنتُ أخشى فافترقْنا ... فمن فارقتُ بعدَك لا أبالِي

- ٢٩٨ -

الأصل: وقال عليه السلام عند وقوفه على قبر رسول الله صلى الله عليه وآله ساعة دفن رسول الله صلى الله عليه وآله: **إنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إلّا عَنْكَ، وإنَّ الجَزَعَ لَقَبِيحٌ إلّا عَلَيْكَ، وإنَّ المُصابَ بك لَجَليلٌ، وإنَّهُ بَعْدَكَ لقليلٌ.**

الشرح: قد أخذَتْ هذا المعنى الشُّعراء، فقال بعضهم:

أمسَتْ بجَفْنِي للدُّموع كُلُومُ ... حَزناً عليك وفي الخُدود رُسومُ
والصبرُ يُحمَد في المَواطِن كلّها ... إلّا عليكَ فإنّه مذمومُ

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز، باب: ما جاء في أجر من عزى مصاباً (١٠٧٣)، وابن ماجه في ما جاء في الجنائز، باب: ما جاء في ثواب من عزى مصاباً (١٦٠٢).

وقال أبو تمّام:

وقد كان يُدْعى لابسُ الصّبرِ حازماً ... فقد صارَ يُدْعى حازِماً حين يَجزَعُ

وقال أبو الطّيب:

أجِدُ الجَفاء على سِواكَ مُروءةً ... والصّبرَ إلا في نواك جميلا

وقال أبو تمّام أيضاً:

الصبرُ أجملُ غيرَ أنّ تلذّذاً ... في الحبِّ أولَى أن يكونَ جميلا

وقالت خَنْساء أخت عَمْرو بن الشَّرِيد:

ألا يا صَخْرُ إنْ أبكَيتَ عَيْني ... لقد أضحكْتَني دهراً طويلا

بكيتُكَ في نساءٍ مُعْوِلاتٍ ... وكنتُ أحقَّ من أبْدَى العَويلا

دفعتُ بك الجليلَ وأنتَ حَيٌّ ... فمن ذا يَدْفَع الخطْبَ الجليلا!

إذا قبُح البكاءُ على قَتيلٍ ... رأيتُ بكاءَك الحسَنَ الجميلا

ومثلُ قوله عليه السلام: «وإنه بعدك لقليل»، يَعني المصاب، أي لا مُبالاة بالمصائب بعد المصيبة بك، قولُ بعضهم:

قد قلتُ للموتِ حين نازَلَهُ ... والموتُ مِقدامةٌ على البُهَمِ

اذهَبْ بمن شئتَ إذْ ظفرتَ به ... ما بعد يَحيَى للموتِ من ألمِ

وقال الشَّمَرْدَل اليَرْبُوعيّ يرثي أخاه:

إذا ما أتى يومٌ من الدّهر بيننا ... فحيّاك عنّا شرْقُهُ وأصائِلُهْ

أبَى الصّبرَ أنّ العين بعدك لم تزَلْ ... يُحالِف جَفْنَيْها قذًى ما تُزايِلُهْ

وكنتُ أعيرُ الدّمعَ قبلك مَن بَكى ... فأنت على من مات بعدك شاغلُهْ

أعيْنَيَّ إذا أبكاكما الدهرُ فابْكِيا ... لمن نَصْرُه قد بانَ عنّا ونائِلُهْ

وكنتُ به أغشَى القِتالَ فعزّني ... عليه من المِقدارِ مَنْ لا أقاتِلُهْ

لعَمْرُك إنّ الموتَ مِنّا لمُولَعٌ ... بمن كان يُرجى نفعُه وفواضِلُهْ

قوله:

فأنتَ على من ماتَ بعدَكَ شاغلُهْ

هو المعنى الذي نحن فيه، وذكرنا سائرَ الأبيات لأنّها فائقة بعيدةُ النَّظير.

وقال آخر يَرثي رجلاً اسمه جارية:

أجارِيَ ما أزدادُ إلّا صَبابةً ... عليكَ وما تزدادُ إلّا تنائيا
أجارِيَ لو نفسٌ فدَتْ نفسَ ميّتٍ ... فديتُك مَسْروراً بنفسي وماليا
وقد كنتُ أرجو أن أراك حقيقةً ... فحال قضاءُ الله دون قضائيا
ألا فليَمُتْ من شاءَ بعدَك إنما ... عليكَ من الأقدار كان حِذاريا

ومن الشّعر المنسوب إلى عليّ عليه السلام - ويقال: إنه قاله يوم ماتَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله:

كنتَ السّوادَ لناظِري ... فبَكى عليك النّاظرُ
من شاءَ بعدَك فليَمُتْ ... فعليكَ كنتُ أحاذِرُ

ومن شِعر الحماسة:

سأبكيكَ ما فاضَتْ دموعي فإن تَغِضْ ... فحَسْبكُ مني ما تُجِنُّ الجوانحُ
كأنْ لم يَمُتْ حَيٌّ سِواك ولم تَقُمْ ... على أحدٍ إلّا عليكَ النّوائحُ
لئن حَسُنَتْ فيكَ المراثي بوصْفِها ... لقد حَسُنتْ مِن قبلُ فيك المدائحُ
فما أنا من رُزْءٍ وإن جَلَّ جازعٌ ... ولا بسرُورٍ بعد مَوْتِك فارحُ

- ٢٩٩ -

الأصل: لا تَصْحَبِ المَائِقَ فَإنَّهُ يُزَيِّنُ لَكَ فِعْلَهُ، وَيَوَدُّ أَنْ تَكُون مِثْلَهُ.

الشرح: المائق: الشديدُ الحُمْق، والمُوق: شدّة الحُمْق، وإنما يزين لك فعله لأنّه يعتقد فعلَه صواباً بحُمقه فيزيّنه لك كما يزيّن العاقلُ لصاحبه فِعلَه لاعتقاد كونه صواباً، ولكن هذا صوابٌ في نَفْس الأمر، وذلك صوابٌ في اعتقاد المائق، لا في نفس الأمر، وأمّا كونه يودّ أن تكون مِثله فليس معناه أنّه يَوَدّ أن تكون أحمَق مثله، وكيف وهو لا يَعلَم من نفسِه أنّه أحمق، ولو عَلِم أنه أحمق لما كان أحمق، وإنما معناه أنّه لحبّه لك، وصُحْبتِه إيّاك، يَودّ أن تكون مِثله، لأنّ كل أحدٍ يَودّ أن يكون صديقُه مِثل نفسِه في أخلاقه وأفعالِه، إذ كل أحد يَعتقِد صوابَ أفعاله، وطهارَة أخلاقه، ولا يَشعر بعيبِ نفسِه لأنه يَهوَى نفسَه، فَعيبُ نفسه مطويٌّ مَسْتور عن نفسِه، كما تَخْفَى عن العاشق عُيوبُ المعْشوق.

- ٣٠٠ -

الأصل: وقال عليه السلام وقد سُئِلَ عَنْ مَسافَةِ ما بَيْنَ المَشْرِقِ والمغرِبِ، فَقالَ: مَسِيرَةُ يَوْمٍ للشَّمْس.

الشرح: هكذا تقول العَرَب: «بينهما مسيرة يوم» بالهاء ولا يقولون «مسيرُ يوم» لأنّ المسير المصْدَر، والمسيرة الاسم.

وهذا الجوابُ تسمّيه الحكماء جواباً إقناعيًا، لأنّ السائل أراد أن يذكر له كمّية المسافة مُفصّلة، نحو أن يقوَل: بينهما ألْفُ فرسخ أو أكثر أو أقلّ، فعَدَل عليه السلام عن ذلك وأجابه بغيره، وهو جواب صحيح لا رَيب فيه، لكنّه غير شاف لغليلِ السائل، وتحته غَرضٌ صحيح، وذلك لأنه سأله بحضور العامّة تحتَ المِنبر، فلو قال له: بينهما ألفُ فرسخَ مثلاً، لكان للسائِل أن يُطالبَه بالدّلالة على ذلك، والدّلالة على ذلكَ يشقّ حصولها على البَديهة، ولو حصلتْ لَشقّ عليه أن يُوصلها إلى فهمْ السائل، ولو فهمها السائلُ لما فهمتْها العامّة الحاضرون، ولصارَ فيها قولٌ وخلاف، وكانت تكون فِتنة أو شبيهاً بالفتْنة، فعَدل إلى جواب صحيح إجماليّ أسكت السائل به، وقنع به السامعون أيضاً واستحسنُوه، وهذا من نتائج حِكمتِه عليه السلام.

- ٣٠١ -

الأصل: أَصْدِقاؤُكَ ثَلاثَةٌ، وَأَعْدَاؤُكَ ثَلاثةٌ، فَأَصْدِقاؤُكَ: صَدِيقُكَ، وَصَدِيقُ صَدِيقِكَ، وَعَدُوُّ عَدُوِّكَ. وَأَعْدَاؤكَ: عَدُوُّكَ، وعَدُوُّ صَدِيقِكَ، وَصَدِيقُ عدوِّكَ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في هذ المعنى.

والأصل في هذا أنّ صديقَك جارٍ مجرَى نفسك، فاحكم عليه بما تحكُم به على نفسك، وعدوّك ضدك، فاحكُمْ عليه بما تحكُم به على الضّد، فكما أنّ من عاداك عدوّ لك، وكذلك مَن عادى صديقَك عدوٌ لك، وكذلك من صَادَق صديقَك فكأنّما صادَق نفسَك، فكان صديقاً لك أيضاً، وأما عدوُّ عدوِّك فضدّ ضدّك، وضِدُّ ضِدِّك ملائمٌ لك، لأنّك أنتَ ضِدٌّ لذلك الضدّ، فقد اشتركتُما في ضدّيّة ذلك الشخص، فكنتما متناسِبَين، وأمّا مَن صَادقَ عدوَّك فقد ماثلَ ضِدَّك، فكان ضِدًّا لك أيضاً، ومثلُ ذلك بَياضٌ مخصوص يُعادِي سَواداً مخصوصاً ويضادّه.

وهناك بياض ثان هُوَ مِثلُ البياض الأوّل وصديقُه، وهناك بياضٌ ثالثٌ مِثلُ البياض الثاني، فيكون أيضاً مِثل البياض الأوّل وصديقه، وهناك بياضٌ رابعٌ تأخذه باعتبار ضدًا للسواد المخصوص المفروض، فإنه يكون مماثِلاً وصَديقاً للبياض الأوّل، لأنه عدو عدوّه، ثم نَفرِض سواداً ثانياً مضاداً للبياض الثاني، فهو عدوٌّ للبياض الأوّل، لأنه عدوُّ صديقه، ثمّ نفرِض سواداً ثالثاً هو مُماثِلُ السوادِ المخصوص المفروض، فإنه يكون ضدًا للبياض المفروض المخصوص، لأنه مِثل ضدّه، وإن مثّلت ذلك بالحروف كان أظهَر وأكشف.

- ٣٠٢ -

الأصل: وقالَ عَلَيْهِ السَّلامُ لرجُلٍ رَآهُ يَسْعَى على عَدُوٍّ لَهُ بِما فيه إضْرَارٌ بِنَفْسِهِ: إنَّما أنْتَ كالطّاعن نَفْسَهُ لِيَقْتُلَ رِدْفَهُ.

الشرح: هذا يختلف باختلاف حالِ السّاعي، فإنه إن كان يضرّ نفسه أوّلاً ثمّ يضرّ عدوّه تَبَعاً لإضرارِه بنفسِه، كان - كما قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلامُ - كالطاعنِ نفسَه لِيقتلَ رِدفَه، والرِّدفُ: الرجلُ الذي تَرْتدِفه خَلْفَك على فرَس أو ناقةٍ أو غيرِهما، وفاعِل ذلك يكون أسْفه الخلق وأقلّهم عقلاً، لأنه يبدأ بقتل نفسه. وإن كان يضرّ عدوّه أولاً، يحصل في ضمن إضراره بعدوّه إضراره بنفسه، فليس يكون مثالُ أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلامُ متطبقاً على ذلك، ولكن يكون كقولي في غزلٍ من قصيدةٍ لي:

إن تَـرُمِ قـلـبـي تُـصْـمِ نـفـسَـك إنَّـه ... لـكَ مـوطـنٌ تـأوِي إلـيـه ومَـنـزِلُ

- ٣٠٣ -

الأصل: ما أكْثَرَ العِبَرَ وأقَلَّ الاعْتِبَارَ!

الشرح: ما أوجز هذه الكلمة وما أعظم فائدتها! ولا ريب أنّ العبَر كثيرة جدًا، بل كلّ شيء في الوجود ففيه عِبْرةٌ، ولا ريب أن المعتبِرين بها قليلون، وأنّ الناس قد غلب عليهم الجهل والهوى، وأرداهم حبُّ الدنيا، وأسكرهم خَمرُها، وإنّ اليقين في الأصل ضعيف عندهم، ولولا ضعفه لكانت أحوالهم غيرَ هذه الأحوال.

- ٣٠٤ -

الأصل: مَنْ بَالَغَ فِي الخُصُومَةِ أَثِمَ، ومَنْ قَصَّر فِيها ظُلِمَ، ولا يَسْتَطِيعُ أنْ يَتَّقِيَ الله مَن خاصَمَ.

الشرح: هذا مثل قوله عليه السلام في موضع آخر: الغالب بالشرّ مغلوب.

وكان يقال: ما تسابّ اثنان إلا غلبَ ألأمُهما.

وقد نهى العلماء عن الجدل والخصومة في الكلام والفقه، وقالوا: إنهما مظنّة المباهاة وطلب الرئاسة والغلبة، والمجادل يكره أن يقهَره خصمُه، فلا يستطيع أن يتّقي الله.

وهذا هو كلام أمير المؤمنين عليه السلام بعينه.

وأما الخصومة في غير العلم كمنازعة النّاس بعضِهم بعضاً في أمورهم الدنياويّة، فقد جاء في ذمّها، والنّهي عنها شيء كثير، وقد ذكرنا منه فيما تقدّم قولاً كافياً، على أنّ منهم مَنْ مدح الجهْل والشرّ في موضعهما.

وقال الأحنف: ما قلّ سفهاء قوم إلّا ذلّوا.

وقال بعض الحكماء: لا يخرجنّ أحد من بيته إلا وقد أخذ في حُجْزتِه قيراطين من جَهْل، فإن الجاهل لا يدفعه إلا الجهل. وقالوا: الجاهل من لا جاهل له.

وقال الشاعر:

إذا كنت بين الجهل والحلم قاعداً وخُيِّرْتَ أنّى شئت فالعلم أفضلُ
ولكن إذا أنصفتَ مَنْ ليس منصفاً ولم يرضَ منك الحلمَ فالجهلُ أمثَلُ
إذا جاءني مَنْ يطلب الجهلَ عامداً فإني سأعطيه الّذي هو سائلُ

- ٣٠٥ -

الأصل: ما أَهَمَّنِي أَمْرٌ أُمْهِلْتُ بَعْدَهُ، حتَّى أُصَلِّيَ رَكْعَتَيْن وَأَسْأَلَ الله العَافِيَةَ.

الشرح: هذا فتحٌ لباب التوبة وتطريق إلى طريقها، وتعليم للنهضة إليها والاهتمام بها، ومعنى الكلام أنّ الذّنب الذي لا يعاجَل الإنسانُ عقيبَه بالموت ينبغي للإنسان ألّا يهتم به، أي

لا ينقطع رجاؤه من العفو وتأميله الغفران، وذلك بأن يقوم إلى الصلاة عاجلاً، ويستغفر الله، ويندم ويعزم على ترك المعاودة، ويسأل الله العافية من الذنوب والعصمة من المعاصي، والعون على الطاعة، فإنه إذا فعل ذلك بنيّة صحيحة واستوفى شرائط التوبة سقط عنه عقابُ ذلك الذنب.

وفي هذا الكلام تحذيرٌ عظيم من مواقعة الذنوب، لأنه إذا كان هذا هو محصول الكلام، فكأنّه قد قال الحذَرَ الحذَرَ من الموت المفاجئ قبل التوبة، ولا ريب أنّ الإنسان ليس على ثقةٍ من الموت المفاجئ قبل التوبة، إنه لا يفاجئه ولا يأخذه بغتةً، فالإنسان إذا كان عاقلاً بصيراً يتوقّى الذنوب والمعاصيَ التوقّي.

- ٣٠٦ -

الأصل: وَسُئِلَ عليه السلام: كَيْفَ يُحَاسِبُ الله الخَلْقَ عَلَى كَثْرَتِهِمْ؟ فَقَالَ: كَمَا يَرْزُقُهُمْ عَلَى كَثْرَتِهِمْ.

فَقِيلَ: كَيْفَ يُحاسِبُهُمْ ولا يَرَوْنَهُ! فَقَالَ: كَمَا يَرْزُقُهُمْ وَلا يَرَوْنَهُ.

الشرح: هذا جواب صحيح؛ لأنه تعالى لا يرزقهم على الترتيب، أعني واحداً بعد واحد، وإنما يرزقهم جميعَهم دفعةً واحدة، وكذلك تكون محاسبتهم يوم القيامة.

والجواب الثاني صحيح أيضاً: لأنه إذا صحّ أن يرزقنا ولا نرى الرّازق، صحّ أن يحاسبَنا ولا نرى المحاسب.

فإن قلت: فقد ورد أنهم يَمكثُون في الحساب ألف سنة، وقيل أكثر من ذلك، فكيف يجمع بين ما ورد في الخبر وبين قولكم: «إن حسابهم يكون ضربة واحدة»! ولا ريب أنّ الأخبار تدلّ على أن الحساب يكون لواحدٍ بعد واحد.

قلت: إن أخبار الآحاد لا يُعمل عليها، لا سيّما الأخبار الواردة في حديث الحساب والنار والجنّة، فإن المحدّثين طعنوا في أكثرها، وقالوا: إنها موضوعة، وجملة الأمر أنه ليس هناك تكليف، فيقال إن ترتيب المحاسبة في زمانٍ طويل جدًّا يتضمّن لطفاً في التكليف فيفعله الباري تعالى لذلك، وإنما الغرض من المحاسبة صدْق الوعد وما سبق من القول، والكتاب العزيز لم ينطق إلا بالمحاسبة مجملةً، فوجب القول بالمتيقّن المعلوم فيها ورفض ما لم يثبت.

- ٣٠٧ -

الأصل: رَسُولَكَ تَرْجُمَانُ عَقْلِكَ، وَكِتَابُكَ أَبْلَغُ مَا يَنْطِقُ عَنْكَ.

الشرح: قالوا في المَثَل: الرّسول على قدر المرسِل.

وقيل أيضاً: رسولُك أنتَ، إلا أنّه إنسانٌ آخر.

وقال الشاعر:

تَخَيَّرْ إذا ما كنتَ في الأمر مرسِلاً فمبلغُ آراءِ الرّجال رسولُها

وروِّ وفكِّرْ في الكتاب فإنّما بأطراف أقلامِ الرّجال عقولُها

- ٣٠٨ -

الأصل: ما المُبْتَلَى الَّذِي قدِ اشْتَدَّ بِهِ البَلاءُ، بِأَحوَجَ إِلَى الدُّعَاءِ مِنَ المُعَافَى الَّذِي لا يَأْمَنُ البَلاءَ.

الشرح: هذا ترغيب في الدعاء، والذي قاله عليه السلام حقّ؛ لأنّ المعافَى في الصورة مبتلًى في المعنى، وما دام الإنسان في قَيْد هذه الحياة الدنيا فهو من أهل البلاء على الحقيقة، ثم لا يأمن البلاء الحسّيّ، فوجب أن يتضرّع إلى الله تعالى أنّه ينقذه من بلاء الدنيا المعنوي، ومن بلائها الحسيّ في كلّ حال.

ولا ريبَ أنّ الأدعيَة مؤثِّرة، وأنّ لها أوقات إجابة، ولم يختلف المِليُّون والحكماء في ذلك.

- ٣٠٩ -

الأصل: النَّاسُ أَبْنَاءُ الدُّنْيَا، وَلا يُلامُ الرَّجُلُ عَلَى حُبِّ أُمِّهِ.

الشرح: قد قال عليه السلام في موضع آخر: «الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم»[1].

وقال الشاعر:

ونحنُ بَنِي الدُّنيا غُذِينَا بدَرِّها وما كنتَ منه فهو شيء محبَّبُ

- ٣١٠ -

الأصل: إِنَّ المِسْكِينَ رَسُولُ الله، فَمَنْ مَنَعَهُ فَقَدْ مَنَعَ الله، وَمَنْ أَعْطَاهُ فَقَدْ أَعْطَى الله.

الشرح: هذا حضٌّ على الصدقة، وقد تقدّم لنا قولٌ مقنع فيها.

وفي الحديث المرفوع: «اتّقوا النّار ولو بشِقِّ تَمْرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة»[2].

وقال صلى الله عليه وسلم: «لو صَدَق السّائل لما أفلح مَنْ ردّه»[3].

وقال أيضاً: «مَنْ ردّ سائلاً خائباً لم تَغْشَ الملائكة ذلك البيت سبعة أيام»[4].

وكان صلى الله عليه وسلم لا يكِلُ خَصْلتيْن إلى غيره: كان يصنع طَهُوره بالليل ويخمِّره، وكان يناول المسكين بيده.

وقال بعض الصالحين: مَنْ لم تكن نفسه إلى ثواب الصدقة أحوجَ من الفقير إلى صدقته، فقد أبطل صدقته، وضرب بها وجهه.

وقال بعضهم: الصلاة تبلّغك نصفَ الطريق، والصّوْم يبلّغك باب المَلِك، والصدقة تُدخِلك عليه.

- ٣١١ -

الأصل: مَا زَنَى غَيُورٌ قَطُّ.

---

(١) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء رقم: ٢٧٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب: الصدقة قبل الرد (١٤١٣)، ومسلم في الزكاة، باب: الحث على الصدقة (١٠١٦)، والنسائي في الزكاة، باب: القليل في الصدقة (٢٥٥٣).

(٣) أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ٢٩٧)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ١٦١).

(٤) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٤/ ٣٢).

الشرح: قد جاء في الأثر: مَنْ زَنَى زُنِيَ به ولو في عقِب عقِبه[1].

وهذا قد جُرّب فوجد حقًّا، وقلّ مَنْ ترى مِقداماً على الزّنى إلا والقول في حَرَمه وأهلِه وذوي مَحارمه كثير فاشٍ.

والكلمة التي قالها عليه السلام حقّ لأنّ مَنْ اعتاد الزنى حتى صار دُرْبته وعادتَه وألفَتْه نفسه، لا بدّ أن يهون عليه حتى يظنّه مباحاً، أو كالمباح، لأنّ مَنْ تدرّب بشيء ومرَنَ عليه زال قبحه من نفسِه، وإذا زال قبحُ الزنى من نفسه لم يعظم عليه ما يقال في أهله، وإذا لم يعظم عليه ما يقال في أهله، فقد سقطت غيْرتُه.

- ٣١٢ -

الأصل: كَفَى بالأَجَلِ حَارِساً!

الشرح: قد تقدّم القول في هذا المعنى.

وكان عليه السلام يقول: إن عَليّ من الله جُنّة حصينة، فإذا جاء يَوْمي أسلمتْني، فحينئذ لا يَطِيش السَّهم، ولا يبرأ الكَلْم.

والقول في الأجل وكونه حارساً شُعْبة من شُعَب القول في القضاء والقَدَر، وله موضع هو أملَكُ به.

- ٣١٣ -

الأصل: يَنَامُ الرَّجُلُ عَلَى الثُّكْلِ، وَلا يَنَامُ علَى الحَرْبِ.

قالَ السيّدُ: ومَعْنَى ذَلِكَ أنَّهُ يَصْبِرُ عَلَى قَتْلِ الأوْلادِ، وَلا يَصْبِرُ عَلَى سَلْبِ الأمْوَالِ.

الشرح: كان يقال: المال عِدْل النّفس.

وفي الأثر: أنّ مَنْ قُتِل من دون ماله فهو شهيد.

---

(١) أخرجه السيوطي في جامعه بما معناه رقم: ٨٧٢٣.

وقال الشاعر:

لَنَا إِبِلٌ غُرٌّ يضيق فَضاؤها ... ويغبرّ عنها أرضُها وسماؤها
فمن دونِها أن تُستباحَ دِماؤُنا ... ومن دونِنا أن تُستباح دماؤُها
حِمًى وقِرًى فالموت دون مَرامِها ... وأيسر أمر يومَ حُقّ فَناؤها

- ٣١٤ -

الأصل: مَوَدَّةُ الآبَاءِ قَرَابَةٌ بَيْنَ الأَبْنَاءِ، وَالْقَرَابَةُ أَحْوَجُ إِلَى المَوَدَّةِ مِنَ المَوَدَّةِ إِلَى القَرَابَةِ.

الشرح: كان يقال: الحبّ يُتوارث، والبُغْض يُتوارث.

وقال الشاعر:

أبقَى الضَّغَائِنَ آباءٌ لنا سلفُوا ... فلن تبِيدَ وللآباء أبناءُ

ولا خير في القرابة من دون مودّة.

وقد قال القائل لمّا قيل له: أيُّما أحبُّ إليك؟ أخوك أم صديقك؟ فقال: إنما أحبّ أخِي إذا كان صديقاً.

فالقربى محتاجة إلى المودّة، والمودة مستغنيةٌ عن القُربَى.

- ٣١٥ -

الأصل: اتَّقُوا ظُنُونَ المُؤْمِنِينَ فَإِنَّ الله تَعَالَى جَعَلَ الحَقَّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ.

الشرح: كان يقال: ظَنُّ المؤمن كَهانة.

وهو أثرٌ جاء عن بعض السلف.

قال أوْس بن حجر:

الألمعيُّ الذي يَظُنّ بك الظَّنَّ ... كأنْ قد رأى وقد سَمِعا

وقال أبو الطيّب:

ذَكِيٌّ تَـغَلْـنِّـيـه طـلـيـعـةُ عـيـنـه   يَـرَى قـلـبُـه فـي يـومـه مـا يَـرى غـدَا

- ٣١٦ -

الأصل: لا يَصْدُقُ إيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ بِمَا فِي يَدِ الله سُبْحَانَهُ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا في يدِهِ.

الشرح: هذا كلام في التوكّل، وقد سبق القول فيه.

وقال بعض العلماء: لا يشغُلك المضمونُ لك من الرّزق عن المفروض عليك من العَمل، فتضيّع أمرَ آخرتك، ولا تنال من الدنيا إلا ما كَتَب الله لك.

وقال يحيى بن معاذ في جود العبد: الرزق عن غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد.

وقال بعضهم: متى رضيتَ بالله وكيلاً، وجدت إلى كلّ خير سبيلاً.

- ٣١٧ -

الأصل: وقال عليه السلام لأنَسِ بنِ مالكٍ، وقد كان بَعَثَهُ إلى طلحةَ والزُّبير لمَّا جاء إلى البصرةِ يُذَكِّرُهُما شيئاً قد سمِعَهُ مِنْ رسول الله صلى الله عليه وآله في معناهُما، فلَوَى عن ذلك فرجَعَ إليه، فقالَ: إنِّي أُنسِيتُ ذَلِكَ الأمْرَ، فقال عليه السلام: إنْ كنتَ كاذباً فضرَبكَ الله بها بيضاءَ لامِعَةً لا تُواريها العِمامةُ.

قالَ: يعني البرصَ، فأصاب أنساً هذا الدَّاءُ فيما بَعْدُ في وجهِهِ، فكانَ لا يُرَى إلا مُتبرْقعاً.

الشرح: المشهور أنّ علياً عليه السلام ناشد الناس الله في الرّحبة بالكوفة، فقال: أنشدكم الله رجلاً سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لي وهو منصرف من حَجّة الوداع: «من كنتُ مولاه فعليّ مولاه، اللهمّ وَالِ مَنْ والاه، وعادِ مَنْ عاداه»[1] فقام رجال فشهدوا بذلك، فقال عليه السلام لأنس بن

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب: المقدمة، باب: فضل علي بن أبي طالب (١١٦)، وأحمد كتاب: العشرة المبشرين بالجنة، باب: ومن مسند علي بن أبي طالب (٩٥٣).

مالك: لقد حضرتَها، فما بالُك! فقالَ: يا أمير المؤمنين كبرتُ سني، وصار ما أنساه أكثر مما أذكره، فقال له: إن كنت كاذباً فضربك الله بها بيضاء لا تواريها العِمامة، فما مات حتى أصابه البرص.

فأما ما ذكره الرضيّ من أنه بعث أنساً إلى طلحة والزبير فغيرُ معروف، ولو كان قد بعثه ليذكّرهما بكلام يختصّ بهما منْ رسول الله ﷺ لما أمكنه أن يرجع، فيقول: إني أنسيتُه، لأنه ما فارقه متوجّهاً نحوهما إلا وقد أقرّ بمعرفته وذكره، فكيف يرجع بعد ساعة أو يوم فيقول: إني أنسيته، فينكر بعد الإقرار! هذا مما لا يقع.

وقد ذكر ابنُ قتيبة حديث البرص، والدعوة التي دعا بها أمير المؤمنين عليه السلام على أنس بن مالك في كتاب «المعارف» في باب البُرْص من أعيان الرجال، وابن قتيبة غير متّهم في حقّ عليّ عليه السلام، على المشهور من انحرافِه عنه.

- ٣١٨ -

الأصل: إنْ لِلْقُلُوبِ إِقْبالاً وَإِدْبَاراً، فَإِذَا أَقْبَلَتْ فَاحْمِلُوهَا عَلَى النَّوَافِلِ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ فَاقْتَصِرُوا بِهَا عَلَى الفَرَائِضِ.

الشرح: لا ريب أنّ القلوب تملّ كما تملّ الأبدان، وتُقبِل تارةً على العِلم وعلى العَمَل، وتُدبِر تارةً عنهما.

قال عليّ عليه السلام: فإذا رأيتموها مقبلة أي قد نشِطتْ وارتاحت للعمل فاحملوها على النّوافل، ليس يعني اقتصروا بها على النافلة، بل أدّوا الفريضة وتنفّلوا بعد ذلك. وإذا رأيتموها قد ملّت العمل وسئمتْ فاقتصروا بها على الفرائض، فإنه لا انتفاع بعمل لا يَحضُر القلبُ فيه.

- ٣١٩ -

الأصل: في القُرْآنِ نَبأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ[1].

---

(١) هذا حديث: أخرجه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن (٢٩٠٦)، وأحمد في كتاب مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب مسند علي بن أبي طالب (٧٠٦)، والدارمي في كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن (٣٣٣١).

الشرح: هذا حق؛ لأن فيه أخبار القرون الماضية، وفيه أخبار كثيرة عن أمور مستقبلة، وفيه أخبار كثيرة شرعيّة؛ فالأقسام الثلاثة كلُّها موجودة فيه.

- ٣٢٠ -

الأصل: رُدُّوا الحَجَرَ مِنْ حَيْثُ جاءَ، فإنَّ الشَّرَّ لا يَدْفَعُهُ إلّا الشرّ.

الشرح: هذا مثل قولهم في المثل: إن الحديد بالحديد يُفلَح وقال عَمرو بن كُلثوم:

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا ... فنَجهل فوق جهلِ الجاهلينا

وقال الفِنْد الزِّمّانيّ:

فلمّا صرّح الشّرّ ... فأمسى وهوَ عُريانُ
ولم يبقَ سِوى العدْوَا ... نِ دِنّاهمْ كما دانوا
وبعض الحلم عند الجهْـ ... ـل للذِّلّة إذْعان
وفي الشرّ نجاة حيـ ... ـن لا ينجِيك إحسانُ

وقال الأحنف:

وذِي ضِغْنٍ أمَتّ القولَ عنه ... بحلمي فاستمرّ على المَقالِ
ومن يَحلُم وليس له سفيهٌ ... يُلاقِ المعضلاتِ من الرّجالِ

وقال الراجز:

لا بد للسؤدُد من أرماحِ ... ومِنْ عَديدٍ يتّقي بالرّاحِ
ومن سفيهٍ دائم النُّباحِ

وقال آخر:

ولا يلبثُ الجُهّال أن يتهضّمُوا ... أخا الحلم ما لم يستعِنْ بجَهُولِ

وقال آخر:

ولا أتمنّى الشرَّ والشرُّ تارِكي ... ولكن مَتى أُحْمَلْ على الشرّ أركبُ

- ٣٢١ -

الأصل: وقالَ عليه السلام لِكاتِبِهِ عُبَيْدِ اللّهِ بنِ أبي رَافِعٍ:

أَلِقْ دَوَاتَكَ، واطِلْ جِلْفَةَ قَلَمِكَ، وفَرِّجْ بَيْنَ السُّطُورِ، وقَرْمِطْ بَيْنَ الحُرُوف فإنَّ ذَلِكَ أَجْدَرُ بِصبَاحَةِ الخَطِّ.

الشرح: لاقَ الحِبرُ بالكاغَد يليق، أي التصق، ولِقْتُه أنا يتعدّى ولا يتعدّى، وهذه دواة مليقة: أي قد أُصلح مدادُها، وجاء ألق الدّواة إلاقةً فهي مُلِيقة، وهي لغة قليلة وعليها وردتْ كلمة أمير المؤمنين عليه السلام.

ويقال للمرأة إذا لم تحظ عند زوجها: ما عاقتْ عند زوجها ولا لاقَتْ، أي ما التصقت بقلبه.

وتقول: هي جِلْفة القلم بالكسر، وأصل الجَلف القَشر، جلفتُ الطّين من رأس الدنّ، والجِلْفة هيئة فتحَة القلم التي يستمدّ بها المداد، كما تقول: «هو حَسن الرِّكْبة والجِلسة ونحو ذلك من الهيئات.

وتقول: قد قرمط فلانٌ خطوَه إذا مشى مشياً فيه ضِيق وتقَارُب، وكذلك القول في تضييق الحروف.

فأما التفريج بين السطور فيُكسِب الخطَّ بهاءً ووضوحاً.

- ٣٢٢ -

الأصل: أنا يَعْسُوبُ المُؤمنينَ، والمَالُ يَعْسُوب الفُجَّارِ.

قالَ: مَعْنَى ذَلِكَ أنَّ المؤمِنِينَ يَتْبَعُونَني، والفُجّار يَتْبَعُون المَالَ، كما تَتْبَعُ النَّحْلُ يَعْسُوبَها، وهُوَ رئيسُها.

الشرح: هذه كلمةٌ قالها رسول الله صلى الله عليه وآله بلفظين مختلفين، تارةً: «أنت يعسوب الدّين»[1]

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣٥/ ٦٧.

وتارة: «أنت يعسوب المؤمنين»[1]، والكلّ راجع إلى معنًى واحد، كأنه جعله رئيس المؤمنين وسيّدَهم، أو جعل الدِّين يتبعه، ويقفُو أثرَه، حيث سلك كما يتبع النحلُ اليعسوبَ.

وهذا نحو قوله: «وأدِرِ الحقَّ معه كيف دارَ»[2].

- ٣٢٣ -

الأصل: وقالَ لبعضِ اليهودِ حينَ قالَ لهُ: ما دَفَنْتُمْ نَبِيَّكُمْ حَتَّى اخْتَلَفْتُمْ فيه فقالَ لهُ:

إِنَّما اخْتَلَفْنا عَنْهُ لا فِيهِ، وَلَكِنَّكُمْ ما جَفَّتْ أَرْجُلُكُمْ مِنَ الْبَحْرِ حَتَّى قُلْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[3].

الشرح: ما أحسن قوله: «اختلفنا عنه لا فيه»، وذلك لأنّ الاختلاف لم يكن في التوحيد والنبوّة، بل في فُروع خارجة عن ذلك، نحو الإمامة والميراث، والخلاف في الزكاة هل هي واجبة أم لا، واليهود لم يختلفوا كذلك، بل في التوحيد الذي هو الأصل.

قال المفسرون: مرُّوا على قوم يعبدون أصناماً لهم على هيئة البقَر، فسألوا موسى أن يجعلَ لهم إلهاً كواحد منها، بعد مشاهدتهم الآيات والأعلام، وخلاصِهم من رقّ العبوديّة، وعبورهم البحر، ومشاهدةِ غَرَق فرعون، وهذه غاية الجهل.

وقد روي حديث اليهوديّ على وجه آخر، قيل: قال يهوديٌّ لعليّ عليه السلام: اختلفتم بعد نبيّكم ولم يجفّ ماؤه - يعني غسله - صلى الله عليه وآله، فقال عليه السلام: وأنتم قلتم: اجعلْ لنا إلهاً كما لهم آلهة ولما يجفّ ماؤكم.

(١) أخرجه البزار في «المسند» (٣٨٩٨)، والطبراني بنحوه في «المعجم الكبير» (٦١٨٤)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧١٤)، والحاكم في «المستدرك» (٤٦٢٩).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.

- ٣٢٤ -

الأصل: وقِيلَ لَهُ عليه السلام: بأيِّ شيءٍ غَلَبْتَ الأقْرانَ؟ قالَ: مَا لَقِيتُ أحَداً إلا أعانَني على نَفْسِهِ.

قالَ الرَّضيُّ رحمهُ الله تعالى: يُومِئُ بِذَلِكَ إِلَى تَمَكُّنِ هَيْبَتِهِ في القُلُوبِ.

الشرح: قالت الحكماء: الوهم مؤثّر، وهذا حقّ، لأن المريض إذا تقرّر في وهمه أن مرضه قاتل له ربّما هلك بالوَهم، وكذلك مَنْ تلسبُه الحيّة، ويقع في خياله أنها قاتلته، فإنه لا يكاد يسلم منها، وقد ضربوا لذلك مثالاً، الماشي على جِذْع معترض على مهواة، فإن وهمه وتخيُّله السقوط يقتضي سقوطه، وإلا فمشيه عليه وهو منصوب على المهْواة كمشيه عليه وهو ملقًى على الأرض، لا فرق بينهما إلّا الوَهْم والخوف والإشفاق والحذَر، فكذلك الذين بارزوا عليًّا عليه السلام من الأقران، لما كان قد طار صيتُه، واجتمعت الكلمة أنه ما بارزه أحد إلا كان المقتول، غلب الوهم عليهم، فقصرت أنفسهم عن مقاومته، وانخذلت أيديهم وجوارحهم عن مناهضته، وكان هو في الغاية القصوَى من الشّجاعة والإقدام، فيقتحم عليهم ويقتلهم.

- ٣٢٥ -

الأصل: وقالَ عليه السلام لابْنِهِ: يا بُنَيَّ إنِّي أخافُ عَلَيْكَ الفَقْرَ، فاسْتَعِذْ بالله مِنْهُ، فإنَّ الفَقْرَ مَنْقَصَةٌ للدِّين، مَدْهَشَةٌ لِلْعَقْلِ، دَاعِيَةٌ لِلْمَقْتِ.

الشرح: هذا موضع قد اختلف الناس فيه كثيراً، ففضّل قومٌ الغنى، وفضّل قومٌ الفقر.

فقال أصحاب الغنى: قد وصف الله تعالى المال، فسمّاه خيراً، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾[1].

وقال ممتنًّا على عباده، واعداً لهم بالإنعام والاحسان: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾[2].

وقال: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾[3].

(١) سورة صٓ، الآية: ٣٢.
(٢) سورة نوح، الآية: ١٢.
(٣) سورة المدثر، الآية: ١٢.

وقال النبي ﷺ: «المال الحسَب، إن أحساب أهل الدنيا هذا المال»[1].

وقال ﷺ: «نعم العون على تقوى الله المال»[2].

قالوا: ولا ريب أن الأعمال الجليلة العظيمة الثواب لا يتهيّأ حصولها إلا بالمال، كالحجّ والوقوف والصدقات والزكوات والجهاد.

وقد جاء في الخبر: «خير المال سِكة مأبورة أو مُهرة مأمورة»[3].

وقالت الحكماء: المال يرفعُ صاحبَه وإن كان وضيعَ النسب، قليل الأدب وينصره وإن كان جباناً، ويبسط لسانه وإن كان عيًّا، به تُوصَل الأرحام، وتصانُ الأعراض، وتظهر المروءة، وتتمّ الرياسة، ويعمر العالم، وتُبلَغ الأغراض، وتدرَك المطالب، وتُنال المآرب، يصلك إذا قطعك النَّاس، وينصرك إذا خذلوك، ويستعبد لك الأحرار، ولولا المال لما بان كرمُ الكريم، ولا ظهر لؤم اللَّئيم، ولا شُكِر جواد، ولا ذُمّ بخيل، ولا صِين حريم، ولا أدرك نعيم.

وقال الشاعر:

المال أنفعُ للفتى من عِلْمه ... والفقرُ أقتلُ للفتى من جَهْلِهِ

ما ضرّ مَنْ رفع الدّراهمُ قدرَه ... جهلٌ يناط إلى دناءةِ أصلِه

وقال آخر:

دعوتُ أخي فولّى مشمئزًّا ... ولَبّى دِرهمي لمَّا دَعوتُ

وقال آخر:

ولم أر أوفى ذِمّةً من دراهمي ... وأصدقَ عَهْداً في الأمور العظائِم

فكم خانني خلٌّ وثقتُ بعهدِه ... وكان صديقاً لي زمانَ الدّراهم

وقال آخر:

أبو الأصفر المنقوش أنفعُ للفتى ... من الأصل والعِلم الخطير المقدّم

وما مدح العلمَ امرؤٌ ظفرتْ به ... يَداه ولكنْ كلُّ مُقْوٍ ومعدِم

وقال الشاعر:

ولم أر بعد الدّين خيراً من الغِنى ... ولم أرَ بعد الكفر شرًّا من الفقرِ

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب: النكاح، باب: الحسب (٣٢٢٥)، وأحمد في «مسنده» (٢٢٤٨١).

(٢) أخرجه الشهاب في «مسنده» (١٣١٧).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٤١٨)، والبيهقي في «سننه» (١٠/ ٦٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦٤٧٠).

وقال العتّابيّ: الناس لصاحب المال ألزمُ من الشّعاع للشمس، وهو عندهم أرفع من السماء، وأعذب من الماء، وأحلى من الشّهد، وأزكى من الوَرْد، خطؤه صواب، وسيئته حسنة. وقوله مقبول، يُغشَى مجلسه، ولا يُمَلّ حديثُه، والمفلس عندهم أكذب من لمعَان السّراب، ومن رؤيا الكِظّة، ومن مرآة اللّقوة، ومن سحاب تَمُّوز، لا يسأل عنه إن غاب، ولا يسلَّم عليه إذا قدم، إن غاب شتموه، وإن حضر طردوه، مصافحته تنقض الوضوء، وقراءته تقطع الصلاة، أثقل من الأمانة، وأبغض من السائل المبرِم.

وقال بعض الشعراء الظرفاء، وأحسن كل الإحسان مع خلاعته:

أصونُ دراهمِي وأذُبّ عنها ... لِعلمِي أنها سَيْفي وتُرسي
وأذخرُها وأجمعُها بجهدِي ... ويأخذ وارثي منها وعُرسي
فيأكلها ويشربُها هنيئاً ... على النّغمات من نَقْر وَجَسّ
ويقعد فوق قبري بعد موتِي ... ولا يتصدقنْ عنّي بفَلْسِ
أحبّ إليَّ من قصدي عظيماً ... كبيراً أصله من عبد شمسِ
أمدّ إليه كفّي مستميحاً ... وأُصبِحُ عَبْدَ خدمته وأمسِي
ويتركني أجرّ الرِّجلَ مِنّي ... وقد صارت كنفس الكلب نفسِي

وقال أصحاب الفقر: الغِنَى سبب الطغيان، قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾[2].

وكان يقال: الغنى يورث البَطَر، وغنى النفس خيرٌ من غنى المال.

وقال محمود البقّال:

الفقر خيرٌ فاتّسِعْ واقتصدْ ... إنّ من العِصْمَةِ ألّا تَجِدْ
كَمْ واجدٍ أطلق وجدانُه ... عنانَه في بعض ما لم يُرِدْ
ومُدْمِنٍ للخمر غادٍ على ... سماع عُودٍ وغناءٍ غَرِدْ
لو لم يجدْ خمراً ولا مُسمعاً ... يردّ بالماء غليلَ الكَبِدْ
كَمْ من يدٍ للفقر عند امرئٍ ... طأطأ منه الفقر حتّى اقتصدْ

وكان يقال: الفقر شعار الصالحين، والفقر لباس الأنبياء.

ولذلك قال البحتري:

---

(١) سورة العلق، الآيتان: ٦، ٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٣.

فقرٌ كفقر الأنبياء وغربةٌ وصبابةٌ ليس البلاءُ بواحد

وكان يقال: الفقر مُخِفّ، والغنى مُثقل.

وفي الخبر: نجا المخفّون.

وما أحسن قول أبي العتاهية:

ألَمْ ترَ أنّ الفقر يُرجَى له الغنى وأن الغنى يُخشَى عليه من الفقرِ

وقد ذم الله تعالى المال، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[1].

وكان يقال: المال ملول، المال ميّال، المال غاد ورائح، طبع المال كطبع الصبيّ، لا يوقف على وقت رضاه ولا وقت سخطه. المال لا ينفعك حتى يفارقك.

وإلى هذا المعنى نظر القائل:

وصاحبِ صدقٍ ليس ينفع قربُه ولا ودّه حتّى تفارقَه عَمْدا

يعني الدينار.

وَمَا أَحْسَنَ ما قاله الأوّل:

وقد يُهْلِكُ الإنسانَ حسنُ رِياشِه كما يُذْبَح الطّاوُس من أجل ريشِهِ

وقال آخر:

رُوَيْدَك إنّ المال يُهلِك ربَّه إذا جمّ واستعلى وسُدَّ طريقُهُ

ومن جاوزَ الماء الغزير فمَجّهُ وسدَّ طريقَ الماء فهو غريقُهُ

- ٣٢٦ -

الأصل: وقال لسائل سأله عن مسألة:

سَلْ تَفَقُّهاً، وَلا تَسْأَلْ تَعَنُّتاً، فَإِنَّ الجَاهِلَ المُتَعَلِّمَ شَبِيهٌ بِالْعَالِمِ، وَإِنَّ العَالِمَ المُتَعَنِّتَ شَبِيهٌ بِالْجَاهِلِ.

الشرح: قد ورد نهيٌ كثير عن السؤال على طريق الإعنات.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له: منْ حقّ العالم ألّا تكثر عليه بالسؤال، ولا تُعنِته في

(١) سورة التغابن، الآية: ١٥.

الجواب، ولا تضع له غامضات المسائل، ولا تلحّ عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تُفْشِ له سرًّا، ولا تغتابن عنده أحداً، ولا تنقلنّ إليه حديثاً، ولا تطلبنّ عثرته، وإن زلّ قبلت معذرتَه، وعليك أن توقّره وتُعظّمه لله ما دام حافظاً أمر الله، ولا تجلس أمامه، وإذا كانت له حاجة فاسبق أصحابك إلى خدمته[1].

وقال ابن سيرين لسائل سأله: سل أخاك إبليس، إنّك لنْ تسأل وأنت طالب رشد.

وقالوا: اللهمّ إنا نعوذ بك أن تُعنِت كما نعوذ بك أن نُعْنَت، ونستكفيك أن تفضَح، كما نستكفيك أن نَفضَح.

وقالوا: إذا آنس المعلّم من التلميذ سؤال التعنُّت حَرُم عليه تعليمه.

- ٣٢٧ -

الأصل: وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ لِعَبْدِ اللّهِ بنِ العَبَّاسِ رَضِيَ الله عَنْهُ وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ فِي شَيْءٍ لَمْ يُوَافِقْ رَأْيَهُ: لَكَ أَنْ تُشِيرَ عَلَيَّ وَأَرَى فَإِذَا عَصَيْتُكَ فَأَطِعْنِي.

الشرح: الإمام أفضل من الرعيّة رأياً وتدبيراً، فالواجب على مَن يشير عليه بأمرٍ فلا يقبل أن يطيعَ ويسلّم ويعلم أن الإمام قد عرَف من المصلحة ما لم يعرف.

ولقد أحسن الصابي في قوله في بعض رسائله: ولولا فضلُ الرّعاة على الرَّعايا في بُعْدِ مَطْرَح النظرة، واستشفاف غيب العاقبة، لتساوت الأقدام، وتقاربت الأفهام، واستغنى المأموم عن الإمام.

- ٣٢٨ -

الأصل: وَرُوِيَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلامُ لَمَّا وَرَدَ الْكُوفَةَ قَادِماً مِنْ صِفِّينَ مَرَّ بالشباميِّينَ، فَسَمِعَ بُكَاءَ النِّسَاءِ عَلَى قَتْلَى صِفِّين، وَخَرَجَ إِلَيْهِ حَرْبُ بنُ شرَحْبِيلِ الشِّبامِيّ، وَكَانَ مِنْ وُجُوهِ قَوْمِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَيَغْلِبُكُمْ نِسَاؤُكُمْ عَلَى مَا أَسْمَعُ أَلا تَنْهَوْنَهُنَّ عَنْ هَذَا الرَّنِينِ!

---

(١) أخرجه البري في الجوهرة في نسب الإمام علي: ٨٤.

وَأَقْبَلَ حَرْبٌ يَمْشِي مَعَهُ وَهُوَ عَلَيْهِ السَّلامُ رَاكِبٌ، فَقَالَ لَهُ: ارْجِعْ فَإِنَّ مَشْيَ مِثْلِكَ مَعَ مِثْلِي فِتْنَةٌ لِلْوَالِي وَمَذَلَّةٌ لِلْمُؤْمِنِ.

الشرح: قد ذكرنا نسب الشباميّين فيما اقتصصناه من أخبار صفّين في أول الكتاب.

والرّنين: الصوت، وإنما جعله فتنة للوالي لما يتداخله من العُجب بنفسه والزّهو، ولا ريب أيضاً في أنه مذلّة للمؤمن، فإنّ الرّجل الماشي إلى ركاب الفارس أذلّ الناس.

– ٣٢٩ –

الأصل: وقال عليه السلام وقدْ مرَّ بقتلى الخوارجِ يومَ النَّهروان: بُؤساً لكم! لقد ضرَّكُمْ من غرَّكُمْ.

فقيل له: مَنْ غرّهم يا أميرَ المؤمنين؟

فقال: الشَّيطانُ المضِلّ، والنَّفْسُ الأمَّارةُ بالسُّوءِ؛ غرَّتهم بالأمانيّ، وفَسَحَتْ لهم في المعاصي، ووعدتهم الإظهارَ؛ فاقتحمتْ بهم النّار.

الشرح: يقَالُ: بؤسى لزيد وبؤساً «بالتنوين» لزيد، فبؤسى نظيره نُعمَى، وبؤساً نظيره نعمةً، ينتصب على المصدر.

وهذا الكلام ردّ على المجبِّرة، وتصريح بأن النفس الأمّارة بالسوء هي الفاعلة. والإظهار: مصدر، أظهرته على زيد، أي جعلته ظاهراً عليه غالباً له، أي وعدتهم الانتصار والظفر.

– ٣٣٠ –

الأصل: اتَّقُوا معَاصِيَ الله في الخَلَوَاتِ، فإنَّ الشَّاهِدَ هُوَ الحاكِمُ.

الشرح: إذا كان الشاهد هو الحاكم استغنَى عمّن يشهد عنده، فالإنسان إذن جديرٌ أن يتّقي الله حقّ تُقَاته، لأنه تعالى الحاكم فيه وهو الشاهد عليه.

- ٣٣١ -

الأصل: وقالَ عليه السلام لما بلَغه قتلُ محمّدِ بن أبي بَكرٍ رضيَ الله عنهُ:

إنَّ حزنَنا عَلَيْهِ على قَدْرِ سُرُورِهِمْ بِهِ، إلّا أنَّهُمْ نُقِصُوا بغيضاً، ونُقِصْنَا حَبِيباً.

الشرح: قد تقدّم ذكر مقتل محمد بن أبي بكر رضي الله عنه.

وقال عليه السلام: إن حزننا به في العِظَم على قدر فَرَحِهم به، ولكنْ وَقع التفاوت بيننا وبينهم من وجه آخر، وهو أنّا نقصنا حبيباً إلينا، وأما هم فنقصوا بغيضاً إليهم.

فإن قلت: كيف نقصوا، ومعلوم أن أهل الشام ما نقصوا بقتل محمّد شيئاً لأنه ليس في عددهم!

قلت: لمّا كان أهل الشام يعدُّون في كل وقت أعداءهم وبغضاءهم من أهل العراق، وصار ذلك العدد معلوماً عنده محصور الكميّة، نقصوا بقتل محمد من ذلك العدد واحداً، فإنّ النقص ليس من عدد أصحابهم، بل من عدد أعدائهم الذين كانوا يتربّصون بهم الدوائر، ويتمنّوْن لهم الخُطوب والأحداث، كأنّه يقول: استراحوا من واحدٍ من جملة جماعةٍ كانوا ينتظرون موتهم.

- ٣٣٢ -

الأصل: وقال عليه السلام: الْعُمُر الَّذِي أعْذَرَ الله فيهِ إلى ابْنِ آدَمَ سِتُّونَ سَنَةً.

الشرح: اعذَرَ الله فيه، أي سَوَّغ لابن آدم أن يَعتذِر، يعني أنّ ما قبل السّتّين هي أيّام الصِّبا والشبيبة والكُهولة، وقد يُمكن أن يُعذر الإنسانُ فيه على اتّباع هَوَى النفس لغَلَبة الشّهوة وشَرَه الحَداثة، فإذا تَجاوَز السّتّين دخَل في سِنّ الشَّيْخُوخة، وذهبتْ عنه غُلَواء شِرَّتِه، فلا عُذرَ له في الجهل.

وقد قالت الشعراء نحو هذا المعنى في دُون هذه السّنّ الّتي عَيّنها عليه السلام.

وقال بعضهم:

إذا مـا الـمـرءُ قَـصَّـر ثـمّ مـرّتْ ... عـلـيـه الأربـعـونَ عـن الـرّجـالِ

ولـم يَـلـحَـق بـصـالـحـهـم فَـدعْـهُ ... فـلـيـسَ بـلاحِـقٍ أُخرى الـلّـيـالـي

- ٣٣٣ -

الأصل: ما ظَفِرَ مَنْ ظَفِرَ الإثمُ بِهِ، والغالبُ بالشرِّ مغلوبٌ.

الشرح: قد قال عليه السلام نحوَ هذا، وذكَرْناه في هذا الكتابِ: مَنْ قَصَّر في الخصومة ظُلِم ومَنْ بالَغ فيها أَثِم.

- ٣٣٤ -

الأصل: إنَّ الله سُبْحانَهُ فَرَضَ في أَمْوَالِ الأَغْنِياءِ أَقْوَاتَ الفُقَرَاءِ، فما جاعَ فَقِيرٌ إلّا بِما مُتِّعَ بِهِ غَنِيٌّ، والله تعالى جَدّهُ سائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في الصَّدَقة وفضلِها وما جاء فيها.

وقد ورد في الأخبار الصَّحيحة أنّ أبَا ذَرّ قال: انتهيتُ إلى رسولِ الله ﷺ وهو جالس في ظِلّ الكعبة، فلمّا رآني قال: «هم الأخسَرون وربِّ الكعبة» فقلت: مَنْ هم؟ قال: «هم الأكثرون أموالاً، إلا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومِن خلفِه وعن يمينه وعن شماله، وقليلٌ ما هُم، ما مِن صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدّي زكاتَها إلا جاءت يوم القيامة أعظمَ ما كانت وأسمَنَه، تَنطَحُه بقُرونها، وتطؤه بأظلافها، كلّما نَفِدَتْ أخراها عادَتْ عليه أولاها حتى يقضي الله بين الناس»[1]. . .

- ٣٣٥ -

الأصل: الاسْتِغْنَاءُ عَنِ العُذْرِ، أعَزُّ مِنَ الصِّدْقِ بِهِ.

---

(١) أخرج بنحوه البخاري، كتاب: الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦٦٣٨)، وبلفظ المؤلف أخرجه مسلم، كتاب: الزكاة، باب: تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة (٩٩٠)..

الشرح: رُوِيَ «خيرٌ مِن الصِّدق»، والمعنى: لا تَفْعل شيئاً تعتذِر عنه وإن كنت صادقاً في العُذْر، فألّا تفعل خيرٌ لك وأعزُّ لك من أن تفعَل ثمّ تعتذر وإن كنتَ صادقاً.

ومِن حِكَم ابن المعتزّ: لا يقوم عِزُّ الغضب بذلّ الاعتذار.

وكان يقال: إيّاك أن تقومَ في مقامِ مَعْذِرة، فربَّ عذرٍ أسجَل بذنْب صاحبه.

اعتذَر رجلٌ إلى يحيى بن خالد، فقال له: ذَنْبك يستغيثُ مِن عُذْرك.

ومن كلامِهم: ما رأيت عُذْراً أشبَه بذَنْب مِن هذَا.

ومن كلامهم: أضرِبُه عَلى ذَنْبه مائةً، وأضربُهُ على عُذْره مائتين.

قال شاعرهم:

إذا كان وجهُ العُذْر ليس بواضحٍ فإنّ اطّراحَ العُذْر خيرٌ من العُذْرِ

كان النَّخَعيّ يكره أن يُعتذَر إليه ويقول: اسكُت مَعْذوراً، فإنّ المعاذيرَ يحضُرها الكَذِب.

- ٣٣٦ -

الأصل: أقَلُّ مَا يَلْزَمُكُمْ لله سُبْحَانَهُ ألّا تَسْتَعِينُوا بِنِعَمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ.

الشرح: لا شُبْهةَ أنّ من القبيح الفاحشِ أن يُنعِم المَلِك على بعضِ رَعِيّته بمالٍ وعبيدٍ وسلاحٍ، فيَجعلَ ذلك المالَ مادّةً لعِصيانه والخروج عليه، ثمّ يُحارِبه بأولئك العبيد، وبذلك السلاح بعينه.

وما أحسَنَ ما قال الصابي في رسالتِهِ إلى سُبُكْتُكِين من عِزّ الدّولة بخْتِيار: وليْت شِعري بأيّ قَدَم تَوَاقَفْنا ورايَاتُنا خافقة على رأسِك، ومماليكُنا عن يَمينِك وشمالِك، وخيلُنا موسومةٌ بأسْمائنا تحتَك، وثيابُنا مَحُوكَة في طِرازِنا على جَسَدك، وسلاحُنا المَشْحوذُ لأعدائِنا في يَدِك!

- ٣٣٧ -

الأصل: إنَّ الله سُبْحَانَهُ جَعَلَ الطَّاعَةَ غَنِيمَةَ الأكْيَاسِ عنْدَ تَفْرِيطِ العَجَزَةِ.

الشرح: الأكياس: العُقَلاء أولو الألباب.

قال عليه السلام: جعلَ الله طاعَته غنيمةَ هؤلاء، إذا فَرّط فيها العَجَزة المَخْذلون من النّاس، كصَيْدٍ استذفَ لرَجُلين: أحدُهما جَلْد والآخَر عاجز، فقَعَد عنه العاجز لعَجزه وحِرْمانه، واقتَنصه الجَلْد لشَهامتِهِ وقوّة جدّه[1].

– ٣٣٨ –

الأصل: السُّلْطَانُ وَزَعَةُ الله فِي أَرْضِهِ.

الشرح: الوازعُ عن الشيء: الكافُّ عنه، والمانعُ منه، والجمع وَزَعة، مِثل قاتِل وقَتَلة. وقد قيل هذا المَعنَى كثيراً، قالوا: لا بدّ للنّاس مِن وَزَعَة.

وقيل: ما يَزَع الله عن الدين بالسّلطان أكثرُ ممّا يَزَع عنه بالقرآن. وتُنسَب هذه اللّفظة إلى عُثمان بنِ عفّان.

قال الشاعر:

لا يَصلُح الناسُ فَوضَى لا سَرَاةَ لهمْ ولا سَراةَ إذا جُهّالُهمْ سادُوا

وكان يقال: السّلطان القاهر وإن كان ظالماً خيرٌ للرّعيّة وللملك من السّلطان الضعيف وإن كان عادِلاً.

وقال الله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[2].

قالوا في تفسيره: أراد السلطان.

– ٣٣٩ –

الأصل: وقال عليه السلام في صفة المؤمن: بِشْرُهُ فِي وَجْهِهِ، وَحُزْنُهُ فِي قَلْبِهِ. أَوْسَعُ شَيْءٍ صَدْراً، وَأَذَلُّ شَيْءٍ نَفْساً. يَكْرَهُ الرِّفْعَةَ، وَيَشْنَأُ السُّمْعَةَ. طَوِيلٌ غَمُّهُ، بَعِيدٌ هَمُّهُ، كَثِيرٌ صَمْتُهُ،

(١) في ديوانه: ١٠ (ضمن مجموعة الطرائف الأدبية).
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

مَشْغُولٌ وَقْتُهُ، شَكُورٌ صَبُورٌ، مَغْمُورٌ بِفِكْرَتِهِ، ضَنِينٌ بِخَلَّتِهِ، سَهْلُ الخَلِيقَةِ، لَيِّنُ العَرِيكَةِ، نَفْسُهُ أَصْلَبُ مِنَ الصَّلْدِ، وَهُوَ أَذَلُّ مِنَ العَبْدِ.

الشرح: هذه صفاتُ العارفين، وقد تقدّم كثيرٌ من القول في ذلك.

وكان يقال: البِشر عُنوان النّجاح، والأمْر الذي يختصّ به العارفُ أن يكونَ بِشْرُه في وَجْهه وهو حزين وحُزْنُه في قلبه، وإلّا فالبِشْر قد يوجَد في كثيرٍ من الناس.

ثمّ ذكر أنّه أوسَع الناس صَدْراً، وأذلّهم نَفْساً، وأنه يَكرَه الرّفعة والصّيت.

وجاء في الخَبَر في وصفهم: «كلّ خاملٍ نُومَة».

وطولُ الغَمّ وبُعد الهمّ من صِفاتهم، وكذلك كَثرةُ الصّمت وشَغْل الوَقْت بالذّكر والعِبادة، وكذلك الشّكر والصّبر والاستغراق في الفِكْر وتدبُّر آياتِ الله تعالى في خَلْقه، والضَنّ بالخلّة وقلّة المخالطة والتوفّر على العُزْلة وحُسْن الخُلُق ولِين الجانب، وأن يكون قَوِيّ النفس جدًا، مع ذُلّ لِلناس وتَواضُع بينهم، وهذه الأمور كلُّها قد أتى عليها الشّرح فيما تقدّم.

— ٣٤٠ —

الأصل: الغِنَى الأَكْبَرُ اليَأْسُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ.

الشرح: هذه الكلمة قد رُويتْ مرفوعةً، وقد تقدّم القولُ في الطّمع وذَمّه، واليأسِ ومَدْحِه.

وفي الحديث المرفوع: «ازْهَدْ في النّاس يُحبّك الله، وازْهَدْ فيما في أيدِي الناسِ يُحبّك الناس»[1].

ومن كلامِ بعضِهم: ما أكلتُ طعامَ واحدٍ إلّا هُنتُ عليه. وكان يقال: نَعُوذُ بالله من طَمَعٍ يُدْني إلى طَبَع.

وقال الشاعر:

أرَحْتُ رُوحي من عَذابِ المِلاحْ ... لِلياسِ روح مِثل روح النَّجاحْ

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٧٨٧٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٥٩٧٢)، والشهاب في «مسنده» (٦٤٣).

وقال بعضُ الأدباء: هذا المعنى الّذي قد أطنَبَ فيه الناسُ ليس كما يزعمونه، لَعمْري إنّ لليأس راحة، ولكن لا كَراحةِ النّجاح، وما هوَ إلّا كقَولِ مَن قال: لا أدرِي نِصفُ العِلم، فقيل له: ولكنّه النّصف الّذي لا يَنفَع!

وقال ابن الفضل:

لا أمـدَحُ الـيـأسَ ولـكـنّـه ... أرْوَحُ لـلـقَـلْـب مِـن الـمَـطـمَـعِ
أفـلـحَ مـن أبـصـر رَوْضَ الـمُـنَـى ... يُـرْعَـى فـلَـم يَـرْعَ ولـم يَـرْتَـعِ

وممّا يُروَى لعبد الله بن المُبارَك الزاهد:

قـد أرخـنـا واسـتَـرَحـنـا ... مِـن غَـدُوٍّ وَرواحِ
واتّـصـالٍ بـأمـيـرٍ ... ووزيـرٍ ذي سَـمَـاحِ
بـعَـفـافٍ وكَـفـافٍ ... وقُـنـوعٍ وصَـلاحِ
وجَـعـلْـنـا الـيـأسَ مِـفْـتـا ... حـاً لأبـوابِ الـنّـجـاحِ

- ٣٤١ -

الأصل: المَسْؤول حُرٌّ حَتَّى يَعِد.

بعض ما قيل في الوعد والمطل

الشرح: قد سَبَقَ القولُ في الوَعد والمَطْل. ونحن نذكر هاهنا نُكَتاً أخرى: في الحديث المرفوع: «مَن وَعَدَ وَعْداً فكأنما عَهِد عَهْداً»[١].

وكان يقال: الوعدُ دَيْن الكِرام. والمَطْل دَيْن اللّئام.

وكان يقال: الوعد شَبَكة من شِباك الأحرار يتصيّدون بها المَحامِد.

وقال بعضُهم: الوعد مرض المعروف، والإنْجاز بُرْؤه.

وقال يحيى بنُ خالد: الوعد سَحاب، والإنجاز مَطَرُه.

وفي الحديث المرفوع «عِدَة المؤمن عطيّة»[٢].

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٤/ ٣٧٨).
(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وروى الديلمي في «مسنده» (٤١١٢): «عدة المؤمن دين».

وعنه عليه السلام: «لا تُواعِد أخاك موعداً لتُخلِفَه»[1].

وقال يحيى بن خالد لبنيه: يا بَنِيّ، كونوا أُسْداً في الأقوال، نُجّازاً في الأفعال، ولا تَعِدُوا إلّا وتُنجزوا، فإنّ الحُرّ يثق بوعْد الكَرِيم، وربما أدّان عليه.

وكان جعفرُ بنُ يَحيى يَكْره الوَعْد ويقول: الوعد من العاجز، فأمّا القادر فالنَّقْد.

وفي الحديث المرفوع: «مَطْل الغَنِيّ ظُلْم»[2].

وقال ابن الفضل:

أثْرَوْا ولم يَقْضوا دُيونَ غَريمِهِمْ ... واللّؤمُ كلُّ اللّؤم مَطلُ المُوسِرِ

وقال الآخر:

إذا أتَت العَطيّةُ بعدَ مَطْلٍ ... فلا كانتْ وإن كانتْ سَنِيّهْ

وكان يقال: المَطْل يَسُدّ على صاحِبه بابَ العُذْر، ويوجِب عليه الأحْسَن والأكْثر، والتّعجيل يُحسِّن سيّئه، ويبسُط عُذْرَه في التّقليل.

وقال يحيى بن خالد لبَنيه: يا بَني لا تمطُلوا مَعروفكم، فإن كثير العَطاء بعدَ المَطْل قليل، وعجّلوا فإنّ عُذْرَكم مقبول مع التعجيل.

ومن كلام الحَسَن بن سَهْل: المَطْل يُذهِب رَوْنَق البِرّ، ويكدِّر صَفْوَ المعروف، ويُحبِط أجر الصَّدَقة، ويَعقِل اللّسان عن الشكر. وللتعجيل حلاوة وإن قلّت العارفة، ولذّةٌ وإن صَغُرت الصَّنِيعة، وربمَا عَرَض ما يَمنَع الإنْجازَ مِن تعذُّرِ الإمكان، وتغيُّر الزمان، فبادر المُكْنَة، وعاجِل القُدْرة، وانتهز الفُرْصة.

وقال الشاعر:

تُحِيلُ على الفَراغ قَضاء شُغْلِي ... وأنتَ إذا فَرَغْتَ تكونُ مِثْلي

فلا أُدعَى بخادِمِك المُرَجَّى ... ولا تُدْعَى بسَيِّدِنا الأجَلّ

وقال آخر:

لو عَلم الماطلُ أنّ المِطالْ ... فَقْدٌ به يذهب طَعْم النَّوالْ

وأنّ أعْلى البِرّ ما نالَه ... طالبُه نَقْداً عَقِيبَ السؤالْ

---

(١) أخرجه ابن سلامة في مسند الشهاب رقم: ٩٣٦.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الحوالات، باب: الحوالة وهل يرجع في الحوالة (٢٢٨٧)، ومسلم، كتاب: المساقاة، باب: تحريم مطل الغني وصحة الحوالة (١٥٦٤).

عَجِّلْ لِلسائِلِ معروفَه مهنَّأً من طُولِ قيلٍ وقالْ

- ٣٤٢ -

الأصل: لو رَأى العَبْدُ الأجَلَ ومَصِيرَهُ، لأبْغَضَ الأمَلَ وغُرُورَهُ.

الشرح: قد تقدّم من الكلام في الأمل ما فيه كفاية.

وكان يقال: واعجباً لصاحِبِ الأمَلِ الطّويل! وربما يكون كَفَنُهُ في يد النّسّاج وهو لا يَعلم.

- ٣٤٣ -

الأصل: لِكُلِّ امْرِىءٍ في مالِهِ شَرِيكَانِ: الوَارِثُ والحوَادِثُ.

الشرح: أخَذه الرَّضيُّ فقال:

خُذْ من تُراثِك ما استطعتَ فإنما شُركاؤك الأيامُ والورّاثُ
لم يقضِ حقَّ المالِ إلا مَعشَرٌ نظروا الزمانَ يعيثُ فيه فعاثُوا

وقد قال عليه السلام في موضعٍ آخَر: بَشِّرْ مالَ البخيل بحادِثٍ أو وارث.

ورأيتُ بخطّ ابن الخَشاب رحمه الله على ظهر كِتاب «العَبدِ اللّه بن أحمد بن أحمد بن أحمد ثمّ لحادِثٍ أو وارث»، كأنّه يَعني ضَنَّه به، أي لا أُخرِجه عن يَدِي اختياراً.

- ٣٤٤ -

الأصل: الدَّاعِي بلا عَمل، كالرَّامِي بلا وَتَرٍ.

الشرح: مَنْ خَلا من العَمَل فقد أخَلّ بالواجبات، ومن أخَلّ بالواجبات فقد فَسَق، والله تعالى لا يَقبل دُعَاءَ الفاسق.

وشَبَّهه عليه السلام بالرّامي بلا وَتر، فإن سهمَه لا يَنفذ.

- ٣٤٥ -

الأصل: الْعِلْمُ عِلْمَانِ: مَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعٌ، وَلا يَنْفَعُ الْمَسْمُوعُ، إِذَا لَمْ يَكُنِ الْمَطْبُوعُ.

الشرح: هذه قاعدةٌ كلّيّة مذكورةٌ في الكتب الحكمية، إن العلومَ منها ما هو غَرِيزيّ، ومنها ما هو تكْليفي، ثمّ كلُّ واحدٍ من القِسْمين يَختلِف بالأشدّ والأضعف، أما الأوّل فقد يكون في الناس من لا يحتاج في النّظر إلى ترتيب المقدّمات، بل تَنْساق النتيجةُ النظريّة إليه سَوْقاً من غير احتياج منه إلى التأمّل والتدبر، وقد يكون فيهم مَنْ هُو دونَ ذلك، وقد يكونُ من هُو دُون الدُّون، وأما الثاني فقد يكون في الناس من لا يُجدي فيه التعليم، بل يكونُ كالصّخرة الجامدةِ بلادةً وغباوةً، ومنهم من يكون أقلّ تبلُّداً وجُنوحَ ذهْن من ذلك، ومنهم مَنْ يكون الوقْفة عندَه أقلّ، فيكون ذا حالٍ متوسّطة، وبالجملة فاسْتِقراء أحوالِ النّاس يَشْهد بصحّة ذلك.

وقال عليه السلام: ليس يَنفَع المسموعُ، إذا لم يكن المطبوع، يقول: إذا لم يكن هناك أحوالُ استعدادٍ لم ينفَع الدّرْس والتّكرار، وقد شاهدْنا مِثلَ هذا في حَقّ أشخاصٍ كثيرة اشتَغلوا بالعلم الدّهْر الأطولَ، فلم ينجَعْ معهم العِلاج، فارقوا الدّنيا وهم على الغرِيزة الأولى في الساذجية وعَدَم الفَهْم.

- ٣٤٦ -

الأصل: صَوَابُ الرَّأْيِ بالدُّوَلِ يُقْبِلُ بِإِقْبالِهَا، وَيُدْبِرُ بِإِدْبَارِهَا.

الشرح: قال الصُّوليُّ: اجتَمع بنو برْمَك عند يحيى بن خالد في آخِر دَوْلتهم وهم يومئذ عشرة، فأداروا بينهم الرأيَ في أمرٍ فلم يصلُحْ لهم، فقال يحيى: إنا لله! ذهبتْ والله دولتُنا! كنّا في إقبالنا يُبرِم الواحدُ منّا عَشرة آراء مُشكلة في وقت واحد، واليومَ نحنُ عَشرة في أمرٍ غيرِ مُشكل، ولا يَصِحّ لنا فيه رَأْي! اللّهَ نسأل حُسنَ الخاتمة.

أرسَل المنصورُ لمّا هاضَه أمرُ إبراهيمَ إلى عمّه عبدِ اللّه بن عليّ وهو في السّجن يَستشيرُه ما

يصنَع! وكان إبراهيمُ قد ظهر بالبَصْرة، فقال عبد اللّه: أنا مَحْبوس، والمحْبوس مَحْبوس الرأي، قال له: فَعَلَى ذاك؟ قال يُفرِّق الأموال كلَّها على الرجال ويَلقاه، فإن ظَفِر فَذاك، وإلا يتوجّه إلى أبيه محمد بجُرْجَان، ويَتركه يَقدُم على بُيوتِ أموال فارغة، فهو خيرٌ له من أن تكون الدّبَرة عليه، ويقدم عدوّه على بيوت أموال مملوءة.

قال سليمانُ بنُ عبد الملك ليزيد بن أبي مُسْلم صاحِب شُرْطة الحجّاج يوماً: لعن الله رجُلاً أجَرّك رَسَنَه، وخَرّب لك آخرته. قال: يا أمير المؤمنين، رأيتَني والأمرُ عنّي مُدبر ولو رأيتني والأمر عليَّ مُقبِل لاستكبرْتَ مني ما استَصْغَرْتَ، ولاستَعْظمت مني ما استحْقَرْتَ.

- ٣٤٧ -

الأصل: العَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ، والشُّكرُ زِينَةُ الْغِنَى.

الشرح: قد سَبَقَ القولُ في أنّ الأجْمَل بالفقير أن يكون عفيفاً، وألّا يكون جَشِعاً حَريصاً، ولا جادًّا في الطّلب متهالِكاً، وأنّه ينبغي أنه إذا افتقر أن يتيه على الوَقْت وأبناءِ الوقْت، فإنّ التِّيه في مِثل ذلك المَقامِ لا بأسَ به، ليَبْعُد جدًّا عن مظِنّة الحِرْص والطّمع.

وقد سبق أيضاً القولُ في الشّكر عند النعمة ووجوبه، وأنّه سبب لاسْتِدامَتِها، وأن الإخلالَ به داعيةٌ إلى زَوالها وانتقالِها، وذكَرْنا في هذا الباب أموراً مستحسنَة، فلتراجَع، وقال عبدُ الصّمد بنُ المعذّل في العفَاف:

سأقني العَفافَ وأرضَى الكَفافَ	وليس غِنى النفس حوْزُ الجزيلِ
ولا أتصدّى لشُكْر الجَوادِ	ولا أستَعدّ لذمّ البَخيلِ
وأعلَمُ أن بناتِ الرّجاءِ	تُحلُّ العزيزَ مَحلَّ الذّليلِ
وأنْ ليس مستغنِياً بالكثيـ	ـر مَن ليس مستغنياً بالقليلِ

- ٣٤٨ -

الأصل: يَوْمُ العَدْلِ عَلَى الظّالِمِ، أشدُّ مِنْ يَوْمِ الْجَوْرِ على المَظْلُومِ.

الشرح: شيئان مُولمان: أحدُهما يَنقضي سريعاً، والآخر يَدُوم أبداً، فلا جَرم، كان اليومُ المذكور على الظّالم، أشدّ من يَوْم الجور على المظلوم.

- ٣٤٩ -

الأصل: الأقاويلُ مَحفُوظَةٌ، والسَّرَائِرُ مَبلُوَّةٌ و﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[1]. والنَّاسُ مَنْقُوصُونَ مَدْخُولُونَ إِلّا مَنْ عَصَمَ الله، سائِلُهُمْ مُتَعَنِّتٌ، وَمُجِيبُهُمْ مُتَكَلِّفٌ، يَكَادُ أَفْضَلُهُمْ رَأياً يَرُدُّهُ عَنْ فَضْلِ رَأْيِهِ الرِّضَا والسُّخْطُ، ويَكَادُ أَصْلَبُهُمْ عُوداً تَنْكَؤُهُ اللَّحْظَةُ، وَتَسْتَحِيلُهُ الكَلِمَةُ الْوَاحِدَةُ.

الشرح: السرائر هاهنا: ما أُسِرَّ في القلوب من النيّات والعقائد وغيرها، وما يخفَى من أعمال الجوارح أيضاً. وبلاؤها: تعرُّفها وتصفُّحها، والتميز بين ما طابَ منها وما خَبُثَ.

وقال عمر بنُ عبد العزيز للأحوص لمّا قال:

سَتَبْلَى لها في مُضمَر القلب والحشا ... سريرةُ حُبٍّ يومَ تُبلَى السّرائرُ

إنّك يومئذٍ عنها لمشغول.

ذكَر عليه السلام الناسَ فقال: قد عمّهم النّقص إلّا المعصومين. ثم قال: سائلُهم يَسألُ تَعنُّتاً، والسّؤال على هذا الوجه مَذموم، ومجيبُهم متكلِّف للجَواب، وأفضلُهم رأياً يكاد رِضاهُ تارةً وسُخطه أخرى يَرُدُّهُ عن فضل رأيه، أي يتبِعون الهوى ويكاد أصلبُهم عوداً، أي أشدّهم احتمالاً.

تنكؤه اللّحظة، نكأتُ القَرحة إذا صَدَمْتَها بشيءٍ فتقشِرها.

قال: «وتَستحيله الكلمةُ الواحدة»، أي تحيله وتغيِّره عن مُقتضى طبِعه، يَصِفهم بسرعة التقلّب والتلوّن، وأنّهم مُطيعون دواعِيَ الشّهوةِ والغَضَب. واستَفعَل بمعنى «فَعَل» قد جاء كثيراً استَغْلَظ العسل، أي غَلُظ.

(١) سورة المدثر، الآية: ٣٨.

- ٣٥٠ -

الأصل: قالَ: مَعَاشِرَ النَّاسِ، اتَّقُوا الله، فَكَمْ مِنْ مُؤَمِّلٍ ما لا يَبْلُغُهُ، وَبَانٍ ما لا يَسْكُنُهُ، وجامِعٍ مَا سَوْفَ يَتْرُكُهُ، وَلَعَلَّهُ مِنْ باطِلٍ جَمَعَهُ، وَمِنْ حَقٍّ مَنَعَهُ، أَصَابَهُ حَرَاماً، وَاحْتَمَلَ بِهِ آثاماً، فَبَاءَ بِوِزْرِهِ، وقَدِمَ عَلَى رَبِّهِ، آسِفاً لاهِفاً، قد ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾(١).

الشرح: قد تقدّم شرحُ هذه المعاني والكلامُ عليها، أمّا الآمال الّتي لا تُبلَغ، فأكثر من أن تُحصَى، بل لا نهايةَ لها.

وما أحسنَ قولَ القائل:

واحسرتَا مَاتَ حَظّي من وصالِكُمُ ... ولِلحظُوظِ كما للنّاس آجالُ

إنْ متّ شَوْقاً ولم أبلُغْ مَدَى أملِي ... كم تحتَ هذِي القبورِ الخرْس آمالُ!

وأمّا بناء ما لا يُسْكَن، فنحو ذلك.

وقال الشاعر:

ألم تر حَوْشَباً بالأمْسِ يَبْنِي ... بناءً نَفعُه لبني نُفيْلَة

يؤمّل أن يُعمَّر عمر نوحٍ ... وأمرُ الله يَطرُق كلّ ليلَة

وأمّا جامعُ ما سوفَ يَتركه، فأكثرُ الناس، قال الشاعر:

وذِي إبلٍ يَسعَى ويَحسَبها له ... أخو تَعَبٍ في رَعْيها ودؤوبِ

غَدَتْ وغَدَا رَبٌّ سِوَاه يسُوقُها ... وبُدِّل أحجاراً وجَالَ قليبِ

- ٣٥١ -

الأصل: مِنَ العِصْمة تَعَذُّرُ المعَاصِي.

(١) سورة الحج، الآية: ١١.

الشرح: قد وردتْ هذه الكلمة على صِيغ مختلفة. من العِصْمة ألّا تقدر. وأيضاً، من العِصْمة ألّا تجد.

وقد رُوِيتْ مرفوعةً أيضاً.

وليس المرادُ بالعِصْمة هاهنا العِصْمةَ الَّتي ذكرها المتكلّمون، لأنّ العصمة عند المتكلمين من شرطها القُدْرة، وحقيقتها راجعة إلى لُطْفٍ يمنَع القادِرَ على المَعْصية من المعصية، وإنّما المراد أنّ غيرَ القادِرِ في اندفاع العقوبة عنه كالقادِرِ الذي لا يفعَل.

- ٣٥٢ -

الأصل: ماءُ وجْهِكَ جامِدٌ يُقْطِرُهُ السُّؤالُ، فانْظُرْ عِنْدَ مَنْ تُقْطِرُهُ.

الشرح: هذا حَسَن، وقد أخَذَه شاعرٌ فقال:

إذا أظـمَـأتـك أكُـفُّ الـلِّـئـامِ ... كـفَـتْـك الـقَـنـاعـةُ شِـبْـعـاً وريّا

فـكُـنْ رَجُـلاً رِجْـلُـه فـي الـثَّـرى ... وهـامَـةُ هِـمّـتِـه فـي الـثُّـرَيّـا

فـإنّ إراقـةَ مـاءِ الـحـيـا ... ةِ دونَ إراقـةِ مـاءِ الـمـحـيّـا

وقال آخرُ:

رددتَ لي ماءَ وجهي في صفيحَتِه ... ردَّ الصِّقال بَهاءِ الصَّارم الجذمِ

ومـا أبـالِـي وخـيـرُ الـقـول أصـدَقـه ... حقَنت لي ماءَ وجْهي أو حَقَنْتَ دَمي

وقال مصعب بنُ الزّبير: إني لأستحيي من رجل وجّه إليّ رغبَته، فباتَ ليلَته يتَمَلْمَل ويتقَلْقَل على فِراشه، يَنتظِر الصّبح، قد جَعلني أهْلاً لأن يقطر ماء وجهه لديّ أن أردّه خائباً.

وقال آخر:

مـا مـاءُ كـفَّـيْـك إن أرسـلـت مُـزْنـتَـه ... من ماءِ وَجْهِي إذا استقْطرْته عِوضُ

- ٣٥٣ -

الأصل: الثّناءُ بِأكْثَر مِنَ الاسْتِحْقَاقِ مَلَقٌ، والتَّقْصِيرُ عَنِ الاسْتِحْقاقِ عِيٌّ أوْ حَسَدٌ.

الشرح: كانوا يَكرَهون أن يُثنِيَ الشاعرُ في شِعره على الممدوح الثَّناء المُفرط، ويقولون: خيرُ المَدْح ما قارَبَ فيه الشاعر واقتَصَد، وهذا هو المذهَب الصّحيح، وإن كان قوم يقولون: إن خيرَ الشِّعر المنظومِ في المدْح ما كان أشدّ مُغالاة وأكثر تَبجيلاً وتعظيماً ووَصْفاً ونَعْتاً.

وينبغي أن يكون قوله عليه السلام محمولاً على الثّناء في وجهِ الإنسان؛ لأنّه هو الموصوف بالمَلق إذا أفرط، فأمّا من يُثني بظَهْر الغَيْب فلا يُوصَف ثناؤه بالمَلق، سواءٌ كان مُقتصِداً أو مسرِفاً.

وقوله عليه السلام: «والتقصير عن الاستحقاق عيٌّ أو حَسَد» لا مزيد عليه في الحُسنِ، لأنه إذا قصّر به عن استِحقاقه كان المانع إمّا من جانب المُثني فقط من غير تعلّق له بالمثنى عليه، أو مع تعلّق به، فالأوّل هو العِيّ والحَصر، والثاني هو الحسد والمنافسة.

- ٣٥٤ -

الأصل: أشَدُّ الذُّنُوب مما اسْتَهَانَ بِهِ صاحبُها.

الشرح: قد ذكرْنا هذا فيما تقدّم وذكرنا العِلّة فيه، وهي أنّ فاعلَ ذلك الذَّنْب قد جَمَعَ بين فعْل الذنب وفِعْل ذَنْب آخَرَ، وهو الاستهانة بما لا يُستهان به؛ لأنّ المَعاصِي لاهين فيها، والصغير منها كَبير، والحقيرُ منها عظيم، وذلك لجلالةِ شأن المعْصيّ سبحانَه.

فأمّا من يذنِب ويَستعظم ما أتاه، فحاله أخفّ من حالِ الأوّل، لأنه يكاد يكون نادماً.

- ٣٥٥ -

الأصل: مَنْ نَظَرَ فِي عَيْبِ نَفْسِهِ اشْتَغَلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ، وَمَنْ رَضِيَ بِرِزْقِ الله لَمْ يَحْزَنْ عَلَى ما فَاتَهُ، وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ، وَمَنْ كَابَدَ الأُمُورَ عَطِبَ، وَمَنْ اقْتَحَمَ اللُّجَجَ غَرِقَ، وَمَنْ دَخَل مَدَاخِلَ السُّوءِ اتهِمَ. وَمَنْ كَثُرَ كَلامُهُ كَثُرَ خَطَؤُهُ، وَمَنْ كَثُرَ خَطَؤُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ ماتَ قَلْبُهُ، ومن ماتَ قَلْبُهُ دَخَلَ النَّارَ. وَمَنْ نَظَرَ فِي عُيُوبِ غَيرِهِ فَأَنْكَرَهَا ثُمَّ رَضِيَهَا لِنَفْسِهِ فَذَلِكَ الأَحْمَقُ بعَيْنِهِ.

وَالْقَنَاعَةُ مَالٌ لا يَنْفَدُ. وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا باليَسِير. وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ كَلامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلامُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ.

الشرح: كلُّ هذه الفصول قد تقدم الكلامُ فيها وهي عَشَرة:

أولها: من نظَر في عَيْب نفسِه اشتغَل عن عيبِ غيرِه، كان يقال: أصلِح نفسَك أوّلاً، ثمّ أصلِح غيرَك.

وثانيها: من رضيَ برزق الله لم يَحزَن على ما فاته، كان يقال: الحُزْن على المنافع الدنيويّة سُمٌّ تِرْياقُه الرِّضا بالقَضاء.

وثالثها: من سَلَّ سيفَ البَغْيِ قُتِل به، كان يقال: الباغي مَصْروع وإن كثُرَ جنودُه.

ورابعُها: مَن كابَدَ الأمورَ عَطِب، ومن اقْتَحَمَ اللُّجَجَ غَرِق، مِثل هذا قولُ القائل:

مَـن حـارَبَ الأيّـامَ أصـبَـحَ رُمْـحُـه ... قِـصَـداً وأصـبـحَ سـيـفُـه مَـفْـلـولا

وخامسُها: من دخل مَداخِلَ السّوء اتُّهِم، هذا مثل قولِهم: من عَرَّض نفسَه للشُّبُهات فلا يلومَنّ مَن أساءَ به الظّنّ.

وسادسُها: مَن كثُر كلامُه... إلى قوله: دَخَل النار، قد تقدّم القولُ في المَنطِق الزائد وما فيه من المحذور، وكان يقال: قلَّما سَلِم مِكْثار، أو أَمِن مِنْ عِثار.

وسابعُها: مَن نَظَر في عُيوب غيرِه فأنكَرها ثمّ رضيَها لنفسِه فذاكَ هو الأحمقُ بعَيْنِه، وكان يقال: أجهَلُ الناس من يَرضَى لنفسِه بما يَسخَطُه مِن غيرِه.

وثامنها: القَناعة مالٌ لا يَنفَد، قد سَبَق القولُ في هذا، وسيأتي أيضاً.

وتاسعُها: من ذَكَر الموتَ رضيَ من الدّنيا باليسير، كان يقال: إذا أحببتَ ألّا تحسُد أحَداً فأكْثِر ذكرَ الموت، واعلمْ أنّك ومَن تَحسُده عن قليل مِن عَدِيد الهَلْكَى.

وعاشِرُها: من عَلِم أنّ كلامَه مِن عَملِه قلّ كلامُه إلّا فيما يَعنيه، لا رَيْبَ أنّ الكلامَ عَمَلٌ من الأعمال، وفِعلٌ من الأفعال، فكما يُستهجَن من الإنسان ألّا يزال يُحرّك يدَه وإن كان عابثاً، كذلك يُستهجَن ألّا يزال يُحرّك لسانَه فيما هو عَبَث، أو يَجرِي مَجرَى العَبَث.

وقال الشاعر:

يَـخـوضُ أنـاسٌ فـي الـكـلام لـيُـوجِـزوا ... ولَـلـصَّـمـتُ فـي بـعـض الأحـايـيـنِ أوْجَزُ

إذا كنتَ عن أن تُحسِن الصَّمتَ عاجزاً ... فـأنـت عـن الإبـلاغِ فـي الـقـولِ أعـجَـزُ

- ٣٥٦ -

الأصل: لِلظَّالِمِ مِنَ الرِّجالِ ثَلاثُ عَلامَاتٍ:

يَظْلِمُ مَنْ فَوْقَهُ بِالْمَعْصِيَةِ، وَمَنْ دُونَهُ بِالْغَلَبَةِ، وَيُظَاهِرُ الْقَوْمَ الظَّلَمَةَ.

الشرح: يمكِن أن يفسَّر هذا الكلامُ على وجهين:

أحدُهما: أنّ كلَّ من وُجِدَت فيه إحدى هذه الثلاث فهوَ ظالم، إما أن يكون قد وجبتْ عليه طاعةُ مَن فوقَه فعصاهَ، فهو بعصيانه ظالم له، لأنّه قد وضعه في غير موضعه، والظُّلم في أصل اللغة، هو هذا المعنى، ولذلك سمَّوا اللَّبَن يُشرَب قبل أن يَبلُغ الرَّوْب مظلوماً، لأنّ الشّرب منه كان في غيرِ موضعِه إذا لم يَرُب ولم يَخْرج زُبْدُه، فكذلك من عَصَى مَن فوقَه فقد زَحزَحه عن مَقامه إذ لم يُطِعه. وإمّا أن يكون قد قهر مَن دُونَه وغلبَه. وإما أن يكون قد ظاهَر الظَّلَمة.

والوجه الثاني: أنّ كلّ ظالم فلا بدّ من اجتماع هذه العلامات الثلاثِ فيه، وهذا هو الأظهر.

- ٣٥٧ -

الأصل: عِنْدَ تَنَاهِي الشِّدَّةِ تَكُونُ الفَرْجَةُ، وَعِنْدَ تَضَايُقِ حَلَقِ البَلاءِ يَكُونُ الرَّخَاءُ.

الشرح: كان يقال: إذا اشتدّ المَضِيق، اتّسعَتْ الطريق، وكان يقال: توقَّعوا الفَرَج عند ارتتاج المَخرَج، وقال الشاعر:

إذا بَلَغ الحوادثُ مُنتهاها ... فَرَجٌ بُعَيْدَها الفرجَ المُطِلّا

فكَمْ كربٍ تَولّى إذ تَوالَى ... وكم خَطْب تجلّى حين جلّى

وفي الأثر: تَضَايَقِي تَنْفرجِي، سيَجعل الله بعدَ العُسر يُسْراً.

والفَرْجَة بفتح الفاء: التفصّي من الهمّ، قال الشاعر:

ربّما تَجزَع النفوسُ من الأمـ ... ـرِ له فَرْجَةٌ كحلّ العِقال

فأمّا الفُرْجة بالضّم، ففُرْجة الحائط وما أشبَهَه.

- ٣٥٨ -

الأصل: وقالَ عليه السلام لِبَعْضِ أصْحابه: لا تَجْعَلَنَّ أكْثَرَ شُغْلِكَ بأهْلِكَ ووَلَدِكَ، فإنْ يَكُنْ أهْلُكَ ووَلَدُكَ أوْلِياءَ الله فإنّ الله لا يُضَيِّعُ أوْلياءَهُ، وإنْ يكُونوا أعْدَاءَ الله فما هَمُّكَ وشُغْلُكَ بأعْداءِ الله!

الشرح: قد تقدّم القولُ نحوَ هذا المعنى، وهو أمر بالتّفويض والتوكُّل على الله تعالى فيمن يَخلُفه الإنسانُ مِن وَلده وأهله، فإن الله تعالى أعلم بالمصلحة، وأرأف بالإنسان من أبيه وامّه، ثم إن كان الوَلَد في عِلم الله تعالى وليّاً من أولياء الله سبحانه، فإنّ الله تعالى لا يضيّعه، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1].

وكلُّ وليّ لله فهو متوكّل عليه لا محالَة، وإن كان عدوًّا لله لم يَجُز الاهتمامُ له والاعتناء بأمره، لأنّ أعداءَ الله تجب مُقاطعتهم، ويَحرُم تولّيهم، فعلى كلّ حال لا ينبغي للإنسان أن يَحفِل بأهله وولدِه بعد موتِه.

واعلم أن هذا كلامُ العارفين الصّدّيقين، لا كلامُ أهل هذه الطبقات التي نَعرِفها، فإن هذه الطبقات تقصُر أقدامُهم عن الوصول إلى هذا المقام.

ويعجبني قولُ الشاعر:

أيـا جـامـعَ الـمـالِ وَفِّـرْتَـهُ ... لـغـيـرك إذْ لـم تـكـن خـالـدا
فـإن قـلـتَ: أجـمـعُـه لـلـبَـنِـيـن ... فـقـد يَـسـبِـق الـوَلَـدُ الـوالـدا
وإن قـلـت أخـشـى صـروف الـزمـان ... فـكـن مِـن تـصـاريـفـه واحـدا

- ٣٥٩ -

الأصل: أكْبَرُ العَيْبِ أنْ تَعِيبَ مَا فِيكَ مِثْلُهُ.

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.

الشرح: قد تقدَّم هذا المعنى مِراراً.

وقال الشاعر:

إذا أنت عِبْتَ الأمر ثم أتيتَه   فأنت ومَن تُزْرِي عليه سَواءُ .

- ٣٦٠ -

الأصل: وهَنَّأ بِحضْرَتِهِ رَجُلٌ رَجلاً آخر بِغُلامٍ وُلِدَ لَهُ فقَالَ لَهُ: لِيَهْنِئْكَ الفارِسُ! فقالَ عليه السلام: لا تَقُلْ ذَلِكَ، ولَكِنْ قل: شَكَرْت الوَاهِبَ، وبُورِكَ لَكَ في المَوْهُوبِ، وبَلَغَ أَشُدَّهُ، ورُزِقْتَ بِرَّهُ.

الشرح: هذه كلمة كانت من شِعار الجاهلية، فنُهِيَ عنها كما نُهِيَ عن تحيّة الجاهلية: «أَبَيْتَ اللّعن»، وجُعِل عِوضَها «سلامٌ عليكم».

وقال رجلٌ للحَسَن البَصْري وقد بَشّره بغلام: لِيَهْنِئك الفارسُ! فقال: بل الراجل، ثم قال: لا مرحباً بمن إنْ عاش كدَّني، وإن مات هدَّني، وإن كنتُ مُقِلًّا أنصبَني، وإن كنتُ غَنِيًّا أذهَلَني، ثم لا أرضَى بسَعْيي له سَعْياً، ولا بكَدِّي عليه في الحيَاةِ كَدًّا، حتّى أُشفِق عليه بعد موتي من الفاقة، وأنا في حالٍ لا يصل إليّ من فرحِهِ سرورٌ، ولا من هَمّه حَزن.

- ٣٦١ -

الأصل: وبَنى رَجُلٌ مِن عُمَّالِهِ بِناءً فَخْماً فقالَ عليه السلام:

أَطْلَعَتِ الوَرِقُ رُؤوسها، إنَّ البِناءَ يَصِفُ لَكَ الغِنى.

الشرح: قد رُوِيتْ هذه الكلمةُ عن عمر - رضي الله عنه - ذَكر ذلك ابن قُتَيبة في «عيون الأخبار»[1].

---

(١) «عيون الأخبار»: للشيخ أبي محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة النحوي الدينوري، المتوفى سنة (٢٧٦هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١١٨٤).

ورُويَ عنه أيضاً: لي على كلّ خائنٍ أمينان: الماءُ والطين.

قال يحيى بنُ خالد لابْنه جعفر حين اختَطَّ دارَه ببَغداد ليبنيَها: هي قميصُك، فإن شئت فوسّعه، وإن شئت فضيّقه.

ورآه وهو يجصّص حيطان دارِه المبنيّة بالآجُرّ، فقال له: إنك تغطّي الذهب بالفِضة، فقال جعفر: ليس في كلّ مكان يكون الذهبُ خيراً من الفضّة، ولكن هل تَرَى عيباً؟ قال: نعم، مخالَطَتُها دُور السُّوقة.

وقيل ليزيد بن المهلَّب: ألا يَبْني الأمير داراً، فقال: منزلي دارُ الإمارة أو الحَبْس.

وكان يقال في الدار: لتَكُن أوّل ما يُبْتاع وآخِرَ ما تُبَاع.

ومرَّ رجلٌ من الخوارج بآخر من أصحابهم وهو يبني داراً فقال: من ذا الّذي يقيم كَفِيلاً.

وقالوا: كلُّ ما يخرُج بخروجِك، ويَرجع برُجوعك، كالدّار والنّخل ونحوِهما فهو كَفِيل.

- ٣٦٢ -

الأصل: وقِيلَ لهُ عليه السلام: لوْ سُدَّ على رَجُلٍ بابُ بَيْتٍ وتُرِك فِيهِ، مِنْ أيْنَ كانَ يأتِيه رِزْقُهُ؟ فقال عليه السلام: منْ حَيْثُ يأتِيهِ أجلُهُ.

الشرح: ليس يعني عليه السلام أنّ كلّ من يُسَدُّ عليه بابُ بيت، فإنه لا بدّ أن يرزقه الله تعالى، لأنّ العيان والمُشاهَدة تقتضي خلاف ذلك، وما رأينا من سُدّ عليه بابُ بيت مدّةً طويلة فعاش، ولا ريب أنّ مَنْ شَقّ أسْطوانة وجُعِل فيها حيًّا ثم بنيت الأسْطُوانة عليه فإنه يموت مختنقاً، ولا يأتيه رزقُه ولا حياتُه، ولأنّ للحكماء أن يقولوا في الفَرْق بين الموضِعين: إنّ أجَله إنما يأتيه لأنّ الأجَل عدم الحَياة، والحياةُ تَعدَم لعَدَم ما يوجبها، والذي يُوجب استمرارها الغِذاء، فلما انقطع الغِذاء حضر الأجل، فهذا هو الوجه الذي يأتيه منه أجَلُه، ولا سبيل إلى ذكر مثله في حُضور الرّزق لمن يُسَدُّ عليه الباب.

فإذاً معنى كلامه عليه السلام أنّ الله تعالى إذا علم فيمن يجعل في دارٍ ويُسَدُّ عليه بابُها أنَّ في بقاءِ حياتِه لُطفاً لبَعْض المكلّفين فإنه يجب على الله تعالى أن يُديم حياته، كما يشاء سبحانه، إما بغذاءٍ يقيم به مادة حياته، أو يديم حياتَه بغير سبب، وهذا هو الوجْه الذي منه يأتيه أجَلُه أيضاً، لأنّ إماتَةَ الله المكلَّف أمرٌ تابعٌ للمصلحة، لأنه لا بدّ من انقطاع التكليف على كلّ حال للوجه

الذي يذكُره أصحابنا في كُتُبهم، فإذا كان الموتُ تابعاً للمصلحة، وكان الإحياءُ تابعاً للمصلحة، فقد أتى الإنسانَ رِزقه - يعني حياته - من حيثُ يأتيه أجَله. وانتظَمَ الكلام.

- ٣٦٣ -

الأصل: وعَزّى قَوماً عَنْ مَيّتٍ مَاتَ لَهُمْ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ: إنَّ هَذَا الأَمْرَ لَيْسَ بِكُمْ بَدَأَ، وَلا إِلَيْكُمْ انتهى، وَقَدْ كَانَ صَاحِبُكُمْ هَذَا يُسَافِرُ؟ فَقَالُوا: نَعَم، قَالَ: فَعُدُّوهُ فِي بَعْضِ سَفَرَاتِهِ، فَإِنْ قَدِمَ عَلَيْكُمْ وَإِلَّا قَدِمْتُمْ عَلَيْهِ.

الشرح: قد ألمّ إبراهيمُ بنُ المهْديِّ ببعض هذا في شِعرِه الذي رثَى به ولدَه فقال:

يَؤُوب إلى أوطانِهِ كلُّ غائبٍ ... وأحمدُ في الغُيّاب ليسَ يؤُوبُ
تبدَّل داراً غيرَ داري وجيرةً ... سوايَ وأحداثُ الزمانِ تنوبُ
أقامَ بها مستوطِناً غيرَ أنّه ... على طُولِ أيّام المُقامِ غريبُ
وإنّي وإن قُدِّمتَ قَبْلِي لعالِمٌ ... بأنّي وإنْ أبطأتُ عنكَ قريبُ
وإنّ صباحاً نلتقِي في مَسائه ... صباحٌ إلى قلبي الغَدَاةَ حبيبُ

- ٣٦٤ -

الأصل: أيُّها النَّاسُ، لِيَرَاكُمُ الله مِنَ النِّعْمَةِ، وَجِلِينَ، كما يَرَاكُمْ مِنَ النِّقْمَةِ فَرِقِينَ. إِنَّهُ مَنْ وُسِّعَ عَلَيْهِ فِي ذات يَدِهِ، فَلَمْ يرَ ذَلِكَ اسْتِدْراجاً، فَقَدْ أَمِنَ مَخُوفاً، وَمَنْ ضُيِّقَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ، فَلَمْ يَرَ ذَلِكَ اخْتِباراً، فَقَدْ ضَيَّعَ مَأْمُولاً.

الشرح: قد تقدَّم القول في استدراج المترَف الغَنيّ، واختبار الفقير الشّقيّ، وأنه يجب على الإنسان وإن كان مشمولاً بالنّعمة أن يكون وَجِلاً، كما يَجب عليه إذا كان فقيراً أن يكون شكوراً صَبوراً.

- ٣٦٥ -

الأصل: يا أَسْرَى الرَّغْبَةِ، اقْصُرُوا، فإن المُعَرِّجَ على الدُّنْيا لا يَرُوعُهُ مِنها إلّا صَرِيفُ أَنْيَابِ الحِدْثَانِ. أَيُّهَا النَّاسُ، تَوَلَّوْا عَنْ أَنْفُسِكُمْ تَأْدِيبَهَا، واعْدِلوا بِها عَنْ ضِرَايَةِ عَادَاتِها.

الشرح: ضرَى يضرِي ضِرايةً مِثل رمى يرمِي رِماية، أي جرَى وسالَ، ذكره ابن الأعرابيّ، وعليه ينبغي أن يُحمَل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام، أي اعدِلُوا بها عن عاداتها الجارية، مِن باب إضافة الصّفة إلى الموصوف، وهذا خيرٌ من تفسير الرَّاوَنْدِيّ، وقوله: إنّه من ضَرِيَ الكلبُ بالصّيد؛ لأنّ المصدر من ذلك الضَّرَاوة بالواو وفَتْح الضاد، ولم يأت فيه ضراية.

وقوله: «يا أسرَى الرغبة» كلمةٌ فصيحةٌ.

وكذلك قوله: «لا يَرُوعه منها إلّا صَرِيفُ أنياب الحِدْثان»، وذلك لأنّ الفَهْد إذا وَثَب والذئبَ إذا حَمل يَصرِف نابه، ويقولون لكلّ خَطْب وداهية: جاءت تصرِفُ نابُها. والصَّرِيف: صوتُ الأسنان إمّا عند رِغدةٍ أو عند شِدّة الغَضَب والحَنَق، والحِرْص على الانتقام، أو نحو ذلك.

وقد تقدم الكلام في الدنيا والرغبةِ فيها، وغَدْرِها وحوادِثها، ووجوب العُدُول عنها، وكسر عادية عاداتِ السّوء المكتسبة فيها.

- ٣٦٦ -

الأصل: لا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَحَدٍ سُوءاً وأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الخَيْرِ مُحْتَمَلاً.

الشرح: هذه الكلمةُ يَرْويها كَثيرٌ مِن الناس لِعُمَر بن الخطّاب، ويَرويه بعضُهم لأمير المؤمنين عليه السلام. وكان ثُمامةُ يحدِّث بسؤْدُدِ يحيى بن خالد وابنِه جعفر. ويقول: إنّ الرشيدَ نكَب عليَّ بنَ عيسى بن ماهان وألزَمه مائة ألف دينارٍ أدّى منها خمسين ألفاً، ويلحّ بالباقي، فاقسَم الرشيدُ إنْ لم يؤدّ المالَ في بقيّة هذا اليوم وإلّا قَتَله. وكان عليّ بنُ عيسى عدُوًّا للبرامكة مكاشفاً، فلمّا عِلم انه مقتول سأل أن يمكَّن من السعي إلى الناس يَستنجِدهم، ففُسِح له في ذلك، فمَضى ومعه وكيلُ الرّشيد وأعوانُه إلى باب يحيى وجعفر، فأشْبلا عليه وصحّحا من صُلْب أموالهما

خمسين ألف دينار في باقي نهارِ ذلك اليوم بديوان الرّشيد باسم عليّ بن عيسى، واستخلصاه، فنقل بعض المتنصّحين لهما إليهما أنّ عليَّ بن عيسى قال في آخِر نهار ذلك اليوم متمثّلاً:

فـمـا بُـقْـيَـا عـلـيَّ تـركْـتُـمـانِـي ... ولـكـنْ خِـفْـتُـمـا صَـرَدَ الـنِّـبـالِ

فقال يحيى للنّاقل إليه ذلك: يا هذا إنّ المرعوب ليسبق لسانُه إلى ما لم يَخطر بقَلْبه.

وقال جعفر: ومن أين لنا أنّه تمثّل بذلك وعَنَانا، ولعلّه أراد أمراً آخر فكان ثمامة يقول: ما في الأرض أسوَدُ من رَجلٍ يتأوّل كلامَ عدوِّه فيه ويَحمِله على أحْسنِ مَحامِله.

وقال الشاعر:

إذا مـا أتـتْ مِـن صـاحِـبٍ لـك زَلّـةٌ ... فـكـنْ أنـت مُـحْـتـالاً لـزَلّـتـه عُـذْرَا

- ٣٦٧ -

الأصل: إذَا كَانَتْ لَكَ إِلَى اللهِ سُبْحانَهُ حاجَةٌ فابْدأ بِمَسْأَلَةِ الصَّلاةِ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، ثُمّ سَلْ حاجَتَكَ، فَإِنَّ اللهَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ حاجَتَيْنِ، فَيَقْضِيَ إِحْدَاهُمَا وَيَمْنَعَ الأُخْرَى.

الشرح: هذا الكلام على حَسَب الظّاهر الذي يَتَعارفهُ الناس بينَهم، وهو عليه السلام يسلُك هذا المسلَك كثيراً، ويُخاطِب الناسَ على قَدْر عُقولهم، وأمّا باطنُ الأمر فإنّ الله تعالى لا يُصلّي على النّبيّ ﷺ لأجل دُعائِنا إيّاه أن يصلّي عليه، لأنّ معنى قولنا: اللهمّ صلّ على محمد، أي أكرِمْه، وارفَعْ درجَتَه، والله سبحانه قد قضَى له بالإكرام التامّ ورِفْعَةِ الدّرجة من دُون دعائِنا، وإنما تَعبّدَنا نحن بأن نُصَلّي عليه لأنّ لنا ثواباً في ذلك، لا لأنّ إكرامَ الله تعالى له أمرٌ يَستعقبُه ويستتبِعُه دعاؤنا.

وأيضاً فأيُّ غَضاضةٍ على الكريم إذا سُئِل حاجَتَين فقَضَى إحداهما دونَ الأخرى، إنْ كان عليه في ذلك غَضاضةٌ فعليه في رَدّ الحاجة الواحدة غَضاضةٌ أيضاً.

- ٣٦٨ -

الأصل: مَنْ ضَنَّ بِعِرْضِهِ فلْيَدَعِ المِرَاءَ.

الشرح: قد تقدَّم من القولِ في المِراء ما فيه كفاية، وحد المِراءِ الجِدالُ المتَّصِل لا يُقصَد به الحقّ.

وقيل لمَيْمون بن مِهْران: ما لَكَ لا تُفارِقُ أخاً لك عن قِلًى؟ قال: لأني لا أُشاريه ولا أُماريه. وكان يقال: ما ضَلّ قومٌ بعدَ إذْ هدَاهم الله تعالى إلّا بالمراء والإصرارِ في الجدال على نُصْرة الباطل.

وقال سُفْيان الثَّوْري: إذا رأيْتم الرّجل لَجُوجاً مُمارِياً معجباً بنَفْسه فقد تَمَّت خَسارَتُه.

- ٣٦٩ -

الأصل: مِنَ الخُرْقِ المُعَاجَلَةُ قَبْلَ الإِمْكَانِ، وَالأَنَاةُ بَعْدَ الفُرْصَةِ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في هذين المَعْنَيَيْن.

ومن كلامِ ابنِ المعتزّ: إهمالُ الفُرْصة حتّى تَفوتَ عجز، والعَجَلَة قبل التّمكُّن خرْق.

وقد جَعَلَ أميرُ المؤمنين عليه السلام كِلْتا الحالتين خُرْقاً، وهو صَحِيح، لأنّ الخُرْق الحُمقُ، وقلّة العقل، وكلتا الحالتين دليلٌ على الحُمق والنَّقْص.

- ٣٧٠ -

الأصل: لا تَسْأَلْ عَمَّا لَمْ يَكُنْ، فَفِي الَّذِي قَدْ كَانَ لَكَ شُغُلٌ.

الشرح: من هذا الباب قولُ أبي الطَّيِّب في سَيْف الدولة:

لـيسَ الـمدائـحُ تَـسـتوفِـي مَـنـاقِـبَـهُ ... فـمَـنْ كُـلَـيـبٌ وأهـلُ الأعـصُـر الأُوَلِ!

خُـذْ مَـا تَـرَاه ودَعْ شـيـئـاً سـمـعـتَ بـه ... في طـلـعةِ البدرِ ما يُغنيكَ عن زُحَلِ

- ٣٧١ -

الأصل: الفِكْرُ مِرْآةٌ صَافِيَةٌ، والاعْتِبَارُ مُنْذِرٌ نَاصِحٌ، وكَفَى أَدَباً لِنَفْسِكَ تَجَنُّبُكَ مَا كَرِهْتَهُ لِغَيْرِكَ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في نحو هذا. وفي المَثَل: كَفَى بالاعتبار منذراً، وكفى بالشَّيب زاجراً، وكفى بالموت واعِظاً، وقد سَبَق القولُ في وُجوب تجنُّب الإنسان ما يَكرَهه من غيره.

وقال بعضُ الحكماء: إذا أحببتَ أخلاقَ امرئٍ فكُنْه، وإن أبغَضتَها فلا تَكُنْه. أخَذَه شاعرُهم فقال:

إذا أعـجـبـتْـكَ خِـصـالُ امـرئٍ ... فـكُـنْـه يـكـنْ مـنـكَ مـا يُـعْـجِـبُـكْ

فـلـيسَ عـلـى الـمـجـدِ والـمَـكْـرُمـات ... إذا جـئـتَـهـا حـاجـبٌ يَـحْـجُـبُـكْ

- ٣٧٢ -

الأصل: الْعِلْمُ مَقْرونٌ بِالْعَمَلِ، فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ، وَالعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَ وَإِلاَّ ارْتَحَلَ عَنْهُ.

الشرح: لا خيرَ فِي عِلم بلا عَمَل، والعِلْم بغير العَمَل حُجَّةٌ على صاحبه، وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام يُشعِر بأنّه لا عالِمَ إلّا وهو عامِل، ومُرادُه بالعلم هاهنا العِرْفان، ولا رَيْب أن العارف لا بدّ أن يكون عاملاً.

ثمّ استأنف فقال: العِلمُ يهتف بالعَمَل أي يُنادِيه، وهذه اللفظة استعارة.

قال: فإن أجابَه وإلّا ارتحل، أي إن كان الإنسانُ عالماً بالأمور الدّينيّة ثم لم يَعمَل بها سَلَبه الله تعالى عِلْمَه، ولم يَمُتْ إلا وهو معدود في زُمْرة الجاهلين، ويُمكِن أن يفسَّر على أنّه أراد بقوله: ارتَحَل ارتَحلَتْ ثَمرتُه ونتيجتُه، وهي الثّواب، فإنّ الله تعالى لا يُثِيب المكلَّف على عِلمِه بالشّرائع إذا لم يَعمَل بها؛ لأنّ إخلالَه بالعَمَل يُحبِط ما يستحِقّه مِن ثواب العِلم لو قَدّرنا أنّه استَحَقّ على العِلم ثواباً، وأتَى به على الشّرائط الّتي معها يستحقّ الثواب.

- ٣٧٣ -

الأصل: أيُّها النَّاسُ مَتاعُ الدُّنْيا حُطامٌ مُوبِئٌ، فَتَجَنَّبُوا مَرْعاهُ قُلْعَتُها أحظَى مِنْ طُمَأْنِينَتِها، وبُلْغَتُها أزْكَى مِن ثَرْوَتِها، حُكِمَ على مُكْثِرِيها بالْفاقَةِ، وَأُعْنِيَ مَنْ غَنِيَ عَنْهَا بالرَّاحَةِ، من رَاقَهُ زِبْرِجُهَا أعْقَبَتْ ناظِرَيْهِ كَمهاً، وَمَنِ اسْتَشْعَرَ الشَّغَفَ بهَا مَلأتْ ضَمِيرَهُ أشْجاناً، لَهُنَّ

رَقَصٌ عَلَى سُوَيْداءِ قَلْبِهِ، هَمٌّ يَشْغَلُهُ، وغَمٌّ يُحْزِنُهُ، حَتَّى يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ فَيُلْقَى بالْفَضاءِ، مُنْقَطِعاً أَبْهَرَاهُ، هَيِّناً على الله فَنَاؤُهُ، وَعَلَى الإخْوَانِ إِلْقَاؤُهُ.

وإنما يَنْظُرُ المُؤمِنُ إِلَى الدُّنْيَا بِعَيْنِ الاعْتبارِ، ويَقْتاتُ مِنْهَا بِبَطْنِ الاضْطِرارِ، ويَسْمَعُ فِيه بِأُذُنِ الْمَقْتِ وَالإبْغَاضِ، إنْ قِيلَ أَثْرَى قِيلَ أَكْدَى، وإنْ فُرِحَ له بالبَقاءِ حُزِنَ لَهُ بالْفَناءِ، هَذَا وَلَمْ يَأْتِهِمْ يَوْمٌ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ.

الشرح: مَتاعُ الدنيا: أموالها وقُنْيانُها. والحُطام: ما تكسَّر من الحشيش واليَبَس، وشَبَّه متاع الدنيا بذلك لحقَارته. ومُوبِئ: مُحدث للوباء، وهو المَرَض العامّ. ومَرْعاة: بقعةٌ تُرَى، كقولك مأسَدة فيها الأسد، ومُحياة، فيها الحَيّات.

وقَلْعتها - بسكون اللام - خيرٌ من طمأنينتها: أي كون الإنسان فيها منزعجاً متهيّئاً للرّحيل عنها خيرٌ له من أن يكون ساكناً إليها، مطمئنًّا بالمُقام فيها.

والبُلْغة: ما يُتبلَّغ به. والثّروة: اليسار والغِنَى، وإنما حُكِم على مُكثريها بالفاقة والفقْر لأنّهم لا ينتهون إلى حَدٍّ من الثروة والمال إلّا وجدّوا واجتهدوا، وحَرَصوا في طلب الزّيادة عليه، فهمْ في كلّ أحوالهم فقراء إلى تحصيل المال، كما أنّ من لا مال له أصلاً يَجدّ ويجتهد في تحصيل المال، بل ربما كان جدُّهم وحِرْصُهم على ذلك أعظَم من كَدْح الفقير وحرصه، ورُوي: «وأعين من غَنِيَ عنها» ومن رواه «أغنى» أي أغْنى الله، من غنيَ عنها وزَهِد فيها بالراحة وخلوّ البال وعدم الهمّ والغمّ.

والزِّبْرِج: الزّينة، وراقه: أعجَبَه. والكَمَه: العمى الشديد، وقيل: هو أن يولد أعمى. والأشْجان: الأحزان. والرَّقَصُ بفتح القاف: الاضطراب والغَلَيان وَالحركة. والكَظَم بفتح الظاء: مجرى النَّفس. والأبْهران: عِرْقان متّصلان بالقلب، ويقال للميّت: قد انقطَع أبْهَراه.

قوله: «وإنما ينظرُ المؤمن»: إخبارٌ في الصورة، وأمْرٌ في المعنى، أي لينظر المؤمن إلى الدنيا بعين الاعتبار، وليأكُل منها ببطن الاضطرار، أي قَدْر الضرورة، لا احتكار أو استكثار، ولْيَسْمَع حديثَها بأُذُن المَقْت والبغْض، أي ليتّخذها عدُوًّا قد صاحَبَه في طريق، فلْيأخذ حِذْرَه منه جهْده وطاقته، ولْيَسْمَع كلامه وحديثه لا استماع مُصْغ ومحبّ وامِق، بل استماعَ مُبغِض محترز مِن غائلتِهِ.

ثم عاد إلى وصفِ الدنيا وطالبها فقال: إنْ قيل أثْرَى قيل: أكْدَى، وفاعِلُ «أثْرَى» هو

الضّمير العائد إلى من استشعر الشَّغَف بها. يقول: بينا يقال: أثرَى، قيل: افتقر، لأن هذه صِفة الدنيا في تقلبها بأهلها، وإن فرح له بالحياة ودوامِها، قيل: مات وعَدِم، هذا ولم يأتهم يومَ القيامة يومٌ هم فيه مُبْلِسون، أبلس الرجلُ يُبلِسُ إبْلاساً أي قَنِط ويئس، واللّفظ من لَفظات الكتاب العزيز.

بعض ما قيل في حال الدنيا وصروفها

وقد ذكرْنا من حالِ الدنيا وصُروفها وغَدْرِها بأهلها فيما تقدّم أبواباً كثيرة نافعة. ونحن نذكر هاهنا زيادةً على ذلك.

فمن كلام بعضِ الحكماء: ويلٌ لصاحبِ الدنيا، كيف يموت ويتركها، وتغرّه ويأمَنها وتَخْذُله ويثق بها! ويلٌ للمغترّين، كيف أرتْهم ما يكرهون، وفاتَهم ما يُحِبّون، وجاءهم ما يوعَدون! ويل لمن الدنيا هَمّه، والخطايا عمله، كيف يفتضح غداً بذَنْبه.

ورَوَى أنس قال: كانت ناقة رسول الله ﷺ العَضْباءُ لا تُسبَق، فجاء أعرابيٌّ بناقةٍ له فسبقَها، فشَقّ ذلك على المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: **«حقّ على الله ألّا يرفع في الدنيا شيئاً إلّا وضعه»**[1].

وقال بعضُ الحكماء: من ذا الذي يبني على مَوْج البحر داراً! تلْكُم الدنيا، فلا تتّخِذوها قراراً.

وقيل لحكيم: عَلِّمنا عملاً واحداً إذا عَمِلناه أحبَّنا الله عليه، فقال: أبغضوا الدنيا يُحبِبْكم الله.

وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: **«لو تَعلَمون ما أعلَم لَضَحِكتم قليلاً، ولبَكَيتم كثيراً، ولهانت عليكم الدنيا، ولآثَرْتُم الآخرة»**[2].

ثم قال أبو الدَّرداء مِنْ قِبَل نفسه: أيّها الناس، لو تعلمون ما أعلَم لخرَجْتم إلى الصُّعُدات تَبكُون على أنفسكم، ولتَرَكْتُم أموالَكم لا حارسَ لها، ولا راجعَ إليها إلّا ما لا بدّ لكم منه، ولكنْ غاب عن قلوبكم ذِكْرُ الآخرة، وحضَرَها الأمَل، فصارت الدنيا أمْلَك بأعمالِكم، وصِرْتم كالذين لا يَعلمون، فبَعضُكم شرٌّ من البهائم التي لا تَدَع هواها، ما لكم لا تَحابُّون ولا تَناصَحون في أموركم، وأنتمْ إخوانٌ على دينٍ واحد، ما فرَّق بين أهوائِكم إلّا خُبْثُ سرائِركم، ولو اجتمعتمْ على البِرّ لتحاببْتم، ما لكم لا تَنَاصَحون في أمورِكم، ما هذا إلّا مِن قِلّة الإيمان

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٦/ ٥٣١).

(٢) أخرج نحوه البخاري، كتاب: الجمعة، باب: الصدقة في الكسوف (١٠٤٤)، ومسلم، كتاب: الصلاة، باب: تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود (٤٢٦).

في قلوبكم، ولو كنتم توقنون بأمر الآخرة كما تُوقنون بالدنيا لآثَرْتم طلب الآخرة، فإنْ قلتمْ حبّ العاجلة غالبٌ، فإنّا نراكم تَدعون العاجل من الدنيا للآجل منها، ما لكم تَفرَحون باليسير من الدنيا، وتَحزنون على اليَسير منها يفوتكم، حتى يتبيّن ذلك في وجوهكم، ويظهر على ألسِنتكم، وتسمونها المصائب، وتُقيمون فيها المآتم، وعامّتكم قد تركوا كثيراً من دينهم ثمّ لا يتبين ذلك في وجوهِهم، ولا تتغيّر حالٌ بهم، يَلقى بعضهم بعضاً بالمسرّة، ويكره كلّ منكم أن يستقبل صاحبه بما يَكْره مخافَة أن يستقبله صاحبُه بمثله، فاصطَحبْتم على الغِلّ، وبَنيْتم مرَاعِيَكم على الدِّمَن، وتصافَيْتم على رَفْض الأجلّ، أراحَني الله منكم، وألحقني بمن أحبّ رؤيته.

وقال حكيم لأصحابه: ارْضَوا بدنيء الدنيا مع سلامة الدِّين، كما رَضيَ أهلُ الدنيا بدَنيء الدِّين مع سلامةِ الدُّنيا.

وقيل في معناه:

أرَى رجالاً بأدنى الدِّين قد قَنِعوا ... ولا أراهمْ رضُوا في العَيْش بالدُّونِ

فاستغن بالدِّين عن دُنْيا الملوكِ كما اسْـ ... ـتَغْنَى الملوكُ بدُنياهمْ عن الدِّينِ

وفي الحديث المرفوع: «لتأتينكُم بَعْدِي دُنْيا تأكُل إيمانكم كما تأكل النارُ الحطَب»[1].

وقال الحَسَن رحمه الله: أدركتُ أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعةً فأدَّوْها إلى من ائتمنهم عليها، ثم رَكضوا خِفافاً.

وقال أيضاً: من نافسك في دِينك فنافِسْه، ومن نافَسَك في دُنْيَاك فألقِها في نَحْره.

وقال الفُضيل: طالت فكْرتي في هذه الآية: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝﴾[2].

ومن كلام بعض الحكماء: لن تصبح في شيء من الدُّنيا إلا وقد كان له إهلٌ قَبْلك ويكُون له أهلٌ من بعدك، وليس لك من الدنيا إلا عَشاءُ ليلة، وغَداءُ يومٍ، فلا تُهلِك نفسَك في أكْلة، وصُمْ عن الدُّنْيا وأفطِرْ على الآخرة، فإنّ رأس مالِ الدنيا الهوى، ورِبْحها النار.

وقيل لبعض الرّهْبان: كيف تَرَى الدهر؟ قال: يُخلِق الأبدان، ويجدِّد الآمال، ويقرّب المنيّة، ويباعد الأمنيّة. قيل: فما حالُ أهلِه؟ قال: مَنْ ظَفِر به تَعِب، ومن فاتَه اكتأب.

ومن هذا المعنى قولُ الشاعر:

ومَن يَحمَد الدنيا لعيشٍ يَسُرّهُ ... فسوفَ لَعَمري عن قليلٍ يلُومُهَا

---

(١) أخرجه نعيم بن حماد في الفتن (١٢٣).

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ٧، ٨.

إذا أدبرتْ كانتْ على المرءِ حَسرةً   وإن أقبلتْ كانت كثيراً همومُها

وَقال بعضُ الحكماء: كانت الدنيا ولم أكُنْ فيها، وتذهَب الدنيا ولا أكون فيها، ولستُ أسْكُن إليها، فإنّ عَيْشَها نكَد، وصَفْوها كَدَر، وأهلَها منها على وجَل، إمّا بنعمةٍ زائلة، أو ببليّة نازِلة، أو مِيتة قاضِيَة. وقال بعضهم: من عَيْب الدنيا أنّها لا تُعطي أحداً ما يستحقّ، إما أن تَزيد له، وإما أن تنقص.

وقال سُفْيان الثَّوْرِيّ: أما تَروْن النِّعم كأنّها مغضوبٌ عليها، قد وُضِعَتْ في غير أهلها.

وقال يحيى بن مُعاذ: الدنيا حانوتُ الشّيطان، فلا تسرق من حانوته شيئاً، فإنه يجيء في قلبك حتّى يأخُذَك.

وقال الفُضَيل: لو كانت الدّنيا من ذَهَب يَفنى والآخرةُ من خَزَفٍ يَبْقى لكانَ ينبغِي لنا أن نختار خَزَفاً يَبقَى على ذَهب يفْنى، فكيف وقد اختَرْنا خَزَفاً يَفْنى على ذَهَبٍ يبقى!

وقال بعضُهم: ما أصبح أحدٌ في الدّنيا إلّا وهو ضَيْف، ولا شُبْهةَ في أنّ الضيف مُرْتحِل، وما أصبَح ذو مال فيها إلا ومالُه عاريّة عنده، ولا ريْب أنّ العارِيّة مردودة.

ومثل هذا قول الشاعر:

وما المالُ والأهلُون إلّا وديعةٌ   ولا بدّ يوماً أن تُردَّ الودائعُ

وَقيل لإبراهيم بن أدهم: كيف أنت؟ فأنشدَ:

نُرقِّع دُنْيانا بتمزيق دينِنا   فلا دِينُنا يَبقَى ولا ما نُرقِّعُ

وزارَ رابعةَ العَدَوِيّة أصحابُها، فذَكَروا الدّنيا فأقبلوا على ذَمِّها، فقالت: اسكُتُوا عن ذِكْرها وكُفُّوا، فلولا مَوقِعُها في قلوبكم ما أكثَرْتم من ذِكْرِها، إنّ من أحَبّ شيئاً أكثر من ذكره.

وقال مُطَرِّف بنُ الشِّخِّير: لا تَنظروا إلى خَفْض عَيْش الملوك، ولين رِياشِهم، ولكن انظُروا إلى سُرعة ظعْنهم، وسوء منقلَبهم، قال الشاعر:

أرَى طالبَ الدّنيا وإن طالَ عمرُهُ   ونال من الدّنيا سروراً وأنعُما

كَبانٍ بنى بُنيانَه فأقامَه   فلمّا استَوَى ما قد بَنَاه تَهدَّمَا

وقال أبو العتاهية:

تعالَى اللّهُ يا سَلْمَ بن عَمْرٍو   أذَلّ الحِرْصُ أعناقَ الرِّجالِ

هَبِ الدّنيا تُساقُ إليكَ عَفْواً   أليسَ مصيرُ ذاكَ إلى الزوالِ!

وما دُنْياكَ إلّا مثلُ فَيْءٍ   أظلّك ثمّ آذن بانتقالِ

وقال بعضُهم: الدّنيا جِيفةٌ، فمن أراد منها شيئاً فليَصبِر على مُعاشرة الكلاب.

وقال أبو أُمامة الباهليّ: لمّا بَعثَ الله محمّداً ﷺ أتتْ إبليسَ جنودُه وقالوا: قد بُعِث نبيّ وجدّت مِلّة وأمّة، فقال: كيف حالُهم؟ أيحِبُّون الدنيا؟ قالوا: نَعَمْ. قال: إن كانوا يحبّونها فلا أبالي ألّا يعبدُوا الأصنام، فإنّما أغدُو عليهم وأرُوح بثلاث: أخْذِ المال من غيرِ حقِّه، وإنفاقِه في غير حقِّه، وإمساكه عن حقه، والشرُّ كلّه لهذه الثلاث تبَع.

وكان مالكُ بنُ دينار يقول: اتّقوا السّحّارة فإنّها تسحَر قلوبَ العلماء، يعني الدنيا.

وقال أبو سليمانَ الرازيّ: إذا كانت الآخرة في القَلْبِ جاءَت الدّنيا فزاحَمَتْها، وإذا كانت الدّنيا في القَلْبِ لم تُزاحِمْها الآخرة، لأن الآخرة كريمة، والدنيا لئيمة.

وقال مالكُ بنُ دينار: بقَدْر ما تَحْزَن للدّنيا يخرُج همُّ الآخرة من قلبك، وبقدْر ما تحزن للآخرة يخرُج هم الدنيا من قلبك. وهذا مُقتبَس من قولِ أميرِ المؤمنين عليه السلام: الدنيا والآخرة ضَرَّتان: فبقَدْر ما تُرْضِي إحداهما تُسخِط الأخرى.

وقال الشاعر:

يا خاطِبَ الدُّنيا إلى نفسِها ... تَنَحَّ عن خِطبتِها تَسْلَمِ
إنّ التي تَخطُب غَدَّارَةٌ ... قريبةُ العِرْسِ من المأتَمِ

وقالوا: لو وصفَت الدُّنيا نفسَها لما قالت أحسَنَ من قول أبي نُواس فيها:

إذا امتحَنَ الدّنيا لبيبٌ تكشّفتْ ... له عن عدوٍّ في ثيابِ صديقِ

ومِن كلام الشّافعيّ يعظُ أخاً له: يا أخِي، إنّ الدّنيا دَحْض مَزَلّة، ودارُ مَذلّة، عُمْرانُها إلى الخراب سائر، وساكنُها إلى القبور زائر، شَملها على الفُرقة موقوف، وغِناها إلى الفَقْر مَصْروف، الإكثارُ فيها إعْسار، والإعْسار فيها يَسار، فافْزَعْ إلى الله، وارضَ برِزق الله، ولا تَستسلِف من دار بقائِك في دارِ فَنائك، فإنّ عيشك فيءٌ زائل، وجِدارٌ مائلٍ، أكثِرْ من عمَلك، واقصِرْ من أمَلِك.

وقال إبراهيمُ بنُ أدهم لرجلٍ: أدِرْهَمٌ في المنام أحَبُّ إليك أم دينارٌ في اليَقَظة؟ فقال: دينارٌ في اليَقَظة. فقال: كَذَبْتَ إن الّذي تُحِبّه في الدّنيا فكأنّك تُحِبّه في المنام، والّذي تحبُّه في الآخرة فكأنّك تحبّه في اليَقَظة.

وقال بعضُ الحكماء: من فَرِح قلبُه بشيءٍ من الدنيا فقد أخطأ الحِكْمة، ومن جَعَلَ شهوتَه تحتَ قدمَيْه فَرِق الشيطانُ من ظِلّه، ومَن غَلَب عِلْمُه هَواهُ فهو الغالب.

وقال بعضُهم: الدنيا تُبغِّضُ إلينا نفسَها ونحن نحبُّها، فكيف لو تحبَّبتْ إلينا!.

وقال بعضهم: الدنيا دارُ خراب، وأخرَبُ منها قلبُ من يَعمُرُها، والجنّة دارُ عُمْران، وأعمَرُ منها قَلْب من يَطْلُبها.

وقال يحيى بن مُعاذ: العُقلاء ثلاثة: مَن تَرَك الدنيا قبل أن تَتْرُكَه، وبَنَى قَبرَه قبل أن يَدخُلَه، وأرْضى خالقَه قبل أن يَلْقاه.

وقال بعضهم: مَنْ أرادَ أن يستغنِيَ عن الدّنيا بالدّنيا كان كمُطفِئِ النارِ بالتِّبْنِ.

ومن كلام بعض فُصحاء الزّهّاد: أيّها الناس اعمَلوا في مَهَل، وكونوا من الله على وجَل، ولا تغترّوا بالأمَل، ونِسيانِ الأجلِ، ولا تَركَنوا إلى الدنيا، فإنّها غَدّارة غرّارة خدّاعة، قد تزخرفتْ لكم بغُرورها، وفَتَنَتْكم بأمانيِّها، وتزيّنتْ لخُطّابها، فأضحت كالعَروس المتجلّية، العيونُ إليها ناظرة، والقلوبُ عليها عاكفة، والنفوسُ لها عاشقة. فكم من عاشقٍ لها قَتلَتْ، ومطمئنٍّ إليها خَذَلَتْ! فانظروا إليها بعينِ الحقيقة، فإنّها دارٌ كثرت بوائقُها، وذمّها خالقُها، جديدُها يَبلَى، ومُلْكُها يَفنَى، وعزيزُها يَذِلّ وكثيرُها يَقِلّ، وحيُّها يموتُ، وخيرُها يفوت، فاستيقِظوا من غفلتِكم، وانتبهوا من رَقْدتِكم، قبل أن يقال: فلان عليل، ومدنَفٌ ثقيل، فهل على الدّواء من دليل، وهل إلى الطبيب مِن سبيل؟ فتُدعَى لك الأطبّاء، ولا يُرجَى لك الشفاء، ثمّ يقال: فلانٌ أوصَى، ومالَه أحصَى، ثمّ يقال: قد ثَقُل لسانُه فما يكلِّم إخوانَه، ولا يَعرِف جيرانَه، وعَرِق عند ذلك جبينُك، وتتابع أنينُك، وثبت يقينُك، وطمَحتْ جفونُك، وصدقَتْ ظُنونُك، وتلجلجَ لسانُك، وبكى إخوانُك، وقيل لك: هذا ابنُك فلان، وهذا أخوك فلان، مُنِعت من الكلام فلا تَنطِق، وخُتِم على لسانك فلا يَنْطَلِق، ثمّ حلّ بك القضاء، وانتُزِعت روحُك من الأعضاء، ثم عُرِج بها إلى السّماء، فاجتَمع عند ذلك إخوانك، وأُحضِرتْ أكفانُك، فغسّلوك وكفّنوك، ثمّ حملوك فَدَفَنوك، فانقطع عُوّادُك، واستراح حُسّادك، وانصرَفَ أهلُك إلى مالِك، وبقيتَ مرتهَناً بأعمالك.

وقال بعضُ الزهّاد لبعض الملوك: إنّ أحقّ الناس بذمّ الدنيا وقِلاها من بُسِط له فيها، وأعطِي حاجَته منها، لأنه يتوقّع آفةً تَغدُو على ماله فتَجْتاحه، وعلى جمعِه فتفرّقه أو تأتي على سلطانه فتَهدِمه من القواعد، أو تدبّ إلى جسمه فتُسقِمه، أو تفجعه بشيء هو ضَنين به من أحبابه، فالدنيا الأحقُّ بالذّم، وهي الآخذة ما تُعطِي، الراجعة فيما تَهَب، فبينا هي تُضحِك صاحبَها إذ أضحكتْ منه غيرَه، وبينا هي تَبكِي له إذ أبكَتْ عليه، وبينا هي تَبسط كفَّه بالإعطاء إذ بسَطتْ كفَّها إليه بالاسترجاع والاسترداد، تَعقِد التاج على رأس صاحبِها اليوم وتُعفّره في التّراب غداً، سواءٌ عليها ذَهاب من ذهب وبقاءُ من بقي، تجد في الباقي من الذاهب خلفاً، وتَرضَى بكلٍّ من كلٍّ بَدَلاً.

وكتب الحسنُ البصريّ إلى عمر بن عبد العزيز: أمّا بعد، فإنّ الدنيا دارُ ظَعْنٍ ليست بدار إقامة، وإنما أنزل إليها عقوبة فاحذرْها فإن الزّاد منها ربحُها، والغنى منها فقرُها، لها في كلّ حينٍ قتيل، تذِلّ مَنْ أعزّها، وتُفقِر من جَمَعَها، هي كالسُّمّ يأكله مَنْ لا يعرفه وهو حَتفُه، فكن

فيها كالمُداوِي جراحه، يحْمِي قليلاً مخافة ما يكرهه طويلاً، ويصبر على شدّة الدواء، مخافة طُول البلاء، فاحذر هذه الدنيا الغدّارة المكّارة، الختّالة الخدّاعة، التي قد تزيّنت بخُدَعها، وفتنَتْ بغرورها، وتَحَلّت بآمالها، وتشرّفتْ لخُطّابها، فأصبحت بينهم كالعروس تُجلى على بعلها، العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهةِ، والنفوسُ لها عاشقة، وهي لأزواجها كلّهم قاتلة، فلا الباقي بالماضي معتبِر، ولا الآخِر بالأوّل مزدجِر، ولا العارف بالله حين أخبره عنها مذّكِر، فمن عاشقٍ لها قد ظفر منها بحاجته، فاغترّ وطغى ونسي المعاد، وشُغل بها لُبُّه حتى زلّت عنها قدمُه، فعظُمتْ ندامتُه، وكثرتْ حسرتُه، واجتمعت عليه سكراتُ الموت بألمه، وحسَرَاتُ الفَوت بغصّته، ومِنْ راغب فيها لم يدرك منها ما طلب، ولم يُرِح نفسَه من التّعب، خرج منها بغير زاد، وقدِم على غير مِهاد، فاحذرْها ثمّ احذرْها، وكن أسرّ ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحبها كلما اطمأنّ منها إلى سرور أشخَصْته إلى مكروه، والسارّ منها لأهلها غارّ، والنافع منها في غَدٍ ضارّ، قد وُصل الرّخاء منها بالبلاء، وجعل البقاء فيها للفَناء، فسرورها مَشُوب بالأحزان، ونعيمُها مكدَّر بالأشجان، لا يرجع ما ولّى منها وأدبر، ولا يُدرى ما هو آتٍ فينتظر، أمانيّها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفْوُها كدَر، وعيشها نَكَد، والإنسان فيها على خَطَر إنْ عَقَل ونَظَر، وهو من النَّعماء على غَرَر، ومن البلاء على حَذر، فلو كان الخالقُ لها لم يخبر عنها خبراً، ولم يَضرِب لها مَثَلاً، لكانت هي نفسها قد أيقظتْ النائم، ونبّهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عنها زاجر، وبتصاريفها واعظ، فما لها عند الله قدْر، ولا نظر إليها منذ خَلقَها، ولقد عُرضتْ على نبيّك محمّد ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جناحَ بعوضة، فأبى أن يقبلها، كره أن يخالف على الله أمره، أو يحبّ ما أبغَضه خالقُه، أو يرفع ما وضعه مليكه، زواها الربّ سبحانه عن الصالحين اختباراً، وبسطها لأعدائه اغتراراً، فيظنّ المغرور بها، المقتدر عليها، أنه أكرِم بها، وينسى ما صنع الله تعالى بمحمّد ﷺ من شدّه الحَجَر على بطنِه، وقد جاءت الرواية عنه عن ربّه سبحانه أنه قال لموسى: إذا رأيت الغنَى مقبلاً فقل ذنبٌ عجلتْ عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين، وإن شئت اقتديت بصاحب الرُّوح والكلمة عيسى، كان يقول: إدامي الجوع، وشعاري الخوف، ولباسي الصُّوف، وصِلائي في الشتاء مشارق الشمس، وسراجي القمر، ووسادي الحَجَر، ودابتي رِجْلاي، وفاكهتي وطعامي ما أنبتت الأرضُ، أبِيتُ وليس لي شيء، وليس على الأرض أحدٌ أغنى منّي.

وفي بعض الكتب القديمة: إن الله تعالى لمّا بعث موسى وهارون ﷺ إلى فرعون قال: لا يروعنكما لباسُه الذي لبِس من الدنيا، فإنّ ناصيته بيَدي ليس ينطق ولا يَطرِف ولا يتنفّس إلّا بإذني، ولا يُعجِبكما ما مُتّع به منها، فإن ذلك زهرة الحياة الدنيا، وزينة المترَفين، ولو شئت أن أزيّنكما بزينةٍ من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أنّ مقدرته تعجز عمّا وُهبتما لفعلت، ولكني

أرغب بكما عن ذلك، وأزوي ذلك عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي، إني لأذودُهم عن نعيمها كما يذود الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهَلكة، وإنّي لأجنّبهم حُبّ المُقام فيها كما يجنب الراعي الشفيق إبلَه عن مَبارِك العُرّ، وما ذاك لهوانهم عليّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفوراً، إنما يتزين لي أوليائي بالذلّ والخضوع والخوف، وإن التقوى لتثبت في قلوبهم، فتظهر على وجوههم، فهي ثيابُهم التي يلبسونها، ودِثارهم الذي يظهرون، وضميرُهم الذي يستشعرون، ونجاتُهم التي بها يفوزون، ورجاؤهم الذي إيّاه يأمُلون، ومجدُهم الذي به يفتخرون، وسيماهم الّتي بها يُعرَفون، فإذا لقيهم أحدكما فليخفض لهم جناحَه، وليذلّل لهم قلبه ولسانه، وليعلم أنه مَنْ أخاف لي وليّاً فقد بارَزَني بالمحاربة، ثمّ أنا الثائر به يوم القيامة.

ومن كلام بعض الحكماء: الأيّام سِهام، والناس أغراض، والدهر يرميك كلَّ يوم بسهامه، ويتخرّمك بلياليه وأيّامِه، حتّى يستغرق جميع أجزائك، ويُصمِي جميع أبعاضِك، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك، وسرعة اللّيالي في بدنك! ولو كُشف لك عمّا أحدثَت الأيّام فيك من النقص لاستوحشتَ من كلّ يوم يأتي عليك واستثقلْت ممرَّ الساعاتِ بك، ولكنّ تدبير الله تعالى فوق النظر والاعتبار.

وقال بعض الحكماء - وقد استوصَف الدنيا وقَدْر بقائها -: الدنيا وقتك الذي يرجع إليه طرفُك، لأنّ ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه، وما لم يأتِ فلا عِلم لك به، والدهر يومٌ مقبل تنعاه ليلتُه، وتَطويه ساعاتُه، وأحداثه تتوالى على الإنسان، بالتغيير والنقصان، والدهر موكَّل بتشتيت الجماعات، وانخرام الشّمل، وتنقُّل الدُّوَل، والأمل طويل، والعمر قصير، وإلى الله تصير الأمور.

وقال بعض الفضلاء: الدنيا سريعة الفَناء، قريبة الانقضاء، تَعِد بالبقاء، وتُخلف في الوفاء، تنظُر إليها فتراها ساكنةً مستقرّة، وهي سائرة سَيْراً عنيفاً، ومرتحلة ارتحالاً سريعاً، ولكنّ الناظر إليها قد لا يُحسّ بحركتها فيطمئنّ إليها، وإنما يحسّ بذلك بعد انقضائها، ومِثالها الظّلُّ، فإنه متحرّك ساكنٌ: متحرّك في الحقيقة، وساكنٌ في الظاهر، لا تدرَك حركتُه بالبصر الظاهر، بل بالبصيرة الباطنة.

- ٣٧٤ -

الأصل: إنَّ الله سُبْحَانَهُ وضَعَ الثَّوابَ على طاعتِهِ، والعِقابَ على مَعْصِيَتِهِ، ذِيادَةً لِعِبادِهِ عن نِقْمَتِهِ، وحِياشَةً لَهُمْ إلى جنَّتِهِ.

الشرح: ذِيادة، أي دَفْعٌ. ذُدْته عن كذا، أي دَفعته ورددته. وحياشةً: مصدر حُشْتُ الصّيد بضم الحاء، أحوشُه، إذا جئته من حواليه لتصرِفه إلى الحِبالة، وكذلك أحشْتُ الصيد وأحْوَشْتُه، وقد احتوش القومُ الصيد إذا نفّره بعضهم إلى بعض.

وهذا هو مذهب أصحابنا، إن الله تعالى لما كلّف العباد التكاليف الشاقّة، وقد كان يمكنه أن يجعلها غير شاقّة عليهم بأن يزيد في قُدَرهم، وجب أن يكون في مقابلة تلك التكاليف ثواب، لأنّ إلزام المشاق كإنزال المشاقّ، فكما يتضمن ذلك عوضاً، وجب أن يتضمّن هذا ثواباً، ولا بد أن يكون في مقابلة فعل القبيح عقاب، وإلا كان سبحانه ممكّناً الإنسان من القبيح، مغرياً له بفعله، إذ الطبع البشري يهوي العاجل، ولا يَحفِل بالذمّ، ولا يكون القبيح قبيحاً حينئذ في العقل، فلا بدّ من العقاب ليقع الانزجار.

- ٣٧٥ -

الأصل: يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمانٌ لا يَبْقى فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ، ومِنَ الإسْلام إلا اسْمُهُ، مَساجِدُهُمْ يَوْمَئِذٍ عامِرَةٌ مِنَ البِناءِ، خَرَابٌ مِنَ الهُدَى، سُكَّانُها وعُمَّارُها شَرُّ أَهْلِ الأرْضِ، مِنهُمْ تَخْرُج الفِتْنَةُ، وَإِلَيْهِمْ تَأْوِى الخَطِيئَةُ، يَرُدُّونَ مَنْ شَذَّ عَنْهَا فِيهَا، وَيَسُوقُونَ مَنْ تأَخَّرَ عَنْهَا إِلَيْهَا، يَقُولُ الله سُبْحَانَهُ فَبِي حَلَفْتُ، لأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولئِكَ فِتْنَةً أَتْرُكُ الحَلِيمَ فها حَيْرَانَ، وَقَدْ فَعَلَ، وَنَحْنُ نَسْتَقِيلُ الله عَثْرَةَ الغَفْلَةِ.

الشرح: هذه صفةُ حالِ أهلِ الضّلال والفسقِ والرِّياء من هذه الأمّة، ألا تراه يقول: سُكانها وعُمّارها، يعني سكان المساجد، وعمّار المساجد شرّ أهل الأرض، لأنهم أهل ضلالة كمن يَسكن المساجد الآن ممّن يعتقد التجسم والتشبيه والصورة والنّزول والصعود والأعضاء والجوارح، ومن يقول بالقَدَر يُضِيف فعل الكُفْر والجهل والقبيح إلى الله تعالى، فكل هؤلاء أهل فتنة، يردُّون من خرج منها إليها، ويسوقون من لم يدخل فيها إليها أيضاً.

ثم قال حاكياً عن الله تعالى: إنه حلف بنفسه ليبعثنّ على أولئك فتنةً، يعني استئصالاً وسيفاً حاصداً يترك الحليمَ أي العاقل اللّبيب فيها حيران لا يعلم كيف وجهُ خَلاصه.

ثم قال عليه السلام: وقد فعل.

وينبغي أن يكون قد قال هذا الكلام في أيام خلافته، لأنّها كانت أيام السيف المسلط على

أهل الضلال من المسلمين، وكذلك ما بعثه الله تعالى على بني أميّة وأتباعهم من سيوف بني هاشم بعد انتقاله عليه السلام.

- ٣٧٦ -

الأصل: ورُوِي أنّهُ عليه السلام قَلَّمَا اعْتَدَلَ بِهِ المِنْبَرُ إلّا قَالَ أمامَ خُطْبَتِهِ: أيُّهَا النَّاسُ، اتَّقوا الله فما خُلِقَ امْرُؤٌ عَبَثاً فَيَلْهُو، وَلا تُرِكَ سُدًى فَيَلْغُو، وَمَا دُنْيَاهُ الَّتِي تَحَسَّنَتْ لَهُ بِخَلَفٍ مِنَ الآخِرَةِ الَّتِي قَبَّحَهَا سُوءُ النَّظَرِ عِنْدَهُ، وَمَا المَغْرُورُ الَّذِي ظَفِرَ مِنَ الدُّنْيَا بِأَعْلَى هِمَّتِهِ كالآخَرِ الَّذِي ظَفِرَ من الآخِرَةِ بِأَدْنَى سُهْمَتِهِ.

الشرح: قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[1].

ومن الكلمات النبويّة: «إنّ المرء لم يُترَك سُدًى، ولم يُخلق عَبَثاً»[2].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ من ظَفِر من الدنيا بأعلى وأعظم أمنية ليس كآخَرَ ظَفِر من الآخرة بأدْوَن درجات أهلِ الثواب، لا مناسبة ولا قياسَ بين نعيم الدنيا والآخرة.

وفي قوله عليه السلام: «الّتي قبحها سوء المنظر عندَه» تصريحٌ بمذهب أصحابنا أهل العدل رحمهم الله، وهو أن الإنسان هو الذي أضلّ نفسَه لسوء نظرِه، ولو كان الله تعالى هو الذي أضلّه لما قال: قبّحها سوء النظر عندَه.

- ٣٧٧ -

الأصل: لا شَرَفَ أعْلَى مِنَ الإسْلامِ، وَلا عِزَّ أعَزُّ مِنَ التَّقْوى، وَلا مَعْقِلَ أَحْسَنُ مِنَ الْوَرَعِ، وَلا شَفِيعَ انجحُ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلا كَنْزَ اغْنى مِنَ القنَاعَةِ، وَلا مَالَ أذْهَبُ لِلْفَاقَةِ مِنَ الرِّضَى بالقُوتِ.

وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى بُلْغَةِ الكَفَافِ فَقَدِ انْتَظَمَ الرَّاحَةَ، وَتَبَوَّأَ خَفْضَ الدَّعَةِ. والدَّعَةُ مِفْتَاحُ

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.
(٢) نهاية ابن الأثير: ٢/ ١٦٧.

النَّصبِ، وَمَطِيَّةُ التَّعَبِ، وَالْحِرْصُ وَالْكِبْرُ وَالحَسَدُ دَوَاعٍ إِلَى التَّقَحُّمِ فِي الذُّنُوبِ، والشَّرُّ جَامِعٌ لِمَسَاوِىءِ العُيُوبِ.

الشرح: كلّ هذه المعاني قد سبق القولُ فيها مراراً شتّى، نأتي كلّ مرّة بما لم نأت به فيما تقدّم، وإنّما يكرّرها أميرُ المؤمنين عليه السلام لإقامة الحجّة على المكلّفين، كما يكرّر الله سبحانه في القرآن المواعظ والزواجر، لذلك كان أبو ذرّ - رضي الله عنه - جالساً بين الناس فأتته امرأته فقالت: أنت جالس بين هؤلاء، ولا والله ما عندنا في البيت هِفّة ولا سُفّة، فقال: يا هذه، إنّ بين أيدينا عَقَبَةً كَؤوداً، لا ينجو منها إلّا كلّ مخفّ. فرجعت وهي راضية.

وقيل لبعض الحكماء: ما مالُك؟ قال: التجمّل في الظاهر، والقَصْد في الباطن، والغِنَى عمّا في أيدي الناس:

وقال أبو سليمان الدّارانيّ: تنفُّس فقيرٍ دُون شهوةٍ لا يَقدِر عليها أفضلُ من عِبادة غَنِيٍّ ألف عام.

وقال رجلٌ لبشر بن الحارث: ادعُ لي فقد أضرّ الفقرُ بي وبعيالي، فقال: إذا قال لك عيالُك: ليس عندنا دقيق ولا خبز فادعُ لبشر بن الحارث في ذلك الوقت، فإنّ دعاءَك أفضلُ من دعائه. ومن دعاء بعض الصالحين: اللهمّ إني أسألك ذُلّ نفسي، والزّهدَ فيما جاوزَ الكَفاف.

- ٣٧٨ -

الأصل: وَقالَ عليه السلام لجابر بن عبد الله الأنصاريّ:

يا جابِرُ، قِوَامُ الدِّينِ والدُّنْيَا بِأَرْبَعَةٍ: عَالِمٍ يَسْتَعْمِلُ عِلْمَهُ، وَجَاهِلٍ لا يَسْتَنْكِفُ أَنْ يَتَعَلَّمَ، وَجَوَادٍ لا يَبْخَلُ بِمَعْرُوفِهِ، وَفَقِيرٍ لا يَبِيعُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ، فَإِذا ضَيَّعَ العَالِمُ عِلْمَهُ اسْتَنْكَفَ الجَاهِلُ أَنْ يَتَعَلَّمَ، وَإِذَا بَخِلَ الغَنِيُّ بِمَعْرُوفِهِ بَاعَ الفَقِيرُ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ.

يا جابِرُ، مَنْ كَثُرَتْ نِعمَةُ الله عَلَيْهِ، كَثُرَتْ حَوَائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَامَ بِمَا يَجِبُ لله فِيهَا عَرَّضَ نِعْمَةَ الله لِدَوَامِهَا، وَمَنْ ضَيَّعَ مَا يَجِبُ لله فيها عرَّض نعْمَتَهُ لزَوَالها.

الشرح: قد تقدّم القولُ في هذه المعاني. والحاصل أنّه رَبط اثنتين من أربعة إحداهما بالأخرى، وكذلك جعل في الاثنتين الأخريين، فقال: إنّ قوام الدّين والدنيا بأربعة: عالم يستعمل

علمَه، يعني يعمَل ولا يقتصر على أن يعلم فقط ولا يَعمَل، وجاهل لا يستنكِف أن يتعلّم، وأضرُّ ما على الجهلاء الاستنكاف من التعلّم، فإنهم يستمرّون على الجهالة إلى الموت، والثالث جَواد لا يبخل بالمعروف، والرابع فقير لا يبيع آخرته بدنياه، أي لا يَسرق، ولا يَقطع الطّريق، أو يكتسب الرزق من حيث لا يحبّه الله، كالقمار، والمواخير، والمزاجر، والمآصر، ونحوها.

ثم قال: فالثانية مرتبطة بالأولى إذا لم يستعمل العالم علمَه استنكف الجاهلُ من التّعلم، وذلك لأنّ الجاهل إذا رأى العالم يعصي ويجاهِر الله بالفسق زهِد في التعلّم، وقال: لماذا تعلُّمُ العلم إذا كانتْ ثمرته الفسقَ والمعصية.

ثم قال: والرابعة مرتبطة بالثالثة، إذا بخل الغَنيّ بمعروفه، باع الفقيرُ آخرته بدنياه، وذلك لأنّه إذا عدِم الفقيرَ المواساة مع حاجته إلى القُوت دعتْه الضّرورة إلى الدخول في الحرام، والاكتساب من حيث لا يحسُن، وينبغي أن يكون عوض لفظة جواد لفظة غنيّ ليطابق أوّل الكلام آخره، إلّا أنّ الرواية هكذا وردتْ، وجواد لا يبخل بمعروفه، وفي ضمير اللّفظ كون ذلك الجواد غنيًّا، لأنه قد جعل له معروفاً والمعروف لا يكون إلا عن ظهر غِنًى، وباقي الفصل قد سبق شرحُ أمثاله.

- ٣٧٩ -

الأصل: وَرَوى ابنُ جرِيرِ الطَّبَرِيُّ فِي تَارِيخِهِ، عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبي لَيْلى الفَقِيهِ، وَكَانَ مِمَّنْ خَرَجَ لِقِتَال الحَجّاج مع ابْن الأَشْعَثِ، أَنَّهُ قال فِيمَا كَانَ يَحُضُّ به النَّاسَ عَلَى الجِهَادِ: إِنّي سَمِعْتُ عليًّا رَفَعَ اللهُ دَرَجَتَهُ في الصَّالِحِين، وَأَثَابَهُ ثَوَاب الشُّهداءِ وَالصّدِّيقِينَ، يَقُول يَوْمَ لَقِينَا أَهْلَ الشَّامِ:

أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ، إِنَّهُ مَنْ رَأَى عُدْوَاناً يُعْمَلُ بِهِ، وَمُنْكَراً يُدْعَى إِلَيْهِ، فَأَنْكَرَهُ بِقَلْبِهِ فَقَدْ سَلِمَ وَبَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِلِسَانِهِ فَقَدْ أُجِرَ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ صَاحِبِهِ، وَمَنْ أَنْكَرَهُ بالسَّيْفِ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ العُلْيَا وَكَلِمَةُ الظَّالِمِينَ السُّفْلَى، فَذَلِكَ الَّذِي أَصَابَ سَبِيل الهُدَى، وَقَامَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَنُوِّرَ فِي قَلْبِهِ اليَقِينُ.

الشرح: قد تقدّم الكلام في النّهي عن المنكر، وكيفيّة ترتيبه، وكلام أمير المؤمنين في هذا الفصل مطابِق لما يقوله المتكلّمون - رحمهم الله.

وقد ذكرْنا فيما تقدّم، وسنذكر فيما بعدُ من هذا المعنى ما يجب. وكان النهيُ عن المنكَر معروفاً في العرب في جاهليّتها، كان في قريش حِلْف الفُضول، تحالفتْ قبائلُ منها على أن يَردَعوا الظالم، ويَنصُروا المظلوم، ويردّوا عليه حقَّه ما بلَّ بحرٌ صوفة، وقد ذكرنا فيما تقدم.

- ٣٨٠ -

الأصل: وقالَ عليه السلام في كلامٍ له غيرِ هذا يجرِي هذا المجرَى:

فَمِنهُمُ المُنْكِرُ لِلمُنْكَرِ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ، فَذَلِكَ المُسْتَكْمِلُ لِخِصَالِ الخَيْرِ، وَمِنهُمُ المُنْكِرُ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ، فَذَلِكَ مُتَمَسِّكٌ بِخَصْلَتَيْنِ مِنْ خِصَالِ الخَيْرِ، وَمُضَيِّعٌ خَصْلَةً، وَمِنهُمُ المُنْكِرُ بِقَلْبِهِ، وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ، فَذَاكَ الَّذِي ضَيَّعَ أَشْرَفَ الخَصْلَتَيْنِ مِنَ الثَّلاثِ، وَتَمَسَّكَ بِوَاحِدَةٍ، وَمِنهُمْ تَارِكٌ لإِنْكَارِ المُنْكَرِ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَيَدِهِ، فَذَلِكَ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ، وَمَا أَعْمَالُ البِرِّ كُلُّهَا وَالجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله عِنْدَ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ إِلَّا كَنَفْثَةٍ فِي بَحْرٍ لجُيٍّ، وَإِنَّ الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ لا يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ، ولا يَنْقُصَانِ مِنَ رِزْقٍ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ إِمَامٍ جَائِرٍ.

الشرح: قد سبق قولُنا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو أحد الأصول الخمسة عند أصحابنا. ولجّة الماء: أعظمُه، وبحرٌ لُجّيّ: ذو ماء عظيم. والنَّفْثة: الفَعلة الواحدة من نَفَثت الماء من فمي، أي قذفته بقوّة.

قال عليه السلام: لا يعتقدن أحدٌ أنه إن أمر ظالماً بمعروف، أو نهى ظالماً عن منكَر، أن ذلك يكون سبباً لقتل ذلك الظالم المأمور أو المنهي إياه، أو يكون سبباً لقطع رزقه من جهته، فإن الله تعالى قدّر الأجل، وقضى الرِّزق، ولا سبيلَ لأحد أن يَقطع على أحد عمرَه أو رزقَه.

وهذا الكلام ينبغي أن يُحمَل على أنه حثّ وحضّ وتحريض على النّهي عن المنكر والأمر بالمعروف، ولا يُحمَل على ظاهرِه، لأنّ الإنسان لا يجوز أن يُلْقِيَ بنفسِه إلى التَّهلُكة، معتمِداً على أنّ الأجل مقدَّر، وأن الرِّزق مقسوم، وأنّ الإنسان متَى غلب على ظنّه أنّ الظالم يقتله ويقيم على ذلك المنكر، ويضيف إليه منكراً آخر لم يَجُزْ له الإنكار.

فأمّا كلمة العدل عند الإمام الجائر فنحو ما رُوِيَ أنّ زيدَ بن أرقَم رأى عبيد اللّه بن زياد - ويقال: بل يزيد بن معاوية - يَضرِب بقضيبٍ في يده ثَنايَا الحُسين عليه السلام حين حمِل إليه رأسُه، فقال له: إيهاً! ارْفَعْ يدَك، فطالَما رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقبّلها!.

النهي عن المنكر

ونحن نذكر خلاصةً ما يقوله أصحابُنا في النهي عن المنكَر، ونَتْرُكُ الاسْتِقصاء فيه للكُتُب الكلاميّة التي هي أوْلى ببَسط القول فيها من هذا الكتاب.

قال أصحابنا: الكلام في ذلك يقع من وجوه: منها وجوبُه، ومنها طريق وجوبِه، ومنها كيفيّة وجوبِه، ومنها شروط حُسْنه، ومنها شروط وجوبِه، ومنها كيفيّة إيقاعه، ومنها الكلامُ في النّاهي عن المنكر، ومنها الكلام في النّهي عن المنكر.

أمّا وجوبه، فلا ريبَ فيه؛ لأنّ المنكَر قبيح كلّه، والقبيح يجب تركه، فيجب النّهي عنه.

وأمّا طريق وجوبه فقد قال الشيخ أبو هاشم رحمه الله: إنّه لا طريقَ إلى وجوبِهِ إلّا السمع، وقد أجمع المسلمون على ذلك، وَوَرَدَ بِهِ نصّ القرآن في غير موضع. قال الشّيخ أبو عليّ - رحمه الله -: العقل يدلّ على وجوبه، وإلى هذا القول مالَ شيخُنا أبو الحسين رحمه الله.

وأمّا كيفيّة وجوبه فإنّه واجب على الكفاية دون الأعيان، لأنّ الغرض ألّا يقع المنكر، فإذا وقع لأجل إنكار طائفة لم يَبق وجهٌ لوجوب الإنكار على مَن سواها.

وأما شروط حُسنه فوجوه: منها أن يكون ما ينكره قبيحاً، لأنّ إنكار الحَسَن وتحريمه قبيح، والقبيح على ضروب: فمنه ما يَقبُح من كلّ مكلّف، وعلى كلّ حال، كالظلم. ومنه ما يقبح من كلّ مكلّف على وجهٍ دون وجه، كالرّمي بالسهام، وتصريف الحمام، والعلاج بالسّلاح، لأنّ تعاطيَ ذلك لمعرفة الحرب والتقوّى على العدوّ، ولتعرُّف أحوالِ البلاد بالحمام حَسنٌ لا يجوز إنكاره، وإن قصد بالاجتماع على ذلك الاجتماع على السّخف واللّهو ومعاشرة ذوي الرِّيَب والمعاصي فهو قبيحٌ يجب إنكارُه.

ومنه ما يَقبحُ من مكلّف ويَحسنُ من آخَر على بعض الوجوه، كشُرب النَّبيذ، والتشاغل بالشّطرنْج، فأما مَنْ يرى حَظْرَهما، أو يختار تقليد من يُفتي بحَظْرهما فحرامٌ عليه تعاطيهما على كلّ حال، ومتى فعلهما حَسُن الإنكار عليه، وأما من يرى إباحتهما أو مَنْ يختار تقليد مَنْ يُفْتي بإباحتهما، فإنّه يجوز له تعاطيهما على وجهٍ دون وجه، وذلك أنّه يَحسُن شرب النبيذ من غير سُكر ولا مُعاقَرة والاشتغال بالشّطْرنج للفرجة وتخريج الرأي والعقل، ويَقبُح ذلك إذا قُصِد به السخف، وقُصِد بالشرب المعاقَرة والسُّكر، فالثاني يحسن إنكاره ويجب، والأوّل لا يَحسُن إنكاره لأنه حَسنٌ مِن فاعِله.

ومنها أن يعلم المنكِر أنّ ما يُنكِره قبيح، لأنه إذا جوّز حسنَه كان بإنكاره له وتحريمه إيّاه محرِّماً لما لا يأمن أن يكون حَسناً، فلا يأمن أن يكون ما فَعَله من النّهي نَهْياً عن حَسَن، وكلُّ فعل لا يأمن فاعلُه أن يكون مختصاً بوجه قبيح فهو قبيح، ألا ترى أنه يقبحُ من الإنسان أن يخبر على القطع بأن زيداً في الدار إذا لم يأمن ألّا يكون فيها، لأنه لا يأمن أن يكون خبره كَذِباً!

ومنها أن يكون ما ينهى عنه واقعاً، لأنّ غير الواقع لا يحسنُ النهي عنه، وإنما يحسنُ الذمّ عليه، والنهيُ عن أمثاله. ومنها ألّا يغلب على ظنّ المنكِر أنه إن أنكر المنكَر، فعله المنكَر عليه، وضمّ إليه منكَراً آخر، ولو لم ينكِرْ عليه لم يفعل المنكر الآخر، فمتى غَلَب على ظنّه ذلك قَبُح إنكاره، لأنه يصير مَفسدة، نحو أن يغلب على ظننا أنّا إن أنكرْنا على شارب الخمر شُرْبَها شربها وقرن إلى شربها القتل، وإن لم ننكِر عليه شربها ولم يقتل أحداً.

ومنها ألّا يغلب على ظنّ الناهي عن المنكَر أنّ نهيه لا يؤثر، فإن غلب على ظنه ذلك قَبُح نهيه عند من يقول من أصحابنا إنّ التكليف من المعلوم منه أنه يكفر لا يحسن، إلا أن يكون فيه لطف لغير ذلك المكلّف. وأما من يقول من أصحابنا إنّ التكليف من المعلوم منه أنه يكفر حسن وإن لم يكن فيه لطف لغير المكلّف، فإنه لا يصحّ منه القول بقبح هذا الإنكار.

فأما شرائط وجوب النهي عن المنكر فأمور:

منها أن يغلب على الظّنّ وقوع المعصية نحو أن يَضِيق وقتُ صلاة الظهر، ويرى الإنسان لا يتهيّأ للصلاة، أو يراه تهيّأ لشرب الخمر بإعدادِ آلتهِ، ومتَى لم يكن كذلك حَسُنَ منّا أن ندعوَه إلى الصلاة، وإن لم يجب علينا دعاؤه.

ومنها ألّا يغلب على ظنّ الناهي عن المنكَر أنه إن أنكر المنكَر لحقته في نفسه وأعضائه مضرّة عظيمة، فإن غلب ذلك على ظنّه وأنه لا يمتنع من ينكر عليه من فعل ما يُنْكِره عليه أيضاً، فإنه لا يجب عليه الإنكار، بل ولا يحسن منه لأنه مفسدة. وإن غلب على ظنّه أنه لا يفعل ما أنكره عليه ولكنّه يضَرّ به، نُظر فإن كان إضراره به أعظم قُبْحاً مما يتركه إذا أنكر عليه، فإنه لا يحسن الإنكار عليه، لأن الإنكار عليه قد صار والحالة هذه مفسدة، نحو أن يُنْكر الإنسانُ على غيره شُربَ الخمر، فيترك شربَها ويقتله. وإن كان ما يتركه إذا أنكر عليه أعظم قبحاً مما ينزل به من المضرّة، نحو أن يَهُمّ بالكفر، فإذا أنكر عليه تركه وجَرح المنكَر عليه أو قتله فإنه لا يجب عليه الإنكار، ويحسن منه الإنكار، أما قولنا: لا يجب عليه الإنكار، فلأنّ الله تعالى قد أباحنا التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه، فبأنْ يبيحنا ترك غيرنا أن يتلفّظ بذلك عند الخوف على النفس أوْلى، وأمّا قولُنا: إنه يحسن الإنكار، فلأنّ في الإنكار مع الظنّ لما ينزل بالنفس من المَضرّة إعزازاً للدِّين، كما أنّ في الامتناع من إظهار كلمة الكفر مع الصبر على قتل النفس إعزازاً للدِّين، لا فضل بينهما.

فأما كيفية إنكار المنكر فهو أن يبتدئ بالسهل، فإن نفع وإلّا ترقى إلى الصّعب، لأن الغرض ألّا يقع المنكَر، فإذا أمكن ألّا يقع بالسهل فلا معنى لتكلّف الصّعب، ولأنه تعالى أمَرَ بالإصلاح قبل القتال في قوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾[1].

(١) سورة الحجرات، الآية: ٩.

فأما الناهي عن المنكر مَنْ هو؟ فهو كلّ مسلم تمكّن منه واختصّ بشرائطه؛ لأنّ الله تعالى قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1]، ولإجماع المسلمين على أنّ كلّ مَن شاهد غيره تاركاً للصّلاة غير محافظ عليها فله أن يأمرَه بها، بل يجب عليه، إلّا أنّ الإمام وخلفاءه أوْلَى بالإنكار بالقتال، لأنّه أعرَف بسياسة الحرب وأشدّ استعداداً لآلاتها.

فأمّا المنهيّ مَن هو؟ فهو كلّ مكلّف اختصّ بما ذكَرناه من الشّروط، وغير المكلّف إذا همّ بالإضرار لغيره يمنَع منه، ويمنَع الصّبيان وينهون عن شُرْب الخمر حتّى لا يتعوّدوه، كما يؤاخذون بالصّلاة حتّى يمرنوا عليها، وهذا ما ذكره أصحابُنا.

فأمّا قولُه عليه السلام: «ومنهم المنكِر بلسانِه وقلبِهِ، والتارِكُ بيَدِه، فذلك متمسّك بخَصْلتين من خصال الخير، ومضيّع خَصْلة»، فإنّه يَعني به من يَعجِز عن الإنكار باليد المانع، لأنّه لم يُخرِج هذا الكلامَ مخرج الذمّ، ولو كان لم يَعْنِ العاجز لوَجبَ أن يخرج الكلام مَخرَج الذم، لأنّه ليس بمعذور في أن يُنكِر بقلبه ولسانه إذا أخلّ بالإنكار باليد مع القدرة على ذلك، وارتفاع الموانع.

وأمّا قوله: «ضيّع أشرف الخصلتين» فاللّام زائدة، وأصلُه «ضيّع أشرَفَ خَصْلتين من الثّلاث»، لأنه لا وجهَ لتعريف المعهود هاهنا في الخَصْلتين، بل تعريف الثّلاث باللّام أولَى، ويجوز حذفُها من الثّلاث، ولكنّ إثباتَها أحسَن، كما تقول: قتلتُ أشرفَ رجلين من الرّجال الثلاثة. وأمّا قوله: «فذلك ميّت الأحياء»، فهو نهاية ما يكون من الذمّ.

واعلمْ أنّ النهي عن المنكَر، والأمرَ بالمعروف عند أصحابنا أصل عظيم من أصول الدِّين: وإليه تَذهَب الخوارجُ الّذين خرجوا على السُّلطان، متمسّكين بالدِّين وشِعار الإسلام، مجتهدين في العبادة، لأنّهم إنّما خرجوا لِما غلب على ظنونهم، أو عَلِموا جَوْر الوُلاة وظلمهم، وأنّ أحكام الشريعة قد غُيِّرت، وحُكِم بما لم يَحكُم به الله، وعلى هذا الأصل تَبني الإسماعيليّةُ من الشّيعة قَتْلَ ولاةِ الجَوْر غِيلَةً، وعليه بناء أصحاب الزُّهد في الدّنيا الإنكار على الأمراء والخُلَفاء، ومواجهتهم بالكلام الغليظ لمّا عجزوا عن الإنكار باليَدِ، وبالجملة فهو أصلٌ شريف أشرَفُ من جميع أبوابِ البرّ والعبادة، كما قال أميرُ المؤمنين عليه السلام.

---

(1) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

- ٣٨١ -

الأصل: وروى أبو جُحَيْفَة قال: سَمِعْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلامُ يَقُولُ: إِنَّ أَوَّلَ مَا تُغْلَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَادِ، الْجِهَادُ بِأَيْدِيكُمْ، ثُمَّ بِأَلْسِنَتِكُمْ، ثُمَّ بِقُلُوبِكُمْ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ بِقَلْبِهِ مَعْرُوفاً وَلَمْ يُنْكِرْ مُنْكَراً، قُلِبَ فَجُعِلَ أَعْلاهُ أَسْفَلَهُ، وَأَسْفَلُهُ أَعْلاهُ.

الشرح: إنّما قال ذلك لأنّ الإنكار بالقَلْب آخِرُ المراتب، وهو الّذي لا بدّ منه على كلّ حال، فأمّا الإنكار باللّسان وباليد فقد يكون منهما بُدٌّ، وعنهما عُذْر، فمن تَرَك النهيَ عن المنكر بقلبه، والأمرَ بالمعروف بقلبه، فقد سَخِط الله عليه لعصيانه، فصار كالممسوخ الّذي يَجعَل الله تعالى أعلاه أسفَله، وأسفَله أعلاه تشويهاً لخلقته، ومن يقول بالأنفس الجسمانيّة، وإنّها بعد المفارقة يَصعَد بعضُها إلى العالم العُلْويّ: وهي نفوس الأبرار وبعضها يَنزِل إلى المركز، وهي نفوس الأشرار، يتأوّل هذا الكلام على مذهبه، فيقول: إنّ مَنْ لا يعرف بقلبه معروفاً، أي لا يَعْرِف من نفسه باعثاً عليه ولا متقاضياً بفعله، ولا يُنكِر بقلبه منكَراً، أي لا يأْنَف منه ولا يستقبحه، ويمتعِض من فعله يقلب نفسه التي قد كان سبيلُها أن تَصعد إلى عالَمِها فتُجعَل هاويةً في حَضيض الأرض، وذلك عندَهم هو العذاب والعقاب.

- ٣٨٢ -

الأصل: إِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيءٌ.

الشرح: تقول: مرُؤَ الطّعام بالضم، يَمرُؤ مَراءة فهو مَريءٌ على «فَعِيل» مثل خفيف وثقيل، وقد جاء مَرِئَ الطّعام بالكَسر، كما قالوا فَقِه الرجُل وفَقُه. ووَبِئ البلد بالكسر يَوْبَأ وبَاءَة فهو وَبيءٌ على «فعيل» أيضاً، ويجوز فهو وَبِئٌ على «فَعِل» مثل حَذِر وأَشِر.

يقول عليه السلام: الحقّ وإن كان ثقيلاً إلّا أن عاقبته محمودة، ومَغَبّته صالحة، والباطلُ وإن كان خفيفاً إلّا أنّ عاقبته مذمومة، ومَغَبّته غير صالحة، فلا يحملنّ أحدَكم حلاوةُ عاجلِ الباطل على فعله، فلا خَير في لذّة قليلة عاجلة، يتعقّبها مضارُّ عظيمةٌ آجلة، ولا يَصرِفنّ أحدَكم عن الحق ثِقلُه فإنّه سيَحمَد عُقبَى ذلك، كما يَحمَد شاربُ الدّواء المُرّ شُرْبه فيما بعدُ إذا وَجَد لذّةَ العافية.

- ٣٨٣ -

الأصل: لا تَأْمَنَنَّ عَلَى خَيْرِ هَذِهِ الأُمّةِ عَذَابَ اللهِ، لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(١) وَلا تَيْأَسَنَّ لِشَرِّ هَذِهِ الأُمّةِ مِنْ رَوْحِ اللهِ تَعَالَى ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٢).

الشرح: هذا كلامٌ ينبغي أن يُحمَل على أنّه أراد عليه السلام النّهيَ عن القطع على مغيب أحدٍ من النّاس، وأنّه لا يجوز لأحد أن يقول: فلان قد نجا، ووجبتْ له الجنّة، ولا فلان قد هَلَك ووجبتْ له النار، وهذا القول حقّ؛ لأنّ الأعمال الصالحة لا يُحكم لصاحبها بالجنّة إلّا بسلامة العاقبة، وكذلك الأعمال السّيئة لا يُحكَم لصاحبها بالنّار إلّا إنْ مات عليها، فأمّا الاحتجاج بالآية الأولى فلقائل أن يقول: إنّها لا تدلّ على ما أفتى عليه السلام به، وذلك لأنّ معناها أنّه لا يجوز للعاصي أن يأمن مَكْرَ الله على نفسه، وهو مقيمٌ على عِصْيانه، الا ترى أنّ أوّلها: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩٩﴾(٣)، وليست دالّة عَلَى ما نحن فيه، لأن الذي نحن فيه: هل يجوز لأحدٍ أن يأمَن على الصّالحين من هذه الأمّة عذابَ الله.

فأمّا الآية الثانية فالاحتجاج بها جيّد لا شُبهَة فيه، لأنّه يجوز أن يَتوب العاصي والتوبة من رَوْح الله.

فإن قلتَ: وكذاك يجوز أن يَكفُر المسلِم المطيع. قلت: صدقتَ، ولكنّ كفرَه ليس من مكرِ الله، فدَلّ على أنّ المراد بالآية أنه لا ينبغي للعاصي أن يأمَن من عقوبة الله ما دام عاصياً، وهذا غيرُ مسألتِنا.

- ٣٨٤ -

الأصل: البُخْلُ جَامِعٌ لِمَسَاوِئِ العُيُوبِ، وَهُوَ زِمَامٌ يُقَادُ بِهِ إِلَى كُلِّ سُوءٍ.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٧.
(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ٩٧، ٩٩.

الشرح: قد تقدّم القول في البخل والشحّ. ونحن نذكر هاهنا زيادات أخرى.

بعض ما ورد في الجود والبخل

قال بعض الحكماء: السّخاء هيئة للإنسان، داعيةٌ إلى بَذْل المقتنيات، حصل معه البَذْل لها أو لم يَحصُل، وذلك خُلقٌ، ويقابله الشّحّ، وأمّا الجود، فهو بذلُ المُقتنَى، ويقابله البُخْل، هذا هو الأصل، وإن كان كلّ واحد منها قد يُستعمَل في موضع الآخر، والّذي يدلّ على صحّة هذا الفَرْق أنهم جعلوا اسم الفاعل من السّخاء والشحّ على بناء الأفعال الغريزية، فقالوا: شحيح وسخيّ، فبنَوْه على «فَعيل» كما قالوا: حليم وسفيه وعَفِيف، وقالوا: جائد وباخل، فبنَوْها على «فاعل» كضارِب وقاتِل، فأما قولُهم: بخيل، فمصروف عن لفظ «فاعل» للمبالغة، كقولهم في راحم رَحيم، ويدلّ أيضاً على أنّ السّخاء غريزة وخُلُق أنّهم لم يَصِفوا الباريء سبحانه، به فيقولوا سَخِيّ، فأمّا الشّح فقد عظّم أمره وخوّف منه، ولهذا قال ﷺ: «ثلاثٌ مُهلِكات: شحّ مُطاع، وهَوًى متّبعٌ، وإعجابُ المرء بنفسه»[1]، فخصّ المطاع تنبيهاً على أنّ وجودَ الشّحّ في النفس فقط ليس ممّا يستحقّ به ذمّ لأنه ليس من فعله، وإنّما يُذَم بالانقياد له، قال سبحانه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾[2]، وقال: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾[3].

وقال ﷺ: لا يجتمع شحّ وإيمانٌ في قلب أبداً[4].

فأمّا الجود فإنّه محمود على جميع ألسنة العالم، ولهذا قيل: كفى بالجود مدحاً أنّ اسمه مطلقاً لا يقع إلّا في حَمْد، وكَفَى بالبخل ذمًّا أن اسمه مطلقاً لا يقع إلا في ذم.

وقيل لحكيم: أيّ أفعال البَشَر أشبَه بأفعال الباري سبحانه؟ فقال: الجُود.

وقال النّبي ﷺ: «الجُود شجرةٌ من أشجار الجنّة، مَن أخَذَ بغُصْن مِن أغصانها أدّاه إلى الجنة، والبخلُ شجرةٌ من أشجار النّار من أخذ بغُصْن من أغصانِها أدّاه إلى النّار»[5].

ومن شَرَف الجود أن الله سبحانه قَرَن ذكره بالإيمان، ووَصَف أهله بالفلاح، والفَلاح اسمٌ جامع لسعادة الدّارَين.

---

(١) أخرجه الشهاب في «مسنده» (٣٢٦)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٢٤٧٥).

(٢) سورة التغابن، الآية: ١٦.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٨.

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢٣٩٥)، والنسائي في «سننه» (٣١١٤)، وأحمد في «مسنده» (٧٤٧٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٨٢٨).

(٥) أخرجه السيوطي في جامعه رقم: ٤٨٠٣ وأخرجه السيوطي في الدر المنثور: ٦/ ١٩٧.

قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]. وقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2].

وحقّ للجود بأن يُقرَن بالإيمان، فلا شيء أخصّ به وأشدّ مجانسَة له منه، فإن من صفة المؤمن انشراح الصّدر، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[3]، وهذا من صفات الجواد والبخيل، لأنّ الجواد واسعُ الصدر، منشرح مستبشِر للإنفاق والبَذْل، والبخيل قَنُوط ضيّق الصدر، حَرِج القَلْب مُمسِك.

وقال النبيّ ﷺ: «وأيّ داءٍ أدوَأ من البُخل»[4].

والبُخل على ثلاثة أضرُب: بخلُ الإنسان بمالِه على نفسه، ويخلُه بماله على غيره، ويخلُه بمال غيره على نفسه أو على غيره، وأفحشُها بُخلُه بمالِ غيره على نفسه، وأهوَنُها - وإن كان لا هيِّنَ فيها - بُخلُه بماله على غيره.

وقال ﷺ: «اللّهم اجعلْ لمنفق خَلَفاً، ولممسِك تَلفاً»[5].

وقال: «إنّ الله عزّ وجلّ يُنزِل المعونة على قدْر المؤونة»[6].

وقال أيضاً: «مَن وسّع وُسّع عليه»[7].

وقالت الفلاسفةُ: الجود على أقسام: فمنها الجودُ الأعظم، وهو الجود الإلٰهيّ، وهو الفَيْض العامّ المطلَق، وإنما يختلف لاختلاف الموادّ واستعداداتِها، وإلّا فالفيض في نفسه عامٌّ غيرُ خاصّ، ويعدّه جُودُ الملوك، وهو الجود بجُزء من المال على من تدعُوهم الدّواعي والأغراض إلى الجُود عليه، ويَتلوه جودُ السّوقة، وهو بَذْل المال للعُفاة أو النّدامى والشَّرب والمعاشرين والإحسان إلى الأقارب.

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٣ - ٥. (٢) سورة الحشر، الآية: ٩.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.
(٤) أخرج البخاري، كتاب: فرض الخمس، باب: من الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين (٣١٣٧)، وأحمد في «مسنده» (١٣٨٨٩).
(٥) أخرجه البخاري، كتاب: الزكاة، باب: قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ (١٤٤٢)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: في المنفق والممسك (١٠١٠).
(٦) ذكره في «فيض القدير» (٢/ ٣١٨)، والمتقي الهندي في «كنز العمال» (١٥٩٩٢)، ونسبه لابن لال.
(٧) ذكره في «فيض القدير» (٤/ ٥٤).

قالوا: واسم الجودِ مجاز، إلّا الجود الإلٰهي العامّ، فإنه عارٍ عن الغرَض والدّاعي. وأما من يُعطِي لغرضٍ وداعٍ نحو أن يحبّ الثناء والمحمَدة، فإنه مستعيض وتاجر يُعطِي شيئاً ليأخذَ شيئاً، قالوا قولَ أبي نُواس:

فتًى يشتري حُسنَ الثناء بمالهِ ... ويَعلمُ أنّ الدائراتِ تدورُ

ليس بغاية في الوَصْف بالجود التامّ، بل هو وصف بتجارة محمودة، وأحسَن منه قولُ ابن الرّومي:

وتاجر البرِّ لا يزالُ له ... رِبحان في كل مَتْجر تجِرَهْ

أجرٌ وحمدٌ وإنما طلب الأجـ ... ـر ولكنْ كلاهُما اعتورَهْ

وأحسن منهما قولُ بشّار:

ليس يُعطيك للرجاء ولا الخو ... فِ ولكن يَلذُّ طَعم العَطاءِ

ونحن قد ذكرْنا ما في هذا الموضع من البَحْث العقلي في كُتُبنا العقليّة.

- ٣٨٥ -

الأصل: يا بْنَ آدَمَ، الرِّزْقُ رِزْقانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، ورِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فإنْ لَمْ تَأْتِهِ أتاكَ، فَلا تَحْمِل هَمَّ سَنَتِكَ عَلَى هَمِّ يَوْمِكَ، كَفَاكَ كُلُّ يوم ما فِيهِ، فإنْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمُرِكَ فإنَّ الله تَعالى سَيُؤتِيكَ في كُلِّ غَدٍ جَديدٍ ما قُسِمَ لَكَ، وإنْ لَمْ تَكُنِ السَّنَةُ مِنْ عُمُرِكَ فَمَا تَصْنَعُ بِالهَمِّ فِيما لَيْسَ لَكَ، ولَمْ يَسْبقْكَ إلى رِزْقِكَ طالِبٌ، ولنْ يَغْلِبَكَ عَلَيْهِ غالِبٌ، ولن يُبْطِئَ عنكَ ما قَدْ قُدِّرَ لَكَ.

قالَ: وقدْ مضى هَذا الكلامُ فيما تقدَّمَ مِنْ هذَا البابِ، إلّا أنهُ هاهنا أوضحُ وأشرحُ، فلذلكَ كرَّرْناه على القاعدَةِ المُقرَّرَةِ في أوّلِ هذَا الكتاب.

الشرح: قد تقدّم القول في معاني هذا الفصل، ورُوي أنّ جماعةً دخلوا على الجُنيد، فاستأذنوه في طلب الرزق، فقال: إن علمتم في أيِّ موضع هو فاطلبوه، قالوا: فنسأل الله تعالى ذلك، قال: إن علمتم أنه يَنساكم فذكّروه، قالوا: فندخل البيت ونتوكل وننتظر ما يكون، فقال: التوكل على التجربة شَكّ، قالوا: فما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة.

ورُوي أنّ رجلاً لازم باب عمرَ فضَجِر منه، فقال له: يا هذا، هاجرت إلى الله تعالى أم إلى باب عمر! اذهب فتعلّم القرآن، فإنه سيغنيك عن باب عمَر، فذهب الرجل وغاب مدّة حتى

افتقده عمرُ، فإذا هو معتزل مشتغل بالعبادة، فأتاه عمرُ فقال له: إني اشتقْت إليك، فما الذي شَغلك عنّا! قال: إني قرأتُ القرآن فأغناني عن عمر وآل عمر، فقال: رحمك الله! فما وجدتَ فيه؟ قال: وجدتُ فيه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1]، فقلت: رِزْقي في السماء، وأنا أطلبه في الأرض، إني لبئس الرّجل، فبكى عمرُ وقال: صدقت، وكان بعد ذلك يتتابه ويَجلسُ إليه.

- ٣٨٦ -

الأصل: رُبَّ مُسْتَقْبِلٍ يَوْماً لَيْسَ بِمُسْتَدْبِرِهِ، ومَغْبُوطٍ في أوَّلِ لَيْلَةٍ قامَتْ بَوَاكِيهِ في آخِرِهِ.

الشرح: مثلُ هذا قولُ الشاعر:

يا راقدَ الليلِ مسروراً بأوّلِه ... إنّ الحوادث قد يَطرُقن أسحارا

ومِثلُه:

لا يَغُرّنْك عِشاءٌ ساكنٌ ... قد يُوافي بالمَنِيّات السَّحَرْ

- ٣٨٧ -

الأصل: الكلامُ في وَثاقِكَ ما لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ، فإذا تكلَّمت به صِرْتَ في وَثاقِهِ، فاخْزُنْ لِسانَكَ كما تَخْزُنُ ذَهَبَكَ وَوَرِقَكَ، فَرُبَّ كلِمَةٍ سَلَبَتْ نِعْمَةً.

الشرح: قد تقدم القولُ في مدح الصّمت وذمِّ الكلام الكثير.

وكان يقال: لا خير في الحياة إلا لصَمُوت واعٍ، أو ناطق مُحسِن.

وقيل لحذيفة: قد أطلتَ سجن لسانِك! فقال: لأنه غيرُ مأمون إذا أُطلِق. ومن أمثال العرب: رُبَّ كلمةٍ تقول: دَعْني.

وقالوا: أصلها أنّ بعض ملوك الحيرة كان قد استراب ببعض خَوَله، فنزل يوماً وهو يتصيّد على تَلْعة، ونزل أصحابُه حوله فأفاضوا في حديث كثير، فقال ذلك الإنسان: أترى لو أنَّ رجلاً

(١) سورة الذاريات، الآية: ٢٢.

ذُبحَ على رأس هذه التَّلعة هل كان يسيلُ دمُه إلى أوّل الغائط؟ فقال المَلِك: هَلُمّوا فاذْبَحوه لننظر، فذَبحوه، فقال المَلِك: ربَّ كلمةٍ تقولُ: دَعْني.

وقال أكثمُ بن صَيْفيّ: من إكرام الرَّجل نفسَه ألّا يتكلّم بكلّ ما يعلم.

وتذاكر قومٌ من العرب وفيهم رجلٌ باهِليٌّ ساكت، فقيل له: بحَقٍّ ما سُمّيتم خُرْسَ العَرَب، فقال: أما علمتم أنّ لسان المرء لغيره، وسمَعه لنفسِه!

- ٣٨٨ -

الأصل: لا تَقُلْ مَا لا تَعْلَمُ، بَلْ لا تَقُلْ كُلَّ مَا تَعْلَمُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ فَرَضَ عَلَى جَوَارِحِك كُلِّها فَرَائِضَ يَحْتَجُّ بِهَا عَلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الشرح: هذَا نَهيٌ عن الكذب، وأن تقول ما لا تَأمَن من كونه كَذِباً، فإنّ الأمرين كِليْهما قبيحان عَقلاً عند أصحابنا.

فإن قلتَ كيف يقول أصحابكم: إنّ الخبر الّذي لا يأمن كونه كَذِباً قبيح، والناس يَسْتَحْسِنون الأخبارَ عن المظنون.

قلت: إذا قال الإنسان: زيدٌ في الدار وهو يظنّه في الدار ولا يَقطع عليه، فإنّ الحسَن منه أن يُخبر عن ظنّه كأن يقول: أُخبِرُ عن أنّي أظنّ أنّ زيداً في الدار، وإذا كان هذا هو تقديره فالخبر إذنْ خبرٌ عن معلوم لا عن مَظْنونٍ، لأنّه قاطع على أنّه ظانٌ أنّ زيداً في الدار.

فأما إذا فرِض الخبر لا على هذا الوجه بل على القَطْع بأن زيداً في الدار وهو لا يقطع على أنّ زيداً في الدّار، فقد أخبر بخبرٍ ليسَ على ما أخبر به عنه، لأنّه أخبر عن أنّه قاطع، وليس بقاطعٍ، فكان قبيحاً.

- ٣٨٩ -

الأصل: احْذَرْ أَنْ يَرَاكَ اللهُ عِنْدَ مَعْصِيَتِهِ، ويَفْقِدَكَ عِنْدَ طَاعَتِهِ، فَتَكُونَ مِنَ الخَاسِرِينَ، وَإِذَا قَوِيتَ فَاقْوَ عَلَى طَاعَةِ اللهِ، وَإِذَا ضَعُفْتَ فَاضْعُفْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ.

الشرح: مَن علم يقيناً أنّ الله تعالى يراه عند معصيته، كان أجْدَرَ الناس أن يجتنبَها، كما إذا علمْنا يقيناً أنّ الملك يرى الواحد منّا وهو يراود جاريتَه عن نفسه، أو يحادث ولده ليفجُر به، ولكنّ اليقين في البَشَر ضعيفٌ جدًّا، أو أنّهم أحمقُ الحيوان وأجهَلُه، وبحقّ أقول: إنّهم إن اعتقدوا ذلك اعتقاداً لا يخالطه الشكّ، ثم واقعوا المعصية، وعندهم عقيدة أخرى ثابتة أنّ العقاب لاحِقٌ بمن عصى، فإن الإبلَ والبقرَ أقربُ إلى الرَّشاد منهم.

وأقول: إنّ الذي جرّأ الناسَ على المعصية الطمعُ في المغفرة، والعفو العامّ. وقولهم: الحلم والكرم والصّفح من أخلاق ذوي النَّباهة والفَضْل من الناسِ، فكيف لا يكون من الباري سبحانه عفوٌ عن الذّنوب!

وما أحسَن قولَ شيخِنا أبي عليّ رحمه الله: لولا القولُ بالإرْجاء، لما عُصيَ اللهُ في الأرض.

– ٣٩٠ –

الأصل: الرُّكُونُ إِلَى الدُّنْيَا مَعَ ما تُعَايِنُ مِنْهَا جَهْلٌ، وَالتَّقْصِيرُ فِي حُسْنِ العَمَلِ إِذَا وَثِقْتَ بِالثَّوَابِ عَلَيْهِ غَبْنٌ، وَالطُّمَأْنِينَةُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ قَبْلَ الاخْتِبار لَهُ عَجْزٌ.

الشرح: قد تقدّم الكلام في الدّنيا وحُمْق من يَرْكن إليها مع معاينة غدرِها، وقلّة وفائها ونقضِها عهودَها، وقتلِها عُشاقَها.

ولا ريبَ أن الغَبْن وأعظمُ الغبْن هو التقصير في الطاعة مع يقين الثواب عليها، وأمّا الطمأنينة إلى مَنْ لم يعرف ولم يختبرْ فإنها عجز – كما قال عليه السلام – يَعني عجزاً في العقل والرأي، فإن الوثوق مع التجربة فيه ما فيه، فكيف قبل التجربة!

وقال الشاعر:

وكـنـتُ أرى أن الـتـجـاربَ عُـدَّةٌ ... فخانت ثقاتُ الناس حين التّجاربِ

– ٣٩١ –

الأصل: مِنْ هَوَانِ الدُّنْيَا عَلَى الله أَنَّهُ لا يُعْصَى إِلَّا فِيهَا، وَلا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بتَرْكِهَا.

الشرح: هذا الكلام نسبَه الغَزاليّ في كتاب «إحياء علوم الدين» إلى أبي الدَّرداءِ، والصحيح أنه من كلام عليّ عليه السلام، ذكَرَه شيخُنا أبو عثمانَ الجاحظ في غير موضع من كُتُبه، وهو أعرَف بكلام الرجال.

بعض ما قيل في حال الدنيا

وقد تقدّم من كلامنا في حال الدنيا وهَوانِها على الله واغترارِ الناس بها وغدْرِها بهم، وذَمّ العقلاء لها، وتحذيرهم منها ما فيه كفاية.

ونحن نذكرها هنا زيادةً على ذلك. يقال: إنّ في بعض كتب الله القديمة: الدّنيا غنيمة الأكياس، وغفلة الجُهّال، لم يَعرِفوها حتى خرجوا منها فسألوا الرَّجعة فلم يَرجِعوا.

وقال بعض العارفين: مَن سأل الله تعالى الدّنيا فإنما سأله طولَ الوقوف بين يديه.

وقال الحسن: لا تَخرُج نفسُ ابنِ آدمَ من الدّنيا إلّا بحَسَرات ثلاث: أنه لم يَشبَع ممّا جَمَع، ولم يُدرِك ما أمّل، ولم يُحسِنِ الزّاد لِما يُقدِم عليه.

ومن كلامه: أهِينوا الدّنيا، فوالله ما هيَ لأحدٍ بأهنأ منها لمن أهانها.

وقال محمد بن المنكدر: أرأيتَ لو أنّ رجلاً صام الدهرَ لا يُفطِر، وقام الليل لا يَفتُر، وتصدّق بماله، وجاهد في سبيل الله، واجتنب محارمَ الله تعالى، غير أنّه يؤتَى به يومَ القيامة فيقال: إنّ هذا مع ما قد عمل كان يَعظم في عينه ما صغّر الله، ويصغُر في عينه ما عظّم الله، كيف ترى يكون حالُه! فمَن منّا ليس هكذا، الدّنيا عظيمة عندَه مع ما اقترَفْنا من الذنوب والخطايا.

وقد ضرَبَت الحكماءُ مَثَلاً للدّنيا نحن نذكره هاهنا، قالوا: مَثَل الدّنيا وأهلِها كقوم رَكِبوا سفينةً فانتهتْ بهم إلى جزيرة، فأمَرَهم الملّاح بالخروج لقضاء الحاجة وحَذّرهم المُقام، وخوّفهم مرورَ السَّفينة، واستعجالها، فتفرّقوا في نواحي الجَزيرة، فقضَى بعضُهم حاجَته وبادر إلى السفينة، فصادف المكانَ خالياً، فأخذ أوسعَ المواضعِ وألْيَنَها وأوفَقَها لمراده. وبعضهم توقّف في الجزيرة يَنظُر إلى أزهارها وأنوارِها العجيبة، وغِياضِها الملتفّة، ونَغمات طيورِها الطيّبة، وألحانِها الموزونة الغريبة، ولحظ في تزيينها أحجارَها وجواهرَها ومعادنَها المختلفة الألوان ذواتِ الأشكال الحَسَنة المنظَر، العجيبة النّقش، السالبة أعينَ الناظرين بِحُسن زِبْرِجها، وعجائبِ صُوَرِها، ثمّ تنبّه لخطر فَوات السفينة، فرجع إليها فلم يصادِف إلا مكاناً ضيّقاً حَرَجاً، فاستقرّ فيه. وبعضهم أكَبّ فيها على تلك الأصداف والأحجار، وقد أعجَبه حُسنُها، ولم تَسمَح نفسُه بإهمالها وتَركِها، فاستصحَب منها جملةً، فجاء إلى السفينة فلم يجد إلّا مكاناً ضيّقاً، وزاده ما حمله ضِيقاً، وصار ثِقْلاً عليه ووَبالاً، فندم على أخذِه، ولم تُطِعه نفسُه على رميه، ولم

يجد موضعاً له، فحَمَله على عنقه ورأسِه، وجلس في المكان الضيّق في السفينة، وهو متأسّف على أخذِه ونادِم، وليْس ينفعه ذلك. وبعضُهم تولّج بتلك الأنوار والغِياض، ونسيَ السّفينة وأبعَد في متفرَّجِه ومتنزَّهه، حتَّى إنّ نداء الملّاح لم يَبلُغه لاشتغاله بأكل تلك الثّمار، واشتمامِه تلك الأنوار، والتفرّج بين تلك الأشجار، وهو مع ذلك خائفٌ على نفسه من السّباع، والسَّقطات والنَّكبات، ونَهْشِ الحيّات، وليس ينفكّ عن شَوْكٍ يتشبّث بثيابه، وغصن يَجْرح جسمَه، ومَرْوةٍ تُدمِي رِجلَه، وصوتٍ هائل يَفزَع منه، وعَوْسَج يملأ طريقَه، ويَمنعه عن الانصراف لو أراده، وكان في جماعة ممّن كان معه في السّفينة حالهم حالُه، فلمّا بلغهم نداءُ السّفينة راحَ بعضُهم مثقَلاً بما معه فلم يجدْ في السفينة موضعاً واسعاً ولا ضيّقاً، فبقِي على الشّط حتّى مات جوعاً. وبعضهم بَلَغه النّداء، فلم يُعرِّج عليه، واستغرقَته اللّذّة، وسارت السفينة، فمنهم من افترسَتْه السّباع، ومنهم من تاهَ وهامَ على وجهه حتَّى هلك، ومنهم من ارتطَمَ في الأوحال، ومنهم من نهشَتْه الحيَّات، فتفرّقوا هَلْكَى كالجيفَ المنتِنة. فأمّا من وصل إلى السفينة مُثقَلاً بما أخَذَه من الأزهار والفاكهة اللذيذة، والأحجار المعجِبة، فإنها استرقّته وشغَله الحُزن بحفظِها والخوفِ من ذَهابها عن جميع أموره، وضاق عليه بطريقها مكانُه، فلم تَلبَث أن ذبلتْ تلك الأزهار، وفَسَدت تلك الفاكهة الغَضّة، وكَمَدتْ ألوانُ الأحجار وحالت، فظهر له نَتْنُ رائحتها، فصارت مع كونها مضيقة عليه مؤذِيَةً له بنَتْنِها ووَحْشَتها، فلم يجد حيلةً إلّا أن ألقاها في البحر هَرَباً منها وقد أثر في مِزاجه ما أكَله منها، فلم ينتَهِ إلى بلده إلّا بعد أن ظهرتْ عليه الأسقام بما أكَل وما شَمّ من تلك الروائح، فبلغ سقيماً وَقيذاً مدبراً، وأمّا من كان رجع عن قريب وما فاته إلّا سَعَة المَحَلّ، فإنه تأذى بضِيق المكان مدّة، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح، وأما من رجع أوّلاً فإنه وَجَد المكان الأوْسَع، ووَصل إلى الوطن سالماً طيّبَ القلب مسروراً.

فهذا مِثال أهلِ الدنيا في اشتغالهم بحظوظِهم العاجلة، ونِسيانهم مورِدَهم ومصدرَهم، وغفلتِهم عن عاقبة أمرهم، وما أقبَح حال من يَزعُم أنّه بصير عاقل وتغرّه حجارة الأرض، وهي الذّهب والفضّة، وهَشيم النّبت وهو زينة الدنيا، وهو يَعلَم يقيناً أنّ شيئاً من ذلك لا يَصحَبه عند الموت، بل يصير كُلُّه وبالاً عليه، وهو في الحال الحاضرة شاغلٌ له بالخوف عليه، والحزن والهمّ لحفظه، وهذه حال الخَلْق كلّهم إلّا من عَصَمَه الله.

وقد ضُرِب أيضاً لها مِثالٌ آخَر في عبور الإنسان عليها، قالوا: الأحوال ثلاثة: حالٌ لم يكن الإنسان فيها شيئاً، وهي ما قبل وجودِه إلى الأزَل، وحالٌ لا يكون فيها موجوداً مُشاهداً للدّنيا، وهي بعد موته إلى الأبد، وحالة متوسّطةٌ بين الأزَل والأبَد، وهي أيّام حياته في الدنيا، فلْينظر العاقلُ إلى الطّرَفين الطويلين، ولينظرْ إلى الحالة المتوسّطة، هل يجد لها نسبةً إليها، وإذا رأى

العاقل الدّنيا بهذه العين لم يَركَن إليها، ولم يُبالِ كيف تقضّت أيّامُه فيها، في ضُرّ وضِيق، أو في سَعةٍ ورَفاهة، بل لا يَبني لَبِنةً على لَبِنة، توفّي رسولُ الله ﷺ وما وضَعَ لَبِنة على لَبِنة، ولا قَصَبة على قَصَبة. ورأى بعضَ الصّحابة بَنى بيتاً من جِصّ فقال: أرى الأمرَ أعجَل من هذا، وأنكَر ذلك، ولهذا قال النّبي ﷺ: «ما لي وللدنيا، إنما مثلي ومَثلُها كراكبٍ سار في يوم صائف، فرُفِعتْ له شجرةٌ فقام تحت ظلّها ساعةً ثمّ راح وترَكَها»[1].

وإلى هذا أشار عيسى ابنُ مريمَ حيث قال: الدنيا قنطرة، فاعبرُوها ولا تَعمرُوها، وهو مَثلٌ صحيح، فإنّ الحياة الدنيا قَنطرةٌ إلى الآخرة، والمَهْد هو أحد جانِبَي القَنْطرة، واللّحد الجانب الآخر، وبينهما مسافة محدودة، فمن النّاس من قطع نصفَ القنطَرة، ومنهم من قطع ثُلثَيها، ومنهم من لم يبق له إلّا خُطوةٌ واحدة وهو غافل عنها، وكَيفَما كان فلا بدّ من العبور والانتهاء، ولا ريبَ أنّ عمارة هذه القنطرة، وتزيينها بأصناف الزّينة لمن هو محمول قَسْراً وقَهْراً على عُبورها، يسوقه سائقٌ عنيف، غاية الجهل والخِذلان.

وفي الحديث المرفوعُ: «إنّ رسول الله ﷺ مَرّ على شاةٍ مَيْتةٍ، فقال: أتروْن أن هذه الشاة هيّنةٌ على أهلها؟ قالوا: نعم، ومِنْ هوانها ألقَوْها، فقال: والذي نفسي بيده للدّنيا أهوَن على الله من هذه الشّاة على أهلِها، ولو كانت الدّنيا تعدل عند الله جَناحَ بَعوضة لما سَقَى كافراً منها شربةَ ماء»[2].

وقال ﷺ: «الدّنيا سِجنُ المؤمن، وجنّة الكافر»[3].

وقال أيضاً: «الدّنيا ملعونة، ملعونٌ ما فيها، إلّا مَا كان لله منها»[4].

وقال أيضاً: «مَنْ أحبّ دنياه أضرّ بآخرته، ومن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه، فآثِروا ما يَبقَى على ما يَفنى»[5].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٧٣٩)، والطيالسي في «مسنده» (٢٧٧)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥٢٢٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب: «الزهد»، باب: مثل الدنيا (٤١١٠)، وأحمد في «مسنده» (٨٢٥٩)، والدارمي، كتاب: الرقاق، باب: في هوان الدنيا على الله (٢٧٣٧).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب: (٢٩٥٦)، والترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (٢٣٢٤)، وابن ماجه كتاب: الزهد، باب: مثل الدنيا (٤١١٣)، وأحمد في «مسنده» (٦٨١٦).

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: منه (٢٣٢٢)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: مثل الدنيا (٤١١٢).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩١٩٨).

وقال أيضاً: «حُبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة»[1].

وروى زيدُ بنُ أرقَم قال: كنّا مع أبي بكر، فدعا بشراب، فأُتِي بماءٍ وعَسَل، فلما أدناه مِنْ فيه بكى حتى أبكى أصحابه، فسكتوا وما سكَت، ثم عاد لِيَشرَب، فبَكَى حتى ظنُّوا أنّهم لا يَقدِرون على مسألته، ثمّ مسح عينيه، فقالوا: يا خليفةَ رسول الله، ما أبكاك؟ قال: كنتُ مع رسول الله ﷺ فرأيتُه يدفَع بيَدِه عن نفسه شيئاً، ولم أر معه أحداً، فقلت: يا رسول الله، ما الذي تدفع عن نفسك؟ قال: «هذه الدّنيا مُثّلت لي»، فقلتُ لها: إليك عني، فرجعتْ وقالت: إنّك إن أفلتّ منّي لم يفلتْ منّي مَن بَعدَك. وقال ﷺ: «يا عَجَباً كلّ العَجَب للمصدِّق بدار الخلود وهو يَسْعى لدار الغرور!»[2].

ومن الكلام المأثور عن عيسى عليه السلام: لا تتّخذوا الدّنيا ربًّا فتتخذكم الدّنيا عَبِيداً، فاكنزوا كَنْزَكم عندَ من لا يضيِّعه، فإن صاحب كَنْز الدنيا يخَافُ عليه الآفة، وصاحب كنز الآخرة لا يخاف عليه.

- ٣٩٢ -

الأصل: مَنْ أبطَأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ.

وفي رِوَايَةٍ أُخرَى: مَنْ فاتَهُ حَسَبُ نَفْسِهِ، لَمْ يَنْفَعْهُ حَسَبُ آبائِهِ.

الشرح: قد تقدّم مِثلُ هذا، وقد ذكرنا ما عندَنا فيه، وقال الشاعر:

لئن فخرتَ بآباءٍ ذَوِي حَسَبٍ ... لقد صدقتَ ولكنْ بئس ما وَلَدُوا

وكان يقال: أجهَل الناس من افتخر بالعظام البالية، وتبجّح بالقرون الماضية، واتّكل على الأيام الخالية.

وكان يقال: من طريف الأمور حَيٌّ يتّكل على ميّت. وكان يقال: ضَعَة الدنيء في نفسه والرفيع في أصله، أقبح من ضعة الوضيع في نفسِه وأصْله، لأن هذا تشبّه بآبائه وسَلفِه، وذاك

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٤٥٨)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٢٤٧)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (١/ ٩٢).

(٢) أخرج بنحوه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٨٢)، والشهاب في «مسنده» (٥٩٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٢٩).

قصَّر عن أصله وسلَفه، فهو إلى الملامة أقرَب، وعن العذر أبعد.

افتخر شريفٌ بأبيه، فقال خَصمه: لو وُفّقتَ، لما ذكرت أباك، لأنه حجّةٌ عليك تُنادي بنقْصك، وتقرّ بتخلّفك.

كان جعفر بنُ يحيى يقول: ليس من الكِرام من افتَخَر بالعظام.

وقال الفضل بن الرّبيع: كفى بالمرء عاراً أن يفتَخِر بغيره.

وقال الرشيد: من افتَخَر بآبائه فقد نادَى على نَفْسه بالعَجْز، وأقرّ على همّته بالدّناءة.

وقال ابنُ الرّوميّ:

وما الحسبُ الموروثُ لا دَرَّ دَرُّه	بمحتَسب إلا بآخَرَ مُكْتَسَبْ
إذا العُود لم يُثْمر وإن كان شُعبةً	من الثمرات اعتدّه الناسُ في الحَطَبْ

وقال عبدُ اللّه بن جعفر:

لسنَا - وإن أحسابُنا كرُمتْ -	يوماً على الآباءِ نَتّكِلُ
نَبنِي كما كانت أوائلُنا	تَبنِي، ونفعلُ مِثلَ ما فَعلوا

وقال آخرَ:

وما فخري بمَجدٍ قام غيري	إليه إذا رقدتُ الليل عنهُ
إلى حَسَب الفتى في نفسِه انظُرْ	ولا تنظُرْ هُديتَ إلى ابن مَن هُو

وقال آخر:

إذا فخرتُ بآبائي وأجدادي	فقد حكمتُ على نفسي لأضدادي
هل نافعي إن سَعَى جَدّي لمكرمةٍ	ونمت عن أختها في جانب الوادي!

وقال آخر:

أيُقْنِعُني كوني بِمَنْ كونيَ ابنه	أباً ليَ أن أرضى لفخري بمَجدِهِ
إذا المرءُ لم يحو العَلاء بنفسه	فليس بحاوٍ للعَلاء بجَدّه
وهل يَقطع السَّيف الحسام بأصلهِ	إذا هو لم يقطع بصارم حَدِّهِ!

وقيل لرجل يُدِلّ بشرفِ آبائه: لعَمري لك أوّل، ولكن ليس لأوّلك آخر.

ومثلُه أنّ شريفاً بآبائه فاخر شريفاً بنَفْسه، فقال الشريف بنفسه: انتهى إليك شَرَفُ أهلك، ومنّي ابتدأ شرَفُ أهلي، وشتّان بين الابتداء والانتهاء!

وقيل لشريف ناقِص الأدب: إنّ شرفك بأبيك لغيرك، وشرفك بنفسِك لك، فافرُقْ بين ما لَكَ وما لغيرِك، ولا تفرَح بشرف النسب، فإنه دون شَرف الأدب.

- ٣٩٣ -

الأصل: مَنْ طَلَبَ شَيْئاً نالهُ أوْ بَعْضَهُ.

الشرح: هذا مِثلُ قولهم: مَنْ طلبَ وَجَدَ وجَد.

وقال بعضُ الحكماء: ما لازمَ أحدٌ بابَ المَلِك فاحتَمَل الذّلّ وكَظَم الغيظ ورَفَق بالبَوّاب وخالط الحاشية إلّا وصَل إلى حاجته من المَلِك.

- ٣٩٤ -

الأصل: مَا خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّارُ، وَمَا شَرٌّ بشَرٍّ بَعْدَهُ الجَنَّةُ، وَكُلُّ نَعِيمٍ دُونَ الجَنَّةِ مَحْقُورٌ، وكُلُّ بَلاءٍ دُونَ النَّارِ عافِيَةٌ.

الشرح: موضع «بعده النار» رَفْعٌ لأنّه صفة «خير» الذي بعد «ما»، وخير يرفع لأنه اسمُ ما، وموضع الجار والمجرور نَصْب لأنه خبر ما، والباء زائدةٌ، مِثلها في قولك: ما أنت بزيد، كما تزاد في خبر ليس، والتقدير ما خيرٌ تتعقبه النار بخير، كما تقول: ما لذّة تتلوها نغصة بلَذّة، ولا ينقدح في ما: الوجهان اللّذان ذكرهما أربابُ الصّناعة النحوية في «لا» في قولهم: لا خير بخير بعدَه النار، أحدهما ما ذكرناه في ما، والآخر أن يكون موضع «بعده النار» جرًّا لأنه صفة خير المجرور، ويكون معنى الباء معنى في كقولك: زيدٌ بالدار وفي الدار، ويصير تقديرُ الكلام: لا خير في خيرٍ تعقُبه النار، وذلك أن ما تَستدعي خَبَراً موجوداً في الكلام، بخلاف لا، فإن خبرها محذوف في مِثل قولك: لا إله إلّا الله، ونحوه، أي في الوجود أو لنا أو ما أشبه ذلك، وإذا جعلت بعده صفة خير المجرور لم يبق معك ما تَجعَله خبر ما.

وأيضاً فإنّ معنى الكلام يَفسد في ما بخلاف لا؛ لأنّ لا لنفي الجنس، فكأنه نَفَى جنسَ الخير عن خير تتعقّبه النار، وهذا معنى صحيح، وكلامٌ منتظم، وما هاهنا إن كانت نافيةً احتاجَتْ إلى خبر ينتظم به الكلام، وإن كانت استفهاماً فَسَد المعنى؛ لأنّ «ما» لفظ يُطلب به معنى الاسم، كقوله: ما العَنقاء، أو يُطْلَب به حقيقةُ الذات، كقولك: ما المَلِك؟ ولست تطيق

أن تدّعي أنّ ما للاستفهام هاهنا عن أحد القِسْمين مَدْخلاً لأنّك تكون كأنّك قد قلت: أيّ شيء هو خيرٌ في خير تتعقبه النار؟ وهذا كلامٌ لا معنى له.

- ٣٩٥ -

الأصل: الا وَإنَّ مِنَ البَلاءِ الفَاقَةَ، وَأَشَدُّ مِنَ الفَاقَةِ مَرَضُ الْبَدَنِ، وَأَشَدُّ مِنْ مَرَضِ الْبَدَنِ مَرَضُ الْقَلْبِ، ألا وَإنَّ مِنَ النِّعَمِ سَعَةَ المَالِ، وَأَفْضَلُ مِنْ سَعَةِ المَالِ صِحَّةُ البَدَنِ، وَأَفْضَلُ مِنْ صِحَّةِ البَدَنِ تَقْوَى القَلْبِ.

الشرح: قد تقدّم الكلام في الفاقة والغِنى، فأما المرض والعافية ففي الحديث المرفوع: «إليك انتهت الأمانيّ يا صاحبَ العافية»[1]. فأمّا مَرَض القَلْب وصحّته فالمراد به التقوى وضدّها، وقد سبق القول في ذلك.

وقال أحمدُ بن يوسفَ الكاتب:

المالُ للمرءِ في معيشتِه ... خيرٌ من الوالدَين والولدِ
وإن تَدُمْ نعمةٌ عليك تَجِدْ ... خيراً من المال صحّةَ الجسدِ
وما بمن نَال فضلَ عافيةٍ ... وقوتَ يومٍ فَقرٌ إلى أحدِ

- ٣٩٦ -

الأصل: لِلْمُؤمِنِ ثَلاثُ سَاعَاتٍ: فَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيها رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يَرُمُّ فِيهَا مَعَاشَهُ، وَسَاعَةٌ يُخَلِّي فِيهَا بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّتِهَا فِيمَا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ، وَلَيْسَ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ شَاخِصاً إلّا فِي ثَلاثٍ: مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ، أَوْ خُطْوَةٍ فِي مَعَادٍ، أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ.

الشرح: تقدير الكلام: يَنبغي أن يكون زمانُ العاقل مقسوماً ثلاثةَ أقسام.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٦٩٤)، والشهاب في «مسنده» (١٤٩٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠١٤٥).

ويرُمّ معاشَه: يُصلِحه. وشاخصاً: راحلاً. وخطوة في معاد، يعني في عَمَل المَعاد، وهو العبادة والطّاعة.

وكان شيخنا أبو عليّ رحمه الله يَقسِم زمانَه على ما أصف لك: كان يُصلّي الصبحَ والكواكبُ طالعة، ويَجلس في مِحرابِه للذّكر والتّسبيح إلى بعد طُلوعِ الشمس بقليل، ثمّ يتكلّم مع التلامذة وطلبةِ العلم إلى ارتفاع النّهار، ثمّ يقوم فيصلّي الضُحى، ثمّ يجلس فيتمّم البحثَ مع التلامذة إلى أن يؤذّن للظُّهر، فيصلّيها بنوافلها، ثمّ يدخل إلى أهله فيُصلِح شأنَه، ويقضي حوائجه، ثمّ يخرج للعصر فيصلّيها بِنوافلها، ويَجلس مع التلامذة إلى المغرب فيصلّيها، ويصلّي العِشاء، ثم يشتغِل بالقرآن إلى ثُلثِ الليل، ثم يَنامُ الثلث الأوسَط، ثمّ يَقعُد فيصلّي الثُّلثَ الأخير كلَّه إلى الصّبح.

- ٣٩٧ -

الأصل: **ازْهَدْ في الدُّنْيا يُبَصِّرْكَ الله عَوْرَاتِهَا، وَلا تَغْفُلْ فَلَسْتَ بِمَغْفُولٍ عَنْكَ.**

الشرح: أمرَه بالزُّهد في الدنيا، وجعل جزاءَ الشَّرط تبصيرَ الله تعالى له عَوْراتِ الدُّنيا، وهذا حقّ، لأنّ الرّاغب في الدنيا عاشق لها، والعاشق لا يَرَى عيبَ معشوقِه، كما قال القائل:

وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كَليلةٌ ولكنّ عينَ السُّخط تُبْدِي المَساوِيَا

فإذا زَهِد فيها فقد سَخِطها وإذا سَخِطها أبْصَر عيوبَها مُشاهدةً لا رواية.

ثمّ نهاه عن الغفلة، وقال له: إنّك غيرُ مغفول عنك، فلا تَغفَل أنتَ عن نفسك، فإنّ أحقّ الناس وأولاهم ألّا يغفل عن نفسه من ليس بمغفولٍ عنه، ومن عليه رقيب شهيدٌ يناقِشه على الفَتيل والنَّقِير.

- ٣٩٨ -

الأصل: **تَكَلَّمُوا تُعْرَفُوا، فَإنَّ المَرْءَ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ.**

الشرح: هذه إحدى كلماته عليه السلام التي لا قيمةَ لها، ولا يقدر قَدرُها، والمعنى قد تَداوَله الناسُ قال:

وكائنْ تَرى مِن صامتٍ لك معجِبٍ ... زيادتُه أو نقصُه في التكلّمِ
لسانُ الفَتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ ... فلم يَبقَ إلّا صورةُ اللّحمِ والدّمِ

وكان يحيى بن خالد يقول: ما جلسَ إليّ أحدٌ قط إلّا هِبتُه حتى يتكلّم، فإذا تكلّم إمّا أن تزداد الهيبة أو تَنقُص.

— ٣٩٩ —

الأصل: نِعْمَ الطّيبُ المِسْكُ، خَفِيفٌ مَحْمِلُهُ، عَطِرٌ رِيحُهُ.

الشرح: كان النبي ﷺ كثيرَ التطيّب بالمِسك وبغيره من أصناف الطِّيب. وجاء الخبر الصّحيح عنه: «حُبِّب إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب، والنِّساء، وقُرّة عيني في الصّلاة»[1].

وقد رُويت لفظةُ أمير المؤمنين عليه السلام عنه مرفوعة. ونحوها: «لا تردُّوا الطّيب فإنّه طيب الريح، خفيفُ المَحمل»[2].

سَرقَ أعرابيٌّ نافجَة مسْك، فقيل له: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[3]، قال: إذَنْ أحمِلها طيّبةَ الرّيح، خفيفةَ المَحمل.

وفي الحديث المرفوع أنه ﷺ بايع قوماً كان بيدِ رجلٍ منهم رَدْع خَلوق، فبايعه بأطراف أصابعه، وقال: «خيرُ طيبِ الرجال ما ظَهَر ريحُه وخفيَ لونُه، وخيرُ طِيبِ النّساء ما ظَهَر لونُه وخفيَ رِيحُه»[4].

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب عشرة النساء، باب: حب النساء (٣٩٣٩)، وأحمد في «مسنده» (١١٨٨٤).

(٢) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (١٧٣٥٥)، وعزاه لأبي نعيم في «المعرفة» وذكره ابن عبد البر في «التمهيد» (١١/ ٢١٣).

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦١.

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب: الأدب، باب: ما جاء في طيب الرجال والنساء (٢٧٨٧)، والنسائي،=

وعنه ﷺ في صفة أهل الجنّة: «ومَجامِرُهم الألُوّة»[1]، وهي العُودُ الهنديّ.

ورَوَى سهلُ بنَ سعد عنه ﷺ: «إنّ في الجنة لَمراغاً من مِسْك مِثل مَراغِ دوابّكم هذه»[2].

ورُوِي عنه ﷺ أيضاً في صفة الكَوْثر: جالُه المِسك - أي جانبُه - ورَضْراضه التُّوم، وحَصباؤه اللؤلؤ[3].

وقالت عائشة: كأنّي أنظر إلى وَبِيص المِسْك في مَفارِق رسول الله ﷺ وهو مُحرِم[4].

وكان ابنُ عمر يَستجمِر بعُود غير مُطَرًّى ويَجعَل معه الكافور، ويقول: هكذا رأيتُ رسول الله ﷺ يَصنَع.

ورَوَى أنسُ بنُ مالك قال: دخل علينا رسولُ الله ﷺ فقال عندَنا والوقتُ صَيف، فَعرِق، فجاءَت أمّي بقارُورةٍ فجَعلتْ تَسلُت عَرَقَه، فاستيقَظ وقال: يا أمّ سُلَيم، ما تصنعين؟ قالت: هذا عَرَقك نَجْعله في طيبنا، فإنّه من أطيَب الطِّيب، ونَرجُو به بركةَ صِبْياننا، فقال: أَصَبْتِ[5].

ومن كلام عمرَ: لو كنتُ تاجراً ما اخترتُ غير العِطْر، إن فاتَني رِبْحُه لم يَفُتني رِيحُه.

ناوَل المتوكّل أحمَدَ بن أبي فَنن فأرة مِسك، فأنشده:

لـئن كـان هـذا طِـيـبـنـا وهـو طَـيِّـبٌ لـقـد طـيَّـبَـتْـه مـن يَـدَيـك الأنـامـلُ

قالوا: سُمّيَت الغالية غاليةً، لأنّ عبدَ الله بن جعفر أهدَى لمعاوية قارورةً منها، فسأله، كم أنفَقَ عليها، فذكَر مالاً، فقال: هذه غاليةٌ فسُمِّيتْ غالية.

شمّ مالِكُ بنُ أسماءَ بن خارجة الفَزارِيّ من أخته هند بنت أسماء رِيحَ غالية، وكانت تحتَ الحجّاج، فقال: علِّميني طِيبك، قالت: لا أفعل، أتريد أن تعلِّمَه جَوارِيك! هُوَ لك عندي ما أردتَه، ثمّ ضحكتْ وقالت: والله ما تعلَّمتُه إلّا من شِعرك حيث قلتَ:

= كتاب الزينة، باب: الفصل بين طيب الرجال طيب النساء (٥١١٧)، وأبو داود، كتاب: النكاح، باب: ما يكره من ذكر الرجل ما يكون من إصابته أهله (٢١٧٤).

(١) أخرجه البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٥)، ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر (٢٨٣٤).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٨٤٥)، «والأوسط» (١٧٦١)، والروياني في «مسنده» (١٠٤٢).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٠١٧).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب: الغسل، باب: من تطيب ثم اغتسل وأثر الطيب (٢٧١)، ومسلم، كتاب: الحج، باب: الطيب للمحرم عند الإحرام (١١٩٠).

(٥) أخرج بنحوه مسلم، كتاب: الفضائل، باب: طيب عرق النبي ﷺ والتبرك به (٢٣٣١)، وأحمد في «مسنده» (١١٩٨٨).

أطـيَـبُ الـطِّـيـبِ طـيـبُ أمِّ أبَـانِ   فـأر مـسـكٍ بـعَـنـبـرٍ مَـسْـحـوقِ
خَـلَـطَـتْـه بـعُـودِهـا وبِـبـانٍ   فـهـو أحـوَى عـلـى الـيَـدَيـن شـريـقُ

وَرَوَى أبو قِلابة قال: كان ابن مسعود إذا خرج من بيته إلى المسجد عَرَف مَن في الطريق أنه قد مرّ من طِيب رِيحه.

ورَوَى الحسنُ بنُ زَيد عن أبيه، قال: رأيتُ ابنَ عبّاس حين أحرَم والغاليةُ على صَلْعته كأنّها الرُّبّ.

أوْلَمَ المتوكّل في طُهْر بَنيه، فلمّا كَثُر اللّعب قال ليحيى بن أكثم: انصرِف أيّها القاضي، قال: ولم؟ قال: لأنّهم يريدون أن يَخلِطوا، قال: أحوَج ما يكونون إلى قاض إذا خَلَطوا، فاستَظرَفه وأمَرَ أن تُغلف لحيتُه، ففُعل، فقال يحيى: إنا لله! ضاعتِ الغالية، كانت هذه تكفيني دَهراً لو دُفِعتْ إليّ، فأمر له بِزَوْرَق لطيفٍ من ذَهب مملوءٍ من غالية ودُرْج بَخُور، فأخَذَهما وانصرف.

ورَوَى عِكرمةُ أنّ ابنَ عبّاس كان يَطلِي جسدَه بالمسك، فإذا مرّ بالطريق قال الناس: أمرٌّ ابنُ عبّاس أم المِسك؟

وقال أبو الضُّحى: رأيتُ على رأس ابنِ الزّبير من المِسك ما لو كان لي لكان رأس مالي.

لمّا بَنَى عُمر بنُ عبد العزيز على فاطمةَ بنتِ عبد الملك أسرَج في مَسارِجه تلك الليلة الغالية إلى أن طَلَعت الشمس.

كانت لابن عمر بُندُقة من مسك يَبُوكُها بين راحتيه فتفوح رائحتُها.

كان عمرُ بنُ عبد العزيز في إمارته المدينة يجعَل المِسكَ بين قَدميه ونعلِه، فقال فيه الشاعر يمدحه:

لـه نَـعَـلٌ لا تَـطَّـبِـي الـكـلـبَ ريـحُـهـا   وإن وُضِعت في مجلسِ القومِ شُمَّت

سَمِع عمرُ قَولَ سُحَيم عبدِ بني الحَسْحاس:

وهـبّـت شَـمـالٌ آخـر الـلّـيـلِ قَـرّةٌ   ولا ثَـوبَ إلّا دِرعُـهـا ورِدائـيـا
فـمـا زال بُـردي طـيّـبـاً مـن ثِـيـابـهـا   مَدى الحَوْل حتّى أنهَج البُرد باليا

فقال له: وَيْحَك! إنك مقتول، فلم تَمضِ عليه أيّام حتّى قُتِل.

قال الشّعبي: الرائحة الطيّبة تزيد في العَقل.

كان عبدُ الله بنُ زيد يتخلّق بالخَلوق، ثمّ يجلس في المجلس.

وكانوا يستحِبّون إذا قاموا من اللّيل أن يَمسَحوا مَقاديمَ لِحاهم بالطّيب.

واشتَرى تَميم الدَّاريّ حُلّة بثمانِمائة دِرهم، وهيّأ طِيباً، فكان إذا قام من اللّيل تطيّب ولبِس حُلّته، وقام في المحراب.

وقال أنس: يا جميلة، هيّئي لنا طِيباً أمسح به يدي، فإنّ ابنَ أمّ ثابت إذا جاء قبّل يدِي - يَعني ثابتاً البُنانيّ.

وقال سَلم بنُ قُتيبة: لقد شممتُ من فلانٍ رائحةً أطيَب من مَشْطة العَروس الحَسْناء في أنْف العاشق الشَّبِق.

ومن كلامِ بعضِ الصَّالحين: الفاسق رِجْس ولو تَضَمَّخَ بالغالية.

عَرَضتْ مدنيّة لكُثَيِّر فقالت له: أنت القائل:

فما روْضةٌ بالحَزْن طيّبة الثَّرَى ... يَمُجُّ النَّدَى جَثْجاثُها وعَرارُها
بأطيَبَ مِن أردانِ عَزّةَ مَوْهِناً ... وقد أوقدتْ بالمَندَل الرّطب نارُها

لو كانت هذه الصّفة لزَنْجيّة تجتلي الحلّة لطابت، هلّا قلت كما قال سيّدك امرؤ القيس:

ألمْ تَرَياني كلّما جئتُ طارقاً ... وجدتُ بها طِيباً وإن لم تَطيَّبِ

وقال الزّمخشريّ: إنّ النّوى المُنقّع بالمدينة يتناب أشرافُها المواضعَ الّتي يكون فيها التماساً لِطِيب رِيحه، وإذا وَجَدوا ريحَه بالعِراق هَرَبوا منها لخُبثها، قال: ومن اختلف في طُرُقات المدينة وَجَد رائحةً طيّبة وبَنّة[1] عجيبة، ولذلك سُمّيت طَيْبة، والزّنجيّة بها تَجعَل في رأسها شيئاً من بلحٍ وما لا قيمة له، فتجد له خُمرةً لا يعدلها بيتُ عَروس من ذَوات الأقدار.

قال: ولو دخلت كلّ غالية وعطر قصبةَ الأهواز وقصبةَ أنطاكية لوجدتها قد تغيّرتْ وفسدتْ في مدّة يسيرة.

أراد الرشيد المُقام في أنطاكية، فقال له شيخ منها: إنّها ليست من بلادِك، فإنّ الطِّيب الفاخرَ يتغيّر فيها حتّى لا يُنتفع منه بشيء، والسّلاح يَصدَأ فيها.

سِيراف: من بِلادِ فارسَ، لها فغْمة طيّبة.

فأرة المِسْك دُوَيّبة شبيهة بالخِشْف تكون في ناحية تُبَّت تُصاد لأجل سُرّتها، فإذا صادها الصائد عَصَب سُرَّتها بعِصاب شديد وهي مدلاّة، فيجتمع فيها دَمُها، ثمّ يذبحها، وما أكثرَ من يأكلها، ثمّ يأخذ السرّة فيَدفِنها في الشَّعْر حتى يستحيلَ الدمُ المحتقِن فيها مسكاً ذكيًا بعد أن كان لا يرام نَتْناً، وقد يوجد في البيوت جِرْذان سُودٌ يقال لها: فأر المِسك ليس عندها إلّا رائحة لازمة لها.

---

(١) البنة: الريح الطيبة والمنتنة القاموس، مادة (بنن).

وذكر شيخُنا أبو عثمانَ الجاحظ قال: سألتُ بعضَ أصحابنا المعتزِلة عن شأن المِسْك فقال: لولا أنّ رسولَ الله ﷺ تطيّب بالمسك لما تطيّبتُ به، لأنّه دم، فأمّا الزّباد فليس ممّا يَقرُب ثيابي، فقلتُ له: قد يرتضع الجَدْي من لبن خِنزيرة فلا يَحرُم لَحمُه، لأنّ ذلك اللّبن استحال لَحماً، وخرج من تلك الطّبيعة، وعن تلك الصورة، وعن ذلك الاسم، وكذا لحم الجلّالة، فالمِسك غيرُ الدّم، والخلّ غيرُ الخَمر، والجوهر لا يَحرم لذاته وعينِه، وإنّما يَحرُم للأعراض والعِلل فلا تَقزز منه عند ذِكرك الدّم، فليس به بأس.

قال الزّمخشريّ: والزّبادة هِرّة. ويقال للزّيْلَع، وهم الّذين يجتلبون الزّباد يا زَيْلع الزّبادة ماتت، فيَغضَب.

وقال ابن جَزْلة الطّبيب في المنهاج: الزّباد طيبٌ يؤخذ من حيوان كالسِّنّور يقال: إنّه وسَخ في رَحِمها.

وقال الزّمخشري: العنبر يأتي طُفاوةً على الماء لا يدري أحدٌ معدنه، يقذفه البحر إلى البرّ فلا يأكل منه شيء إلّا مات، ولا ينقُرُه طائرٌ إلّا بقي منقارُه فيه، ولا يقع عليه إلّا نصلَتْ أظفارُه، والبحريّون والعطّارون ربّما وجدوا فيه المنقار والظّفر.

قال: والبال، وهو سَمَكة طولها خمسون ذراعاً، يؤكل منه اليسير فيموت.

قال: وسمِعتُ ناساً من أهل مكة يقولون: هو ضفع ثور في بحر الهند، وقيل: هو من زبد بحر سَرَنْديب، وأجوَدهُ الأشهب، ثمّ الأزرق، وأدوَنهُ الأسود.

وفي حديث ابن عبّاس: «ليس في العنبر زكاة، إنما هو شيء يَدْسُرُه البحر»[1]، أي يَدفَعه.

فأما صاحب «المنهاج في الطّبّ»[2] فقال: العنبر من عين في البحر، ويكون جماجم أكبرها وزنه ألف مثقال، والأسود أردأ أصنافه، وكثيراً ما يوجد في أجوافِ السمك التي تأكله وتموت. وتوجد فيه سُهُوكة.

وقال في المِسك: إنه سُرّة دابّة كالظّبي، له نابان أبيضان معقّفان إلى الجانب الإنسي كقَرْنين. جاء في الحديث المرفوع: «لا تمنعوا إماءَ الله مساجدَ الله، وليخرجْن إذا خرجن تَفِلاتٍ»[3]، أي غير متطيّبات.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٣٣).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في خروج النساء إلى المسجد (٥٦٥)، وأحمد في «مسنده» (٩٣٦٢).

(٣) منهاج الركان في الطب: للشيخ الحاذق أبي المنى داود أدى نصر بن حفاظ المعروف بالكوهين العطار الهاروني. كشف الظنون (٢/ ١٨٧١).

وفي الحديث أيضاً: «إذا شهِدَتْ إحداكُن العشاء فلا تمسّ طِيباً»[1]، والمراد من ذلك ألّا تهيج عليهنّ شهوةُ الرّجال.

قال الشاعر:

والمِسك بينا تراه ممتَهناً ... بفِهْرِ عطّارِه وساحقِهِ
حتى تراه في عارِضَيْ مَلِكٍ ... أو موضِع التّاج من مَفارِقِهِ

الصَّنَوْبَريّ في استهداء المِسْك:

المِسك أشبَه شيء بالشباب فهَبْ ... بعضَ الشباب لبعضِ العُصْبة الشِّيبِ

يقال: إنّ رجلاً وَجَد قِرطاساً فيه اسم الله تعالى، فرَفَعه، وكان عنده دينار، فاشترى به مِسْكاً، فطَيّبه، فرأى في المنام قائلاً يقول له كما طيّبت اسمي لأطيبَنّ ذِكرك.

قال خالدُ بنُ صَفْوان ليزيد بن المهلّب: ما رأيت صداً المِغفر، ولا عبَق العَنْبر بأحد أليَقَ منه بك، فقال: حاجَتك، قال: ابنُ أخ لي في حَبْسك، فقال: يسبقك إلى المنزل.

شاعر:

كأنّ دُخانَ النَّدّ ما بين جَمْرِهِ ... بقايا ضبابٍ في رياضِ شقيقِ

قالوا: خيرُ العُود المَنْدَليّ، وهو منسوبٌ إلى مَندل: قريةٌ من قُرَى الهند، وأجوَدُه أصلَبه، وامتحان رَطْبه أن ينطَبِع فيه نَقْش الخاتَم، واليابس تُفْصِح عنه النار، ومن خاصية المَندَليّ أنّ رائحته تثبت في الثوب أسبوعاً، وأنه لا يقمل ما دامت فيه.

قال صاحبُ المِنهاج: العُود عروقُ أشجارٍ تُقلع وتُدفن في الأرض حتى تتعفّن، منها الخشبيّة والقشريّة، ويبقى العود الخالص، وأجوَدُه المندليّ، ويُجلب من وَسَط بلاد الهند، ثم العود الهنديّ، وهو يفضل على المَنْدَليّ بأنه لا يولّد القَمْل، وهو أعبق بالثّياب.

قال: وأفضل العُود أرسَبُه في الماء، والطافي رديءٌ.

قال أبو العبّاس الأعمى:

ليت شَعري من أينَ رائحةُ المِسْـ ... ـكِ وما إن أخالُ بالخيف أُنسي
حين غابتْ بنو أميّةَ عنه ... والبَهاليلُ من بني عبدِ شَمْس
خُطباءُ على المنابر فُرسا ... نٌ على الخيْل قالةٌ غيرُ خُرْس

---

(1) أخرجه مسلم، كتاب: الصلاة، باب: خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة (٤٤٣)، والنسائي، كتاب: الزينة، باب: النهي للمرأة أن تشهد الصلاة إذا أصابت من البخور (٥١٣٠)، وأحمد في «مسنده» (٢٦٥٠٦).

بِحُلومٍ مِثلِ الجبالِ رِزانٍ ووجوهٍ مِثلِ الدّنانيرِ مُلْسِ

المسيّب بن عَلَس.

تبيتُ الملوكُ على عَتْبِها وَشَيْبانُ إن غضبتْ تُعْتَبُ

وكالشّهدِ بالراحِ ألفاظُهم وأخلاقُهُمْ منهما أعذَبُ

وكالمِسكِ تُرْبُ مَقاماتِهم وتُربُ قُبورِهِمُ أطيبُ

أخذه العبّاس بن الأحنف فقال:

وأنتَ إذا ما وطئتَ التُّرا بَ كانَ ترابُك للناس طِيبا

وهجا بعضُ الشعراء العمّال في أيّام عمر، ووقع عليهم، فقال في بعض شعره:

نؤوبُ إذا آبوا ونغزُو إذا غَزَوْا فأنّى لهمْ وَفْرٌ ولسنا ذَوِي وفْرِ

إذا التاجرُ الداريُّ جاء بفأرةٍ من المِسك راحتْ في مَفارقِهمْ تَجرِي

فقبض عمرُ على العمال وصادَرَهم.

قالوا في الكافور: إنه ماءٌ في شجر مكفور فيه يَغرزونه بالحديد، فإذا خرج إلى ظاهر ذلك الشجر ضرَبه الهواء فانعقد كالصّموغ الجامدة على الأشجار.

وقال صاحب المنهاج: هو أصناف: منها الفنصوري، والرّباحي، والأزاد، والإسْفَرك الأزرق، وهو المختط بخشبه، وقيل إن شجرته عظيمة تُظِلّ أكثر من مائة فارس، وهي بحرية، وخشب الكافور أبيض إلى الحمرة خفيف، والرّباحي يوجد في بدن شجرته قِطَع كالثّلج، فإذا شققت الشجرة تَناثر منها الكافورُ.

النّدّ: هو الغالية، وهو العود المطرّى بالمسك والعَنْبر ودُهن البان، ومن الناس من لا يضيفُ إليه دهنَ البان، ويجعل عوضه الكافور، ومنهم من لا يضيف إليه الكافورَ أيضاً، ومن الناس من يركّب الغالية من المسك والعنبر والكافور ودُهْن النّيْلوفر.

قال الأصمعي: قلتُ لأبي المهدّية الأعرابيّ: كيف تقول، ليس الطّيب إلا المِسك؟ فلم يحفل الأعرابيّ، وذهب إلى مذهب آخر، فقال: فأين أنت عن العنبر؟ فقلت: كيف تقول: ليس الطّيب إلا المسك والعنبر؟ قال: فأين أنت عن البان؟ قلت: فكيف تقول: ليس الطّيب إلا المِسك والعنبر والبان؟ قال: فأين أنت عن ادّهان بحجرٍ - يعني اليمامة؟ - قلت: فكيف تقول لي ليس الطّيب إلا المسك والعنبر والبان وادّهان بحَجَر؟ قال: فأين أنت عن فارة الإبل صادرةً؟ فرأيت أني قد أكثرتُ عليه، فتركتُه قال: وفأرة الإبل رِيحها حين تصدُر عن الماء. وقد أكلت العُشْب الطيب.

وفي فأرة الإبل يقول الشاعر:

كأنّ فارةَ مسكٍ في مباءتها إذا بدا من ضِياءِ الصبح تنتشرُ

كان لأبي أيوب المَرْزُبانيّ وزير المنصور دُهن طيّبٌ يدهن به إذا ركب إلى المنصور فلمّا رأى الناسُ غلبتَه على المنصور وطاعتَه له فيما يريده، حتى إنه ربما كان يستحضره ليوقع به، فإذا رآه تبسم إليه وطابت نفسه قالوا: دهن أبي أيّوب من عمل السحرة، وضربوا به المَثل، فقالوا لمن يَغلب على الإنسان: معه دُهْنُ أبي أيوب.

أعرابيّ: فيها مَدَرُّ كَفّ ومَشمّ أنف.

وقال عيينة بن أسماء بن خارجة الفزاري:

لو كنتُ أحمل خمراً حين زُرْتكُمُ لم ينكر الكلبُ أنّي صاحبُ الدّار

لكن أتيتُ وريح المسك يقدُمنِي والعَنبر الورد مَشْبوباً على النّارِ

فأنكر الكلبُ ريحي حين خالطني وكان يألف ريح الزّقّ والقارِ

قال الأصمعي: ذكر لأبي أيوب هؤلاء الذين يتقشّفون، فقال: ما علمتُ أن القَذَر والذّفر من الدّين.

رِيحُ الكَلْب مَثَلٌ في النّتن، قال الشاعر:

ريحُها ريحُ كلابٍ هارشتْ في يومِ طَلّ

وقال آخر:

يزدادُ لؤماً على المديح كما يزدادُ نَتْن الكلاب في المطرِ

وقالت امرأةُ امرئ القيس له وكان مُفَرّكاً[1] عند النساء: إذا عرقْتَ عرقتَ بريح كلْب. قال: صدقتِ؛ إنّ أهلي أرضعوني مرّةً بلبن كلبة.

قال سَلَمة بنُ عيّاش، يقول لجعفر بن سليمان:

فما شم أنفي رِيحَ كفٍّ رأيتها من النّاس إلّا ريح كفّك أطيبُ

فأمر له بألف دينار ومائة مثقال من المسك ومائة مثقال من العنبر.

وجّه عمرُ إلى مَلِك الرُّوم بريداً فاشترتْ أمُّ كلثوم امرأة عمر طيباً بدنانير وجعلَته في قارورتَين وأهدَتْهما إلى امرأة ملك الرّوم، فرجع البريد إليها ومعه ملء القارُورتين جواهر، فدخل عليها عمر، وقد صبّت الجواهر في حجْرها، فقال: مِن أين لك هذا؟ فأخبرته، فقبض عليه، وقال: هذا للمسلمين، قالت: كيف وهو عِوَض هديّتي! قال: بيني وبينك أبوك، فقال عليٌّ عليه السلام: لك منه بقيمة دينارك، والباقي للمسلمين جملة لأن بريد المسلمين حَمَلَه.

---

(١) المُفَرّك: الرجل الذي تبغضه النساء. القاموس، مادة (فرك).

قيل لخديجة بنت الرشيد: رُسُل العبّاس بن محمد على الباب، معهم زِنْبيل يحمله رجلان. فقالت: تراه بعث إليّ باقلّاء؟ فكشف الزنبيل عن جرّة مملوءة غالية فيها مسحاة من ذَهب، وإذا برُقعة: هذه جرّة أصيبتْ هي وأختها في خزائن بني أميّة، فأمّا أختُها فغَلب عليها الخلفاء، وأمّا هذه فلم أرَ أحداً أحقَّ بها منك.

- ٤٠٠ -

الأصل: ضَعْ فَخْرَكَ، وَاحطُطْ كِبْرَكَ، وَاذْكُرْ قَبْرَكَ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في العجبِ والكبر والفخر.

بعض ما قيل في الفخر

في الحديث المرفوع: «إنّ الله قد أذهب عنكم عُبِّيّةَ الجاهليّة وفخرها بالآباء، الناسُ لآدم، وآدمُ من تراب، مؤمن تقيّ، وفاجرٌ شقيّ، لينتهين أقوام يتفاخرون برجال إنّما هم فحم من فحم جهنّم أو ليكونن أهوَنَ على الله من جُعَلات تدفع النَّتن بأنفها»[١].

ومن وصيّته ﷺ إلى عليّ عليه السلام: «لا فقر أشدّ من الجهل، ولا وحشة أفحش من العُجب»[٢].

أتى وائلُ بن حُجْر النبي ﷺ فأقطعه أرضاً[٣]، وأمر معاوية أن يمضي معه فيريَه الأرض ويعرضها عليه، ويكتبها له، فخرج مع وائل في هاجِرة شاوية، ومشى خلْف ناقتِه فأحرقْته الرَّمضاء، فقال: أردفْني: قال: لستَ من أرْداف الملوك، قال: فادفع إلي نعلَيك، قال: ما بُخل يَمنَعني يا بن أبي سُفْيان، ولكن أكرَه أن يَبلغ أقيال اليمن أنّك لبستَ نعلي، ولكن امش في ظلّ ناقتي فحسْبُك بذاك شرفاً، ويقال: إنّه عاش حتى أدرك زمَن معاوية فأجلسه معه على سريره.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجرات (٣٢٧٠)، وأبو داود، كتاب: الأدب، باب: في التفاخر بالأحساب (٥١١٦)، وأحمد في «مسنده» (٨٥١٩).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٦٨٨)، والشهاب في «مسنده» (٨٣٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٦٤٧).

(٣) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٧٢٠٥)، والترمذي، كتاب: الأحكام، باب: ما جاء في القطائع (١٣٨١)، وأحمد في «مسنده» (٢٦٦٩٧).

قيل لحكيم: ما الشيءُ الذي لا يَحسُن أن يقال وإن كان حقاً؟ فقال: الفخر.

حبس هشامُ بنُ عبد الملك الفرزدقَ في سجن خالد بن عبد اللّه القَسْريّ، فوفد جرير إلى خالد ليشفَع فيه، فقال له خالد: ألا يسرّك أنّ الله قد أخزى الفرزدقَ؟ فقال: أيّها الأمير، والله ما أحبّ أن يخزيَه الله إلّا بشعري، وإنّما قدمتُ لأشفعَ فيه. قال فاشفع فيه في ملأ ليكون أخزَى له، فشفع فيه، فدعا به فقال: إني مُطلقك بشفاعةِ جرير، فقال: أسيرُ قَسْريّ، وطليقُ كلبيّ، فبأيّ وجه أفاخر العربَ بعدَها! ردّني إلى السّجن.

ذكر أعرابيّ قوماً فقال: ما نالوا بأناملهم شيئاً إلّا وقد وطئناه بأخامص أقدامِنا، وإن أقصى مُناهم لأدنى فعالنا.

نظر رجل إلى بعض ولد أبي موسى يَختال في مشيته، فقال: ألا ترون مشيته؟ كأنّ أباه خدَع عمرو بن العاص!

وسمع الفرزدق أبا بُردة يقول: كيف لا أتبختر وأنا ابن أحد الحَكَمين، فقال: أحدهما مائق، والآخر فاسق، فكن ابن أيّهما شئت.

نظر رسولُ الله ﷺ إلى أبي دُجَانة وهو يتبختر بين الصّفّين، فقال: «إنّ هذه مشية يبغضها الله إلّا في هذا الموطن»[1].

لما بلغ الحسنَ بن عليّ عليه السلام قول معاوية: إذا لم يكن الهاشميّ جواداً والأمويّ حليماً والعوّاميّ شجاعاً والمخزوميّ تيّاهاً لم يشبهوا آباءهم، فقال: إنه والله ما أراد بها النّصيحة، ولكن أراد أن يُفنيَ بنو هاشم ما في أيديهم فيحتاجوا إليه، وأن يَشْجُعَ بنو العوّام فيقتلوا، وأن يتيه بنو مخزوم فيمقتوا، وأن يحلم بنو أمية فيُحبّهم الناس[2].

كان قاضي القضاة محمّد بن أبي الشّوارب الأمويّ تائهاً، فهجَاه عبدُ الأعلى البصريّ فقال:

إنّي رأيتُ محمّداً متشاوساً ... مستصغراً لجميع هذي الناسِ
ويقول لمّا أن تنفّس خاليا ... نفَساً له يَغلو على الأنفاسِ
وَيح الخلافَة في جوانب لحيتي ... تستن دون لِحَى بني العبّاسِ!

بعض الأمويّة:

إذا تائهٌ من عبدِ شمسٍ رأيتَهُ ... يتيهُ فرشّحه لكلّ عظيمِ

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦٥٠٧).

(٢) أخرجه العلامة المجلسي بما معناه في البحار: ١٠٦/٤٤.

وإن تــاهَ تَــيّــاهٌ ســواه فــإنــه ... يــتــيــهُ لــحــمــقٍ أو يــتــيــه لِــلُــومِ

لبعض الأمويّة أيضاً:

ألــسـنـا بـنـي مَرْوان كـيـف تـبـدّلـتْ ... بـنـا الـحـالُ أو دارتْ عـلـيـنـا الـدوائرُ!

إذا وُلــد الــمــولــود مــنّــا تــهــلّــلــتْ ... لــه الأرض واهــتــزّت إلــيــه الــمــنـابـرُ

بعض التيّاهِين:

أتـيـهُ عـلـى إنْـسِ الـبـلاد وجِـنّـهـا ... ولو لم أجد خَلْقاً أتيهُ على نَفْسي

أتـيـه فـلا أدري مـن الـتّـيـه مـن أنـا ... سوى مَا يقول الناسُ فيّ وفي جنْسي

فـإنْ زعـمـوا أنـي من الإنـس مثلهم ... فـمـا لـي عـيـبٌ غـيـر أنـي مـن الإنـس

بعض العَلوية:

لـقـد نـازعـتْـنـا مـن قـريـش عـصـابـةٌ ... بـمَـطِّ خـدودٍ وامـتـدادِ أصـابـعِ

فـلـمّـا تـنـازعـنـا الـفَـخَار قـضَـى لـنـا ... عـلـيـهـمْ بـمـا نَـهـوى نـداء الـصّـوامـع

تـرانـا سُـكـوتـاً والـشـهـيـدُ بـفـضْـلـنـا ... عـلـيـهـمْ أذانُ الـنـاس فـي كـلّ جـامـع

بـأن رسـول الـلّـه لا شـكّ جـدُّنـا ... وأنّ بَـنِـيـه كـالـنـجـوم الـطـوالـع

كان عُمارةُ بنُ حمزة بن ميمون مولى بني العباس مَثَلاً في التّيه، حتّى قيل: أتيَهُ من عُمارة. وكان يتولّى دواوينَ السّفّاح والمنصور، وكان إذا أخطأ مضى على خطئه تكبّراً عن الرجوع، ويقول: نَقْض وإبرام في حالة واحدة، الإصرار على الخطأ أهون من ذلك.

وافتخرت أمّ سلمة المخزوميّة امرأةُ السفّاح ذاتَ ليلة بقَوْمها على السّفّاح، وبنو مخزوم يُضرَب بهم المَثَل في الكِبْر والتّيه، فقال: أنا أحضرُكِ الساعةَ على غير أُهْبة مولًى من مواليّ ليس في أهلك مِثله، فأرسل إلى عُمارة، وأمر الرسول أن يُعجِله عن تغييرِ زِيِّه، فجاء على الحال الّتي وجده عليها الرّسول في ثياب ممسّكة مزرّرة بالذّهب، وقد غَلّف لحيتَه بالغالية حتّى قامت، فرمى إليه السّفاح بِمُدْهن ذهب مملوءٍ غالية، فلم يلتفت إليه، وقال: هل ترى لها في لحيته موضعاً؟ فأخرجتْ أمّ سَلَمة عِقْداً لها ثميناً، وأمَرَت خادماً أن يضعه بين يديه، فقام وتركه، فأمرت الخادمَ أن يتّبعه به، ويقول: إنّها تسألك قبولَه، فقال للخادم: هوَ لك، فانصَرف بالعِقْد إليها، فأعطت الخادمَ فكاكَه عشرةَ آلافِ دينار، واسترجعْته، وعجبتْ من نفس عُمارة، وكان عمارة لا يذلّ للخُلَفاء وهم مواليه ويَتِيه عليهم.

نظر رجل إلى المَهديّ ويدُه في يد عُمارة، وهما يَمشِيان، فقال: يا أميرَ المؤمنين مَن هذا؟ قال: هذا أخي، وابنُ عمّي عُمارة بن حَمْزة، فلمّا ولّى الرجل ذكر المهديّ الكلمةَ كالممازح لعُمارة، فقال عُمارة: والله لقد انتظرت أن تقول: مولاي فأنفُض يدي من يَدِك، فتبسّم المهديّ.

وكان أبو الرّبيع الغَنَويّ أعرابيًا جافياً تيّاهاً شديدَ الكِبْر، قال أبو العبّاس المبرّد في الكامل: فذكر الجاحظ أنّه أتاه ومعه رجل هاشميّ، قال: فناديتُ: أبو الرّبيع هنا؟ فخرج إليّ وهو يقول: خرج إليك رجلٌ أكرَم الناسِ، فلمّا رأى الهاشميّ استحيًا وقال: أكرُم الناسِ رديفاً، وأشرَفهم حليفاً - أراد بذلك أبا مَرْثد الغَنَويّ، لأنّه كان رديفَ رسول الله ﷺ وحليفَ أبي بكر - قال: حدّثنا ساعة ثمّ نهض الهاشميّ فقلت له: مَنْ خير الخلق؟ قال: الناس والله، قلت: مَن خيرُ الناس؟ قال: العَرَب والله، قلت: فَمَن خيرُ العرب؟ قال: مُضَر والله، قلتُ: فمن خيرُ مُضَر؟ قال: قيس والله، قلت: فمن خير قَيْس؟ قال: يَعصُر والله، قلت: فمن خير يَعْصُر، قال: غَنيّ والله، قلتُ: فَمن خيرُ غنيّ؟ قال: المخاطِبُ لك والله، قلتُ: أفأنتَ خيرُ الناس؟ قال: إي والله، قلت: أيسرّك أن تكون تحتَك ابنة يزيدَ بنِ المهلّب؟ قال: لا والله، قلتُ: ولك ألف دينار، قال: لا والله، قلت: فألفا دينار، قال: لا والله، قلت: ولك الجنّة، قال: فأطرَق ثم قال: على ألّا تلدَ منّي، ثمّ أنشَدَ:

تـأبَـى لـيَـعـصُـرَ أعـراقٌ مـهـذَّبـةٌ ... من أن تُـنـاسـب قـومـاً غـيـرَ أكـفـاءِ

فـإن يـكـن ذاك حَـتْـمـاً لا مَـرَدّ لـه ... فـاذكـر حـذَيـفَ فـإنّـي غـيـرُ أبّـاءِ

أراد حذيفةَ بنَ بَدْر الفَزَاريّ، وكان سيّدَ قيس في زمانه.

رأى عمرُ رجلاً يمشي مُرْخِياً يديْه، طارحاً رِجْليه، يتبختر، فقال له: دع هذه المِشية، فقال: ما أطيق، فَجلده ثمّ خلّاه، فترك التّبختر، فقال عمر: إذا لم أجلد في هذا ففيمَ أجلد، فجاءه الرجل بعد ذلك فقال: جزاك الله يا أميرَ المؤمنين خيراً، إن كان إلّا شيطاناً سُلّط عليّ فأذهبَه الله بك.

- ٤٠١ -

الأصل: خُذْ مِنَ الدُّنْيَا مَا أَتَاكَ، وَتَوَلَّ عَمَّا تَوَلَّى عَنْكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ.

الشرح: كان يقال: اجعل الدّنيا كغَريم السّوء حَصّل منه ما يَرضَخ لك به، ولا تأس على ما دَفَعك عنه، ثمّ قال عليه السلام: فإن لم تفعل فأجمِلْ في الطّلب، وهي من الألفاظ النبويّة: «لن تموتَ نفسٌ حتّى تَستكمِل رِزقَها، فأجمِلوا في الطّلب»[1].

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣٢٤١)، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٠١)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦٥٨٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٦٧)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/ ٤٣٤).

قيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ فقال: قلّة تمنّيك، ورضاك بما يكفيك.

- ٤٠٢ -

الأصل: رُبَّ قَوْلٍ، أنْفَذُ مِنْ صَوْلٍ.

الشرح: قد قيل هذا المعنى كثيراً، فمنه قولُهم:

والقولُ يَنفذُ ما لا تنفُذُ الإبَرُ

ومن ذلك: القولُ لا تَملِكه إذا نَمَا، كالسهم لا تملِكه إذا رمى، وقال الشاعر:

وقافيةٍ مثلِ حَدِّ السنا ... نِ تَبقى ويَذْهَبُ مَن قالَها
تخيّرتُها ثم أرسلتُها ... ولم يُطِق الناسُ إرسالَها

وقال محمود الورّاق:

أتاني منك ما ليسَ ... على مكروهه صبرُ
فأغضيتُ على عَمْدٍ ... وكم يُغضِي الفَتَى الحُرُّ
وأدّبتُك بالهَجْرِ ... فما أدّبك الهَجْرُ
ولا ردَّكَ عمّا كا ... ن منك الصّفحُ والبِرُّ
فلمّا اضطرّني المكرو ... هُ واشتدّ بيَ الأمرُ
تناولتُك مِن شِعري ... بما ليس له قَدْرُ
فحرّكتَ جَناحَ الضُّرِّ ... لمّا مسّكَ الضّرّ
إذا لم يُصلح الخير أمـ ... ـراً أصلَحه الشّرّ

وقال الرّضيّ رحمه الله:

سأمضغُ بالأقوال أعراض قومِكم ... وللقَول أنيابٌ لديّ حِدادُ
يُرَى للقوافي والسماء جليّة ... عليكم برُوقٌ جَمّةٌ ورِعادُ

وقال أيضاً:

كَعَمْتُ لِساني أن يقول وإن يَقُل ... فقل في الجُراز العَضب إن فارق الغِمْدا
وإنّ بروداً للمخازي مُعَدّة ... فمن شاء من ذا الحيّ أسحبتُه بُردا
قلائد في الأعناق بالعار لا تَهِي ... على مَرِّ أيّام الزمان ولا تَصْدَا

إذا صَلصَلتْ بين القنا قضت القنا   وإن زَفَرتْ في السَّردِ قطّعت السَّرْدا

- ٤٠٣ -

الأصل: كلُّ مُقتَصَرٍ عَلَيْهِ كافٍ.

الشرح: هذا من باب القناعة، وإنّ من اقتصر على شيء وقنعتْ به نفسُه فقد كفاه، وقام مقام الفضول التي يرغَب فيها المُترَفون، وقد تقدّم القولُ في ذلك.

- ٤٠٤ -

الأصل: المَنِيّةُ ولا الدَّنِيّةُ، والتَّقَلُّلُ ولا التَّوَسُّلُ.

الشرح: قد تقدّم من كلامنا في هذا الباب شيءٌ كثير، وقال الشاعر:

أقسِم بالله لمَصُّ النَّوَى   وشربُ ماءِ القُلُبِ المالحة
أحسنُ بالإنسان من ذُلِّه   ومن سؤال الأوجهِ الكالحة
فاستغنِ باللّه تكن ذا غنًى   مغتبطاً بالصفقة الرابحة
فالزهد عزٌّ والتُّقَى سُؤددٌ   وذلّة النفس لها فاضِحة
كم سالمٍ صِيحَ به بَغتةً   وقائلٍ عَهْدِي به البارِحة
أمسى وأمسَتْ عنده قَيْنةٌ   وأصبحتْ تَنْدُبه نائحة
طوبَى لمن كانت موازينُه   يومَ يلاقي ربَّه راجحة

وقال أيضاً:

لمَصُّ الثِّماد[1] وخَرْطُ القَتادِ[2]   وشربُ الأُجاج[3] أوان الظَّمَا

(١) الثماد: الماء القليل الذي لا مادَّ له. اللسان، مادة (ثمد).
(٢) القتاد: شجر له شوك أمثال الإبر. اللسان، مادة (قتد).
(٣) الأجاج: الملح المر. القاموس، مادة (أجج).

عـلـى الـمـرء أهـوَن مـن أن يُـرَى ... ذلـيـلاً لـخـلْـقٍ إذا أعـدَمـا
وخـيـرٌ لـعـيـنـيـك مـن مَـنـظَـرٍ ... إلـى مـا بـأيـدي الـلّـئـام الـعَـمَـى

قلت: لحاهُ الله، هلّا قال: بأيدي الرّجال.

- ٤٠٥ -

الأصل: مَنْ لَمْ يُعْطَ قاعِداً، لَمْ يُعْطَ قائِماً.

الشرح: مرادُه أن الرزق قد قَسَمه الله تعالى، فمن لم يرزقه قاعداً لم يجب عليه القيام والحركة.

وقد جاء في الحديث: أنّه ﷺ ناول أعرابيًّا تَمْرة، وقال له: «خُذْها فلو لم تأتِها لأتتك»[1].

وقال الشاعر:

جـرى قـلـم الـقَـضـاء بـمـا يـكـونُ ... فـسـيّـان الـتـحـرّكُ والـسـكـونُ
جُـنـونٌ مـنـك أن تَـسـعَـى لـرزقٍ ... ويُـرزَق فـي غِـشـاوتِـه الـجَـنِـيـنُ

- ٤٠٦ -

الأصل: الدَّهْرُ يَوْمَانِ: يَوْمٌ لَكَ، وَيَوْم عَلَيْكَ، فَإِذَا كَانَ لَكَ فَلا تَبْطَرْ، وَإِذَا كَانَ عَلَيْكَ فَاصْبِرْ.

الشرح: قديماً قيل هذا المعنى: الدّهر يومان: يوم بلاء، ويوم رَخاء. والدهر: ضَرْبان: حَبْرة[2] وعَبْرة. والدهر وقْتان: وقت سرور، ووقت ثُبور.

وقال أبو سُفْيان يوم أُحُد: يومٌ بيومِ بَدْر، والدّنيا دُوَل.

قال عليه السلام: فإذا كان لك فلا تَبطر، وإذا كان عليك فاصبر.

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣٢٤٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١٩٠)، والدارقطني في «العلل» (٥/ ٢٨٣).

(٢) الحبرة: النعمة. القاموس، مادة (جبر).

قد تقدّم القولُ في ذمّ البَطر ومدحِ الصّبر، ويُحمَل ذمّ البَطَر هاهنا على محملين: أحدهما البَطَر بمعنى الأشَر، وشدّة المرح، بطِر الرجُل بالكسر يَبطَر، وقد أبطَره المال، وقالوا: بطر فلانٌ معيشَته، كما قالوا: رَشِد فلانٌ أمرَه. والثاني البَطَر بمعنى الحيرة والدَّهش، أي إذا كان الوقت لك فلا تقطعن زمانك بالحيرة والدهش عن شكرِ الله ومكافأةِ النّعمة بالطاعة والعبادة والمحمَل الأوّل أوضَح.

– ٤٠٧ –

الأصل: إنَّ لِلْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ حَقًّا، وَإِنَّ لِلْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ حَقًّا، فَحَقُّ الْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ أن يُطِيعَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي مَعْصِيَةِ الله سُبْحَانَهُ، وَحَقُّ الولد عَلَى الْوَالِدِ أَنْ يُحسنَ اسْمَهُ، وَيُحسنَ أَدَبَهُ، وَيُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ.

الشرح: أمّا صدرُ الكلام فمن قول الله سبحانه: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾(١).

نوادر حول الأسماء والكنى

وأما تعليم الوالد الولدَ القرآن والأدبَ فمأمور به، وكذلك القول في تسميته باسم حسن، وقد جاء في الحديث: «تسمّوا بأسماء الأنبياء، وأحبّ الأسماء إلى الله عبد الله وعبدُ الرّحمن. وأصدَقها حارث وهمّام. وأقبَحها حَرْب ومُرّة»(٢).

وروى أبو الدّرداء عن النّبي ﷺ: «إنّكم تُدْعَوْن يومَ القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم، فأحسنوا أسماءكم»(٣).

وقال ﷺ: «إذا سَمّيتم فَعبِّدوا» أي: سَمُّوا بنيكم عبدَ اللّه ونحوه من أسماء الإضافة إليه عزَّ اسمُه.

وكان رسول الله ﷺ يغيّر بعض الأسماء، سمّى أبا بكر عبد اللّه، وكان اسمُه في

---

(١) سورة لقمان، الآيتان: ١٤، ١٥.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب: في تغيير الأسماء (٤٩٥٠)، وأحمد في «مسنده» (١٨٥٥٣).

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب، باب: في تغيير الأسماء (٤٩٤٨). وأحمد في «مسنده» (٢١١٨٥)، والدارمي في الاستئذان، باب: في حسن الأسماء (٢٦٩٤).

الجاهلية عبدَ الكعبة، وسمَّى ابن عوف عبد الرحمن، وكان اسمُه عبد الحارث، وسمَّى شِعْب الضَّلالة شِعْبَ الهدى، وسمَّى يَثْرِب طَيْبة، وسمَّى بني الرِّيبة بني الرِّشْدة، وبني معاوية بني مُرشِدة.

كان سعيدُ بنُ المسيِّب بن حَزْن المخزوميّ أحد الفقهاء المشهورين، أتى جدُّه رسول الله ﷺ فقال له: ما اسمك؟ قال: حزْن، قال: لا، بل أنت سَهْل، فقال: لا، بل أنا حَزْن، عاوده فيها ثلاثاً، ثمّ قال: لا أُحِبّ هذا الاسمَ، السَّهْل يوطَأ ويُمْتهَن، فقال: فأنت حَزْن، فكان سعيد يقول: فما زلتُ أعرِف تلك الحزونةَ فينا.

وروى جابر عنه ﷺ: «ما من بيت فيه أحدٌ اسمُه محمد إلا وسّع الله عليه الرزق فإذا سمَّيتموهم به فلا تَضرِبوهم ولا تشتموهم»، و«من وُلد له ثلاثة ذُكور ولم يسمِّ أحدَهم أحمدَ أو محمّداً فقد جفاني»[1].

أبو هريرة عنه ﷺ، أنه نَهَى أن يجمع بين اسمه وكنيته لأحد[2].

وروي أنه أذن لعليّ بن أبي طالب ﷺ في ذلك، فسمَّى ابنه محمد بن الحنفيّة محمداً، وكناه أبا القاسم.

وقد رُوِي أنَّ جماعةً من أبناء الصَّحابة جُمِع لهم بين الاسم والكُنْية.

وقال الزَّمخشريّ: قد قدّم الخلفاءُ وغيرُهم من الملوك رجالاً بحُسْنِ أسمائهم، وأقصَوْا قوماً لشناعة أسمائهم، وتعلّق المدح والذّمّ بذلك في كثير من الأمور.

وفي رسالة الجاحظ إلى أبي الفَرَج نجاح بن سلمة: قد أظهر الله في أسمائكم وأسماءِ آبائكم وكُناكم وكُنَى أجدادكم من بُرْهان الفأل الحسَن، ونفي طيرة السوء، ما جمع لكم صنوف الأمل، وصرف إليكم وجوه الطلب، فأسماؤكم وكناكم بين فرَج ونجاح، وسلامة وفضل، ووجوهكم وأخلاقكم وَفْق أعراقِكم وأفعالكم، فلم يضرِب التفاوتُ فيكم بنصيب.

أراد عمرُ الاستعانة برجل! فسأله عن اسمه واسم أبيه، فقال: سَرَّاق بنُ ظالم، فقال: تَسْرق أنت ويظلم أبوك! فلم يَستعنْ به.

سأل رجلٌ رجلاً: ما اسمك؟ فقال: بحر؟ قال: أبو مَنْ؟ قال: أبو الفَيْض، قال: ابنُ من؟ قال: ابن الفُرات، قال: ما ينبغي لصديقك أن يلقاك إلّا في زَوْرق.

---

(١) ذكره الإمام الديلمي في «مسنده الفردوس» (٥٩٨١)، بلفظ: «من ولد له أربعة. . .».

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٣١٥)، من حديث سيدنا أبي هريرة بلفظ: «لا تجمعوا بين اسمي وكنيتي، فإني أنا أبو القاسم الله ﷻ يعطي وأنا أقسم». وأخرجه الترمذي أيضاً في كتاب: الأدب، باب ما جاء في كراهية الجمع بين اسم النبي وكنيته (٢٨٤١).

وكان بعضُ الأعراب اسمُه وَثّاب، وله كلْب اسمُه عمرو، فهجاه أعرابيّ آخر فقال:

ولـــو هَـــيَّـــا لـــه الـــلّـــه　　مـــن الـــتـــوفـــيـــق أســـبـــابـــا

لـــســـمّـــى نـــفـــســـه عَـــمْـــراً　　وســـمّـــى الـــكـــلـــبَ وَثّـــابـــا

قالوا: وكلّما كان الاسم غريباً كان أشهرَ لصاحبه وأمنَع من تعلّق النَّبْز به. قال رؤبة:

قـد رَفَـع الـعَـجّـاج ذكـري فـادعُـنِـي　　بـاسـمـي إذا الأسـمـاء طـالـت تـكـفِـنـي

ومن هاهنا أخذ المعرّي قوله يمدَح الرضيّ والمرتضى رحمهما الله:

أنتـم ذَوو النّـسب الـقـصـيـر فـطـولُكـم　　بـادٍ عـلـى الـكُـبـراءِ والأشـرافِ

والـرّاح إن قـيـل ابـنـةُ الـعِـنَـب اكـتـفـتْ　　بـأبٍ عـن الأسـمـاء والأوْصـافِ

وسأل النّسابة البَكْريّ رؤبة عن نسبه ولم يكن يَعرِفه، قال: أنا ابن العجّاج، قال: قصرت وعرّفت.

صاح أعرابيّ بعبد الله بن جعفر: يا أبا الفَضْل! قيل: ليست كنيتُه، قال: وإن لم تكن كنيتَه فإنّها صِفَته. نظر عمرُ إلىّ جارية له سوداء تبكي فقال: ما شأنك! قالت: ضَرَبَني ابنُك أبو عيسى، قال: أوقد تَكنّى بأبي عيسى! عليّ به، فأحضروه، فقال: وَيْحك! أكان لعيسى أب فتكنَى به! أتدري ما كُنَى العَرَب! أبو سَلمة، أبو عُرْفُطة، أبو طلحة، أبو حنظلة، ثمّ أدّبه.

لما أقبل قحطبة بنُ شَبيب نحو ابن هُبيرة أراد ابنُ هبيرة أن يكتب إلى مروان بخبره، وكره أن يسمّيَه، فقال: اقْلِبوا اسمَه، فوجدوه هبط حقّ، فقال: دعُوه على هيئته.

قال بَرْصُوما الزامر لأمّه: وَيْحَك! أما وجدتِ لي اسماً تسمّيني به غير هذا! قالت: لو علمتُ أنّك بتجالس الخُلفاء والملوك سمّيتك يزيد بن مَزْيَد.

قيل لبعض صِبيان الأعراب: ما اسمُك؟ قال: قراد، قيل: لقد ضَيّق أبوك عليك الاسم، قال: إن ضَيَّق الاسمَ لقد أوسَع الكُنْيَة، قال: ما كُنْيَتُك؟ قال: أبو الصحارى.

نظر المأمونُ إلى غلامٍ حَسَن الوجْه في الموكب، فقال له: يا غلام، ما اسمُك؟ قال: لا أدري، قال: أو يكون أحدٌ لا يَعْرِف اسمَه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، اسمي الذي أعرف به «لا أدري»، فقال المأمون:

وسُـمّـيـتَ لا أدرِي لأنّـك لا تَـدرِي　　بمَا فَعَلَ الحبُّ المبرّح في صدري

ولد لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ولدٌ ذَكر، فبُشّر به وهو عند معاوية بن أبي سُفْيان، فقال له معاوية، سمّه باسمي ولك خَمسمائة ألف درهم، فسمّاه معاوية، فدفَعها إليه، وقال اشترِ بها لِسَمِيِّ ضَيْعة.

ومن حديثِ عليّ عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا سَمَّيتم الولدَ محمّداً فأكرِموه، وأوسعوا له في المجلس، ولا تقبّحوا له وجهاً»[١].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من قوم كانت لهم مَشُورة فحضَر معهم عليها مَن اسمه محمّد أو أحمَد فأدخلوه في مَشُورتهم إلّا خِيرَ لهم، وما من مائدةٍ وُضعتْ فحضر عليها من اسمُه محمّد أو أحمد إلّا قُدِّس ذلك المنزلُ في كلّ يوم مرّتين»[٢].

من أبيات المعاني:

وحَلَلْتَ من مضرٍ بأمنعِ ذرْوَةٍ　　　منعتْ بحَدّ الشّوكِ والأحجارِ

قالوا: يريد بالشّوك أخواله، وهم: قَتادة وطَلحة وعَوْسَجة، وبالأحجار أعمامَه، وهم صَفْوان وفِهْر وجَنْدَل وصَخْر وجَرْوَل.

سمّى عبدُ الملك ابناً له الحجّاج لحبّه الحجاج بنَ يوسفَ وقال فيه:

سمّيتُه الحجّاجَ بالحجّاجِ　　　الناصِحِ المكاشِفِ المُداجِي

استأذن الجاحظُ والشّكّاك - وهو من المتكلمين - على رئيس، فقال الخادم لمولاه: الجاحد والشّكّاك، فقال: هذان من الزّنادقة لا مَحالة! فصاح الجاحظ: ويحك! ارجع قل: الحدقيُّ بالباب - وبه كان يُعرَف - فقال الخادم: الحَلقيّ بالباب، فصاح الجاحظ ويلَكَ! ارجع إلى الجاحد.

جمع ابنُ دُرَيد ثمانية أسمَاء في بيتٍ واحد فقال:

فنعْم أخو الجُلّى ومستنبَط النَّدَى　　　وملجأ مكروب ومفزع لاهِث

عياذُ بنُ عمرو بن الجليس بن جابرِ بن زيد بن منظور بن زيد بن وارِثِ.

قال محمّد بنُ صدقة المقرئ ليموتَ بن المزرّع: صدّق الله فيك اسمك! فقال له: أحوَجَك الله إلى اسم أبيك.

سأل رجُلٌ أبا عبيدة عن اسم رجلٍ من العرب، فلم يَعْرِفه، فقال كَيْسانُ غلامُه: أنا أعرَفُ الناس به، هو خِراش أو خِداش أو رِياش أو شيءٌ آخر، فقال أبو عبيدةَ ما أحسنَ ما عرفته يا كَيْسان! قال: إي والله، وهو قرشيٌّ أيضاً، قال: وما يُدرِيك به؟ قال: أما ترى كيف احتوشَتْه الشّينات من كلّ جانب! قال الفرزدق:

وقد تَلْتَقِي الأسماءُ في النّاس والكُنَى　　　كثيراً ولكنْ مُيِّزوا في الخلائق

---

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٩٤).

(٢) ذكره الديلمي في «مسند الفردوس» (٦١٣٧).

رَأى الإسكندرُ في عسكره رجلاً لا يزال يَنهزِم في الحرْب، فسأله عن اسمه؟ فقال: اسمِي الإسكَندر، فقال: يا هذا، إمّا أن تغيِّر اسمك، وإما أن تغيِّر فِعلك.

قال شيخُنا أبو عثمان: لولا أن القدماء من الشّعراء سمَّت الملوكَ وكنّتْها في أشعارِها، وأجازتْ واصطلحت عليه ما كان جزاءُ مَن فعل ذلك إلا العقوبة، على أنّ ملوك بني سَامَان لم يُكنِّها أحد من رعاياها قطّ، ولا سماها في شعر ولا خُطْبة، وإنما حَدَث هذا في مُلوك الحيرة، وكانت الجُفاةُ من العَرب لسوء أدَبها وغِلَظ تركيبها إذا أتوا النبيّ ﷺ خاطَبوه باسمه وكنيته، فأما أصحابه فكانت مخاطبتُهم له: يا رسولَ الله، وهكذا يجب أن يقال للملك في المخاطبة: يا خليفة الله، ويا أمير المؤمنين.

وينبغي للدّاخل عِلى المِلِك أن يتلطّف في مراعاة الأدب، كما حكَى سعيدُ بن مُرّة الكنْديّ، دخل على معاوية فقال: أنت سعيد؟ فقال: أمير المؤمنين السعيد، وأنا ابنُ مُرّة.

وقال المأمون للسيّد بن أنس الأزديّ: أنت السيّد؟ فقال: أنت السيّد يا أمير المؤمنين، وأنا ابن أنَسٍ. شاعر:

لَعَمْرُكَ ما الأسماءُ إلّا علامةٌ ... مَنارٌ ومِن خير المنار ارتفاعُها

كان قومٌ من الصّحابة يخاطبون رسول الله ﷺ: «يا نبيء الله» بالهمزة، فأنكر ذلك وقال: «لست بنَبيء الله، ولكنّي نبيُّ الله»[1]. وكان البحتريّ إذا ذكر الخثْعميّ الشاعر يقول: ذاك الغَثّ العمِي. وكان صاحب ربيع يتشيّع، فارتفع إليه خَصْمان: اسم أحدهما عليّ، والآخر معاوية، فانحنَى على معاوية فضرَبه مائة سوط من غير أن اتّجهتْ عليه حجّة، ففطِن من أين أتِيَ! فقال: أصلحك الله! سَلْ خَصْمي عن كنيتِه، فإذا هو أبو عبد الرحمن - وكانت كنيةُ معاوية بن أبي سُفيان - فبَطَحه وضرَبَه مائة سوط، فقال لصاحبه: ما أخذْتَه منّي بالاسم استرجعتُه منكَ بالكُنْية.

- ٤٠٨ -

الأصل: العَيْنُ حَقٌّ، والرُّقَى حَقٌّ، والسِّحْرُ حَقٌّ، وَالفَأْلُ حَقٌّ وَالطِّيَرَةُ لَيْسَتْ بِحَقٍّ، والعَدْوَى لَيْسَتْ بِحَقٍّ. والطيبُ نُشْرَةٌ، وَالْعَسَلُ نُشْرَةٌ، وَالرُّكُوبُ نُشْرَةٌ، والنَّظَرُ إلى الخُضْرَةِ نُشْرَةٌ.

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٥٢٨٤)، وابن حجر في «لسان الميزان» (٤/ ٥)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٨١).

الشرح: ويروى: «والغسل نُشرة» بالغين المعجمة، أي التطهير بالماء.

اخبار حول العين والطيرة والفأل والسحر والعدوى

وقد جاء في الحديث المرفوع: «العَينُ حقّ، ولو كان شيء يَسبِق القَدَر لسبقتْه العين، وإذا استُغسِلْتم فاغسِلوا»[1]، قالوا في تفسيره: إنهم كانوا يَطلُبون من العائن أن يتوضأ بماء ثم يسقى منه المعِين ويَغتسِل بسائره.

وفي حديث عائشة: «العين حق كما أنّ محمداً حقّ».

وللحكماء في تعليل ذلك قولٌ لا بأس به، قالوا: هذا عائدٌ إلى نفس العائن، وذلك لأنّ الهُيولى مُطيعة للأنفس، متأثِّرة بها، ألا ترى أنّ نفوسَ الأفلاك تؤثّر فيها بتعاقُب الصوَر عليها! والنفوس البَشَرية من جَوْهر نفوس الأفلاك، وشديدة الشَّبَه بها، إلا أنّ نسبتَها إليها نسبةُ السراج إلى الشمس، فليست عامّة التأثير، بل تأثيرُها في أغلَب الأمر في بدَنِها خاصّة، ولهذا يَحمَى مزاجُ الإنسان عند الغضب، يستعدّ للجماع عند تصوُّر النفس صورَة المَعشوق، فإذَنْ قد صار تصوُّر النفس مؤثِّراً فيما هو خارجٌ عنها، لأنّها ليست حالةً في البدن، فلا يُستَبعد وجُود نفس لها جوهر مخصوص مخالِفٌ لغيره من جواهر النّفوس تؤثّر في غير بدنها، ولهذا يقال: إنّ قوماً من الهند يُقتَلون بالوَهْم، والإصابة بالعَيْن من هذا الباب، وهو أن تستحسِن النفسُ صورةً مخصوصة وتتعجّب منها، وتكون تلك النفس خبيثة جداً، فينفعل جسمُ تلك الصورة مطيعاً لتلك النفس كما ينفَعِل البدَن للسّم.

وفي حديث أمّ سلمة أن رسول الله ﷺ رأى في وجه جاريةٍ لها سَعْفَة، فقال: «إنّ بها نَظْرةً فاسترقُوا لها»[2].

وقال عوفُ بنُ مالك الأشجعيّ: كنّا نَرقي في الجاهليّة، فقلت: يا رسولَ الله، ما تَرَى في ذلك؟ فقال: «اعرضوا عليّ رقاكم فلا بأس بالرُّقَى ما لم يكن فيها شِرْك»[3].

كان ناسٌ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ في سفرٍ، فمرّوا بحيٍّ من أحياء العَرَب، فاستضافوهم فلم يُضيفوهم وقالوا لهم: هل فيكم من راقٍ، فإنّ سيّد الحيّ لَدِيغ؟ فقال رجل

---

(١) أخرجه مسلم في السلام، باب: الطب والمرضى والرقى (٢١٨٨)، والترمذي في الطب، باب: ما جاء في الرقية من العين (٢٠٥٩)، وأحمد في «مسنده» (٢٦٩٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في الطب، باب: رقية العين (٥٧٣٩)، ومسلم في السلام، باب: استحباب الرقية من العين (٢١٩٧)، وأحمد في «مسند المكثرين في الصحابة، باب: مسند عبد الله بن عمر بن العاص (٦٩٨٦).

(٣) أخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٣٢٨).

منهم: نعم، فأتاه فَرَقاه بفاتحة الكتاب فبرئ، فأُعطِيَ قَطيعاً من الغنم، فأَبَى أن يَقبَلها حتّى يأتيَ رسول الله ﷺ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، وقال: وعَيْشك ما رقيتُه إلّا بفاتحة الكتاب، فقال: «ما أدراكم إنّها رُقْيةٌ! خذُوا منهم، واضربوا لي معكم بسَهْم»[1].

ورَوَى بُرَيْدة، قال: قال رسولُ الله ﷺ وقد ذُكرتْ عنده الطِّيَرة: «مَنْ عَرض له من هذه الطِّيَرة شيء فلْيَقل: اللّهم لا طيْر إلا طَيْرُك، ولا خيرَ إلّا خيرُك، ولا إلٰه غيرُك، ولا حول ولا قوّة إلا بالله»[2].

وعنه ﷺ: «ليس منّا من تَطيّر أو تُطيِّر له، أو تَكَهّن أو تُكُهِّن له»[3].

أَنس بنُ مالك يرفَعه: «لا عَدْوَى ولا طِيَرة، ويُعجِبني الفألُ الصّالح»[4]، قالوا: فما الفألُ الصالح؟ قال: الكلمة الطيّبة.

وعنه ﷺ: «تفاءَلوا ولا تَطيَّرُوا».

وروَى عبدُ اللّه بنُ بُرَيدة، عن أبيه، أنّ رسولَ الله ﷺ كان لا يتطيّر من شيء، وكان إذا بَعَث عاملاً سأل عن اسمِه، فإذا أعجَبه سُرَّ به، ورئي بِشْرُ ذلك في وَجْهه، وإن كَره اسمَه رُئيتِ الكراهةُ على وَجْهه، وإذا دخل قريةً سأل عن اسمِها فإنْ أعجَبه ظهرَ عَلَى وجْهه.

بَنَى عُبيدُ اللّه بن زياد بالبصرة داراً عظيمةً، فمرّ بها بعضُ الأعراب، فرأى في دِهْلِيزِها صورة أَسَد وكَلْب وكَبْش، فقال: أسدٌ كالح، وكبشٌ ناطح، وكَلْب نابح، والله لا يُمتَّع بها، فلم يَلبَثْ عبيد اللّه فيها إلا أيّاماً يسيرة.

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة، باب: ما يعطى في الرقية على أحياء العرب في فاتحة الكتاب (٢٢٧٦)، ومسلم في السلام، باب: جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن (٢٢٠١)، والترمذي في الطب، باب: أخذ الأجرة على التعويذ (٢٠٦٤)، وأبو داود في البيوع، باب: كسب الأطباء (٣٤١٨).

(٢) أخرجه أحمد في المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن عمرو بن العاص (٧٠٠٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٧٠)، دون قوله: «ولا حول ولا قوة إلا بالله» وهو بلفظه عند أبي نعيم في «الحلية» (٦/ ٢١)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/ ٢٠١).

(٣) أخرجه البزار في «المسند» (٢٥٧٨)، والطبراني في «الأوسط» (٤٨٤٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٩٥)، وابن عدي في «الكامل» (٧٨٠).

(٤) أخرجه البخاري في الطب، باب: الفأل (٥٧٥٦)، ومسلم في السلام، باب: الطيرة والفأل (٢٢٢٣)، وأبو داود في الطب بابٌ في الطيرة (٣٩١٦)، وابن ماجه في الطب، باب: من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة (٣٥٣٧).

أبو هريرة يرفَعه: «إذا ظننتم فلا تُحقِّقوا، وإذا تطيّرتم فامْضوا، وعلى الله فتوكّلوا»[(١)].

وقال ﷺ: «أحسَنُها الفالُ، ولا يَرُدّ قدَراً، ولكن إذا رأى أحدُكم ما يَكرَه فليَقُل: اللّهم لا يأتي بالحَسَنات إلّا أنت، ولا يَدفع السّيّئات إلّا أنت، ولا حولَ ولا قوّة إلّا بك»[(٢)].

وقال بعضُ الشّعراء:

لا يَعلَم المرءُ لَيْلاً ما يُصبِّحه ... إلاّ كواذب ما يَجرِي به الفالُ
والفالُ والزّجر والكُهّان كلُّهمُ ... مضلّلون ودونَ الغيب أقفالُ

وعن النّبيّ ﷺ: «القِيافَة والطَّرْق والطِّيَرة من الجَبْت»[(٣)].

ابن عباس يرفَعُه: «من اقتبس عِلْماً من النجوم اقتبَس شُعْبة من السِّحْر»[(٤)].

أبو هريرة يرفَعه: «من أتى كاهناً فصدّقَه فيما يقول فقد بَرِئ مما أنزل الله على أبي القاسم»[(٥)].

شاعر:

لَعمرُك ما تَدرِي الطّوارقُ بِالحصى ... ولا زاجِراتُ الطّير ما اللّه صانعُ

وقال آخر:

لا يُقعِدنّك عن بِغا ... ءِ الخير تعقادُ العزائمْ
فلقد غَدَوْتُ وكنتُ لا ... أغدو على راقٍ وحائِمْ
فإذا الأشائمُ كالأيا ... مِنِ والأيامِنُ كالأشائمْ
وكذاك لا خيرٌ ولا ... شرٌّ على أحدٍ بدائِمْ

تفاءَل هشامُ بنُ عبد الملك بنصر بن سيّار فقلّده خُراسان، فبقي فيها عشرَ سنين.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ١٢٥)، وابن عدي في الكامل (١١٤٣).

(٢) أخرجه أبو داود في الطب، باب: في الطيرة (٣٩١٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٦٢٩٨)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٣٩٢)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٢٠٢٠).

(٣) أخرجه أبو داود في الطب، باب في الحظ والجلب الطير (٣٩٠٧)، وأحمد في مسند المكيين، باب: حديث قبيصة بن مخارق (١٥٤٨٥)، بلفظ: «العيافة والطيرة والطرق من الجبت».

(٤) أخرجه أبو داود في الطب، بابٌ في النجوم (٣٩٠٥)، وابن ماجه في الأدب، باب: تعلم النجوم (٣٧٢٦)، وأحمد في مسند بني هاشم، باب: بداية مسند عبد الله بن عباس (٢٨٣٦).

(٥) أخرجه ابن ماجه في الطهارة، باب: النهي عن إتيان الحائض (٦٣٩)، وأحمد في باقي مسند المكثرين (٩٢٥٢)، والدارمي في الطهارة، باب: من أتى امرأته فيدبرها (١١٣٦)، بلفظ: «فقد كفر بما أنزل على محمد» بدل قوله: «بريء مما أنزل على أبي القاسم».

وتَفاءَل عامرُ بنُ إسماعيل قاتل مَرْوان بنِ محمّد باسم رجل لقيَه، فسأله عن اسمه، فقال: منصور بن سعد، قال: من أيّ العرب؟ قال: مِن سَعْد العشيرة، فاستصحَبه وطَلب مروان فَظفِر به وقَتَله.

وتفاءل المأمونُ بمَنصور بنِ بسّام فكان سببَ مكانتِه عندَه.

قالوا: إنما أصل اليد اليُسرَى العُسْرى، إلا أنّهم أبدَلوا اليُسرى من اليسر تَفاؤلاً.

مزرِّد بن ضِرار:

وإنّـي امـرؤ لا تـقـشـعـرّ ذُؤابَـتِـي　　من الذّئبِ يَعوِي والغرابِ المحجَّلِ

الكُمَيْت:

ولا أنـا مـمّـن يَـزْجـر الـطـيـر هَـمّـه　　أصـاحَ غُـرابٌ أم تـعـرّض ثـعـلـبُ

وقال بعض العرب: خرجتُ في طلب ناقةٍ ضلّت لي، فسمعتُ قائلاً يقول:

ولـئـن بـعـثـت لـهـا بُـغـا　　ةً فـمـا الـبـغـاةُ بـواجِـدِيـنَـا

فلم أتطيّر ومضيتُ لوجهي، فلقيَني رجلٌ قبيح الوجه به ما شئت من عاهة، فلم أتطيّر وتقدّمت فلاحَت لي أكَمة فسَمِعْت منها صائحاً:

والـشـرّ يـلـقـى مَـطـالِـعَ الأكَـمِ

فلم أكترث ولا انثنيْت وعلَوتُها، فوجدتُ ناقتي قد تفاجّت للولادَة فنتجتها، وعدت إلى منزلي بها ومعها ولدُها.

وقيل لعليّ عليه السلام: لا تحاربهم اليوم فإن القمر في العَقْرب، فقال: قَمرُنا أم قَمرُهُم!

ورُوِي عنه عليه السلام أنه كان يَكرَه أن يُسافر أو يتزوّج في مَحاق الشّهر، وإذا كان القمر في العَقْرب.

ورُوِي أنّ ابن عبّاس قال على مِنبَر البَصرة: إنّ الكلاب من الحنّ وإن الحنَّ من ضُعفاء الجنّ، فإذ غشيَكم منهم شيء فألقوا إليه شيئاً أو اطردوه، فإنّ لها أنفُس سَوء.

وقال أبو عثمان الجاحظ: كان علماء الفُرْس والهند وأطبّاء اليونانيّين ودُهاة العرب وأهل التّجربة من نازلة الأمصار وحُذّاق المتكلّمين يَكرَهون الأكل بين يَدي السّباع يخافون عيونها للّذي فيها من النّهَم والشّرَه، ولما ينحلّ عند ذلك من أجوافها من البُخار الرّديء، وينفصل من عيونها ممّا إذا خالط الإنسان نقض بنية قلبه وأفسَدَه. وكانوا يكرهون قيامَ الخدَم بالمُذاب والأشرِبة على رؤوسهم خَوْفاً من أعيُنهم وشدّة ملاحظتهم إيّاهم، وكانوا يأمرون بإشباعهم قبل أن يأكلوا، وكانوا يقولون في الكَلْب والسّنّور إمّا أن يُطرَد أو يُشغَل بما يُطرَح له.

وقالت الحكماء: نفوسُ السّباع أردأ النفوس وأخبثها لفَرْطِ شَرَهها وشَرّها. قالوا: وقد وجدْنا الرجل يضرِب الحيّة بعصا فيموت الضارب والحيّة، لأن سمّ الحيّة فُصِل منها حتى خالط أحشاءَ الضارب وقَلْبَه، ونفذ في مَسامِّ جسدِه.

وقد يُدِيم الإنسانُ النظر إلى العين المحمَّرة فتعتري عينه حُمرة، والتثاؤب يُعدِي إعداءً ظاهراً، ويكره دنوُّ الطامِث من اللّبن لتسوطَهُ، لأن لها رائحةً وبُخاراً يُفسِد اللبن المسُوط.

وقال الأصمعيّ: رأيت رجلاً عَيوناً كان يَذكُر عن نفسه أنه إذا أعجبه الشيءُ وجَدَ حرارَة تَخرج من عينه.

وقال أيضاً: كان عندنا عَيونان فمرّ أحدُهما بحَوض من حجارة، فقال: تالله ما رأيتُ كاليوم حَوْضاً! فانصَدع فِلقَتيْن، فمرّ عليه الثاني، فقال: وأبيك لقلّما ضررتَ أهلك فيك! فتطاير أربعَ فِلَق.

وسمع آخر صوت بَوْل من وراءِ جِدار حائط، فقال: إنك كثيرُ الشُّخب، فقالوا: هُوَ ابْنُك! فقال: أوه انقطَع ظَهْرُه! فقيل: لا بأس عليه إنْ شاء الله، فقال: والله لا يَبُول بَعْدها أبداً، فما بال حتى مات.

وسمَع آخَرُ صوت شُخْب ناقةٍ بقُوّة فأعجَبه، فقال: أيتهنّ هذه؟ فورّوا بأخرى عنها، فهلَكتا جميعاً، المورَّى بها والمورَّى عنها.

قال رجل من خاصّة المنصور له قبل أن يقتُل أبا مسلم بيَوْم واحد: إنّي رأيتُ اليوم لأبي مسلم ثلاثاً تطيّرت له منها. قال: ما هي؟ قال: ركب فوقعتْ قَلَنْسُوَتُه عن رأسه، فقال المنصور: الله أكبرُ! تَبعها والله رأسُه، فقال: وكَبا به فرسه، فقال: الله أكبر! كبا والله جَدُّه، وأصلَد زَنْدهُ، فما الثالثة؟ قال: إنه قال لأصحابه: أنا مقتول، وإنما أخادِع نفسي، وإذا رجلٌ يُنادِي آخر من الصحراء: اليوم آخِر الأجل يا فلان. فقال: الله أكبر! انقضَى أجلُه إن شاء الله، وانقطع من الدنيا أثرُه. فقتِل في غدِ ذلك اليوم.

تجهّز النابغةُ الذبيانيّ للغزو - واسمُه زياد بن عمرو - مع زبّان بن سيّار الفزاريّ فلما أراد الرحيل سقطت عليه جَرادةٌ فتطيّر، وقال: ذات لَوْنين تجرد، غُرّي من خرج، فأقام، ولم يلتفتْ زبّان إلى طِيَرته، فذهب ورَجَع غانماً، فقال:

تَطيّر طيرةً يوماً زِيادٌ | لِتخبِره وما فيها خَبيرُ
أقامَ كأنّ لُقمانَ بن عادٍ | أشارَ له بحكمته مُشيرُ
تَعلّمْ أنه لا طيرَ إلّا | على متطيّر وهو الثُّبورُ
بلى شيءٌ يوافِق بعضَ شيءٍ | أحايِيناً وباطِلُه كثيرُ

حضر عمرَ بنَ الخطاب الموسمُ، فصاح به صائح: يا خليفة رسول الله، فقال رجل من بني لِهْب، وهم أهلُ عِيافة وزَجْر: دعاه باسم ميّت، مات والله أميرُ المؤمنين عليه السلام، فلما وقف الناس للجِمار إذا حصاةٌ صكّت صَلْعة عُمَر، فأُدمِي منها، فقال ذلك القائل: أشعر والله أمير المؤمنين، لا والله ما يقف هذا الموقف أبداً، فقُتِل عمر قبل أن يَحُول الحَوْل. وقال كثيِّرُ بن عبد الرحمن:

تيمّمت لِهْباً أبتغي العِلْم عندَها   وقد صار عِلْم العائفين إلى لِهْبِ

كان للعرب كاهِنان اسمُ أحدهما شِقّ، وكان نصف إنسان، واسم الآخر سَطيح، وكان يُطوَى طَيّ الحَصير، ويتكلّمان بكل أعجوبة في الكهانة، فقال ابنُ الرُّوميّ:

لـــك رأيٌ كـــانـــهُ رأي شِـــقٍّ   وسَـطِـيـحٍ قَـرِيـعَـي الـكُـهّـانِ

يـسـتـشـف الـغُـيـوب عـمـا تـوارى   بـعـيـون جـلـيّـة الإنـسـان

وقال أبو عثمان الجاحظ: كان مُسيلمة قبل أن يتنبّأ يدور في الأسواق التي كانت بين دُور العرب والعجَم كسُوق الأبلّة وسوق بقّة وسوق الأنبار وسوق الحِيرة يلتمس تعلُّم الحيل والنّيرنْجيّات واحتيالات أصحاب الرُّقى والعزائم والنجوم، وقد كان أحكم علم الحُزاة[1] وأصحاب الزجر والخطّ، فعمَدَ إلى بَيْضة فصبّ إليها خَلًّا حاذقاً قاطعاً، فلانَتْ، حتى إذا مدّها الإنسان استطالتْ ودَقّت كالعَلك، ثمّ أدخلها قارورةً ضيّقة الرأس وتركها حتى انضمت واستدارت وجمدتْ، فعادت كهيئتها الأولى، فأخرجها إلى قوم وهم أعرابٌ واستغواهم بها، وفيه قيل:

بـبـيـضـةِ قـارورٍ ورايـةِ شـادِنٍ   وتـوصـيـل مَـقْـطـوع من الـطـير حـاذِقِ

قالوا: أراد براية الشّادن التي يعملها الصبيّ من القِرطاس الرّقيق، ويَجعَل لها ذَنباً وجناحين ويُرسلها يوم الرِّيح بخيْط طويل.

كان مُسَلْيمة يَعمل راياتٍ من هذا الجنس، ويعلّق فيها الجلاجِل، ويُرسلها لَيْلاً في شدّة الريح، ويقول: هذه الملائكة تنزل عليّ، وهذه خَشخَشة الملائكة وزجَلُها، وكان يصل جَناح الطير المقصوص بريشٍ معه فيطير ويستغوِي به الأعراب.

شاعرٌ في الطِّيَرة:

وأمنع الياسمين الغَضّ مِن حَذري   عليكِ إذْ قيل لي نصفُ اسمِه ياس

وقال آخر:

أهـدَتْ إلـيـه سَـفَـرْجـلاً فَـتـطـيَّـرا   مـنـه وظَـلّ مـفـكّـراً مـسـتـعـبـرا

---

(١) الحزأة: الكهانة. القاموس، مادة (حزو).

خـوف الـفِـراق لأن شَـطـر هِـجـائـه سَـفَـرٌ وحُـقَّ لـه بـأنْ يـتـطـيَّـرا

وقال آخر:

يـا ذا الـذي أهـدَى لـنـا سَـوْسَـنـاً مـا كـنـت فـي إهـدائـهِ مـحـسـنـا

نِـصـفُ اسـمـه سَـوٌ فـقـد سـاءنـي يـا لـيـت أنّـي لـم أرَ الـسَّـوْسَـنـا

ومِثلُه:

لا تـــرانـــي طَـــوال دهْـــ ـرِي أهْـــوى الـــشَّـــقـــائِـــقَـــا

إنْ يـــكـــن يُـــشـــبـــه الـــخـــدو د فـــنـــصـــف اســـمـــه شَـــقَـــا

وكانوا يتفاءلون بالآسِ لدوامه، ويتطيَّرون من النرجِس لسرعة انقضائه، ويسمّونه الغَدّار.

وقال العباس بنُ الأحنف:

إنّ الّـذي سَـمّـاكِ يـا مـنـيَـتـي بـالـنّـرجِـس الـغَـدّار مـا أنـصَـفـا

لـو أنّـه سـمّـاك بـالآسَـةِ وفـيـتِ إنّ الآسَ أهـلُ الـوَفـا

خرج كثيِّرُ يريد عَزّةَ ومعه صاحِبٌ له من نَهْد، فرأى غراباً ساقطاً فوق بانَةٍ يَنتِف ريشَه، فقال له النَّهْديّ: إن صَدَق الطَّيْر فقد ماتت عَزّة، فوافَى أهلَها وقد أخرَجوا جَنازَتها، فقال:

ومـا أعْـيَـفَ الـنـهـديُّ لا دَرّ دَرّهُ وأزجَـرَه لـلـطّـيـر لا عَـزَّ نـاصِـرُهْ

رأيـتُ غـرابـاً سـاقـطـاً فـوقَ بَـانـةٍ يـنـتّـفُ أعـلَـى ريـشـهِ ويُـطـايِـرُهْ

فـقـال غـرابٌ لاغـتـرابٍ، وبـانَـةٌ لِـبَـيْـن، وفـقـدٌ مـن حـبـيـبٍ تُـعَـاشِـرُهْ

وقال الشاعر:

وسَـمّـيـتـه يـحـيَـى لـيـحـيَـا ولـم يـكـن إلـى رَدِّ حُـكـم الـلّـه فـيـهِ سَـبـيـلُ

تـيَـمـمْـتُ فـيـه الـفـألَ حـيـن رُزِقـتُـه ولـم أدرِ أن الـفـأل فـيـه يـفـيـلُ

فأمّا القول في السِّحر فإنّ الفقهاء يثبتونه ويقولون: فيه القَوَد، وقد جاء في الخبر أنّ رسول الله ﷺ سَحَره لَبيد بن أعصَم اليهوديّ حتى كان يُخيِّل إليه أنه عَمِل الشيءَ ولم يَعْمَله[1].

ورُوي أنّ امرأةً من يهود سحرتْه بشَعْر وقُصاص وجَعَلت السِّحرَ في بئر، وأنّ الله تعالى دَلّه على ذلك، فبعث عليًا عليه السلام فاستخرَجه وقَتَل المرأة[2].

---

(١) أخرجه البخاري في بدى الخلق، باب: صفة إبليس وجنوده (٣٢٦٨)، ومسلم في السلام، باب: في السحر (٢١٨٩)، وابن ماجه في الطب، باب السحر (٣٥٤٥)، وأحمد في باقي مسند الأنصار، باب: حديث السيدة عائشة (٢٣٧٧٩).

(٢) شعراء النصرانية: ٢٣٥ في وصف سنة ومجاعة.

وقومٌ من المتكلّمين يَنفون هذا عنه ﷺ، ويقولون: إنه معصوم مِن مِثله.

والفلاسفة تَزْعم أنّ السِّحرَ من آثار النفسِ الناطقة، وأنه لا يَبعُد أن يكون في النفوس نفس تؤثّر في غيرِ بَدنها المرض والحُبّ والبُغْض ونحو ذلك، وأصحاب الكواكب يَجعلون للكواكب في ذلك تأثيراً، وأصحابُ خَواصّ الأحجار والنّبات وغيرها يُسنِدون ذلك إلى الخواصّ، وكلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام دالٌّ على تصحيح ما يُدعى من السِّحْر.

وأمّا العَدْوَى فقد قال رسول الله ﷺ: «لا عدوَى في الإسلام»[1]. وقال لمن قال: أعدَى بعضُها بعضاً - يعني الإبل -: فمن أعدَى الأول؟ وقال: «لا عدوَى ولا هامَة ولا صَفَر»[2]، فالعَدْوَى معروفة، والهامَة: ما كانت العرب تزعُمه في المَقْتول لا يؤخذ بثأرِه، والصَّفَر: ما كانت العرب تزعمُه مِن الحيّةِ في البَطْن تَعَض عند الجُوع.

أخبار حول مذاهب العرب وتخيلاتها

وسنذكر ها هنا نُكتاً مُمتِعةً من مَذاهب العَرَب وتَخيُّلاتِها، لأنّ الموضع قد ساقَنا إليه، أنشَد هشامُ بنُ الكَلبيّ لأميّة بن أبي الصَّلْت:

سَنَةٌ أزْمَةٌ تُبرِّح بالنا ... سِ تَرَى للعِضاهِ فيها صَرِيرا
لا عَلَى كوكبٍ تَنُوءُ ولا رِيـ ... ـح جنوبٍ ولا ترى طُخْرورا
ويُسَقُّون باقرَ السَّهْل للطّو ... دِ مهازيلَ خشيةً أن تَبورا
عاقدين النِّيرانَ في ثُكَن الأذ ... ناب منها لكي تهيجَ البحُورا
سَلَعٌ ما ومِثْله عُشَرٌ ما ... عائِلٌ ما وَعالتِ البَيْقُورا

يُروَى أنّ عيسى بن عمر قال: ما أدري معنى هذا البيت! ويقال: إنّ الأصمعيّ صحّف فيه، فقال: «وغالَت البَيْقُورا» بالغَين المعجمة، وفسّره غيرُه فقال: عالَت بمعنى أثقَلت البَقَرَ بما حملتها من السّلع والعُشرِ، والبَيْقور: البقر. وعائل: غالب، أو مُثقَل.

وكانت العرب إذا أجدَبَتْ وأمسكَتْ السماءُ عنهم وأرادوا أن يُستمطرُوا عَمَدوا إلى السَّلع والعُشَر فحزَموهما وعقدوهما في أذنابِ البقر، وأضرموا فيها النِّيران، وأصعَدوها في جبل وَعِر، واتّبعوها يَدْعون الله ويَستَسْقونه، وإنّما يَضرِمون النِّيران، في أذناب البقر تفاؤلاً للبَرْق بالنار، وكانوا يَسُوقونها نحو المغرب من دون الجهات. وقال أعرابيّ:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه بما معناه: ٧/ ٣١.

(٢) أخرجه البخاري في الطب، باب: لا هامة (٥٧٥٧)، ومسلم في السلام، باب: لا عدوى (٢٢٢٠)، وأبو داود في الطب باب: في الطيرة (٣٩١١)، وابن ماجه في الطب، باب: من كان يعجبه الفأل (٣٥٣٩).

شَفَعْنَا بِبَيقور إلى هاطل الحيَا   فلم يُغن عنّا ذاك بل زادَنَا جَدْبَا
فعُذْنا إلى رَبِّ الحَيا فأجارَنا   وصيّر جذبَ الأرض من عندِه خِصْبا

وقال آخر:

قُلْ لبنِي نَهْشَلَ أصحاب الحَوَرْ:   أتطلُبون الغيثَ جَهْلاً بالبَقَرْ!
وسلَعٍ من بعد ذَاكَ وعُشَرْ   ليس بذا يُجلِّل الأرضَ المَطَرْ

ويمكن أن يُحمَل تفسيرُ الأصمعيّ على محمل صحيح، فيقال: غالت بمعنى أهلكتْ، يقال: غالَه كذا واغتالَه أي أهْلَكه، وغَالتهم غُولٌ، يعني المنيّة، ومنه الغَضَب غُول الحلْم.

وقال آخر:

لمّا كسَوْنا الأرض أذناب البَقَرْ   بالسَّلَع المعقود فيها والعُشَرْ

وقال آخر:

يا كُحْل قد أثقلتَ أذنابَ البَقَرْ   بسَلَعٍ يعقد فيها وعُشَرْ
فهل تَجُودِين ببَرْقٍ ومَطَرْ

وقال آخر يعيب العربَ بفِعلهم هذا:

لا دَرَّ دَرّ رجالٍ خابَ سعيُهُم   يَستمطِرون لدى الإعسار بالعُشَرِ
أجاعلٌ أنت بيقوراً مسلّعة   ذريعةً لك بين اللّه والمَطَر

وقال بعضُ الأذكياء: كلّ أمّة قد تَحذو في مذاهبها مذاهبَ مِلّة أخرى، وقد كانت الهنْد تَزعمُ أنّ البقر ملائكة، سَخط اللهُ عليها فجَعَلها في الأرض، وأنّ لها عنده حرمة، وكانوا يُلطّخون الأبدانَ بأخثائها، ويَغسِلون الوجوهَ ببَوْلِها ويَجعلونَها مُهورَ نِسائهم، ويتبرّكون بها في جميع أحوالهم، فلعلّ أوائلَ العرب حَذَوْا هذا الحذْوَ، وانتَهَجوا هذا المَسْلك.

وللعَرَب في البقر خيالٌ آخر، وذلك أنّهم إذا أوْرَدوها فلم تَرِد، ضَرَبوا الثّور ليقتحمَ الماء، فتقتحم البقر بعدَه، ويقولون: إنّ الجنّ تَصُدّ البقر عن الماء، وإن الشّيطان يَركَب قَرنَيْ الثّور، وقال قائلهُم:

إنّي وقتلِي سُلَيْكاً حين أعقِلُه   كالثّور يُضرَب لمّا عافَتْ البَقَرُ

وقال نَهشَل بن حريّ:

كذاكَ الثورُ يُضرَب بالهِرَاوَى   إذا ما عافتِ البَقَرُ الظّماء

وقال آخر:

كالثّوْر يُضرَب للورُو   دِ إذا تَمنّعتِ البَقَرْ

فإنْ كان ليس إلّا هذا فليس ذاك بعَجِيب من البقر ولا بمَذهَب من مذاهِب العرب: لأنّه قد يجوز أن تَمتنِع البقر من الوُرود حتّى يَرِدَ الثّور كما تمتنِعَ الغنمُ من سلوك الطُّرُق أو دخول الدُّور والأخبية حتّى يتقدّمها الكبش أو التّيس، وكالنحل تتبع اليَعْسُوب، والكَراكيّ تتبع أميرَها، ولكن الّذي تدلّ عليه أشعارها أنّ الثّور يَرِدُ ويَشرَب ولا يمتنع، ولكنّ البقر تَمتنع وتَعافُ الماء وقد رأت الثورَ يَشرَب، فحينئذ يُضرب الثور مع إجابته إلى الورود فتَشرب البقر عند شُرْبه، وهذا هو العَجَب، قال الشاعر:

فإنّي إذَنْ كالثّوْر يُضرَب جَنْبُهُ ... إذا لم يَعَفْ شرباً وعافَتْ صَواحِبُهْ

وقال آخر:

فلا تجعلوني كالبقير وفحلها ... يكسَّر ضَرْباً وهو للوِرْد طائِعُ

وما ذَنْبُه إن لم يرد بقَراته ... وقد فاجأتها عند ذاك الشّرائعُ

وقال الأعشى:

لكالثّور والجِنّيّ يُضرَب وجهُهُ ... وما ذَنْبُه إن عافَت الماءَ مَشْرَبا!

وما ذنبُه إن عافت الماء باقِرٌ ... وما إن يَعافُ الماء إلّا ليُضرَبا

قالوا في تفسيره: لمّا كان امتناعُها يتعقبه الضرب، حَسُن أن يقال: عافت الماء لتُضرَب، وهذه اللّام هي لام العاقبة، كقوله: «لِدُوا للموت»، وعَلَى هذا فسّر أصحابُنا قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾[1].

ومن مذاهب العرب أيضاً تعليق الحَلْي والجَلاجِل على اللّدِيغ يَرَوْن أنه يُفيق بذلك، ويقال: إنه إنما يعلّق عليه لأنهم يرَوْن أنه إنّ نام يَسرِي السمّ فيه فيَهلِك، فشَغَلوه بالحَلْي والجَلاجِل وأصواتها عن النوم، وهذا قولُ النَّضر بنُ شُمَيل، وبعضُهم يقول: إنه إذا عُلّق عليه حلي الذهب بَرَأ، وإن علّق الرَّصاص أوْ حَلْي الرصاص مات.

وقيل لبعض الأعراب: أتريدون شُهْرةً؟ فقال: إنّ الحَلْي لا تُشهر، ولكنها سُنّةٌ ورِثْناها.

وقال النابغة:

فبتّ كأني ساورتْني ضَئيلةٌ ... من الرُّقْش في أنيابِها السّمُّ ناقِعُ

يُسهّدُ من ليلِ التّمام سَلِيمُها ... لِحلْي النساءِ في يديهِ قَعاقِعُ

وقال بعض بني عُذْرَة:

كأنّي سليمٌ نالَهُ كَلْمُ حَيّةٍ ... ترى حولَه حَلْي النساء مرصَّعَا

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

وقال آخر:

وقد عُلّلوا بالبُطْل في كلّ موضعٍ ... وغُرُّوا كما غَرَّ السليمَ الجلاجلُ

وقال جَمِيل وظَرُف في قوله، ولو قاله العبّاس بن الأحنف لكان ظريفاً:

إذا ما لَدِيغٌ أبرأ الحَليُ داءَه ... فحَليكِ أمسَى يا بُثَيْنة دائِيا

وقال عُوَيْمر النّبهانيّ وهو يؤكّد قولَ النّضر بنِ شُمَيل:

فبتّ مُعنًّى بالهموم كأنّني ... سليمٌ نَفَى عنه الرُّقادَ الجَلاجلُ

ومِثْله قولُ الآخر:

كأني سليمٌ سَهَّد الحليُ عينَه ... فراقب من ليل التّمام الكواكبَا

ويشبه مذهَبهم في ضَرْب الثور مذهبهم في العَرّ يصِيبُ الإبلَ فيُكوَى الصَّحيح ليَبْرأ السقيم.

وقال النابغة:

وكلّفتَني ذنْبَ امرئٍ وتركته ... كذي العَرِّ يكْوَى غيرُه وهو راتِعُ

وقال بعضُ الأعراب:

كمن يَكوِي الصّحاح يرومُ بُرْءاً ... به من كلّ جَرْباء الإهابِ

وهذا البيت يُبطِل رواية مَن رَوى بيت النابغة «كذِي العُرّ» بضم العين، لأنّ العُرّ بالضم: قَرْح في مَشافِر الإبل غيرُ الجَرَب، والعَرُّ بالفتح: الجَرَب نفسه، فإذا دَلَّ الشعر على أنه يكوَى الصّحيح ليبرأ الأجرَب، فالواجبُ أن يكون بيتُ النابغة «كذِي العَرّ» بالفتح.

ومِثْلُ هذا البيت قولُ الآخر:

فألزمتني ذنْباً وغيرِيَ جَرَّه ... حَنَانَيْكِ لا يُكوى الصحيحُ بأجْربا

إلّا أن يكون إطلاق لفظِ الجَرَب على هذا المرض المخصوص من باب المجاز لمشابهته له.

ومن تخيّلاتِ العَرَب ومذاهِبها أنّهم كانوا يَفقؤون عينَ الفَحْلِ من الإبل إذا بلغت ألفاً، كأنّهم يَدْفعون العين عنها، قال الشاعر:

فَقأنا عيوناً من فُحول بَهازِرٍ ... وأنتم برَغيِ البُهْم أولَى وأجْدرُ

وقال آخر:

وهَبْتَها وكنتَ ذا امتِنانِ ... تفقَأ فِيها أعيُنَ البُعْرانِ

وقال الآخر:

أعطيتَها ألفاً ولم تبخَلْ بها ... ففَقأتَ عيْنَ فُحَيْلِها مُعْتافا

وقد ظنّ قومٌ أنّ بيتَ الفرَزْدق وهو:

غَلَبْتُكَ بالمفقِّيء والمُعَنَّى ... وبيت المحتبي والخافِقاتِ

من هذا الباب، وليس الأمر على ذلك، وإنّما أراد بالفقء قوله لجرير:

ولستَ ولو فقّأتُ عينيكَ واجداً ... أخاً كلَقيطٍ أو أباً مِثلَ دارِمِ

وأرادَ بالمعنّى قوله لجرير أيضاً:

وإنّك إذ تَسعَى لتُدرِك دارِماً ... لأنتَ المعنَّى يا جَرير المكلَّفُ

وأراد بقوله: «بيت المحتبي» قوله:

بيتٌ زرارةُ مُحتبٍ بفِنائهِ ... ومُجاشع وأبو الفَوارِس نَهشَلُ

وبيت الخافِقات، قوله:

ومعصَّبٍ بالتّاج يخفِق فوقَه ... خِرَق الملوك له خَميسٌ جَحْفَلُ

فأما مذهبهم في البليّة، وهي ناقةٌ تُعقَلُ عند القبر حتّى تموت، فمذْهَبٌ مشهور، والبَلِية أنّهم إذا ماتَ منهم كريمٌ بلَوا ناقَته أو بَعيره، فعكسوا عنقَها، وأداروا رأسَها إلى مؤخّرها، وتركُوها في حَفِيرة لا تَطعَم ولا تُسقَى حتّى تموت، وربّما أُحرِقتْ بعد موتها، وربّما سُلِخت وملئ جلدُها ثُماماً. وكانوا يزعمُون أنّ من مات ولم يُبْلَ عليه حُشِر ماشياً، ومَن كانت له بليّة حُشِر راكباً على بليّته، قال جُرَيبة بن الأشيم الفَقْعَسيّ لابنه:

يا سَعْد إما أهلِكَنّ فإنّني ... أوصيكَ إنّ أخا الوَصاةِ الأقربُ

لا أعرِفَنّ أباكَ يحشر خلفَكُمْ ... تعِباً يُجَرُّ على اليَدَين ويُنكَبُ

واحملْ أبَاك على بعيرٍ صالحٍ ... وتَقِ الخطيئةَ إنّه هو أصوَبُ

ولعلّ لي ممّا جمعتُ مطيّةً ... في الحَشْر أركبُها إذا قيل ارْكَبوا

وقال جُريبة أيضاً:

إذا مِتُّ فادفنّي بجدّاءَ ما بها ... سوَى الأصرخين أو يفوِّز راكبُ

فإن أنتَ لم تَعقِر عليّ مطيّتي ... فلا قامَ في مالٍ لك الدهر جالِبُ

ولا تدفنَنّي في صُوًى وادفِنَنِّي ... بدَيمومةٍ تنزو عليها الجَنادِبُ

وقد ذكرتُ في مجموعِي المسمّى «بالعَبْقريّ الحسان» أنّ أبا عبد الله الحُسين بن محمّد بن جعفر الخالع رحمه الله ذكر في كتابه في آراء العرب وأديانها هذه الأبيات، واستَشْهد بها على ما كانوا يعتقِدون في البَلِيّة، وقلتُ: إنه وَهِمَ في ذلك، وإنه ليس في هذه الأبيات دَلالةٌ على هذا المعنى، ولا لها به تعلّق، وإنما هي وصيّة لولده أن يَعقِر مطيّته بعد موتِه، إمّا لِكَيْلا يَركَبها غيرُه

بَعده، أو على هيئة القُرْبان كالهَدْي المَعقور بمكّة، أو كما كانوا يَعقِرون عند القبور، ومَذْهبهم في العَقْر على القبور، كقول زياد الأعجم في المغيرة بن المهلّب:

إنّ السّماحة والمروءة ضُمّنا ... قَبْراً بمرْوَ على الطّريق الواضِحِ

فإذا مَررتَ بقبرِه فاعقِرْ به ... كُومَ الهِجانِ وكلَّ طِرْفٍ سابِحِ

وقال الآخَر:

نفرَتْ قَلوصِي عن حِجارة حَرّةٍ ... بُنِيتْ على طَلْق اليدين وَهوبِ

لا تَنفرِي يا نَاقُ منه فإنّهُ ... شِرّيبُ خَمْرٍ مِسْعَرٌ لحرُوبِ

لولا السِّفار وبُعدُ خَرْقٍ مَهْمهٍ ... لتركتُها تحبُو على العُرْقوب

ومَذهبُهم في العَقْر على القبور مشهور، وليس في هذا الشِّعر ما يدلّ على مذهبهم في البَليّة، فإنْ ظَنّ ظانٌّ أنّ قوله: «أو يُفَوِّز راكب»، فيه إيماءٌ إلى ذلك، فليس الأمرُ كما ظنّه. ومعنى البيت ادفنّي بفلاةٍ جَدّاء مقطوعة عن الإنس، ليس بها إلّا الذئب والغُراب، أو أن يعتسف راكبها المَفازة وهي المَهلَكة، سمّوها مَفازةً على طريق الفال. وقيل: إنّها تسمّى مَفازةً، من فوّز أي هلَك، فليس في هذا البيت ذِكرُ البليّة، ولكنّ الخالع أخطأ في إيرادِه في هذا الباب، كما أخطأ في هذا الباب أيضاً في إيراده قول مالك بن الرَّيب:

وعَطِّلْ قَلوصِي في الرِّكاب فإنّها ... ستُبرِد أكباداً وتُبكي بوَاكِيا

فظنّ أنّ ذلك من هذا الباب الّذي نحن فيه، ولم يُرِد الشاعر ذلك، وإنما أراد لا تَركَبوا راحلتي بعدِي، وعَطِّلوها بحيثُ لا يشاهدها أعادِيَّ وأصادِقي ذاهبةً جائيةً تحتَ راكبها، فيَشمَت العدوّ ويُساء الصديق، وقد أخطأ الخالع في مَواضعَ عدّة من هذا الكتاب، وأورد أشعاراً في غير موضِعها، وظنّها مناسبةً لما هو فيه، فمنها ما ذَكَرْناه، ومنها أنّه ذكَرَ مذهَب العرب في الحَلْي ووضْعِه على اللّدِيغ، واستشْهَدَ عليه بقول الشاعر:

يُلاقِي من تَذكُّرِ آلِ لَيْلَى ... كما يَلْقَى السَّلِيمُ من العِدادِ

ولا وجه لإيراد هذا البيت في هذا الموضع، فالعِداد مُعاوَدَة السُّمّ الملسوعَ في كلّ سنة في الوَقْت الّذي لُدِغ فيه، وليس هذا من باب الحَلْي بسبيل.

ومن ذلك إيرادُه قولَ الفَرَزْدق «غلبْتُك بالمفقّيء» في باب فَقْءِ عُيون الفُحول، إذا بلَغت الإبلُ ألفاً، وقد تقدّم شرحُنا لموضع الوَهْم في ذلك. وسنذكُر هاهنا كثيراً من المواضع الّتي وَهِم فيها إنْ شاء الله.

وممّا وَرَد عن العرب في البليّة قولُ بعضهم:

أبُنَيَّ زَوِّدْني إذا فارَقْتَني ... في القَبْر راحلةً برَحْلٍ فاترِ
لِلبَعْث أركَبُها إذا قيل اركَبوا ... مستوثِقين معاً لحشر الحاشِرِ

وقال عُوَيم النَّبهانيّ:

أبُنَيَّ لا تنسَ البليّة إنّها ... لأبيكَ يومَ نُشورِهِ مَركوبُ

ومن تخيلات العَرَب ومذاهِبها ما حكاه ابنُ الأعرابيّ، قال: كانت العرب إذا نفرَت الناقة فسُمِّيتْ لها أمُّها سكنَتْ من النِّفار، قال الراجز:

أقولُ والوَجْناءُ بي تَقَحَّمُ ... وَيلك قُلْ ما اسمُ أمِّها يا عَلْكَمُ

عَلْكَم: اسمُ عبدٍ له، وإنما سأل عبدَه ترفُّعاً أن يَعرِف اسمَ أمِّها، لأنّ العبيد بالإبل أعرَف، وهُم رُعاتُها. وأنشد السّكّريّ:

فقلتُ له ما اسمُ أمِّها هاتِ فادْعها ... تُجِبْك ويَسْكُنْ روعُها ونِفارُهَا

ومما كانت العرب كالمجتمعة عليه الهامة، وذلك أنهم كانوا يقولون: ليس من ميّت يموت ولا قتيل يُقْتَل، إلا ويخرج من رأسه هامةٌ، فإنْ كان قُتِل ولم يؤخذ بثأره نادت الهامةُ على قبره: اسْقُوني، فإنّي صَدِيَة، وعن هذا قال النبيّ ﷺ: «لا هَامَة»[1].

وحُكي أنّ أبا زيد كان يقول: الهامّة مشدّدة الميم إحدى هَوَامّ الأرض، وأنها هي المتلوّنة المذكورة.

وقيل: إنّ أبا عُبيد قال: ما أرَى أبا زيد حَفِظ هذا، وقد يُسمّونها الصَّدى والجمع أصْداء، قال:

وكيفَ حَياةُ أصداءٍ وهامِ

وقال أبو دُواد الإياديّ:

سُلِّط الموتُ والمَنُونُ عليهمْ ... فلهمْ في صدَى المقابرِ هامُ

وقال بعضُهم لابنِه:

ولا تَزْقُوَنْ لي هامَةٌ فوقَ مَرْقَبٍ ... فإنّ زُقاءَ الهامِ للمرءِ عائِبُ
تُنادِي ألا اسْقونِي وكلّ صَدًى به ... وتلك التي تبيضّ منها الذَّوائبُ

---

(١) أخرجه البخاري في الطب، باب لا صفر وهو داء يأخذ البطن (٥٧١٧)، ومسلم في السلام، باب: لا عدوى ولا طيرة ولا هامة (٢٢٢٠). وأبو داود في الطب، باب: في الطيرة (٣٩١١)، وابن ماجه في المقدمة، باب: في العذر (٨٦)، وأحمد في «مسنده» (١٥٠٥).

يقول له: لا تَتْرك ثأري إن قتلت، فإنك إن تركته صاحتَ هامَتي: اسقوني، فإن كل صدًى - وهو هاهنا العَطَش - بأبيك، وتلك التي تبيضّ منها الذوائب، لصُعوبتها وشِدّتها، كما يقال: أمرٌ يُشِيب رأسَ الوليد، ويَحتمل أن يريد به صُعوبة الأمر عليه، وهو مقبور إذا لم يثأرْ به، ويحتمل أن يريد به صعوبة الأمر على ابنه، يعني أن ذلك عارٌ عليك، وقال ذو الإصْبَع:

يا عَمْرو إلّا تَدَعْ شَتْمِي ومَنقَصَتي ... أضرِبْكَ حيث تقولُ الهامَةُ اسْقُوني

وقال آخر:

فيا رَبِّ إنْ أهلك ولم تَرْوِ هامَتِي ... بلَيلى أمُتْ لا قبرَ أعطَشُ من قبْري

ويحتمل هذا البيت أنْ يكون خارجاً عن هذا المعنى الذي نحن فيه، وأن يكون رِيّ هامته الذي طلبه من ربّه هو وصالُ لَيْلَى وهما في الدنيا. وهم يَكنُون عما يَشفِيهم بأنه يُروِي هامَتَهم.

وقال مغلّس الفَقْسيّ:

وإنّ أخاكم قد علمت مكانَه ... بسَفْح قُبا تَسفِي عليه الأعاصرُ

له هامةٌ تدعُو إذا اللّيل جَنَّها ... بَنِي عامرٍ هل للهلاليّ ثائرُ

وقال تَوْبَةُ بن الحُمَيِّر:

ولو أنّ لَيلى الأخيليّةَ سلّمَت ... عليّ ودُوني جَنْدَلٌ وصَفائحُ

لسلّمتُ تسليمَ البَشاشةِ أوزقَا ... إليها صَدًى من جانِب القَبر صائحُ

وقال قيسُ بن المُلوَّح، وهو المجْنون:

ولو تلتقي أصداؤنا بعد موتِنا ... ومِن دوننا رَمْسٌ[1] مِن الأرض أنْكَبُ

لظَلّ صدَى رَمْسِي وإن كنتُ رِمّةً ... لِصوتِ صَدَى لَيلَى يَهَشُّ ويَطْرَبُ

وقال حُمَيد بنُ ثور:

ألا هَل صَدَى أمّ الوليد مكلّمٌ ... صَدايَ إذا ما كنتُ رَمْساً وأعظُما

ومما أبطله الإسلام قولُ العَرَب بالصَّفَر، زعموا أنّ في البطن حَيّةً إذا جاع الإنسان عَضّت على شُرْسُوفه وكَبده، وقيل: هو الجوع بعَيْنه، ليس أنّها تَعَضّ بعد حصول الجوع، فأما لفظ الحديث: «لا عدوَى ولا هامَة ولا صَفَر ولا غُول»[2]، فإن أبا عُبيدة مَعمَر بن المثنّى قال: هو صَفَر الشّهر الذي بَعد المحرَّم، قال: نهى ﷺ عن تأخيرهم المحرَّم إلى صَفَر، يَعني ما كانوا

(١) الرَّمْس: القبر. القاموس مادة (رمس).

(٢) تقدم تخريجه.

يفعلونَه من النَّسيء، ولم يوافق أحدٌ من العلماء أبا عبيدة على هذا التفسير، وقال الشاعر:

لا يَتَأرَّى لِما في القِدْرِ يَرْقُبه ولا يَعَضّ على شُرْسُوفِه الصَّفَرُ

وقال بعضُ شعراء بني عَبْس يذكر قَيس بنَ زهير لما هَجَر الناس وسَكن الفيافي وأنِسَ بالوَحْش، ثمّ رأى ليلةً ناراً فعشَا إليها، فشمَّ عندَها قُتَار اللّحم، فنازعتْه شهوته، فغلبها وقهرها، ومال إلى شجرة سلَم فلم يَزَل يكْدِمُها ويَأكُل مِن خَبَطها إلى أن مات:

إنّ قيساً كان ميتَته كرمٌ والحيّ منطلقُ

شامَ ناراً بالهوى فهَوَى وشُجاع البَطْن يختفقُ

في دَرِيسٍ ليس يَستُره رُبَّ حُرٍّ ثوبُه خَلَقُ

وقوله: «بالهوى» اسمُ موضع بِعَيْنه.

وقال أبو النّجم العِجْليّ:

إنّك يا خيرَ فتًى نَستعدِي على زمانٍ مسنِتٍ بِجَهْدِ

عَضًّا كعَضّ صَفَرٍ بِكِبْدِ

وقال آخر:

أردُّ شُجاعَ البَطْن قد تَعلمينه وأوثر غيري من عِيالِك بالطّعمِ

ومن خُرافات العرب أن الرّجل منهم كان إذا أراد دخول قريةٍ فخاف وباءها أو جنَّها، وقف على بابها، قبل أن يدخلها فنَهَقَ نهيق الحمار، ثم علّق عليه كعب أرْنب، كأنّ ذلك عُوذة له ورُقْية من الوَباء والجنّ، ويسمُّون هذا النّهيق التّعشير، قال شاعرُهم:

ولا ينفع التّعشير أن حُمّ واقِعٌ ولا زَعزَعٌ ولا كَعْب أرنبِ

وقال الهيْثم بن عَدِيّ: خرج عُروة بن الوَرْد إلى خيبر في رُفْقه ليمتارُوا، فلمَّا قربوا منها عشّروا، وعاف عُرْوة أن يفعل فعلَهم، وقال:

لَعمري لئن عَشّرتُ من خِيفةِ الرَّدَى نُهاقَ حَميرٍ إنني لجزُوعُ

فلا وألَتْ تلك النفوسُ ولا أتَتْ قُفولاً إلى الأوطان وهي جميعُ

وقالوا ألا أنهَقْ لا تضرّك خَيبَرٌ وذلك من فعلِ اليهود وُلوعُ

الوُلوع بالضمّ: الكَذِب، ولع الرجُل إذا كَذَب، فيقال إن رُفقتَه مرضوا ومات بعضُهم، ونجا عروة من الموت والمرض.

وقال آخر:

لا يُنْجِيَنَّكَ مِن حِمامٍ واقعٍ ... كَعْبٌ تعلِّقُه ولا تعشيرُ

ويُشابه هذا أن الرجل منهم كان إذا ضَلّ في فَلاةٍ قلب قميصَه، وصفّق بيَدَيه كأنه يومئ بهما إلى إنسان فيهتدِي، قال أعرابيّ:

قلبتُ ثِيابي والظُّنونُ تجول بي ... وتَرمِي برحْلي نحو كلّ سبيلِ
فلأياً بلأيٍ ما عرفت جَليّتي ... وأبصَرْتُ قَصْداً لم يصب بدَليل

وقال أبو العملّس الطائيّ:

فلو أبصرْتني بلوَى بطانٍ ... أصفِّق بالبَنانِ على البَنانِ
فأقلبُ تارةً خوفاً ردائي ... وأصرُخُ تارةً بأبي فُلانِ
لقلتُ أبو العَمَلّس قد دَهاهُ ... من الجِنّان خالعةُ العِنانِ

والأصل في قَلْب الثّياب التفاؤل بقَلْب الحال، وقد جاء في الشّريعة الإسلاميّة نحو ذلك في الاستسقاء.

ومن مذاهب العَرَب أنّ الرجل منهم كان إذا سَافَرَ عَمدَ إلى خَيْط فَعَقَده في غُصْن شجرة أو في ساقها، فإذا عادَ نظرَ إلى ذلك الخيط، فإنْ وجَدَه بحالِه عَلِم أنّ زوجتَه لم تَخُنْه، وإن لم يَجِدْه أو وجده مَحْلولاً، قال: قد خانَتْني، وذلك العَقْد يُسمّى الرّتَم، ويقال: بل كانوا يعقِدون طَرَفاً من غُصْن الشّجرة بطَرفِ غصنٍ آخَر، وقال الراجز:

هل ينفعنْكَ اليومَ إنْ هِمت بهمْ ... كثرةُ ما تُوصِي وتَعْقاد الرّتَمْ

وقال آخَر:

لا تحسَبنّ رَتائماً عَقَدتَها ... تُنْبِيكَ عنها باليقينِ الصادِق

وقال آخَر:

يعَلّل عَمرٌو بالرّتائم قَلْبَه ... وفي الحيّ ظَبيٌ قد أُحلّتْ مَحارِمُهْ
فما نفعتْ تلك الوَصايَا ولا جَنَتْ ... عليه سِوَى ما لا يحبّ رَتائمُهْ

وقال آخَر:

ماذا الّذي تَنفَعُك الرّتائمُ ... إذ أصبحتْ وعِشقُها مُلازِمُ
وهي على لَذّاتِها تُداومُ ... يَزُورها طَبٌّ الفؤاد عارِمُ
بكلّ أدواءِ النّساء عالِمُ

وقد كانوا يَعقِدون الرّتم للحُمّى، ويَرَون أنّ من حَلّها انتقلتْ الحمّى إليه، وقال الشاعر:

حللتُ رتيمةً فمكثتُ شهراً   أكابِدُ كلَّ مكروهِ الدّواء

وقال ابنُ السّكّيت: إنّ العرب كانت تقول: إنّ المرأة المِقْلات - وهي الّتي لا يَعيشُ لها ولد - إذا وَطِئَت القتيل الشريفَ عاشَ ولدُها، قال بِشرُ بنُ أبي خازِم:

تَظَلّ مَقاليتُ النّساءِ تطأنَه   يَقُلْن ألا يُلقَى على المرء مِئْزَرُ

وقال أبو عُبيدة: تتخطّاه المِقْلات سبعَ مرّات، فذلك وَطؤُها له.

وقال ابنُ الأعرابيّ: يمرّون به ويطؤون حولَه، وقيل: إنّما كانوا يفعَلون ذلك بالشريف يُقتَل غَدْراً أو قَوَداً.

وقال الكُمَيْت:

وتُطِيلُ المرزَّآتُ المَقالِيـ   ـتُ إليه القُعودَ بعد القِيامِ

وقال الآخر:

تركْنا الشّعْثَمَيْن برَمْل خَبْتٍ   تَزُورهما مَقاليتُ النّساء

وقال الآخر:

بنَفسي الّتي تَمشي المَقاليتُ حَوْلَه   يُطافُ له كَشحاً هَضيماً مُهشما

وقال آخر:

تَباشَرت المَقالِتُ حِينَ قالُوا   ثَوَى عَمرُو بنُ مُرّة بالحَفيرِ

ومن تخيلات العَرَب وخُرافاتها، أنّ الغلام مِنهم كان إذا سقطتْ له سِنّ أخذَها بين السّبّابة والإبهام واستَقبَل الشّمس إذا طلعتْ وقذَفَ بها، وقال: يا شمسُ أبدِليني بسِنّ أحسَنَ منها، وليَجْرِ في ظَلْمها إياتك، أو تقول: «إياؤك»، وهما جميعاً شُعاع الشمس، قال طَرَفة:

سَقَتْه إياةُ الشّمس

وإلى هذا الخيالِ أشار شاعرُهم بقوله:

شادِنٌ يَجْلو إذا ما ابتَسَمَتْ   عن أقاحٍ كأقاحِ الرَّمْلِ غرْ

بدّلَتْه الشمسُ من مَنبِته   بَرَداً أبيضَ مَصقولَ الأشَرْ

وقال آخر:

وأشنبُ واضحُ عَذْبُ الثّنايا   كأنّ رُضابَهُ صافي المُدامِ

كَسَتْه الشمس لوناً من سَناها ... فلاحَ كأنّه بَرْقُ الغَمامِ

وقال آخَر:

بذي أُشُرٍ عَذْب المَذاقِ تفرّدتْ ... به الشمس حتّى عاد أبيضَ ناصِعَا

والناسُ اليَوم في صِبْيانهم على هذا المذهب.

وكانت العربُ تَعتَقد أنّ دَم الرّئيس يَشفِي مِن عضة الكَلْب الكَلِب، قال الشاعر:

بُناة مكارمٍ وأساة جُرحٍ ... دِماؤهمُ من الكَلَبِ[1] الشِّفاءُ

وقال عبدُ الله بن الزَّبير الأسَديّ:

من خيرِ بيتٍ عَلِمْناه وأكرَمِه ... كانت دماؤهُمُ تَشفِي مِنَ الكَلَبِ

وقال الكُمَيت:

أحلامكمْ لسَقام الجَهْل شافِيةٌ ... كما دِماؤُكُمُ تَشفِي مِن الكَلَبِ

ومِن تَخيُّلات العرب أنّهم كانوا إذا خافوا على الرجل الجنُونَ وتعرُّضَ الأرواح الخبيثة له نجّسوه بتَعْليق الأقْذار عليه، كخِرْقة الحَيض وعِظامِ الموتى، قالوا: وأنفَع من ذلك أن تعلّق عليه طامِثٌ عِظام موتى، ثمّ لا يراها يومَه ذلك، وأنشَدوا للممزّق العبديّ:

فلو أنّ عندي جارَتَيْن وراقياً ... وعَلَّقَ أنجاساً عليَّ المعلِّقُ

قالوا: والتّنجيس يَشفِي إلّا مِن العِشْق، قال أعرابيّ:

يقولون علِّق يا لك الخير رمّةً ... وهل ينفع التّنجيس مَن كان عاشقا!

وقالت امرأة - وقد نجّستْ ولدَها فلم يَنفَعْه ومات -:

نجّسْتُه لو يَنفَعُ التّنجيسُ ... والموتُ لا تَفوتُه النفوسْ

وكان أبو مهديّة يعلّق في عُنقه العِظامَ والصّوف حَذَر الموت، وأنشَدوا:

أتَوْني بأنجاسٍ لهمْ ومنجِّسٍ ... فقُلتُ لهمْ ما قَدّر اللهُ كائنُ

ومن مَذاهِبهم أنّ الرجل منهم كان إذا خَدِرت رِجلُه ذَكَر من يُحِبّ أو دَعاه فيذهب خَدَرُها.

ورُوِي أنّ عبد اللّه بن عمر خَدِرتْ رِجلُه، فقيل له: ادعُ أحَبَّ الناس إليك، فقال: يا رسول الله.

---

(١) الكَلَبُ: داء يعرض للإنسان، من عض الكَلْب الكَلِب، فيصيبه شبه الجنون، فلا يعض أحداً إلا كَلِب، ويعرض له أعراض رديئة، ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشاً. اللسان، (مادة (كلب).

وقال الشاعر:

عـلـى أنّ رِجْـلـي لا يَـزَالُ امْـذِلالُـهـا ... مُقيماً بها حتّى أُجِيلَك في فِكْري

وقال كُثيِّر:

إذا مَـذِلَـتْ رِجـلـي ذكـرتُـكِ أشـتَـفِـي ... بـدَعْـواكِ مـن مَـذْلٍ بـهـا فـيَـهـونُ

وقال جَميل:

وأنـتِ لـعَـيْـنـي قـرّةٌ حـيـنَ نـلـتـقـي ... وذكـرُكِ يَـشـفِـيـني إذا خـدِرَتْ رِجْـلِـي

وقالت امرأة:

إذا خَدِرَتْ رجلي دعوتُ ابنَ مصعَبٍ ... فـإنْ قـلـتُ عـبدَ الله أجلَـى فُـتورُها

وقال آخر:

صَـبٌّ مـحـبّ إذا مـا رِجْـلُـه خَـدِرَتْ ... نَـادى كُـبَـيْـشَـةَ حـتّـى يـذهـبَ الـخَـدَرُ

وقال المُؤمّل:

والـلهِ مـا خَـدِرَتْ رِجـلـي ولا عَـثَـرتْ ... إلّا ذكـرْتُـكِ حـتّـى يَـذهـبَ الـخَـدَرُ

وقال الوليد بن يزيد:

أثـيـبـي هـائـمـاً كَـلِـفـاً مُـعَـنًّـى ... إذا خَـــدِرَتْ لـــه رِجـــلٌ دعـــاكِ

ونظير هذا الوَهم أنّ الرجل منهم كان إذا اختَلَجَتْ عينُه قال: أرَى مَن أُحِبّه، فإن كان غائباً توقَّع قدومَه، وإن كان بعيداً توقع قُرْبه.

وقال بشر:

إذا اخـتـلـجـتْ عـيـنـي أقـولُ لـعـلّـهـا ... فـتـاةُ بـنـي عَـمْـرو بـهـا الـعَـيـنُ تَـلـمَـعُ

وقال آخر:

إذا اخـتـلـجَـتْ عـيـنـي تـيـقّـنْـتُ أنّـنـي ... أراكِ وإن كـــان الـــمـــزارُ بَـــعِـــيـــدا

وقال آخر:

إذا اخـتـلـجَـتْ عـيـنـي أقـولُ لـعـلّـهـا ... لـرؤيـتـهـا تَـهـتـاجُ عَـيـنِـي وتـطـرِفُ

وهذا الوَهْم باقٍ في الناس اليوم.

ومن مذاهبهم أنّ الرجل منهم كان إذا عَشِق ولم يَسْلُ وأفْرَط عليه العِشْق حَمَله رجلٌ على ظَهرِه كما يحمَل الصبيّ، وقام آخر فأحمَى حديدةً أو مِيلاً، وكوى به بين ألْيَتَيْه فيذهب عِشْقُه فيما يزعمون.

وقال أعرابيّ:

كـويـتـمْ بـيـن رانـفـتـيّ جَـهْـلاً ونـارُ الـقَـلْـب يُـضـرِمُـهـا الـغَـرامُ

وقال آخر:

شـكـوتُ إلـى رفـيـقـيّ اشـتـيـاقِـي فـجـاءانِـي وقـد جَـمَـعـا دوَاءَ

وجـاءا بـالـطـبـيـب لـيَـكْـويَـانـي ولا أبـغـي - عَـدِمْـتُـهـمـا - اكـتـواءَ

ولـو أتـيـا بـسَـلْـمـى حـيـن جـاءا لـعـاضـانِـي مـن الـسَّـقـم الـشّـفـاءَ

واستشهد الخالع على هذا المعنى بقول كثيِّر:

أغـاضـرَ لـو شَـهـدْتِ غـداةَ بِـنـتُـمْ حُـنُـوّ الـعـائـدَاتِ عـلـى وسـادِي

أوَيْـتِ لـعـاشـقٍ لـم تَـرحِـمِـيـهِ بـواقِـدةٍ تَـلَـذَّع بـالـزّنـادِ

هذا البيت ليس بصريح في هذا الباب، ويحتَمل أن يكون مُرادُهُ فيه المعنى المشهور المطروقَ بين الشّعراء من ذِكر حرارة الوَجْد ولَذْعِه، وتشبيهِه بالنار، إلّا أنّه قد رَوَى في كتابه خبراً يؤكِّد المقصِد الّذي عزاه وادّعاه، وهو عن محمّد بن سليمانَ بن فُلَيح، عن أبيه، عن جدّه، قال: كنتُ عندَ عبدِ اللّه بن جعفر، فدخل عليه كُثيّر وعليه أثر عِلّة، فقال عبدُ اللّه: ما هذا بك؟ قال: هذا ما فعلتْ بي أمُّ الحُوَيْرث، ثم كَشَف عن ثوبه وهو مَكويّ، وأنشد:

عـفـا الـلّـه عـن أمّ الـحُـويْـرِث ذَنـبـهَـا عـلام تُـعـنّـيـنـي وتـكـمـي دَوائـيـا!

ولـو آذنـونـي قـبـل أن يـرقُـمـوا بـهـا لـقـلـت لـهـم: أمُّ الـحـويـرث دائـيَـا

ومِن أوهامهم وتخيُّلاتهم أنّهم كانوا يزعمون أن الرّجل إذا أَحَبّ امرأةً وأحبّتْه فشقّ برْقُعَها، وشقّت رِداءه، صَلَح حبّهُما ودام، فإن لم يَفعَلا ذلك فسدَ حبُّهما، قال سُحيْمٌ عبدُ بني الحسْحاس:

وكـم قـد شـقـقْـنـا مـن رداءٍ مـحـبّـرٍ ومـن بُـرْقـعٍ عـن طَـفْـلـةٍ غـيـر عـابـسِ

إذ شُـقَّ بُـردٌ شُـقّ بـالـبـرد بُـرقـعٌ دَوَالـيـك حـتّـى كـلّـنـا غـيـر لابِـسِ

نـرومُ بهـذا الفِعل بُقيَا على الهوى وَإلف الهوى يغري بهذي الوساوِس

وقال آخر:

شـقـقـت ردائـي يـومَ بُـرقـةِ عـالـجٍ وأمكنني من شَقّ برقعك السّحقا

فـمـا بـالُ هـذا الـوُدُّ يـفـسـدُ بـيـنـنـا ويمحَقُ حبلَ الوصلِ ما بينَنا مَحْقا!

ومِن مذاهبهم أنّهم كانوا يرَون أنّ أكل لحوم السّباع تزيد في الشجاعة والقوّة، وهذا مذهبٌ طبِّيٌّ، والأطبّاء يعتقدونه، قال بعضهم:

أبا المعارك لا تُتعِب بأكلِك ما ... تظنّ أنك تُلفَى منه كرّارا
فلو أكلت سِباعَ الأرض قاطبةً ... ما كنتَ إلّا جبانَ القلب خوّارا

وقال بعضُ الأعراب - وأكَل فؤاد الأسد ليكون شجاعاً - فعَدَا عليه نمِر فجَرَحه:

أكلتُ من الليث الهصور فؤادَهُ ... لأصبح أجرَى منه قلباً وأقدَما
فأدرَك منّي ثأرَه بابن أختِه ... فيا لَك ثأراً ما أشدَّ وأعظَما!

وقال آخرَ:

إذا لم يكن قلبُ الفتى غُذوةَ الوَغَى ... أصمّ فقلبُ الليث ليس بنافِع
وما نَفْعُ قلبِ الليثِ في حَوْمَة الوَغَى ... إذا كان سيف المرءِ ليس بقاطِع!

ومن مَذاهبهم أنّ صاحب الفَرَس المَهْقوع إذا ركِبَه فعَرِق تحته اغتلمتْ امرأتُه وطمحتْ إلى غيره، والهَقْعة: دائرة تكون بالفَرَس، وربّما كانت على الكَتِف في الأكثر، وهي مستقبَحةٌ عندَهم، قال بعضُهم لصاحبه:

إذا عَرِق المَهْقُوع بالمرءِ أنعظتْ ... حَليلتُه وازدادَ حَرُّ عجانِها

فأجابه صاحبُه:

قد يركب المهقوعَ من ليس مثله ... وقد يركب المهقوعَ زوج حَصَانِ

ومن مذاهبهم أنهم كانوا يُوقِدون النّار خَلْف المسافر الذي لا يحبّون رجوعَه، يقولون في دعائهم: أبعدَه الله وأسحقه، وأوقدَ ناراً أثرَه! قال بعضهم:

صحوتَ وَأوقدتَ للجهل نارًا ... وردَّ عليك الصّبَا ما استَعارا

وكانوا إذا خرجوا إلى الأسفار أوقَدوا ناراً بينهم وبين المنزلِ الّذي يريدونه، ولم يُوقدوها بينهم وبين المنزل الّذي خرجوا منه تفاؤلاً بالرجوع إليه.

ومن مذاهبهم المشهورة تعليقُ كَعْب الأرْنَب، قال ابنُ الأعرابيّ: قلتُ لزيد بن كَثْوَة: أتقولون: إنّ من عُلّق عليه كعبُ أرنبٍ لم تقربْه جِنّان الدار، ولا عُمّار الحَيّ؟ قال: إي والله، ولا شَيْطان الحَماطة ولا جار العُشَيرة، ولا غُول القَفْر. وقال امرؤُ القَيْس:

أيا هندُ لا تَنكِحي بُوهةً ... عليه عقيقتُه أحسَبا

مرسَّعةٌ بين أرْساغِه ... به عَسَمٌ يَبتغي أرنَبا

ليَجعَل في رِجلِه كَعْبَها ... حِذارَ المَنِيّةِ أن يعطَبا

والخَماطة: شجرة، والعُشَيرة: تصغير العَشَرة، وهي شجرة أيضاً.

وقال أبو محلِّم: كانت العرب تعلِّق على الصّبيّ سِنَّ ثعلب وسِنَّ هِرّة خوفاً من الخَطْفة والنّظرة، ويقولون: إنّ جنّيّةً أرادتْ صبيَّ قوم فلم تَقدِر عليه، فلامَها قومُها من الجِنّ في ذلك، فقالت تَعتذِر إليهم:

كانَ عليه نُفَرَهْ ... ثعالبٌ وهِرَرَهْ

والحَيْضُ حيضُ السَّمُرَهْ

والسَّمُرة شيء يسيل من السَّمُر كدم الغزال، وكانت العربُ إذا وَلدت المرأةُ أخذوا من دَمِ السَّمُر - وهو صَمْغُه الذي يسيل منه - ينقّطونه بين عَيْنَي النُّفَساء، وخطُّوا على وجه الصبيّ خطًّا، ويسمَّى هذا الصمغ السائل من السَّمُر الدُّوْدَم، ويقال بالذال المعجَمَة أيضاً، وتسمَّى هذه الأشياءُ الّتي تُعلَّق على الصّبي: النُّفرات.

قال عبد الرحمن بنُ أخي الأصمعيّ: إنّ بعض العَرَب قال لأبي: إذا وُلِد لك وَلَد فنفِّر عنه، فقال له أبي: وما التنفير؟ قال: غَرِّب اسمَه، فوُلِد له ولدٌ فسمّاه قُنفُذاً، وكَنّاه أبا العدّاء، قال: وأنشد أبي:

كالخَمْر مَزْجُ دَوائها مِنها بِها ... تَشفي الصُّداعَ وتُبرئ المَنجُودَا

قال: يريد أنّ القُنفُذ من مَراكِب الجِنّ، فداوى منهم ولده بمَراكبهم.

ومن مذاهبهم أنّ الرجل منهم كان إذا ركب مَفازةً وخاف على نفسِه من طَوارِق اللّيل عَمَد إلى وادي شجر فأناخَ راحلتَه في قرارته، وعَقَلها وخطّ عليها خَطًّا ثم قال: أعوذ بصاحب هذا الوادي، وربما قال: بعظيم هذا الوادي، وعن هذا قال الله سبحانه في القرآن: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[1].

واستعاذ رجل منهم ومعه ولدٌ فأكَلَه الأسد، فقال:

قد استَعذْنا بعظيمِ الوادِي ... من شرِّ ما فيه من الأعادِي

فلم يُجِرْنا من هِزَبْرٍ عادِ

وقال آخر:

(١) سورة الجن، الآية: ٦.

أعــوذُ مــن شَــرّ الــبــلاد الــبِــيــدِ ... بــسَــيّــدٍ مــعــظّــمٍ مَــجــيــدِ
أصــبــحَ يــأوِي بــلِــوَى زَرُدِ ... ذِي عِــزّة وكــاهِــلٍ شَــديــد

وقال آخر:

يـا جـنّ أجـراع الـلّـوى مـن عـالـجِ ... عـاذ بِـكُـمْ سـارِي الـظّـلام الـدالـجِ
لا تُـرهِـقـوه بـغَـوِيٌّ هـائـجِ

وقال آخر:

قـد بـتّ ضـيـفـاً لـعـظـيـم الـوادي ... الـمـانـعِـي مِـنْ سَـطْـوة الأعـادي
راحِـلَـتـي فـي جـارِه وزَادِي

وقال آخر:

هَيَا صاحبَ الشَّجْراء هل أنتَ مانعي ... فـإنّـيَ ضَـيْـفٌ نـازلٌ بـفِـنـائـكَـا
وإنّـك لـلـجِـنّـان فـي الأرضِ سَـيّـدٌ ... ومِـثْـلُـك آوَى في الظّلام الصّعالِكا

ومن مذاهبهم أنّ المسافر إذا خرج من بلده إلى آخَرَ فلا ينبغي له أن يَلتفِت، فإنه إذا التفت عاد، فلذلك لا يلتفت إلّا العاشق الّذي يُريدُ العَوْد، قال بعضهم:

دَعِ الـتـلـفّـت يـا مَـسْـعـودُ وارمِ بـهـا ... وجـهَ الـهَـواجِـر تـأمَـنْ رَجـعـةَ الـبـلَـدِ

وقال آخر، أنشدَه الخالع:

عِـيـلَ صـبـرِي بـالـثّـعـلَـبـيّـة لـمّـا ... طـال لـيـلِـي ومَـلّـنـي قُـرَنـائـي
كـلّـمـا سـارَت الـمَـطـايَـا بـنـا مِـيـ ... ـلاً تـنـفّـسْـتُ والـتـفـتُّ وَرائـي

هذان البيتان ذكَرهما الخالعُ في هذا الباب، وعندي أنه لا دَلالة فيهما على ما أراد، لأن التلفّت في أشعارهم كثير، ومُرادُهم به الإبانةُ والإعرابُ عن كثرة الشّوق، والتأسّف على المفارقة، وكون الراحل عن المنزل حيث لم يُمكِنْه المُقام فيه بجُثمانه يُتبِعه بَصرَه، ويتزوّد من رؤيته، كقول الرضيّ رحمه الله:

ولـقـد مـررتُ عـلـى طُـلـولـهـمُ ... ورُسُـومـهـمْ بِـيَـدِ الـبِـلَـى نَـهْـبُ
فـوقـفـتُ حـتّـى ضَـجّ مـن لَـغَـبٍ ... نِـضْـوِي ولَـجّ بـعَـذْلـيَ الـرّكْـبُ
وتـلـفّـتـتْ عـيـنـي فـمـذ خَـفِـيـتْ ... عـنّـي الـطّـلـول تـلـفّـتَ الـقَـلْـبُ

وليس يُقصَد بالتلفّت هاهنا التفاؤل بالرّجوع إليها، لأن رسُومَها قد صارت نَهْباً لِيَد البلى، فأيّ فائدةٍ في الرّجوع إليها! وإنما يريد ما قدّمنا ذكره من الحَنين والتذكّر لِما مضى من أيّامه فيها، وكذلك قول الأوّل:

تلفّتُ نحو الحَيّ حتّى وجدْتُني ... وَجِعتُ من الإصْغاء لِيتاً وأخدَعا

ومِثل ذلك كثير، وقال بعضُهم في المذهَب الأوّل:

تلفّتُّ أرجو رجعةً بعد نِيّةً ... فكان الْتفاتِي زائداً في بَلائيا

أأرجو رُجوعاً بعد ما حال بينَنا ... وبينكم حَزْن الفَلا والفَيافِيا!

وقال آخر، وقد طلّق امرأته فتلفّتتْ إليه:

تَلفَّتُ تَرْجو رجعةً بعد فُرقةٍ ... وهيهات ممّا تَرتجي أمُّ مازِنِ!

ألم تعلمي أني جموح عنانه ... إذا كان من أهواه غير ملاين

ومن مذاهبهم، إذا بُثِرتْ شَفَة الصبيّ حمل مُنخُلاً على رأسه، ونادى بين بيوت الحيّ: الحلا الحَلا، الطّعام الطعام، فتلقي له النساءُ كِسَرَ الخبز وأقطاعَ التمر واللّحم في المُنخُل، ثمّ يلقى ذلك للكلاب فتأكُله فيبرأ من المرض، فإن أكلَ صبيّ من الصبيان من ذلك الذي ألقاه للكلاب تمرةً أو لقمةً أو لحمةً أصبح وقد بثرتْ شفتُه. وأنشِد لامرأة:

ألا حَلا في شَفَةٍ مشقوقَهْ ... فقد قَضى مُنخُلُنا حُقوقَهْ

ومن مذاهبهم أنّ الرجل منهم كان إذا طَرِفت عينه بثوب آخر مسح الطارف عين المَطروف سبع مرّات، يقول في الأولى: بإحدى جاءت من المدينة، وفي الثانية: باثنتين جاءتا من المدينة، وفي الثالثة بثلاثٍ جئن من المدينة، إلى أن يقول في السابعة: بسبعٍ جئن من المدينة، فتبرأ عينُ المطروف.

وفيهم من يقول: بإحدى من سَبْع جئن من المدينة، باثنتين من سبعٍ، إلى أن يقول بسَبْع من سَبْعٍ.

ومن مذاهبهم أنّ المرأة منهم كان إذا عَسر عليها خاطبُ النّكاح نشرَتْ جانباً من شَعْرها، وكحلتْ إحدى عينيْها مخالفةً للشّعر المنشور، وحَجَلتْ على إحدى رِجْليها ويكون ذلك لَيْلاً، وتقول: يا لكاح، أبغي النّكاح، قَبْل الصباح، فيَسهل أمرُها وتتزوّج عن قُرْب، قال رجل لصديقه وقد رأى امرأةً تَفعلُ ذلك:

أما تَرى أمّك تبغي بَعْلا ... قد نَشَرتْ من شَعرها الأقلّا

ولم تُوَفّ مقلتَيْها كُحْلا ... ترفَع رِجْلاً وتَحُطّ رِجْلا

هـذا وقـد شـابَ بَـنُـوهـا أصْـلا وأصـبَـحَ الأصـغَـرُ مـنـهـمْ كَـهْـلا
خـذ الـقَـطـيـع ثـمّ سِـمْـهـا الـذُّلّا ضَـرْبـاً بـه تَـتْـرك هـذا الـفِـعْـلا

وقال آخر:

قـد كَـحلـتْ عـيـنـاً وأغـفَـتْ عَـيْـنَـا وحَـجَّـلـتْ ونَـشـرتْ قُـرَيْـنـا
تَـظُـنُّ زَيْـنـاً مـا تـراه شَـيْـنَـا

وقال آخر:

تَـصـنَّـعِـي مـا شـئـت أنْ تـصـنَّـعـي وكَـحِّـلـي عـيـنَـيْـك أو لا فَـدَعِـي
ثم احجِلي في اِلبيت أو في المجمعِ مـا لَـكِ فـي بَـغْـل أرَى مـن مَـطـمَـعِ

ومن مذاهبهم كانوا إذا رَحَل الضيف أو غيره عنهم وأحَبّوا ألّا يعود كَسروا شيئاً من الأواني وراءَه، وهذا مما تَعمَله الناسُ اليوم أيضاً، قال بعضهم:

كـسـرْنـا الـقِـدْر بـعـد أبـي سـواحٍ فـعـادَ وقِـدْرُنـا ذهـبـتْ ضَـيـاعَـا

وقال آخَر:

ولا نَـكْـسِـر الكِـيزانَ في إثْر ضَـيفـنـا ولـكـنّـنـا نـقـفـيـه زاداً لـيَـرْجِـعـا

وقال آخَر:

أمـا والـلّـه إنّ بَـنِـي نُـفَـيـلٍ لَـحـلّالـون بـالـشَّـرَف الـيَـفـاعِ
أنـاسٌ لـيـس تَـكْـسِـر خـلـفَ ضَـيْـفٍ أوانـيَـهـم ولا شـعـب الـقِـصـاعِ

ومن مذاهبم قولهم: إنّ من ولد في القَمْراء تقلّصت غُرْلته، فكان كالمَخْتون. ويجوز عندنا أن يكون ذلك من خواصّ القمر، كما أنّ من خواصّه إيلاءَ الكَتّان، وإنتان اللّحم، وقد رُوِي عن أميرِ المؤمنين عليه السلام: إذا رأيتَ الغلام طويل الغُرْلة فاقْرِبْ به من السُّؤدد، وإذا رأيته قصير الغُرْلة كأنما خَتَنه القَمر فأبعِدْ به.

وقال امرؤُ القيس لقَيْصر، وقد دخل معه الحمّام فرآه أقْلَف:

إنّـي حـلـفـتُ يـمـيـنـاً غـيـر كـاذبـةٍ لأنـت أغْـلَـفُ إلّا مـا جَـنَـى الـقَـمَـرُ

ومن مذاهبهم التّشاؤم بالعُطاس، قال امرؤ القيس:

وقـد أغـتَـدِي قـبل الـعُـطاسِ بـهـيـكَـلٍ

وقال آخر:

وخَرْقٍ إذا وجّهت فيه لغَزْوةٍ ... مضيت ولم يَحبسْك عنه العَواطِسُ

ومن مذاهبهم قولهم في الدعاء: لا عشتَ إلّا عيش القراد! يضربونه مثلاً في الشدّة والصبر على المَشقّة، ويزعمون أنّ القراد يعيش ببَطْنه عاماً ويظهره عاماً، ويقولون: إنه يُترَك في طينةٍ ويُرمى بها الحائط فيبقى سنةً على بَطْنه، وسنةً على ظهره ولا يموت، قال بعضهم:

فلا عشتَ إلا كعَيْش القُرا ... د عاماً ببَطْنٍ وعاماً بظَهرِ

ومن مذاهبهم كانت النساء إذا غاب عنهنّ من يُحبِبْنه أخذن تُراباً من موضع رجله كانت العربُ تزعمُ أنّ ذلك أسرَع لرجوعه.

وقالت امرأةٌ من العرب - واقتبضتْ من أثَره -:

يا ربِّ أنت جارُه في سَفَرِهْ ... وجار خُصْيَيْه وجارُ ذَكَرِهْ

وقالت امرأةٌ:

أخذتُ تُراباً من مواطِئ رجله ... غداةَ غَدا كيما يؤوبَ مُسلَّمَا

ومن مذاهبهم، أنّهم كانوا يسمّون العَشا في العين الهُدَبد، وأصلُ الهدَبد، اللّبن الخاثر، فإذا أصاب أحدهم ذلك عمد إلى سَنام فقَطَع منه قطعةً ومن الكبِد قطعة، وقلاهما، وقال عند كلّ لقمة يأكلها بعد أن يمسَح جفنَه الأعلى بسَبّابَتِه:

فيا سَنَاماً وَكَبِدْ ... ألا أذهَبا بالهُدَبِدْ

ليس شفاء الهُدَبِدْ ... إلا السّنام والكَبِدْ

قال: فيذهَب العَشا بذلك.

ومن مذاهبهم اعتقادُهم أنّ الوَرَل[1] والقُنفذ والأرنب والظّبيَ واليَرْبوعَ والنّعام مراكبُ الجنّ يمتطونها، ولهم في ذلك أشعارٌ مشهورة، ويزعمون أنّهم يَرَوْن الجنّ ويظاهرونهم ويخاطبونهم، ويشاهدون الغُول، وربما جامَعوها وتزوّجوها، وقالوا: إن عمرو بن يَرْبوع تزوج الغولَ وأولدها بنين، ومكثَتْ عنده دهراً، فكانت تقول له: إذا لاح البَرْق من جهة بلادي - وهي جهة كذا - فاستُرْه عني، فإني إنْ لم تَستُره عني تركتُ ولدَك عليك، وطِرْتُ إلى بلاد قومي، فكان عمرو بن يَرْبوع كلّما برق البرقُ غَطّى وجهها بردائه فلا تُبصِره، وإلى هذا المعنى أشار أبو العَلاء المَعَرّي في قوله يَذْكر الإبل وحنينها إلى البرْق:

طَرِبْنَ لضَوْء البارِق المُتعالي ... ببغدادَ وَهْناً ما لهنّ ومَا لِي

(١) الورل: دابة على خِلقة الضب إلا أنه أعظم منه يكون في الرمال والصحاري. اللسان مادة (ورل).

سَمَتْ نَحوه الأبصارُ حتى كأنها ... بنارَيْهِ من هنّا وثَمّ صَوالِي
إذا طال عنها سَرّها لَوْ رؤوسها ... تمدُّ إليه في صُدورِ عَوالِي
تمنّت قويقاً والصّراة أمامَها ... ترابٌ لها من أينُقٍ وجمالِ
إذا لاحَ إيماضٌ سترتُ وجوهها ... كأنّيَ عمرو والمطيّ سَعالِي
وكم هَمّ نِضْوٌ أن يَطيرَ مع الصَّبا ... إلى الشام لولا حَبْسُه بعِقالِي

قالوا: فغَفَلَ عمرو بن يَرْبوع عنها ليلة وقد لمع البرق فلم يَستُر وجهها، فطارت وقالت له وهي تطير:

أمسِكْ بنيك عَمْرُو إنّي آبِقُ ... بَرْقٌ على أرض السَّعالى آلِقُ

ومنهم من يقولَ: ركبتْ بعيراً وطارت عليه - أي أسرَعَتْ - فلم يُدْرِكْها. وعن هذا قال الشاعر:

رأى برقاً فأوضَعَ فوقَ بَكْرٍ ... فلا بِكَ ما أسالَ ولا أغامَا

قال: فبنو عمرو بن يَرْبوع إلى اليوم يُدْعَوْن بني السِّعْلاة، ولذلك قال الشاعر يهجُوهم:

يا قَبّح اللهُ بني السِّعلاةِ ... عمرو بن يربوع شِرّار النّاتِ
ليسوا بأبطالٍ ولا أكْياتِ

فأبدلَ السِّين تَاء، وهي لغةُ قوم من العرب.

ومن مذاهبهم في الغول قولهم: إنها إذا ضُربتْ ضربةً واحدةً بالسَّيف هلكتْ، فإن ضُربَت ثانيةً عاشت، وإلى هذا المعنى أشارَ الشاعرُ بقوله:

فقالت: ثَنِّ، قلتُ لها: رُوَيْداً ... مكانَكِ، إنني ثَبْتُ الجِنانِ

وكانت العَرَب تسمّي أصواتَ الجِنّ العَزيف وتقول: إن الرجل إذا قَتَل قُنفُذاً أو وَرَلاً لم يأمَن الجنّ على فَحْل إبله، وإذا أصاب إبلَه خَطْب أو بلاءٌ حَمَله على ذلك، ويزعمون أنهم يَسمَعون الهاتفَ بذلك، ويقولون مثله في الجانّ من الحيّات، وقتله عندَهم عظيم.

ورأى رجلٌ منهم جاناً في قعر بئرٍ لا يستطيع الخروجَ منها، فنزل وأخرَجَه منها على خَطَر عظيم، وغمّض عينَيْه لئلّا يرى أين يدخل، كأنه يريد بذلك التقرّب إلى الجنّ.

وقال أبو عثمان الجاحظ: وكانوا يُسمُّون من يُجاوِر منهم الناس عامراً، والجمع عُمّار، فإن تعرّض للصبيان فهو رُوح، فإن خَبُث وتعرّم فهو شيطان، فإن زاد على ذلك فهو مارِد، فإن زاد على ذلك في القوّة فهو عِفْريت، فإن طَهُر ولطف وصار خيراً كلّه فهو مَلَك، ويفاضِلون بينهم، ويعتقدون مع كلّ شاعر شَيْطاناً، ويسمونهم بأسماء مختلفة. قال أبو عثمان: وفي النّهار

ساعاتٌ يُرى فيها الصغيرُ كبيراً ويُوجد لأوساط الفَيافِي والرِّمالِ والجِرار مِثل الدَّويّ، وهو طبع ذلك الوقت، قال ذو الرمّة:

إذا قال حادِينا لِتَرْنِيم نَبْأةٍ　　　صَهٍ لم يكنْ إلا دَويّ المَسامِعِ

وقال أبو عثمان أيضاً في الّذين يذكرون عزيفَ الجنّ وتَغوّل الغِيلان: إنّ أثر هذا الأمر وابتداء هذا الخيَال أنّ القوم لما نزلوا بلاد الوَحْش عملتْ فيهم الوَحْشة، ومن انفرد وطال مقامُه في البلاد الخلاء استوحَشَ، ولا سيما مع قلّة الأشغال وفَقْد المُذاكرين، والوَحْدة لا تقطع أيّامها إلا بالتمني والأفكار، وذلك أحد أسباب الوَسْواس.

ومن عجائب اعتقادات العرب ومذاهبها اعتقادُهم في الدِّيك والغُراب والحَمامة وساقِ حُرّ - وهو الهدِيل - والحية، فمنهم من يَعتقِد أن للجنّ بهذه الحيوانات تعلُّقات، ومنهم من يَزعم أنها نوعٌ من الجنّ، ويعتقدون أنّ سُهَيلاً والزُّهَرة الضّبّ والذئب والضّبع مُسُوخ، ومن أشعارهم في مَراكِب الجنّ قولُ بعضهم في قُنفُذٍ رآه لَيْلاً:

فما يُعجِب الجِنّان منك عَدِمْتَهمْ　　　وفي الأسْد أفراسٌ لهمْ ونجائبُ
أيُسْرَجُ يَرْبوعٌ ويُلجَم قنفذٌ　　　لقد أعوزَتْكم ما علمت النجائبُ!
فإن كانت الجِنّان جُنّتْ فبالحرَى　　　ولا ذَنْبَ للأقوامِ واللهُ غالبُ

ومن الشعر المنسوب إلى الجنّ:

وكل المطايا قد ركبْنا فلم نَجِد　　　ألذّ وأشهى من رُكوب الأرانِب
ومن عَضْرَ فُوطٍ عنّ لي فركِبْتُه　　　أبادِرُ سِرْباً من عَطاءٍ قَوارِبِ

وقال أعرابيّ يكذّب بذلك:

أيستمِع الأسرارَ راكبُ قُنفُذٍ　　　لقد ضاع سِرُّ اللّه يا أمّ مَعبَدِ!

ومن أشعارهم وأحاديثهم في رواية الجنّ وخِطابهم وهتافِهم ما رواه أبو عثمانَ الجاحظ لسمير بن الحارث الضّبي:

ونارٍ قد حَضأتُ بُعَيدَ وَهْنٍ　　　بدار لا أريدُ بها مُقامَا
سِوَى تحليل راحلةٍ وعَيْن　　　أكالئها مخافةَ أن تنامَا
أتَوْا نارِي فقلتُ: مَنُونَ أنتم؟　　　فقالوا: الجنّ قلتُ: عِمُوا ظَلامَا

ويزعمون أنّ عُمَير بنَ ضبيعة رأى غلماناً ثلاثةً يلعبون نهاراً، فوَثَب غلامٌ منهم فقام على

عاتِقَيْ صاحِبه، ووَثب الآخَر، فقام على عاتقيْ الأعلى منهما، فلمّا رآهم كذلك حَمَل عليهم فصَدَمهم فوقعوا على ظهورهم وهم يَضحَكون، فقال عمير بن ضُبَيعة: فما مررتُ يومئذٍ بشَجَرة إلّا وسَمِعتُ من تحتها ضَحِكاً، فلمّا رجع إلى منزله مَرِض أربعَة أشهر.

وحكى الأصمعيّ عن بعضهم أنّه خرج هو وصاحبٌ له يسيران، فإذا غلامٌ على الطريق، فقالا له: مَنْ أنتَ؟ قال: أنا مسكين قد قُطِع بي فقال أحدهما لصاحبه: أرْدِفه خَلْفَك، فأرْدَفَه، فالتفتَ الآخَر إليه فرأى فمَه يتأجّج ناراً، فشدّ عليه بالسّيف فذهبت النارُ فرَجع عنه، ثمّ التفت فرأى فَمه يتأجّج ناراً فشدّ عليه فذهَبت النار، ففَعَل ذلك مراراً، فقال ذلك الغلام: قاتَلكما الله! ما أجْلَدَكما! والله ما فعلتُها بآدميّ إلا وانخَلَع فؤادُه، ثم غابَ عنهما فلم يَعلَما خبرَه.

وقال أبو البلاد الطُّهَوِيّ - ويُروَى لتأبّط شرًّا -:

لَهَان عَلَى جُهَينَة ما أُلاقِي ... من الرّوْعات يومَ رَحا بِطانِ

لقيتُ الغولَ تَسري في ظَلامٍ ... بسَهْبٍ كالعَباءة صَحْصَحانِ

فقلتُ لها: كلانا نِقْضُ أرضٍ ... أخو سَفَر فخلّي لي مكاني

فشدّتْ شَدَّةً نحوي فأهوَى ... لَهَا كفي بمَصقولٍ يَماني

فقالتْ: زِدْ فقلتُ: رُوَيْدَ إنّي ... على أمثالها ثَبْت الجَنانِ

والذين يَرْوُون هذا الشّعر لتأبّط شرًّا يرْوُون أوّله:

ألا مَن مُبلِغٌ فِتياتِ جَهْم ... بما لاقيتُ عندَ رَحا بِطانِ

بأنّي قد لقيتُ الغُولَ تلوِي ... بمَرْتٍ كالصحيفة صحصحان(1)

فصدّتْ فانتحَيْتُ لها بعَضْبٍ ... حُسام غير مؤتشِب يمانِي

فقدّ سَراتها والبَرْكَ منها ... فخرّت لليَدَيْن وللجِرانِ

فقالتْ: ثنِّ قلت لها: رُوَيْداً ... مكانَك إنني ثَبْتُ الجَنَانِ

ولم أنفكّ مضطجِعاً لدَيْها ... لأنْظُرَ مصبحاً ماذا دَهاني

إذا عَينان في رأسٍ دَقيق ... كَرأس الهرّ مشقوق اللسان

وساقا مخدَج ولسان كَلْبٍ ... وثوب من عَباء أو شِنانِ

وقال البَهْرانيّ:

وتزوّجتُ في الشّبيبة غُولاً ... بغزَالٍ وصَدْقَتي زِقّ خَمْر

وقال الجاحظ: أصدَقَها الخمر لطيب رِيحها، والغَزال لأنّه من مَراكِب الجنّ.

---

(1) المَرْت: الأرض لا يجف ثرها، ولا ينبت مرعاها. القاموس، مادة (مرت). والصحصحان: ما استوى من الأرض. القاموس، مادة (صحح).

وقال أبو عبيد بن أيوب العَنْبريّ أحد لصوص العرب:

تقول - وقد ألْمَمْتُ بالإنسِ لَمَّةً ... مخضّبةُ الأطراف خُرس الخلاخِلِ
أهَذا خَدِينُ الغُولِ والذئب والّذي ... يَهيمُ بربّات الحجال الهَراكِلِ[1]!
رأتْ خَلَق الدّرسَيْنِ أسوَدَ شاحِباً ... من القَوم بَسّاماً كريمَ الشمائِل
تَعَوّدَ من آبائه فتكاتِهم ... وإطعامَهم في كلّ غَبراءَ شامِلِ
إذا صادَ صَيْداً لَفّهُ بضرامِه ... وَشيكاً ولم يَنظُر لغَلْيِ المرَاجلِ
ونهساً كنَهْس الصّقْر ثُمّ مِراسه ... بكَفّيه رأس الشّيخة المتمائِلِ

ومن هذه الأبيات:

إذا ما أرادَ اللّهُ ذُلّ قبيلةٍ ... رَماها بتَشْتيتِ الهوى وَالتّخاذُلِ
وأوّل عَجز القوم عمّا ينُوبُهم ... تقاعُدُهم عنه وطولُ التّواكُلِ
وأوّل خُبثِ الماء خُبْثُ ترابه ... وأوّل لُؤم القوم لُؤمُ الحَلائِل

وهذا الشّعر من جيّد شِعْر العرب، وإنّما كان غَرَضُنا منه مُتعلّقاً بأوّله، وذكرنا سائره لما فيه من الأدب.

وقال عُبَيد بن أيّوبَ أيضاً في المعنى الّذي نحن بصدده:

وصار خليل الغُولِ بَعد عَدَاوَةٍ ... صَفيًّا وربّته القِفارُ البَسابِسُ

وقال أيضاً:

فلله دَرُّ الغُولِ أيّ رَفيقةٍ ... لصاحب قَفْر في المَهامِهِ يذْعَرُ
أرنّت بلَحْن بعد لَحْن وأوْقَدَتْ ... حوَاليّ نِيراناً تَلوح وتَزْهرُ

وقال أيضاً:

وغُولا قَفْرةٍ: ذَكَرٌ وأنثى ... كأنّ عليهما قِطَعَ البِجادِ[2]

وقال أيضاً:

فقد لاقت الغِزلانُ منّي بَلِيّةً ... وقد لاقت الغِيلانُ مني الدّواهيَا

وقال البَهْرانيّ في قتل الغُول:

ضُربتْ ضربةً فصارتْ هَباءً ... في مَحَاقِ القَمْراء آخرَ شهرِ

وقال أيضاً، يزعم أنه لما ثنى عليها الضّرب عاشَتْ:

---

(١) الهراكل: لهركولة من النساء، العظيمة الوركين. اللسان، مادة (هركل).
(٢) البجاد: كساء مخطط من أكسية العرب. اللسان، مادة (بجد).

فثنّيت والمقدارُ يَحرُس أهلَه فلَيْتَ يَميني يومَ ذلك شَلّتِ ا

وقال تأبّط شرًّا يَصِف الغُولَ ويذكُر أنّه رَاوَدَها عن نفسها فامتنعتْ عليه فقتَلها:

فأصبحتُ والغولُ لي جارةٌ فيا جارةً أنتِ ما أغْوَلا
وطالبْتُها بُضْعَها فالتَوَتْ فكان من الرأيِ أن تقتُلا
فجلّلتُها مُرهَفاً صارِماً أبَان المَرافِق والمِفْصَلا
فطارَ بقحفِ ابنة الجنّ ذا شقاشقَ قد أخلَقَ المحملا
فمن يكُ يَسأل عن جارَتي فإنّ لها باللِّوى منزِلا
عَظَاءةُ أرضٍ لها حُلّتا ن مِن وَرَق الطَّلح لم تُغزَلا
وكنتُ إذا ما هَممتُ ابتَهلْتُ وأحْرى إذا قلتُ أن أفعَلا

ومن أعاجيبهم أنّهم كانوا إذا طالت عِلّة الواحد منهم وظنّوا أنّ به مَسّاً من الجنّ، لأنّه قَتَل حيّةً أو يَرْبوعاً أو قُنفذاً، عَمِلوا جِمالاً من طين، وجَعَلوا عليها جُوالق، وملؤوها حِنطةً وشَعِيراً وتمْراً، وجعلوا تلك الجِمال في باب جُحْر إلى جهة المَغرب وقْت غروب الشمس، وباتوا ليلَتهم تلك، فإذا أصبحوا نظروا إلى تلك الجِمال الطّين، فإنْ رأوا أنّها بحالها قالوا: لم تقبل الدّيَة، فزادوا فيها، وإن رأوْها قد تساقطتْ وتَبدّد ما عليها من المِيرة قالوا: قد قُبِلت الدّيَة، واستَدلُّوا على شِفاء المَريض وضربوا بالدُّفّ، قال بعضُهم:

قالوا وقد طالَ عَنائِي والسَّقَمْ احمِل إلى الجِنّ جِمالاتٍ وضمّ
فقد فعلتُ والسَّقامُ لم يرِمْ فبالّذي يَملِك بُرْئي أعتَصِمْ

وقال آخر:

فيا ليت أنّ الجنّ جازُوا جِمالتي وزُحزِح عنّي ما عَنانِي من السَّقَمْ
ويا ليتهم قالوا انْطِنا كلّ ما حَوَتْ يمينُك في حَرْبِ عماسٍ وفي سَلَم
أعلّل قلبي بالّذي يَزْعُمونه فيا ليتَني عُوفيتُ في ذلك الزّعَمْ

وقال آخر:

أرَى أنّ جِنّانَ النُّوَيرة أصبَحوا وهمْ بين غَضبانٍ عليّ وآسِفِ
حملتُ ولم أقبَلْ إليهم حمالةً تسكّنُ عن قلبٍ من السُّقِم تالِفِ
ولو أنصَفُوا لم يَطلُبوا غيرَ حَقّهمْ ومن ليَ من أمثالهمْ بالتّناصُفِ!
تغطّوْا بثَوْب الأرض عنّي ولو بَدَوا لأصبحتُ منهمْ آمِناً غيرَ خائِف

وكانوا إذا غُمَّ عليهم أمرُ الغائب ولم يَعرِفوا له خبراً جاؤوا إلى بئرٍ عاديّة أو حفرٍ قديم ونادَوا فيه: يا فلان، أو يا أبا فلانٍ، ثلاثَ مرّات، ويَزْعمون أنّه إن كان ميّتاً لم يَسمَعوا صَوْتاً، وإن كان حيًّا سَمِعوا صَوْتاً ربّما توهّموه وَهْماً، أو سَمِعوه من الصَّدى، فبَنَوا عليه عقيدَتَهم، قال بعضُهم:

دعوتُ أبا المِغْوارِ في الجَفْر دَعْوةً ... فما آضَ صَوْتي بالّذي كنتُ داعيَا

أظنّ أبا المِغْوارِ في قَعْرِ مُظلمٍ ... تجرّ عليه الذّارياتُ السّوافِيَا

وقال:

وكم ناديتُه واللّيل ساجٍ ... بِعاديِّ البِئارِ فما أجَابَا

وقال آخر:

غابَ فلمْ أرجُ له إيابَا ... والجَفْر لا يرجِع لي جَوابَا

وما قراتُ مُذ نَأى كتابَا ... حتّى مَتَى أستنشِدُ الرُّكابا

عنه وكلٌّ يَمنَع الخِطابَا

وقال آخر:

ألم تَعلمِي أنّي دعوتُ مُجاشِعاً ... من الجَفْر والظّلماءُ بادٍ كُسورُهَا

فجاوَبَني حتّى ظننتُ بأنّه ... سيَطْلع من جَوْفاء صعبٍ حُدُورُها

لقد سكنتْ نفسِي وأيقنتُ أنّه ... سيُقدِم والدّنيا عجابٌ أمُورُها

وقال آخر:

دعوناهُ مِنْ عاديّةٍ نَضْبَ ماؤُها ... وهَدَّم جالَيْها اختلافُ عُصورِ

فرَدّ جواباً ما شككتُ بأنّه ... قريب إلينا بالإياب يصيرُ

أقوى في البيت الثاني، وسَكّن «نضَب» ضرورةً كما قال:

لو عُصْرَ منه البَانُ والمِسْك انعَصَرْ

ومن أعاجيبهم أنّهم كانوا في الحرب ربّما أخرجوا النّساء فيَبُلْن بين الصّفّين، يَرَوْن أنّ ذلك يُطفِئ نارَ الحرب ويقودُهم إلى السّلم.

قال بعضهم:

لقونا بأبوالِ النّساءِ جَهالةً ... ونحن نُلاقِيهم بِبيضٍ قَواضِبِ

وقال آخر:

بالَتْ نساءُ بني خُراشَةَ خِيفةً ... مِنّا وأدبَرَت الرجالُ شِلالا

وقال آخر:

بالتْ نساؤُهُمْ والبيضُ قد أخذتْ ... منهمْ مآخِذَ يُستشفَى بها الكَلِبُ

وهذان البيتان يُمكِن أن يراد بهما أنّ النساء يَبُلْن خيفةً وذُعْراً، لا على المعنى الّذي نحن في ذكره، فإذَنْ لا يكون فيهما دَلالة على المراد.

وقال الآخر:

هيهات ردّ الخيل بالأبوالِ إذا غَدَتْ في صُوَر السَّعالِي

وقال آخر:

جَعلوا السُّيوف المَشْرَفِيَّةَ منهُمُ بَوْل النساء وقَلَّ ذاك غَنَاءَ

فأما ذِكرهم عَزيَف الجنّ في المفاوز والسَّباسِب فكثير مشهور، كقول بعضهم:

وخَرْقٍ تحدّث غيطانه حديثَ العَذارى بأسْرارها

وقال آخر:

ودَوِّيَّةٍ سَبْسَبٍ سَمْلَقٍ من البيد تَعزِف جِنّانُها

وقال الأعشى:

ويَهْمَاءَ تَعزِفُ جِنّاتها مناهلها آجِناتٌ سُدُمْ

وقال:

وَبلدةٍ مِثل ظَهر التُّرْسِ مُوحِشةٍ للجنّ بالليل في حافاتها زَجَلُ

وقال آخر:

ببيْداء في أرجائِها الجنّ تعْزفُ

وقال الشرقيّ بن القطاميّ: كان رجل من كَلْب - يقال له عبيد بن الحُمَارِس - شجاعاً، وكان نازلاً بالسَّماوة أيّامَ الرّبيع، فلما حَسَر الرّبيع، وقلّ ماؤه، وأقْلعتْ أنواؤه، تحمّل إلى وادي تُبَل، فرأى رَوْضةً وغديراً، فقال: روضةٌ وغدير، وخطْبٌ يَسير، وأنا لما حَوَيْتُ مجير، فنزل هناك، وله امرأتان: اسمُ إحداهما الرّباب، والأخرى خَوْلة، فقالت له خَوْلة:

أرَى بلدةً قَفْراً قليلاً أنيسُها وإنا لنَخْشَى إن دَجا اللّيلُ أهْلَها

وقالت له الرّباب:

أرتْك بِرأيي فاستمِعْ عنك قَولها ولا تأمَنَنْ جنَّ العَزيفِ وجَهْلها

فقال مجيباً لهما:

ألستُ كميًّا في الحروب مُجَرّباً شُجاعاً إذا شبَّت له الحَرْب مِحْرَبا

سريعاً إلى الهيْجا إذا حَمَس الوَغَى فأقسم لا أعدو الغدير منكّبا

ثمّ صعد إلى جبل تُبَل فرأى شَيْهَمة - وهي الأنثى من القَنافذ - فرماها فأقعصَها ومعها ولدُها، فارتبطه، فلما كان الليل هتف به هاتفٌ من الجنّ:

يا بن الحُمارِس قد أسأتَ جوارَنا ... وركبت صاحبنا بأمرٍ مُفظِعِ
وعقرتَ لَقْحَته وقُدْت فَصِيلَها ... قَوْداً عَنِيفاً في المنيع الأرْفعِ
ونزلتَ مَرْعَى شائِناً وظَلَمْتَنَا ... والظّلم فاعِلُه وخِيمُ المَرْتَعِ
فلنطرُقَنَّكَ بالّذي أوْلَيْتَنَا ... شرٌّ يَجيئُك ما لَه مِنْ مَدْفعِ

فأجابَه ابنُ الحُمارِس:

يا مدّعي ظُلمِي ولستُ بظالم ... اسْمَع لدَيْك مَقالتي وتَسمَّعِ
إن كنتمُ جِنًّا ظلمتمْ قُنفُذاً ... عُقِرتْ فشرّ عَقيرةٍ في مَصرَعِ
لا تَطمَعوا فيما لديّ فما لَكُمْ ... فيما حويتُ وحُزْتُه من مَطمَعِ

فأجابَه الجنيّ:

يا ضارِبَ اللّقْحة بالعَضْب الأفَلّ ... قد جاءك الموتُ وأوْفاكَ الأجَلْ
وساقَك الحَيْن إلى جنّ تُبَلْ ... فاليومَ أقوَيْتَ وأعيتكَ الحِيَلْ

فأجابَه ابن الحُمارِس:

يا صاحبَ اللّقْحة هل أنت بَجَلْ ... مستمِعٌ مِني فقد قلتَ الخَطَلْ
وكثرة المنْطِق في الحرْبِ فَشَلْ ... هيّجت قَمْقَاماً من القوم بَطَلْ
ليثَ ليُوثٍ وإذا هَمَّ فَعَلْ ... لا يرهَبُ الجِنَّ ولا الإنس أجَلْ
من كان بالعقوة من جنّ تُبَلْ

قال: فسَمِعهما شيخٌ من الجِنّ، فقال: لا والله لا نرى قتل إنسانٍ مِثْل هذا ثابت القَلْب ماضِي العزيمة، فقام ذلك الشّيخ وحَمِد الله تعالى ثمّ أنشد:

يا بنَ الحُمارِس قد نَزلتَ بلادَنا ... فأصبتَ منها مشرَباً ومَناما
فبدأتَنا ظُلماً بعَقْر لقُوحنا ... وأساتَ لمّا أن نطقتَ كلاما
فاعمَد لأمرِ الرُّشْدِ واجتَنِب الرّدى ... إنا نَرَى لك حُرمة وذِماما
واغرمْ لِصاحبنا لقُوحاً متبعاً ... فلقد أصبْتَ بما فعلتَ أثاما

فأجابه ابن الحمارس:

الله يَعلَم حيث يُرفَع عَرشُه ... أنّي لأكرهُ أن أصيبَ أثاما
أمّا ادّعاؤك ما ادّعيتَ فإنّني ... جئتُ البِلادَ ولا أريدُ مقاما
فأسمتُ فيها ما لَنا ونزلتُها ... لأرِيحَ فيها ظَهرنا أيّاما

فليَغْدُ صاحبكمْ علينا نُعطِه ... ما قد سألت ولا نَراه غَراما

ثم غرم للجِنّ لقوحاً مُتْبَعاً للقُنْفذ ووَلَدها.

وهذه الحكاية وإن كانت كَذِباً إلّا أنها تتضمّن أدباً، وهي من طَرائف أحاديث العَرَب فذكَرْناها لأدبها وإمْتاعِها، ويقال: إنّ الشرقيّ بن القُطاميّ كان يَصنَع أشعاراً ويَنحَلها غيره.

فأما مَذهب العرب في أنّ لكلّ شاعر شيطاناً يلقِي إليه الشِّعْر فمذْهب مشهور، والشّعراء كافّةٌ عليه، قال بعضهم:

إنّي وإن كنتُ صغيرَ السّنّ ... وكان في العين نبوٌّ عنّي

فإنّ شيطانِي أميرُ الجِنّ ... يَذهَب بي في الشّعر كلَّ فَنّ

وقال حسّان بنُ ثابت:

إذا ما تَرَعْرع فينا الغُلام ... فما إنْ يقال له: مَنْ هُوَهْ؟

إذا لم يَسُدْ قبل شدّ الإزارِ ... فذلكَ فينا الّذي لا هُوَهْ

ولي صاحِبٌ من بَني الشَّيْصَبانِ ... فطَوْراً أقولُ وطَوْراً هُوَهْ

وكانوا يزعمون أنّ اسمَ شيطان الأعشى مِسحَل، واسم شيطان المخبَّل عَمرو، وقال الأعشى:

دعوتُ خَليلي مِسحَلاً ودَعَوا له ... جهنّام جَذْعاً للهجين المذمَّمِ

وقال آخر:

لقد كان جنيّ الفرزدق قُدوَةً ... وما كان فينا مِثل فَحْل المخبَّل

ولا في القوافِي مِثل عَمرٍو وشَيْخِه ... ولا بعد عَمرٍو شاعرٌ مِثل مِسْحَلِ

وقال الفَرَزدق يصفُ قصيدته:

كأنّها الذّهب العِقْيانُ حبَّرها ... لسانُ أشعَرِ خلقِ اللّه شَيْطانَا

وقال أبو النَّجْم:

إنّي وكلّ شاعرٍ من البَشَرْ ... شيطانه أنثى وشيطانِي ذَكَرْ

وأنشد الخالعُ فيما نحن فيه لبعض الرُّجّاز:

إن الشياطين أَتَوْني أربَعهْ ... في غَلَس اللّيلِ وفيهمْ زَوْبَعَهْ

وهذا لا يدلّ على ما نحن بصدده من أمر الشعر وإلقائه إلى الإنسان، فلا وَجْه لإدخاله في هذا الموضع.

ومن مذاهبهم أنهم كانوا إذا قَتلوا الثُّعْبانَ خافوا من الجنّ أن يأخذوا بثأره، فيأخذون رَوْثةً ويفتّونها على رأسه، ويقولون: روْثة راثَ ثائرك.

وقال بعضهم:

طرحْنا عليه الرَّوْثَ والزّجْرُ صادقٌ ... فراثَ علينا ثأرُه والطّوائلُ

وقد يُذَرُّ على الحيّة المقتولة يسيرُ رمَاد، ويقال لها: قتلك العيْن فلا ثأرَ لكِ، وفي أمثالهم لِمن ذهب دمُه هَدَراً: وهو قتيلُ العيْن، قال الشاعر:

ولا أكنْ كقَتيلِ العيْن وسْطَكُمُ ... ولا ذَبيحة تَشريق وتَنحارِ

فأما مَذهَبُهم في الخَرَزات والأحجار والرُّقَى والعَزائم فمشهور، فمنها السُّلْوانة - ويقال السَّلْوة - وهي خَرَزة يُسْقَى العَاشقُ منها فيَسلُو في زَعْمهم، وهي بيضاء شَفّافة، قال الراجز:

لو أشرَبُ السُّلوانَ ما سَليتُ ... ما بي غِنًى عنكمْ وإنْ غَنِيتُ

السُّلْوان: جمعُ سُلْوانة.

وقال اللّحيانيّ: السُّلوانة تُرابٌ من قبرٍ يُسقَى منه العاشق فيَسلُو، وقال عُروةُ بن حزام:

جعلتُ لعرّاف اليمامةِ حُكمه ... وعرّاف نجدٍ إنْ هما شَفَيانِي

فقالا: نعم نَشفي من الدّاءِ كُلّه ... وقامَا مع العُوّاد يَبْتَدِرانِ

فما تَركَا من رُقْيَةٍ يَعرِفانها ... ولا سَلوةٍ إلا وقد سَقَيانِي

وقال آخر:

سَقَوْني سَلْوَةً فسلوتُ عنها ... سقَى اللهُ المنيّةَ مَن سَقانِي

أي سلوتُ عن السُّلْوة واشتدّ بي العِشْق ودام. وقال الشُّمردل:

ولقد سُقِيتُ بسَلْوةٍ فكأنما ... قال المُداوِي للخَيالِ بها ازْدَدِ

ومن خَرَزاتهم الهِنّمة تُجتلَب بها الرجالُ وتُعطَف بها قلوبُهم، ورُقيتُها: أخذته بالهِنَّمَهْ، باللّيل زَوْج وبالنّهار أَمَه.

ومنها الفَطْسة والقَبلة والدَّرْدَبيس، كلّها لاجتلاب قلوب الرّجال، قال الشاعر:

جمّعن من قبل لهنّ وفَطْسَةٍ ... والدَّرْدَبيس تمائماً في منظمِ

فانقَاد كلّ مشذّب مَرسِ القُوَى ... لحِبالهنّ وكل جَلْدٍ شَيْظَمِ

وقيل: الدَّرْدَبيس خَرَزة سوداءُ يتحبّب بها النّساء إلى بُعولتهن، توجد في القُبور العاديّة، ورُقيتُها: أخذته بالدَّرْدَبيس، تُدِرّ العَرَق اليبيس، وتذر الجديد كالدَّرِيس، وأنشد:

قطعتُ القيدَ والخرَزات عنّي فمن لي من عِلاج الدُّرْدَبيسِ!

وأصل الدَّرْدَبيس الداهية، ونُقِل إلى هذه لقوّة تأثيرها.

ومِن خَرَزاتهم القِرْزَحلة، أنشد ابنُ الأعرابيّ:

لا تنفَع القِرْزَحلةُ العَجائزَا إذا قطعنَ دونَها المَفاوِزَا

وهي من خَرَز الضّرائر، إذا لبستْها المرأةُ مالَ إليها بعلُها دونَ ضَرّتها.

ومنها خَرَزة العُقرة تشدّها المرأة على حَقْوَيْها فتُمنَع الحَبل، ذكَر ذلك ابنُ السّكّيت في إصلاح المنطق.

ومنها اليَنْجَلِب، ورُقْيَتُها: أخذتُه باليَنْجَلب، فلا يَرِمْ ولا يَغِبْ، ولا يَزَلْ عند الطُّنُب.

ومنها كَرَارِ، مبنيّةٌ على الكسر، ورُقْيتُها: يا كَرارِ كُرّيه، إنْ أقبل فسُرّيه، وإن أدبرَ فضُرّيه، مِنْ فَرْجِه إلى فيه.

ومنها الهمْرَة ورُقْيَتها: يا همْرَة اَهمريه، من اَستِه إلى فيه، ومالِه وبَنِيه.

ومنها الخَصْمة، خرزة للدّخول على السّلطان والخصومة، تُجعَل تحتَ فَصّ الخاتَم أو في زرِّ القَمِيص أو في حَمائِل السّيف، قال بعضهم:

يُعلِّق غيري خصمة في لِقائهمْ وما لي عليكمْ خصمةٌ غيرُ مَنطِقي

ومنها الوَجيهة، وهي كالخَصْمة حمراءُ كالعَقيق.

ومنها العَطْفة، خَرَزة العَطْف، والكَحْلة، خَرَزة سوداءُ تُجعَل على الصِّبيان لدَفع العين عنهم، والقَبلة خَرَزة بيضاءُ تُجعَل في عُنُق الفَرَس من العين، والفَطْسة خَرَزة يَمرَض بها العدوّ ويُقتَل، ورُقيتُها: أخذته بالفَطْسة، بالثُّوباء والعطسة، فلا يَزال في تَعْسَة، من أمرِه ونَكْسَة، حتى يَزورَ رَمْسَه.

ومن رُقاهم للحُبّ: هَوَابَه هَوابَه، البرقُ والسّحابة، أخذتُه بمركَن، فحبّه تَمكّن. أخذته بإبره، فلا يَزل في عَبْره. خلّيته بإشْفى، فقلبُه لا يَهدَا. خلّيته بمبرَد، فقلبه لا يَبرُد.

وتَرقِي الفاركُ زوجَها إذا سافر عنها فتقول: بأُفول القمر، وظلّ الشّجر، شِمال تَشمَله، ودَبور تدبره، ونَكباءَ تنكُبه، شِيكَ فلا انتعَش، ثم ترمي في أثره بحصاة ونواة وروثة وبعرة، وتقول: حصاة حصّت أثره، نواة أنأت داره، روْثة راثَ خبرُه لقعته ببعرة.

وقالت فاركٌ في زوجها:

أتبعتُه إذْ رَحَل العيسَ ضُحَى بعد النّواة رَوْثةً حيثُ انتوى

الرّوث للرّثي وللنّأي النّوَى

وقال آخَر:

رَمَتْ خلفَه لمّا رأت وشْكَ بينِه ... نـواةً تـلـتْـهـا رَوْثـةٌ وَحَـصـاةُ

وقالت: نأتْ منكَ الدّيارُ فلا دَنَتْ ... وراثَتْ بِكَ الأخبارُ والرَّجَعاتُ

وحصّت لكَ الآثارُ بعد ظُهورِها ... ولا فارَقَ التَّرحالَ منك شَتاتُ

وقال آخَر يُخاطِب امرأته:

لا تَقذِفي خَلفي إذا الرّكبُ اغتَدَى ... روثَـةَ عَـيْـرٍ وحَـصـاةٍ ونَـوَى

لن يَدفعَ المقدارَ أسبابُ الرُّقَى ... ولا التّهاويلُ على جِنّ الفَلا

هذا الرّجز أورَدَه الخالع في هذا المعرض، وهو بأن يدلّ على عكس هذا المعنى أولى، لأنّ قوله: «لن يَدفَع المقدارَ بالرُّقَى، ولا بالتّهاويل على الجِن» كلام يُشعِر بأنّ قَذْف الحصاة والنّواة خَلْفَه كالعُوذة له، لا كما تفعله الفارِكُ الّتي تتمنّى الفِراق. فأمّا مَذهبُهم في القِيافة والزّجْر والكَهانة واختلافهم في السّانح والبارح، وتشاتمهم باللّفْظة والكَلِمة وتأويلُهم لها وتيَمُّنهم بكلمة أخرى، وما كانوا يفعلونه من البَحِيرة والسائبة والوَصِيلة والحامي فكلّه مشهورٌ معروف لا حاجةَ لنا إلى ذكرِه هاهنا.

فأمّا لفظ أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «نَشرة»، فإنّ النّشرة في اللغة كالعُوذَة والرُّقْية، قالوا: نَشَرْت فلاناً تَنْشيراً، أي رَقَيْتُه وعوّذته. وقال الكلابيّ: إذا نشر المَسْفوع فكأنّما أُنشِط من عِقال، أي يذهب عنه ما به سَريعاً.

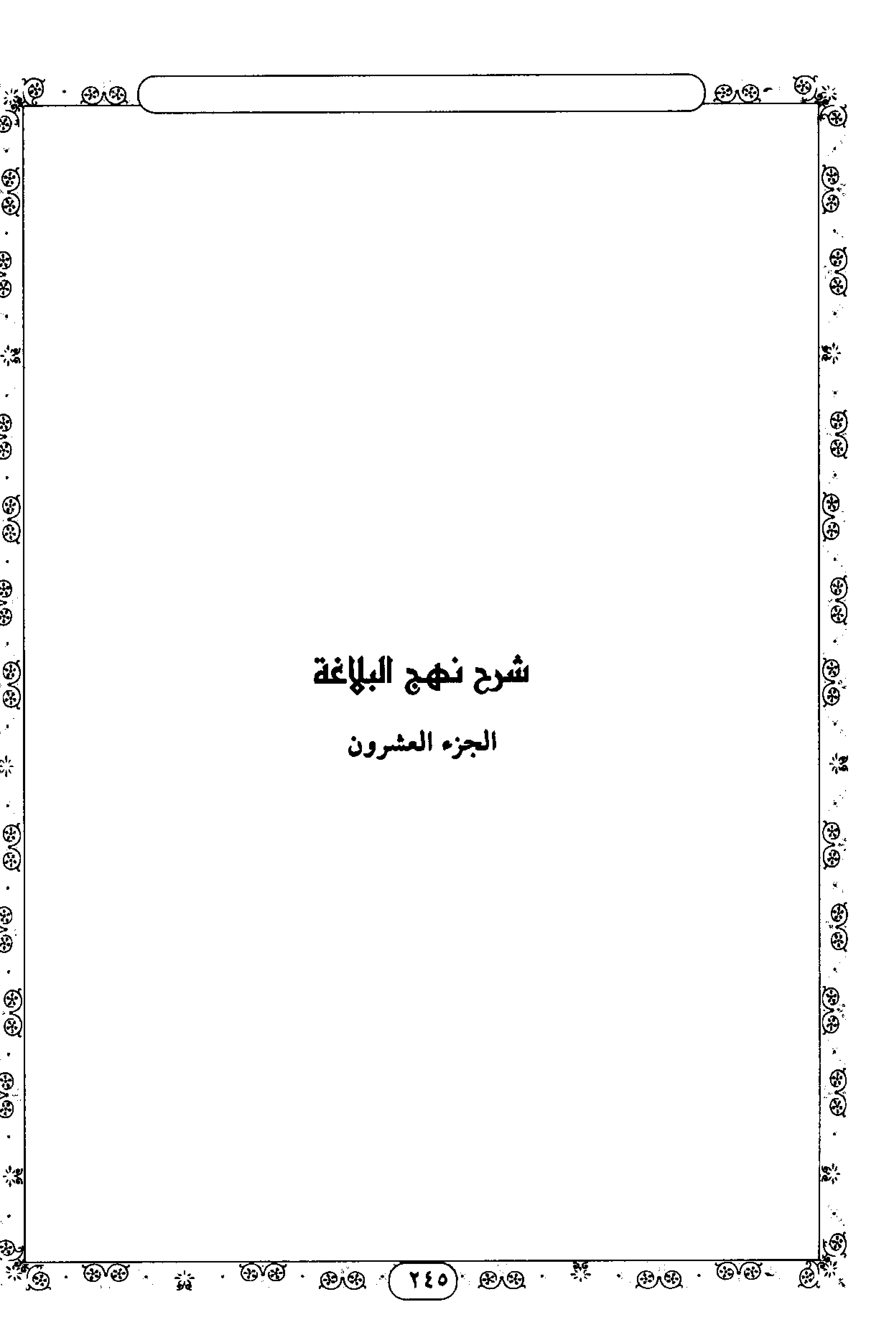
وفي الحديث أنّه قال: «فلعلّ طبًّا أصابه»[1] يعني سحراً، ثم عوَّذَه بـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[2]، أي رَقاه، وكذلك إذا كَتَب له النُّشرة.

وقد عدّ أميرُ المؤمنين عليه السلام أموراً أربعةً ذكر منها النشرة، ولم يكن عليه السلام ليقول ذلك إلّا عن تَوْقيف من رسولِ الله صلى الله عليه وآله.

تم الجزء التاسع عشر من شرح نهج البلاغة
لابن أبي الحديد ويليه الجزء العشرون

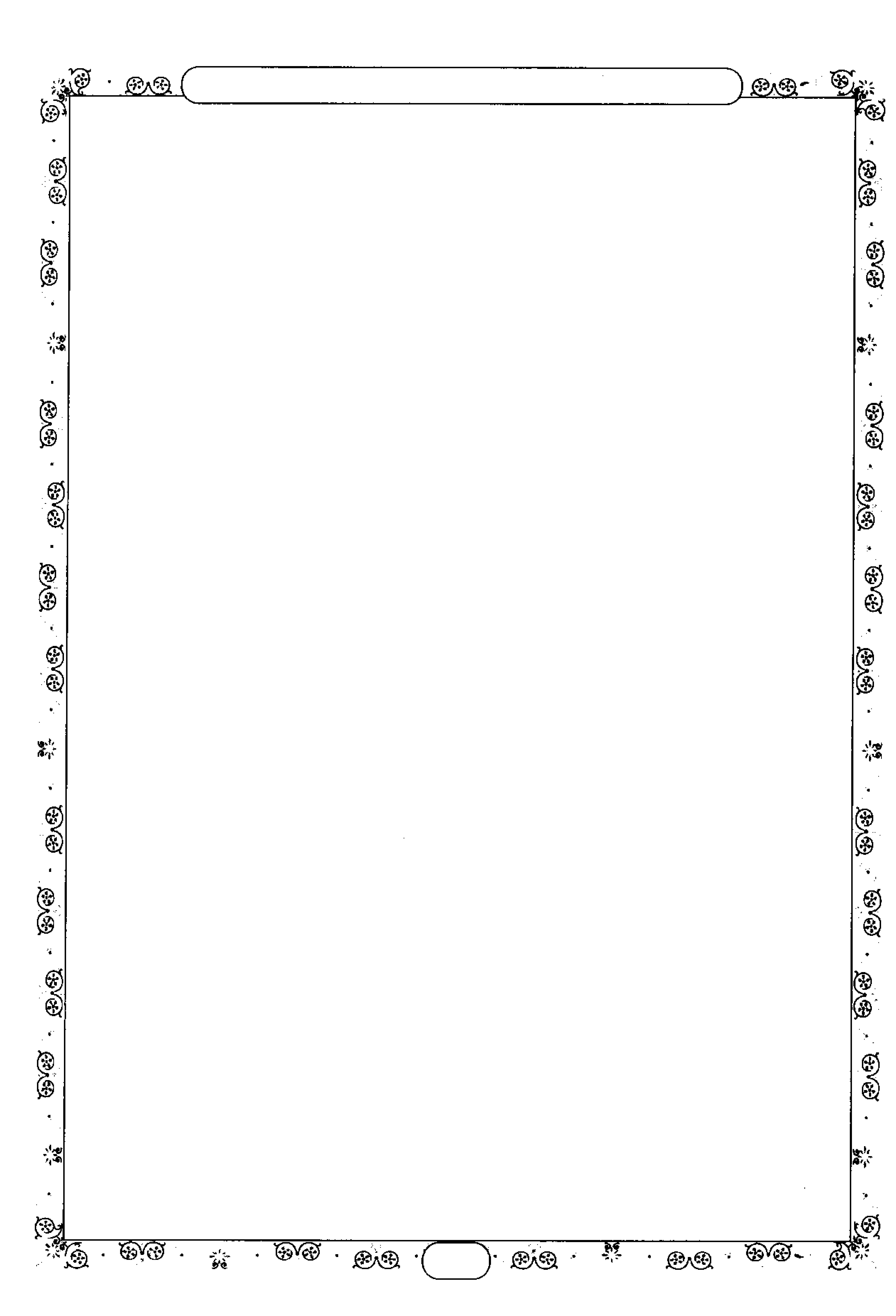
---

(١) ذكره في «عون المعبود» (١٠/ ٢٤٩)، وابن الأثير في «النهاية»، مادة (طبب).
(٢) سورة الناس، الآية: ١.



شرح نهج البلاغة

الجزء العشرون



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل

- ٤٠٩ -

الأصل: وقال عليه السلام **مُقَارَبَةُ النَّاسِ فِي أَخْلاقِهِمْ أَمْنٌ مِنْ غَوَائِلِهِمْ.**

الشرح: إلى هذا نظَر المتنبّي في قوله:

وخَلّةٍ في جليسٍ أتّقيه بها ... كَيْمَا يَرى أنّنا مِثْلان في الوَهَنِ
وكِلْمةٍ في طريق خِفْتُ أعْرِبُها ... فيُهتَدَى لي فلم أقدِرْ على اللَّحَنِ

وقال الشاعر:

وما أنا إلّا كالزّمان إذا صحَا ... صحوتُ وإن ماقَ[1] الزمانُ أمُوقُ

وكان يقال: إذا نزلتَ على قوم فتشبّهْ بأخلاقهم، فإنّ الإنسان من حيث يوجَد، لا من حيث يُولَد. وفي الأمثال القديمة: من دَخَل ظَفارِ حمَّر.

شاعر:

أحامِقُه حتّى يُقال سجيّة ... ولو كان ذا عَقْل لكنتُ أعاقِلُهْ

- ٤١٠ -

الأصل: **وَقَالَ عليه السلام لِبَعْضِ مُخَاطِبِيهِ وَقَدْ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ يُسْتَصْغَرُ مِثْلُهُ عَنْ قَوْلِ مِثْلِهَا: لَقَدْ طِرْتَ شَكِيراً، وَهَدَرْتَ سَقْباً.**

قَالَ: الشَّكِيرُ هاهنا: أَوَّلُ ما يَنْبُتُ مِنْ رِيشِ الطَّائِرِ قَبْلَ أَنْ يَقْوَى وَيَسْتَحْصِفَ. والسَّقْبُ: الصَّغِيرُ مِنَ الإِبِلِ، وَلا يَهْدِرُ إِلَّا بَعْدَ أَن يَسْتَفْحِلَ.

(١) ماق: حمق. القاموس مادة (موق).

الشرح: هذا مِثْلُ قولهم: قد زَبَّبَ قبل أن يُحصرم.

ومن أمثال العامّة: يقرأ بالشّواذّ، وما حفِظ بعدُ جزءَ المفصَّل.

- ٤١١ -

الأصل: وقال عليه السلام: مَنْ أَوْمَأَ إِلَى مُتَفَاوِتٍ خَذَلَتْهُ الحِيَلُ.

الشرح: قيل في تفسيره: من استدلّ بالمتشابه من القرآن في التّوحيد والعَدْل انكشفتْ حيلتُه، فإنّ علماء التّوحيد قد أوضحوا تأويلَ ذلك.

وقيلَ: مَن بَنَى عقيدةً له مخصوصةً على أمرين مختلفين: حقٌّ وباطل، كان مُبطلاً.

وقيل: من أومَأ بطمَعه وأمَله إلى فائتٍ قد مضَى وانقضى لن تَنفَعه حِيلة، أي لا يُتبِعنّ أحدُكم أمَله ما قد فاتَه، وهذا ضعيفٌ لأنّ المُتفاوت في اللّغة غيرُ الفائت.

- ٤١٢ -

الأصل: قَالَ عليه السلام - وَقَدْ سُئِلَ عَنْ مَعْنَى قَوْلِهِمْ: لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا باللهِ -:

إِنَّا لا نَمْلِكُ مَعَ اللهِ شَيْئاً، وَلا نَمْلِكُ إِلّا مَا مَلَّكَنَا، فمتى ملّكنا مَا هُوَ أَمْلَكُ بِه مِنَّا كَلَّفَنَا، وَمَتَى أَخَذَهُ مِنَّا وَضَعَ تَكْلِيفَهُ عَنَّا.

الشرح: مَعنَى هذا الكلام أنّه عليه السلام جعل الحولَ عبارةً عن المِلْكيّة والتصرّف، وجعل القوّة عبارةً عن التكليف، كأنّه يقول: لا تَملُّك ولا تصرُّف إلا بالله، ولا تكليف لأمرٍ من الأمور إلّا بالله، فنحن لا نَملِك مع الله شيئاً، أي لا نستقلّ بأن نَملك شيئاً، لأنّه لولا إقدارُه إيّانا وخلقته لنا أحياءً لم نكن مالِكين ولا متصرّفين، فإذا ملّكنا شيئاً هو أملك به - أي أقدرُ عليه منّا - صرْنا مالكين له كالمال مثلاً حقيقة، وكالعَقْل والجوارح والأعضاء مَجازاً، وحينئذ يكون مكلّفاً لنا أمراً يتعلّق بما ملّكنا إيّاه، نحو أن يكلّفنا الزّكاة عند تمليكنا المال، ويكلّفنا النَّظر عند تمليكنا العَقْل، ويكلّفنا الجِهادَ والصّلاة والحجّ وغيرَ ذلك عند تمليكِنا الأعضاء والجوارح، ومتى أخذ منّا المالَ وَضَع عنا تكليفَ الزّكاة، ومتى أخذَ العَقْل سقَط تكليفُ النَّظر، ومتى أخذَ الأعضاء والجوارح سَقَط تكليف الجِهاد وما يَجري مجراه.

هذا هو تفسيرُ قوله عليه السلام، فأمّا غيرُه فقد فسّره بشيء آخر، قال أبو عبد اللّه جعفرُ بنُ محمد عليه السلام: فلا حَوْلَ على الطاعة ولا قوّةَ على تَرْكِ المعاصي إلا بالله، وقال قوم - وهم المجبرة: لا فعل من الأفعال إلّا وهو صادِر مِن الله، وليس في اللّفظ ما يدلّ على ما ادّعَوْا، وإنما فيه أنه لا اقتدار إلا بالله، وليس يَلزَم من نَفْي الاقتدار إلا بالله صِدْق قولنا: لا فعل من الأفعال إلا وهو صادرٌ عن الله، والأوْلى في تفسير هذه اللفظة أن تُحمَل على ظاهِرِها، وذلك أنّ الحَوْل هو القوّة، والقوّة هي الحَوْل كلاهما مُترادِفان، ولا ريبَ أنّ القدرة من الله تعالى، فهو الّذي أقدَر المؤمن على الإيمان، والكافرَ على الكفر، ولا يلزم من ذلك مخالفةُ القول بالعَدْل، لأنّ القدرة ليست موجبة.

فإن قلتَ: فأيّ فائدةٍ في ذِكر ذلك وقد علم كلّ أحد أنّ الله تعالى خَلَق القُدْرة في جميع الحيوانات؟

قلت: المرادُ بذلك الردّ على من أثبَت صانعاً غَير الله، كالمجوسِ والثَّنَويّة، فإنهم قالوا بإلٰهين: أحدهما يَخلُق قدرةَ الخَيْر، والآخَر يَخلُق قدرة الشرّ.

- ٤١٣ -

الأصل: وقالَ عليه السلام لِعَمَّارِ بْنِ ياسِرٍ رَحِمَهُ الله تعالَى وقَدْ سَمِعَهُ يُرَاجِعُ المُغِيرَةَ بنَ شُعْبَةَ كَلاماً:

دَعْهُ يا عَمّارُ، فإنَّهُ لَنْ يأخُذَ مِنَ الدِّينِ إلّا ما قارَبَهُ مِنَ الدُّنْيا، وَعَلَى عَمْدٍ لَبَّسَ على نَفْسِهِ، لِيَجْعَلَ الشُّبُهاتِ عاذِراً لِسَقَطاتِهِ.

الشرح: أصحابُنا غيرُ متّفقين على السكوت على المغيرة، بل أكثر البغداديّين يفسّقونه، ويقولون فيه ما يقال في الفاسق، ولما جاء عروة بن مسعود الثَّقَفيّ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله عامَ الحُدَيْبِيَة نظر إليه قائماً على رأس رسول الله مقلّداً سيفاً، فقيل: من هذا؟ قيل: ابنُ أخيك المغيرة، قال: وأنت هاهنا يا غُدَر! والله إنّي إلى الآن ما غَسَلتُ سوءَتَك[1].

وكان إسلامُ المغيرة من غير اعتقاد صحيح، ولا إنابة ونيّة جميلة، كان قد صَحِب قوماً في بعض الطُّرق، فاستغفَلهم وهم نيام، فقتلهم وأخذ أموالهم وهرب خوفاً أن يُلحَق فيُقتل، أو

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٤٥٨٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٤٠٤).

يؤخذ ما فاز به من أموالهم، فقَدِم المدينة فأظهر الإسلام، وكان رسول الله ﷺ لا يردّ على أحدٍ إسلامَه: أسلَم عن علّة أو عن إخلاص، فامتنَع بالإسلام، واعتصم، وحَمِي جانبه.

ذَكر حديثه أبو الفرج عليّ بنُ الحسين الأصفهانيّ في كتاب «الأغاني»[1]، قال: كان المغيرة يحدّث حديث إسلامه، قال: خرجتُ مع قوم من بني مالك ونحن على دِين الجاهليّة إلى المُقَوْقس مَلِك مصر، فدخلنا إلى الإسكندرية، وأهدَيْنا للمَلِك هدايا كانت معنا، فكنتُ أهوَن أصحابي عليه، وقَبضَ هدايا القوم، وأمر لهم بجوائز، وفضّل بعضهم على بعض، وقصّر بي فأعطاني شيئاً قليلاً لا ذِكر له، وخرجْنا، فأقبلت بنو مالك يشترون هدايا لأهلهم وهم مسرورون، ولم يَعرِض أحدٌ منهم عليّ مواساةً، فلما خرجوا حَمَلوا معهم خمراً، فكانوا يَشربون منها، فأشرب معهم، ونفسي تأبى أن تَدَعَني معهم، وقلتُ: ينصرفون إلى الطائف بما أصابوا، وما حَباهم به الملك، ويخبرون قومي بتقصيره بي وازدرائه إياي! فأجمعتُ على قتلِهم، فقلت: إنّي أجد صُداعاً، فوضعوا شرابَهم ودعَوْني، فقلت: رأسي يُصدّع، ولكن اجلسوا فأسقِيكم، فلم يُنكِروا من أمري شيئاً، فجلست أسقيهم وأشرَب القَدَح بعد القَدَح، فلمّا دبّت الكأس فيهم اشتهَوا الشراب، فجعلتُ أصرِّف لهم وأترع الكأس، فيشربون ولا يدرون، فأهمدتهم الخمرُ حتى ناموا، ما يعقلون، فوثبتُ إليهم فقتلتهم جميعاً، وأخذت جميع ما كان معهم.

وقَدِمتُ المدينة فوجدتُ النبيّ ﷺ بالمسجد وعنده أبو بكر - وكان بي عارفاً - فلما رآني قال: ابن أخي عُرْوة؟ قلت: نعم، قد جئتُ أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمداً رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله»: فقال أبو بكر مِن مصرَ أقبلتَ؟ قلت: نعم؟ قال: فما فعل المالكيّون الذين كانوا معك؟ قلت: كان بيني وبينهم بعض ما يكون بين العَرَب، ونحن على دين الشرك، فقتلتهم، وأخذت أسلابهم، وجئتُ بها إلى رسول الله ﷺ ليُخَمِّسَها ويرى فيها رأيه، فإنها غنيمة من المشركين، فقال رسولُ الله ﷺ: «أمّا إسلامُك فقد قبلتُه، ولا نأخذ من أموالهم شيئاً ولا نخمّسها، لأنّ هذا غَدْر، والغَدْر لا خير فيه»، فأخَذَني ما قَرُب وما بَعُد، فقلتُ: يا رسول الله، إنما قتلتهم وأنا على دِين قومي، ثمّ أسلمتُ حين دخلتُ إليك الساعة، فقال عليه السلام: «الإسلام يجبّ ما قبله»[2]. قال: وكان قَتل منهم ثلاثة عشر إنساناً، واحتوى على ما معهم، فبلغ ذلك ثقيفاً بالطائف، فتداعَوْا للقتال، ثم اصطَلَحوا على أن حمل عمّي عُروة بن مسعود ثلاث عشرة دِيَة.

---

(١) «الأغاني: لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني، المتوفى سنة (٣٥٦هـ)، وهو كتاب لم يُؤلف مثله تفاقاً. «كشف الظنون» (١/ ١٢٩).

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٤/ ٢٨٦)، والذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٥).

قال: فذلك معنى قولِ عُرْوة يوم الحُدَيْبية: «يا غُدَر، أنا إلى الأمس أغسل سوءَتَك، فلا أستطيع أن أغسلها»، فلهذا قال أصحابنا البغداديون: مَنْ كان إسلامُه على هذا الوجه، وكانت خاتمته ما قد تواتر الخبر به، من لعن عليٍّ عليه السلام على المنابر إلى أن مات على هذا الفعل، وكان المتوسط من عمره الفِسْق والفُجور وإعطاء البَطْن والفَرْج سؤالهما، وممالأة الفاسِقِين، وصرْف الوقت إلى غير طاعة الله، كيف نتولاّه! وأيّ عُذْر لنا في الإمساك عنه، وألاّ نكشف للناس فِسْقَه!

مع أبي المعالي الجويني في أمر الصحابة والرد عليه

وحضرت عند النقيب أبي جعفر يحيى بن محمد العَلويّ البَصْريّ في سنة إحدى عشرة وستمائة ببغداد، وعنده جماعة، وأحدُهم يقرأ في الأغاني لأبي الفرج، فمرّ ذكر المغيرة بن شعبة وخاض القوم، فذمّه بعضهم، وأثنى عليه بعضهم، وأمسك عنه آخرون، فقال بعض فقهاء الشّيعة ممن كان يشتغل بطرفٍ مِن علم الكلام على رأي الأشعريّ: الواجب الكفّ والإمساك عن الصّحابة، وعمّا شَجر بينهم، فقد قال أبو المعالي الجوينْي: إنّ رسول الله ﷺ نَهَى عن ذلك، وقال: «إيّاكم وما شَجَر بين صحابتي»[1]، وقال: «دَعُوا لي أصحابي، فلو أنفق أحدكم مِثل أحُدٍ ذهباً لما بَلَغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَه»[2]، وقال: «أصحابي كالنّجوم، بأيّهم اقتديتم اهتديتم»[3]، وقال: «خيرُكم القَرْن الذي أنا فيه ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه»[4]، وقد ورد في القرآن الثّناءُ على الصحابة وعلى التابعين، وقال رسول الله ﷺ: «وما يُدْريك لعلّ الله اطّلع على أهل بَدْر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم»[5]! وقد رُوي عن الحسن

(١) ذكره ابن الأثير في «النهاية الحديث» (٢/ ٤٤٦)، مادة (شجر).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣٦٧٣)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة (٢٥٤٠)، كلاهما بلفظ: «لا تسبوا أصحابي»، بدل «دعوا لي أصحابي»، أما رواية المؤلف فرواها أحمد في «مسنده» (١٣٤٠٠) بلفظ: «دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم»، وكذلك أخرجها الطبري في «الرياض النضرة» (١/ ١٧٥).

(٣) أخرجه عبد بن حميد في «مسنده» (٧٨٣)، والشهاب في «مسنده» (١٣٤٦)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٣/ ٦٢)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٦٤٩٧).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب: الشهادات، باب: لا يشهد مع شهادة جور إذا أشهد (٢٦٥١)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٢٥٣٥).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد، باب: الجاسوس (٣٠٠٧)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل بدر وقصة حاطب (٢٤٩٤).

البَصْرِي أنه ذكر عنده الجمل وصِفِّين فقال: تلك دماءٌ طَهّر الله منها أسيافَنا، فلا نلطّخ بها ألسنَتنا.

ثم إنّ تلك الأحوال قد غابت عنّا وبعُدتْ أخبارُها على حقائقها، فلا يليق بنا أن نخوضَ فيها، ولو كان واحدٌ من هؤلاء قد أخطأ لوَجب أن يُحفَظ رسول الله ﷺ فيه، ومن المروءة أن يُحفَظ رسول الله ﷺ في عائشة زوجته، وفي الزبير ابن عمّته، وفي طلحة الّذي وَقاه بيَده. ثمّ ما الذي ألزَمَنا وأوْجَب علينا أن نَلعَن أحداً من المسلمين أو نَبرأ منه! وأيّ ثواب في اللّعنة والبراءة! إنّ الله تعالى لا يقول يومَ القيامة للمكلَّفِ: لمَ لَم تَلعَن؟ بل قد يقول له: لِم لعَنْتَ؟ ولو أنّ إنساناً عاش عمرَه كلّه لم يَلعَن إبليسَ لم يكن عاصياً ولا آثماً، وإذا جَعَل الإنسانُ عِوَض اللعنة أستغفر الله كان خيراً له. ثم كيف يجوز للعامّة أن تُدخِل أنفسَها في أمور الخاصّة، وأولئك قوم كانوا أمراءَ هذه الأمّة وقادتَها، ونحن اليوم في طبقة سافلةٍ جداً عنهم، فكيف يَحسُن بنا التعرّض لذِكرهم! أليس يَقبُح من الرّعية أن تخوضَ في دقائق أمورِ الملكِ وأحوله وشؤونه الّتي تجري بينه وبين أهله وبَني عمّه ونسائه وسَراريّه! وقد كان رسول الله ﷺ صِهْراً لمعاويةَ. وأخته أمّ حبيبة تحتَه، فالأدب أن تُحفَظ أمُّ حبيبَة وهي أمّ المؤمنين في أخيها.

وكيف يجوز أن يُلعَن مَن جعل الله تعالى بينه وبين رسوله مَوَدّة! أليس المفسّرون كلّهم قالوا: هذه الآية أُنزِلت في أبي سُفيان وآله، وهي قولُه تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾[1]! فكان ذلك مُصاهَرة رسول الله ﷺ أبا سُفيان وتزويجه ابنته. على أنّ جميع ما تَنقُله الشّيعة من الاختلاف بينهم والمشاجَرة لم يَثبُت، وما كان القومُ إلا كبَني أمٍّ واحدة ولم يتكدّر باطنُ أحدٍ منهم على صاحبه قطّ، ولا وقع بينهم اختلاف ولا نزاع.

فقال أبو جعفر رحمه الله: قد كنتُ منذ أيّام علّقتُ بخطّي كلاماً وجدتُه لبعض الزّيْدية في هذا المعنى نَقْضاً ورَدًّا على أبي المعالي الجُوَينيّ فيما اختاره لنفسِه من هذا الرأي، وأنا أخرِجه إليكم لأستغني بتأمّله عن الحديث على ما قاله هذا الفقيه، فإنّي أجدُ ألماً يمنَعني من الإطالة في الحديث، لا سيما إذا خرج مَخرَج الجَدَل ومُقاومة الخصوم، ثمّ أخرَج من بين كتبه كُرّاساً قرأناه في ذلك المجلس واستحسَنَه الحاضرون، وأنا أذكرها هنا خلاصَتَه.

قال: لولا أن الله تعالى أوجَب معاداةَ أعدائه، كما أوجَب مُوالاةَ أوليائه، وضَيَّق على المسلمين تَرْكَها إذا دَلّ العقل عليها، أو صحّ الخبرُ عنها بقوله سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[2]، وبقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٧.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

أَوْلِيَآءَ﴾[1]، وبقوله سبحانه: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[2]، ولإجماع المسلمين على أنّ الله تعالى فَرضَ عداوة أعدائه، وولاية أوليائه، وعلى أنّ: البغض في الله واجب، والحبَّ في الله واجب - لما تعرّضنا لمعاداة أحدٍ من الناس في الدّين، ولا البراءة منه، ولكانت عداوتُنا للقوم تكلفاً. ولو ظَنَنّا أنّ الله عزّ وجلّ يَعذِرنا إذا قلنا: يا رَبّ غاب أمرُهم عنّا، فلم يكن لخَوْضنا في أمرٍ قد غاب عنّا معنًى، لاعتمدنا على هذا العُذر، والَيْناهم، ولكنّا نخاف أن يقول سبحانه لنا: إن كان أمرُهم قد غاب عن أبصاركم، فلم يَغِب عن قلوبكم وأسماعِكم، قد أتتكم به الأخبارُ الصحيحة الّتي بمثلِها ألزَمْتم أنفسَكم الإقرار بالنبيّ ﷺ ومُوالاةَ مَن صَدّقه، ومعاداة مَن عَصاه وجَحدَه، وأمِرْتم بتدبّر القرآن وما جاء به الرسولُ، فهلاّ حذِرتم من أن تكونوا من أهل هذه الآية غداً: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[3]!

فأمّا لفظة اللّعن فقد أمر الله تعالى بها وأوجَبها، ألا تَرى إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[4]، فهو إخبارٌ معناهُ الأمر، كقوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[5]، وقد لعن الله تعالى العاصين بقوله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ﴾[6]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[7]، وقوله: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾[8]، وقال الله تعالى لإبليس: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[9] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾[10].

فأما قولُ من يقول: «أيُّ ثواب في اللّعن! وإن الله تعالى لا يقول للمكلّف لِمَ لم تلعن؟ بل قد يقول له: لم لَعَنْت؟ وأنه لو جعل مكان لَعَن الله فلاناً، اللّهم اغفر لي لكان خيراً له، ولو أنّ إنساناً عاش عمره كلّه لم يَلعَن إبليس لم يُؤاخذ بذلك»، فكلامُ جاهلٍ لا يدري ما يقول، اللعن طاعة، ويُستحقّ عليها الثوابُ إذا فُعلتْ على وجهها، وهو أن يُلعَن مستحقُّ اللّعن لله وفي الله، لا في العصبيّة والهوى، ألا ترَى أن الشّرع قد وَرَد بها في نَفْي الولد، ونطق بها القرآن، وهو أن يقول الزوج في الخامسة: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[11] فلو لم يكن الله تعالى يريد أن يتلفّظ عبادهُ بهذه اللفظة وأنه قد تعبّدهم بها، لما جعلها من معالم الشّرع، ولما كَرّرها في كثير من كتابه العزيز، ولما قال في حقّ القاتل: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾[12]، وليس المراد

(1) سورة المائدة، الآية: ٨١.
(2) سورة الممتحنة، الآية: ١٣.
(3) سورة الأحزاب، الآية: ٦٧.
(4) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.
(5) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.
(6) سورة المائدة، الآية: ٧٨.
(7) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.
(8) سورة الأحزاب، الآية: ٦١.
(9) سورة صَ، الآية: ٧٨.
(10) سورة الأحزاب، الآية: ٦٤.
(11) سورة النور، الآية: ٧.
(12) سورة النساء، الآية: ٩٣.

من قوله: «ولعنه» إلّا الأمر لنا بأن نلعنه، ولو لم يكن المُرادُ بها ذلك لكان لنا أن نلعنه، لأنّ الله تعالى قد لعنه، أفيلعن الله تعالى إنساناً ولا يكون لنا أن نلعنه! هذا ما لا يَسُوغ في العقل، كما لا يجوز أن يمدح الله إنساناً إلّا ولنا أن نمدَحه، ولا يذمّه إلّا ولنا أن نذمَّه، وقال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾(١)، وقـال: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾(٢)، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾(٣). وكيف يقول القائل: إنّ الله تعالى لا يقول للمكلّف: لِمَ لم تلعن؟ ألا يعلَم هذا القائل أنّ الله تعالى أمر بولاية أوليائه، وأمر بعداوة أعدائه، فكما يَسأل عن التولّي يَسأل عن التبرّي! ألا تَرى أن اليهوديّ إذا أسلَم يُطالَب بأن يقال له: تلفَّظْ بكلمة الشهادتين، ثمّ قلْ: برئتُ من كلّ دين يُخالِف دين الإسلام، فلا بدّ من البَراءة، لأنّ بها يتمّ العمل! ألم يَسمع هذا القائل قول الشاعر:

تَــوَدُّ عَــدُوِّي ثــم تــزعُــمُ أنــنــي ... صــديقُــك، إنَّ الـرّأي عـنـكَ لـعـازِبُ

فمودّة العدوّ خروجٌ عن ولاية الوليّ، وإذا بطلت المودّة لم يبق إلّا البراءة، لأنه لا يجوز أن يكون الإنسانُ في درجة متوسطة مع أعداء الله تعالى وعُصاتِه بألاّ يودّهم ولا يبرأ منهم بإجماع المسلمين على نَفْي هذه الواسطة.

وأما قولُه: «لو جَعَل عِوضَ اللّعنة أستغفِر الله لكان خيراً له»، فإنه لو استغفر من غير أن يَلعَن أو يَعتقد وجوب اللّعن لما نَفَعه استغفارُه ولا قُبل منه، لأنه يكون عاصياً لله تعالى، مخالفاً أمره في إمساكه عمّن أوجَب الله تعالى عليه البراءة منه، وإظهار البراءة، والمصرّ على بعض المعاصي لا تُقبل توبته واستغفاره عن البعض الآخر، وأمّا من يعيش عمره ولا يَلعن إبليسَ، فإن كان لا يعتقد وجوبَ لَعْنِهِ فهوب كافر، وإن كان يعتقد وجوبَ لَعْنِه ولا يلعَنه فهو مخطىء، على أنّ الفرق بينه وبين تَرْك لَعنِه رؤوس الضلال في هذه الأمة كمعاوية والمغيرة وأمثالهما، أن أحداً من المسلمين لا يُورِث عنده الإمساك عن لعن إبليس شبهة في أمر إبليس، والإمساك عن لَعْن هؤلاء وأضرابهم يثير شبهة عند كثيرٍ من المسلمين في أمرهم، وتجنُّب ما يُورِث الشبهة في الدين واجب، فلهذا لم يكن الإمساك عن لَعْن إبليس نظيراً للإمساك عن أمر هؤلاء.

قال: ثمّ يقال للمخالفين: أرأيتم لو قال قائلٌ: قد غاب عنّا أمر يزيد بنَ معاوية والحجّاج بن يوسف، فليس ينبغي أن نخوض في قصّتهما، ولا أن نلعنهما ونعَادِيهما ونبرأ منهما، هل كان

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٠.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦٨.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

هذا إلّا كقولكم: قد غاب عنا أمرُ معاوية والمغيرة بن شُعبة وأضرابُهما، فليس لخوْضنا في قصّتهم معنًى!

وبعد، فكيف أدخلتُم أيها العامّة والحشويّة وأهل الحديث أنفسكم في أمر عثمان وخُضتم فيه، وقد غاب عنكم! وبرئتم مِن قَتلتِه، ولعنتموهم! وكيف لم تَحفَظوا أبا بكر الصّديق في محمد ابنِه فإنّكم لعنتموه وفسّقتموه، ولا حفِظتم عائشة أمّ المؤمنين في أخيها محمد المذكور، ومنعتمونا أن نخوض وندخل أنفسنا في أمر عليّ والحسن والحسين ومعاوية الظالم له ولهما، المتغلّب على حقّه وحقوقهما! وكيف صار لعنُ ظالم عثمان من السّنّة عندكم، ولعن ظالم عليّ والحسن والحسين تكلّفاً! وكيف أدخلت العامّة أنفسها في أمر عائشة وبَرِئتْ ممّن نظر إليها، ومِن القائل لها: يا حُمَيْراء، أو إنما هي حُمَيراء، ولعَنْته بكشفِه سترَها، ومنعتْنا نحن عن الحديث في أمر فاطمةَ وما جرى لها بعد وَفاةِ أبيها.

فإن قلتم: إنّ بيت فاطمة إنما دُخِل، وسترها إنما كُشِف، حِفْظاً لنظام الإسلام، وكَيْلا يَنتشر الأمرُ ويُخرِج قومٌ من المسلمين أعناقهم من رِبقة الطاعة ولزوم الجماعة.

قيل لكم: وكذلك ستر عائشة إنما كُشِف، وهَوْدجها إنما هُتِك، لأنها نشرتْ حبل الطاعة، وشقّت عصا المسلمين، وأراقت دماء المسلمين من قبل وصول عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى البَصرة، وجرى لها مع عثمان بن حُنيف وحَكيم بن جَبَلة ومَنْ كان معهما من المسلمين الصالحين من القَتل وسَفْك الدماء ما تَنطق به كُتُبُ التواريخ والسِّير، فإذا جاز دُخولُ بيت فاطمة لأمرٍ لم يقع بعدُ جاز كَشْف سِتر عائشة على ما قد وقع وتحقق، فكيف صار هَتْك ستر عائشة من الكبائر التي يجب معها التّخليد في النار، والبراءة من فاعله، ومِن أوْكَدِ عُرى الإيمان، وصار كَشْف بيت فاطمة والدّخول عليها منزلها وجَمْع حَطَب ببابها، وتهدّدها بالتّحريق من أوْكد عُرَى الدين، وأثبت دَعائم الإسلام، ومما أعَزّ الله به المسلمين وأطفأ به نار الفتْنة، والحُرْمتان واحدة، والسّتران واحد. وما نحبّ أن نقول لكم: إنّ حرمة فاطمة أعظم، ومكانها أرفع، وصيانَتَها لأجل رسول الله صلى الله عليه وآله أولى، فإنها بَضعةٌ منه، وجزءٌ من لحمه ودمِه، وليست كالزّوجة الأجنبيّة التي لا نَسَب بينها وبين الزّوج، وإنما هي وُصْلة مستعارةٌ، وعَقْد يجرِي مجرى إجارة المنفعة، وكما يملك رقّ الأمَة بالبَيْع والشراء، ولهذا قال الفَرَضيّون: أسباب التوارُث ثلاثة: سبب، ونسب، ووَلاء، فالنسب القرابة، والسبب النكَاح، والولاء: وَلاء العِتق، فجعلوا النّكَاح خارجاً عن النّسب، ولو كانت الزوجة ذات نسب لجعلوا الأقسام الثلاثة قسمين.

وكيف تكون عائشة أو غيرُها في منزلة فاطمة، وقد أجمع المسلمون كلّهم من يحبّها ومن لا يحبّها منهم أنها سيّدة نساء العالمين!

قال: وكيف يَلزمنا اليوم حفظ رسولِ الله صلى الله عليه وآله في زوجتِه، وحفظ أمّ حبيبة في أخيها، ولم

تُلزِم الصحابةُ أنفسها حِفظَ رسول الله ﷺ في أهلِ بيته، ولا ألزمت الصحابةُ أنفسها حفظَ رسول الله ﷺ صِهْرِه وابن عمّه ابن عفان، وقد قتلوهم ولعنوهم، ولقد كان كثيرٌ من الصحابة يَلعَن عثمان وهو خليفة، منهم عائشة كانت تقول: اقتلوا نَعْثَلاً، لعن الله نَعْثَلاً، ومنهم عبد اللّه بنُ مسعود، وقد لَعَن معاوية عليّ بن أبي طالب وابنَيه حَسَناً وحُسيناً وهم أحياءُ يرزقون بالعراق، وهو يلعنهم بالشام على المنابر، ويَقنُت عليهم في الصّلوات، وقد لعن أبو بكر وعمرُ سعدَ بن عُبادة وهو حيّ، وبرئا منه، وأخرجاه من المدينة إلى الشام، ولعن عمرُ خالد بنَ الوليد لما قَتَل مالك بن نُوَيرة، وما زال اللّعن فاشياً في المسلمين إذا عَرَفوا من الإنسان معصيةً تقتضي اللّعن والبراءة.

قال: ولو كان هذا أمراً معتبراً وهو أن يُحفَظ زيدٌ لأجل عمرو فلا يُلْعَن، لوجب أن تُحفَظ الصحابةُ في أولادهم، فلا يُلعنوا لأجل آبائهم، فكان يجب أن يُحفَظ سعدُ بنُ أبي وقّاص فلا يُلعن ابنُه عمر بن سعد قاتل الحسين، وأن يحفظ معاوية فلا يلعن يزيد صاحب وَقْعة الحرّة وقاتل الحسين، ومخيف المسجد الحرام بمكّة، وأن يُحفَظ عمر بن الخطّاب في عبيد اللّه ابنه قاتل الهُرْمُزان، والمحارب عليًّا عليه السلام في صِفّين.

قال: عَلَى أنّه لو كان الإمساك عن عداوةِ من عادى الله من أصحاب رسول الله ﷺ من حفظ رسول الله ﷺ في أصحابه ورعاية عهدِهِ وعقدِه لم نُعادِهم ولو ضُرِبتْ رِقابُنا بالسيوف، ولكن محبّة رسول الله ﷺ لأصحابه ليست كمحبّة الجهّال الذين يضع أحدُهم محبّته لصاحبه موضع العصبيّة، وإنما أوجَب الله على رسول الله ﷺ محبّة أصحابه لطاعتِهم لله، فإذا عصَوا الله وتَركوا ما أوجب محبّتَهم، فليس عند رسول الله ﷺ محاباة في تَركِ لزوم ما كان عليه من محبّتهم، ولا تغطرسٌ في العُدولِ عن التمسك بموالاتهم، فلقد كان ﷺ يحبّ أن يُعادِيَ أعداءَ الله ولو كانوا عِترتَه، كما يحبّ أن يواليَ أولياء الله ولو كانوا أبعدَ الخَلْقِ نَسَباً منه، والشاهد على ذلك إجماع الأمّة على أنّ الله تعالى قد أوجب عداوة من ارتدّ بعدَ الإسلام، وعداوة من نافق وإن كان من أصحاب رسول الله ﷺ، وأن رسول الله ﷺ هو الذي أمَرَ بذلك ودعا إليه وذلك أنه ﷺ قد أوجب قطع السارق وضرب القاذف، وجَلْد البِكْر إذا زَنَى، وإن كان من المهاجرين أو الأنصار، ألا تَرَى أنه قال: لو سَرَقَتْ فاطمةُ لقطعتُها، فهذه ابنته، الجاريةُ مَجْرَى نفسه، لم يُحابِها في دين الله، ولا رَاقَبها في حُدود الله، وقد جلد أصحاب الإفْك، ومنهم مِسطح بن أثاثة، وكان من أهلِ بَدْر.

قال: وبعد، فلو كان محلّ أصحاب رسول الله ﷺ محلّ من لا يعادَى إذا عَصَى الله سبحانه ولا يُذكر بالقبيح، بل يجب أن يُراقَب لأجل اسم الصُّحبة، ويغضَى عن عُيوبه وذُنوبه،

لكان كذلك صاحبُ موسى المسطور ثناؤه في القرآن لمّا اتّبع هواه، فانسلخ ممّا أوتي من الآيات وغوَى، قال سبحانه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[1]، ولكان ينبغي أن يكون محلّ عَبَدة العِجْل من أصحاب موسى هذا المحلّ، لأنّ هؤلاء كلّهم قد صحبوا رسولاً جليلاً من رُسُل الله سبحانه.

قال: ولو كانت الصّحابة عند أنفسِها بهذه المنزلة، لعلمتُ ذلك من حالِ أنفسِها، لأنّهم أعرَف بمحلّهم من عوامّ أهل دهرنا، وإذا قدّرتَ أفعالَ بعضِهم ببعض دلّتك على أنّ القِصّة كانت على خلاف ما قد سبق إلى قلوبِ النّاس اليوم، هذا عليّ وعمّار، وأبو الهَيْثم بن التَّيِّهان، وخزيمة بن ثابت، وجميعُ من كان مع عليّ عليه السلام من المهاجِرين والأنصار، لم يَرَوْا أن يتغافَلوا عن طَلْحة والزّبير حتّى فعلوا بهما وبمن مَعَهما ما يُفعَل بالشُّراة في عصرنا، وهذا طلحة والزّبير وعائشة ومَنْ كان معهم وفي جانبهم لم يَرَوا أن يُمسكوا عن عليّ، حتّى قَصَدوا له كما يُقصَد للمتغلّبين في زماننا، وهذا معاوية وعَمْرو لم يَرَيا عليًّا بالعين الّتي يَرَى بها العامّي صديقَه أو جارَه، ولم يُقصّرا دونَ ضَرْب وجهه بالسّيف ولعنهِ ولعنِ أولاده وكلّ من كان حيًّا من أهله، وقتلِ أصحابه، وقد لَعَنهما هو أيضاً في الصّلوات المفروضات، ولَعن معهما أبا الأعور السُّلَميّ، وأبا موسى الأشعريّ، وكلاهما من الصّحابة.

وهذا سعدُ بن أبي وَقّاص، ومحمّد بن مَسلَمة، وأسامة بن زيد، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل، وعبد الله بن عمر، وحسّان بن ثابت، وأنَس بن مالك، لم يَرَوا أن يقلّدوا عليًّا في حرب طلحةَ، ولا طلحةَ في حَرْب عليّ، وطلحة والزّبير بإجماع المسلمين أفضل من هؤلاء المعدُودين، لأنهم زعموا أنّهم قد خافوا أن يكون عليٌّ قد غَلَط وزَلّ في حَرْبهما، وخافوا أن يكونا قد غَلَطا وزَلاً في حرب عليّ، وهذا عثمانُ قد نَفَى أبا ذَرّ إلى الرّبذَة كما يُفعل بأهلِ الخَنا والرِّيَب، وهذا عمّار وابنُ مسعود تلقّيا عثمانَ بما تَلقّياه به لمّا ظهر لهما - بزَعْمهما - منه ما وَعَظاه لأجله، ثمّ فعل بهما عثمانُ ما تَناهَى إليكم، ثم فَعَل القومُ بعثمانَ ما قد علمتم وعَلِم النّاس كلّهم، وهذا عمر يقول في قصّة الزُّبير بن العوّام لمّا استأذنَه في الغَزْو: ها إنّي ممسِكٌ بباب هذا الشِّعب أن يتفرّق أصحابُ محمّد في النّاس فيضلّوهم، وزعم أنه وأبو بكر كانا يقولان: إنّ عليًّا والعبّاس في قصّة الميراث زَعَماهما كاذِبَيْن ظالمَيْن فاجرَيْن[2]، وما رأينا عليًّا والعبّاس اعتذَرا ولا تَنَصّلا، ولا نَقَل أحدٌ من أصحاب الحديث ذلك، ولا رأينا أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وآله أنكرُوا عليهما ما حكاه عمرُ عنهما، ونسبَه إليهما، ولا أنكروا أيضاً على عمر قوله في أصحاب

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٥.

(٢) كما في الصحيح الترمذي وغيره أنظره في رقم ٣٨٢١، وجامع البيان للطبري: ٢٨/ ٥٠.

رسولِ الله ﷺ: إنّهم يريدون إضلالَ النّاس ويَهِمون به، ولا أنكَروا على عثمانَ دَوْسَ بطن عمّار، ولا كَسْر ضِلَع ابنِ مسعود، ولا على عمّار وابن مسعود ما تلقّيا به عثمان، كإنكار العامّة اليومَ الخوض في حديث الصحابة، ولا اعتقدت الصحابة في أنفسها ما يعتقده العامّة فيها، اللهمّ إلا أن يَزْعموا أنّهم أعرَف بحقّ القوم منهم. وهذا عليٌّ وفاطمة والعبّاس ما زالوا على كلمةٍ واحدة يكذّبون الرواية: «نحن معاشرَ الأنبياءِ لا نُورَث»، ويقولون: إنّها مختَلَقة.

قالوا: وكيف كان النّبي ﷺ يُعرِّف هذا الحكم غيرَنا ويكتُمه عنّا ونحن الوَرَثة، ونحن أولَى الناسِ بأن يُؤدَّى هذا الحكم إليه، وهذا عمرُ بنُ الخطّاب يَشهَد لأهل الشّورى أنّهم النَّفَر الذين تُوفّي رسولُ الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، ثمّ يأمر بضَرْب أعناقهم إن أخّروا فصل حال الإمامة، هذا بعد أن ثَلَبهم، وقال في حقّهم ما لو سمِعَتْه العامّة اليومَ من قائل لوضعتْ ثوبَه في عنقِه سَحْبا إلى السلطان، ثمّ شهِدتْ عليه بالرَّفْض واستحلّت دمَه، فإن كان الطّعن على بعض الصّحابة رفضا فعُمر بن الخطّاب أرفَض الناس وإمام الرّوافض كلّهم. ثمّ ما شاع واشتَهر من قول عمَر: كان بَيعةُ أبي بكر فَلْتة، وَقَى الله شرّها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه، وهذا طعنٌ في العَقْد، وقَدْح في البَيْعة الأصليّة.

ثم ما نقل عنه مِن ذِكر أبي بكر في صَلاته، وقوله عن عبد الرحمن ابنه: دُوَيبّة سوء ولهوَ خيرٌ من أبيه. ثم عمر القائل في سعد بن عُبادة، وهو رئيس الأنصار وسيّدُها: اقتلوا سعداً، قَتَل الله سَعْداً، اقتُلوه فإنّه منافق. وقد شَتَم أبا هريرة وطَعَن في روايته، وشَتَم خالدَ بنَ الوليد وطَعَن في دِينه، وحَكَم بفِسْقه وبوُجوب قتله، وخَوّن عمرو بن العاص ومعاويةَ بن أبي سُفْيان ونسبهما إلى سرقةِ مال الفَيْء واقتطاعه، وكان سريعاً إلى المَساءة، كثيرَ الجبْه والشَّتْم والسَّبّ لكلّ أحد، وقلَّ أن يكون في الصّحابةِ من سَلِم من معرّة لسانه أو يدِه، ولذلك أبغَضوه وملُّوا أيّامه مع كثرة الفُتوح فيها، فهلاّ احترم عمرُ الصّحابة كما تحترمهم العامّة! إمّا أن يكونَ عمر مخطئاً، وإمّا أن تكون العامّة على الخطأ! فإن قالوا: عمرُ ما شتَمَ ولا ضَرَبَ، ولا أساء إلّا إلى عاصٍ مستحقٍّ لذلك، قيل لهم: فكأنّا نحن نقول: إنّا نريد أن نبرأ أو نعاديَ من لا يستحقّ البراءة والمعاداة! كلاّ ما قلنا هذا، ولا يقول هذا مسلم ولا عاقل.

وإنّما غرضنا الّذي إليه نجري بكلامنا هذا أن نوضّح أنّ الصّحابة قومٌ من الناس لهم ما لِلناس، وعليهم ما عليهم، مَن أساء منهم ذَمَمْناه، ومن أحسَنَ منهم حَمِدناه، وليس لهم على غيرِهم من المسلمين كبيرُ فَضْل إلّا بمشاهدة الرسول ومعاصرتِه لا غير، بل ربّما كانت ذنوبُهم أفحَش من ذنوب غيرهم، لأنهم شاهَدوا الأعلامَ والمعجِزات، فقرُبت اعتقاداتُهم من الضرورة، ونحن لم نشاهدْ ذلك، فكانت عقائدُنا مَحْض النّظر والفكر، وبعرضيَّة الشُّبَه والشّكوك، فمعاصِينا أخفّ لأنّا أعذَر.

ثم نعود إلى ما كنّا فيه فنقول: وهذه عائشة أمّ المؤمنين، خرجت بقميص رسول الله ﷺ فقالت للناس: هذا قَميصُ رسول الله لم يَبْلَ، وعثمانُ قد أبلَى سنّته، ثم تقول: اقتُلوا نَعْثَلا، قَتَل الله نَعْثَلا، ثم لم ترض بذلك حتّى قالت: أشهد أنّ عثمانَ جيفةٌ على الصّراط غداً. فمن الناس من يقول: روَتْ في ذلك خبراً، ومن النَّاس من يقول: هو موقوفٌ عليها، وبدون هذا لو قاله إنسان اليوم يكون عند العامّة زنْدِيقاً. ثمّ قد حصر عثمان، حصرتْه أعيانُ الصحابة، فما كان أحدٌ يُنْكِر ذلك، ولا يُعظِمه ولا يَسعَى في إزالته، وإنما أنكَروا على من أنكر على المحاصِرين له، وهو رجلٌ كما علمتم من وجوهِ أصحاب رسولِ الله ﷺ، ثمّ من أشرافهم، ثم هو أقرب إليه من أبي بكر وعمر، وهو مع ذلك إمامُ المسلمين، والمختارُ منهم للخلافة، وللإمام حقّ على رعيّته عظيم، فإنِ كان القومُ قد أصابوا فإذَنْ ليست الصحابةُ في الموضع الّذي وضعتْها به العامّة، وإن كانوا ما أصابوا فهذا هو الّذي نقول، من أنّ الخطأ جائزٌ على آحاد الصّحابة، كما يجوز على آحادِنا اليومَ. ولَسْنا نَقدَح في الإجماع، ولا ندّعي إجماعاً حقيقيًا على قَتْل عثمان، وإنما نقول: إنّ كثيراً من المسلمين فَعَلوا ذلك والخَصْم يسلّم أنّ ذلك كان خطأ ومعصيةً، فقد سَلَّم أنّ الصحابيّ يجوز أن يُخطىءَ ويَعصِي، وهو المطلوب.

وهذا المُغيرة بن شُعْبة وهو من الصحابة، ادُّعِي عليه الزنى، وشهد عليه قومٌ بذلك، فلم يُنكر ذلك عمر، ولا قال: هذا محال وباطل لأنّ هذا صحابيّ من صحابة رسول الله ﷺ لا يجوز عليه الزنى. وهلاّ أنكر عمرُ على الشهود وقال لهم: ويَحكم هلاّ تغافلتم عنه لمّا رأيتموه يَفعَل ذلك، فإنّ الله تعالى قد أوجَب الإمساكَ عنْ مساوىء أصحاب رسول الله ﷺ، وأوْجَب السترَ عليهم! وهلا تركتموه لرسول الله ﷺ في قوله: «دَعُوا لي أصحابي»[1]! ما رأينا عمر إلّا قد انتصَب لسماعِ الدّعوى، وإقامة الشّهادة، وأقبَل يقول للمغيرة: يا مغيرة، ذهب رُبُعك، يا مغيرة، ذَهَب نصفُك، يا مغيرة، ذَهَب ثلاثة أرباعك، حتى اضطرب الرابع، فجُلِد الثلاثة. وهلاّ قال المغيرة لعمَر: كيف تسمع فيّ قول هؤلاء، ولَيْسوا من الصّحابة، وأنا من الصحابة، ورسول الله ﷺ قد قال: «أصحابي كالنّجوم، بأيّهم اقتَديتم اهتديتم»[2]! ما رأيناه قال ذلك، بل استسلَم لحُكم الله تعالى. وهاهنا مَن هو أمثَل من المغيرة وأفضَل، قدامة بن مَظْعون، لمّا شَرب الخمر في أيّام عُمَر، فأقام عليه الحدّ، وهو رجلٌ من عِلْية الصحابة ومِن أهل بَدْر، والمشهود لهم بالجنّة، فلم يردَّ عمرُ الشهادة، ولا دَرَأ عنه الحدَّ لعلّةِ أنه بَدْرِيّ، ولا قال: قد نَهى رسولُ الله ﷺ عن ذِكر مساوِىء الصّحابة. وقد ضرب عمرُ أيضاً ابْنَه حدًّا فمات، وكان ممّن عاصَر رسولَ الله ﷺ ولم تَمْنَعه معاصَرَته له من إقامة الحدّ عليه.

وهذا عليٌّ عليه السلام يقول: ما حدّثني أحدٌ بحديثٍ عن رسول الله ﷺ إلّا استحلَفْتُه عليه،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

أليس هذا اتّهاماً لهم بالكَذب! وما استثنى أحداً من المسلمين إلا أبا بكر على ما وَرَد في الخبر، وقد صرّح غيرَ مرّة بتكذيب أبي هريرة، وقال: لا أحد أكذَب من هذا الدَّوْسي على رسول الله ﷺ. وقال أبو بكر في مرضِه الّذي مات فيه: وَدِدْتُ أنّي لم أكشِفْ بيتَ فاطمة ولو كان أغلِق على حرب، فندم والنّدم لا يكون إلّا عن ذَنْب.

ثم ينبغي للعاقل أن يفكّر في تأخر عليٍّ عليه السلام عن بَيْعة أبي بكر بستة أشهر إلى أن ماتت فاطمةُ، فإن كان مصيباً فأبو بكر على الخطأ في انتصابه في الخلافة، وإن كان أبو بكر مصيباً فعليّ على الخطأ في تأخره عن البَيْعة وحضور المسجد، ثم قال أبو بكر في مرض موته أيضاً للصّحابة: فلمّا استخلفتُ عليكم خيرَكم في نفسي - يعني عُمَر - فكلُّكم وَرِمَ لذلك أنفُه يريد أن يكون الأمر له، لمّا رأيتم الدنيا قد جاءت، أما والله لتَتخذُنّ ستائرَ الدِّيباج ونَضائد الحرير. أليس هذا طَعْناً في الصحابة، وتصريحاً بأنه قد نسبَهم إلى الحسد لعمَر، لما نصّ عليه بالعهد! ولقد قال له طلحة لمّا ذكر عمر للأمر: ماذا تقول لربّك إذا سألك عن عباده، وقد ولَّيتَ عليهم فظًّا غليظاً! فقال أبو بكر: أجلسوني أجلسوني، بالله تخوّفني! إذا سألني قلتُ: ولّيت عليهم خيرَ أهلك، ثم شتمه بكلام كثير منقول، فهل قول طلحة إلا طعنٌ في عمرَ، وهل قول أبي بكر إلّا طعنٌ في طلحة!

ثم الذي كان بين أُبيّ بن كعب وعبدِ اللّه بن مسعود من السِّباب حتى نفى كلّ واحد منهما الآخر عن أبيه وكلمةُ أُبيّ بن كعب مشهورة منقولة: ما زالت هذه الأمّة مكبوبةً على وجهها منذ فقدوا نبيَّهم، وقوله: ألا هلك أهلُ العقيدة، والله ما آسَى عَليهم إنما آسَى على من يضلّون من الناس[1].

ثم قولُ عبد الرحمن بن عوف: ما كنت أرى أن أعيش حتى يقول لي عثمان: يا منافق، وقوله: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما ولَّيت عثمان شِسْع نعلي، وقوله: اللهم إن عثمان قد أبَى أن يقيم كتابك فافعلْ به وافعل[2].

وقال عثمانُ لعليّ عليه السلام في كلامٍ دارَ بينهما: أبو بكر وعمرُ خيرٌ منك، فقال عليّ: كذبت، أنا خيرٌ منك ومنهما، عبدتُ الله قبلهما، وعبَدْته بعدَهما[3].

وروى سُفيانُ بن عُيَينة عن عمرو بن دينار، قال: كنت عند عروةَ بن الزبير، فتذاكَرْنا كم أقام النبيُّ بمكّة بعد الوَحْي؟ فقال عروة: أقام عشراً، فقلت: كان ابنُ عبّاس يقول: ثلاث عشرة،

---

(١) أنظر مواقف الشيعة: ٢/ ٢٦٨.

(٢) أنظر كتاب الأربعين للشيرازي: ٣٢٧.

(٣) المصدر السابق: ٣٢٨.

فقال: كذب ابنُ عباس. وقال ابنُ عباس: المُتْعة حَلال، فقال له جُبَير بنُ مُطعِم: كان عمرُ ينهى عنها، فقال يا عُديّ نفسه، منْ هاهنا ضللتم، أحدِّثكم عن رسول الله ﷺ، وتحدّثني عن عمر!

وجاء في الخبر عن عليٍّ عليه السلام، لولا ما فَعَل عمرُ بنُ الخطّاب في المُتْعة ما زَنَى إلا شقيّ، وقيل: ما زَنَى إلا شفًا، أي قليلاً[1].

فأمّا سبّ بعضهم بعضاً وقَدْح بعضهم في بعض في المسائل الفقهيّة فأكثرُ مِن أن يُحصَى، مِثلُ قول ابن عباس وهو يردّ على زيد مذهبه القوْل في الفرائض: إن شاء - أو قال: من شاء - باهَلْته إن الذي أحصى رَمْل عالج عَدَداً أعدَل من أن يَجْعل في مال نِصْفاً ونصفاً وثلثاً، هذان النِّصفان قد ذَهبا بالمال، فأين موضعُ الثلث!

ومِثل قول أبيّ بن كعب في القرآن: لقد قرأتُ القرآن وزَيْدٌ هذا غلام ذو ذُؤابتين يلعب بين صبيان اليهود في المكتب[2].

وقال عليٌّ عليه السلام في أمّهات الأولاد وهو على المِنبر: كان رأيي ورأى عمرَ ألّا يُبَعنَ، وأنا أرى الآن بَيعهنّ، فقام إليه عبيدة السّلمانيّ، فقال: رأيُك في الجماعة أحبُّ إلينا من رأيك في الفُرْقة.

وكان أبو بكر يرى التّسوية في قَسْم الغنائم، وخالفه عمر وأنكر فعله.

وأنكرتْ عائشة على أبي سلمة بن عبد الرحمن خلافه على ابن عباس في عدّة المتوفّى عنها زوجُها وهي حامل، وقالت: فَرّوج يصقع مع الدِّيَكة[3].

وأنكرت الصحابة على ابن عباس قوله في الصّرف، وسفّهوا رأيه حتى قيل: إنه تابَ من ذلك عند موته.

واختلفوا في حدّ شارب الخمر حتى خطّأ بعضهم بعضاً.

ورَوَى بعض الصّحابة عن النبيّ ﷺ أنه قال: «الشوم في ثلاثة: المرأة والدّار، والفَرَس»[4]، فأنكرتْ عائشة ذلك، وكذّبت الراوي وقالت: إنه إنما قال ﷺ ذلك حكايةً عن غيره.

---

(١) كنز العمال: ١٦/ ٥٢٢ ح ٤٥٧٢٨.

(٢) كتاب الأربعين للشيرازي: ٣٢٨.

(٣) المستصفى للغزالي: ١٤٦.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: ما يذكر من شأم الفرس (٢٨٥٨)، ومسلم كتاب: السلام، باب: الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم (٢٢٢٥).

وروى بعض الصّحابة عنه ﷺ أنه قال: «التاجرُ فاجرٌ»[١]، فأنكرتْ عائشةُ ذلك، وكذّبت الراوي وقالت: إنما قاله ﷺ في تاجر دلّس[٢].

وأنكَر قومٌ من الأنصار روايةَ أبي بَكر: «الأئمّة من قريش»[٣]، ونَسَبوه إلى افتعال هذه الكلمة.

وكان أبو بكر يقضِي بالقضاء فينقضه عليه أصاغِرُ الصّحابة كبِلال وصُهَيب ونحوهما. قد رُوِيَ ذلك في عدّة قضايا.

وقيل لابن عبّاس: إنّ عبدَ اللّه بن الزبير يَزعم أنّ موسى صاحبَ الخَضِر ليس مُوسَى بني إسرائيل، فقال: كذَب عدوُّ الله! أخبرَني أبيّ بنُ كعب، قال: خَطَبَنا رسولُ الله ﷺ وذَكَر كذا، بكلام يدلّ على أنّ موسى صاحبَ الخَضِر هو موسى بني إسرائيل[٤].

وباع معاويةُ أوانيَ ذَهَب وفِضّة بأكثرَ من وزنها، فقال له أبو الدّرداء: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يَنهَى عن ذلك، فقال معاوية: أمّا أنا فلا أرَى به بأساً، فقال أبو الدّرداء: مَن عَذِيري من معاوية! أخبِره عن الرّسول ﷺ، وهو يُخبِرني عن رأيِه! والله لا أساكنُك بأرضٍ أبداً.

وطَعن ابنُ عبّاس في أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: «إذا استيقظ أحدُكم من نَوْمه فلا يُدخِلنّ يدَه في الإناء حتّى يتوضّأ»[٥]، وقال: فما نَصْنَع بالمِهْراس!

وقال عليّ عليه السلام لعُمَر وقد أفتاه الصحابة في مسألة وأجمَعوا عليها: إن كانوا راقَبوك فقد غَشُّوك، وإن كان هذا جهدُ رأيهم فقد أخطؤوا.

وقال ابن عبّاس: ألا يتّقي الله زيدُ بنُ ثابت، يجعل ابن الابن ابناً، ولا يجعل أب الأب أباً!

وقالت عائشة: أخبروا زيدَ بنَ أرقَم أنه قد أحبَط جهادَه مع رسول الله ﷺ.

وأنكرَت الصحابة على أبي موسى قوله: إنّ النوم لا يَنقُض الوضوء، ونسبتْه إلى الغَفْلة وقلّة التحصيل، وكذلك أنكرت على أبي طلحة الأنصاريّ قوله: إن أكْلَ البَرَد لا يُفطّر الصائم، وهَزِئتْ به ونَسبته إلى الجهل.

---

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٢٤٤٨).

(٢) ذكره الحافظ المناوي في «فيض القدير» (٦/ ٢١٦).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١٨٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (٦٩٦٢).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى (٣٤٠١)، ومسلم، كتاب: الفضائل، باب: فضائل الخضر (٢٣٨٠)، لكن فيهما ليس عبد الله بن الزبير وإنما هو رجل يدعى على نوف البكالي ولم أجده من إنكار عبد الله بن الزبير.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب الاستجمار وتراً (١٦٢)، ومسلم كتاب الطهارة، باب الإيتار في الاستنثار والاستجمار (٢٣٨).

وسمع عمرُ عبدَ الله بنَ مسعود وأبيّ بن كعب يختلفان في صلاة الرجل في الثّوب الواحد، فصَعِد المنبر وقال: إذا اختلف اثنان من أصحاب رسول الله ﷺ فعَن أيّ فُتْياكم يصدر المسلمون! لا أسمَع رجلين يختلفان بعد مُقامي هذا إلّا فعلتُ وصَنعتُ.

وقال جرير بنُ كُلَيب: رأيتُ عمَر ينهى عن المُتعة، وعليّ عليه السلام يَأمرُ بها، فقلت: إنّ بينكما لشرًا، فقال عليّ عليه السلام: ليس بيننا إلّا الخير، ولكن خيرُنا أتبَعُنا لهذا الدِّين.

قال هذا المتكلّم: وكيف يصحُّ أن يقول رسولُ الله ﷺ: «أصحابي كالنّجوم بأيّهم اقتدَيتم اهتدَيتم»[1]، لا شبهةَ أنّ هذا يُوجب أن يكون أهلُ الشام في صفّين على هُدَى، وأن يكون أهلُ العراق أيضاً على هُدَى، وأن يكون قاتل عمّار بن ياسر مهتدياً، وقد صحّ الخبرُ الصحيحُ أنه قال له: «تقتُلك الفئة الباغية»[2]، وقال في القرآن: ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[3]، فدلّ على أنّها ما دامت موصوفة بالمقام على البَغْي، مُفارِقة لأمر الله، ومَن يفارق أمر الله لا يكون مهتدياً.

وكان يجب أن يكون بُسرُ بن أبي أرطاة الّذي ذَبح ولَديْ عُبيد اللّه بن عبّاس الصغيرين مُهتدياً، لأنّ بُسْراً من الصحابة أيضاً، وكان يجب أن يكون عَمرو بنُ العاص ومعاوية اللّذان كانَا يلعَنان عليًا أدبارَ الصلاة وولديه مهتديين، وقد كان في الصحابة من يزني ومن يشرب الخمرَ كأبي مِحْجَن الثّقفي، ومن يرتدّ عن الإسلام كطليحة بن خُوَيلد، فيجب أن يكون كلّ مَن اقتدى بهؤلاء في أفعالهم مُهدياً.

قال: وإنّما هذا من موضوعاتِ متعصّبةِ الأمويّة، فإن لهم مَن يَنصرهم بلسانه، وبوَضْعِه الأحاديث إذا عَجز عن نصرهم بالسيف.

وكذا القولُ في الحديث الآخر: وهو قوله: «القرْن الذي أنا فيه»[4]، وممّا يدلّ على بطلانِه أنّ القرْن الذي جاء بعده بخمسين سنةً شرُّ قرون الدُّنيا، وهو أحد القُرُون الّتي ذَكَرها في النّص، وكان ذلك القَرْن هو القَرْن الّذي قُتِل فيه الحُسين، وأُوقع بالمدينة، وحُوصرتْ مَكّة، ونُقِضت الكَعْبة، وشَرِبت خلفاؤه والقائمُون مَقَامه والمنتصِبون في مَنصِب النّبوّة الخمُور، وارتَكَبوا الفُجور، كما جرى ليزيدَ بن معاوية وليزيد بن عاتكة وللوَليد بن يزيد، وأُرِيقت الدِّماء الحرام،

---

(1) تقدم تخريجه.
(2) أخرجه البخاري، كتاب: الصلاة، باب: التعاون في بناء المسجد (٤٤٧)، ومسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩١٦).
(3) سورة الحجرات، الآية: ٩.
(4) تقدم تخريجه.

وقُتِل المسلمون، وسُبيَ الحريم، واستُعبد أبناء المهاجرين والأنصار، ونُقِش على أيديهم كما يُنقَش على أيدي الرُّوم، وذلك في خلافةِ عبدِ الملك وإمرةِ الحجّاج. وإذا تأمّلتَ كتبَ التواريخ وجدت الخمسين الثانيةَ شرًّا كلّها لا خيرَ فيها، ولا في رؤسائها وأمرائها، والناسُ برؤسائهم وأمرائهم، والقرن خَمْسون سنةً، فكيف يصحّ هذا الخبر.

قال: فأمّا ما ورد في القرآن من قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾[2].

وقول النبيّ ﷺ: «إنَّ الله اطّلع على أهلِ بَدْرٍ»[3]، إن كان الخبرُ صحيحاً فكلّه مشروط بسلامةِ العاقبة، ولا يجوز أن يخبر الحكيم مكلّفاً غير معصوم بأنّه لا عقاب عليه، فليفعل ما شاء.

قال هذا المتكلّم: ومَن أنصَف وتأمّل أحوالَ الصّحابة وجَدَهم مِثلنا، يجوز عليهم ما يجوز علينا، ولا فرق بيننا وبينهم إلّا بالصّحبة لا غير، فإنّ لها منزلةً وشَرَفاً، ولكن لا إلى حدٍّ يمتنع على كلّ من رأى الرسولَ أو صحبَه يوماً أو شهراً أو أكثرَ من ذلك أن يخطىء ويَزِلّ، ولو كان هذا صحيحاً ما احتاجت عائشةُ إلى نزول براءتها من السّماء، بل كان رسولُ الله ﷺ من أوّل يومٍ يعلم كَذِب أهل الإفك، لأنّها زوجتُه، وصُحبتُها له آكَدُ من صُحبة غيرِها. وصَفْوان بن المعطّل أيضاً كان من الصّحابة، فكان ينبغي ألّا يَضيق صدرُ رسولِ الله ﷺ، ولا يَحمِل ذلك الهمّ والغمّ الشديدَين اللّذَين حمَلهما ويقول: صَفْوان من الصّحابة، وعائشة من الصّحابة، والمعصيةُ عليهما ممتنعة.

وأمثالُ هذا كثير، وأكثر من الكثير، لمن أراد أن يَستقرىءَ أحوالَ القوم، وقد كان التابعونَ يَسلُكون بالصحابة هذا المسْلَك، ويقولون في العُصاة منهم مِثلَ هذا القول، وإنما اتخذهم العامّة أرباباً بعد ذلك.

قال: ومَن الّذي يجترىء على القول بأنّ أصحابَ محمّد لا تجوز البراءةُ من أحدٍ منهم وإن أساء وَعصى بعدَ قول الله تعالى للذي شرّفوا برؤيته: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[4]، بعد قوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[5] وبعد قوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾[6]، إلا من لا فهمَ له ولا نظرَ معه، ولا تمييزَ عنده.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٨.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٥.
(٥) سورة الزمر، الآية: ١٣.
(٦) سورة صّ، الآية: ٢٦.

قال: ومَنْ أحَبّ أن ينظر إلى اختلاف الصحابة، وطعن بعضهم في بعض وردّ بعضهم على بعض، وما ردّ به التابعون عليهم واعترضوا به أقوالهم، واختلاف التابعين أيضاً فيما بينهم، وقدح بعضهم في بعض فلينظرْ في كتاب النَّظّام، قال الجاحظ: كان النَظّام أشدَّ الناس إنكاراً على الرافضة، لطعنهم على الصحابة، حتى إذا ذَكَر الفُتْيا وتنقُّل الصحابةِ فيها، وقضاياهم بالأمور المختلفة، وقول من استعمل الرأي في دين الله، انتظم مطاعن الرافضة وغيرها، وزاد عليها، وقال في الصحابة أضعاف قولها.

قال: وقال بعض رؤساء المعتزلة: غَلَطُ أبي حنيفة في الأحكام عظيم، لأنه أضل خَلْقاً وغلطُ حمّاد أعظمُ من غَلط أبي حنيفة، لأنّ حماداً أصلُ أبي حنيفة الذي منه تفرّع، وغَلط إبراهيم أغلظ وأعظَم من غَلط حمّاد، لأنه أصلُ حماد وغلَط علقمة والأسود أعظم من غلط إبراهيم، لأنهما أصله الذي عليه اعتمد، وغلط ابن مسعود أعظمُ مِن غلط هؤلاء جميعاً، لأنه أول من بَدَر إلى وَضْع الأديان برأيه، وهو الذي قال: أقول فيها برأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمنّي.

قال: واستأذن أصحابُ الحديث على ثمامة بخُراسان حيث كان مع الرَّشيدِ بنِ المهديّ، فسألوه كتابه الذي صنفه على أبي حنيفة في اجتهادِ الرأي، فقال: لستُ على أبي حنيفة كتبتُ ذلك الكتاب، وإنما كتبته على علقمة والأسود وعبد الله بن مسعود لأنهم الذين قالوا بالرأي قبل أبي حنيفة.

قال: وكان بعض المعتزلة أيضاً إذا ذكر ابن عباس استصغره وقال: صاحبُ الذؤابة يقول في دين الله برأيه.

وذكر الجاحظ في كتابه المعروف «بكتاب التوحيد» أنّ أبا هريرة ليس بثقة في الرواية عن رسول الله ﷺ، قال: ولم يكن عليٌّ عليه السلام يوثّقه في الرّواية، بل يتهمه، ويقدح فيه، وكذلك عمر وعائشة.

وكان الجاحظ يفسِّق عمرَ بن عبد العزيز ويستهزىء به ويكفِّره، وعمر بن العزيز وإن لم يكن من الصحابة فأكثرُ العامة يَرَى له من الفَضْل ما يراه لواحدٍ من الصّحابة.

وكيف يجوز أن نحكم حُكْماً جَزْماً أنّ كل واحد من الصحابة عَدْل، ومن جملة الصحابة الحكم بنُ أبي العاص! وكفاك به عدوًّا مُبغضاً لرسول الله ﷺ! ومن الصحابة الوليدُ بنُ عُقبة الفاسقُ بنصّ الكتاب، ومنهم حبيب بن مسلَمة الذي فَعَل ما فعل بالمسلمين في دَوْلة معاوية، وبُسْر بن أبي أرطاة عدوّ الله وعدوّ رسوله، وفي الصحابة كثيرٌ من المنافقين لا يَعرِفهم الناس. وقال كثيرٌ من المسلمين: مات رسول الله ﷺ ولم يُعرِّفه الله سبحانه كلَّ المنافقين بأعيانهم، وإنما كان يعرف قوماً منهم، ولم يُعلم بهم أحداً إلا حذيفة فيما زعموا، فكيف يجوز أن نحكم

حكماً جَزْماً أن كلّ واحد ممّن صَحِب رسول الله أو رآه أو عاصَرَه عَدْل مأمون، لا يقع منه خطأ ولا معصية، ومن الذي يمكنه أن يتحجّر واسعاً كهذا التحجّر، أو يحكم هذا الحكم!

قال: والعجب من الحشويّة وأصحاب الحديث إذ يجادلون على معاصي الأنبياء، ويثبتون أنهم عصَوا الله تعالى، وينكرون على من ينكر ذلك، ويطعنون فيه، ويقولون: قَدَريّ معتزلي، وربما قالوا: مُلحِد مخالِف لنص الكتاب، وقد رأينا منهم الواحد والمائة والألف يُجادِل في هذا الباب، فتارة يقولون: إنّ يوسف قعد من امرأة العزيز مَقْعد الرّجل من المرأة، وتارةً يقولون: إن داود قتل أوريا لينكح امرأته، وتارةً يقولون: إن رسول الله كان كافراً ضالاً قبل النّبوة، وربما ذكروا زينب بنت جَحش وقصّة الفِداء يوم بدر.

فأما قَدحُهم في آدم عليه السلام، وإثباتُهم معصيته ومناظرتهم مَن يذكر ذلك فهو دأبُهم ودَيْدَنُهم، فإذا تكلّم واحد في عمرو بن العاص أو في معاوية وأمثالِهما ونَسَبهم إلى المعصية وفِعْل القبيح، احمرّت وجوهُهم، وطالت أعناقُهم، وتخازَرتْ أعينُهم، وقالوا: مبتدِع رافضيّ، يسبّ الصّحابة، ويَشتمُ السّلَف، فإن قالوا: إنّما اتّبعْنا في ذِكر معاصي الأنبياء نصوصَ الكتاب، قيل لهم: فاتّبعوا في البراءة من جميع العُصاة نصوصَ الكتاب، فإنه تعالى قال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[1]، وقال: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾[2]، وقال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[3].

ثمّ يسألون عن بيعة عليّ عليه السلام: هل هيَ صحيحة لازمة لكلّ الناس؟ فلا بدّ مِن «بلَى»، فيقال لهم: فإذا خَرَج على الإمام الحقّ خارجٌ أليسَ يَجب على المسلمين قتالُه حتّى يعودَ إلى الطاعة؟ فهل يكون هذا القتال إلّا البراءة الّتي نَذكُرها لأنه لا فرق بين الأمرين، وإنّما برئْنا منهم لأنّا لسنا في زَمانهم، فيُمكننا أن نقاتلَ بأيدينا، فقُصارَى أمرِنا الآن أن نبرأ منهم ونَلعنَهم، وليكون ذلك عوضاً عن القتال الّذي لا سبيلَ لنا إليه.

قال هذا المتكلّم: على أنّ النّظّام وأصحابَه ذَهَبوا إلى أنّه لا حُجّة في الإجماع، وأنّه يجوز أن تجتمع الأمّة على الخطأ والمعصية، وعلى الفِسْق بل على الرِّدّة، وله كتابٌ موضوع في الإجماع يَطعَن فيه في أدلّة الفقهاء، ويقول: إنّها ألفاظ غيرُ صريحة في كون الإجماع حجّة، نحو قوله: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[4] وقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾[5] وقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[6].

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ٩.
(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(٦) سورة النساء، الآية: ١١٥.

وأما الخبر الذي صورته: «لا تجتمع أمّتي على الخطأ»[1]، فخبرُ واحد، وأمثَلُ دليل للفقهاء قولهم: إنّ الهمم المختلفة، والآراء المتباينة، إذا كان أربابُها كثيرة عظيمة، فإنّه يستحيل اجتماعُهم على الخطأ، وهذا باطل باليهودِ والنّصارى وغيرِهم من فِرَق الضلال.

هذه خلاصةُ ما كان النّقيب أبو جعفر، عَلّقه بخَطّه من الجزء الّذي أقرأناه.

ونحن نقول: أمّا إجماع المسلمين فحجّة، ولسنا نرتضي ما ذَكَره عنّا من أنّه أمثَل دليل لنا أنّ الهِمَم المختلفة، والآراء المتباينة، يستحيل أن تَتّفق على غير الصّواب، ومن نَظَر في كُتُبنا الأصوليّة علم وثاقَة أدلّتنا على صحّة الإجماع وكونه صواباً، وحجّة تحريم مخالفته، وقد تكلّمتُ في اعتبار الذّريعة للمُرتَضى على ما طَعَن به المُرتضَى في أدلّة الإجماع.

وأما ما ذَكَره من الهجوم على دارِ فاطمَة وجَمع الحَطَب لتحريقها فهو خبرُ واحدٍ غير موثوق به، ولا معوّل عليه في حقّ الصّحابة، بل ولا في حقّ أحد من المسلمين ممن ظهرت عدالتُه.

وأما عائشة والزبير وطلحة فمذهبُنا أنّهم أخطؤوا ثم تابوا وأنهم من أهل الجنّة، وأن علياً عليه السلام شهدَ لهم بالجنة بعد حَرْب الجَمَل.

وأما طعن الصحابة بعضهم في بعض، فإن الخلاف الذي كان بينهم في مسائل الاجتهاد لا يوجب إثماً، لأن كل مجتهد مُصيب، وهذا أمرٌ مذكور في كُتُب أصول الفِقْه وما كان من الخلاف خَارجاً عن ذلك فالكثيرُ من الأخبار الواردة فيه غيرُ موثوقٍ بها وما جاء من جهة صحيحةٍ نظر فيه ورجح جانب أحد الصحابيّين على قَدْر منزلته في الإسلام كما يُروَى عن عُمَر وأبي هريرة.

فأمّا عليّ عليه السلام فإنّه عندنا بمنزلة الرّسول صلى الله عليه وآله في تصويب قوله، والاحتجاج بِفعله، ووجوب طاعته، ومتى صحّ عنه أنّه قد برىء من أحد من النّاس برئْنا منه كائناً مَن كان، ولكنّ الشأن في تصحيح ما يُروَى عنه عليه السلام، فقد أكثر الكذب عليه، وولّدت العصبيّة أحاديثَ لا أصل لها.

فأمّا براءته عليه السلام من المغيرة وعَمرو بن العاص ومعاوية، فهو عندنا معلوم جارٍ مَجرَى الأخبار المتواتِرة، فلذلك لا يتولاّهم أصحابُنا، ولا يُثْنُون عليهم، وهم عند المعتزِلة في مَقامٍ غيرِ محمود، وحاشَ لله أن يكون عليه السلام ذَكَرَ مَن سَلَف من شيوخ المهاجرين إلّا بالجميل والذِّكر

(1) أخرجه الترمذي، كتاب: الفتن، باب: ما جاء في لزوم الجماعة (٢١٦٧)، وأحمد في «مسنده» (٢٦٦٨٢)، بلفظ: «ضلالة» بدل «الخطأ».

الحَسَن بمُوجب ما تقتضيه رِئاسته في الدِّين، وإخلاصُه في طاعةِ ربِّ العالمين، ومَنْ أحبَّ تتبُّع ما رُوِي عنه ممّا يُوهم في الظّاهر خلافَ ذلك فلْيراجع هذا الكتاب، أعني شَرْح نهج البلاغة، فإنا لم نَتْرك موضعاً يُوهم خلافَ مذهبنا إلّا وأوضحْناه وفسّرناه على وجهٍ يُوافِق الحقّ، وبالله التوفيق.

اخبار عمار بن ياسر ونسبه

فأما عمّار بنُ ياسر رحمه الله، فنحنُ نذكر نسَبه وطَرَفاً من حالِه ممّا ذَكَرَه ابنُ عبد البرّ في كتاب الاستيعاب، قال أبو عمر بنُ عبدِ البرّ رحمه الله.

هو عمّار بنُ ياسر بنِ عامرِ بنِ مالك بن كنانةَ بن قيس بن حصين بن لَوذ بن ثَعلبة بن عَوف بن حارثةَ بن عامر بن نام بن عنس - بالنون - بنِ مالك بن أُدد العَنْسي المَذْحِجيّ، يكنَى أبا اليَقْظان، حليفٌ لبني مخزوم، كذا قال ابن شهاب وغيره

وقال موسى بن عقبة: وممّن شهد بدْراً عمّار بن ياسر حليفٌ لبني مخزوم بنِ يقَظَة.

وقال الواقديّ وطائفةٌ من أهل العلم: إنّ ياسراً والد عمّار بن ياسر عربيّ قَحْطانيّ من عَنْس، من مَذْحِج، إلّا أن ابنه عمّاراً مولىً لبني مخزوم، لأنّ أباه ياسراً تزوّج أمَةً لبعضِ بني مخزوم فأولَدَها عمّاراً، وذلك أنّ ياسراً قَدِم مكّة مع أخوَين له يقال لهما: الحارث ومالك في طَلَب أخٍ لهم رابع، فرجع الحارث ومالكٌ إلى اليَمَن، وأقامَ ياسرٌ بمكّة، فحالَفَ أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمر بن مخزوم، فزوّجه أبو حذيفة أمةً له يقال لها سُمَيّة بنت خياط، فولدتْ له عمّاراً فأعتقَه أبو حذيفة، فصار ولاؤُه لبني مخزوم، وللحِلْف والوَلاء الّذي بين بني مَخْزوم وعمّار بن ياسر كان اجتماع بني مخزوم إلى عثمان حين نال من عمّار غِلمانُ عثمانَ ما نالوا من الضَرب، حتّى انفَتَق له فَتْق في بَطْنه وكَسَروا ضِلَعاً من أضلاعه، فاجتمعتْ بنو مخزوم، وقالوا: والله لئن مات لا قَتلنا به أحداً غير عثمان.

قال أبو عمَر: وأسلمَ عمّار وعبد اللّه أخوه وياسر أبوهما وسُمَيّة أمُّهما، وكان إسلامُهم قديماً في أوّل الإسلام فعُذِّبوا في الله عذاباً عظيماً، وكان رسولُ الله ﷺ يمرُّ بهم وهمْ يعذّبون فيقول: «صبراً يا آلَ ياسِر، فإن مَوعِدَكم الجنّة»[1]، ويقول لهم أيضاً: «صَبْراً يا آلَ ياسر، اللّهم اغفرْ لآل ياسر، وقد فعلت»[2].

قال أبو عمر: ولم يزل عمّار مع أبي حُذَيفة بن المغيرة حتّى مات وجاء الله بالإسلام.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٤٠)، وابن هشام في «السيرة النبوية» (٢/ ١٦٢).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٤١)، وابن الجوزي في «صفوة الصفوة» (١/ ٤٤٣)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٢٤٩).

فأمّا سُمَيّة فقتَلها أبو جهل، طعنها بحَرْبة في قُبُلها فماتت، وكانت من الخَيِّرات الفاضلات وهي أوّل شهيدةٍ في الإسلام، وقد كانت قريشٌ أخذتْ ياسراً وسُمَيّة وابنَيهما، وبلالاً وخَبّاباً وصُهَيباً فألبَسوهم أدراعَ الحديد، وصَهَروهم في الشّمس حتّى بلغ الجَهدُ منهم كلَّ مَبلَغ، فأعطوهم ما سألوا من الكفر، وسبِّ النبيِّ ﷺ، ثم جاء إلى كلّ واحد منهم قومُه بأنْطاعِ الأدَم فيها الماء فألقَوهم فيها، ثمّ حَمَلوا بجوانبها، فلمّا كان العشيُّ جاء أبو جهل فجعل يَشتُم سُمَيّة ويَرفث، ثمّ وَجَأها بحَرْبة في قُبُلها فقتَلها، فهيَ أوّلُ من استُشهد في الإسلام، فقال عمّار للنّبيّ ﷺ: يا رسولَ الله بلغ العذاب من أمّي كلَّ مبلغ، فقال: «صبراً يا أبا اليَقْظان، اللّهمّ لا تُعذِّب أحداً من آل ياسر بالنّار»[1]، قال أبو عمر: وفيهم أنزِل: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[2].

قال: وهاجَر عمّار إلى أرض الحَبَشة وصلّى القِبْلَتَين، وشَهِد بدراً والمَشاهدَ كلَّها وأبلَى بلاءً حسناً، ثم شَهِد اليمامة، فأبلى فيها أيضاً، ويومئذٍ قُطِعتْ أذنه.

قال: وذَكَر الواقديّ عن عبد اللّه بنِ نافع، عن أبيه، عن عبد اللّه بنِ عمر، قال: رأيتُ عمّارَ بن ياسر يومَ اليَمامة على صَخْرة وقد أشرَف يصيح: يا معشرَ المسلمين، أمِن الجنّة تفرُّون؟ أنا عمّار بن ياسر، هَلُمّوا إليّ، وأنا أنظر إلى أُذُنه قد قطعتْ، فهي تذَبذَب وهو يقاتِل أشدّ القِتال.

قال أبو عمر: وكان عمّار طويلاً أشهَلَ، بعيدَ ما بين المَنكبين، قال: وقد قيل في صفته: كان آدمَ طُوالاً مضطرباً، أشهَل العينين، بعيد ما بين المَنكبين، رجلاً لا يغيّر شيبَه.

قال: وكان عمّار يقول: أنا تِرْبُ رسولِ الله ﷺ، لم يكن أحدٌ أقرب إليه سِنّاً منّي.

قال: وقُتِل عمّار وهو ابنُ ثلاثٍ وتسعين سنةً، والخبرُ المرفوعُ مشهور في حَقّه: «تقتلُك الفئةُ الباغية»[3]، وهو من دلائل نبوّة رسول الله ﷺ، لأنّه إخبارٌ عن غَيْب.

وقال رسول الله ﷺ في عمّار: «مُلِيءَ إيماناً إلى مُشاشِه»[4]، ويُروَى: «إلى أخمص قَدَمَيه»[5].

وفضائلُ عمّار كثيرة، وقد تقدم القولُ في ذِكر عمّار وأخبارِه، وما ورد في حقّه.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر (٤/ ١٨٦٤)، وابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٢٤٨)، مختصراً.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه النسائي، كتاب: الإيمان وشرائعه، باب: تفاضل أهل الإيمان (٥٠٠٧)، وابن ماجه، كتاب: المقدمة، باب: فضل عمار بن ياسر ١٤٧.

(٥) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ١١٣٧).

- ٤١٤ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : ما أَحْسَنَ تَوَاضُعَ الأَغْنِياءِ لِلْفُقَرَاءِ طَلَباً لِما عِنْدَ الله، وَأَحسَنُ مِنْهُ تِيهُ الفُقَرَاءِ عَلَى الأَغْنِياءِ اتكالاً عَلَى الله سُبْحَانَهُ.

الشرح: قد تقدّم شرح مِثل هذه الكلمة مراراً.

وقال الشاعر:

قنعتُ فأعتقتُ نفسي ولنْ ... أملّك ذا ثَروةٍ رِقَّهَا

ونَزّهتُها عن سُؤال الرّجالْ ... ومِنَّةِ من لا يَرى حَقَّهَا

وإنّ القَناعة كَنزُ اللّبيب ... إذا ارتَتقتْ فتقت رتقَها

سيَبعثُ رِزْقَ الشِّفاهِ الغِراثِ ... وخمصِ البطونِ الّذي شَقَّهَا

فما فارقَتْ مُهجةٌ جِسمَها ... لَعَمرُك أو وُفّيَتْ رِزقَهَا

مواعيدُ ربّك مصدوقةٌ ... إذا غيرها فَقَدتْ صِدقَها

- ٤١٥ -

الأصل: وقال عليه السلام : ما اسْتَوْدَعَ الله امْرأ عقْلاً إلّا لِيَسْتَنْقِذَهُ بِهِ يَوْماً مَا.

الشرح: لا بدّ أن يكون للباريء تعالى في إبداع العَقْل قلبَ زيد مَثلاً غَرَض، ولا غَرَض إلا أن يستدلّ به على ما فيه نجاتُه وخلاصُه، وذلك هو التكليف، فإنْ قصّر في النظر وجَهِل وأخطأ الصّواب فلا بدّ أن يُنقذه عقلُه مِن وَرْطة مِن وَرَطات الدنيا، وليس يخلو أحدٌ عن ذلك أصلاً، لأن كلّ عاقل لا بدّ أن يتخلّص من مَضرّةٍ سبيلُها أن تُنال بإعمال فِكرتِه وعقله في الخلاص منها، فالحاصل أنّ العقل إمّا أن ينقذ الإنقاذ الدّيني، وهو الفلاح والنّجاح على الحقيقة، أو يُنقذ من بعضِ مَهالكِ الدّنيا وآفاتها، وعلى كلّ حال فقد صَحّ قولُ أمير المؤمنين عليه السلام، وقد رُويتْ هذه الكلمة مرفوعةً[1]، ورُويتْ: «إلا استنقذه به يوماً ما».

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٦٢٧٩).

وعنه ﷺ: «العقل نورٌ في القَلب يُفرَق به بين الحقّ والباطل»[1].

وعن أنَس قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرّجل يكون حَسَن العقل كثيرَ الذنوب، فقال: ما من بشَر إلّا وله ذنوب وخطايَا يَقترفها، فمن كانت سجيّتهُ العَقل، وغَريزَته اليقين، لم تضرّه ذنوبه، قيل: كيف ذلك يا رسولَ الله؟ قال: كلّما أخطأ لم يَلبثْ أن يتَدارَكَ ذلك بتوبةٍ وندامةٍ على ما فرط منه، فيمحو ذُنوبه، ويَبقَى له فضل يدخُل به الجنّة[2].

بعض ما قيل في مدح العقل

وقد تقدّم من قولنا في العقل وما ذُكر فيه ما فيه كفاية، ونحن نذكر هاهنا شيئاً آخر: كان يقال: العاقل يُروِّي ثم يَرْوِي ويَخبُر ثم يُخبِر.

وقال عبدُ اللّهُ بن المعتز: ما أبيَنَ وجوهَ الخير والشّر في مِرآة العقل!

لقمان: يا بنيّ، شاوِرْ مَن جَرّب الأمور فإنّه يعطيكَ من رأيه ما قام عليه بالغلاء وتأخذه أنتَ بالمجّان.

أردشير بن بابك: أربعة تحتاج إلى أربعة: الحَسَب إلى الأدب، والسرورُ إلى الأمْن، والقَرابة إلى المودّة، والعقل إلى التّجربة.

الإسكندر: لا تحتقر الرأيَ الجزيلَ من الحقير، فإنّ الدُّرّة لا يُستهان بها لِهوان غائِصها.

مَسلَمة بنُ عبد الملك: ما ابتَدأتُ أمراً قطُّ بحَزْم فرجعتُ على نفسي بلائمة، وإن كانت العاقبة عليّ، ولا أضعتُ الحزم فسُررْت وإن كانت العاقبة لي.

وَصَف رجلٌ عضدَ الدّولة بن بُويه، فقال: لو رأيتَه لرأيتَ رجلاً له وجهٌ فيه ألفُ عَيْن، وفمٌ فيه ألفُ لسان، وصدرٌ فيه ألفُ قَلْب.

أثنَى قومٌ من الصّحابة على رجل عند رسول الله ﷺ بالصّلاة والعبادة وخصال الخَيْر حتى بالَغوا، فقال ﷺ: «كيف عقلُه؟» قالوا: يا رسولَ الله نخبِرك باجتهاده في العبادة وضروب الخَيْر، وتَسألُ عن عَقْله! فقال: «إنّ الأحمق ليصيبُ بحُمْقه أعظم ممّا يصيبُه الفاجر بفجوره، وإنما ترتفع العِباد غَداً في دَرَجاتهم، ويَنالُون من الزُّلفى من رَبّهم على قَدْر عُقولهم»[3].

الرَّيْحانيّ: العَقْل مَلِك، والخِصال رعيّته، فإذا ضَعُف عن القيام عليها، وَصَل الخَلَل إليها. وسَمِع هذا الكلامَ أعرابيّ فقال: هذا كلامٌ يقْطُر عَسَلُه.

(١) أنظر نهج السعادة: ٨/ ١٨٦، وميزان الحكمة: ٣/ ٢٠٣٨.

(٢) أخرجه الحارث في «مسنده» (٨١٨).

(٣) أخرج بنحوه الحارث في «مسنده» (٨١٤)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٣٥٧).

قال مَعَنُ بنُ زائدة: ما رأيتُ قَفَا رجل إلّا عرفتُ عقله، قيل: فإن رأيتَ وجهَه؟ قال: ذا كتابٌ يُقرأ.

بعض الفلاسفة: عقلُ الغَرِيزة مُسلمٌ إلى عَقْلِ التجربة.

بعضُهم: كلّ شيء إذا كَثُر رَخُص إلّا العقل، فإنّه إذا كَثُر غلا.

قالوا في قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾[1]، أي: من كان عاقلاً.

ومن كلامهم: العاقل بخشونة العَيْش مع العقلاء آنس منه بِلين العيش مع السُّفهاء.

أعرابيّ: لو صُوّر العقلُ أظلمَتْ معه الشّمس، ولو صُوِّر الحُمق لأضاء معه اللّيل.

قيل لحكيم: مَتَى عَقَلْتَ؟ قال: حين وُلِدتُ، فأنكرُوا ذلك، فقال: أمّا أنا فقد بكَيت حين جُعْت، وطلبتُ الثّدْيَ حين احتجْتُ، وسَكَتُّ حين أُعطِيت، يريد أنّ من عَرَف مقادِيرَ حاجتِه فهو عاقل.

المأمون: إذا أنكرتَ مِن عقلِك شيئاً فاقدَحْه بعاقِل.

بُزُرجُمِهْر: العاقل الحازم إذا أشكَل عليه الرأيُ بمنزلة من أضلّ لؤلؤةً فجَمَع ما حولَ مسقطها من التُّراب، ثم التَمَسَها حتّى وَجَدها، وكذلك العاقلُ يَجمَع وجوهَ الرّأي في الأمر المُشكِل، ثم يَضرِب بعضَها في بعض حتّى يَستخلِص الرأي الأصوَب.

كان يقال: هجينٌ عاقلٌ خيرٌ من هِجان جاهِل.

كان بعضهم إذا استُشير قال لمشاوِرِه: أنظرني حتّى أصقُلَ عقلي بنَوْمة.

إذا نزلت المقادير، نزلت التدابير. من نَظَر في المَغَابّ، ظَفر بالمحابّ. من استدّت عزائمِه اشتدّت دَعائمه. الرأيُ السّديد، أجْدى من الأيْد الشّديد.

بعضُهم:

وما ألف مَطرُور السّنان مشدّد يُعَارِض يَوم الرّوع رَأياً مسدَّداً

أبو الطّيِّب:

الرأيُ قبل شَجاعةِ الشّجعان هو أوّلٌ وهيَ المحلّ الثاني

فإذا هما اجتمعا لنفسٍ حُرّةٍ بَلغتْ مِن العَلياء كلّ مكانِ

ولربّما طَعَن الفتَى أقرانَه بالرأي قبل تطاعُن الأقرانِ

لولا العقولُ لكان أدْنَى ضَيْغَمٍ أدنى إلى شرَفٍ من الإنسانِ

ولمَا تفاضَلَت النفوسُ ودبّرتْ أيدي الكُماة عَواليَ المُرّانِ

---

(١) سورة يس، الآية: ٧٠.

ذَكر المأمونُ وَلَدَ عليٍّ عليه السلام، فقال: خُصّوا بتدبير الآخرة، وحُرِموا تدبيرَ الدنيا.

كان يقال: إذا كان الهوى مقهوراً تحت يَدِ العقل، والعَقْل مسلّط عليه، صُرفتْ مَساوِىء صاحبه إلى المحاسن، فعُدّت بلادتُه حلماً، وحِدّته ذَكاء، وحَذَره بلاغة، وعِيُّه صَمْتاً، وجُبْنه حَذَراً، وإسرافُه جُوداً.

وذكر هذا الكلام عند بعضهم فقال: هذه خِصِّيصة الحظّ نقلها مرتِّب هذا الكلام إلى العقل.

سمعَ محمد بن يَزداد كاتبُ المأمون قولَ الشاعر:

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكن ذا عزيمةٍ فإنّ فسادَ الرأي أن تتردّدا

فأضاف إليه:

وإن كنت ذا عزمٍ فأنفِذه عاجلاً فإنّ فساد العَزْم أن يتفنّدا

– ٤١٦ –

الأصل: وقالَ عليه السلام: مَنْ صارَعَ الحَقَّ صَرَعَهُ.

الشرح: هذا مِثْلُ قوله في موضع آخر: مَنْ أبدى صفحته للحقّ هلك، ونحو هذا قولُ الطائيّ:

ومَن قامَر الأيّام عن ثمَراتها فأحْجِ بها أن تَنْجلي وَلها القمْرُ

– ٤١٧ –

الأصل: وقالَ عليه السلام: القَلْبُ مُصْحَفُ البَصَر.

الشرح: هذا مِثْلُ قولِ الشاعر:

تخبّرني العينان ما القلبُ كاتمُ وما جنّ بالبَغْضاء والنَّظَر الشَّزْرِ

يقول عليه السلام: كما أنّ الإنسان إذا نظر في المصحَف قرأ ما فيه، كذلك إذا أبصر الإنسانُ صاحبَه فإنه يَرَى قلبه بوساطة رؤية وجهه، ثم يعلم ما في قلبه من حُبٍّ وبُغْض وغيرهما، كما يعلم برؤية الخطّ الذي في المصحف ما يدلّ الخطّ عليه.

وقال الشاعر:

إنّ العيونَ لَتُبدِي في تَقلُّبها ما في الضَّمائر من وُدٍّ ومِنْ حَنَقِ

- ٤١٨ -

الأصل: وقال عليه السلام: **التُّقى رَئيسُ الأخلاقِ.**

الشرح: يعني رئيس الأخلاق الدينيّة، لأنّ الأخلاق الحميدةَ كالجود والشجّاعة والحلم والعفّة وغير ذلك، لو قَدَّرْنا انتفاءَ التكاليف العقلية والشرعيّة، لم يكن التُّقى رئيساً لها، وإنما رياسة التُّقى لها مع ثُبوت التكليف، لا سيما الشرعيّ. والتّقى في الشّرع هو الوَرَع والخوْفُ من الله، وإذا حصل حصلت الطاعات كلها، وانتفت القبائح كلها، فصار الإنسان معصوماً، وتلك طبقة عالية، وهي أشرف من جميع الطّبقات التي يُمدح بها الإنسان، نحو قولنا: جَوادٌ أو شُجاع أو نحوهما، لأنّهما طبقة ينتقل الإنسانُ منها إلى الجنّة ودار الثواب الدائم، وهذه مزيّة عظيمةٌ يَفضُل بها على سائر طبقات الأخلاق.

- ٤١٩ -

الأصل: وقالَ له عليه السلام: **لا تَجْعَلَنَّ ذَرَبَ لِسَانِكَ عَلَى مَنْ أَنْطَقَكَ، وبَلاغَةَ قَوْلِكَ عَلَى مَنْ سَدَّدَكَ.**

الشرح: يقول: لا شُبهةَ أنّ الله تعالى هو الّذي أنطقك، وسدّد لفظَك، وعلّمك البيان كما قال سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[1]، فقبيحٌ أن يَجعَل الإنسانُ ذَرَب لسانِه وفصاحةَ منطِقه على من أنطقَه وأقدرَه على العبادة، وقبيحٌ أن يَجعَل الإنسانُ بلاغة قوله على من سدّد قولَه، وجعَلَه بليغاً حسَنَ التعبير عن المعاني الّتي في نفسه، وهذا كمن يُنعِم على إنسانٍ بسيفٍ فإنّه يَقبُح منه أن يَقتله بذلك السّيف ظُلماً قبحاً زائداً على ما لَوْ قَتَله بغير ذلك السّيف، وما أحسَن قول المتنبّي في سَيف الدولة:

(١) سورة الرحمٰن، الآيتان: ٣، ٤.

ولمّا كَسَا كعباً ثياباً طَغوْا بها رمَى كلّ ثوب من سِنان بخارقِ
وما يُوجِع الحِرْمانُ من كَفّ حازمٍ كما يُوجِع الحِرمانُ من كفّ رازِقِ

– ٤٢٠ –

الأصل: وقال عليه السلام : كَفَاكَ أَدَباً لِنَفْسِكَ اجْتِنَابُ مَا تَكْرَهُهُ مِنْ غَيْرِكَ.

الشرح: قد قال عليه السلام هذا اللفظ أو نحوَه مراراً، وقد تكلّمنا نحنُ عليه، وذكرْنا نظائرَ له كثيرة نَثراً ونَظماً.

وكَتَب بعضُ الكُتّاب إلى بعض الملوك في حالٍ اقتضَتْ ذلك:

ما عَلَى ذا افترَقْنا بِشَبْذَانَ إذْ كُنّا ولا هكذا عَهِدْنا الإخاءَ
تَضرب الناسَ بالمهنَّدة البِيـ ـضِ على غدرِهم وتَنسَى الوَفَاءَ

– ٤٢١ –

الأصل: وقالَ عليه السلام يعزّي قوْماً: منْ صبَر صبْرَ الأحْرارِ، وإلاَّ سَلا سُلُوَّ الأغْمارِ.

وفي خَبَرٍ آخَرَ أَنَّهُ عليه السلام قالَ لِلأشعَثِ بْنِ قيسٍ مُعَزِّياً عن ابْنٍ لَهُ: إنْ صَبَرْتَ صَبْرَ الأكارِمِ، وإلاَّ سلَوْتَ سلوّ البَهائِمِ.

الشرح: أخذ هذا المعنى أبو تمّام بل حكاه فقال:

وقال عليٌّ في التّعازي لأشعثٍ وخافَ عليه بعضَ تلك المآثِم
أتصبرُ للبَلوى عزاءً وحِسْبةً فتؤجَر أم تسلو سُلُوَّ البهائم!

– ٤٢٢ –

الأصل: وقالَ عليه السلام في صِفةِ الدُّنيا: الدُّنيا تَغُرُّ وتَضُرُّ وَتَمُرُّ، إنَّ الله سُبْحَانَهُ لَمْ يرْضَهَا ثَوَاباً لأوْليائِهِ، ولا عِقاباً لأعْدائِهِ.

الشرح: قد تقدّم لنا كلام طويل في ذم الدنيا.

ومن الكلام المستحسَن قولُه: «تَغُرُّ وتَضُرُّ وتَمُرّ»، والكلمة الثانيةُ أحسن وأجمل.

وقرأتُ في بعض الآثار أن عيسى عليه السلام مرّ بقريةٍ وإذا أهلها مَوْتَى في الطّرُق والأفنية، فقال للتلامذة: إنّ هؤلاء ماتوا عن سخطة، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافَنوا، فقالوا يا سيّدَنا: وَدِدْنا أنا عَلِمْنا خبرَهم، فسأل الله تعالى، فقال له: إذا كان الليلُ فنادِهم يجيبوك، فلما كان اللّيلُ أشرَف على نَشَزٍ ثمّ ناداهم، فأجابه مجيب، فقال: ما حالُكم، وما قصّتُكم؟ فقال: بِتْنا في عافية، وأصبَحْنا في الهاوية، قال: وكيف ذلك؟ قال: لحبّنا الدنيا، قال: كيف كان حبكم لها؟ قال: حبّ الصبيّ لأمه، إذا أقبلتْ فَرِحَ بها، وإذا أدبرتْ حَزِن عليها وبَكَى، قال: فما بالُ أصحابك لم يجيبوني؟ قال: لأنهم ملجَمون بلُجُم من نارٍ بأيدي ملائكةٍ غِلاظٍ شِداد، قال: فكيف أجبتَني أنتَ مِن بينهم؟ قال: لأني كنتُ فيهم، ولم أكن منهم، فلمّا نزل بهم العذابُ أصابني معهم، فأنا معلّق على شَفِير جهنّم لا أدرِي أنجو منها أم أكَبْكب فيها؟ فقال المسِيح لتلامذته: لأكْل خُبز الشّعير بالملح الجَريشِ ولبْس المُسُوح والنّوم على المزابل وسِباخِ الأرض في حرّ الصيف، كثيرٌ مع العافية مِن عذاب الآخرة.

— ٤٢٣ —

الأصل: وإِنّ أَهْلَ الدُّنْيا كَرَكْبٍ، بَيْنا هُمْ حَلُّوا إِذْ صاحَ بِهِمْ سائِقُهُمْ فارْتَحَلُوا.

الشرح: رُوِي: «بينَا هُم حُلُول»، وبينا هي بَيْن نفسها، ووزنها «فَعْلى»، أُشبِعت فَتحةُ النون فصارت ألفاً، ثمّ قالوا: «بينما» فزادوا «ما»، والمعنى واحد، تقول: بينَا نحن نفعل كذا جاء زيد، أي بين أوقاتِ فِعلِنا كذا جاءَ زيدٌ، والجملُ قد يضافُ إليها أسماءُ الزمان نحو قولهم: «أتيتُك زَمَن الحَجّاج أمير»، ثمّ حذفوا المضافَ الّذي هو أوقات، وَولى الظّرف الذي هو بين الجملة الّتي أقيمتْ مَقام المحذوف.

وكان الأصمعيّ يخفِض بعدَ «بينا» إذا صَلَح في موضعه «بَين»، ويُنشِد قول أبي ذُؤيب بالكسْر:

بَيْنا تَعَنُّقِه الكُماة ورَوْغِهِ ... يوماً أُتِيحَ له جَرِيءٌ سَلْفَعُ

وغيرُه يَرْفَع ما بعد «بَيْنا» و«بينما» على الابتداء والخبر، فأمّا إذْ وإذَا فإنّ أكثر أهل العربية يمنعون من مَجِيئهما بعد بَيْنا وبينما، ومنهم من يُجيزه، وعليه جاء كلامُ أمير المؤمنين، وأنشدوا:

بينما الناسُ على عَلْيائِها ... إذ هوَوْا في هُوَّةٍ منها فَغاروا

وقالت الحُرَقة بنتُ النُّعمان بن المنذر:

وبَيْنا نسوسُ النّاسَ والأمرُ أمرُنا ... إذا نحنُ فيهمْ سُوقةٌ نتنصَّفُ

وقال الشاعر:

استَقدِرِ اللهَ خيراً وارضَيَنّ به ... فبينما العُسْر إذا دارتْ مَياسِيرُ

وبَينما المرءُ في الأحياءِ مُغْتبِطٌ ... إذ صارَ في اللّحْدِ تَعفُوه الأعاصِيرُ

وممّا جاءَ في وصف الدّنيا ممّا يناسب كلامَ أمير المؤمنين قولُ أبي العَتاهية:

إنّ داراً نحن فيها لدارُ ... ليس فيها لمقيم قَرارُ

كم وكمْ قد حلَّها من أناسٍ ... ذَهبَ اللّيلُ بهمْ والنّهارُ

فهُمُ الرَّكْب قد أصابوا مَناخاً ... فاستراحوا ساعةً ثم ساروا

وكذا الدّنيا على ما رَأيْنا ... يَذهَب الناسُ وتخلُو الدّيارُ

- ٤٢٤ -

الأصل: وقالَ عليه السلام لابنهِ الحسن عليه السلام:

يَا بُنَيَّ، لا تُخَلِّفَنَّ وَرَاءَكَ شَيْئاً مِنَ الدُّنْيا فَإِنَّكَ تُخلِّفُهُ لِأَحدِ رَجُلَيْنِ: إِمَّا رَجُلٌ عَمِلَ فِيه بِطَاعَةِ الله فسَعِدَ بِمَا شَقِيتَ بِهِ، وَإِمَّا رَجُلٌ عَمِلَ فِيهِ بِمَعْصِيَةِ الله فشَقِيَ بِمَا جَمَعْتَ لَهُ، فَكُنْتَ عوْناً لَهُ علَى مَعْصِيَتِهِ، وَلَيْسَ أَحَدُ هَذَيْنِ حَقِيقاً أَنْ تُؤثِرَهُ عَلَى نَفْسِكَ.

ويُرْوَى هذَا الكلامُ على وجهٍ آخرَ، وهو:

أمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الَّذِي فِي يَدَيْكَ مِنَ الدُّنْيا قَدْ كَانَ لَهُ أَهْلٌ قَبْلَكَ، وَهُوَ صَائِرٌ إِلَى أهْلٍ بَعْدَكَ، وَإِنَّمَا أَنْتَ جَامِعٌ لأَحَدِ رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ عَمِلَ فِيمَا جَمَعْتَهُ بِطاعَةِ الله فَسَعِدَ بِمَا شَقِيتَ بِهِ، أَوْ رَجُلٍ عَمِلَ فِيمَا جَمَعْتَهُ بِمَعْصِيَةِ الله فَشَقِيَ بمَا جَمَعْتَ لَهُ، وَلَيْسَ أَحَدُ هَذَيْنِ أهْلاً أَنْ تُؤْثِرَهُ عَلَى نَفْسِكَ، أَوْ تَحْمِلَ لَهُ علَى ظَهْرِكَ، فَارْجُ لِمَنْ مَضَى رَحْمَةَ الله، وَلِمَنْ بَقِي رِزْقَ الله تَعَالَى.

الشرح: رُوِي: «فإنّكَ لا تُخلّفه إلّا لأحدِ رجلين»، وهذا الفصل نَهيٌ عن الادّخار، وقد سَبَق لنا فيه كلامٌ مُقنع.

وخلاصةُ هذا الفَصْلِ أنّك إنْ خلّفت مالاً، فإمّا أن تخلّفه لمن يَعمل فيه بطاعة الله، أو لِمن يَعمَل فيه بمعصيته، فالأوّل يَسعَد بما شَقيتَ به أنتَ، والثاني يكون مُعاناً منك على المَعْصية بما تركتَه له من المال، وكلا الأمرينِ مذموم، وإنّما قال له: «فارْجُ لمن مضى رحمة الله، ولمن بَقِيَ رزقَ الله»، لأنه قال في أوّل الكلام: «قد كان لهذا المال أهلٌ قَبْلَك، وهو صائرٌ إلى أهلٍ بعدك».

والكلامُ في ذَمّ الادّخار والجمعِ كثيرٌ، وللشّعراء فيه مذاهبُ واسعة ومَعانٍ حَسَنة.

وقال بعضهم:

يا جامعاً مانعاً والدّهرُ يَرمُقُه ... مدبِّراً أيَّ باب عنه يُغلِقُهُ
وناسِياً كيف تأتِيه مَنِيّتُه ... أغادِياً أم بها يَسرِي فتَطرُقه
جمعتَ مالاً فقل لي هل جَمعتَ له ... يا جامعَ المال أيّاماً تُفرّقُهُ
المالُ عندَك مخزونٌ لوَارِثِهِ ... ما المالُ مالُكَ إلّا يَوْمَ تُنفِقُهُ
أرْفِه ببالٍ فتًى يَغدو على ثقةٍ ... أنَّ الذي قَسَم الأرزاقَ يَرزُقُهُ
فالعِرْض منه مَصُونٌ لا يُدنّسُه ... والوجهُ منه جديد ليس يُخلِقُه
إنّ القناعةَ من يَحلُلْ بساحَتِها ... لم يَلْقَ في ظِلّها همًّا يؤرِّقُه

- ٤٢٥ -

الأصل: وقالَ عليه السلام لقائلٍ قالَ بحضرَتهِ أستغفرُ الله: ثَكِلَتْكَ أُمُّك! أتَدرِي مَا الاستِغفَارُ؟ إنَّ للاستِغفَارِ دَرَجَةَ الْعِلّيّينَ، وَهُوَ اسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى سِتَّةِ مَعَانٍ: أوّلُها النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى، وَالثَّانِي الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ العَوْدِ إلَيْهِ أبَداً، وَالثَّالِثُ أنْ تُؤدِّيَ إلَى المَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّى تَلْقَى الله عَزَّ وَجَلَّ أمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةٌ، وَالرَّابِعُ أنْ تَعْمِدَ إلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَّعْتَها فَتُؤدِّيَ حَقَّهَا، والخامِسُ أنْ تَعْمِدَ إلَى اللَّحْمِ الَّذِي نَبَتَ عَلَى السُّحْتِ فَتُذِيبَهُ بِالأحْزَانِ حَتَّى تُلْصِقَ الْجِلْدَ بِالْعَظْمِ، وَيَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ جَدِيدٌ، السَّادِسُ أنْ تُذِيقَ الْجِسْمَ ألَمَ الطَّاعَةِ كما أذَقْتَهُ حَلاوَةَ الْمَعْصِيَةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُولُ: أسْتَغْفِرُ الله.

الشرح: قد رُوِي: «إنَّ الاستغفارَ درجةُ العلّيين»، فيكون على تقدير حَذْف مضاف، اي أنّ دَرجة الاستغفار درجة العِلّيين، وعلى الرواية الأولى يكون على تقدير حَذْف مضاف، أي أن لصاحب الاستغفار درجة العلّيين. وهو هاهنا جمعٌ على «فِعّيل» كضلّيل وخِمّير، تقول: هذا رجلٌ

عليٌّ، أي كثيرُ العلُوّ، ومنه العلِّية للغُرْفة على إحدى اللّغتين، ولا يجوز أن يفسَّر بما فَسَّر به الراونديّ من قوله: إنه اسمُ السماء السابعة، ونحو قوله: «هو سِدْرة المنتهى»، ونحو قوله: «هو موضعٌ تحت قائمةِ العَرْش اليمنى»، لأنه لو كان كذلك لكان عَلَما، فلم تدخُله اللّام. كما لا يقال: «الْجَهنّم»، وكذلك أيضاً لا يجوز تفسيرُه بما فسّره الراونديّ أيضاً، قال: العليّين، جمع عليّ: الأمكنة في السماء، لأنه لو كان كذلك لم يُجمع بالنون لأنها تختصّ بمن يَعقِل، وتصلح أن تكون الوجوه الأولى تفسيراً لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾[1].

قوله: «نَبَت على السُّحْت»، أي على الحرام، يقال: سُحْت، بالتسكين، وسُحُت بالضمّ، وأسحَت الرجلُ في تجارتِه، أي اكتَسَب السُّحْت.

في ماهية التوبة وشروطها

وينبغي أن نذكر في هذا الموضع كلاماً مختصراً مما يقوله أصحابُنا في التوبة، فإنّ كلام أميرِ المؤمنين هو الأصل الذي أَخَذَ منه أصحابُنا مَقالتَهم، والذي يقولونه في التوبة، فقد أتى على جوامِعه عليه السلام في هذا الفصل على اختصاره.

قال أصحابنا: الكلام في التوبة يقع من وجوه: منها الكلامُ في ماهية التوبة والكلام في إسقاطِها الذّمّ والعقاب، والكلام في أنه يجب علينا فِعلُها، والكلام في شُرُطها.

أما ماهيّة التوبة فهي النّدم والعَزْم، لأنّ التوبة هي الإنابة والرّجوع، وليس يمكن أن يرجع الإنسانُ عمّا فعله إلا بالنّدم عليه، والعزم على تَرْك معاودته، وما يتوب الإنسان منه، إمّا أن يكون فعلاً قبيحاً، وإما أن يكون إخلالاً بواجب، فالتوبة من الفعلِ القبيح هي أن يَندَم عليه، ويَعزِم ألّا يعود إلى مِثله، وعَزمُه على ذلك هو كراهيته لِفعله، والتوبةُ من الإخلال بالواجب هي أن يَندَم على إخلاله بالواجب ويَعزم على أداء الواجب فيما بعد.

فأما القول في أن التوبة تُسقِط العذاب فعندنا أن العقل يقتضي قُبح العقاب بعد التوبة، وخالف أكثرُ المرجئة في ذلك من الإمامية وغيرهم، واحتجّ أصحابُنا بقُبح عقوبة المسيء إلينا بعد ندمِه واعتذارِه وتنصُّله، والعلم بصدقه والعلم بأنّه عازمٌ على ألّا يعود.

فأما القول في وجوب التوبة على العُصاة، فلا ريب أنّ الشرع يوجب ذلك، فأمّا العقل فالقول فيه أنه لا يخلو المكلَّف إما أن يَعلم أن معصيته كبيرة، أو يعلم أنها صغيرة، أو يجوز فيها كلا الأمرين، فإن عَلم كونها كبيرة وَجب عليه في العقول التوبة منها، لأن التوبة مُزِيلة لضَرَر الكبيرة، وإزالة المضارّ واجبة في العقول، وإن جوّز كونها كبيرة وجوّز كونها صغيرة،

---

(1) سورة المطففين، الآية: ١٨.

لزمه أيضاً في العقل التوبة منها، لأنه يأمن بالتوبة من مَضَرّة مخوفة، وفعل ما يؤمن من المضارّ المخوفة واجب، وإن علم أنّ معصيته صغيرة، وذلك كمعاصي الأنبياء، وكمن عصى ثمّ علم بإخبار نبيّ أنّ معصيته صغيرة محبطة، فقد قال الشيخ أبو عليّ: إنّ التوبة منها واجبة في العقول، لأنه إن لم يتب كان مُصِرًّا والإصرار قبيح.

وقال الشيخ أبو هاشم: لا تُجب التوبة منها في العقل بالشرع، لأنّ فيها مصلحة يعلمها الله تعالى، قال: إنه يجوز أن يخلو الإنسان من التوبة عن الذنب، ومن الإصرار عليه، لأنّ الإصرار عليه هو العزم على مُعاوَدة مِثله، والتوبة منه أن يَكره معاودة مثله مع الندم على ما مضى، ويجوز أن يخلوَ الإنسانُ من العَزْم على الشيء، ومن كراهته.

ومال شيخنا أبو الحسين رحمه الله إلى وجوب التوبة هاهنا عَقْلاً، لدليلٍ غيرِ دليل أبي عليّ رحمه الله.

فأما القولُ في صفات التَّوبة وشروطها فإنها على ضربين:

أحدُهما: يعمّ كلّ توبة، والآخر يختلف بحَسَب اختلاف ما يتاب منه، فالأول هو النّدم والعَزْم على ترك المعاوَدة.

وأما الضرب الثاني، فهو أنّ ما يَتُوب منه المكلَّف إما أن يكون فِعْلاً أو إخلالاً بواجب، فإن كان فعلاً قبيحاً وَجَب عند الشيخ أبي هاشم رحمه الله أن يندم عليه، لأنه فعل قبيح، وأن يكره مُعاوَدة مثله لأنه قبيح، وإن كان إخلالاً بواجب وَجَب عليه عنده أن يَندم عليه، لأنه إخلالٌ بواجب، وأن يعزم على فعل مِثلِ ما أَخَلَّ به لأنه واجب، فإن نَدِم خوف النار فقط، أو شوقاً إلى الجنة فقط، أو لأنّ القبيح الذي فعله يضرّ ببدنه كانت توبته صحيحة، وإن ندم على القبيح لقُبْحِهِ ولخوف النار، وكان لو انفرد قبحه ندِم عليه، فإنّ توبته تكون صحيحةً، وإن كان لو انفرد القبحُ لم يَندَم عليه، فإنه لا تكون تَوبتُه صحيحةً عنده، والخلاف فيه مع الشيخ أبي عليّ وغيره من الشيوخ رحمهم الله، وإنما اختار أبو هاشم هذا القول لأنّ التوبة تَجرِي مَجرَى الاعتذار بيننا، ومعلوم أن الواحد منّا لو أساء إلى غيره ثمّ نَدِم على إساءته إليه واعتذر منها خوفاً من معاقبته له عليها، أو من معاقبة السلطان حتى لو أمن العقوبة، لما اعتذر ولا نَدِم، بل كان يُواصِل الإساءة، فإنه لا يسقط ذمُّه، فكذلك التَّوبة خوف النار لا لِقُبح الفعل.

وقد نقل قاضي القُضاة هذا المذهب عن أمير المؤمنين عليه السلام والحسن البَصْريّ وعليّ بن موسى الرِّضا والقاسم بن إبراهيم الزَّينبيّ.

قال أصحابُنا: وللتوبة شروط أُخَرُ تَختلِف بحَسَب اختلاف المعاصي، وذلك أنّ ما يتوب منه المكلّف، إما أن يكون فيه لآدميّ حَقٌّ أو لا حقَّ فيه لآدميّ، فما ليس للآدميّ فيه حقّ فنحو تَرْك الصّلاة، فإنّه لا يجب فيه إلا النّدم والعَزْم على ما قدّمنا وما لآدميٍّ فيه حقٌّ على ضربين:

أحدُهما أن يكون جنايةً عليه في نفسِه أو أعضائه أو مالِه أو دِينِهِ، والآخر ألا يكون جِنايةً عليه في شيءٍ من ذلك، فما كان جنايةً عليه في نفسِه أو أعضائهِ أو مالِهِ، فالواجبُ فيه النَّدَم والعَزْم، وأن يَشرعَ في تسليم بدل ما أتْلَف، فإن لم يتمكّن من ذلك لِفقرٍ أو غيره عَزَم على ذلك إذا تمكّن منه، فإنْ مات قبلَ التمكّن لم يكن من أهلِ العِقاب، وإن جَنَى عليه في دينه بأن يكون قد أضلَّه بشُبْهة استزَلّه بها، فالواجبُ عليه مع النّدم العَزْم والاجتهاد في حَلِّ شبهتِهِ من نفسِه، فإن لم يتمكّن من الاجتماع به عزم على ذلك إذا تمكّن، فإنْ ماتَ قبلَ التمكن، أو تمكن منه واجتَهَد في حلّ الشبهة فلم تَنحَلّ من نفس ذلك الضالّ، فلا عقابَ عليه، لأنه قد استفْرَغ جهدَه، فإن كانت المعصية غيرَ جناية نحو أن يَغتَابه أو يَسمَع غيبتَه فإنه يَلزَمه النّدم والعَزْم، ولا يلزَمه أن يستحلَّه أو يعتذرَ إليه، لأنه ليس يلزمه أرْشٌ لمن اغتابه فيستحلّه، ليَسقُط عنه الأرْشُ، ولا غَمَّه فيزيل غمّه بالاعتذار، وفي ذكر الغِيبَة له ليستحِلّه فيزيل غمّه منها إدخالُ غمٍّ عليه، فلم يَجُزْ ذلك، فإن كان قد أسمَع المغتابَ غيبَته فذلك جِنايةٌ عليه، لأنّه قد أوصَل إليه مَضرّة الغمّ، فيَلزَمه إزالة ذلك بالاعتذار.

- ٤٢٦ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: الحِلْمُ عَشِيرَةٌ.

الشرح: كان يقال: الحلم جنودٌ مجنَّدة لا أرزاقَ لها.

وقال عليه السلام: وجدتُ الاحتمالَ أنصرَ لي من الرّجال. وقال الشاعر:

ولَلْكَفُّ عن شَتْمِ اللئيم تكرُّماً ... أضرُّ له من شَتْمِه حينَ يشتم

وكان يقال: مَن غَرَس شجرة الحِلْم، اجتَنَى ثَمرَة السّلْم.

وقد تقدّم من القول في الحِلْم ما فيه كفاية.

- ٤٢٧ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: مِسْكِينٌ ٱبْنُ آدَمَ! مَكْتُومُ الأَجَلِ، مَكْنُونُ العِلَلِ، مَحفُوظُ العَمَلِ، تُؤلِمُهُ البَقَّةُ، وتَقْتُلُهُ الشَّرْقَةُ، وَتُنْتِنُهُ العَرْقَةُ.

الشرح: قد تقدّم هاهنا خبر المبتدأ عليه، والتقدير: «ابنُ آدم مِسكين»، ثمّ بيّن مَسْكَنته من أين هي؟ فقال: إنّها من سِتّة أوجُه: أجلُه مكتوم لا يَدرِي مَتَى يُختَرَم، وعِلَلُه باطنة لا يدري بها حتّى تَهيجَ عليه، وعَملُه محفوظ، ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾[1]، وقَرْص البَقّة يؤلمُه، والشَّرْقة بالماء تَقتُله، وإذا عَرِق أنتنْته العَرْقة الواحدة وغيّرتْ رِيحَه، فمن هو على هذه الصِّفات فهو مسكين لا محالةَ، لا ينبغي أن يأمَن ولا أن يَفْخَر.

- ٤٢٨ -

الأصل: وَيُرْوى انهُ عليه السلام كَانَ جالساً في أصحابِهِ إذ مرَّتْ بهمْ امرَأةٌ جَمِيلةٌ فَرَمَقَها القوْمُ بأبصارِهم، فقالَ عليه السلام:

إِنَّ أَبْصَارَ هَذِهِ الفُحُولِ طَوَامِحُ، وَإِنَّ ذَلِكَ سَبَبُ هِبَابِهَا، فَإِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى امْرَأَةٍ تُعْجِبُهُ فَلْيُلامِسْ أَهْلَهُ، فَإِنَّمَا هِيَ امْرَأَةٌ كامْرَأَتِهِ.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الخَوَارِجِ: قَاتَلَهُ الله كَافِراً، مَا أَفْقَهَهُ!

قالَ: فَوَثَبَ الْقَوْمُ لِيَقْتُلُوهُ، فَقَالَ عليه السلام: رُوَيْداً، إِنَّمَا هُوَ سَبٌّ بِسَبٍّ، أَوْ عَفْوٌ عَنْ ذَنْبٍ.

الشرح: تقول: هَبَّ الفَحْل والتَّيسَ يهِبّ بالكَسْر هَبِيباً أو هباباً، إذا هَاجَ للضِّراب أو للسِّفاد، والهباب أيضاً: صَوتٌ، والتَّيسُ إذا هبّ فهو مِهْباب، وقد هَبْهبتُه، أي دعوتُه لِينزُوَ فتهبهب، أي: تَزغزَع.

وسَألني صديقُنا عليُّ بن البِطْريق عن هذه القِصّة فقال: ما بالُه عَفَا عن الخارجيّ وقد طَعَن فيه بالكفر، وأنكَر على الأشعث قوله: «هذه عليكَ لا لَك»، فقال: ما يُدْريك عليكَ لعنةُ الله ما عليّ مما لي! حائك ابن حائك، منافق ابن كافر! وما وَاجَهَه به الخارجيّ أفظَع ممّا واجَهَه الأشعث! فقلتُ: لا أدري.

قال: لأنّ كلّ صاحب فضيلة يعظُم عليه أن يُطعَن في فضيلته تلك، ويُدّعَى عليه أنّه فيها ناقص، وكان عليٌّ عليه السلام بيت العلم، فلمّا طعن فيه الأشعث طعن بأنّك لا تَدْري ما عليك ممّا لك، فشقّ ذلك عليه، وامتَعَض منه، وَجَبَهه ولعَنَه، وأمّا الخارجي فلم يَطعَن في عِلمه، بل أثبته

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

له، واعترَف به، وتعجّب منه، فقال: «قَاتَله الله كافراً ما أفقَهه!»، فاغتَفَر له لفظةَ «كافر» بما اعترف له به من علوّ طَبَقته في الفِقْه، ولم يَخشُن عليه خُشونته على الأشعث، وكان قد مَرَن على سَماعِ قول الخوارج: أنت كافر، وقد كفرتَ، يَعنُون التّحكيم، فلم يَحفِل بتلك اللّفظة ونَهى أصحابَه عن قتلِه محافظة ورعايةً له على ما مَدَحه به.

- ٤٢٩ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: كفَاكَ مِنْ عَقْلِكَ، مَا أَوْضَحَ لَكَ سُبُلَ غَيِّكَ مِنْ رُشْدِكَ.

الشرح: يقول عليه السلام: كفَى الإنسان من عقْله ما يَفرِقُ به بين الغيّ والرّشاد، وبين الحقّ من العقائد والباطل، فإنّه بذلك يتمّ تكليفُه، ولا حاجةَ في التّكليف، والفَرْق بين الغَيّ والرُّشْد إلى زيادة على ذلك، نحو التجارب الّتي تُفِيده الحَزْم التامّ، ومعرفة أحوالِ الدّنيا وَأهلِها، وأيضاً لا حاجةَ له إلى أن يكون عندَه من الفِطْنة الثّاقبة والذّكاء التّام ما يَستنبِط به دقائقَ الكلام في الحِكْمة والهَنْدسة والعلوم الغامِضَة، فإنّ ذلك كلّه فَضْل مستغنًى عنه، فإنْ حُصِّل للإنسان فقد كَمُل، وإن لم يُحصَّل للإنسان فقد كَفَاه في تكليفه ونجاتِه من مَعاطِب العِصْيان ما يَفرِق به بين الغَيّ والرّشاد، وهو حصول العلوم البديهية في القَلْب، وما جَرَى مجراها من علوم العادات، وما يذكره أصحابُنا في باب التكليف.

- ٤٣٠ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: افْعَلُوا الخَيْرَ، وَلا تَحْقِرُوا مِنْهُ شَيْئاً، فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ، وَقَلِيلَهُ كَثِيرٌ وَلا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: إِنَّ أَحَداً أَوْلَى بِفِعْلِ الخَيْرِ مِنِّي، فَيَكُونَ وَاللهِ كَذلِكَ.

الشرح: القليلُ من الخير خيرٌ مِنْ عدَم الخيرِ أصلاً.

قال عليه السلام: لا يقولَنّ أحدُكم إنّ فلاناً أولَى بفِعْل الخَيْر منّي، فيكون والله كذلك، مثالُه قوم مُوسِرون في محلّة واحدة، قَصَد واحداً منهم سائلٌ فرَدّه، وقال له: اذهبْ إلى فلان، فهو أولَى بأن يتصدّق عليك منّي، فإنّ هذه الكلمة تقال دائماً، نَهَى عليه السلام عن قولِها وقال: «فيكونَ والله

كذلك»، أي أنّ الله تعالى يوفّق ذلك الشخص الّذي أحيلَ ذلك السائلُ عليه، ويُيسّر الصّدَقة عليه، ويُقوّي دواعيَه إليها، فيَفعَلها فتكون كلمة ذلك الإنسان الأوّل قد صادفتْ قَدَراً وقَضاءً، ووَقَع الأمر بمُوجِبِها.

- ٤٣١ -

الأصل: إنَّ لِلْخَيْرِ وَللشَّرِّ أَهْلاً، فَمَهْمَا تَرَكْتُمُوهُ مِنْهُمَا كَفَاكُمُوهُ أَهْلُهُ.

الشرح: يقول عليه السلام: إنْ عَنَّ لك بابٌ من أبواب الخير وتركتَه، فسوف يَكفيكَه بعضُ الناس ممّن جَعَله الله تعالى أهلاً للخير وإسداءِ المعروفِ إلى الناس، وإنْ عنّ لك بابٌ من أبواب الشرّ فتركْته، فسوفَ يَكفيكَه بعضُ الناس ممن جعلتْهم أنفسُهم وسوءُ اختيارهم أهلاً للشرّ وأذى الناس، فاخترْ لنفسك أيّما أحبّ إليك، أن تَحظَى بالمَحمَدة والثواب، وتَفعل ما إن تركتَه فَعَلَه غيرُك وحَظِي بحَمْده وثوابِه، أو أن تَترُكه! وأيّما أحبّ إليك: أن تَشقَى بالذمّ عاجلاً، والعقابِ آجلاً، وتفعل ما إن تركْته كَفاكَه غيرُك، وبلغتَ غرضك منه على يدِ غيرِك، أو أن تفعله ولا ريبَ أنّ العاقلَ يختارُ فعلَ الخير وترك الشرّ إذا أَفْكَر حقّ الفِكْر فيما قد أوضحْناه.

- ٤٣٢ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ، أَصْلَحَ الله عَلانِيَتَهُ، وَمَنْ عَمِلَ لِدِينِهِ، كَفَاهُ الله أَمْرَ دُنْيَاهُ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الله، أَحْسَنَ الله مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاس.

الشرح: لا ريبَ أنّ الأعمال الظاهرة تَبَعٌ للأعمال الباطنة، فمَن صَلَح باطنُه صَلَح ظاهرُه وبالعكس، وذلك لأنّ القلبَ أميرٌ مسلَّطٌ على الجوارح، والرعيّة تَتبَع أميرَها ولا ريبَ أنّ من عَمِل لدينِه كفاهُ الله أمرَ دُنْياه، وقد شَهِد بذلك الكتابُ العَزيزُ في قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾[1].

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

ولهذا أيضاً عِلّة ظاهرة، وذاك أنّ من عَمِل لله سبحانه وللدّين فإنه لا يخفى حالُه في أكثر الأمر عن الناس، ولا شبهة أنّ الناس إذا حَسُنتْ عقيدتُهم في إنسان وعَلِموا مَتانَة دينه بَوّبوا له إلى الدّنيا أبواباً لا يَحتاجُ أن يتكلّفها، ولا يَتعَب فيها، فيأتيه رزقُه من غيرِ كُلْفة ولا كَدّ، ولا ريبَ أنّ من أحسَن فيما بينَه وبين الله أحسَنَ الله ما بينه وبين الناس، وذلك لأنّ القلوبَ بالضّرورة تميلُ إليه وتحبّه، وذلك لأنّه إذا كان مُحسِناً بينَه وبين الناس عَفّ عن أموالِ الناس ودِمائِهم وأعراضِهم، وتَرَك الدخولَ فيما لا يَعنيه، ولا شبهةَ أنّ من كان بهذه الصّفة فإنه يحسن ما بينَه وبين الناس.

- ٤٣٣ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : الْحِلْمُ غِطَاءٌ سَاتِرٌ، وَالعَقْلُ حُسَامٌ قَاطِعٌ، فَاسْتُرْ خَلَلَ خُلُقِكَ بِحِلْمِكَ، وَقَاتِلْ هَوَاكَ بِعَقْلِكَ.

الشرح: لمّا جعل الله الحِلْم غِطاءً، والعَقل حُساماً، أمرَه أن يَستُر خَلَل خُلُقه بذلك الغِطاء وأن يُقاتِل هَواهُ بذلك الحُسام، وقد سبق القولُ في الحلم والعَقْل.

- ٤٣٤ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : إنَّ لله عِباداً يَخْتَصُّهُمْ بالنِّعَم لمَنَافِعِ العِبَادِ، فَيُقِرُّهَا فِي أَيْدِيهِمْ مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوها نَزَعَهَا مِنْهُمْ، ثُمّ حَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ.

الشرح: قد ذكرْنا هذا المعنى فيما تقدّم، وقد قالت الشعراءُ فيه فأكثَروا، وقريبٌ من ذلك قولُ الشاعر:

وبالنّاس عاشَ الناسُ قِدماً ولم يَزَلْ ... من الناسِ مَرْغوبٌ إليه وراغِبُ

وأشدّ تصريحاً بالمعنى قول الشاعر:

لم يُعطِكَ اللهُ ما أعطاكَ من نِعمٍ ... إلاّ لتُوسِعِ من يَرْجوكَ إحسانَا
فإنْ مَنَعت فأخلِقْ أن تُصادِفَها ... تَطيرُ عنكَ زرافاتٍ ووِحدانَا

- ٤٣٥ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : لا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَثِقَ بِخَصْلَتَيْن: العافِيَةِ والْغِنَى، بَيْنَا تَرَاهُ مُعافًى إذْ سقِمَ وَبَيْنَا تَرَاهُ غَنِيًّا إذ افْتَقَرَ.

الشرح: قد تقدَّم القولُ في هذا المعنى.

وقال الشاعر:

وبينما المرءُ في الأحياءِ مُغْتَبِط إذ صارَ في اللّحْدِ تَسْفِيهِ الأعاصيرُ

وقال آخرُ:

لا يَغُرَّنْك عشاءٌ ساكنٌ قد يُوافِي بالمنِيّاتِ السَّحَرْ

وقال عُبيدُ الله بنُ طاهر:

وإذا ما أعارَكَ الدهرُ شيئاً فهُوَ لا بدّ آخِذٌ ما أعارَا

آخر:

يَغُرُّ الفَتَى مَرُّ الليالي سَليمةً وهُنّ به عمّا قَليلٍ عَواثِرُ

وقال آخر:

ورُبَّ غَنِيٍّ عظيم الثَّراءِ أمسَى مُقِلًا عَديماً فَقيرَا

وكم باتَ مِنْ مُترَفٍ في القُصور فعُوِّض في الصّبح عنها القُبورَا

- ٤٣٦ -

الأصل: وقال عليه السلام : مَنْ شَكا الحاجَةَ إِلَى مُؤْمِنٍ فَكأنَّما شَكاهَا إلى الله، ومَنْ شَكاها إلى كافِرٍ فَكأنَّما شَكَا الله.

الشرح: قد تقدَّم القولُ في شَكوَى الحالِ وكراهيتها، وكلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام يدلُّ على أنه لا يَكرَه شَكوَى الحالِ إلى المؤمن، ويَكرَهها إلى غير المؤمن، وهذا مذهبٌ دِينيٌّ غيرُ المذهب العُرْفيّ.

وأكثر مذاهِبه ومقاصده عليه السلام في كلمه يَنْحو فيها نحوَ الدِّين والوَرَع والإسلام، وكأنّه يَجعَل الشكوى إلى المؤمن كالشكوى إلى الخالق سبحانه، لأنه لا يشكو إلى المؤمن إلّا وقد خَلَتْ شكْواه من التسخُّط والتأفّف، ولا يشكُو إلى الكافر إلّا وقد شابَ شَكْواه بالاستزادة والتَّضجُّر، فافترقَت الحالُ في الموضعين.

فأمّا المذهب المشهورُ في العُرْف والعادة فاستهْجانُ الشّكوى على الإطلاق لأنّها دليلٌ على ضَعْف النفس وخذْلانها، وقلّة الصّبر على حوادث الدّهر، وذلك عندَهم غيرُ محمود.

- ٤٣٧ -

الأصل: وقالَ عليه السلام في بعضِ الأعيادِ: إنَّما هُوَ عِيدٌ لِمَنْ قَبِلَ الله صِيامَهُ، وشَكَرَ قِيامَهُ، وكُلُّ يَوْمٍ لا نَعْصِي الله فِيهِ فَهُوَ يَوْمُ عِيدٍ.

الشرح: المعنَى ظاهرٌ، وقد نَقَله بعضُ المُحدثين إلى الغزَل فقال:

قالوا أتَى العِيدُ قلتُ أهلاً إنْ جاءَ بالوَصْل فهوَ عِيدُ
مَنْ ظَفِرتْ بالمنى يدَاهُ فكلّ أيامِه سُعودُ

ورأيتُ بعضَ الصُّوفيّة وقد سَمع هٰذين البيتين من مُغَنٍّ حاذقٍ، فطَرِب وصَفّق وأخذَهما لمعنًى عندَه.

وقد قال بعضُ المحدثين في هذا المعنى أيضاً:

قالوا أتى العِيدُ والأيامُ مشرقةٌ وأنتَ تبكِي وكل الناسِ مَسرُورُ
فقلتُ إنْ واصَلَ الأحبابُ كان لنا عيداً وإلا فهذا اليومُ عاشُورُ

- ٤٣٨ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: إنَّ أعْظَمَ الحَسَرَاتِ يَوْمَ الْقِيامَةِ حَسْرَةُ رَجُلٍ كَسَبَ مالاً في غَيْرِ طاعةِ الله، فَوَرَّثَهُ رَجُلاً فأنْفَقَهُ في طاعَةِ الله سُبْحانَهُ فَدَخَلَ بِهِ الجَنَّةَ، ودَخَلَ الأوّلُ بِهِ النَّارَ.

الشرح: كان يقال لعمر بنِ عبد العزيز بن مروان: السعيد ابن الشقيّ، وذلك أنّ عبدَ العزيز بن مروان مَلَكَ ضِياعاً كثيرة بمصر والشام والعراق والمدينة من غير طاعة الله، بل بسلطان أخيه عبد الملك، وبولاية عبد العزيز نفسه مصر وغيرها، ثمّ تركها لابنه عمر، فكان يُنْفِقُها في طاعة الله سبحانه وفي وجوه البرّ والقُربات، إلى أن أفضَت الخلافةُ إليه، فلما أفضت إليه أخرَج سِجِلاّت عبد الملك بها لعبد العزيز فمزّقها بمَحضَر من الناس، وقال: هذه كُتِبتْ من غير أصل شرعيّ، وقد أعدتُها إلى بيت المال.

— ٤٣٩ —

الأصل: وقالَ عليه السلام: إنَّ أَخسَرَ النَّاس صَفْقَةً، وَأَخْيَبَهُمْ سَعْياً، رَجُلٌ أَخْلَقَ بَدَنَهُ فِي طَلَبِ آمَالِهِ، وَلَمْ تُسَاعِدْهُ المقَادِيرُ عَلَى إِرَادَتِهِ، فَخَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا بِحَسْرَتِهِ، وَقَدِمَ عَلَى الآخِرَةِ بِتَبِعَتِهِ.

الشرح: هذه صورةُ أكثر الناس، وذلك لأنّ أكثرهم يَكُدّ بدنَه ونفسَه في بلوغ الآمال الدنيويّة، والقليل منهم من تساعِده المقاديرُ على إرادته، وإن ساعدَتْه على شيء منها بقِيَ في نفسه مالا يَبْلغه، كما قيل:

نَروحُ ونَغدُو لحاجاتنا ... وحاجَةُ من عاش لا تَنقضِي

تَموتُ مع المرءِ حاجاتُه ... وتبقَى له حاجَةٌ ما بقِي

فأكثرُهم إذَنْ يَخرُج من الدنيا بحَسْرته، ويُقدِم على الآخرة بتَبِعته، لأنّ تلك الآمال التي كانت الحركة والسعيُ فيها ليستْ متعلقةً بأمور الدّين والآخرة، لا جَرَم أنها تبعات وعُقوبات، ونسأل الله عَفوَه.

— ٤٤٠ —

الأصل: وقالَ عليه السلام: الرِّزْقُ رِزْقَانِ: طَالِبٌ وَمَطْلُوبٌ، فَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا طَلَبَهُ المَوْتُ حَتَّى يُخْرِجَهُ عَنْهَا، وَمَنْ طَلَبَ الآخرةَ طَلَبَتْهُ الدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَوْفِيَ مِنْهَا رِزْقَهُ.

الشرح: هذا تحريضٌ على طلب الآخرة، ووَعْد لمن طَلَبها بأنه سيُكفى طلب الدنيا، وإنّ الدنيا ستَطلبُه حتى يستوفيَ رزقَه منها.

وقد قيل: مَثَل الدّنيا مَثَل ظِلّك، كلّما طلبتَه بَعُد عنك، فإن أدبَرْتَ عنه تَبِعَك.

— ٤٤١ —

الأصل: وقالَ عليه السلام: إنَّ أَوْلياءَ الله هُمُ الَّذِينَ نَظَرُوا إلى باطِنِ الدُّنيا إذا نَظَرَ النَّاسُ إلى ظاهِرِها، واشْتَغَلُوا بآجِلِها إذَا اشْتَغَلَ النَّاسُ بِعاجِلِها، فأَماتُوا مِنْها ما خَشُوا أَنْ يُمِيتَهُمْ وتَرَكُوا مِنْها ما عَلِمُوا أَنَّهُ سيَتْرُكُهُمْ، وَرَأَوا اسْتِكْثارَ غَيْرِهِم مِنْها اسْتِقْلالاً، وَدَرَكَهُمْ لَها فواتاً، أَعداءٌ لما سالَمَ النَّاسُ، وسَلْمٌ لِمَنْ عادَى النَّاسُ، بِهِمْ عُلِمَ الكِتابُ، وبِهِ عَلِمُوا، وَبِهِمْ قامَ كتابُ الله تعالى، وَبِهِ قامُوا، لا يَرَوْنَ مَرْجُوّاً فَوْقَ ما يَرْجُونَ، ولا مَخُوفاً فَوْقَ مَا يَخافُونَ.

الشرح: هذا يصلُح أن تَجعله الإماميّة شرح حال الأئمّة المعصومين على مذاهبهم، لقولِهِ: فوقَ ما يَرْجون، بهم عُلم الكتاب، وبه عَلِموا، وأما نحن فنجعله شرح حالِ العلماء العارفين وهم أولياءُ الله الذين ذكرهم عليه السلام لما نظر الناسُ إلى ظاهر الدنيا وزُخرُفها من المناكح والملابس والشَّهوات الحِسّية، نظروا هُمْ إلى باطن الدنيا، فاشتغلوا بالعلوم والمعارف والعبادة والزهد في المَلاذّ الجُسْمانيّة، فأمَاتُوا من شَهَواتِهم وقُواهم المذمومة كقوّة الغَضب وقوّة الحسد ما خافوا أن يُميتَهم، وتَركُوا من الدنيا اقتناءَ الأموال لعلمهم أنها ستتركُهم، وأنه لا يمكن دوامُ الصُّحْبة معها، فكان استِكثارُ الناس من تلك الصفات استقلالاً عندهم، وبلوغ الناس لها فَوْتاً أيضاً عندهم، فهم خَصْم لما سالمه الناس مِن الشهوات، وسِلم لما عاداه الناس من العُلوم والعبادات، وبهم عُلم الكتاب، لأنه لولاهم لما عُرِف تأويل الآيات المتشابهات، ولأخَذها الناسُ على ظواهرها فضلّوا وبالكتاب عُلموا، لأن الكتابَ دلّ عليهم، ونبّه الناس على مواضعهم، نحو قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1].

وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

وقوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[3].

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٩.

ونحو ذلك من الآيات التي تنادي عليهم، وتخطُب بفَضْلهم، وبهم قام الكتاب لأنهم قرّروا البَراهين على صِدْقه وصحة وروده من الله تعالى على لسان جبريل عليه السلام ولولاهم لم يَقُم على ذلك دَلالة للعوامّ، وبالكتاب قاموا، أي باتباع أوامر الكتاب وآدابه قاموا، لأنه لولا تأدُّبهم بآداب القرآن، وامتثالهم أوامرَه، لما أغنى عنهم عِلمُهم شيئاً، بل كان وَبالُه عليهم، ثم قال: إنهم لا يَرَوْن مَرْجُوًّا فوق ما يَرْجون، ولا مَخُوفاً فوق ما يخافون، وكيف لا يكونون كذلك ومَرْجُوُّهم مجاوَرة الله تعالى في حظائر قُدْسه، وهل فوق هذا مَرْجُوّ لراجٍ، ومخوفهم سخط الله عليهم وإبعادُهم عن جَنَابه، وهل فوق هذا مخوفٌ لخائف.

– ٤٤٢ –

الأصل: وقالَ عليه السلام: اُذْكُروا انقِطَاعَ اللَّذَّاتِ، وبَقاءَ التَّبِعاتِ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في نحو هذا مراراً، وقال الشاعر:

تفنى اللّذاذةُ ممن نال بُغْيَتَهُ ... من الحرام، ويَبقَى الإثمُ والعارُ

تبقى عواقب سُوءٍ في مَغبّتها ... لا خير في لذّة من بعدها النّارُ

وراوَدَ رجل امرأة عن نفسها، فقالت له: إن امرأً يبيع جنّةً عرضُها السماوات والأرض بمقدار إصبَعين لجاهلٌ بالمساحَة، فاستحيا ورَجَع.

– ٤٤٣ –

الأصل: وقال عليه السلام: أُخبُرْ تَقْلَهْ.

قالَ الرَّضيّ رَحِمَهُ الله تَعالَى: ومن النَّاسِ مَنْ يرْوِي هذا لرسولِ الله صلى الله عليه وآله، وَمِمَّا يُقَوِّي أَنَّهُ مِنْ كلام أميرِ المؤمنين عليه السلام ما حَكاهُ ثَعلب قالَ: حدَّثنا ابن الأعرابي قالَ: قال المأمون: لولا أن عَليًّا عليه السلام قالَ: أُخبُرْ تَقْله، لقلت أنا: اِقْلَهْ تَخْبُرْ.

الشرح: المعنى اختَبِر الناسَ وَجرّبهم تُبغِضهم، فإن التجربةَ تكشف لك مساوِيهم وسوءِ أخلاقهم، فَضربَ مَثلاً لمن يُظَنّ به الخيرُ وليس هناك، فأمّا قول المأمون: لولا أنّ عليًّا

قاله لقُلتُ: اقْلَهْ تَخْبُر، فليس المراد حقيقة القِلَى، وهو البُغْض بل المراد الهَجْر والقطيعة، يقول: قاطِعْ أخاك مجرّباً له هل يَبقَى على عَهدِك أم يَنقُضه ويحوّله عنك.

ومن كلام عُتبَة بن أبي سُفْيان: طيّروا الدّم في وجوه الشّباب، فإن حَلُموا وأحسَنوا الجواب فهم هم، وإلا فلا تَطمعوا فيهم، يقول: أغضِبوهم لأن الغضبان يَحمرّ وجهه، فإن ثبتوا لذلك الكلام المُغضِب وحَلُموا وأجابوا جوابَ الحليم العاقل، فهم ممن يُعقَد عليه الخِنصَر ويُرْجَى فلاحُه، وإن سَفِهُوا وشَتَموا ولم يَثبُتُوا لذلك الكلام فلا رجاءَ لفلاحِهم. ومن المعنى الأوّل قولُ أبي العَلاء:

جرّبتُ دهرِي وأهلِيه فما تَركتْ ... ليَ التجاربُ في وُدّ امرىءٍ غَرَضا

وقال آخر:

وكنتُ أرى أنّ التجارِبَ عُدّةٌ ... فخانَتْ ثِقاتُ الناسِ حتّى التجارِبُ

وقال عبدُ الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب:

رأيتُ فُضَيلاً كان شيئاً ملفّفاً ... فأبرزَه التّمحيصُ[1] حتّى بدَا لِيَا

آخر:

عَتَبتُ على سَلْمٍ فلمّا فَقدْتُه ... وجرّبْتُ أقواماً رَجَعْتُ إلى سَلْمِ

مثلُه:

ذَمَمتُك أوّلاً حتّى إذا مَا ... بلوْتُ سواكَ عَاد الذمُّ حَمْدا

ولم أحْمَدْك من خَيرٍ ولكن ... وَجَدتُ سِواكَ شرًّا منك جِدّا

فعُدْتُ إليكَ مُضطرًّا ذَليلاً ... لأنّي لم أجِدْ مِنْ ذاك بُدّا

كمجهودٍ تَحامَى أكلَ مَيْتٍ ... فلمّا اضطُرّ عادَ إليه شدّا

الذي يتعلّق به غَرضُنا من الأبيات هو البَيْت الأوّل، وذكرنا سائرَها لحُسْنِها.

– ٤٤٤ –

الأصل: وقالَ عليه السلام: **ما كانَ الله عزّ وجل لِيَفْتَحَ عَلَى عَبْدٍ بابَ الشُّكْرِ، ويُغْلِقَ عَنْهُ بابَ الزِّيادَةِ، ولا لِيَفْتَحَ عَلَى عَبْدٍ باب الدُّعاءِ، ويُغْلِقَ عَنْهُ باب الإجابَةِ، ولا لِيَفْتَحَ عَلَيْهِ بابَ التَّوْبَةِ، ويُغْلِقَ عَنْهُ بابَ المَغْفِرَةِ.**

(١) التمحيص: الابتلاء والاختبار. القاموس مادة (محص).

الشرح: قد تقدّم القولُ في الشّكر واقتضائِه الزيادة واقتضاء الدّعاء الإجابَة، والتّوبة: المغفرة، على وجهِ الاستقصاء في الجَميع.

- ٤٤٥ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: أَوْلَى النَّاسِ بالْكَرَمِ مَن عَرَّقَتْ فِيهِ الكِرَامُ.

الشرح: اعرَقت وعَرَّقت في هذا المَوْضع بمعنًى، اي ضربتْ عروقُه في الكَرَم، اي: له سَلَف وآباءٌ كرامٌ. وقال المبرّد: أنشدني أبو محلم السّعديّ:

إنّا سألنا قومَنا فخيارُهم ... من كان أفضَلهم أبوهُ الأفضَلُ
أعطى الّذي أعطَى أبوه قبلَه ... وتَبخّلتْ أبناءُ من يَتَبَخّلُ

قال: وأنشَدَني أيضاً في المعنى:

لَطلْحَةُ بن حُبَيْشٍ حين تَسألُهُ ... أندَى وأكْرمُ من فِنْد بنِ هَطّالِ
وبيتُ طلحةَ في عزٍّ ومَكرُمةٍ ... وبيتِ فِنْدٍ إلى رِبْقٍ وأحمالِ
ألا فتى من بني ذُبْيان يَحمِلني ... وليس يَحمِلني إلا ابنُ حَمّال
فقُلتُ طلحة أولَى من عَمَدْتُ له ... وجئتُ أمشي إليه مَشْيَ مُخْتال
مُستيقناً أن حَبْلِي سوف يُعْلِقُهُ ... في رأس ذَيّالة أو رأسِ ذَيّالِ

وقال آخر:

عندَ المُلوك مَضرّةٌ وَمنافعٌ ... وأرَى البَرامِكَ لا تَضُرُّ وتَنفَعُ
إنّ العُروقَ إذا استَسَرّ بها الثّرَى ... أثْرَى النَّباتُ بها وطابَ المزرَعُ
وإذا جهلتَ من امرىء أعراقَه ... وقديمَه فانظر إلى ما يَصْنَعُ

وقال آخر:

إنّ السّريَّ إذا سرَى فبِنَفْسِه ... وابنُ السّرِيّ إذا سَرَى أسرَاهُمَا

وقال البُحتريّ:

وأرى النّجابَة لا يكون تمامُها ... لنَجيبِ قومٍ ليسَ بابن نجيبِ

- ٤٤٦ -

الأصل: وسُئِلَ عَلَيْهِ السَّلامُ: أيُّما أفْضَلُ العَدْلُ أوِ الجُودُ؟ فَقالَ:

العَدْلُ يَضَعُ الأُمُورَ مَواضِعَها، والجَودُ يُخْرِجُها مِنْ جِهَتِهَا، والعَدْلُ سائِسٌ عامٌّ، والجُودُ عارِضٌ خاصٌّ، فالعَدْلُ أشْرَفُهُما وأفْضَلُهُما.

الشرح: هذا كلامٌ شريفٌ جليلُ القَدْر، فضَّل عليه السلام العَدْل بأمرين:

أحدُهما: أن العدل وضعُ الأمور مواضعَها، وهكذا العَدالة في الاصطلاح الحُكْميّ، لأنها المَرْتَبة المتوسطة بين طَرَفي الإفراط والتفريط، والجُود يُخرِج الأمر من موضِعه، والمراد بالجُود هاهنا هو الجود العُرْفيّ، وهو بَذْل المُقتَنَيات للغير، لا الجود الحقيقيّ، لأنّ الجُوْد الحقيقيّ ليس يُخرِج الأمر من جهته، نحو جود البارِىء تعالى.

والوجه الثاني: أنّ العدل سائسٌ عامّ في جميع الأمور الدّينيّة والدنْيويّة، وبه نظام العالَم وقِوام الوجود، وأمّا الجود فأمرٌ عارِضٌ خاصّ، ليس عموم نفعه كعموم نفع العَدْل.

- ٤٤٧ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: النَّاسُ أعْدَاءُ مَا جَهِلُوا.

الشرح: هذه من ألفاظه الشريفة الّتي لا نظيرَ لها، وقد تقدّم ذكرها وذكرُ ما يُناسبها. وكان يقال: مَن جَهِل شيئاً عَاداه.

وقال الشاعر:

جهلتَ أمراً فأبدَيْتَ النَّكيرَ له ... والجاهلُون لأهْلِ العلم أعداءُ

وقيل لأفلاطون: لِمَ يُبغض الجاهلُ العالِمَ، ولا يُبْغِضُ العالمُ الجاهلَ؟ فقال: لأنّ الجاهلَ يَستشعِر النّقص في نفسِه، ويظنّ أنّ العالم يَحتقِره، ويَزْدَرِيه فيُبغِضه، والعالِم لا نَقْص عنده ولا يَظُنّ أنّ الجاهلَ يَحتقِره، فليس عندَه سببٌ لبُغْض الجاهِل.

- ٤٤٨ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : الزُّهْدُ كُلُّهُ بيْنَ كَلِمَتيْنِ مِنَ القُرْآن، قالَ الله سُبْحانَهُ : ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[1]، ومَنْ لَمْ يَأْسَ عَلى المَاضِي وَلَمْ يَفْرَحْ بالآتِي فَقَدْ أَخَذَ الزُّهْدَ بِطَرَفَيْهِ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في هذين المعنيَين بما فيه كفاية.

- ٤٤٩ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : الوِلايَاتُ مَضَامِيرُ الرِّجَالِ.

الشرح: أي: تعرف الرجالُ بها كما تُعرَف الخيل بالمضمار، وهو المَوضع أو المُدّة الّتي تُضمَّر فيها الخيل، فمِن الوُلاة مَن يظهَر منه أخلاقٌ حميدة، ومنهم من يظهَر منه أخلاقٌ ذميمة. وقال الشاعر:

سكراتٌ خمسٌ إذا مُنِيَ المر ... ءُ بها صارَ عُرضةً للزّمانِ
سَكْرةُ المَالِ والحداثة والعِشْـ ... ـقِ وسكرُ الشّراب والسّلطانِ

وقال آخر:

يابنَ وَهْبٍ والمرءُ في دَوْلة السلـ ... ـطانِ أعمَى ما دامَ يُدعَى أمِيرا
فإذا زَالتِ الولايةُ عَنْهُ ... واستَوَى بالرّجال عادَ بَصيرا

وقال البُحتريّ:

وتاه سَعيدٌ أن أعِيرَ رياسَةً ... وقُلّد أمراً كان دونَ رِجالِهِ
وضاقَ على حقّي بعَقْب اتّساعِه ... فأوسَعْتُه عذراً لِضِيق احتمالِه
فأدبَرَ عنّي عند إقبال حَظّه ... وغيّر حالِي عندَه حُسنُ حالِه
فليتَ أبا عثمانَ أمسَك تِيهَه ... كإمساكِه عند الحقوقِ بمالِه

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

- ٤٥٠ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ!

الشرح: هذه الكلمةُ قد سبقتْ، وتكلّمنا عليها، وما أحسنَ قولَ المَعرّي:

ما قَضَى الحاجاتِ إلّا شِمِلٌّ ... نومُه فوقَ فِراشٍ من نمالْ

وقال الرّضيّ رحمه الله :

عليها أخامِسُ مِثلُ الصّقورِ ... طُوال الرجاءِ جِسام الأَرَبْ

وكلّ فتى حظُّ أجفانِه ... من النوم مَضمَضةٌ يُستلبْ

فبينا يقال كَرَى جَفنه ... بِقِطْعٍ من اللّيل إذ قيل هَبْ

- ٤٥١ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : لَيْسَ بَلَدٌ بأحَقّ بِكَ مِنْ بَلَدٍ، خَيْرُ البِلادِ ما حَمَلَكَ.

الشرح: هذا المعنى قد قيل كثيراً، ومن ذلك قولُ الشاعر:

لا يَصدِفنّكَ عن أمرٍ تُحاوِلُهُ ... فِراقُ أهلٍ وأحبابٍ وجيرانِ

تلقَى بكلِّ ديارٍ ما حللتَ بها ... أهلاً بأهلٍ وأوطاناً بأوطانِ

وقال شَيْخي أبو جعفر يحيى بن أبي زَيْد نقِيبُ البَصْرة:

أنْسَيْتني بلدِي وأرضَ عشيرتي ... ونزلتُ مِنْ نُعماكَ أكرمَ مَنزِلِ

وأخذتُ فيك مدائِحي فكأنها ... في آل شَمّاسٍ مدائحُ جَرْوَلِ

أبو عُبادة البُحتُريّ:

في نعمةٍ أوطنتُها وأقمتُ في ... أكنافِها فكأنني في مَنْبِجِ

ومَنْبج، هي مدينة البحتريّ.

أبو تمّام:

كلُّ شِعبٍ كنتم به آلَ وَهْبٍ ... فهو شِعْبِي وشِعْب كلِّ أديبِ

إنّ قلبي لكمْ لكا لكبدِ الحـ ـرّى وقلبي لغيركُمْ كالقُلوبِ

وقد ذهب كثيرٌ من الناس إلى غير هذا المذهب، فجعلوا بعض البلاد أحقَّ بالإنسان من بعض، وهو الوطن الأوّل ومَسقِط الرّأس، قال الشاعر:

أحَبُّ بلاد الله ما بين مَنْبِجٍ إليّ وسَلمى أن يَصُوب سَحابُها
بلادٌ بها نِيطتْ عليّ تمائمي وأوّل أرض مَسّ جِلدِي تُرابُها

وكان يقال: مَيْلُك إلى مولدِك مِن كَرَم مَحتِدك.

وقال ابنُ عبّاس: لو قَنع الناسُ بأرزاقهم قناعَتهم بأوطانهم، لما اشتكى أحدٌ الرّزق.

وكان يقال: كما أنّ لحاضِنَتِك حقّ لَبَنِها فلِأَرْضك حُرْمة وَطَنِها.

وكانت العربُ تقول: حِماكَ أحمَى لك، وأهلُك أحْفى بك.

وقال الشاعرُ:

وكُنّا ألِفْناها ولم تَكُ مألفا وقد يُؤْلَف الشيءُ الذي ليس بالحَسَنْ
كما تُؤْلَف الأرضُ الّتي لم يَطِبْ بها هَواءٌ ولا ماءٌ ولكنها وَطَنْ

أعرابيّ:

رمْلةٌ حضَنتْني أحشاؤها، وأرضعَتْني أحساؤها.

كانت العرب إذا سافرتْ حملتْ معها من تربة أرضها ما تستنشق ريحَه، وتَطرحُه في الماء إذا شربتْه، وكذلك كانت فلاسِفةُ يونانَ تَفعل.

وقال الشاعر في هذا المعنى:

نسيرُ على علمٍ بكُنْه مَسيرنا بعُفْةٍ زاد في بطونِ المَزاوِدِ
ولا بدّ في أسفارِنا من قبيصةٍ من التّرب نُسقاها لحبّ الموالِدِ

وقالت الهند: حُرمة بلدِك عليك كحرمةِ أبويك، كان غِذاؤك منهما وأنت جنين وكان غذاؤهما منك.

ومن الكلام القديم: لولا الوطنُ وحبُّه لخرِّب بلد السَّوْء.

ابن الرُّوميّ:

وحَبّبَ أوطانَ الرّجال إليهمُ مآربُ قَضّاها الشبابُ هُنالكا
إذا ذَكَروا أوطانَهمْ ذَكّرتهمُ عُهودَ الصِّبا فيها فحنُّوا لذالكا

- ٤٥٢ -

الأصل: وقالَ عليه السلام وقَدْ جاءَهُ نَعْيُ الأَشْتَرِ رَحِمَهُ الله: مالِكٌ، ومالِكٌ؟ والله لَوْ كَانَ جَبَلاً لَكانَ فِنْداً، أَوْ كانَ حَجَراً لكانَ صَلْداً لا يَرْتَقِيهِ الحافِرُ، ولا يُوفِي عَلَيْهِ الطَّائِرُ.

قالَ الرَّضيّ رَحِمَهُ الله تعالى: الْفِنْدُ: المُنْفَرِدُ مِنَ الْجِبالِ.

الشرح: يقال: إنّ الرّضيّ خَتم كتاب نَهج البلاغة بهذا الفصل، وكُتِبتْ به نُسَخٌ متعدِّدة ثمّ زاد عليه إلىَ أن وَفى الزّيادات التي نذكرها فيما بعد.

وقد تقدّم ذكرُ الأشتر، وإنما قال: لو كان جبَلاً لكان فِنْداً، لأن الفند قِطعةُ الجَبل طُولاً، وليس الفِنْد القِطعةَ من الجبل كيفما كانت، ولذلك قال: لا يرتقيه الحافر، لأنّ القطعة المأخوذة من الجَبَل طُولاً في دِقَّة لاسبيل للحافر إلى صعودِها، ولو أُخِذت عَرْضاً لأمكَنَ صُعُودها.

ثم وَصَف تلك القطعَة بالعلوّ العظيم، فقال: ولا يوفي عليه الطائر، أي لا يصعد عليه، يقال: أوفى فلانٌ على الجَبل: أشرَف.

- ٤٥٣ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: قَليلٌ مَدُومٌ عَليهِ، خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مَمْلُولٍ مِنْهُ.

الشرح: هذا كلامٌ يُخاطِب به أهل العبادات والصلاة، قال: قليلٌ من النوافل يدومُ المرءُ عليه خيرٌ له من كثير منها يَملّه ويترُكه.

والجيّد النادر في هذا قولُ رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ هذا الدّين متين، فأوْغِلْ فيه برِفْق، فإنّ المَنبتَّ لا أرضاً قَطع، ولا ظَهْراً أبْقى»[1].

وكان يقال: كلّ كثير مملول. وقالوا: كلّ كثير عدوٌّ للطبيعة.

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ١٨)، و«شعب الإيمان» (٣٨٨٥)، والشهاب في «مسنده» (١١٤٧)، وابن المبارك في «الزهد» (١١٧٨)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٩٠٠).

وقال الشاعر:

إنّي كَثُرتُ عليه في زيارتِه ... فملّ والشيءُ مملولٌ إذا كَثُرا
ورابَني منه أني لا أزالُ أرَى ... في طَرفه قِصراً عني إذا نَظَرا

– ٤٥٤ –

الأصل: وقالَ عليه السلام: إذا كَانَ في رَجُلٍ خَلّةٌ رَائِعَةٌ، فانتَظِروا مِنْهُ أَخَوَاتِهَا.

الشرح: مثال ذلك إنسان مَستور الحال عنا رأيناه وقد صدرتْ عنه حركةٌ تَروعُك وتُعجِبك. إما لحُسنها أو لقُبْحها، مثل أن يتصدّق بشيء له وَقْع ومقدار من مالِه، أو ينكر منكراً عجز غيرُه عن إنكاره أو يَسرِق أو يَزنيَ، فينبغي أن يُنتظر ويُترقّب منه أخَوات ما وَقَع منه، وذلك لأنّ العقل والطبيعة الّتي فيه المحرِّكة له إلى فعل تلك الحركة، لا بدّ أن تحرّكه إلى فِعْل ما يُناسِبها، لأنّها ما دعتْه إلى فِعل تلك الحركة لخصوصيّة تلك الحركة، بل لما فيها من المعنى المقتضِي وقوعَها، وهذا يتعدّى إلى غيرها ممّا يجانسها، ولذلك لا تَرَى أحداً قد اطّلعتَ من حالِه يوماً على أنّه قد شَرِب الخمر إلّا وسوف تَطلّع فيما بعدُ منه على أنّه يشربُها، وبالعكس في الأمور الحَسنة لا ترى أحداً قد صَدَر عنه فِعلٌ من أفعال الخير والمروءة إلّا وستَرَاه فيما بعدُ فاعلاً نظيره أو ما يقارِبُه.

وشتَمَ بعضُ سفهاء البَصْرة الأحنفَ شَتْماً قبيحاً فحلَم عنه، فقيل له في ذلك، فقال: دعُوه فإني قد قتلتُه بالحلم عنه، وسيقتُل نفسَه بجراءته، فلمّا كان بعدَ أيّام جاء ذلك السفيهُ فشَتَم زياداً، وهو أميرُ البَصْرة حينئذٍ، وظَنّ أنه كالأحنف، فأمر به فقُطِع لسانه ويَدُه.

– ٤٥٥ –

الأصل: وقالَ عليه السلام لِغَالِبِ بْنِ صَعْصَعَةَ أبي الفَرَزْدَق في كلام دارَ بينهما: ما فَعَلَتْ إبِلُكَ الكَثِيرَةُ؟ قالَ: ذَعْذَعَتْها الحُقُوقُ يا أميرَ المؤمنينَ، فقالَ عليه السلام: ذَلِكَ أَحْمَدُ سُبُلِها.

الشرح: ذعذَعَتْها بالذال المعجمة مكرّرة: فرّقتْها، ذَعْذَعْتُه فتذعذَع، وذَعْذَعةُ السرّ: إذاعتُه. والذّعاذِع: الفِرَق المتفرّقة، الواحدةَ ذعذَعة، وربما قالوا: تفرّقوا ذَعاذِع.

دخل غالبُ بنُ صعصعةَ بن ناجية بن عقال المجاشِعيّ على أمير المؤمنين عليه السلام أيّام خلافته، وغالبٌ شيخٌ كبير، ومعه ابنُه همّام الفَرَزْدق وهو غلام يومئذٍ، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: مَن الشيخ؟ قال: أنا غالبُ بنُ صعصعة، قال: ذو الإبل الكثيرة؟ قال: نعم، قال: ما فعلتْ إبلُك؟ قال: ذعْذَعَتْها الحقوق، وأذهبَتْها الحَملات والنوائب، قال: ذاك أحمد سُبُلِها، مَن هذا الغلامُ مَعَك؟ قال: هذا ابني، قال: ما اسمُه؟ قال همّام، وقد روّيْتُه الشِّعرَ يا أمير المؤمنين وكلامَ العَرَب، ويوشِك أن يكون شاعراً مُجيداً، فقال: لو أقرأتَه القرآنَ فهو خيرٌ له، فكان الفرزدقُ بعدُ يَروي هذا الحديث ويقول: ما زالتْ كلمتُه في نفسي حتّى قيّد نفسه بقَيْد وآلَى ألّا يَفُكّه حتّى يَحفَظ القرآنَ، فما فكّه حتّى حَفِظه.

― ٤٥٦ ―

الأصل: وقالَ عليه السلام: مَنِ اتَّجَرَ بِغَيْرِ فِقْهٍ فَقَدِ ارْتَطَمَ في الرِّبا.

الشرح: يقول: تَجَر فلانٌ واتّجر فهو تاجر، والجمع تَجْر، مِثل صاحِب وصَحْب، والتِّجارة والتَّجْر بمعنًى واحد، إذا أخذْتَهما مصدَرَيْن لـ «تَجَر»، وأرض مَتْجَرةٌ، يُتّجر فيها.

وارتَطم فلانٌ في الوَحْل والأمر إذا ارْتَبَكَ فيه ولم يَقدِر على الخروج منه، وإنّما قال عليه السلام ذلك لأنّ مسائلَ الرِّبا مُشتَبِهة بمسائل البَيْع، ولا يَفْرِق بينهما إلّا الفقيه، حتّى إنّ العُظماءَ من الفقهاء قد اشتَبَه عليهم الأمرُ فيها فاختلفوا فيها أشدَّ اختلاف، كبَيْع لحم البقر بالغنم متفاضلاً، هل يجوز أم لا؟ وكذلكَ لَبَن البقر بلَبَن الغَنَم، وجلود البَقَر بجلود الغَنَم، فقال أبو حنيفة: اللحوم والألْبان والجلودُ أجناسٌ مختلفة، فيجوز بيعُ بعضها ببعض متفاضِلاً، نظراً إلى أنّ أصولها أجناسٌ مختلفة، والشافعيّ لا يُجِيزُ ذلك ويقول: هو رباً، وكذلك القول في مُدّي عَجْوة ودرْهم بمُدّ عَجوة. وكذلك بَيْع الرّطَب بالتّمر متساوِياً كَيْلا، كلّ ذلك يقول الشافعي: إنّه رِباً، وأبو حنيفة يُخرِجه عن كونه رِباً، ومسائلُ هذا الباب كثيرة.

― ٤٥٧ ―

الأصل: وقالَ عليه السلام: منْ عظَّمَ صِغارَ المصائِبِ، ابْتَلاهُ الله بِكِبارِها.

الشرح: إنّما كان كذلك لأنّه يشكو الله ويَتسخّط قضاءه، ويَجْحد النّعمة في التّخفيف عنه، ويدّعي فيما ليس بمُجحِف به من حَوَادِث الدّهر أنّه مُجحِف، ويتألّم بين الناس، لذلك أكثَر ممّا تقتضيه نَكْبتُه، ومَن فَعلَ ذلك استَوْجَبَ السُّخْطَ من الله تعالى، وابتُلِيَ بالكثير من النّكبة، وإنما الواجب على من وقع في أمر يَشُق عليه، ويتألّم منه ويَنال من نفسه، أو من مالِه نَيْلاً ما، أن يَحمَد الله تعالى على ذلك، ويقول: لعلّه قد دَفَع بهذا عنّي ما هو أعظَم منه، ولئن كان قد ذهب من مالي جزءٌ فلقد بقيَ أجزاءٌ كثيرة.

وقال عروةُ بنُ الزّبير لمّا وقَعت الأكَلة في رِجْله فقطعها وماتَ ابْنُه: اللهمّ إنّك أخذتَ عُضواً وتَركْت أعضاء، وأخذتَ ابناً وتركت أبناء، فليَهْنِك، لئن كنتَ أخذْتَ لقد أبقَيت، ولئن كنتَ ابتَلَيْت لقد عافَيْت.

— ٤٥٨ —

الأصل: وقالَ عليه السلام: مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، هانَتْ عَلَيْهِ شَهْوَتُهُ.

الشرح: قد تقدّم مِثلُ هذا المعنى مِراراً، ومن الكلام المشهور بين العامّة: قبّح الله امرأً تَغْلِب شَهْوَته على نَخْوَته.

والجيّد النادر في هذا قولُ الشاعر:

فـإنّـك إنّ أعـطـيْـتَ بـطـنَـك سُـؤلَـه وفَـرْجَـك نـالا مُـنـتـهَـى الـذّمّ أجـمَـعَـا

— ٤٥٩ —

الأصل: وقالَ عليه السلام: ما مَزَح امْرُؤٌ مَزْحَةً، إلّا مَجَّ مِنْ عَقْلِهِ مَجَّةً.

الشرح: قد تقدّم القولُ في المزاح. وكان يقال: خيرُ المزاحِ لا يُنال، وشرّه لا يُستقَالُ. وقيل: إنّما سُمّيَ المِزاحُ مِزاحاً لأنه أُزِيح عن الحق.

- ٤٦٠ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: زُهْدُكَ في رَاغِبٍ فِيكَ نُقْصَانُ حَظٍّ، ورَغْبَتُك في زاهِدٍ فِيك ذُلُّ نَفْسٍ.

الشرح: أي نقصانُ حظٍّ لك، وذلك لأنّه ليس مِن حقّ مَن رَغِب فيك أن تَزهَد فيه لأنّ الإحسان لا يُكافَأ بالإساءة، وللقصد حُرْمة، وللآمل ذمام، ومن طَلَب مودّتك فقد قَصَدك وأمّلك، فلا يجوزُ رفضُه واطّراحُهُ والزّهدُ فيه، وإذا زَهدتَ فيه فذلك لنُقصانِ حَظّك لا لنُقصان حَظّه، فأمّا رَغْبَتُك في زاهدٍ فيك فمذَلّة، لأنّك تطرح نَفْسَك لمن لا يعبأ بك، وهذا ذُلٌّ وصغار.

وقال العباسُ بنُ الأحنَف في نسيبه، وكان جيِّدَ النَّسِيب:

مـا زلـتُ أزهَـد فـي مـودّة راغِـبٍ ... حتّـى ابـتُـليـتُ بـرَغْـبـةٍ فـي زَاهـدِ

هـذا هـو الـدّاءُ الّـذي ضَـاقـت بـه ... حِيَـلُ الـطّـبِـيب وطَـال يـأسُ الـعَـائِـد

أي: ما زلتُ عزيزاً حتّى أذلّني الحبّ.

- ٤٦١ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: مَا زَالَ الزُّبَيْرُ رَجُلاً منّا أَهْلَ الْبَيْتِ حَتّى نشأ ابْنُهُ الْمَشْؤُومُ عَبْدُ الله.

الشرح: ذكر هذا الكلامَ أبو عُمَر بن عبد البرّ في كتاب «الاستيعاب» عن أميرِ المؤمنين عليه السلام في عبدِ اللّه بن الزبير، إلا أنّه لم يَذكُر لفظة المشؤوم.

عبد الله بن الزبير: نسبه وبعض أخباره

ونحن نَذكُر ما ذكره ابن عبد البرّ في ترجمة عبد اللّه بن الزبير، فإنّ هذا المُصنّف يَذكُر جُمَل أحوالِ الرّجل دون تفاصِيلها، ثمّ نذكر تفصيل أحواله من مواضعَ أخرى.

قال أبو عمَرَ رحمه الله: يُكنى عبدُ اللّه بن الزبير أبا بكر، وقال بعضُهم: أبا بكير، ذكر ذلك أبو أحمد الحاكم الحافظ في كتابه في الكُنَى. والجمهور من أهل السِّيَر وأهلِ الأثَر على أنّ كُنيتَه أبو بكر، وله كنيةٌ أخرى أبو خُبَيْب بابنه خُبَيب وكان أسَنّ ولدِه، وخُبَيب هو صاحبُ عمر بنِ عبدِ العزيز الّذي مات من ضَرْبه إذ كان والياً على المدينة للوليد، وكان الوليدُ أمَره بضَرْبه فمات من أذيّة ذلك فوَداه عمرُ بعدُ.

قال أبو عمر: وسمّاه رسول الله ﷺ باسم جدّه، وكَنّاه بكُنْية جدّه عبدِ اللّه أبي بكر، وهاجرتْ أمُه أسماءُ من مكّة إلى المدينة وهي حاملٌ به، فوَلَدته في سنة اثنَتين من الهجرة لعِشرين شَهْراً من التاريخ، وقيل: وُلد في السّنة الأولى، وهو أوّل مولود ولد في الإسلام من المهاجرين بعد الهجْرة.

وروَى هشامُ بنُ عروة عن أسماء قالت: حملتُ بعبدِ اللّه بمكّة، فخرجتُ وأنا مُتِمٌّ فأتيتُ المدينة فنزلتُ بقباء، فولدته بقباء، ثم أتيتُ رسولَ الله ﷺ فوضعتُه في حِجره، فدعا بتَمرةٍ فمَضَغها ثم تَفَل في فيه، فكان أوّل شيء دَخَل جوفَه ريقُ رسولِ الله ﷺ، ثمّ حنّكه بالتّمرة، ثم دعا له وبارك عليه[1]، وهو أوّل مولود وُلِد في الإسلام للمهاجِرين بالمدينة، قال: ففَرِحوا به فرحاً شديداً، وذلك أنّهم قد كان قيل لهم: إنّ اليهود قد سَحَرَتْكم فلا يُولد لكم.

قال أبو عمر: وشَهِد عبدُ اللّه الجَمَل مع أبيه وخالتِه، وكان شَهماً ذَكراً ذا أنَفة، وكان له لَسَنٌ وفَصاحة وكان أطلسَ لا لِحيةَ له ولا شَعرَ في وجهه، وكان كثيرَ الصّلاة، كثيرَ الصّيام، شديدَ البأس، كريمَ الجدّات والأمّهات والخالات، إلّا أنه كان فيه خلال لا يَصلُح معها للخلافة، فإنّه كان بخيلاً ضَيِّق العَطَن سيّىء الخُلُق حَسُوداً، كثيرَ الخلاف، أخرَج محمّدَ بنَ الحنفيّة من مكّة والمدينة، ونَفَى عبدَ اللّه بنَ عبّاس إلى الطائف.

وقال عليٌّ عليه السلام في أمرِه: ما زال الزبيرُ يُعَدُّ منّا أهلَ البيت حتّى نشأ ابنُه عبدُ اللّه[2]. قال أبو عمر: وبُويع له بالخلافة سنةَ أربع وستّين في قول أبي مَعشر.

وقال المَدائِنيّ: بُويع له بالخلافة سنَة خمسٍ وستّين.

وكان قبلَ ذلك لا يُدْعَى باسم الخِلافة، وكانت بَيْعته بعد موتِ معاوية بن يزيدَ بن معاوية، على طاعتِه أهل الحِجاز واليمن والعراق وخُراسانَ، وحَجّ بالناس ثمانيَ حِجَج، وقُتل في أيام عبدِ الملك بن مَرْوَان يوم الثّلاثاءِ لثلاث عشرة بقين من جُمَادى الأولى، وقيل: من جُمادَى الآخرة سنة ثلاثٍ وسبعين، وهو ابن اثنتين وسبعين سنةً، وصُلب بمكّة بعد قَتله، وكان الحجّاج قد ابتدأ بحصاره من أوّل ليلة من ذي الحِجّة سنَة اثنتين وسبعين، وحَجّ الحجّاج بالناسِ في ذلك العام، ووَقَف بعَرَفة وعليهِ درْع ومِغْفَر، ولم يَطُوفوا بالبَيْتِ في تلك السنة. فحاصَرَه ستّة أشهر وسبعةَ عشرَ يوماً إلى أن قَتَله.

قال أبو عمر: فروَى هشامُ بنُ عروة عن أبيه، قال: لمّا كان قبلَ قَتْل عبد اللّه بعشرةِ أيّام

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: هجرة النبي ﷺ إلى المدينة (٣٩٠٩)، ومسلم، كتاب: الآداب، باب: استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى الصالح (٢١٤٦).

(٢) تاريخ دمشق: ١٨/ ٤٠٤.

دخَل على أمّه أسمَاء بنت أبي بكر وهي شاكية، فقال: كيف تَجدِينَك يا أمّه؟ قالت: ما أجِدُني إلّا شاكية، فقال لها: إنّ في الموت لراحة، فقالت: لعلّك تمنّيتَه لي، وما أحِبُّ أن أموتَ حتى يأتيَ عليَّ إحدَى حالتَيك، إمّا قُتِلتَ فأحتَسِبَك، وإما ظَفِرتَ بعدوّك فقرّت عَيْني.

قال عروة: فالتفتَ عبدُ الله إليّ وضَحِك، فلمّا كان اليوم الّذي قُتِل فيه دَخَل عليها في المسجد، فقالت: يا بُنيّ لا تقبل منهم خُطّة تَخاف فيها على نفسك الذُّلّ [مخافة القتل]، فوالله لَضَربَةُ سيفٍ في عِزٍّ خيرٌ من ضربةِ سَوطٍ في مَذَلّة، قال: فخرج عبدُ الله وقد نُصِب له مِصراعٌ عند الكعبة، فكان يكون تحتَه، فأتاه رجلٌ من قريش فقال له: ألا نَفتَح لك بابَ الكعبة فتدخلها؟ فقال: والله لو وَجَدوكم تحتَ أستارِ الكعبة لَقتَلوكم عن آخِركم، وهل حُرمةُ البيتِ إلّا كحرمة الحرَم! ثم أنشد:

ولستُ بمُبتاعِ الحياةِ بسُبّةٍ ... ولا مُرتَقٍ مِن خَشيةِ الموت سُلّما

ثمّ شدّ عليه أصحابُ الحجاج، فسأل عنهم، فقيل: هؤلاء أهلُ مِصر، فقال لأصحابه: اكسروا أغمَادَ سيوفِكم، واحملوا معي، فإنني في الرّعيل الأول، ففعلوا، ثمّ حَمَل عليهم وحَمَلوا عليه، فكان يضرب بسَيفين، فلَحِق رجلاً فضرَبه فقَطع يدَه، وانهزموا وجعل يضربُهم حتى أخرجهم من باب المسجد، وجعل رجلٌ منهم أسوَد يَسبّه، فقال له: اصبر يابن حام، ثم حمل عليه فصَرَعه، ثم دخل عليه أهلُ حِمْص من باب بني شَيْبة فسأل عنهم، فقيل: هؤلاء أهلُ حِمْص، فشَدّ عليهم وجَعَل يضرِبهم بسيفه حتى أخرَجهم من المسجد، ثم انصرَف وهو يقول:

لو كان قِرْني واحداً أرْدَيْتُه ... أورَدْتُه الموتَ وقد ذَكّيْتُه

ثمّ دخل عليه أهلُ الأرْدُنّ من باب آخر، فقال: مَن هؤلاء؟ قيل: أهلُ الأرْدُنّ، فجعل يضرِبهم بسَيْفه حتى أخرَجَهم من المسجد، ثمّ انصرَف وهو يقول:

لا عهدَ لي بغارةٍ مِثلِ السَّيْلْ ... لا يَنجلي قَتامُها حتّى اللَّيلْ

فأقبَل عليه حَجَر من ناحية الصَّفَا فأصابه بين عَينَيه، فنكّس رأسَه وهو يقول:

ولَسْنَا على الأعقاب تَدمَى كُلومُنا ... ولكنْ على أقدامِنا تَقطُر الدّمَا

أنشدَه متمثّلاً، وحَمَاه مَوْلَيان له، فكان أحدهما يرتجز فيقول:

العبدُ يَحمِي ربَّه ويَحتَمي

قال: ثمّ اجتمعوا عليه، فلم يزالوا يضربونه ويضرِبُهم حتى قتلوه ومولَيَيْه جميعاً، فلمّا قُتِل كبّر أهلُ الشام، فقال عبد الله بن عمر: المكبِّرون يومَ وُلد خَيرٌ من المكبِّرين يوم قُتل.

قال أبو عمر: وقال يعلى بنُ حَرْملة: دخلتُ مكّة بعدما قُتِل عبدُ الله بنُ الزّبير بثلاثةِ أيام، فإذا هو مصلوب، فجاءت أمّه أسماءُ، وكانت امرأةً عجوزاً طويلة مكفوفة البَصَر تقاد، فقالت

للحجّاج: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ فقال لها: المنافق؟! قالت: والله ما كان مُنافقاً، ولكنه كان صَوّاماً قَوّاماً بَرًّا، قال: انصرفي فإنك عجوز قد خَرِفْتِ. قالت: لا والله ما خَرِفْتُ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرجُ من ثقيف كذّاب ومبير»[1]، أمّا الكَذّاب فقد رأيناه - تعني المختار - وأما المُبير فأنت.

قال أبو عمر: ورَوَى سعيد بنُ عامر الخرّاز عن ابن أبي مُليكة، قال: كنت الآذن لمن بشّر أسماء بنزول ابنها عبد اللّه من الخشبة، فدعتْ بمرْكن وشبٍّ يمانٍ، فأمرتْني بغسْله، فكنا لا نتناول منه عُضواً إلّا جاء معنا، فكنا نغسل العضوء ونَدعه في أكفانه ونتناول العضو الذي يليه فنغسله، ثم نضعه في أكفانه، حتى فرغْنا منه، ثمّ قامت فصلّت عليه، وقد كانت تقول: اللّهم لا تمتْني حتى تَقِرّ عيني بجثّته، فلما دفنته لم يأت عليها جمعة حتى ماتت.

قال أبو عمر: وقد كان عُروة بنُ الزبير رَحَلَ إلى عبد الملك، فرَغِب إليه في إنزال عبد اللّه من الخَشبة، فأسعَفه بذلك، فأنزل.

قال أبو عمر: وقال عليّ بن مجاهد: قُتل مع ابن الزبير مائتان وأربعون رجلاً، إنّ منهم لَمَنْ سالَ دمُه في جوف الكعبة.

قال أبو عمر: ورَوَى عيسى عن أبي القاسم، عن مالك بن أنس، قال: كان ابن الزبير أفضل من مَرْوان وأولَى بالأمر منه ومن أبيه، قال وقد رَوَى عليّ بنُ المَدائنيّ، عن سُفيان بن عُيينة، أن عامر بن عبد اللّه بن الزبير مكث بعد قتل أبيه حَوْلاً لا يسأل الله لنفسه شيئاً إلا الدعاء لأبيه.

قال أبو عمر: ورَوَى إسماعيل بن عليّة، عن أبي سُفْيان بن العَلاء، عن ابن أبي عَتِيق، قال: قالت عائشةُ: إذا مرّ ابنُ عمَر فأرُونيه، فلما مَرّ قالوا: هذا ابنُ عمر فقالت: يا أبا عبد الرحمن، ما مَنَعك أن تَنْهاني عن مَسيري، قال: رأيت رجلاً قد غَلَب عليكِ، ورأيتُكِ لا تُخالفينه - يعني عبد اللّه بن الزبير - فقالت: أما إنك لو نَهَيتني ما خرجتُ.

فأما الزّبير بنُ بكار فإنه ذكر في كتابِ «أنساب قريش» من أخبار عبد اللّه وأحواله جُملة طويلة نحن نختصرها، ونذكر اللُّباب منها، مع أنه قد أطنب في ذكر فضائله والثناء عليه، وهو معذورٌ في ذلك، فإنه لا يلامُ الرجلُ على حُبِّ قومه، والزّبير بن بكار أحدُ أولاد عبد اللّه بن الزبير، فهو أحقّ بتقريظه وتأبينه.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الفتن، باب: ما جاء في ثقيف، ثقيف كذاب (٢٢٢٠)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٤٧٨).

قال الزبير بنُ بكار: أمّه أسماء ذاتُ النِّطاقين ابنةُ أبي بكر الصِّديق، وإنما سُمّيتْ ذاتَ النِّطاقين لأنّ رسول الله ﷺ لما تجهز مهاجراً إلى المدينة ومعه أبو بكر لم يكن لسفرتِهما شِناق، فشقَّت أسماءُ نِطاقها فَشَنَقَتْها به، فقال لها رسول الله ﷺ: «قد أبدَلك الله تعالى بنطاقِك هذا نطاقَيْن في الجنة»[1]، فسُمّيتْ ذاتَ النِّطاقين. قال: وقد رَوَى محمد بن الضحاك: عن أبيه أن أهل الشام كانوا وهم يُقاتلون عبد اللّه بمكة يَصِيحون: يابن ذات النِّطاقين، يظنونه عَيْباً، فيقول ابنها: والإله، ثمَّ يقول: إني وإياكم لكما قال أبو ذؤيب:

وعيّرني الواشُونَ أنّي أحِبُّها ... وتلكَ شَكاةٌ ظاهرٌ عنكَ عارُها

فإنْ أعتَذِرْ عنها فإنّي مكذَّبٌ ... وإنْ تَعتذِر يُردَدْ عليك اعتِذارُها

ثمّ يُقبِل على ابن أبي عتيق - وهو عبدُ اللّه بن محمّد بن عبد الرحمن بن أبي بكر - فيقول: ألا تسمعُ يابنَ أبي عَتيق

قال الزبير: وزعموا أنّ عبد اللّه بن الزبير لمّا وُلِد أُتِيَ به رسولَ الله ﷺ، فنَظَر في وجهِه وقال: «أهو هو؟ ليَمنعَنّ البيتَ أو ليَموتَنّ دونه»[2].

وقال العُقَيليّ في ذلك:

بَرٌّ تَبيَّنَ ما قال الرسولُ له ... وذو صَلاةٍ بضاحِي وجهه عَلَمُ

حَمامة من حَمامِ البيت قاطِنَة ... لا تَتْبع الناسَ إن جارُوا وإن ظَلَموا

قال: وقد رَوَى نافعُ بن ثابت، عن محمّد بن كَعْب القُرَظيّ، أنّ رسولَ الله ﷺ دخل على أسماءَ حينَ وُلِد عبدُ اللّه فقال: أهو هو؟ فتركتْ أسماء رَضاعَه، فقيل لرسول الله ﷺ: إنّ أسماءَ تَركتْ رَضاعَ عَبدِ اللّه لمّا سمعتْ كَلِمتك؟ فقال لها: «أرْضِعيه ولو بماءِ عَيْنَيْك، كَبْش بين ذِئاب عليها ثِيابٌ، ليَمنعنّ الحَرَم أو ليَموتَنّ دونَه»[3].

قال: وحدّثني عَمّي مُصعَب بنُ عبد اللّه، قال: كان عبدُ اللّه بنُ الزبير يقول: هاجرتْ بي أمّي في بَطْنها، فما أصابها شيءٌ من نَصَب أو مَخمصة إلا وقد أصابني.

قال: وقالت عائشةُ: يا رسولُ الله، ألا تكْنيني؟ فقال: «تكَنَّي باسْمِ ابنِ أُختِك عبد اللّه»[4]، فكانت تُكنَى أمَّ عبدِ اللّه.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، حمل الزاد في الغزو (٢٩٧٩)، وأحمد في «مسنده» (٢٥٠٩٨).

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٣٧٢٣٣) ونسبه لابن عساكر.

(٤) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٣٧٧٧٥).

قال: وروى هِندُ بن القاسم، عن عامر بنِ عبد اللّه بنِ الزّبير، عن أبيه، قال: احتجَم رسولُ الله ﷺ، ثـمّ دَفَع إليّ دمه، فقال: اذهب به فوَارِه حيث لا يَراه أحد، فذهبتُ به فشربْتُه، فلمّا رجعتُ قال: ما صنعت؟ قلتُ: جعلتُه في مكان أظنّ أنّه أخفَى مكانٍ عن الناس، فقال: فلعلك شربته؟ فقلتُ: نعم(١).

قال: وقال وَهْب بنُ كَيْسان: أوّلُ من صَفّ رِجْليه في الصّلاة عبدُ اللّه بن الزبير فاقتدَى به كثيرٌ من العباد، وكان مجتهداً.

قال: وخَطَب الحجّاج بعد قَتْله زجلة بنت مَنْظور بن زَبّان بن سَيّار الفَزاريّة، وهي أمّ هاشم بنِ عبدِ اللّه بنِ الزّبير، فقلعت ثَنِيّتها وردّته، وقالت: ماذا يريدُ إلى ذَلْفاء ثَكْلَى حرَّى! وقالت:

أبـعـد عـائـذِ بـيـتِ الله تـخـطُـبُـنـي ... جَـهلاً جَـهلتَ وَغِـبّ الـجـهـل مَـذْمومُ

فـاذهـبْ إلـيـك فـإنّـي غـيـرُ نـاكـحـةٍ ... بعدَ ابن أسمـاء ما استَنَّ الـدَّيامِـيمُ

مَـن يَـجـعـلُ الـعَـيْـر مُـصفَرًّا جَـحـافِـلُه ... مِـثْـل الـجَـواد وَفَـضـل الله مَـقْـسـومُ!

قال: وحدّثني عبدُ الملك بنُ عبد العزيز، عن خاله يوسف بنِ الماجشون، قال: قسمَ عبدُ اللّه بن الزّبير الدهرَ على ثلاث ليال: فليلةٌ هو قائم حتّى الصّباح، وليلة هو راكع حتّى الصباح، وليلة هو ساجد حتّى الصباح.

قال: وحدّثنا سليمان بنُ حَرْب بإسنادٍ ذَكَره ورَفَعه إلى مُسلِم المَكّي، قال: رَكَع عبدُ اللّه بنُ الزبير يوماً ركعةً، فقرأتُ البقرة وآلَ عمران والنّساء والمائدةَ، وما رَفَع رأسَه.

قال: وقد حَدّث من لا أُحصيه كثرةً من أصحابنا، أنّ عبدَ اللّه كان يواصِل الصّوم سَبْعاً، يصومُ يومَ الجمعة فلا يُفطِر إلّا يومَ الجمعة الآخر، ويَصُوم بالمدينة فلا يُفطِر إلا بمكّة، ويصوم بمكّة فلا يفطِر إلّا بالمدينة.

قال: وقال عبد الملك بنُ عبد العزيز: وكان أوّل ما يُفطِر عليه إذا أفطرَ لبَن لَقْحة بسَمْن بَقَر، قال الزبير: وزادَ غيرُه: وَصبِر.

قال: وحدّثني يعقوب بنُ محمّد بن عيسى بإسنادٍ رَفَعه إلى عُرْوة بن الزّبير، قال: لم يكن أحدٌ أحَبَّ إلى عائشةَ بعد رسولِ الله ﷺ وبعد أبي بكر من عبدِ اللّه بن الزّبير.

قال: وحدّثني يعقوبُ بنُ محمّد بإسنادٍ يرفعه إلى عبدِ الرحمن بنِ القاسم، عن أبيه قال: ما كان أحدٌ أعلم بالمناسِك من ابن الزبير.

قال: وحدّثني مُصعب بنُ عثمان، قال: أوصتْ عائشةُ إلى عبدِ اللّه بن الزبير وأوصَى إليه

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٦٣٤٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٣٠).

حكيمُ بنُ حِزام وعبدُ اللّه بن عامر بن كُرَيْز والأسوَدُ بن أبي البَخْتَرِيّ وشَيبة بنُ عثمان والأسوَد بنُ عوف.

قال الزبير: وحدّث عمرُ بنُ قيس، عن أمّه قالت: دخلتُ على عبد اللّه بنِ الزّبير بيتَه، فإذا هو قائمٌ يصلّي، فسقطتْ حيّة من البيت على ابنه هاشم بنِ عبد اللّه فتطوّقتْ على بطنِه وهو نائمٌ، فصاحَ أهلُ البيت: الحيّة الحيّة! ولم يَزالُوا بها حتّى قَتَلوها وعبدُ اللّه قائمٌ يصلّي ما التفت ولا عَجِل، ثمّ فَرَغ من صلاته بعد ما قُتِلت الحيّة فقال: ما بالكم؟ فقالت أمّ هاشم: إي رَحِمَكَ الله، أرأيتَ إنْ كُنّا هُنّا عليك أيهون عليك ابنُك! قال: وَيْحَكِ! وما كانت التِفاتةٌ لو ٱلتَفَتُّها مُبْقِيَةً من صَلاتي.

قال الزبير: وعَبدُ اللّه أوّلُ من كَسا الكعبةَ الدِّيباج، وإن كان يُطَيِّبها حتّى يجِد ريحَها مَن دَخَل الحَرَم. قال: ولم تكن كِسْوة الكَعبة من قَبْله إلّا المسُوح والأنْطاع، فلمّا جرّد المهديّ بنُ المنصور الكَعْبة، كان فيما نَزَع عنها كِسْوة مِن ديباج مكتوب عليها: لعبد اللّه أبي بكر أمير المؤمنين. قال: وحدّثني يحيى بنُ مَعين بإسناد رَفَعه إلى هشام بن عروة، أنّ عبدَ اللّه بنَ الزبير أخِذ من بين القتلى يومَ الجمل وبه بِضْعٌ وأربعون طَعْنةٌ وضَرْبة. قال الزبير: واعتلّت عائشةُ مَرّة، فدخل عليها بنو أُختِها أسماء: عبدُ اللّه وعروةُ والمنذر، قال عروة: فسألناها عن حالِها، فشكَتْ إلينا نَهْكَة[1] من عِلّتها فعَزّاها عبدُ اللّه عن ذلك، فأجابتْه بنحو قولها، فعادَ لها بالكلام، فعادت له بالجواب، فصَمتَ وبَكى، قال عروة: فما رأينا مُتحاورَيْن من خَلْق الله أبلغَ منهما. قال: ثم رفعت رأسَها تَنظر إلى وجهه، فأُبْهِتَتْ لبكائه، فبَكَت ثمّ قالت: ما أحَقَّني منك يا بُنَيّ، ما أرَى. فلم أعلم بعدَ رسولِ الله ﷺ وبعد أبوَيّ أحداً أنزل عندي مَنزِلتَك، قال عروة: وما سمعتُ عائشةَ وأمّي أسماءَ تَدْعوان لأحدٍ من الخَلق دعاءَهما لعبدِ اللّه، قال: وقال موسى بن عقبة: أقْرَأني عامرُ بنُ عبد اللّه بن الزبير وصيّةَ عبدِ اللّه بنِ مسعود إلى الزّبير بن العوّام وإلى عبد اللّه بنِ الزّبير من بعده، وإنّهما في وصيّتي في حِلّ وبِلّ.

قال: ورَوَى أبو الحسن المدائنيّ، عن أبي إسحاقَ التميميّ، أنّ معاوية سَمع رجلاً يُنشِد:

ابنُ رَقاشٍ ماجِدٌ سَمَيْدَعُ[2] ... يَأبَى فيُعطِي عن يدٍ أو يَمنَعُ

فقال: ذلك عبدُ اللّه بنُ الزبير: وكان عبدُ اللّه من جُمْلة النّفر الّذين أمرَهم عثمان بنُ عفّان أن يَنسَخوا القرآن في المصاحِف.

قال: وحدّثنا محمّد بنُ حسن، عن نَوْفل بن عُمارة، قال: سُئل سعيدُ بن المسيِّب عن

---

(١) نهكة: نهكته الحمى نهكاً ونهكة: جهدته وأضنته ونقصت من لحمه. اللسان، مادة (نهك).

(٢) السميدع: السيد الكريم الشريف السخي الموطأ الأكناف. اللسان، مادة (سمدع).

خُطباءِ قُرَيش في الجاهليّة، فقال: الأسود بن المطّلب بن أَسَد، وسُهَيل بن عمرو. وسُئِل عن خُطبائهم في الإسلام، فقال: معاوية وابنُه، وسعيدُ بن العاص وابنُه، وعبد اللّه بن الزبير.

قال: وحدّثنا إبراهيمُ بنُ المنذِر، عن عثمانَ بن طَلْحة، قال: كان عبدُ اللّه بنُ الزبير لا يُنازَع في ثلاثٍ: شجاعة، وعِبادة، وبلاغة.

قال الزبير: وقال هشام بنُ عُرْوة: رأيتُ عبدَ اللّه أيّامَ حِصاره والحَجَر مِن المَنْجَنيق يَهوِي حتّى أقولَ: كاد يأخذ بلِحْيَتِه، فقال له أبي: أيَابن أمّ، والله إنْ كادَ ليأخذُ بِلِحْيَتِك، فقال عبدُ اللّه: دَعْني يابنَ أمّ، فواللهِ ما هي إلا هَنَةٌ حتّى كأنّ الإنسانَ لم يكن، فيقول أبي وهو يُقبِل علينا بوجهه: والله ما أخشَى عليك إلّا من تلك الهنَة.

قال الزبير: فذكَر هشامٌ، قال: والله لقد رأيتُهُ يُرْمَى بالمنجَنيق فلا يَلتفِت ولا يُرعَد صَوتُهُ، وربّما مَرّت الشّظيّة منه قريباً من نَحْره.

وقال الزّبير: وحدّثنا ابنُ الماجِشون، عن ابن أبي مُليكة عن أبيه قال: كنتُ أطوفُ بالبَيْت مع عُمَر بنِ عبد العزيز، فلمّا بلغتُ الملتزم تخلّفتُ عندَه أدعو ثم لحِقْت عمر، فقال لي: ما خلّفك؟ قال: كنتُ أدعو في مَوْضع رأيتُ عبدَ اللّه بنَ الزبير فيه يَدْعو، فقال: ما تَتْرك تَحنُّناتِك على ابنِ الزبير أبَداً! فقلتُ: والله ما رأيت أحداً أشدّ جِلْداً عن لَحْم، ولَحْماً على عَظْم من ابن الزبير، ولا رأيتُ أحداً أثبتَ قائماً، ولا أحسَنَ مصلّياً من ابنِ الزبير، ولقد رأيتُ حَجَراً من المنجَنيق جاءه فأصابَ شُرْفَةً من المَسجد، فمرّت قُذاذَة مِنْها بين لِحْيتِه وحَلقه، فلم يَزُل من مُقامه، ولا عرفنا ذلك في صَوْته، فقال عمر: لا إلٰه إلّا الله، لَجاد ما وصَفْت!

قال الزُّبير: وسمعتُ إسماعيل بنَ يعقوبَ التّيميّ يحدِّث، قال: قال عمر بنُ عبد العزيز لابن أبي مُلَيكة: صفْ لنا عبدَ اللّه بن الزبير، فإنّه ترَمْرَمَ على أصحابِنا فتَغَشْمَروا عليه، فقال: عن أيِّ حاليه تَسأل؟ أعن دِينِه، أم عن دُنياه؟ فقال: عن كُلٍّ، قال: والله ما رأيتُ جِلْداً قطّ رُكِّب على لَحْم ولا لحماً على عَصَب، ولا عَصَباً على عَظْم، مِثْل جِلْده على لحمِه ولا مثل لحمه على عَصَبِه، ولا مثل عصبه على عَظْمِه، ولا رأيتُ نَفْساً ركِّبت بين جنبين مثل نفسٍ له ركِّبتْ بين جَنْبين، ولقد قام يوماً إلى الصّلاة، فمرّ به حَجرٌ من حجارة المَنْجنيق، بِلَبِنَةٍ مطبوخة من شُرُفات المسجدِ، فمرَّت بين لَحْيَيْه وصدرِه، فوالله ما خَشع لها بصرُه، ولا قطَع لها قراءتَه، ولا رَكع دونَ الركوع الّذي كان يركع، ولقد كان إذا دَخَل في الصلاة خَرَج من كلّ شيء إليها، ولقد كانَ يركع في الصلاة فيَقَع الرَّخَم على ظهرِه ويسجُد فكأنه مطروح.

قال الزّبير: وحدّث هشامُ بنُ عُروَة، قال: سمعتُ عمّي، يقول: ما أبالي إذا وجدتُ ثلاثمائة يَصبِرون صَبْري، لو أجلَب عليّ أهلُ الأرض.

قال الزبير: وقَسَم عبدُ اللّه بن الزبير ثُلُث مالِه وهو حيّ، وكان أبوه الزّبير قد أوصَى أيضاً بثُلُث مالِه. قال: وابنُ الزبير أحد الرّهط الخمسة الّذين وَقَع اتّفاق أبي موسى الأشعريّ وعمرو بن العاص على إحضارِهم، والاستشارة بهم في يوم التّحكيم وهم: عبدُ اللّه بن الزبير، وعبدُ اللّه بن عمرو، وأبو الجَهْم بن حُذَيفة، وجُبَير بن مُطْعِم، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

قال الزبير: وعبدُ اللّه هو الّذي صَلّى بالناس بالبَصْرة لمّا ظَهَر طَلْحة والزّبير على عثمانَ بن حَنيف بأمرٍ منهما له. قال: وأعطَت عائشةُ من بَشّرُها بأنّ عبد اللّه لم يُقتَل يومَ الجمل عَشرةَ آلافِ درهم.

قلتُ: الّذي يَغلِب على ظنّي أنّ ذلك كان يوم إفريقيّة، لأنّها يوم الجمل كانت في شُغْل بنفسِها عن عَبدِ اللّه وغيره.

قال الزبير: وحدّثني عليُّ بنُ صالح مرفوعاً أنّ رسولَ الله ﷺ كلّم في صِبْية تَرَعْرَعوا، منهم عبدُ اللّه بنُ جعفر، وعبدُ اللّه بن الزبير، وعُمَر بن أبي سَلَمة، فقيل: يا رَسُول الله، لو بايعتَهم فتصيبَهم برَكَتُك، ويكونَ لهم ذِكرا! فأتِيَ بهم فكأنهم تكَعْكَعوا حين جيءَ بهم إليه، واقتحم ابنُ الزبير، فتبسّم رسول الله ﷺ، وقال: إنه ابنُ أبيه، وبايَعَهم[1].

قال: وسُئِل رأسُ الجالوتِ: ما عندكم من الفَراسة في الصِّبيان؟ فقال: ما عندنا فيهم شيء، لأنهم يُخلَقون خَلْقاً مِنْ بعد خَلْق، غير أنّا نرمُقُهم، فإنْ سَمِعنا منهم من يقول في لعبه: من يكون معي؟ رأيناها همة وخبء صدق فيه، وإن سمعناه يقول: مع مَن أكون؟ كرهْناها منه. قال: فكان أوّل شيء سُمِع من عبدِ اللّه بنِ الزبير أنه كان ذاتَ يومٍ يَلعَب مع الصّبيان، فمرّ رجلٌ، فصاح عليهم، ففرُّوا منه، ومَشَى ابنُ الزبير القَهْقَرى، ثم قال: يا صِبيان! اجعَلوني أميرَكم، وشُدّوا بنا عليه. قال: ومرّ به عمرُ بنُ الخطّاب وهو مع الصّبيان، ففرّوا ووَقَف، فقال لِمَ لَمْ تفرّ مع أصحابك؟ فقال: لم أجرِم فأخافَك، ولم تكن الطّريق ضَيّقةً فأُوسّعَ عليك!

ورَوى الزّبير بنُ بكّار، أنّ عبدَ اللّه بن سَعْد بن أبي سَرْح غزا إفريقيّة في خلافة عثمان، فقَتَل عبدُ اللّه بنُ الزبير جِرجيرَ أميرَ جَيْش الرُّوم، فقال ابنُ أبي سَرْح: إنّي موجِّه بشيراً إلى أمير المؤمنين بما فتح علينا، وأنتَ أوْلَى مَن هاهنا، فانطَلِقْ إلى أمير المؤمنين فأخبره الخَبَر، قال عبدُ اللّه: فلمّا قدمتُ على عثمان أخبرتُه بفَتْح الله وصُنْعه ونصرِه، ووصَفْتُ له أمرَنا كيف كان، فلمّا فَرغْت من كلامي قال: هل تستطيعُ أن تؤدّيَ هذا إلى الناس؟ قلت: وما يَمنَعني من ذلك!

---

(١) أخرجه العسقلاني في «الإصابة» (٤/ ٩٢)، في ترجمة عبد الله بن الزبير، برقم (٤٦٨٤)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٨/ ٢٣٤)، في حوادث سنة ثلاث وسبعين.

قال: فاخرج إلى النّاس فأخبِرْهم قال عبد اللّه: فخرجتُ حتّى جئتُ المنبر فاستقبَلْتُ الناسَ، فتلقّاني وجهُ أبي، فدخَلتْني له هَيْبة عَرَفها أبي في وَجْهي، فقَبَض قبضةً من حَصْباءَ، وجَمعَ وجهَه في وجهي وهمّ أن يحصِبَني فأحْزَمْتُ، فتكلّمتُ.

فزَعموا أنّ الزبير لما فَرَغ عبدُ اللّه من كلامه قال: والله لكأنّي أسمَع كلامَ أبي بكر الصّدّيق: من أراد أن يتزوّج امرأةً فلينظرْ إلى أبيها وأخيها فإنّها تأتيه بأحدِهما.

قال الزّبير: ويُلقَّب عبدُ اللّه بعائذِ البيت، لاستعاذتِهِ به.

قال: وحدّثني عمّي مُصعب بنُ عبد اللّه، قال: إنّ الذي دعا عبدَ اللّه إلى التعوّذ بالبَيْت شيءٌ سَمِعه من أبيه حين سار من مكّة إلى البَصْرة، فإنّ الزبير التفتَ إلى الكعبة بعد أنْ وَدّع ووجّه يريدُ الرّكوب، فأقبَلَ على ابنِه عبدِ اللّه، وقال: تالله ما رأيتُ مِثلَها لطالب رَغْبةٍ أو خائِف رَهْبة.

ورَوَى الزّبير بنُ بَكّار، قال: كان سبب تعوّذ ابن الزّبير بالكعبة أنّه كان يمشي بعد عَتَمةٍ في بَعْض شوارع المدينة، إذ لقِي عبد اللّه بن سَعْد بن أبي سَرْح متلثّماً لا يَبدُو منه إلّا عَيْناه. قال: فأخذتُ بيَدِه وقلتُ: ابنُ أبي سَرْح! كيف كنتَ بَعدي؟ وكيفَ تركتَ أميرَ المؤمنين؟ يعني معاويةَ - وقد كان ابنُ أبي سَرْح عندَه بالشام - فلم يكلّمني، فقلت: ما لك؟ أمات أمير المؤمنين؟ فلم يكلمني، فتركتُه وقد أثبتّ معرفتَه، ثمّ خرجتُ حتّى لقيتُ الحسينَ بنَ عليّ رضي الله عنه، فأخبرتُه خَبره، وقلتُ: ستأتيك رُسُل الوَليد، وكان الأميرُ عَلَى المدينة الوليدَ بن عُتْبة بن أبي سُفْيان، فانظر ما أنتَ صانع! واعلم أنّ رَواحِلي في الدّار مُعَدّة، والمَوْعِد بيني وبَيْنك أن تغفل عنّا عيونهم، ثمّ فارقته فلم ألبثْ أن أتاني رسولُ الوَليد، فجئتُه فوجدتُ الحسينَ عندَه، ووجدتُ عنده مَروان بنَ الحَكَم، فنَعَى إليّ معاوية، فاسترجعت فأقبَل عليّ، وقال: هلمّ إلى بَيْعة يزيدَ، فقد كتب إلينا يأمُرُنا أن نأخذَها عليك! فقلت: إنّي قد علمتُ أنّ في نفسه عليّ شيئاً لِتَركي بَيعَتَه في حياة أبيه، وإن بايعتُ له على هذه الحال توهَّمَ أنّي مُكرَه على البَيْعة، فلم يَقَعْ منه ذلك بحيث أريد، ولكن أصبح ويَجتمع الناس، ويكون ذلك علانيةً إن شاء الله، فنَظَر الوليد إلى مروان فقال مَرْوان: هو الّذي قلتُ لك، إنْ يخرج لم تَرَه. فأحببتُ أنْ أُلقيَ بيني وبينَ مَرْوان شَرًّا نتشاغَل به، فقلتُ له: وما أنتَ وذاكَ يابنَ الزّرقاء! فقال لي، وقلتُ له، حتّى تواثَبْنا، فتناصيْتُ أنا وهو، وقام الوليدُ فحجَز بينَنا، فقال مروان: أتحجُز بيننا بنَفْسك، وتَدع أن تأمر أعوانَك! فقال: قد أرَى ما تُريد، ولكن لا أتوَلّى ذلك منه والله أبداً، اذْهب يابنَ الزّبير حيثُ شِئتَ، قال: فأخذتُ بيَدِ الحُسَين، وخرجنا من الباب حتّى صِرْنا إلى المَسْجِد، وأنا أقول:

ولا تحسبنّي يا مُسافر شَحْمةً ... تَعجّلها من جانب القِدْرِ جائعُ

فلما دخل المسجدَ افترَقَ هو والحُسين، وعَمَد كلّ واحد منهما إلى مُصلاًه يُصلّي فيه،

وجَعلت الرسلُ تَختلِف إليهما، يَسمَع وَقْع أقدَامِهم في الحَضْباء حتّى هَدأ عنهما الحِسّ، ثمّ انصرَفا إلى منازِلِهما، فأتَى ابن الزبير رواحله، فقَعَد عليها، وخرج من أدبارِ دارِه، ووافاه الحسينُ بنُ عليّ، فخرجَا جميعاً من لَيْلَتهم، وسَلكوا طريقَ الفُرْع حتّى مرُّوا بالجَثْجاثة وبها جعفر بنُ الزبير قد ازدَرَعها، وغُمِزَ عليهم بعيرٌ من إبلهم فانتَهَوْا إلى جعفر، فلما رآهم قال: مات معاويةُ؟ فقال عبدُ الله: نَعَم، انطَلِقْ معنا وأعطنا أحدَ جَمَلَيْك - وكانَ ينضَح على جَملين له - فقال جعفر متمثّلاً:

إخــوتِــي لا تَــبــعَــدوا أبَــداً ... وبَــلَــى واللهِ قــد بَــعُــدُوا

فقال عبدُ الله - وتطيّر منها: بفيك التّراب! فخرجوا جميعاً حتّى قَدِموا مَكّة، قال الزبير: فأمّا الحُسين عليه السلام فإنّه خرج من مكّة يومَ التَّرْوِية يَطلُب الكوفة والعراق، وقد كان قال لعبد الله بنِ الزبير: قد أتَتْني بَيْعةُ أربَعين ألفاً يَحلِفون لي بالطلاق والعتاق من أهل العراق، فقال: أتخرُج إلى قومٍ قَتَلوا أباك وخَذَلوا أخاك!

قال: وبعضُ الناس يَزْعم أن عبدَ الله بنَ عباس هو الّذي قال للحُسين ذلك.

قال الزّبير: وقال هشام بنُ عُروة: كان أوّل ما أفصَح به عمّي عبد الله وهو صغير: السّيف، فكان لا يَضعُه مِن فيه، وكان أبوه الزبير إذا سَمِع منه ذلك يقول: أما والله ليكوننّ لكَ منه يومٌ ويوم وأيام!.

فأما خبرُ مقتَل عبد الله بن الزّبير فنحن نوردُه من تاريخ أبي جعفر محمد بن جَرير الطبريّ رحمه الله. قال أبو جعفر: حَصَر الحجّاجُ عبدَ الله بنَ الزبير ثمانيَة أشهر، فرَوَى إسحاق بنُ يحيى عن يوسفَ بن ماهك، قال: رأيتُ مَنجنيق أهلِ الشام يُرمَى به، فرَعَدتِ السماءُ وبرَقتْ، وعلا صوتُ الرّعد على صَوْت المَنجنيق، فأعظَمَ أهلُ الشام ما سَمِعوه، فأمسَكوا أيديَهم، فرَفَع الحجّاج بِرْكة قبائِه، فَغَرَزها في منطقته، ورَفَع حَجَر المَنجَنيق فوَضَعه فيه، ثم قال: ارموا، ورَمَى معهم، قال: ثمّ أصبحوا فجاءت صاعقةٌ يتبَعها أُخرى، فقَتلتْ من أصحاب الحجّاج اثنيْ عشرَ رجلاً، فأنكر أهلُ الشّام، فقال الحجّاج: يا أهلَ الشام، لا تُنكروا هذا، فإنّي ابنُ تِهامة، هذه صَواعقُ تِهامَة، هذا الفتحُ قد حَضَر فأبشِروا، فإنّ القوم يُصيبُهم مِثل ما أصابَكم، فصعقت من الغَد فأصيبَ من أصحاب ابن الزبير عدّة ما أصاب الحَجّاج، فقال الحجّاج: ألا ترون أنهم يُصابُون وأنتم على الطّاعة، وهم على خلاف الطاعة! فلم تزلْ الحربُ بين ابنِ الزّبير والحجّاج حتّى تفرّق عامّة أصحاب ابن الزبير عنه، وخرج عامّة أهلِ مَكّة إلى الحجّاج في الأمان.

قال: ورَوَى إسحاق بنُ عبيد الله، عن المُنذِر بن الجَهْم الأسلَمِيّ، قال: رأيتُ ابنَ الزّبير، وقد خَذلَه من معه خِذْلاناً شديداً، وجَعلوا يَخرجون إلى الحجّاج، خرج إليه منهم نحو عشرة

آلاف، وذكر أنّه كان ممّن فارَقَه، وخرج إلى الحجاج ابناه: خُبَيب وحمزة، فأخذا من الحجاج لأنفسهما أماناً. قال أبو جعفر: فروى محمد بن عمر، عن ابن أبي الزنّاد، عن مَخْرمة بن سَلْمَان الواليّ، قال: دخل عبدُ الله بن الزبير على أمّه حين رَأى من النّاس ما رأى من خِذْلانه، فقال: يا أمّه، خَذَلني النّاس حتى وَلدِي وأهلي، ولم يَبقَ معي إلّا اليسير ممّن ليس عندَه من الدّفع أكثر من صَبْر ساعة، والقوم يُعطونَني ما أردتُ من الدّنيا. فما رأيُكِ؟ فقالت: أنت يا بُنيّ أعلَم بنفسك، إن كنتَ تعلم أنّك على حقّ وإليه تدعو فامضِ له، فقد قُتِل عليه أصحابُك، ولا تُمكّن من رقَبتِك يتلعّب بك غِلمانُ بني أميّة، وإن كنتَ إنّما أردتَ الدُّنيا فبئس العبدُ أنتَ! أهلكتَ نفسك وأهلكتَ من قُتِل معك، وإن قلتَ: قد كنتُ على حقّ فلما وَهَن أصحابي وَهَنْتُ وضعفت، فليس هذا فِعلُ الأحرار ولا أهل الدّين، وكم خُلُودك في الدنيا! القَتْل أحسن، فدنا ابنُ الزبير فقبّل رأسَها، وقال: هذا والله رأيي الذي قمتُ به داعياً إلى يومي هذا، وما ركنتُ إلى الدنيا، ولا أحببتُ الحياةَ فيها، ولم يَدْعُني إلى الخروج إلّا الغَضَب لله أن تُستَحَلَّ محارمُه، ولكنّي أحببتُ أن أعلم رأيَكِ، فزِدْتني بصيرةً مع بصيرتي. فانظُري يا أمّه، فإني مقتول من يومي هذا، فلا يَشتدّ حُزنك، وسَلِّمي لأمرِ الله، فإنّ ابنَك لم يتعمّد إتيان مُنكَر، ولا عَمَلاً بفاحشة، ولم يَجُرْ في حُكم، ولم يغدِر في أمان، ولم يتعمّد ظُلمَ مُسلِم ولا مُعاهِد، ولم يَبلُغني ظلمٌ عن عُمّالي فرضيتُ به بل أنكرتُه، ولم يكن شيءٌ آثرَ عندي من رِضَا ربي. اللهمّ إني لا أقول هذا تزكيةً منّي لنفسي، أنتَ أعلمُ بي، ولكنّني أقوله تعزيةً لأمّي لتسلوَ عنّي. فقالت أمّه: إني لأرْجو من الله أن يكون عَزائي فيك حَسَناً إنْ تَقدَّمْتَني، فلا أخرُج من الدنيا حتى أنظرَ إلى ما يصيرُ أمرُك، فقال: جزاكِ الله يا أمّه خيراً! فلا تَدَعي الدُّعاء لي قبلُ وبعد، قالت: لا أدعُه أبداً، فمن قُتِل على باطل فقد قتِلتَ على حقّ. ثم قالت: اللهمّ ارحمْ طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النّحيب والظّمأ في هَواجِر المدينة ومكّة، وبرّه بأبيه وبي! اللهم إني قد سَلّمته لأمرِك فيه، ورضيت بما قضيتَ، فأثِبْني في عبدِ الله ثوابَ الصّابرين الشاكرين.

قال أبو جعفر: وَرَوَى محمّد بن عمَر، عن موسى بن يعقوب بن عبد اللّه، عن عمّه، قال: دخل ابنُ الزبير على أمّه وعليه الدّرع والمِغفَر[1]، فوَقَف فسلّم، ثمّ دنا فتناول يدَها فقبّلها، فقالت: هذا وَداع فلا تَبْعد، فقال: نَعَم، إنّي جئت مودِّعاً، إني لأرَى أنّ هذا اليومَ آخرُ يوم من الدنيا يمرّ بي، واعلمي يا أمّه أني إن قُتلتُ فإنما أنا لحمٌ لا يَضرُّه ما صُنِع به، فقالت: صدقتَ يا بُنيّ، أتمم على بَصيرَتِك، ولا تُمكّن ابنَ أبي عَقِيل منك، وادنُ مني أودِّعك، فدنا منها فقبّلها وعانقها، فقالت حيث مسّت الدّرع: ما هذا صَنيعُ مَن يريدُ ما تريدُ! فقال: ما لبستُها إلا لأشدّ منكِ، فقالت: إنها لا تشدّ مني، فنَزَعها، ثمّ أخرَج كميّه وشدّ أسفَل قميصه، وعَمد إلى جبّةِ خَزّ

---

(١) المغفر: زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة، أو حلق يتقنع بها المتسلح. القاموس، مادة (غفر).

تحت القميص، فأدخَل أسفلَها في المِنطقة، فقالت أمه: شَمِّر ثيابَك، فشمَّرها، ثم انصرف وهو يقول:

إنّـي إذا أعــرِف يــومِـي أصـبِـرْ   إذ بـعـضُـهـم يَـعـرِف ثـم يُـنـكِـرْ

فسمعت العجوز قوله، فقالت: تصبر والله، ولم لا تصبر وأبوك أبو بكر والزبير، وأمك صفية بنت عبد المطلب!

قال وَرَوَى محمد بن عمر عن ثَوْر بن يزيدَ عن رجل من أهل حمْص قال: شهدتهُ والله ذلك اليوم ونحن خمسمائة من أهلِ حمْص، فدَخَل من باب المسجد لا يدخُل منه غيرنا، وهو يَشدّ علينا ونحن مُنهزمون وهو يرتجز:

إنــي إذا أعــرِف يــومـي أصـبِـرْ   وإنــمـا يَـعـرِف يَـوْمَـيْـه الـحُـرْ

وبـعـضُـهـمْ يَـعـرِف ثـمّ يُـنْـكِـرْ

فأقول: أنت والله الحرّ الشريف، فلقد رأيتُه يقف بالأبطح، لا يدنو منه أحدٌ حتّى ظننّا أنهُ لا يقتل. قال ورَوَى مُصعَب بنُ ثابت، عن نافع مولَى بني أسَد، قال: رأيتُ الأبوابَ قد شُحِنتْ بأهلِ الشام، وجَعَلوا على كلّ باب قائداً ورجالاً وأهل بلد، فكان لأهل حِمصَ الباب الّذي يواجه بابَ الكعبة، ولأهلِ دمشق باب بني شَيْبة، ولأهل الأرْدُنّ بابُ الصّفا، ولأهلِ فِلسْطين باب بني جُمَح، ولأهلِ قِنّسرِينَ بابُ بني سَهْم، وكان الحجاج وطارِقُ بن عمرو في ناحية الأبطح إلى المَرْوة، فمرة يحمِل ابنُ الزّبير في هذه الناحية، ولكأنه أسَد في أجمَة[1] ما يُقدِم عليه الرّجال، فيَعدُو في أثر الرجال وهم على الباب حتّى يُخرجَهم، ثم يصِيح إلى عبد اللّه بن صَفوان، يا أبا صَفوان، وَيْلُ أمّه فتحاً لو كان له رجال! ثم يقول:

لــو كــان قِـرْنـي واحـداً كُـفِـيـتُـه

فيقول عبدُ اللّه بن صَفْوان: إي والله وألفاً.

قال أبو جعفر: فلمّا كان يوم الثلاثاء، صبيحة سبع عشرةَ من جُمادى الأولى سَنة ثلاث وسَبْعين، وقد أخذ الحجّاج على ابن الزّبير بالأبواب، باتَ ابنُ الزّبير تلك الليلة يصلّي عامّة الليل، ثم احتَبى بحمائِل سيفِه، فأغفَى ثم انتبَه بالفَجْر، فقال: أذِّنْ يا سعد، فأذّن عند المَقام، وتوضّأ ابنُ الزبير ورَكع ركعَتي الفَجْر، ثم تقدَّم وأقام المؤذّن، فصلّى ابنُ الزبير بأصحابه فقرأ «ن والقَلَم» حَرْفاً حرفاً ثمّ سلّم، ثمّ قام، فحَمِد الله وأثنى عليه ثم قال: اكشفوا وجوهَكم حتى أنظرَ، وعليها المَغافِر والعَمائم، فكَشَفوا وجوهَهم، فقال: يا آل الزّبير، لو طِبْتم لي نَفْساً عن أنفسكم كنّا أهلَ بيت مِن العرب اصطُلِمْنا، لم تُصِبنا مَذَلّة، ولم نقرّ على ضَيْم. أمّا بعد يا آل

(١) الأجمة الشجر الكثير الملتف. القاموس، مادة (أجم).

الزبير، لا يُرعْكم وَقعُ السّيوف، فإني لم أحضر مَوْطناً قطّ ارتُثِثْتُ فيهِ بين القَتْلَى، وما أجد من دواء جراحها أشدّ ممّا أجِد من ألم وَقْعها. صونوا سيوفَكم كما تصونون وجوهكم. لا أعلم امرأ كَسَر سيفَه واستبقى نفسَه. فإنّ الرّجل إذا ذهبَ سلاحُه فهو كامرأة أعزَل. غضّوا أبصاركم عن البارِقَة، وليَشغل كلُّ امرىءٍ قِرْنه، ولا يُلهِيَنّكم السّؤالُ عنّي، ولا تقولُنّ: أين عبدُ اللّه بن الزّبير؟ ألا من كان سائلاً عنّي فإنّي في الرَّعيل الأوّل، ثمّ قال:

أبَى لابنِ سَلْمى أنّه غير خالِدٍ ... يُلاقِي المَنايا أيّ وجهٍ تيَمَّما

فلستُ بِمُبْتاعِ الحياةِ بِسُبّةٍ[1] ... ولا مُرْتَقٍ من خَشْيةِ الموت سُلّما

ثمّ قال: احملوا على بركة الله، ثمّ حَمَل حتّى بلغ بهم إلى الحَجُون، فرُمِيَ بحَجَر، فأصاب وجهَه، فأرعِشَ ودَمِيَ وجهُهُ، فلمّا وجد سُخونة الدّم تسيلُ على وجهه ولحيته قال:

ولَسْنا على الأعقاب تَدْمَى كُلومُنا ... ولكنْ على أقدامِنا تَقطُر الدِّمَا

قال: وتَقاوَوا عليه، وصاحتْ مولاةٌ له مجنونة: واأمير المُؤمِنيناه! وقد كان هَوَى، ورأته حين هَوَى فأشارتْ لهم إليه، فقُتِل وإنّ عليه لثيابَ خَزٍّ، وجاء الخبرُ إلى الحجّاج، فسَجَد وسار هو وطارقُ بنُ عمرو، فوَقَفا عليه، فقال طارق: ما وَلَدتِ النّساءُ أذكَرَ مِن هذا، فقال الحجاج: أتمدَح من يُخالِف طاعة أمير المؤمنين! فقال طارق: هو أعذَرُ لنا، ولولا هذا ما كان لنا عُذْرٌ، إنّا مُحاصِروه وهو في غير خَنْدق ولا حِصْن ولا مَنَعة منذُ ثمانيةِ أشهُر يَنتصِف منّا، بل يفضُل علينا في كلّ ما التقينا نحن وهو، قال: فبلغ كلامُهما عبد الملك، فصوّب طارقاً.

قال: وبَعث الحجّاجُ برأس ابن الزبير ورأس عبد بن صَفْوان ورأس عمارة بن عمْرو بن حزم إلى المدينة، فنصبت الثلاثة بها، ثمّ حملتْ إلى عبد الملك.

ونحن الآن نذكُر بقية أخبارِ عبد الله بن الزبير ملتقطةً من مواضع متفرقة:

رئِيَ عبدُ اللّه بنُ الزبير في أيام معاوية واقفاً بباب ميّةَ مولاة معاوية، فقيل له: يا أبا بكر، مِثلُك يَقِف بباب هذه! فقال: إذا أعْيَتكم الأمورُ مِن رُؤوسها فخذوها من أذْنابها.

ذكر معاويةُ لعبد اللّه بن الزبير يزيد ابنه، وأراد منه البَيْعة له، فقال ابنُ الزبير: أنا أنادِيك ولا أناجيك، إن أخاكَ مَنْ صَدَقك، فانظر قبل أن تقدم، وتفكّر قبل أن تَنْدَم، فإن النظر قبل التقدم، والتفكّر قبل التندّم، فضَحِك معاويةُ وقال: تعلّمتَ يا أبا بكرٍ الشّجاعة عند الكِبَر.

كان عبدُ اللّه بنُ الزبير شديد البُخل، كان يُطعِم جندَه تمراً، ويأمُرهم بالحرْب، فإذا فرّوا مِن وَقع السيوف لامَهم وقال لهم: أكَلتم تَمْري، وعصيْتم أمري فقال بعضهم:

---

(١) السبة: العار. القاموس، مادة (سبب).

ألــم تــرَ عــبــد الله - والله غــالــبٌ   على أمره - يبغي الخلافَة بالتّمْرِ

وكسَر بعضُ جنده خمسة أرماح في صدور أصحاب الحجّاج، وكلّما كسَرَ رُمْحاً أعطاه رُمحاً، فشَقّ عليه ذلك، وقال: خمسة أرماح! لا يَحتمِل بيتُ مال المسلمين هذا.

قال: وجاءه أعرابيّ سائلٌ فَردّه، فقال له: لقد أحرَقَت الرَّمْضاء[1] قَدمي، فقال: بُلْ عليهما يبردان.

جَمَع عبد اللّه بنُ الزبير محمد بن الحنفيّة وعبد الله بن عباس في سبعة عشر رجلاً من بني هاشم، منهم الحسن بنُ الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام، وحصَرَهم في شِعْب بمكة يُعرَف بشعب عارِم، وقال: لا تمضي الجمعة حتى تُبايعوا إليّ أو أضرب أعناقَكم، أو أحرّقكم بالنار، ثم نهض إليهم قبل الجمعة يريد إحراقهم بالنار، فالتزمه ابن مِسْوَر بن مخرمة الزهريّ، وناشده الله أن يؤخّرهم إلى يوم الجمعة، فلمّا كان يوم الجمعة دعا محمد بن الحنفيّة بغَسولٍ وثياب بيضٍ، فاغتسل وتلبّس وتحنّط، لا يَشُكُّ في القتل، وقد بعث المختار بن أبي عُبيد من الكوفة أبا عبدِ اللّه الجَدَليّ في أربعة آلاف، فلما نزلوا ذات عِرْق، تعجّل منهم سبعون على رواحلهم حتى وافَوْا مكة صبيحة الجمعة يُنادُون: يا محمّد، يا محمّد! وقد شَهَروا السلاح حتى وافَوْا شِعْبَ عارِم، فاستخلصوا محمَّد بن الحنفيّة ومن كان معه، وبعث محمد بنُ الحنفيّة الحسن بنَ الحسن يُنادِي: من كان يَرَى أن لله عليه حَقًّا فليشِمْ سَيْفَه، فلا حاجة لي بأمر الناس، إنْ أُعطِيتُها عَفْواً قَبِلتُها، وإن كَرِهوا لم نَبْتَزَّهم أمرَهم.

وفي شِعب عارم وحصار ابن الحنفيّة فيه يقول كثيرُ بنُ عبدِ الرحمن:

ومن يَرَ هذا الشيخ بالخَيْف مِن مِنًى   مِنَ الناس يَعلم أنه غيرُ ظالِم
سَمِيّ النَّبيّ المصطفى وابنُ عمِّه   وحَمّالُ أثقالٍ وفَكّاك غارِمِ
تخبّر من لاقيتَ أنّك عائذٌ   بل العائذُ المحبوسُ في سِجْن عارِمِ

وَرَوَى المَدائنيّ، قال: لما أخرَج ابنُ الزبير عبدَ اللّه بن عباس من مكة إلى الطائف مَرّ بنَعمان، فنزل فصلّى ركعتين، ثم رفعَ يَدَيْهِ يدعو، فقال: اللّهمّ إنك تعلم أنه لم يكنْ بلدٌ أحَبّ إليّ من أن أعبُدَك فيه من البلد الحرام، وأنني لا أحبّ أن تقبض رُوحي إلّا فيه، وأنّ الزبير أخرَجني منه، ليكون الأقوَى في سلطانه. اللّهمّ فأوْهِن كيدَه، واجْعل دائرة السَّوْء عليه. فلمّا دنا من الطّائف تلقاه أهلها، فقالوا: مرحباً بابن عَمّ رسول الله ﷺ! أنتَ والله أحبُّ إلينا وأكرم علينا ممّن أخرجك، هذه مَنازِلنا تخيّرها، فانزلْ منها حيث أحببت، فنزل مَنزلاً، فكان

---

(١) الرمضاء: الأرض الشديدة الحرارة. القاموس، مادة (رمض).

يَجلس إليه أهلُ الطّائف بعد الفجر وبعد العَصْر، فيتكلّم بينهم، كان يحمد الله ويذكُر النبيّ ﷺ والخلفاءَ بعده، ويقول: ذهبوا فلم يَدَعوا أمثالهم ولا أشباههم ولا مَن يُدانيهم، ولكنْ بقي أقوامٌ يطلبُون الدنيا بعمل الآخرة، ويلبَسون جلود الضّأن، تحتها قلوبُ الذّئاب والنُّمور، لِيَظُنَّ الناسُ أنهم من الزاهدين في الدنيا، يُراؤونَ الناس بأعمالهم، ويُسْخِطون الله بسرائرهم، فادعوا الله أن يقضيَ لهذه الأمة بالخير والإحسان، فيولّي أمرها خيارَها وأبرارَها، ويُهلك فُجّارها وأشرارها، ارفعوا أيديَكم إلى ربّكم وسلُوه ذلك، فيفعلون.

فبلغ ذلك ابن الزبير، فكتب إليه:

أما بعد، فقد بلغني أنك تجلس بالطّائف العَصْرَيْن فتُفْتيهم بالجهل، تَعِيب أهلَ العَقْل والعِلْم، وإنّ حِلْمي عليك، واستدامتي فَيْئك جَرّآك عليّ، فاكفُفْ - لا أبا لغَيْرك - مِنْ غَرْبك، وآرْبَعْ على ظَلْعِك، واعقل إن كان لك مَعْقول، وأكْرِم نفسك فإنك إن تهِنْها تجدها على الناس أعظم هَوَاناً، ألم تسمع قول الشاعر:

فنفسَك أكرِمْها فإنّك إن تَهُنْ عليكَ فلنْ تلقى لها - الدهرَ - مُكْرِمَا

وإنّي أقسم بالله لئن لم تنته عمّا بلغني عنك لتجدَنَّ جانبي خَشِناً، ولتجدنّني إلى ما يَرْدَعُك عنّي عجِلاً، فَرَ رأيك، فإن أشفى بك شقاؤك على الرَّدى فلا تُلم إلا نفسك.

فكتب إليه ابنُ عباس: أما بعد، فقد بلغني كتابُك، قلت: إنّي أفتي الناس بالجهْل، وإنما يُفتي بالجهْل مَن لم يعرف مِن العلم شيئاً، وقد آتاني الله مِن العلم ما لم يؤتِك. وذكرت أنّ حِلمك عني، واستدامتَك فَيْئي جَرّآني عليك، ثمّ قلت: أكْفُفْ مِن غَرْبك، واربَعْ على ظَلْعك، وضربت ليَ الأمثال، أحاديث الضّبع، متى رَأيتني لعُرامِك هائباً، ومن حَدّك ناكِلاً! وقلت: لئن لم تكفف لتجدنّ جانبي خَشِناً، فلا أبقى الله عليك إن أبقيت، ولا أرعى عليك إن أرْعَيت! فوالله أنتهي عن قول الحق، وصفة أهل العدل والفضل، وذمّ الأخسَرِين أعمالاً، الذين ضَلَّ سعيُهم في الحياة الدنيا وهُم يحسبون أنهم يُحسنون صُنْعاً، والسّلام.

قَدِم معاوية المدينة راجعاً من حَجّة حَجّها، فكثّر الناسُ عليه في حوائجَهم، فقال صاحِب إبله: قَدّم إبلك لَيْلاً حتى أرتحل، ففعل ذلك، وسار ولم يعلم بأمره إلّا عبد اللّه بنُ الزبير، فإنه ركب فَرَسه وقَفَا أثره، ومعاوية نائم في هَوْدجه، فجعل يسير إلى جانبه، فانتبه معاويةُ، وقد سمع وَقْع حافر الفَرَس، فقال: من صاحب الفرس؟ قال: أنا أبو خُبيْب، لو قد قتلتك منذ الليلة! يُمازحه، فقال معاوية: كلاّ لستَ من قَتلة الملوك، إنما يصيد كلُّ طائر قَدْرَه. فقال ابنُ الزبير: إليّ تقول هذا، وقد وقفتُ في الصّفّ بإزاء عليّ بن أبي طالب، وهو مَن تعلم! فقال معاوية: لا جَرم! إنه قَتلك وأباك بيسرى يدَيْه، وبقيتْ يدُه اليمنى فارغة يطلب مَنْ يقتله بها.

فقال ابن الزبير: أما والله ما كان ذاك إلّا في نَصْر عثمان فلم نُجْزَ به، فقال معاوية: خَلِّ هذا عنك، فوالله لولا شدّة بُغْضِك ابن أبي طالب لجرَرْت برِجْل عثمان مع الضَّبع. فقال ابن الزبير: أما والله ما كان ذاك إلّا في نَصْر عثمان فلم نُجْزَ به، فقال معاوية: خَلِّ هذا عنك، فوالله لولا شدّة بُغْضِك ابن أبي طالب لجرَرْت برِجْل عثمان مع الضَّبع. فقال ابن الزبير: أفَعَلْتَها يا معاوية! أما إنّا قد أعطَيْناك عَهْداً، ونحنُ وافون لك به ما دمتَ حيًّا، ولكن ليعلمنّ مَنْ بعدك، فقال معاوية: أما والله ما أخافُك إلّا على نفسك، ولكأني بك وأنت مشدودٌ مَرْبوط في الأنشوطة، وأنت تقول: ليت أبا عبد الرحمن كان حيًّا، وليتني كنتُ حياً يومئذ، فأحلُّك حلًّا رفيقاً، ولبئس المُطلق والمعتق والمَمْنون عليه أنت يومئذ!

دَخل عبدُ اللّه بنُ الزبير على معاوية وعندَه عمرو بنُ العاص، فتكلم عَمرو - وأشار إلى ابن الزبير - فقال: هذا والله يا أميرَ المؤمنين الّذي غَرَّتْه أناتُك، وأبْطَره حِلْمك، فهو يَنْزُو في نَشْطتِهِ نَزْوَ العير في حبالتِهِ[1]، كلّما قَمصتْه الغُلَواءُ[2] والشِّرّة سكَّنت الأنشوطةُ منه النّفرة، وأخرِبه أن يؤول إلى القِلّة أو الذِّلّة، فقال ابنُ الزبير: أما والله يابنَ العاص، لولا أنّ الإيمان ألزمنا بالوَفاء، والطاعةِ للخُلَفاء - فنحن لا نريد بذلك بَدَلاً، ولا عنه حِوَلاً - لكان لنا وله ولك شأن، ولو وَكَلَه القضاءُ إلى رأيك، ومَشُورة نُظَرائك لَدَافَعْناه بمَنكِب لا تنوده المُزَاحَمَة، ولقاذَفْناه بحَجَر لا تَنْكُؤه المُرَاجَمَة، فقال معاوية: أما والله يابنَ الزّبير لولا إيثارِي الأناةَ على العَجَل، والصَّفحَ على العُقوبة، وأنّي كما قال الأوّل:

أجـامِـل أقـوامـاً حَـيَـاءً وقـد أرَى ‏ ‏ ‏ ‏ قُـلـوبَـهُـم تَـغْـلـي عـلـيَّ مِـراضُـهـا

إذاً لَقَرَنْتُك إلى ساريةٍ من سوَارِي الحَرَم تُسكِّن بها غُلَوَاءَكَ، وينقَطِع عندَهَا طَمعُك، وتَنقُص من أمَلك، ما لَعلّك قد لَوَيْتَه فشزرته، وفتَلْته فأبرَمْته. وايمُ الله إنّك من ذلك لَعلَى شَرف جُرُف بَعيدِ الهُوّة، فكن على نفسِك ولها، فما توبِق ولا تنقذ غيرَها، فشأنَك وإيّاها.

قطع عبدُ اللّه بن الزّبير في الخُطبة ذِكْرَ رسول الله ﷺ وآله جمعاً كثيرة، فاستعظم الناسُ ذلك، فقال: إني لا أرغَب عن ذِكره، ولكنّ له أُهَيْل سوءٍ إذا ذكرتُه أتْلعوا أعناقَهم، فأنا أحِبّ أن أكْبِتهم.

لمّا كاشف عبدُ اللّه بنُ الزبير بني هاشم وأظهَر بُغضَهم وعابهم، وهمّ بما همّ به في أمرهم، ولَم يذكُر رسولَ الله ﷺ في خُطبةٍ، لا يومَ الجُمعة ولا غيرها، عاتَبه على ذلك قومٌ من

---

(١) الحبالة: الانطلاق. القاموس، مادة (حبل).

(٢) الغلواء: أول الشباب وسرعته. اللسان، مادة (غلو).

خاصّته، وتَشاءموا بذلك منه، وخافوا عاقبتَه، فقل: والله ما تركتُ ذلك عَلانيةً إلّا وأنا أقولُه سِرًّا وأكثر منه، لكِنّي رأيتُ بني هاشم إذا سمِعوا ذِكرَه اشرَأبّوا واحمَرّت ألوانُهم، وطالتْ رقابُهم، والله ما كنتُ لآتي لهم سُروراً وأنا أقدر عليه، والله لقد هَممتُ أن أحظر لهم حظيرةً ثم أضرِمها عليهم ناراً، فإني لا أقتلُ منهمْ إلّا آثماً كَفّاراً سَحّاراً، لا أنماهم الله ولا بارَك عليهم، بيت سَوء لا أوّل لهم ولا آخِر، والله ما ترك نبيّ الله فيهمْ خيراً، استفرَغ نبيّ الله صدْقهم فهمْ أكذَب الناس.

فقام إليه محمّد بنُ سعد بنِ أبي وقّاص فقال: وفّقك الله يا أمير المؤمنين! أنا أوّل مَن أعانك في أمرهم، فقام عبدُ اللّه بنُ صَفوَان بن أميّة الجُمحيُّ، فقال: والله ما قلتَ صواباً، ولا هممتَ برُشْد، أرَهْطَ رسول الله ﷺ تَعيب، وإياهم تَقتُل، والعرب حَوْلك! والله لو قتلتَ عِدّتهم أهل بيت من التّرك مُسلِمين ما سوّغه الله لك، والله لو لم يَنصُرْهم النّاس منْك لنَصرهم الله بنَصْره. فقال: اجْلس أبا صَفْوان فلستَ بناموس.

فَبَلَغ الخبرُ عبدَ اللّه بن العبّاس، فخرج مُغضَباً ومعه ابنُه حتى أتى المسجد، فَقَصد قَصْد المنبَر فَحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسول الله ﷺ ثمّ قال: أيها الناس، إن ابن الزّبير يزعُم أن لا أوّل لرسول الله ﷺ ولا آخِر، فيَا عَجباً كلَّ العَجَبِ لافترائه ولكَذِبه! والله إن أوّل من أخَذَ الإيلافَ وَحَمَى عِيرَات قريش لَهَاشم، وإن أوّل من سقى بمكّة عَذباً، وجعَل بابَ الكعبة ذَهَباً لَعبدُ المطّلب، والله لقد نشأتْ ناشئتُنا مع ناشئَةِ قُرَيش، وإنْ كنّا لقَالَتهم إذا قالوا، وخُطباءَهم إذا خَطَبوا، وما عُدَّ مَجد كمجدِ أوّلنا، ولا كان في قُرَيْشٍ مجدٌ لِغَيْرنا، لأنّها في كفر ماحِق، ودِين فاسق، وضلّة وضلالة، في عَشْوَاء عَمْياء، حتّى اختارَ الله تعالى لها نُوراً، وبَعث لها سِراجاً، فانتَجبه طيباً من طيّبين، لا يَسُبّه بمسبّة، ولا يَبغِي عليه غائلة، فكان أحدنا وولَدَنا، عمّنا وابنَ عمّنا. ثمّ إنّ أسبقَ السابقين إليه منّا ابنُ عمّنا، ثم تلاه في السَّبق، أهلُنا ولحمتنا واحداً بعد واحد.

ثمّ إنّا لخير الناس بعدَه وأكرَمُهم أدباً، وأشرَفُهم حَسَباً، وأقربهم منه رَحماً.

واعَجَباً كلّ العَجَب لابن الزبير! يعيبُ بني هاشم، وإنما شَرُف هو وأبوه وجدُّه بمُصاهَرَتِهم، أما والله إنّه لمسلوبُ قريش، ومتى كان العوّام بن خُوَيلد يطمَع في صفيّة بنت عبد المطلب! قيل للبَغْل: مَن أبوك يا بَغْل؟ فقال: خالي الفَرَس. ثمّ نزل[1].

خطب ابنُ الزبير بمكّة على المِنبر، وابن عباس جالسٌ مع النّاس تحتَ المِنبر، فقال: إنّ

---

(١) أنظر مواقف الشيعة: ١/ ١٩٥.

هاهنا رَجُلاً قد أعمَى الله قلبَه كما أعمَى بَصرَه، يَزعُم أن مُتْعة النّساء حلالٌ من الله ورَسولِه، ويُفتي في القَمْلة والنَّمْلة، وقد أحتَمَل بيتَ مال البَصْرة بالأمس، وتَرَكَ المسلمين بها يَرتَضخون النَّوَى، وكيف ألومُه في ذلك، وقد قاتَلَ أمَّ المؤمنين وحَوَارِيَّ رسول الله ﷺ، ومن وقاه بيَدِه!

فقال ابنُ عباس لقائده سعد بن جُبير بن هشام مولَى بني أسَد بن خُزيمة: استقبِل بي وجهَ ابنِ الزبير، وارفَعْ من صَدْري، وكان ابنُ عباس قد كُفَّ بَصرُه فاستقبل به قائدُه وجهَ ابنِ الزبير، وأقام قامَته فحَسَر عن ذِرَاعَيه، ثم قال يابنَ الزّبير:

قد أنصفَ القارةَ مَن راماها ... إنّا إذا ما فِئةٌ نَلقاها

نردّ أولاها على أخراها ... حتى تَصيرَ حَرَضاً دَعْواها

يابنَ الزّبير، أما العَمَى فإنّ الله تعالى يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[1]، وأمّا فُتْيايَ في القَمْلة والنّملة، فإنّ فيها حُكْمين لا تعلَمها أنتَ ولا أصحابك. وأما حَمْلي المال فإنه كان مالاً جَبَيْناه فأعطَيْنا كلَّ ذي حقٍّ حقه، وبقيتْ بقيّةٌ هي دونَ حَقِّنا في كتاب الله فأخذْناها بحَقّنا. وأما المُتْعة فسَلْ أمّك أسماء إذا نزلت عن بُرْدَي عوْسَجة. وأما قتالُنا أمّ المؤمنين فبنا سمِّيتْ أمّ المؤمنين لا بك ولا بأبيك، فانطَلَق أبوك وخالك إلى حِجاب مدّه الله عليها، فهَتَكاه عنها، ثم اتخذاها فتنة يقاتِلان دُونَها، وصانا حلائلهما في بُيوتهما، فما أنصفا الله ولا محمّداً من أنفسِهما أن أبرَزَا زوجة نبيِّه وصانا حلائلهما. وأما قتالنا إيّاكم فإنّا لقِينا زَحْفا، فإن كنّا كُفّاراً فقد كَفَرتم بفِرارِكم منّا، وإن كنّا مؤمنين فقد كفَرتم بقتالِكم إيّانا، وايمُ الله لولا مكانُ صَفِيّة فيكم، ومكانُ خديجة فينا، لما تركت لبني أسد بن عبدِ العُزّى عَظْماً إلّا كَسَرْتُه.

فلما عادَ ابنُ الزبير إلى أمّه سألها عن بُرْدَيْ عَوْسجة، فقالت: ألم أنهَك عن ابن عباس وعن بني هاشم! فإنّهم كُعُمُ الجوابِ إذا بُدِهوا، فقال: بلى، وعصيْتُكِ.

فقالت: يا بُنَيّ، احذرْ هذا الأعمَى الّذي ما أطاقتْه الإنس والجِنّ، واعلمْ أنّ عندَه فضائحَ قريش ومَخازيَها بأسرِها، فإيّاك وإيّاه آخر الدهر، فقال: أيمنُ بنُ خريم بنِ فاتِك الأسديّ:

يابنَ الزّبيرِ لقد لاقَيْتَ بائقةً ... مِن البوائقِ فالطُفْ لُطفَ مُحْتالِ

لاقَيْتَه هاشميًّا طابَ مَنبتُه ... في مَغرِسَيْه كريمَ العَمِّ والخالِ

ما زال يقرَعُ عنكَ العَظْم مقتدرا ... على الجواب بصَوْت مُسمِع عالِ

حتى رأيتك مِثلَ الكَلْب مُنْجَحِراً ... خَلفَ الغَبيط وكنتَ الباذِخَ العالِي[2]

---

(1) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(2) الغَبيط: الرَّحْل: اللسان، مادة (غبط).

إن ابنَ عباسٍ المعروف حِكْمَته — خيرُ الأنام له حالٌ مِن الحالِ
عيّرته المُتْعة المَتْبوع سُنّتها — وبالقتال وقد عيّرت بالمالِ
لمّا رَمَاك على رِسْلٍ بأسْهُمِه — جَرَت عليك بسَيْفِ الحالِ والبالِ
فاحتزّ مِقوَلك الأعلى بشَفْرَتِهِ — حَزًّا وَحِيًّا بلا قِيلٍ ولا قالِ
واعلَمْ بأنك إن عاوَدْتَ غَيْبَته — عادتْ عليكَ مَخازٍ ذات أذيالِ

ورَوَى عثمانُ بنُ طلحةَ العَبْدَرِيّ، قال: شهدتُ مِن ابنِ عباس رحمه الله مَشهداً ما سمِعْتُه من رجلٍ من قريش، كان يُوضَع إلى جانب سَريرِ مَرْوان بن الحَكَم - وهو يومئذ أميرُ المدينة - سريرٌ آخرُ أصغر من سريره، فيَجلِس عليه عبدُ اللّه بنُ عباس إذا دخل، وتُوضَع الوَسائد فيما سِوَى ذلك، فأذِن مروانُ يوماً للناس، وإذا سريرٌ آخر قد أُحدِث تِجاه سَرير مَرْوان، فأقبل ابنُ عباس فجلس على سريره، وجاء عبدُ اللّه بنُ الزّبير فجلس على السرير المُحدَث، وسَكت مروانُ والقوم، فإذا يَدُ ابنِ الزبير تتحرّك فعلم أنه يريدُ أن يَنطِق، ثمّ نَطَق فقال: إنّ ناساً يزعمون أنّ بَيْعةَ أبي بكر كانت غَلَطاً وفَلْتة ومغالَبة، ألا إنّ شأن أبي بكر أعظم من أن يقال فيه هذا، ويزعمون أنه لولا ما وَقَع لكان الأمرُ لهم وفيهم، والله ما كان من أصحاب محمد ﷺ أحدٌ أثبتَ إيماناً، ولا أعظَمَ سابقةً من أبي بكر، فمَنْ قال غيرَ ذلك فعليه لعنة الله! فأين هم حين عَقَد أبو بكر لعمَر، فلم يَكُن إلا ما قال، ثمّ ألقى عمرُ حظَّهم في حُظوظ، وجدَّهم في جُدود، فقسّمت تلك الحظوظ، فأخّر الله سَهْمَهم، وأدحض جدَّهم، ووَلِيَ الأمر عليهم من كان أحقّ به منهم، فخرجوا عليه خروجَ اللّصوص على التّاجر خارجاً من القرية، فأصابوا منه غِرَّة فقتلوه، ثم قَتَلهم الله به قِتْلة، وصاروا مطرُودين تحتَ بُطون الكَواكب.

فقال ابنُ عبّاس: على رِسْلك أيها القائل في أبي بكر وعُمَر والخلافة، أما والله ما نالا ولا نال أحدٌ منهما شيئاً إلا وصاحبنا خيرٌ ممن نالا، وما أنكَرْنا تقدّم من تقدّم لعَيْب عِبْناه عليه، ولو تقدم صاحبُنا لكانَ أهلاً وفوقَ الأهْل، ولولا أنّك إنما تَذكُر حَظّ غيرك وشَرف امرىءٍ سواك لكلّمتك، ولكن ما أنتَ وما لا حظّ لك فيه! اقتَصِر على حَظّك، ودَعْ تَيْماً لِتَيْم، وعَدِيًّا لعَدِيّ، وأُميّة لأميّة، ولو كلّمني تَيميٌّ أو عَدَويٌّ أو أُمَوِيٌّ لكلّمته وأخبرتُه خبرَ حاضرٍ عن حاضر، لا خبرَ غائبٍ عن غائب، ولكن ما أنت، وما ليس عليك! فإن يكن في أسدِ بنِ عبدِ العُزّى شيء فهو لك، أما والله لنحنُ أقرَب بك عهداً، وأبيَض عندك يداً، وأوفر عندك نِعْمة ممّن أمسَيت، تَظُنّ أنّك تصول به علينا، وما أخلَق ثوبُ صفية بعدا! والله المستعان على ما تَصِفون.

أوصَى معاويةُ يزيدَ ابنه لمّا عَقَد له الخلافة بعدَه، فقال: إنّي لا أخاف عليك إلّا ممّن

أوصيك بحفظ قرابتِه ورِعاية حق رَحمه، منَ القلوبُ إليه مائلة، والأهواءُ نحوَه جانحة، والأعيُن إليه طامحة، وهو الحُسين بنُ عليّ، فاقسِمْ له نصيباً من حِلْمك، واخصُصْه بقِسْط وافرِ من مالِك، ومَتِّعه بروحِ الحياةِ، وأبلغ له كلّ ما أحَبّ في أيّامك، فأمّا مَن عداه فثلاثة: وهم عبدُ الله بنُ عمر رجلٌ قد وقذتْه العِبادة، فليس يريدُ الدنيا إلا أن تجيئه طائعةً لا تراقُ فيها محجمةُ دَم، وعبدُ الرحمن بنُ أبي بكر، رجل هِقْلٌ لا يحمل ثِقْلاً، ولا يستطيع نهوضاً، وليس بذي هِمّة ولا شَرَف ولا أعوان، وعبدُ الله بنُ الزبير وهو الذئب الماكر، والثّعلب الخاتِر، فوجِّه إليه جِدَّك وعَزْمَك ونَكيرك ومكرك، واصرِفْ إليه سَطوتك، ولا تثِقْ إليه في حال، فإنه كالثّعلب، راغَ بالخَتْل عند الإرهاق، واللّيث صالَ بالجَراءة عند الإطلاق، وأما ما بعدَ هؤلاء فإنّي قد وطّأت لك الأمَم، وذلّلت لك أعناقَ المنابِر، وكفَيْتُك مَن قَرُب منك، ومَن بَعُد عنك: فكن للنّاس كما كان أبوكَ لهم يكونوا لك كما كانوا لأبيك.

خَطَب عبدُ الله بن الزبير أيام يزيد بن معاوية فقال في خطبته: يزيد القُرود، يزيد الفُهود، يزيد الخمور، يزيد الفُجور! أما والله لقد بلغني أنه لا يزال مخموراً يخطُب النّاس وهو طافِحٌ في سُكره. فبَلَغَ ذلك يزيدَ بنَ معاوية، فما أمسَى ليلتَه حتى جهّز جيش الحَرّة، وهو عشرون ألفاً، وجلس والشُّموعُ بين يديه، وعليه ثيابٌ مُعصفَرة، والجنود تُعرَض عليه ليلاً، فلما أصبح خرج فأبصَر الجيش، ورأى تَعبيتَه فقال:

أبلغْ أبا بكرٍ إذا الجيشُ انبَرى ... وأخَذَ القومُ عَلَى وادي القُرَى
عِشرِين ألفاً بين كَهْلٍ وفَتَى ... أجَمْعَ سَكْرانَ مِن القوم تَرَى
أم جَمْع ليثٍ دونه ليثُ الشَّرَى

لمّا خرج الحسينُ عليه السلام من مكّة إلى العراق ضرَب عبد الله بنُ عباس بيَدِه على منكب ابنِ الزّبير، وقال:

يَا لَكِ مِن قُبَّرةٍ بِمَعْمَرِ ... خلا لَكِ الجوُّ فبِيضِي واصْفِري[1]
ونَقِّرِي ما شِئْتِ أن تُنَقِّرِي ... هذا الحسينُ سائرٌ فأبْشِرِي

خلا الجوُّ والله لك يابن الزبير! وسار الحسين إلى العراق، فقال ابنُ الزبير: يابن عباس، والله ما تَرَوْن هذا الأمر إلّا لكم، ولا ترون إلّا أنكم أحق به من جميع الناس، فقال ابنُ عباس:

---

(١) القُبَّرة: طائر. القاموس، مادة (قبر).

إنما يرى مَن كان في شكّ، ونحن من ذلك على يَقِين ولكن أَخبِرْني عن نفسك، بماذا تَرُوم هذا الأمر؟ قال: بِشرَفي، قال: وبماذا شَرُفْتَ إن كان لك شرَف؟ فإنما هو بنا، فنحن أشرَف منك، لأنّ شرفَك مِنّا. وعلَتْ أصواتُهما، فقال غلام من آل الزبير: دَعْنا منك يابن عباس، فوالله لا تُحبُّونَنا يا بني هاشم ولا نُحبّكم أبداً، فلَطَمه عبدُ اللّه بن الزبير بيده وقال: أتتكلّم وأنا حاضر! فقال ابنُ عبّاس: لم ضربت الغلامَ، والله أحقُّ: بالضّرب منهُ مَن مَزَق ومَرَق، قال: ومَن هو؟ قال: أنت.

قال: واعترض بينهما رجالٌ من قُريش فأسكتوهما.

دخل عبدُ اللّه بنُ الزبير على معاوية، فقال: اسمع أبياتاً قلتها عاتبتُك فيها، قال: هاتِ، فأنشَدَه:

لَعمرِيَ ما أدْرِي وإنِّي لأوْجَلُ ... على أيِّنا تَغدو المنية أوّلُ
وإني أخوك الدّائمُ العَهْدِ لم أزَلْ ... إن أعياكَ خَصْمٌ او نبَا بكَ مَنزِلُ
أحارِبُ من حارَبْتَ مِن ذي عداوةٍ ... وأحبس يوماً إن حُبِسْت فأعقِلُ
وإن سؤتني يوماً صَفَحتُ إلى غدٍ ... ليعقب يومٌ منك آخر مُقبلُ
ستقطَع في الدّنيا - إذا ما قَطَعتني - ... يمينَك، فانظر أيَّ كفٍّ تبدِّلُ!
إذا أنت لم تُنصِفْ أخاك وجدْتَه ... على طَرَف الهِجْران إن كان يعقِلُ
ويركَب حدَّ السيفِ مِن أن تضيمَه ... إذا لم يكن عن شفرةِ السّيف مَعدِلُ
وكنتُ إذا ما صاحبٌ مَلَّ صحبتي ... وبدّل شرًّا بالذي كنتُ أفعَلُ
قلبْتُ له ظَهْرَ المِجَنِّ ولم أقِمْ ... على الضَّيم إلّا رَيثما أتحَوّلُ
وفي الناس إن رَثّتْ حِبالُك واصِلٌ ... وفي الأرض عن دارِ القِلَى متحوَّلُ[1]
إذا انصرفَتْ نفسي عن الشيءِ لم تكَدْ ... إليه بوَجْهٍ آخر الدهرِ تقبلُ

فقال معاوية: لقد شعَرتَ بعدي يا أبا خُبَيب! وبينما هما في ذلك دخل معنُ بن أَوْس المُزَنيّ، فقال له معاوية: إيهٍ! هَلْ أحدثْتَ بعدنا شيئاً؟ قال: نعم، قال: قل، فأنشد هذه الأبيات، فعجب معاويةُ وقال لابن الزبير: ألم تنشدْها لنَفْسك آنفاً! فقال: أنا سوّيت المعاني، وهو ألّف الألفاظ ونَظَمها، وهو بعدُ ظِئْري، فما قال من شيء فهو لي - وكان ابن الزّبير مسترضعاً في مُزَيْنة - فقال معاوية: وكَذِباً يا أبا خبيب! فقام عبدُ اللّه فخرج.

---

(١) القِلى: البغض. اللسان، مادة (قلو).

وقال الشعبيّ: فقد رأيت عجباً بفناء الكَعبة أنا وعبد اللّه بن الزبير وعبدُ الملك بن مروان ومصعب بن الزبير، فقام القوم بعد ما فَرَغوا من حديثهم، فقالوا: ليَقُمْ كلٌّ واحد منكم، فليأخذْ بالرُّكن اليمانيّ، ثم يَسأل الله تعالى حاجته، فقام عبد اللّه بن الزبير فالْتَزَم الرُّكن وقال: اللّهم إنك عظيمٌ تُرجَى لكلّ عظيم، أسألك بحُرمة وجهك وحُرمة عَرْشك وحرمة بيتك هذا، ألّا تخرجَني من الدنيا حتى أليَ الحجاز، ويسلِّم عليّ بالخلافة، وجاء فجلس.

فقام أخوه مصعب فالْتَزَم الرّكن وقال: اللّهمّ ربَّ كلِّ شيء، وإليك مصيرُ كلّ شيء، أسألك بقُدرتك على كل شيء، ألّا تُميتَني حتى أليَ العراق، وأتزوّج سُكينة بنت الحسين بن عليّ، ثمّ جاء فجلس.

فقام عبد الملك فالْتَزَم الركن وقال: اللّهمّ ربّ السماوات السَّبْع، والأرض ذات النبت والقَفْر، أسألك بما سألك به المطيعون لأمرك، وأسألك بحق وجهك، وبحقّك على جميع خلقك، ألّا تميتَني حتى أليَ شرق الأرض وغربَها، لا يُنازِعني أحد إلّا ظَهَرتُ عليه، ثم جاء فجلس.

فقام عبد اللّه بنُ عمرَ فأخذ بالرّكن وقال: يا رحمٰن يا رحيم، أسألك برحمتك الّتي سبقتْ غَضبك، وبقدرتِك على جميع خلقِك، ألّا تميتَني حتى توجِبَ لي الرّحمة.

قال الشّعبيّ: فوالله ما خرجتُ من الدّنيا حتى بلغ كلّ من الثّلاثة ما سأل، وأخلِقْ بعبدِ اللّه بن عمر أن تجاب دعوتهُ، وأن يكون من أهل الرّحمة.

قال الحجّاج في خطبته يوم دخل الكوفة: هذا أدبُ ابن نهية، أما والله لأؤدِّبنّكم غيرَ هذا الأدب.

قال ابن ماكولا في كتاب الإكمال: «يعني مُصعب بن الزبير وعبد اللّه أخاه، وهي نهية بنتُ سعيد بن سهم بن هُصَيْصٍ، وهي أمّ ولد أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ»، وهذا من المواضع الغامضة.

وروَى الزبير بن بكّار في كتاب أنساب قريش قال: قَدِم وفدٌ من العراق على عبد اللّه بن الزبير، فأتوه في المسجد الحرام، فسلّموا عليه، فسألهم عن مصعب أخيه وعن سيرته فيهم، فأثنوْا عليه، وقالوا: خيراً، وذلك في يوم جمعةٍ، فصلّى عبد اللّه بالناس الجمعة، ثمّ صَعِد المنبر، فحمِد الله ثم تمثّل:

قد جَرَّبوني ثمَّ جَرَّبوني ... من غَلْوَتَيْنِ ومِن المِئين

حتى إذا شابُوا وشَيَّبوني ... خلَّوْا عِناني ثمَّ سَيَّبوني

أيّها الناس، إني قد سألتُ هذا الوفد من أهل العراق عن عاملهم مصعب بن الزبير فأحسنوا الثناء عليه، وذكروا عنه ما أحبّ، ألا إن مصعباً اطّبى القلوب حتى لا تعدل به، والأهواءَ حتى لا

تَحُول عنه، واستمال الألسُن بثنائها، والقلوب بنصائحها، والأنفس بمحبّتها وهو المحبوب في خاصّته، المأمونُ في عامّته، بما أطلق الله به لسانه من الخير وبَسَط به يديه من البذل، ثم نزل.

وروى الزّبير قال: لما جاء عبد اللّه بن الزّبير نعيُ المصعب صَعِد المنبرَ فقال: الحمدُ لله الّذي له الخَلْق والأمر، يؤتي المُلْك من يشاء، ويَنزع المُلك ممّن يشاء، ويُعزّ من يشاء، ويُذلّ من يشاء، ألا وإنّه لم يُذْلِل الله من كان الحقّ معه ولو كان فَرْداً، ولم يُعَزِّز الله وليّ الشّيطان وحِزْبه وإن كان الأنام كلُّهم معه، ألا وإنه قد أتانا من العراق خبرٌ أحزَنَنا وأفرَحَنا، أتانا قتلُ المصعب رحمه الله، فأمّا الذي أحزَنَنا فإنّ لفِراق الحميم لَذْعة يَجِدها حميمُه عند المصيبة، ثم يَرْعَوِي بعدَها ذو الرأي إلى جميل الصبر وكرمِ العزاء، وأما الذي أفرَحَنا فإنّ قتله كان عن شهَادة، وأنّ الله تعالى جعل ذلك لنَا ولَه ذخِيرة. ألا إنّ أهلَ العراق، أهل الغَدْر والنّفاق، أسلَموه وباعوه بأقلّ الثمن، فإن يُقتَل المصعب فإنا لله وإنّا إليه راجعون! ما نموت جَبْحاً كما يموت بنو العاص، ما نموتُ إلّا قتْلاً، قعصاً بالرّماح، وموتاً تَحتَ ظِلال السُّيوف، ألا إنّما الدنيا عاريّة من الملِك الأعلى الّذي لا يزول سلطانُه ولا يَبيد، فإنْ تُقبِل الدّنيا عليّ لا آخذْها أخذَ الأشِر البطر، وإن تُدْبر عنّي لا أبكي عليها بكاءَ الخَرِفِ المهتَر، وإن يَهلِك المُصعَب فإنّ في آل الزبير لخَلَفاً. ثم نزل.

وروى الزّبير بن بكّار قال: خَطب عبدُ اللّه بنُ الزّبير بعد أن جاءه مَقتَل المُصعب، فَحمِد الله، وأثنى عليه ثمّ قال: لئن أُصِبتُ بمصعب فلقد أصِبت بإمامي عثمان، فعظمت مصيبته، ثم أحسن الله وأجمَل، ولئن أُصِبت بمُصعَب فلقد أصبت بأبي الزّبير، فعظمت مُصيبتُه، فظننتُ أنّي لا أُجِيزها، ثم أحسَن الله وسلّم، واستمرّت مريرتي، وهلْ كان مُصعَب إلّا فتًى من فِتْياني! ثم غلبَه البكاء فسالتْ دموعُه وقال: كان والله سَرِيًّا مَرِيًّا، ثم قال:

هـمُ دَفَعوا الدّنيا على حين أعرَضت   كـرامـاً وسَـنُّـوا لـلـكِـرَام الـتـأسِّـيـا

ورَوَى أبو العباس في الكامل أنّ عروة لمّا صُلِبَ عبدُ اللّه جاء إلى عبدِ الملك فوَقَف ببابه، وقال للحاجب: أعْلِم أميرَ المؤمنين أنّ أبا عبدِ اللّه بالباب، فدخل الحاجب فقال: رجلٌ يقول قولاً عظيماً. قال: وما هو؟ فتهيَّب، فقال: قل. قال: رجلٌ يقول: قلْ لأميرِ المؤمنين: أبو عبد اللّه بالباب، فقال عبد الملك: قلْ لعرْوةَ يدخُل، فدخل فقال: تأمُر بإنزال جِيفةِ أبي بكر فإنّ النساءَ يَجْزعْن، فأمَر بإنزاله. قال: وقد كان كَتَب الحجّاجُ إلى عبدِ الملك يقول: إنّ خزائن عبدِ اللّه عند عُرْوة، فمرْه فليُسلّمها، فدَفَع عبدُ الملك إلى عروة، وظنّ أنه يتغيّر، فلم يَحفِل بذلك كأنه ما قراه، فكَتَب عبدُ الملك إلى الحجّاجِ ألا يَعرِض لعُروة.

ومن الكلام المشهور في بُخل عبدِ اللّه بن الزّبير الكلام الّذي يُحكَى أنّ أعرابيًا أتاه يَستَحمِله، فقال: قد نَقَبَ خُفّ راحِلَتي فاحمِلني إني قطعتُ الهواجِر إليك عليها، فقال له: ارْقَعْها بِسبْت، واخصفْها بهُلب، وأَنجِدْ بها، وسِرْ بها البردين فقال: إنما أتيتُك مستحملاً، لم آتِك مستوصِفاً، لعن الله ناقةً حملَتني إليك، قال: إنَّ وراكبها.

وهذا الأعرابي هو فَضالة بن شريك، فهجاه فقال:

أَرَى الحاجاتِ عند أبي خُبَيْبٍ　　نَكِدْن ولا أُمَيَّةَ بالبلادِ

من الأعياصِ أو مِن آلِ حَرْبٍ　　أغرّ كغُرَّة الفرَس الجوادِ

دخل عبدُ اللّه بنُ الزّبير على معاويةَ فقال: يا أمير المؤمنين، لا تدعَنّ مروانَ يرمي جماهيرَ قُريش بمَشاقِصِه[1]، ويَضرِب صَفاتَهم بمعوَله. أما والله، إنه لولا مكانُك لكان أخفّ على رِقابنا من فَراشَة، وأقلّ في أنفسِنا من خُشاشة، وايمُ الله لئِن مَلَك أعِنّة خيْل تَنقادُ له لتركبنّ منه طبقاً تَخافه.

فقال معاوية: إنْ يطلبْ مَرْوان هذا الأمر فقد طَمِع فيه مَن هُوَ دونه، وإنْ يَترُكه يتركُه لمن فوقَه، وما أراكم بمنتهِين حتى يَبعثَ الله عليكم من لا يَعطِف عليكم بقَرابة، ولا يَذْكركم عند مُلِّمة، يَسومكم خَسْفاً، ويَسُوقُكم عَسْفاً.

فقال ابن الزبير: إذنْ والله يطلق عقال الحرْبِ بكتائب تَمُور كرِجْل الجراد، تتبع غِطْريفاً من قُرَيش لم تكن أمُّه راعيةَ ثلّة.

فقال معاوية: أنا ابن هِنْد، أطلقتُ عقال الحرْب، فأكلْت ذِرْوة السّنام، وشرِبتُ عُنفُوان المكرّع وليس للآكل بعدي إلا الفَلْذة، ولا للشارب إلا الرنق. فسكت ابنُ الزبير.

قَدِم عبد اللّه بنُ الزّبير على معاوية وافداً، فرحّب به وأدناه حتّى أجلسَه على سريره، ثم قال: حاجَتَك أبا خُبَيب! فسأله أشياء، ثم قال له: سَلْ غيرَ ما سألتَ، قال: نعم، المهاجرون والأنصار تَرُدُّ عليهم فيئهم، وتَحفظ وصيَّة نبيّ الله فيهم، تقبَل من مُحسِنهم، وتتجاوَز عن مُسِيئِهم.

فقال معاوية: هَيْهاتَ هَيْهات، لا والله ما تَأمن النّعجةُ الذّئب وقد أكَل أَلْيَتها.

فقال ابنُ الزّبير: مَهْلاً يا معاوية، فإنّ الشاةَ لتدرّ للحالب وإنّ المُدْية في يده، وإنّ الرجل الأريبَ ليُصانع ولدَه الّذي خرجَ من صُلْبه، وما تدور الرحَى إلّا بقُطْبها، ولا تَصلُح القَوسُ إلّا بمَعْجِسها.

---

(١) المشقص: نصل السهم إذا كان طويلاً غير عريض. اللسان، مادة (شقص).

فقال: يا أبا خُبَيب، لقد أجررتَ الطرُوقة قَبل هِباب الفَحْل هيهات، وهي لا تصطكّ لحبائها اصطكاكَ القروم السوامي.

فقال ابنُ الزبير: العَطَن بعد العَلّ، والعلّ بعد النَّهَل، ولا بدّ للرّحاء من الثِّفال ثمّ نهض ابنُ الزبير.

فلما كان العِشاء أخذتْ قُريش مجالسَها، وخرج معاويةُ على بني أميّة فوَجدَ عمرو بنَ العاص فيهم، فقال: ويَحكُم يا بني أميّة! أفيكم من يَكْفيني ابنَ الزبير؟ فقال عمرو: أنا أكْفيكَه يا أميرَ المؤمنين، قال: ما أظنُّك تفعَل؟ قال: بلى والله لأربُدَنّ وجهَه، ولأخرِسَنّ لسانه، ولأردّنّه ألينَ من خمِيلة.

فقال: دونَك، فاعْرِض له إذا دخَل. فدخل ابنُ الزبير - وكان قد بَلغه كلامُ معاوية وعمرو - فجلس نصب عيْني عمرو، فتحدّثوا ساعةً ثمّ قال عمرو:

وإني لنارٌ ما يطاقُ اصطِلاؤها لَدَيَّ كلامٌ مُعضِلٌ مُتفاقِمُ

فأطرَق ابنُ الزبير ساعةً ينكُتُ في الأرض، ثمّ رفع رأسه وقال:

وإنّي لبَحْرٌ ما يُسامَى عُبابُه مَتَى يَلْق بَحرِي حرَّ نارِك يَخمُد

فقال عمرو: والله يابن الزّبير إنك ما علمت لمتجلببٌ جلابيبَ الفتنة، متأزّر بوصائل التّيه، تتَعاطَى الذُّرَا الشاهقة، والمَعاليَ الباسقة. وما أنت من قريش في لباب جوهرها ولا مؤنق حَسبها!

فقال ابن الزبير: أما ما ذكرتَ من تعاطيّ الذرا فإنّه طالَ بيَ إليها وسما ما لا يَطُول بك مِثلُه: أنفٌ حِميٌّ، وقَلْبٌ ذَكِيّ، وصارمٌ مَشرَفيّ، في تَلِيدٍ فارع، وطريفٍ مانِع، إذ قعد بك انتفاخ سَحرك، ووَجِيبُ قَلبِك. وأمّا ما ذكرت من أني لستُ من قريش في لُباب جَوْهرِها، ومؤنِق حَسَبها، فقد حضرَتْني وإياك الأكْفاء العالِمون بي وبك، فاجعلْهم بيني وبينَك.

فقال القوم: قد أنصفَك يا عمرو، قال: قد فعلت.

فقال ابن الزبير: أما إذ أمكنَني الله منك فلأربُدَنّ وجهَك، ولأخرسنّ لسانَك ولترجعنّ في هذه الليلة، وكأن الّذي بين مَنكِبَيك مشدود إلى عُروقِ أخدَعَيْك، ثمّ قال: أقسمتُ عليكم يا معاشرَ قريش، أنا أفضلُ في دين الإسلام أم عمرو؟ فقالوا: اللهمّ أنت، قال: فأبي أفضلُ أم أبوه؟ قالوا: أبوك حواريّ رسولِ الله ﷺ وابنُ عمّته، قال: فأمي أفضلُ أمْ أمُه، قالوا: أمّك أسماءُ بنتُ أبي بكر الصِّدّيق، وذاتُ النِّطاقَين، قال: فعمّتي أفضلُ أم عمّته؟ قالوا: عمّتُك سَلْمى ابنة العَوّام صاحبةُ رسول الله ﷺ أفضلُ من عمّته، قال: فخالتي أفضلُ أم خالته؟ قالوا: خالتك عائشةُ أمُّ المؤمنين، قال: فجدتي أفضلُ أم جدّته، قالوا: جدّتك صفيّة بنتُ

عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ، قال: فجدي أفضلُ أمْ جَدُّه؟ قالوا: جدُّك أبو بكر الخليفة بعد رسول الله ﷺ، فقال:

قَضَت الغَطارفُ من قُريش بيننا ... فاصبر لفَضْل خِصامِها وقضائِها

وإذا جَرَيْتَ فلا تَجارِ مبرّزا ... بذّ الجياد على احتفال جِرائها

أما والله يابن العاص، لو أن الذي أمَرَك بهذا واجهني بمِثْله لقصّرْت إليه مِن سامي بصرِه، ولتركته يتلجْلَج لسانه، وتضطَرِم النار في جوفه، ولقد استعان منك بغير وافٍ ولجأ إلى غيرِ كافٍ، ثمّ قام فخرج.

وذكر المسعوديّ في كتاب مُرُوج الذهب أنّ الحجّاج لما حاصر ابن الزبير لم يزل يزحَف حتى مَلَك الجبل المعروف بأبي قُبَيْس، وقد كان بيدِ ابن الزبير، فكتَب بذلك إلى عبد الملك، فلما قرأ كتابه كبّر وكبّر من كان في دارِه حتى اتّصل التكبير بأهل السّوق، فكبَّروا، وسأل الناسُ ما الخبر؟ فقيل لهم: إن الحجاج حاصَرَ ابنَ الزبير بمكة، وظفر بأبي قُبَيْس، فقال الناس: لا نرضى حتى يُحمَل أبو خُبَيْب إلينا مكبّلاً على رأسِه بُرْنُس، راكبَ جملٍ، يُطاف به في الأسواق، تراه العيون.

وذكر المسعوديُّ أنّ عمة عبدِ الملك كانت تَحت عروة بن الزّبير، وأنّ عبد الملك كتب إلى الحجّاج يأمُره بالكفّ عن عُرْوة، وذلك قبل أن يقتل عبدُ اللّه وألاّ يسوءَه إذا ظَفِر بأخيه في ماله ولا في نفسِه، قال: فلما اشتدّ الحصار على عبد اللّه خرج عُرْوة إلى الحجّاج فأخَذ لعبد اللّه أماناً ورَجَع إليه، فقال: هذا عمرو بنُ عثمان، وخالدُ بنُ عبدِ اللّه بن خالد بن أسيد، وهما فَتَيا بني أميّة يُعطيانك أمان عبدِ الملك ابن عمّهما على ما أحدثْتَ أنتَ ومن معك، وأن تنزل أيّ البلادِ شئت، ولك بذلك عهدُ الله وميثاقُه، فأبَى عبدُ اللّه قبول ذلك، ونهَتْه أمّه وقالت: لا تَموتَنّ إلّا كَريماً، فقال لها: إني أخاف إنْ قُتِلتُ أن أُصلَبَ أو يمثّل بي، فقالت: إنّ الشاة بعد الذّبح لا تُحِسّ بالسَّلْخ.

وروى المسعوديُّ أنّ عبد اللّه بن الزّبير بعد موت يزيد بن معاوية طَلَب مَن يؤمِّره على الكوفة، وقد كان أهلها أحَبّوا أن يليَهم غير بني أمية، فقال له المختار بنُ أبي عُبَيد: اطلُبْ رجلاً له رفْق وعلم بما يأتي، وتدبُّرٌ قوله إياها يستخرجُ لك منها جنداً تغلب به أهل الشام، فقال: أنت لها، فبعثه إلى الكوفة، فأتاها وأخرج ابن مطيع مِنها، وابتنَى لنفسه داراً، وأنفق

عليها مالاً جليلاً، وسأل عبد الله بن الزّبير أن يحتسب له به من مال العِراق، فلم يفعل، فخلعه وحَجَد بَيْعَته، ودعا إلى الطالبيِّين.

قال المسعوديّ: وأظهَر عبدُ الله بنُ الزبير الزّهدَ في الدّنيا، وملازمةَ العبادة، مع الحِرْص على الخلافة وشَبْرِ بَطْنه، فقال: إنما بَطْني شبْر، فما عَسَى أن يَسَع ذلك الشّبْر! وظَهر عنه شُحٌّ عظيم على سائرِ الناس، ففي ذلك يقول أبو حمزة مولى آل الزّبير:

إن المواليَ أمستْ وهي عاتِبةٌ ... على الخَليفةِ تَشكُو الجوعَ والحَرَبَا
ماذا علينا وماذا كان يرزؤنا ... أيّ الملوك على ما حولنا غلبا!

وقال فيه أيضاً:

لو كان بطنَك شبْراً قد شَبعتَ وقد ... فضَلْتَ فَضْلاً كثيراً للمساكين
ما زلتَ في سُورةِ الأعراف تَدرُسها ... حتى فؤاديَ مِثل الخَزّ في اللِّينِ

وقال فيه شاعرٌ أيضاً، لمّا كانت الحرب بينَه وبين الحُصَين بن نُمير قبل أن يموتَ يزيدُ بنُ معاوية:

فيا راكباً إمّا عَرَضْتَ فبلِّغَنْ ... كبير بَني العَوّام إنْ قيلَ مَن تَعْني
تُخبِّر مَنْ لاقيتَ أنك عائذٌ ... وتُكثِرُ قَتلَى بين زَمزمَ والرُّكنِ

وقال الضَّحّاكُ بن فَيْروز الدَّيْلميّ:

تخبِّرنا أنْ سوفَ تَكفِيكَ قَبضةٌ ... وبَطنُكَ شِبْر أو أقلُّ من الشِّبْر
وأنتَ إذا ما نِلتَ شيئاً قضَمْتَه ... كما قَضَمَتْ نارُ الغَضا حَطَب السِّدرِ
فلو كنتَ تَجزِي أو تُثيبُ بِنعمةٍ ... قريباً لرَدّتْك العُطوفُ على عَمرو.

قال: هو عَمرو بنُ الزّبير أخوه، ضَرَبَه عبدُ الله حتى مات وكان مبايِناً له.

كان يزيدُ بنُ معاويةَ قد وَلّى الوليد بنَ عُتْبَةَ بن أبي سُفْيان المدينةَ، فسَرّح الوليد منها جَيْشاً إلى مكة لحرب عبدِ الله بنِ الزبير، عليه عَمرو بنُ الزبير، فلمّا تصافَّ القومُ انهزَم رجالُ عَمرٍو وأسلموه، فظَفِر به عبدُ الله، فأقامَه للنّاس بباب المسجد مجرَّداً، ولم يَزَل يَضرِبه بالسِّياطِ حتى مات.

وقد رأيتُ في غيرِ كتابِ المسعوديّ، أنّ عبدَ الله وَجد عَمْراً عند بعض زَوْجاته، وله في ذلك خبرٌ لا أُحِبُّ أن أذكُره.

قال المسعوديّ: ثم إنّ عبدَ الله بنَ الزبير حَبَس الحسنَ بن محمد بن الحنفيّة في حَبْس

مظلم، وأراد قتله، فأعمل الحيلَة حتى تَخلَّص من السِّجن، وتَعسَّف الطريقَ على الجبال، حتى أتى مِنَى، وبها أبوه محمّد بنُ الحنفيّة.

ثم إنّ عبد اللّه جمعَ بني هاشم كلَّهم في سجن عارِم، وأراد أن يُحرِقهم بالنار، وجعل في فم الشِّعب حَطَباً كثيراً، فأرسل المختارُ أبا عبد اللّه الجَدَليَّ في أربعةِ آلافٍ، فقال أبو عبدِ اللّه لأصحابه: وَيْحَكم! إنْ بلغ ابنَ الزبير الخبرُ عَجَّل على بني هاشم فأتى عليهم، فانتدب هو نفسُه في ثمانمائةِ فارس جريدةً، فما شَعَر بهم ابن الزبير إلّا والرايات تَخفُق بمكة، فَقَصد قَصْد الشِّعب، فأخرَج الهاشميِّين منه، ونادَى بِشعارِ محمد بن الحنفيَّة، وسمّاه المهديّ، وهرَب ابنُ الزبير، فلاذَ بأستار الكَعْبة، فنهاهم محمد بنُ الحنفيّة عن طلبه وعن الحَرْب، وقال: لا أريد الخلافة إلا إن طلبنيَ الناس كلُّهم، واتفقوا عليّ كلهم، ولا حاجة لي في الحرب.

قال المسعوديّ: وكان عروة بن الزبير يعذر أخاه عبدَ اللّه في حَصْر بني هاشم في الشِّعب، وجمعِه الحَطَب ليُحرِقهم ويقول: إنّما أراد بذلك ألّا تنتشِر الكلمة، ولا يختلفَ المسلمون، وأن يدخلوا في الطّاعة، فتكونَ الكلمةُ واحدة، كما فَعَل عمرُ بنُ الخطّاب ببني هاشم لمّا تأخروا عن بيعة أبي بكر، فإنه أحضَر الحَطَب ليُحرِّق عليهم الدار.

قال المسعوديّ: وخطب ابنُ الزّبير يومَ قَدِم أبو عبدِ اللّه الجَدَليّ قبل قدومِه بساعتين، فقال: إنّ هذا الغلامَ محمّد بنَ الحنفيّة قد أَبَى بيْعتي، والمَوْعِد بيني وبينَه أن تَغرُب الشّمس، ثمّ أُضرِمَ عليه مكانَه ناراً، فجاء إنسانٌ إلى محمّد فأخبَرَه بذلك، فقال: سَيمْنَعه منّي حجابٌ قويّ، فجعل ذلك الرجلُ يَنظُر إلى الشّمس، ويَرقُب غَيْبُوبَتِها لينظرَ ما يصنع ابنُ الزّبير، فلمّا كادت تَغرُب حاسَت خيل أبي عبد اللّه الجَدَليّ دِيارَ مكّة وجعلتْ تَمعَج بين الصّفا والمَرْوَة، وجاء أبو عبد اللّه الجَدَليّ بنَفْسه، فوَقَف على فَم الشِّعب، واستَخرَج محمّداً، ونادَى بشِعاره، واستأذَنَه في قَتْل ابن الزبير، فكَرِه ذلك ولم يأذَنْ فيه، وخرج من مكّة فأقام بشِعب رضْوَى حتّى مات.

ورَوَى المسعوديُّ عن سَعِيد بنِ جُبير، أنّ ابنَ عبّاس دخل على ابن الزبير فقال له ابنُ الزبير: إلامَ تؤنّبني وتعنّفني! قال ابنُ عبّاس: إنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «بئس المرءُ المُسلِم يَشبَع ويَجوعُ جارُه!»[1]، وأنتَ ذلك الرّجل، فقال ابنُ الزّبير: والله إنّي لأكْتُم بُغضَكم أهلَ هذا البيت منذُ أربعين سنةً. وتَشاجَرا، فخَرَجَ ابنُ عبّاسٍ من مكّة، [خوفاً على نفسه]، فأقام بالطّائف حتّى مات.

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٥٣٧)، بلفظ: «ليس المسلم. . .» والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٦٢٨) بلفظ: «المسلم الذي يشبع ويجوع جاره ليس بمؤمن».

ورَوى أبو الفَرَج الأصفهانيّ قال: أتى فَضَالة بن شَرِيك الوالبيّ ثمّ الأسديّ من بني أسَد بن خُزَيمة عبدَ اللّه بنَ الزُّبير فقال: نَفِدتْ نَفقتي، ونَقِبَتْ ناقَتي، فقال: أحضرْنيها، فأحضرَها، فقال: أقبِلْ بها، أدبِرْ بها، ففعَل، فقال: ارْقَعْها بسِبْت، واخصِفْها بهُلْب، وأنجِد بها يَبرُد خُفّها، وسِر البَرْدَيْن تصحّ. فقال فضالة: إني أتيتُك مستحمِلاً، ولم آتِكَ مستوصِفاً، فلَعَن الله ناقةً حَمَلتْني إليكَ! فقال: إنّ وراكبَها، فقال فضالة:

أقـول لِـغـلـمـةٍ شُـدُّوا رِكـابـي ... أجـاوزُ بـطـنَ مـكّـةَ فـي سَـوادِ

فـمـالـي حـيـنَ أقـطـعُ ذاتَ عِـرْقٍ ... إلـى ابـنِ الـكـاهِـلـيّـة مـن مَـعَـادِ

سيُـبـعِـد بـيـنـنـا نَـصُّ الـمَـطـايـا ... وتَـعـلـيـقُ الأداوَى والـمَـزادِ

وكـلّ مـعـبّـد قـد أعـلـمـتـه ... مَـنـاسِـمُـهُـنَّ طـلاّع الـنِّـجـادِ

أرَى الـحـاجـاتِ عـنـد أبـي خُـبَـيْـبٍ ... نُـكِـدْن ولا أمـيّـةَ بـالـبِـلادِ

مـن الأعـيـاصِ أو مِـن آلِ حَـرْبٍ ... أغـرّ كـغُـرّة الـفَـرَس الـجَـوادِ

قال: ابنُ الكاهليّة هو عبدُ اللّه بن الزّبير، والكاهليّة هذه هي أمُّ خُوَيْلد بن أسَد بن عبدِ العُزّى، واسمُها زُهْرة بنت عمرو بن خَنْثر بن رُوَيْبة بن هِلال، من بني كاهِل بن أسد بن خزيمة - قال: فقال عبدُ اللّه بنُ الزّبير لمّا بَلغه الشّعر: عَلِم أنّها شرُّ أمّهاتي فعَيَّرني بها، وهي خيرُ عمّاتِه.

ورَوَى أبو الفَرَج قال: كانت صفيّة بنتُ أبي عبيد بن مَسْعود الثّقَفيّ تحتَ عبدِ اللّه بن عُمَر بن الخطّاب فمَشَى ابن الزّبير إليها، فذَكَر لها أنّ خروجَه كان غَضباً لله عزّ وجلّ ولِرَسوله ﷺ وللمهاجرِين والأنصار من أثَرة مُعاوية وابنه بالفَيْء، وسألَها مسألة زَوْجها عبد اللّه بنِ عمَر أن يبايعَه، فلمّا قدّمَت له عشاءَه ذكرتْ له أمرَ ابن الزبير وعِبادتَه واجتهادَه، وأثنَتْ عليه، وقالت: إنه ليَدْعو إلى طاعةِ الله عزّ وجلّ، وأكثَرت القولَ في ذلك، فقال لهَا: وَيْحكِ! أما رأيتِ البَغَلات الشُّهْب الّتي كان يَحُجّ معاويةُ عليها، وتقدم إلينا من الشّام؟ قالت: بلى، قال: والله ما يريدُ ابنُ الزّبير بعبادَتِه غيرَهنّ!

- ٤٦٢ -

الأصل: وقال عليه السلام: ما لابْنِ آدَمَ والْفَخْرُ! اوَّلُهُ نُطْفَةٌ، وآخِرُهُ جِيفَةٌ. لا يَرْزُقُ نَفْسَهُ، ولا يَدْفَعُ حَتْفَهُ.

الشرح: قد تقدّم كلامُنا في الفَخر، وذكَرْنا الشّعرَ الّذي أُخِذَ من هذا الكلام، وهو قولُ القائل:

ما بالُ مَن أوّلُه نُطفةٌ وجيفةٌ آخِرُه يفخَرُ
يُصبِح ما يَملِك تقديمَ ما يَرجُو ولا تأخيرَ ما يَحذَرُ!

بعض ما قيل في الفخر وقبحه

وقال بعضُ الحكماء: الفخر هو المُباهاة بالأشياء الخارجة عن الإنسان، وذلك نهايةُ الحُمق لمن نَظَر بعَيْن عقلِه، وانحسَرَ عنه قِناع جهله، فأعراض الدُّنيا عاريّة مستَردّة، لا يؤمَن في كلّ ساعة أن تُرتَجع، والمُباهِي بها مُباهٍ بما في غير ذاتِه.

وقد قال لبعض مَن فخرَ بثروَته ووَفره: إن افتخرتَ بفرَسِك فالحسْن والفراهة له دونَك، وإن افتخرتَ بثيابك وآلاتِك فالجمال لهما دُونَك، وإن افتخرتَ بآبائِك وسَلفِك فالفضْلُ فيهم لا فيك، ولو تكلّمتْ هذه الأشياء لقالَتْ لك: هذه محاسنُنا فما مَحاسِنُك!

وأيضاً فإن الأعراض الدنيويّة كما قيل: سحابةُ صَيْف عن قليلٍ تقَشّع، وظلٌّ زائل عن قريبٍ يَضمحِلّ، كما قال الشاعر:

إنما الدّنيا كرُؤْيا فرّحَتْ مَن رآها ساعةً ثم انقَضَتْ

بل كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾[1].

وإذا كان لا بدّ من الفَخر فلْيفخَر الإنسانُ بعلْمه وبشَريف خُلُقه، وإذا أعجبَك من الدّنيا شيءٌ فاذكرْ فناءَك وبقاءَه، أو بقاءَك وفناءَه، أو فناءَكما جميعاً، وإذا راقَك ما هُوَ لك فانظرْ إلى قُرْب خُروجه من يَدِك، وبُعْد رجوعِه إليك، وطُول حسابك عليه وقد ذَمّ الله الفخُور فقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[2].

- ٤٦٣ -

الأصل: الْغِنَى والْفَقْرُ بَعْدَ الْعَرْضِ عَلَى الله تعالى.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

الشرح: أي لا يُعَدّ الغنيّ غنيًا في الحقيقة إلا من حَصَل له ثوابُ الآخرة الّذي لا يَنقطع أبداً، ولا يعدّ الفقير فقيراً إلا مَنْ لم يَحصُل له ذلك، فإنه لا يزال شقياً معذَّباً، وذاك هو الفقْر بالحقيقة.

فأمّا غِنَى الدنيا وفَقْرُها فأمران عَرَضيّان، زوالهما سريع، وانقضاؤهما وَشِيك. وإطلاق هاتَيْن اللفظتين على مُسمّاهما الدّنيويّ على سبيلِ المجاز عند أربابِ الطريقة، أعني العارفين.

- ٤٦٤ -

الأصل: وسُئِلَ عَنْ أَشْعَرِ الشُّعَرَاءِ، فقال عليه السلام: إنَّ الْقَوْمَ لَيَجْرُوا في حَلَبَةٍ تُعْرَفُ الْغَايَةُ عِنْدَ قَصَبَتِها، فإنْ كانَ ولا بُدَّ فالمَلِكُ الضِّلِّيلُ. قال: يُرِيدُ امْرَأَ الْقَيْس.

مع علي بن أبي طالب عليه السلام حول أشعر الشعراء

الشرح: قرأتُ في أمالِي ابن دُرَيد، قال: أخبَرنا الجُرْمُوزيّ، عن ابنِ المهلّبيّ، عن ابن الكلبيّ، عن شدّاد بن إبراهيم، عن عبيدِ الله بن الحَسن العَنْبريّ، عن ابن عرادة، قال: كان عليّ بنُ أبي طالب عليه السلام يُعشّي الناسَ في شَهْر رَمضان باللّحم ولا يتعشّى معهم، فإذا فَرَغوا خَطَبهم ووعَظَهم، فأفاضوا ليلةً في الشُّعراء وهم على عَشائِهم، فلمّا فَرَغوا خَطَبهم عليه السلام وقال في خُطبته: اعلموا أنّ مِلاك أمركم الدِّين، وعِصْمَتكم التّقوى، وزينَتكم الأدب، وحُصون أعراضكم الحِلْم، ثم قال: قل يا أبا الأسود: فِيم كُنتمْ تفيضون فيه؟ أي الشّعراء أشعَر؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين الّذي يقول:

ولقد أغتدي يُدافِع رُكْني ... أعوجيٌّ ذو مَيْعةٍ إضرِيجُ
مِخْلَطٌ مِزْيَلٌ مِعَنٌّ مِفَنٌّ ... منفح مِطْرَح سَبُوحٌ خَروجُ

يعني أبا دُواد الإياديّ، فقال عليه السلام: ليس به، قالوا: فمن يا أمير المؤمنين؟ فقال: لو رُفعتْ للقوم غايةٌ فجرَوْا إليها معاً عَلمْنا مَن السابقُ منهم، ولكنْ إنْ يكن فالذي لم يَقُل عن رَغْبة ولا رَهْبة. قيل: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: هو المَلِكُ الضِّلّيل ذو القُروح، قيل: امرُؤ القيس يا أمير المؤمنين؟ قال: هو. قيل: فأخبِرْنا عن ليلة القَدْر؟ قال: ما أخلو من أن أكون أعلمها فأستُر علمها، ولستُ أشُكّ أنّ الله إنما يَستُرها عنكم نظراً لكم، لأنه لو أعلمكُموها عملتم فيها وتركتم غيرها، وأرجو أن لا تُخطِئَكم إن شاء الله، انهَضوا رَحِمَكم الله.

وقال ابن دُرَيد لما فرَغ من الخبر: إضرِيج: ينبثق في عَدْوِه، وقيل واسعُ الصَّدْر ومنفح:

يُخرج الصَّيد من مَواضِعه، ومِطرَح: يطرح ببَصَره. وخَروج: سابقٌ. والغاية بالغين المعجمة: الرّاية، قال الشاعر:

وإذا غـايــةُ مـجــدٍ رُفـعــت　　　نَـهَـض الـصّـلـت إلـيـهـا فـحَـواهـا

ويروى قولُ الشّماخ:

إذا مـا رايـةٌ رُفـعـتْ لـمـجـدٍ　　　تـلـقّـاهـا عَـرابـةُ بـالـيَـمـيـنِ

بالغَيْن، والرّاء أكثر. فأما البيت الأوّل فبالغين لا غير، أنشده الخليل في عَرُوضه، وفي حديثٍ طويلٍ في الصحيح: «فيأتونكم تحت ثمانين غايةً، تحت كلِّ غاية اثنا عشر ألفاً»[1]. والمَيْعة: أوّل جَرْي الفَرَس، وقيل: الجرْي بعدَ الجرْي.

اختلاف العلماء في تفضيل بعض الشعراء على بعض

وأنا أذكرُ في هذا المَوْضع ما اختلف فيه العلماء من تَفْضيل بعض الشعراء على بعض، وأبتدىء في ذلك بما ذَكَره أبو الفرج عليُّ بن الحسين الأصفَهاني في كتاب الأغاني.

قال أبو الفَرَج: الثلاثة المقدَّمون على الشّعراء: امرؤ القيس، وزُهير، والنابغة، لا اختلاف في أنّهم مقدَّمون على الشعراء كلِّهم، وإنما اختُلِف في تقديم بعض الثلاثة على بعض.

قال: فأخبرني أبو خليفة، عن محمّد بن سلاّم، عن أبي قبيس، عن عكرمة بن جَرير، عن أبيه، قال: شاعرُ أهل الجاهليّة زهير.

قال: وأخبرني أحمد بن عبد العزيز الجَوْهريّ، قال: حدثني عمرُ بنُ شبّة، عن هارون بن عمر، عن أيوب بن سُوَيد، عن يحيى بن زِياد، عن عمر بن عبد الله اللّيثيّ، قال: قال عمرُ بنُ الخطاب ليلةً في مسيره إلى الجابية: أين عبدُ الله بنُ عبّاس؟ فأُتي به، فشَكا إليه تخلُّف عليّ بن أبي طالب عليه السلام عنه. قال ابن عبّاس: فقلتُ له: أو لم يعتذِر إليك؟ قال: بلى، قلت: فهو ما اعتذر به. قال: ثم أنشأ يحدّثني فقال: إن أوّل من راثكم عن هذا الأمر أبو بكر، إن قومَكم كَرِهوا أن يَجمعوا لكم الخلافة والنبوّة. قال أبو الفَرَج: ثمّ ذكر قصّة طويلةً ليستْ من هذا الباب، فكرهتُ ذكرها ثمّ قال: يابن عبّاس، هل تروي لشاعر الشّعراء؟ قلت: ومَن هو؟ قال: وَيْحَك! شاعرُ الشعراء، الذي يقول:

فـلـو أنّ حَـمْـداً يُـخْـلِـدُ الـنّـاس خُـلِّـدوا　　　ولـكـنّ حَـمْـد الـنّـاس لـيـس بـمـخـلِـدِ

فقلتُ: ذاك زُهَير، فقال: ذاك شاعرُ الشّعراء، قلتُ: وبِم كان شاعرَ الشّعراء؟ قال: إنه كان لا يُعاظِل الكلام، ويتجنّب وحشيَّه، ولا يمدَح أحداً إلّا بما فيه.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الجزية، باب: ما يحذر من الغدر (٣١٧٦)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: أشراط الساعة (٤٠٤٢)، وأحمد في «مسنده» (١٦٣٨٥).

قال أبو الفرج: وأخبرني أبو خليفة قال: قال ابن سلاّم: وأخبرني عمرُ بنُ موسى الجمحيّ، عن أخيه قدامة بن موسى - وكان من أهلِ العِلم - أنه كان يقدِّم زُهَيراً، قال: فقلتُ له: أيُّ شعره كان أعجب إليه؟ فقال: الذي يقول فيه:

قد جَعَل المُبتَغُون الخيرَ في هَرِمٍ　　والسائلون إلى أبوابه طرقَا

قال ابن سَلاّم: وأخبَرني أبو قيس العَنْبَريّ - ولم أرَ بَدَوِيًّا يفي به - عن عكرمة ابن جرير، قال: قلت لأبي: يا أبت، مَن أشعر الناس؟ قال: أعَن أهل الجاهلية تسألني، أم عن أهل الإسلام؟ قال: قلتُ: ما أردت إلا الإسلام، فإذا كنتَ قد ذكرت الجاهلية فأخبرني عن أهلِها، فقال: زُهير أشعرُ أهلِها، قلت: فالإسلام؟ قال: الفرزدق نَبْعة الشِّعر، قلت: فالأخطل، قال: يُجيدُ مَدح الملوك، ويصيب وصف الخمر، قلت: فما تركت لنفسِك؟ قال: إني نَحرْت الشِّعر نَحْراً.

قال: وأخبَرَني الحسن بن عليّ قال: أخبرنا الحارثُ بن محمد عن المدائنيّ، عن عيسى بن يزيد، قال: سأل معاويةُ الأحنف عن أشعَر الشعراء؟ فقال: زُهَير، قال: وكيف ذاك؟ قال: ألقى على المادِحين فضول الكلام، وأخذ خالصَه وصفوته، قال: مِثل ماذا؟ قال: مثل قوله:

وما يك من خير أتَوْه فإنما　　تَوارَثه آباءُ آبائِهم قَبْلُ

وهل يُنبتُ الخَطِّيَّ إلا وَشِيجُهُ　　وتُغرس إلّا في مَنابتها النّخلُ![1]

قال: وأخبرني أحمدُ بنُ عبد العزيز، قال: حدّثنا عمرُ بنُ شبّة، قال: حدثنا عبد الله بن عمرو القيْسيّ قال: حدثنا خارجة بنُ عبد الله بن أبي سفيان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: خرجتُ مع عمر في أول غزاة غزاها، فقال لي ليلة: يابن عباس، أنشدْني لشاعر الشعراء، قلتُ: مَن هو؟ قال: ابن أبي سلمى. قلتُ: ولم صار كذلك؟ قال: لأنه لا يَتْبَع حُوشيَّ الكلام، ولا يُعاظِل[2] في مَنطِقه، ولا يقول إلا ما يعرِف، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه، أليس هو الذي يقول:

إذا ابتدَرَتْ قيسُ بنُ عَيلانَ غايةً　　إلى المجد مَنْ يَسْبِقْ إليها يُسَوَّدِ

سَبَقْتُ إليها كلَّ طَلْقٍ مبرّز　　سَبُوق إلى الغايات غير مُزَنَّدِ

قال: أي لا يحتاج إلى أن يجلد الفرس بالسَّوْط.

كفعل جَواد يسبق الخيل عَفْوُه السـ　　ـراع وإن يَجهَد ويَجهَدْنَ يَبْعُدِ

فلو كان حمداً يخلد الناس لم تَمُتْ　　ولكنّ حمد النّاس ليس بمُخلِدِ

---

(١) الخطي: الرماح من نبات أرض العرب. اللسان، مادة (خطط).

(٢) عاظل القافية عظالاً: ضمن. القاموس، مادة (عظل).

أنشدني له، فأنشدته حتى بَرَق الفَجْر، فقال: حسبُك الآن، اقرأ القرآن. قلت: ما أقرأ؟ قال: الواقعة، فقرأتها، ونَزَل فأذّن وصَلّى.

وقال محمد بن سلام في كتاب «طبقات الشعراء»: دخل الحطيئة على سعيد بن العاص متنكّراً، فلما قام الناسُ وبقي الخواصّ أراد الحاجبُ أن يقيمَه، فأبى أن يقوم، فقال سعيد: دعه، وتذاكروا أيام العرب وأشعارها، فلما أسهبوا قال الحطيئة: ما صنعتم شيئاً، فقال سعيد: فهل عندك علْم من ذلك؟ قال: نعم، قال: فمن أشعرُ العَرَب؟ قال: الذي يقول:

قد جَعَل المُبْتَغون الخير في هَرِمٍ   والسائلون إلى أبوابه طُرقا

قال: ثمّ من؟ قال: الذي يقول:

فإنك شمسٌ والمُلوك كواكبٌ   إذا طَلَعت لم يَبدُ منهنّ كوكَبُ

يعني زُهَيراً، ثمّ النابغة، ثمّ قال: وحسْبك بي إذا وضعتُ إحدى رجليّ على الأخرى، ثم عوَيْت في إثر القوافي كما يعوي الفَصِيل في أَثَرِ أمه! قال: فمن أنت؟ قال: أنا الحطيئة، فرحّب به سعيد، وأمر له بألف دينار.

قال: وقال من احتج لزهير: كان أحْسَنَهم شعراً، وأبعَدَهم من سُخْف، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليلٍ من المنطق، وأشدَّهم مبالغة في المدح، وأبعدهم تكلّفاً وعجرفيّة وأكثرهم حكمة ومَثَلاً سائراً في شِعْره.

وقد روى ابن عبّاس عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضلُ شُعَرالكم القائل ومَن مَن»، يعني زهيراً، وذلك في قصيدته التي أوّلها: «أمِنْ أمّ أوْفى» يقول فيها:

ومَن يكُ ذا فَضلٍ فيَبْخلْ بفضله   على قومِه يُستغنَ عنه ويُذْمَمِ

ومن لم يَذُدْ عن حَوضِه بسلاحِه   يُهدَّمْ، ومن لا يَظلِم الناس يُظلَم

ومن هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَه   ولو نال أسباب السَّماءِ بسُلَّم

ومَن يجعل المعروف من دُون عِرْضِه   يَفِرْهُ ومن لا يَتّق الشَّتْمَ يُشتَم

فأما القول في النّابغة الذّبيانيّ فإن أبا الفَرَج الأصفهاني قال في كتاب الأغاني: كُنْيَة النابغة أبو أمامة، واسمهُ زِياد بن معاوية، ولُقّب بالنابغة لقَوْله:

فقد نَبغَتْ لهم مِنّا شؤون

وهو أحدُ الأشراف الّذين غَضّ الشّعر منهم، وهو من الطبقة الأولى المقدّمين على سائر الشعراء.

أخبَرني أحمد بنُ عبد العزيز الجوهريّ وحبيب بن نَصْر قالا: حدّثنا عمرُ بنُ شبّة، قال:

حدّثني أبو نعيم، قال: شريكٌ عن مُجالد، عن الشَّعْبي، عن رِبْعيّ بن حِراش، قال: قال لنا عمر: يا معشرَ غَطَفان، مَن الّذي يقول:

أتيتُك عارياً خَلَقاً ثيابي ... على خوفٍ تُظَنُّ بِيَ الظنونُ

قلنا: النابغة، قال: ذاك أشعرُ شُعرائكم.

قلتُ: قولُه: أشعَر شُعرائكم»، لا يدلّ على أنّه أشعَر العرب، لأنّه جعلَه أشعر شعراء غَطَفان، فليس كقوله في زُهير شاعرُ الشّعراء، ولكنّ أبا الفرج قد رَوَى بعد هذا خبراً آخرَ صريحاً في أنّ النابغة عند عمر أشعرُ العَرَب. قال: حدّثني أحمدُ وحبيب، عن عمرَ بنِ شَبّة، قال: حدّثنا عبيد بن جنّاد، قال: حدّثنا مَعْن بنُ عبد الرحمن، عن عيسى بن عبد الرحمن السُّلَميّ، عن جدّه، عن الشّعبيّ قال: قال عمر يوماً: مَن أشعَر الشعراء؟ فقيل له: أنتَ أعلم يا أميرَ المؤمنين، قال: من الذي يقول:

إلاّ سليمانَ إذ قال المليكُ له ... قُمْ في البريّة فاحدُدْها عن الفَنَدِ

وخيّس الجنّ إني قد أذنتُ لهم ... يَبْنون تدمُرَ بالصُّفّاح والعَمَدِ

قالوا: النابغة، قال: فمن الّذي يقول:

أتيتُك عارياً خَلَقاً ثِيابي ... على خَوْف تُظَنّ بيَ الظُّنونُ

قالوا: النابغة، قال: فمن الّذي يقول:

حَلَفتُ فلم أترُكْ لنفسِك رِيبةً ... وليس وراءَ اللّه للمرءِ مَذهَبُ

لئن كنتَ قد بُلِّغتَ عنّي خِيانةً ... لَمُبلِغُك الواشي أغَشُّ وأكذَبُ

قالوا: النّابغة، قال: فهو أشعَر العرب.

قال: وأخبَرني أحمدُ، قال: حدّثنا عمر، قال: حدّثني عليُّ بنُ محمّد المَدائنيّ قال: قام رجل إلى ابن عبّاس، فقال له: أيُّ النّاس أشعَر؟ قال: قال أخبرْه يا أبا الأسْوَد، فقال أبو الأسود: الّذي يقول:

فإنّك كالليلِ الّذي هو مُدرِكي ... وإن خلتُ أنّ المُنتأى عنكَ واسعُ

يعني النابغة.

قال أبو الفرج: وأخبرني أحمدُ وحبيب، عن عمرَ عن أبي بكر العُلَيْميّ، عن الأصمعيّ، قال: كان يُضرَب للنّابغة قُبّةُ أدَم بسُوقِ عُكاظ فتأتيه الشّعراء فتَعرِض عليه أشعارَها، فأنشده مرّة الأعشى، ثم حسّان بنُ ثابت، ثُمّ قوم من الشعراء، ثم جاءت الخنساء فأنشدَته:

وإنّ صَخراً لتأتمّ الهُداةُ به ... كأنّه عَلَم في رأسِه نارُ

فقال: لولا أنّ أبا بَصير - يَعني الأعشى - أنشَدَني آنفاً لقلتُ: إنّك أشعرُ الإنس والجِنّ.

فقام حسّان بنُ ثابت فقال: أنا والله أشعَر منها ومنك ومن أبيك، فقال له النابغة: يابنَ أخي، أنت لا تُحسِن أن تقول:

فإنّك كالّليل الّذي هو مُدرِكي ... وإن خلتُ أنّ المُنتأى عنكَ واسعُ

خطاطيفُ حُجْنٌ في حِبالٍ مَتينةٍ ... تَمُدُّ بها أيدٍ إليكَ نَوازِعُ

قال: فخَنس حسّان لقوله.

قال: وأخبَرَني أحمد وحبيب، عن عمرَ، عن الأصمعيّ، عن أبي عمرو بنِ العلاء قال: حدّثني رجل سمّاه أبو عمرو وأُنسِيتُه، قال: بينما نحن نسيرُ بين أنْقاء من الأرض، فتذاكَرْنا الشّعر، فإذا رَاكب أَطَيْلِس يقول: أشعَر الناس زيادُ بنُ معاوية، ثمّ تملّس فلم نَرَه.

قال: وأخبَرَني أحمدُ بنُ عبد العزيز، عن عمر بنِ شَبّة، عن الأصمعيّ، قال: سمعتُ أبا عمرو بنَ العَلاء يقول: ما ينبغي لزُهير إلّا أن يكون أجيراً للنابغة.

قال أبو الفرج: وأخبَرَنا أحمدُ عن عمر، قال: قال عمرو بن المنتشِر المُراديّ: وفَدْنا على عبدِ الملك بنِ مَرْوان، فدخَلْنا عليه، فقام رجل فأعتَذَر من أمر وحَلَف عليه، فقال له عبدُ الملك: ما كنتَ حَرِيًّا أن تَفعل ولا تَعتذِر، ثم أقبَل على أهل الشام فقال: أيّكم يَروِي اعتذارَ النابغةِ إلى النُّعمان في قوله:

حلفتُ فلم أتركْ لِنفسِكَ رِيبةً ... وليس وراءَ اللّه للمرءِ مَذهَبُ

فلم يجدْ فيهم من يَرْويه، فأقبَل عليَّ وقال: أترويه؟ قلتُ: نعم، فأنشدتُه القصيدةَ كلَّها، فقال: هذا أشعَر العرب.

قال: وأخبَرَني أحمدُ وحبيب عن عُمَر، عن مُعاويةَ بن بكر الباهليّ، قال: قلتُ لحمّاد الراوية: لم قَدّمت النابغة؟ قال: لاكتفائكَ بالبَيْت الواحد مِن شِعره، لا بل بِنصف البيت، لا بل برُبْع البيت، مِثل قوله:

حلفتُ فلم أتركْ لنفسكَ ريبةً ... وليسَ وراءَ اللّه للمرءِ مَذهَبُ

ولستَ بمُسْتَبْقٍ أخاً لا تَلُمّه ... على شَعَثٍ، أيُّ الرجالِ المهذَّبُ

رُبْع البَيْت يُغنيك عن غيرِه، فلو تمثّلْتَ به لم تحتجْ إلى غيره.

قال: وأخبَرَني أحمدُ بنُ عبد العزيز، عن عمَر بنِ شَبّة، عن هارون بن عبدِ اللّه الزُّبيريّ، قال: حدّثني شيخٌ يُكنَى أبا داود، عن الشعبيّ، قال: دخلتُ على عبدِ الملك وعندَه الأخطَل وأنا لا أعرِفه، وذلك أوّل يوم وَفَدتُ فيه من العراق على عبدِ الملك، فقلتُ حينَ دخلتُ: عامر بن شَراحيل الشَّعْبيّ يا أميرَ المؤمنين، فقال: على علمٍ ما أذِنّا لك، فقلتُ: هذه واحدة على وافد أهلِ العراق - يعني أنه أخطأ - قال: ثمّ إنّ عبدَ الملك سألَ الأخطلَ: مَن أشعَرُ

الناس؟ فقال: أنا، فعجلتُ وقُلتُ لعبد الملك: مَن هذا يا أمير المؤمنين؟ فتبسّم، وقال: الأخطل، فقلتُ في نفسي: اثنتان على وافدِ أهلِ العراق، فقلتُ له: أشعَر منكَ الّذي يقول:

هـــذا غـــلامٌ حَـــسَـــنٌ وجـــهُـــه ... مُـسـتـقـبـل الـخـيـرِ سريـعُ الـتـمـامْ

لـلـحـارثِ الأكـبـرِ والـحـارثِ الْــ ... أصـغـر فـالأعـرج خـيـرُ الأنـامْ

ثـم لـعـمـرو ولـعـمـرو وقـد ... أسـرَع فـي الـخَـيْـرات مـنـه أمـامْ

قال: هي أمامةُ أمُّ عمرو الأصغر بن المنذر بن امرىء القَيْس بن النّعمان ابن الشقيقة:

خـمـسـةُ آبـاءٍ هُـمُ مـا هـمُ ... أفـضـلُ مَـن يَـشـرَب صَـوْبَ الـغَـمـامْ

والشّعر للنابغة، فالتفت إليّ الأخطل فقال: إنّ أمير المؤمنين إنّما سألني عن أشعَر أهلِ زمانه، ولو سألني عن أشعَر أهل الجاهليّة كنتُ حريًّا أن أقول كما قلتَ أو شبيهاً به، فقلتُ في نفسي: ثلاثٌ على وافِد أهلِ العراق.

قال أبو الفَرَج: وقد وجدتُ هذا الخبرَ أتمَّ مِن هذه الرّواية، ذكَرَه أحمدُ بنُ الحارث الخرّاز في كتابه، عن المدائنيّ، عن عبدِ الملك بن مُسلِم، قال: كَتَب عبدُ الملك بنُ مَرْوانَ إلى الحجّاج: إنّه ليس شيءٌ من لذّة الدنيا إلّا وقد أصبتُ منه، ولم يَبقَ عندي شيءٌ ألذّ من مُناقَلة الإخوان الحديثَ، وقِبَلَكَ عامرٌ الشعبيّ فابعثْ به إليّ، فدعا الحجّاج الشّعبيّ، فجهّزه وبَعثَ به إليه، وقرّظه وأطراه في كتابه، فخرج الشعبيُّ حتى إذا كان بباب عبدِ الملك قال للحاجب: استأذِن لي، قال: مَن أنت؟ قال: أنا عامرٌ الشّعْبيّ قال: يرحَمُك الله، قال: ثمّ نهض فأجلَسَني على كرسيّه، فلم يلْبَثْ أن خرج إليّ فقال: ادخُل يَرحمك الله، فدخلتُ، فإذا عبد الملك جالسٌ على كرسيّ، وبين يديه رجلٌ أبيضُ الرأس واللحية، جالسٌ على كرسيّ، فسلمت، فردّ عليّ السلام، فأومأ إليّ بقَضِيبه، فجلستُ عن يساره، ثمّ أقبل على ذلك الإنسان الّذي بين يديه فقال له: مَن أشعر الناس؟ فقال: أنا يا أميرَ المؤمنين، قال الشّعبيّ: فأظلَم ما بيني وبينَ عبدِ الملك، فلم أصبر أن قلتُ: ومَن هذا الذي يَزْعم أنه أشعَر الناس يا أمير المؤمنين! فعَجِب عبدُ الملك من عَجَلتي قبل أن يسألني عن حالي، فقال: هذا الأخطل، فقلتُ: يا أخطَل، أشعَرُ والله منكَ الّذي يقول:

هـــذا غـــلامٌ حَـــسَـــنٌ وَجْـــهُـــهُ ... مـسـتـقـبِـل الـخَـيْـر سـريـعُ الـتّـمـامْ

الأبيات...

قال: فاستحسَنَها عبدُ الملك، ثم ردّدتُها عليه حتى حفِظَها، فقال الأخطل: مَن هذا يا أميرَ المؤمنين؟ قال: هذا الشّعبيّ، فقال: والجيلون ما استعذت بالله من شرّ إلا من هذا - أي والإنجيل - صَدَق والله يا أميرَ المؤمنين، النابغةُ أشعَر مني، قال الشّعبيّ: فأقبَل عبدُ الملك حينئذٍ عليّ فقال: كيف أنتَ يا شَعبيّ؟ قلتُ: بخير يا أمير المؤمنين، فلا زلتَ به ثم ذهبتُ

لأصنَع معاذيرَ لما كان من خلافي مع ابن الأشعث على الحجّاج: فقال: مَهْ إنا لا نحتاج إلى هذا المَنطِق، ولا تراه منّا في قولٍ ولا فِعل حتى تفارقَنا، ثمّ أقبَل عليَّ فقال: ما تقول في النابغة؟ قلتُ: يا أمير المؤمنين، قد فضّله عمرُ بنُ الخطاب في غيرِ مَوْطنٍ على جميع الشُّعراء، ثم أنشدْتُه الشِّعرَ الّذي كان عمرُ يُعجَب به من شِعْره، وقد تقدم ذكرُه. قال: فأقبَل عبدُ الملك على الأخطل فقال له: أتُحِبّ أنّ لك قِياضاً بشِعْرك شِعْر أحدٍ من العرب، أم تحب أنّك قلتَه؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين إلا أني وَدِدْتُ أني كنتُ قلتُ أبياتاً قالَها رجلٌ منّا، ثم أنشدَه قولَ القَطاميّ:

إنّا مُحَيُّوك فأسْلَمْ أيُّها الطَّلَلُ ... وإنْ بليتَ وإن طالَتْ بكَ الطِّيَلُ
ليس الجديد به تَبْقى بشاشَتُه ... إلا قليلاً ولا ذو خُلّة يَصِلُ
والعَيْشُ لا عيشَ إلا ما تَقَرُّ به ... عَيْن ولا حالَ إلا سوف تَنتَقِلُ
إنْ ترجِعي من أبي عثمان مُنجِحةً ... فقد يَهُون على المستنجِح العَمَل
والناسُ مَن يَلْقَ خيراً قائلُون له ... ما يَشتهي ولأُمّ المُخطىءِ الهَبَلُ
قد يُدرِكُ المتأنّي بعضَ حاجتِه ... وقد يكون مع المستعجِل الزَّلَلُ

قال الشعبيّ: فقلتُ: قد قال القَطاميّ أفضلَ من هذا، قال: وما قال؟ قلتُ: قال:

طَرقتْ جَنوبُ رحالنا من مَطْرَقِ ... ما كنتُ أحسَبها قريب المُعنَقِ

إلى آخِرها، فقال عبدُ الملك: ثكلَت القَطاميّ أُمُّه! هذا والله الشِّعر، قال: فالتَفَت إليَّ الأخطلُ فقال: يا شعبيُّ، إن لك فُنُوناً في الأحاديث، وإنما لي فنٌّ واحد فإن رأيتَ ألا تَحمِلني على أكتافِ قومِك فأدَعُهم حَرَضاً! فقلتُ: لا أعرض لك في شيء من الشِّعْر أبداً، فأقِلْني هذه المرّة، فقال: مَن يتكفّل بك؟ قلتُ: أميرُ المؤمنين، فقال عبد الملك: هو عَلَيّ أنّه لا يَعرِض لك أبداً، ثم قال عبدُ المِلك: يا شَعْبِيّ، أيّ نساء الجاهليّة أشعَر؟ قلتُ: الخَنْساء؟ قال: ولم فَضّلْتَها على غيرِها؟ قلتُ: لقولها:

وقائلةٍ والنَّعْش قد فاتَ خَطْوَها ... لِتُدرِكه: يا لَهفَ نَفْسي على صَخْرِ
ألا هبِلَتْ أمُّ الّذين غَدَوْا به ... إلى القَبْر، ماذا يَحمِلون إلى القَبْر!

فقال عبدُ الملك: أشعَر منها والله الّتي تقول:

مُهَفْهَفٌ أهضَم الكَشْحَينِ منخرِقٌ ... عنه القميصُ بسَيْر الليلِ مُحتقِرُ
ألا يأمَن الدّهر ممسَاهُ ومصبَحَه ... من كلّ أوْبٍ وإن لم يَغْزُ يُنْتَظَرُ

قال: ثمّ تبسّم عبدُ الملك وقال: لا يشقّنّ عليك يا شَعبيّ، فإنّما أعلَمْتُك هذا لأنّه بَلَغني أنّ أهلَ العراق يتطاولون على أهل الشام، ويقولون: إن كان غَلَبونا على الدّولة فَلم يَغلِبونا على العِلم والرِّواية، وأهل الشام أعلَم بِعِلْم أهلِ العراق من أهلِ العراق، ثم ردّد عليّ أبيات لَيْلى

حتّى حفِظْتُها، ثمّ لم أزل عنده أوّلَ داخل وآخِر خارج، فكنتُ كذلك سنينَ، وجعَلَني في ألفين من العَطاء، وجعَلَ عشرين رجلاً من ولدي وأهل بَيْتي في ألف ألفٍ، ثمّ بَعَثَني إلى أخيه عبدِ العزيز بمصرَ، وكتب إليه: يا أخي، قد بعثتُ إليك بالشّعْبي، فانظرْ هل رأيتَ قطّ مِثلَه!

قال أبو الفَرَج الأصبهانيّ في ترجمة أوْس بنِ حَجَر: إنّ أبا عبيدة قال: كان أوسُ شاعرَ مُضَر حتّى أسقَطَه النابغة، وقد ذَكَر الأصمعيّ أنّه سمعَ أبا عمرو بن العلاء يقول: كان أوسُ بنُ حَجَر فحلَ العرب، فلما نشأ النابغةُ طأطأ منه.

وقال محمّد بنُ سَلاّم في كتاب «طَبَقات الشّعراء»: وقال من أحتجّ للنابغة: كان أحسَنهم دِيباجة شعر، وأكثَرَهم رَوْنق كلام، وأجزَلَهم بيتاً، كأن شعره كلام ليس بتكلّف، والمَنطِق على المتكلّم أوسَع منه على الشّاعر، لأنّ الشاعر يحتاج إلى البناء والعَروض والقَوافي، والمتكلّم مطلَق، يتخيّر الكلامَ كيف شاء، قالوا: والنابغة نَبَغ بالشّعر بعد أن أحتنَك، وهَلَك قبل أن يهتِر.

قلتُ: وكان أبو جعفر يحيى بن محمّد بن أبي زيد العَلَويّ البَصْريّ يُفضّل النابغة، واستقْرأني يوماً وبيَدِي ديوانُ النّابغة قصيدتَه الّتي يَمدَح بها النّعمان بنَ المُنذِر، ويَذْكُر مرضَه، ويَعتذر إليه ممّا كان اتُّهم به، وقذَفَه به أعداؤه، وأوّلها:

كتَمتُكَ لَيْلاً بالجَمومين ساهراً وهَمَّيْن: هَمًّا مستكنًّا وظاهِرا
أحاديث نفسٍ تَشتكِي ما يَريبُها ووِرْد همومٍ لو يَجِدْن مَصادِرا
تُكلّفني أن يُغْفِلَ الدهرُ هَمّها وهل وجدتُ قبلي على الدّهر ناصرا

يقول: هذه النفس تكلّفني ألّا يحدث لها الدهر همًّا ولا حُزناً، وذلك ممّا لم يستطِعْه أحدٌ قَبْلي.

ألم ترَ خيرَ النّاس أصبَحَ نعشُه على فِتيةٍ قد جاوزَ الحيَّ سائِرَا!

كان الملكُ منهم إذا مَرِض حُمِل على نعش وطِيف به على أكتاف الرجال بين الحِيرَة والخَوَرْنَق والنّجَف، يتنزّهونه.

ونحن لدَيْه نسألُ اللّهَ خُلْدَه يردّ لنا ملكاً وللأرضِ عامِرَا
ونحن نُرجّي الخيرَ إنْ فاز قِدْحنا ونَرْهَبُ قِدْح الدّهر إن جاء قامِرا
لك الخير إن وارتْ بك الأرض واحِداً وأصبَحَ جدُّ الناس بعدَك عاثرا
ورُدّت مَطايا الراغِبين، وعُرّيتْ جِيادُكَ لا يُحفِي لها الدّهرُ حافِرَا
رأيتكَ ترْعاني بعينٍ بصيرةٍ وتَبْعثُ حُرّاساً عليَّ وناظِرَا
وذلك مِنْ قول أتاك أقولُه ومِنْ دَسّ أعداءٍ إليكَ المآبِرا
فآليتُ لا آتيكَ إن كنت مُجرِماً ولا أبتغِي جاراً سِواكَ مُجاوِرَا

أي لا آتيكَ حتّى يَثبتَ أنّي غيرُ مُجرم.

فـأهـلـي فِـداءٌ لامـرىءٍ إن أتـيـتُـه تَـقـبَّـلَ مـعـروفـي وسَـدَّ الـمـفـاقِـرَا

سـأربـطُ كَـلْـبـي أنْ يـريـبَـك نَـبـحُـه وإن كـنـتُ أرعَـى مُـسـحُـلانَ وحـامِـرَا

أي سأمْسِك لساني عن هجائك وإن كنتُ بالشام في هَذين الواديَين البعيدَين عنك.

وحَـلّـت بـيُـوتِـي فـي يَـفـاعٍ مـمـنّـعٍ تَـخـال بـه راعِـي الـحَـمـولـةِ طـائِـرا

تَـزِلّ الـوعُـولُ الـعُـصْـم عـن قَـذَفـاتـه ويُـضـحِـي ذُراه بـالـسّـحـاب كـوافِـرَا

حِـذاراً عـلـى ألّا تـنـال مـقـادَتـي ولا نِـسْـوَتـي حـتّـى يَـمُـتْـنَ حَـرائـرَا

يقول: أنا لا أهْجرك وإن كنت من المَنَعة والعِصْمة على هذه الصفة.

أقـولُ وقـد شَـطّـت بـيَ الـدّار عـنـكُـمُ إذا مـا لـقـيـت مـن مَـعَـدٍّ مُـسـافِـرا

ألا أبـلـغ الـنّـعـمـانَ حـيـثُ لـقـيـتَـه فـأهـدَى لـه الـلّـهُ الـغُـيـوثَ الـبَـوَاكِـرا

وأصـبـحـه فُـلـجـاً ولا زال كَـعْـبُـه على كلّ مَن عادَى من الناس ظاهِرا

وربُّ عـلـيـهِ الـلّـهُ أحـسَـن صُـنْـعـه وكـان عـلـى كُـلِّ الـمُـعـادِيـن نـاصِـرَا

فجعل أبو جعفر رحمه الله يهتزّ ويَطرَب، ثم قال: والله لو مُزِجتْ هذه القصيدة بشِعر البحتريّ لكادت تمتزج لسهُولَتها وسلامةِ ألفاظها، وما عليها من الدِّيباجة والرَّونَق. من يقول: إنّ امرأ القيس وزهيراً أشعَرُ من هذا! هَلُمُّوا فلْيُحاكموني.

فأمّا امرُؤ القيس بنُ حُجْر، فقال محمّد بنُ سلاّم الجُمَحيُّ في كتاب «طبقات الشّعراء»: أخبَرَني يونسُ بن حَبيب أنّ علماءَ البَصرة كانوا يقدِّمونه على الشّعراء كلِّهم، وأنّ أهل الكوفة كانوا يقدِّمون الأعشى، وأنّ أهل الحِجاز والبادية يقدِّمون زُهَيراً والنّابغة.

قال ابنُ سلاّم: فالطبقة الأولَى إذَنْ أربعة. قال: وأخبَرَني شُعيب بن صَخْرٍ، عن هارون بن إبراهيم، قال: سمعتُ قائلاً يقول للفرزدق: مَن أشعَر الناس يا أبا فراس؟ فقال: ذو القرُوح، يعني امرأ القَيْس، قال: حين يقول ماذا؟ قال حين يقول:

وَقـاهـمْ جَـدُّهـم بِـبَـنـي أبِـيـهِـمْ وبـالأشْـقَـيْـن مـا كـان الـعِـقـابُ

قال: وأخبَرَني أبَان بن عثمان البَجَليّ، قال: مرّ لَبيد بالكوفة في بني نَهْد، فأتبعوه رسول يسأله: من أشعَر الناس؟ فقال: الملِكُ الضّليل. فأعادوه إليه، فقال: ثمّ مَن؟ فقال: الغلامُ القتيل - يعني طَرَفة بنَ العَبْد - وقال غيرُ أبان: قال: ثمّ ابن العشْرين، قال: ثمَّ مَن؟ قال: الشيخُ أبو عُقَيل يَعني نَفْسَه.

قال ابنُ سلاّم: واحتجّ لامرىء القيس من يقدِّمه فقال: إنّه ليس قال ما لم يقولوه، ولكنّه سَبَق العَرَبَ إلى أشياءَ ابتدعها استحسَنَتْها العرب، فاتّبعه فيها الشعراء، منها استيقاف صَحْبه،

والبُكاءُ في الدِّيار، ورقّةُ النَّسيب، وقربُ المأخذ، وتشبيهُ النِّساء بالظِّباء وبالبِيْض، وتَشبيهُ الخَيْل بالعِقْبان والعِصيّ، وقَيْد الأوابِد، وأجاد في النَّسِيب، وفصَل بين النَّسيب وبين المعنَى، وكان أحسنَ الطّبقة تشبيهاً.

قال: وحدّثني معلِّم لبني داودَ بن عليّ، قال: بينا أنا أسيرُ في البادية إذا أنا برجلٍ على ظَلِيم قد زَمّه وخَطَمَه وهو يقول:

هـل يَـبْـلُـغَـنّـهـمْ إلـى الـصَّـبـاحِ هَـــقْـــلٌ كـــأنّ رأسَــــه جُـــمّـــاحُ[1]

قال: فما زال يَذْهب به ظَليمُهُ وَيَجيءُ حتى أنست به وعَلِمتُ أنه ليس بإنسيّ فقلت: يا هذا، من أشعَر العرب؟ فقال: الّذي يقول:

أغـرَّكِ مـنّـي أنّ حُـبّـكِ قـاتِـلـي وأنّـك مَـهْـمـا تـأمـرِي الـقـلـب يَـفْـعـلِ

يعني امرأ القَيْس، قلت: ثمّ مَن؟ قال: الّذي يقول:

ويَـــبْـــرُد بَـــرْد رِداءِ الـــعَـــرُو سِ بـالـصّـيـف رقْـرَقْـتَ فـيـه الـعـبـيـرَا
ويَـسْـخُـن لـيـلَـة لا يَـسْـتـطـيـعُ نُـبـاحـاً بـهـا الـكَـلـب إلا هَـرِيـرَا[2]

ثمّ ذَهب به ظَليمة فلم أرَه.

قال: وحدّث عَوانةُ، عن الحسن أن رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال لحسان بن ثابت: من «أشعَر العَرَب؟» قال: الزُّرقُ العُيون من بين قَيْس، قال: لستُ أسألك عن القبيلة، إنما أسألك عن رَجُل واحدٍ، فقال حسّان: يا رسول الله، إنّ مَثَل الشعراء والشّعرِ كمثَل ناقةٍ نُحِرْت، فجاء امرؤ القَيْس بنُ حُجْر فأخَذَ سَنامَها وأطايبها، ثمّ جاء المتجاوِران من الأوْس والخَزْرج فأخذا ما والَى ذلك منها، ثم جَعَلت العربُ تمزّعها حتى إذا بقي الفَرْث والدَّمُ جاء عمرو بنُ تميم والنمر بنُ قاسط فأخذاه، فقال رسول الله ﷺ: **«ذاك رجلٌ مذكورٌ في الدنيا شريفٌ فيها خاملٌ يوم القيامة، معه لواء الشُّعراء إلى النار»**[3].

فأمّا الأعشى فقد احتجّ أصحابه لتفضيله بأنه كان أكثرهم عَرُوضاً، وأذهَبَهم في فُنون الشعر، وأكثَرَهم قصيدة طويلة جيّدة، وأكثرهم مَدْحاً وهِجاءً، وكان أوّل من سأل بشِعْره، وإن لم يكن له بَيْتٌ نادِر على أفْواه الناس كأبياتِ أصحابه الثلاثة.

---

(١) الهقل: الفتي من النعام. اللسان، مادة (هقل).

(٢) هرير الكلب: صوته دون نباحه من قلة صبره على البرد. القادموس، مادة (هرر).

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٩٩)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٣١٥٩).

وقد سُئِل خَلَف الأحمرُ: من أشعر الناس؟ فقال: ما ينتهي إلى واحدٍ يُجمَع عليه كما لا يُنتهى إلى واحدٍ هو أشجَع الناس، ولا أخطب الناس، ولا أجمل الناس، فقيل له: يا أبا مُحرِز فأيهم أعجب إليك؟ فقال: الأعشى كان أجمَعَهم.

قال ابنُ سلاّم: وكان أبو الخطاب الأخفش مستهتراً به يقدّمه، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: مَثَله مَثَل البازي يضرِب كبير الطير وصغيره. ويقول: نظيره في الإسلام جَرير، ونظيرُ النابغة الأخطل، ونظير زُهير الفرزدق.

فأما قولُ أمير المؤمنين عليه السلام «المَلك الضِّلِّيل» فإنما سُمِّي امرُؤ القيس ضِلِّيلاً لما يُعلن به في شِعره من الفِسْق، والضِّلِّيل: الكثير الضلال، كالشِّرِّيب، والخِمِّير، والسِّكير، والفِسِّيق، للكثير الشُرْب وإدْمان الخَمر والسُكر والفِسْق، فمن ذلك قولُه:

فمِثْلِك حُبْلى قد طَرَقْتُ ومُرْضِعاً ... فألهَيْتُها عن ذي تَمائمَ مُحْوِلِ

إذا ما بَكَى من خَلْفِها انصرَفَتْ له ... بِشِقٍّ وتَحتِي شِقُّها لم يُحَوَّلِ

وقوله:

سَمَوتُ إليها بعد ما نامَ أهلُها ... سموّ حَبَابِ الماءِ حالاً على حالِ

فقالتْ لحاكَ اللّهُ إنك فاضِحي ... ألستَ تَرَى السُّمارَ والناس أحْوالي[1]

فقلتُ لها تالله أبرَحُ قاعداً ... ولو قَطَّعوا رأسِي لدَيْكِ وأوْصالي

فلما تنَازَعْنا الحديث وأسْمَحَتْ ... هَصَرْتُ بغُصْنٍ ذي شماريخَ مَيَّالِ

فصِرْنا إلى الحُسْنى ورَقَّ كلامُنا ... ورُضْتُ فذَلَّتْ صَعبةً أيّ إذلالِ

حلفتُ لها باللّهِ حَلْفَةَ فاجِرٍ ... لنامُوا فما إن من حديثٍ ولا صَالي

فأصبحتُ مَعْشوقاً وأصبح بَعلها ... عليه القَتامُ كاسِفَ الوجهِ والبَالِ[2]

وقولُه في اللّامية الأولى:

وبَيْضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤُها ... تمتَّعتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ

تخطَّيْتُ أبواباً إليها ومَعشَراً ... عليّ حِراصاً لو يُسِرّون مَقتلي

فجئتُ وقد نَضَّت لنَوْم ثيابَها ... لدى السِّتْر إلا لبْسةَ المتفَضِّل

فقالت يمينَ الله ما لَكَ حِيلةٌ ... وما إن أرَى عَنْكَ الغواية تَنْجَلي

---

(١) لحاه الله: لعنه وقبحه. اللسان، مادة (لحو).

(٢) القتام: الغبار. القاموس، مادة (قتم).

فـقـمـتُ بـهـا أمـشـي نَـجـرُ وراءَنـا ... عـلـى إثْـرنـا أذيـال مِـرْطٍ مُـرَجَّـلِ[1]
فلما أجَزْنا ساحةَ الحيِّ وانتحَى ... بنا بطْنُ خَبْتٍ ذي حِقافٍ عَقَنْقِل
هَـصَـرْتُ بفَوْدَيْ رأسِـهـا فـتـمـايلـتْ ... عليّ هضيم الكَشْح رَيّا المُخلخَل[2]

وقوله:

فـبـتّ أكـابِـد لَـيـلَ الـتـمّـا ... م والـقـلـبُ مِن خَشْيَةٍ مقشعرّ
فـلـمّـا دنـوتُ تَـسَـدَّيْـتُـهـا ... فـثَـوبـاً نَـسـيـتُ وثـوبـاً أجُـرّ
ولـم يَـرَنـا كـالـىءٌ كـاشـحٌ ... ولـم يَـبْـدُ مِـنّـا لـدى الـبـيـت سِرّ
وقـد رابـنـي قـولـهـا: يـا هَـنـا ... هُ وَيْـحَـك ألـحـقـتَ شَـرًّا بـشَـرّا

وقوله:

تـقـولُ وقـد جَـرّدتُـهـا مـن ثـيـابـهـا ... كـمـا رُعـتَ مكحول المدَامِع أتْلَعَا
لـعَـمْـرُك لـو شـيءٌ أتـانـا رسـولُـه ... سِواك ولـكـنْ لـم نَـجِـدْ لـك مَـدْفـعـا
فبِـتْـنـا نَـصُـدّ الـوحـش عـنّـا كـأنّـنـا ... قتيلان لم يعلم لنا الناسُ مَصْرَعا
تَـجـافَـى عن الـمـأثـور بَيْني وبَيْنهَا ... وتُـدْنـى عـلـيّ الـسـابـريَّ الـمُـضـلَّـعـا

وفي شعر امرىء القيس مِن هذا الفَنّ كثير، فمن أرادَه فليَطْلُبه من مجموع شعرِه.

- ٤٦٥ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: أَلا حُرٌّ يَدَعُ هَذِهِ اللُّمَاظَةَ لأهْلِهَا! إِنَّهُ لَيْسَ لِأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إِلَّا ٱلْجَنَّةَ، فَلا تَبِيعُوهَا إِلَّا بِهَا.

الشرح: اللُّماظة بفَتح اللّام: ما تَبقّى في الفم من الطّعام، قال يصِفُ الدنيا:

لـمـاظـةُ أيـامٍ كـأحـلامِ نـائـم

ولَمَظ الرجل يَلمُظ بالضمّ لَمْظاً، إذا تتبّع بلسانِه بقيّة الطعام في فمه وأخرَج لسانه فمَسح به شفَتيه، وكذلك التَّلمُّظ، يقال: تلمّظَت الحيّة إذا أخرجتْ لِسانَها كما يتلمّظ الآكل.

وقال: «ألا حُرٌّ»، مبتدأ، وخبرُه مَحْذوف أي في الوجود. وألا حرفٌ، قال:

(١) المِرْط: كساء من صوف أو خزّ أو كتّان. اللسان، مادة (مرط).
(٢) هصرتُ: جذبتُ. اللسان، مادة (هصر). فَوْدَا الرأس: جانباه. اللسان، مادة (فود).

ألا رجـــلٌ جَـــزاه الله خَـــيـــراً　　يَـدُلّ عـلـى مُـحَـصّـلـةٍ تـبـيـتُ

ثم قال: إنه ليس لأنفسِكم ثمنٌ إلّا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها، من الناس من يبيعُ نفسه بالدراهم والدّنانير، ومن الناس من يبيع نفسه بأحقر الأشياء وأهونها، ويتبع هواهُ فيَهلك، وهؤلاء في الحقيقة أحمقُ الناس، إلا أنه قَدْ رِين على القُلوب، فغطّتها الذنوب، وأظلمت الأنفس بالجهْل وسوء العادة، وطال الأمد أيضاً على القلوب فَقَسَتْ، ولو أفكر الإنسانُ حَقّ الفِكْر لما باع نفسه إلّا بالجنّة لا غير.

— ٤٦٦ —

الأصل: وقال عليه السلام: مَنْهُومان لا يَشْبَعانِ: طالِبُ عِلْمٍ وطالِبُ دُنْيا.

الشرح: تقول: نَهِم فلانٌ بكذاً فهو مَنْهوم، أي مُولع به، وهذِه الكلمة مَرْوِيّة عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله: «مَنْهومان لا يَشبَعان: منهومٌ بالمالِ، ومنهومٌ بالْعلم»[1]. والنَّهَم بالفَتْح: إفراطُ الشَّهْوة في الطّعام، تقول منه: نَهِمْتُ إلى الطّعام بكسرِ الهاء أنْهَمُ فأنَا نَهِم، وكان في القرآن آيةٌ أنزلت ثمّ رفِعَت: «لو كان لا بن آدَم وادِيَانِ من ذَهبٍ لابتغَى لهما ثالثاً، ولا يَملأُ عينَ ابنِ آدم إلّا التراب، ويتوبُ الله عَلَى مَنْ تاب»[2]. فأمّا طالبُ العلْم العاشِقُ له، فإنّه لا يَشبَع منه أبداً، وكلّما استكثَر مِنه زادَ عِشْقَهُ له، وتَهالُكُه عليه. مات أبو عثمانَ الجاحظُ والكتابُ على صَدْره.

وكان شيخُنا أبو عليّ رحمه الله في النَّزع وهو يُملِي على ابنِه أبي هاشم مسائلَ في عِلْم الكلام. وكان القاضي أحمدُ بنُ أبي دُواد يأخذُ الكتابَ في خُفّه وهو راكب، فإذا جلَس في دارِ الخليفة اشتَغَل بالنّظر فيه إلى أن يَجلِس الخليفة، ويَدْخُل إليه. وقيل: ما فارقَ ابنُ أبي دُواد الكتابَ قَط إلّا في الخَلاء. وأعرف أنا في زَماننا مَن مَكَث نحو خمسِ سنينَ لا يَنامُ إلّا وقتَ السّحَر صَيْفاً وشتاءً مُكِبًا على كتابٍ صنّفه، وكانت وسادتُه التي يَنامُ عليها الكتاب.

---

(١) أخرجه الدارمي، كتاب: المقدمة، باب: في فضل العلم والعالم (٣٣١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: ما يتقى من فتنة المال (٦٤٣٦)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثاً (١٠٤٨).

- ٤٦٧ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : علامةُ الإيمان أنْ تُؤْثِرَ الصِّدْقَ حَيْثُ يَضُرُّكَ، عَلَى الْكَذِبِ حَيْثُ يَنْفَعُكَ، والاَّ يَكُونَ في حَدِيثِكَ فَضْلٌ عَنْ عِلْمِكَ، وانْ تَتَّقِيَ اللَّهَ في حَدِيثِ غَيْرِكَ.

الشرح: قد أَخذ المعنَى الأوّل القائلُ:

عـلـيـكَ بـالـصِّـدْق ولَـو أنّـه   أحْـرَقَـك الـصِّـدْقُ بـنـارِ الـوَعِـيـدْ

ويَنبغِي أن يكونَ هذا الحُكْم مقيّداً لا مطلقاً، لأنّه إذا أضرّ الصِّدْق ضَرَراً عظيماً يؤدِّي إلى تَلَف النَّفْس أوْ إلى قَطْع بعضِ الأعضاء لم يَجُزْ فَعلُه صَرِيحاً، ووجَبتْ المَعَارِيضُ حينئذٍ.

فإن قلتَ: فالمعَارِيض صِدْق أيضاً، فالكَلامُ على إطلاقه! قلتُ: هي صِدْق في ذاتها، ولكنّ مُستعمِلَها لم يَصدُق فيما سُئل عنه، ولا كَذَب أيضاً، لأنه لم يُخبِر عنه، وإنّما أخبرَ عَنْ شيء آخَرَ وهي المَعَارِيض، والتّارك للخَبَر لا يكون صادقاً ولا كاذباً، فوَجَب أن يقيَّد إطلاقُ الخَبَر بما إذا كان الضَّرَر غيرَ عظيم، وكانت نتيجةُ الصِّدق أعظَم نفْعاً من تلك المَضَرّة.

قال عليه السلام : «وأن يكونَ في حديثِك فَضْل عن عِلمك»، متَى زاد مَنطِق الرجل على عِلْمِه فقد لغَا وظَهَر نقصُه، والفاضلُ من كان عِلمُه أكثرَ من مَنطِقه. قوله: «وأن تَتّقي الله في حديثِ غيرك»، أي في نَقْلِه وروايته فَترْويه كما سَمِعْتَه من غير تحريف.

- ٤٦٨ -

الأصل: وقالَ عليه السلام : يَغْلِبُ المِقْدَارُ على التَّقْدِير، حَتَّى تكونَ الآفَةُ في التَّدْبير.

قال: وقد مضى هذَا المَعْنَى فيما تقَدم بروَايةٍ تُخالف بعض هذه الألْفاظ.

الشرح: قد تقدَّم هذا المعنى، وهو كثيرٌ جداً، ومن جيّده قول الشاعر:

لـعَـمْـرُك مـا لامَ ابـنُ أخـطـبَ نَـفْـسَـه   ولـكـنـه مـن يَـخْـذُل الـلّـهُ يُـخْـذَلِ
لـجاهـدَ حتى تـبـلُـغَ الـنـفس عُـذْرَها   وقَـلْـقَـل يـبـغـى الـعِـزَّ كـلَّ مُـقَـلْـقَـلِ

وقال أبو تمام:

ورَكْـبٍ كـأطـراف الأسِـنّـة عَـرَّسُـوا   على مِثلها والـلّيـل تَـسْطو غَـياهِـبُهْ

لأمرٍ عليهمْ أن تَتِمَّ صُدورُه   وليس عليهمْ أن تتمَّ عواقِبُهْ

وقال آخر:

فإنْ بَين حيطاناً عليه فإنّما   أولئك عُقّالاتُه لا مَعاقلهْ

- ٤٦٩ -

الأصل: وقال عليه السلام: **الحِلْمُ والأناةُ تَوْءمَانِ، يُنْتِجُهُمَا عُلُوُّ الهِمَّة.**

الشرح: قد تقدّم هذا المعنى وشرحه مراراً.

وقال ابن هانىء:

وكلّ أناة في المواطِن سؤْدُدٌ   ولا كأناةٍ من تدبُّر مُحكَمِ

ومَن يتبيَّن أن للسَّيفِ مَوضِعاً   مِنَ الصَّفحِ يَصْفَحْ عن كثير ويحلُمِ

وقال أربابُ المعاني: علّمنا الله تعالى فضيلةَ الأناة بما حكاه عن سليمان: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[1].

وكان يقال: الأناة حِصْن السلامة، والعَجلة مفتاحُ الندامة.

وكان يقال: التأنّي مع الخَيْبة، خيرٌ من التهوُّر مع النّجاح.

وقال الشاعر:

الرِّفقُ يُمْنٌ والأناةُ سَعادةٌ   فتأنَّ في أمْرٍ تُلاقِ نَجاحَا

وقال مَن كره الأناةَ وذمّها: لو كانت الأناة محمودةً والعَجلة مذمومةً، لمَا قال موسى لربّه: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾[2].

وأنشدوا:

عَيبُ الأناةِ وإنْ سَرَّتْ عَواقِبُها   أن لا خُلودَ وأن ليسَ الفَتى حَجَرا

وقال آخر:

كم من مضيِّعِ فرصةٍ قد أمكَنَتْ   لِغدٍ وليسَ له غدٌ بمُواتِي

حتى إذا فاتَتْ وفات طِلابُها   ذهبَتْ عليها نفسُه حَسَراتِ

---

(١) سورة النمل، الآية: ٢٧.

(٢) سورة طه، الآية: ٨٤.

- ٤٧٠ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: الغِيبةُ جُهْدُ العاجزِ.

الشرح: قد تقدّم كلامُنا في الغِيبة مُستقصًى.

وقيل للأحنف: مَنْ أشرَف الناس؟ قال: مَن إذَا حَضَر هابُوه، وإذا غاب اغتابوه.

وقال الشاعر:

ويَغتابُني مَن لو كَفاني اغتيابَهُ ... لكنتُ له العينَ البصيرةَ والأذُنَا

وعندي من الأشياءِ ما لَو ذكرتُها إذا قَرَعَ ... المُغتاب من نَدَمٍ سِنّا

وقد نظمتُ أنا كلمةَ الأحنف فقلتُ:

أكُلُ عِرضي إنْ غِبتُ ذَمًّا فإن أبـ ... ـتُ فمدحٌ ورَغبةٌ وسُجودُ

هكذا يَفعَل الجَبانُ: شُجاعٌ ... حين يَخلو، وفي الوَغى رِعْدِيدُ

لك مِنّي حالانِ: في عَينِك الجَنْـ ... ـنَةُ حُسناً وفي الفؤادِ وَقودُ

- ٤٧١ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: رُبَّ مَفْتُونٍ بحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ.

الشرح: طالمَا فُتِن الناسُ بثَناءِ النّاس عليهم، فيقصّر العالم في اكتساب العلم اتّكالاً على ثَناءِ النّاس عليه، ويقصّر العابدُ في العِبادة اتّكالاً على ثَناءِ الناسِ عليه، ويقول كلّ واحد منهما: إنّما أردتُ ما اشتَهَرْتُ به للصّيت، وقد حَصَل، فلِمَاذا أتكلّف الزّيادة، وأعاني التّعب! وأيضاً فإنّ ثَناء النّاس على الإنسان يَقتضي اعتراء العُجْب له، وإعجاب المرءِ بنَفْسه مُهلِك.

واعلَمْ أنّ الرّضيّ رحمه الله قَطَع كتابَ نَهج البلاغة على هذا الفَصْل، وهكذا وجدتُ النُّسخة بخَطّه وقال: «هذا حين انتهاء الغاية بنا إلى قَطْع المُنتزَع من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: حامِدِين لله سبحانَه على ما مَنَّ به من توفيقِنا لِضمّ ما انتشَرَ من أطرافه وتقريب ما بَعُد من أقطاره، مقرِّرِين العزمَ كما شرطْنا أوّلاً على تفضيل أوراقٍ من البياض في آخِر كلّ باب من

الأبواب، لتكون لاقتناص الشارِد، واستِلْحاقِ الوارد، وما عَساه أن يَظهَرَ لنا بعد الغُموض، ويقع إلينا بعد الشّذوذ، وما توفيقُنا إلا بالله، عليه توكّلنا، وهو حسبُنا ونعمَ الوكيل، نعمَ المولَى ونعمَ النّصير».

ثم وجَدْنا نسخاً كثيرةً فيها زيادات بعد هذا الكلام، قيل: إنها وُجِدَتْ في نسخةٍ كتبتْ في حَياةِ الرَّضيّ رحمه الله وقُرِئَت عليه فأمضاها، وأذِن في إلحاقها بالكِتاب ونحن نذكرها.

- ٤٧٢ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: الدُّنيا خُلِقَتْ لِغَيْرِها، ولَمْ تُخْلَقْ لِنَفْسِها.

الشرح: قال أبو العلاء المَعَرّيّ مع ما كان يُرمَى به في هذا المعنى ما يُطابِق إرادةَ أمير المؤمنين عليه السلام بِلَفْظه هذا:

خُلِقَ النـاسُ للـبَقـاءِ فضَلّـتْ ... أمّـةٌ يحسَبونَهـمْ للنَّفـادِ

إنّمـا يُنـقَلون مـن دارِ أعمـا ... لٍ إلـى دارِ شِـقـوةٍ أو رَشـادِ

- ٤٧٣ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: إنَّ لِبَنِي أُمَيَّةَ مِرْوَداً يَجْرُونَ فِيهِ، وَلَوْ قَدِ اخْتَلَفُوا فِيما بَيْنَهُمْ ثُمَّ لو كَادَتْهُمُ الضِّباعُ لَغَلَبَتْهُمْ.

قَالَ الرضيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: وَهَذَا مِنْ أفْصَحِ الكلامِ وَأغْرَبِهِ، وَالمِرْوَدُ ها هنا مِفْعَلٌ مِنَ الإرْوَادِ، وَهُوَ الإمهالُ وَالإنْظَارُ، فَكَأنَّهُ عليه السلام شَبَّهَ المُهْلَةَ الَّتي هم فيها بالمِضْمارِ الَّذي يجْرُون فيه إلى الغاية، فإذا بلغوا مُنْقطَعَها انْتَقَض نِظامُهُمْ بعدَها.

الشرح: هذا إخبارٌ عن غَيْب صريح، لأن بني أميّة لم يزل مُلكُهم منتظماً لمّا لم يكن بينهم اختلاف، وإنّما كانت حروبُهم مع غيرهم كحَرْب معاوية في صِفّين، وحرب يزيدَ أهلَ المدينة، وابن الزبير بمكة، وحرب مروانَ الضحّاك، وحَرْب عبد الملك بنَ الأشعث وابنَ الزبير، وحرب يزيد ابنه بني المهلّب، وحرب هشام زيدَ بن عليّ، فلمّا ولي الوليد بن يزيد وخرج عليه ابنُ

عمّه يزيد بن الوليد وقتَلَه، اختلفتْ بنو أميّة فيما بينهما، وجاء الوعدُ - وصَدَق من وعد به - فإنّه منذ قتل الوليد دَعَت دعاة بني العبّاس بخُراسان، وأقْبَل مروانُ بنُ محمّد من الجزيرة يَطلُب الخلافة، فخلع إبراهيم بن الوليد، وقَتَل قوماً من بني أميّة، واَضطرَب أمرُ الملك وانتَشر، وأقبلت الدولةُ الهاشميّة ونَمَتْ، وزال مُلك بني أميّة، وكان زَوال مُلْكهم على يد أبي مُسلِم، وكان في بدايته أضعفَ خَلْق الله وأعظَمهم فَقْراً ومَسكَنة، وفي ذلك، تَصديقُ قوله عليه السلام: «ثمّ لو كادَتهمْ الضِّباع لَغَلَبَتهم».

- ٤٧٤ -

الأصل: وقالَ عليه السلام في مَدْح الأنصارِ: هُمْ وَاللَّهِ ربُّوا الإِسْلامَ كَمَا يُرَبَّى ٱلْفُلُوُّ مَعَ غَنَائِهِمْ بأَيْدِيهِمْ السِّبَاطِ، وَأَلْسِنَتِهِمُ السِّلاطِ.

الشرح: الفُلُوّ: المُهْر.

ويُروَى: «بأيديهم البِساط»، أي الباسِطة، والأولى جَمْع سَبْط يَعنِي السَّماح، وقد يقال للحاذق بالطَّعن: إنَّه لسَبْط اليَدَين، يريدُ الثَّقافة. وألسنتهم السِّلاط، يعني الفَصيحة.

وقد تقدّم القولُ في مَدْح الأنصار، ولو لم يكن إلا قولُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله فيهم: «إنّكم لتَكثُرون عند الفَزَع، وتَقِلّون عند الطَّمَع»[1]، ولو لم يكنْ إلّا ما قاله لعامر بنِ الطُّفَيل فيهم لمّا قال له: «لأغزُوَنّك في كذا وكذا من الخَيْل»[2] يتوعّده، فقال عليه السلام: «يكفي الله ذلك وأبناء قَيْلة»، لكان فخراً لهم وهذا عظيمٌ جدًّا وفوق العَظِيم، ولا ريبَ أنّهم الّذين أيّد الله بهم الدّين، وأظهَرَ بهم الإسلام بعد خَفائِه، ولولاهم لعَجَز المهاجرون عن حَرْب قريشٍ والعرب، وعن حِمايةِ رَسولِ الله صلى الله عليه وآله، ولولا مَدينتهم لم يكن للإسلام ظَهْر يَلْجَؤون عليه، ويكْفِيهم فَخْراً يومُ حَمْراء الأسد، يوم خرجَ بهم رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى قريش بعد انكسار أصحابِه، وقتلِ مَن قُتل منهم، وخرجوا نحوَ القوم والجراحُ فيهم فاشية، ودماؤهم تَسيل، وإنّهم مع ذلك كالأُسْد الغِراث تَتواثَب على فَرائِسها، وكم لهم من يوم أغرّ محجّل! وقالت الأنصار: لولا عليّ بنُ أبي طالب عليه السلام في المهاجِرين لأبَيْنا لأنفُسنا أن يُذكَر المهاجرون مَعَنا، أو أن يُقرَنوا بنا، ولكنْ رُبَّ واحدٍ كألف، بل كألُوف.

(١) ذكره ابن الجوزي في «صفوة الصفوة» (١/ ٢٠٥).

(٢) ذكره ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ٣٨٧).

وقد تقدَّم ذكرُ الشِّعر المَنسوب إلى الوزير المغربيّ وما طعن به القادر بالله الخليفة العبّاسيّ في دِينه بطريقه، وكان الوزيرُ المغربيّ يتبرّأ منه ويَجحَده، وقيل: إنه وُجدت مسوّدَة بخطّه فرفعتْ إلى القادر بالله.

وممّا وُجِد بخطّه أيضاً - وكان شديدَ العَصَبيّة للأنصار ولقَحْطانَ قاطِبةً، على عَدنانَ، وكان ينتَمِي إلى الأزد، أزْد شَنُوءة - قوله:

إنّ الّذي أرسَى دعائمَ أحمَدٍ ... وعَلا بدَعْوَتِه على كِيوَانِ

أبناء قَيْلَة وارثو شَرَف العُلا ... وعَراعِر الأقيالِ مِن قَحْطانِ[1]

بسُيوفهم يومَ الوَغَى وأكفِّهمْ ... ضَرَبَتْ مَصاعب مُلْكِه بجِرانِ

لولا مَصارِعُهم وصِدْقُ قِراعِهم ... خَرّت عُروشُ الدِّين للأذْقانِ

فليشكرَنّ محمّدٌ أسيافَ مَن ... لولاه كانَ كخالِدِ بنِ سِنانِ

وهذا إفراطٌ قَبيح، ولفظٌ شنيع، والواجب أن يصانَ قدرُ النّبوّة عنه، وخصوصاً البَيْت الأخير، فإنّه قد أساء فيه الأدَب، وقال ما لا يجوز قولُه، وخالدُ بنُ سِنان كان من بَني عَبْس بن بَغِيض: من قَيْس عَيْلان، ادَّعى النبوّة، وقيل: إنّه كانت تَظهَر عليه آياتٌ ومُعجِزات، ثمّ مات وانقَرَض دِينُه ودثرتْ دَعْوَته، ولم يَبقَ إلّا اسمُه، وليس يَعرفه كلّ الناس، بل البعض منهم.

- ٤٧٥ -

الأصل: وقال عليه السلام: العَيْنُ وِكاءُ السَّه.

قالَ الرَّضيُّ رَحمهُ الله تعالى: وهذِهِ مِنَ الاسْتِعارَاتِ العَجِيبَةِ، كأنَّهُ شَبَّهَ السَّهَ بالْوِعاءِ، والْعَيْنَ بالوِكاءِ، فَإِذَا أُطْلِقَ الوِكَاءُ لَمْ يَنْضَبِط الوِعاءُ. وهذَا الْقَوْلُ في الأشْهرِ الأظْهَرِ مِنْ كلامِ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله، وقَدْ رَوَاهُ قَوْمٌ لأمِيرِ الْمُؤمِنِين عَلَيْهِ السلامُ، وذَكَرَ ذَلِكَ الْمُبَرِّدُ في الكتابِ الْمُقْتَضَبِ في باب اللَّفظِ المعرُوفِ.

قال الرَّضيّ: وقَدْ تَكلَّمْنا على هَذِهِ الاسْتعارَةِ في كِتابِنا الْمَوْسُومِ بِمَجازات الآثارِ النبوِيَّةِ.

(١) العَراعر: السادات والأشراف. اللسان، مادة (عرر).

الشرح: المعروف أنّ هذا من كلام رسول الله ﷺ، ذكَرَه المحدِّثون في كُتبِهم وأصحابُ غَرِيب الحديث في تصانيفهم، وأهلُ الأدب في تفسير هذه اللّفظة في مجموعاتهم اللّغوية، ولعل المبرِّد اشتَبَه عليه فنَسَبه إلى أمير المؤمنين عليه السلام، والرواية بلَفْظ التثنية: «العَيْنان وِكاءُ السَّتَهِ»(١)، والسَّتَهُ: الأسْتُ.

وقد جاء في تمامِ الخَبَر في بعض الرّوايات: «فإذا نامت العَيْنان استطلَق الوِكاء». والوكاء: رِباطُ القِرْبة، فجعل العَيْنين وِكاء - والمُرَادُ اليَقَظة - للسَّتَه كالوِكاء للقِرْبة، ومنه الحديث في اللُّقَطة: «احْفَظ عِفاصَها ووِكاءها، وعرِّفها سنةً، فإن جاء صاحِبُها وإلا فشأنَك بها»، والعِفاص: السِّداد، والوكاء: السّداد، وهذه من الكِنايات اللطيفة.

بعض ما ورد في الكنايات وبعض الشواهد عليها

وقد كنّا قدمنا قطعةً صالحةً من الكنايات المستحسَنة، ووعَدْنا أن نعاوِدَ ذكر طرف منها، وهذا الموضعُ موضعه، فمن الكناية عن الحدث الخارج - وهو الذي كَنَى عنه أميرُ المؤمنين عليه السلام، أو رسول الله ﷺ الكناية التي ذكرها يحيى بن زياد في شعره، قيل: إنّ يحيى بن زياد ومطيعَ بن إياس وحمّاداً الرّاوية جلسوا على شِرْبٍ لهم، ومعهم رجلٌ منهم، فانحلّ وكاؤه، فاستحيا وخَرَج، ولم يَعُدْ إليهم، فكَتَب إليه يحيى بنُ زياد.

أمِنْ قَلوصٍ غَدَتْ لم يُؤذِهَا أحَدٌ ... إلاّ تَذَكُّرُها بالرَّمْلِ أوْطانَا
خانَ العِقالُ لها فانبَتَّ إذْ نفَرَتْ ... وإنما الذنبُ فيها للّذي خانَا
مَنحتَنا مِنْك هِجراناً ومَقْلِيَةً ... ولم تَزُرْنا كما قَدْ كنت تَغْشانا
خفِّضْ عليك فما في الناس ذُو إبلٍ ... إلاّ وأيْنُقُه يَشْرُدن أحيَانا

وليس هذا الكتابُ أهلاً أن يضمَّن حكايةً سخيفةً أو نادرة خليعة، فنذكر فيه ما جاء في هذا المعنى، وإنما جرّأنا على ذكر هذه الحكاية خاصّة كنايةُ أمير المؤمنين عليه السلام أو رسولِ الله ﷺ عنها، ولكنا نذكر كنايات كثيرة في غير هذا المعنى مستحسَنة، ينتفِع القارئُ بالوُقوف عليها.

يقال: فلانٌ من قوم موسى، إذا كان مَلولاً، إشارةً إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾(٢).

---

(١) أخرجه الدارمي، كتاب: الطهارة، باب: الوضوء من النوم (٧٢٢)، وأحمد في «مسنده» (١٦٤٣٧)، بلفظ «وكاء السَّه»، وبلفظ: «السنة» أخرجه الحاكم في «معرفة علوم الحديث» (١/ ١٣٣).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦١.

قال الشاعر:

فيا مَنْ ليس يَكفِيه صَديقٌ ... ولا ألفا صَديقٍ كلَّ عامِ
أظنّك مِنْ بقايا قوم مُوسى ... فهمْ لا يَصبرون على طعامِ

وقال العبّاس بنُ الأحنف:

كتبتْ تَلومُ وتستريثُ زِيارتي ... وتقولُ: لست لنا كعَهْدِ العَاهِدِ
فأجبْتُها ودُموعُ عَيْنَي سُجَّمٌ ... تَجرِي على الخدَّين غير جَوامِدِ
يا فَوزُ لم أهْجُرْكُمُ لمِلالَةٍ ... عرَضَتْ ولا لمقالِ واشٍ حاسدِ
لكنّني جَرّبْتُكم فوجَدْتُكمْ ... لا تَصبِرونَ على طعامٍ واحدِ

ويقولون للجارية الحَسْناء: قد أبقَتْ من رِضوان، قال الشاعر:

جَسّت العُودَ بالبَنانِ الحِسانِ ... وتثنّت كأنّها غُصْنُ بانِ
فسجَدْنا لها جميعاً وقلنا ... إذ شجَتْنا بالحسن والإحسانِ
حاشَ للّهِ أن تكوني من الإنـ ... ـسِ ولكنْ أبقْتِ مِنْ رِضوان

ويقولون للمكْشوف الأمر الواضح الحال: ابن جَلا، وهو كنايةٌ عن الصُّبح ومنه ما تمثل به الحجّاج:

أنا ابنُ جَلا وطَلاّع الثّنايا ... مَتَى أضع العمامةَ تَعرِفوني

ومنه قول القلاخ بن حَزْن:

أنا القُلاخُ بنُ القُلاخ ابن جَلا

ومنه قولُهم: فلان قائدُ الجَمَل لأنّه لا يَخفَى لعظم الجَمَل وكِبَر جثّته، وفي المَثَل: ما استَتَر مَن قاد جَمَلاً. وقالوا: كَفَى برُغائها نِداءً، ومِثلُ هذا قولُهم: ما يومُ حَليمة بسِرّ يقال: ذلك في الأمر المَشهور الذي لا يُسْتَر، ويومُ حَليمة يوم التقَى المنذرُ الأكبرُ والحارثُ الغَسّانيّ الأكبر، وهو أشهر أيّام العَرَب، يقال: إنه ارتَفَع من العَجَاج ما ظَهرتْ معه الكواكبُ نهاراً، وحليمة: اسمُ امرأةٍ أضيفَ اليومُ إليها، لأنّها أخرَجَتْ إلى المعركة مَراكنَ الطِّيب، فكانتْ تُطيِّب بها الدّاخلين إلى القِتال، فقاتلوا حتّى تفانَوْا.

ويقولون في الكِنايَةِ عن الشّيخ الضعيف: قائدُ الحِمار، وإشارةً إلى ما أنشَدَه الأصمعيّ:

آتي النّدِيَّ فلا يُقرِّب مَجلِسي ... وأقودُ للشّرَفِ الرَّفيعِ حِمارِي

أي أقُوده من الكِبَر إلى مَوْضع مرتفع لأركبه لضَعفي. ومثلُ ذلك كِنايتُهم عن الشّيخ الضعيف بالعَاجِن، لأنّه إذا قام عَجَن في الأرض بكفّيه، قال الشاعر:

فأصبحتَ كُنْتِيّاً وأصبَحْتَ عاجناً ... وشَرُّ خِصالِ المرءِ كنتُ وعاجنُ

قالوا: الكُنْتِيُّ الذي يقول كنتُ أفعَل كذا، وكنتُ أركَب الخيل، يتذكّر ما مضَى من زمانِه، ولا يكونُ ذلك إلّا عند الهَرَم أو الفَقْر والعَجْز.

ومِثلُه قولُهم للشيخ: راكع، قال لَبيد:

أخبِّر أخبارَ القُرونِ الّتي مَضَتْ أدبُّ كأنّي كلّما قمتُ راكِعُ

والرّكوع: هو التّطأطُؤ والانحناء بعد الاعتدال والاستواء، ويقال للإنسان إذا انتَقَل من الثّروة إلى الفَقْر: قد رَكَع، قال:

لا تُهينَ الفقيرَ علَّكَ أنْ ترْ كعَ يَوْماً والدَّهرُ قد رَفَعَهْ

وفي هذا المعنى قال الشاعر:

ارفَعْ ضَعيفَك لا يَحِرْ بِكَ ضَعْفُه يوماً فتُدرِكه الحوادثُ قد نَمَا

يَجزيك أو يُثْنِي عليكَ وإنّ مَنْ يُثني عليكَ بما فَعَلْتَ فقد جَزَى

ومِثلُه أيضاً:

وأكْرِمْ كريماً إنْ أتاكَ لحاجةٍ لعاقبةٍ إنّ العِضَاهَ تروّحُ

تروُّح الشّجر: إذا انفَطَر بالنَّبت، يقول: إن كان فقيراً فقد يَستغني، كما أنّ الشّجر الّذي لا وَرَق عليه سيَكْتَسي وَرقاً، ويقال: رَكع الرجل، أي سَقَط.

وقال الشاعر:

خرقٌ إذا رَكَع المَطِيُّ من الوَجَى لم يطْوِ دونَ رفيقِه ذا المِزْوَدِ

حتّى يؤوب به قليلاً فضْلُه حَمِد الرّفيقُ نَداكَ أو لم يَحمَدِ

وكما يشبّهون الشيخ بالرّاكع فيَكْنُون به عنه، كذلك يقولون: يَحْجِل في قَيْده لتقارُب خَطْوِه، قال أبو الطَّمَحان القَيْنيّ:

حَنتني حانياتُ الدَّهرِ حتّى كأنّي خاتِلٌ أدْنُو لِصَيْدِ

قريبُ الخَطْوِ يَحسَب مَن رآنِي - ولستُ مُقيَّداً - أنّي بقَيْدِ

ونحو هذا قولُهم للكبير: بَدَتْ له الأرنب، وذلك أنّ من يَختِل الأرنبَ ليَصِيدَها يتمايَل في مِشيَته، وأنشَد ابن الأعرابيّ في النّوادر:

وطالتْ بيَ الأيّام حتّى كأنّني من الكِبَر العالِي بَدَت ليَ أرْنَبُ

ونحوه يقولون للكبير: قِيدَ بفلانٍ البَعير، أي لا قوّة ليدِه على أن يُصرِّف البعيرَ تَحتَه على حَسَب إرادته، فيَقودُه قائدٌ يَحمِله حيثُ يريد.

ومن أمثالهم: لقد كنتُ وما يقادُ بيَ البعير: يضرَب لمن كان ذا قُوّة وعَزْم، ثم عَجز وفَتَر.

ومن الكنايات عن شَيْب العَنْفَقة قولُهم: قد عَضّ على صُوفِه.

ويَكْنُون عن المرأة التي كَبِر سنُّها فيقولون: امرأةٌ قد جَمَعت الثّياب، أي تَلبَس القِناعَ والخِمار والإزار، وليست كالفَتاة الّتي تَلبَس ثوباًواحداً.

ويقولون لمن يَخضِب: يسوِّد وجه النَّذِير، وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾(١): إنه الشَّيب. وقال الشاعر:

وقائلةٍ ليَ اخضِبْ فالغَواني تَطيَّرُ مِنْ مُلاحظَة القَتِيرِ
فقلت لها المَشيبُ نَذيرُ مَوْتي ولستُ مسوِّداً وجهَ النَّذيرِ

وزاحمَ شابٌّ شيخاً في طريق فقال الشابّ: كم ثمن القَوس؟ يعيِّره بانحناء الظَّهر، فقال الشيخ: يابنَ أخي: إن طَال بكَ عُمْرٌ فسوفَ تَشْتَرِيها بلا ثمن.

وأنشد لابن خَلَف:

تعيِّرني وخطَ المَشيبِ بعارِضِي ولولا الحجُولُ البُلْق لم تُعرَف الدُّهْمُ
حَنَى الشَّيبُ ظَهْرِي فاستَمرّت مَريرتي ولولا انحناءُ القوسِ لم يَنفُذ السَّهْمُ

ويقولون لمن رشا القاضي أو غيره: صَبَّ في قِنديله زَيْتاً، وأنشد:

وعند قُضاتنا خبثٌ ومَكْرٌ وزَرْعٌ حين تَسْقِيه يُسنبِلْ
إذا ما صُبَّ في القِنْديل زَيْتٌ تحوّلت القضيّة للمُقَندِلْ

وكان أبو صالح كاتبُ الرّشيدِ يُنسب إلى أخذ الرّشا، وكان كاتب أمّ جعفر. وهو سعدانُ بنُ يحيى كذلك، فقال لها الرّشيد يوماً: أما سمعتِ ما قيل في كاتِبك؟ قالت: ما هو؟ فأنشَدَها:

صَبّ في قِنديل سَعْدَا نَ مع التسْلِيم زَيْتا
وقناديل بَنيه قبل أن تخفَى الكُمَيْتَا

قالت: فما قيل في كاتِبك أشنَع، وأنشدَتْه:

قِنديلُ سَعْدَانَ علا ضوءَهُ فَرْخٌ لقِنديلِ أبي صالِح
تَراهُ في مَجلِسِه أحوَصاً مِنْ لمحِه للدِّرهم اللائح

ويقولون: لمن طَلَّق ثلاثاً: قد نَحَرَها بمثلثه.

ويقولون أيضاً: أعطاها نِصف السُّنة.

ويقولون لمن يفْخَر بآبائه: هو عِظاميّ، ولمَن يَفخر بنفسِه هو عِصَاميّ، إشارةً إلى قول النّابغة في عِصامِ بن سَهْل حاجب النّعمان:

نفسُ عِصامٍ سَوّدتْ عِصامَا وعَلّمته الكَرَّ والإقْدامَا
وجَعَلته مَلِكاً هُمامَا

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٧.

وأشار بالعِظاميّ إلى فَخْره بالأموات من آبائِهِ ورَهْطه، وقال الشاعر:

إذا ما الحَيُّ عاشَ بِعَظْمِ ميْتٍ ... فذاكَ العَظْم حيٌّ وهو مَيْتُ

ونحو هذا أنّ عبد الله بنَ زياد بنِ ظَبيان التَّميميّ دَخل على أبيه وهو يَجُود بنَفْسه فقال: ألا أوصي بك الأميرَ؟ فقال: إذا لم يكن للحَيّ إلّا وصيّة الميّت فالحيّ هو الميّت، ويقال: إن عطاءَ بن أبي سُفْيان قال ليزيدَ بن معاوية: أغنِني عن غَيْرك، قال:

حَسْبُك ما أغنَاك به معاوية، قال: فهو إذَن الحيُّ وأنتَ الميّت، ومثلُ قولهم: عِظاميّ، قولهم: خارجيّ، أي يَفخَر بغيرِ أوليّة كانت له، قال: كثيّر لعبد العزيز:

أبا مَرْوانَ لستَ بخارجيٍّ ... وليس قديمُ مَجْدك بانتحالِ

ويَكنُون عن العَزيز وعن الذَّليل أيضاً فيقولون: بَيْضة البَلَد، فمن يقولها للمَدْح يذهَب إلى أنّ البَيْضة هي الحَوْزة والحِمَى، يقولون: فلانٌ يَحمِي بَيْضَته، أي يَحمِي حَوْزَته وجماعَته، ومن يقولُها للذّم يعني أنّ الواحدةَ من بَيْض النّعام إذا فسدتْ تَركها أبواها في البَلد وذَهَبا عنها، قال الشاعر في المدح:

لكنّ قائله من لا كِفاءَ له ... من كان يُدعَى أبُوه بَيْضَة البَلَدِ

وقال الآخر في الذّمّ:

تَأبَى قُضاعةُ لم تَعْرِفْ لكمْ نَسَباً ... وابْنا نِزارٍ فأنتمْ بَيْضةُ البَلَدِ

ويقولون للشيء الّذي يكون في الدهر مرّة واحدة: هو بَيْضة الدِّيك، قال بشّار:

يا أطيبَ الناس ريقاً غير مختَبرٍ ... إلاّ شهادة أطرافِ المَساويكِ

قد زُرْتِنا زَوْرَة في الدّهر واحدةً ... ثَنّي ولا تَجعَليها بَيْضَةَ الدِّيكِ

ويَكنُون عن الثَّقيل بالقَذَى في الشّراب، قال الأخطَل يَذكُر الخَمرَ والاجتماع عليها:

وليسَ قَذاها بالّذي قد يَضيرُها ... ولا بذُبابٍ نَزْعُه أيسَر الأمْرِ

ولكنْ قَذاهَا كلّ جِلْف مكلّفٍ ... أتتْنا به الأيّامُ من حيثُ لا نَدرِي

فَذاكَ القَذَى وابنُ القَذَى وأخو القَذَى ... فإنّ له من زائرٍ آخر الدّهرِ

ويَكنُون أيضاً عنه بقدح اللّبْلاب، قال الشاعر:

يا ثَقيلاً زادَ في الثِّقْـ ... ـل على كلّ ثَقيلِ

أنتَ عندِي قَدَح اللّبـ ... ـلابِ في كَفّ العَليلِ

ويَكنُون عنه أيضاً بالقَدَح الأوّل، لأنّ القَدَح الأوّل من الخَمْر تكرَهه الطّبيعة وما بعدَه فدُونه لاعتياده، قال الشاعر:

وأثقَل من حضين بادِياً ... وأبغَض من قَدَح أوّلِ

ويَكنُون عنه بالكانُون، قال الحُطَيئة يهجو أمَّه:

تَنَحَّيْ فاقعُدِي عَنّي بعيداً ... أراحَ اللّهُ مِنكِ العالَمينَا

أغِرْبالاً إذا استُودِعتِ سِرًّا ... وكانوناً على المتحدِّثينا!

قالوا: وأصلُه مِنْ كَنَنْت أي سَتَرْت، فكأنّه إذا دَخَل على قوم وهم في حديثٍ سَتَروه عنه، وقيل: بل المُراد شِدّة بَرْده.

ويَكنُون عن الثَّقيل أيضاً برحَا البِزْر، قال الشاعر:

وأثقَل من رَحا بَزْرٍ علَينا ... كأنّكَ مِن بقايا قومِ عادِ

ويقولون لمن يَحمَدون جِوارَه: جارُه جارُ أبي دُوَادٍ، وهو كَعب بنُ مامةَ الإياديّ، كان إذا جاوَرَه رجلٌ فمات وَدَاه، وإن هَلَك عليه شاة أو بعيرٌ أخلَفَ عليه، فجاوَرَه أبو دواد الإياديّ، فأحسن إليه، فضُرِب به المَثَل.

ومثلُه قولُهم: هو جليسُ قَعْقاعِ بنِ شَوْر، وكان قد قَدِم إلى معاويةَ فدَخَل عليه، والمجلس غاصٌّ بأهلِه ليس فيه مَقعَد، فقام له رجل من القوم وأجلَسَه مكانه، فلم يَبرَح القعقاعُ من ذلك الموضع يكلّم معاويةَ ومعاويةُ يُخاطِبه حتى أمَر له بمائة ألفِ دِرْهم، فأحضِرَت إليه، فجُعلتْ إلى جانبه، فلمّا قام قال للرجل القائمِ له مِن مكانه: ضُمَّها إليك، فهي لكَ بقيامِك لنا عن مجلِسك، فقيل فيه:

وكنتُ جليسَ قَعْقاعِ بن شَوْرٍ ... ولا يَشقَى بقَعقاعٍ جَليسُ

ضَحوكُ السِّنّ إنْ نَطَقوا بخَيرٍ ... وعند الشّرّ مِطْراقٌ عَبُوسُ

أخَذ قَوله: «ولا يَشقَى بقَعْقاعٍ جليسُ» من قول النبي ﷺ: «هم القومُ لا يَشقَى بهم جَليسُهم»[1].

ويَكنُون عن السَّمين من الرّجال بقولهم: هو جار الأمير وضيفُ الأمير، وأصلُه أنّ الغَضْبان بنَ القبعثَرى كان محبوساً في سِجْن الحجّاج، فدعا به يوماً فكلّمه، فقال له في جملة خطابه: إنّك لسَمين يا غَضْبان، فقال: القيد والرّتعة، والخَفْض والدَّعَة، ومَن يكنْ ضيفَ الأمير يَسمَن.

ويَكني الفلاسفةُ عن السَّمين بأنه يُعَرِّض سور حَبسه، وذلك أنّ أفلاطُونَ رأى رجلاً سميناً، فقال: يا هذا، ما أكثرَ عِنايَتَك بتَعريض سور حَبْسِك!

ونظر أعرابيٌّ إلى رجل جيِّد الكِدْنة[2]، فقال: أرَى عليك قَطيفةً مُحكَمَةً. قال: نعم، ذاكَ عنوانُ نعمة الله عِندي.

---

(١) مسند أحمد: ٢/ ٢٥٢.

(٢) جيد الكدنة: سميناً غليظاً. اللسان، مادة (كدن).

ويقولون للكذّاب: هو قموصُ الحَنْجَرة، وأيضاً هو زَلُوق الكَبِد، وأيضاً لا يُوثق بسَيْل بلقِعِه. وأيضاً أسيرُ الهِنْد لأنه يدّعي أنه ابنُ المَلِك، وإن كان من أولادِ السِّفْلَة.

ويُكنى عنه أيضاً بالشيخ الغريب، لأنّه يُحِبّ أن يتزوّج في الغُرْبة فيَدَّعي أنه ابنُ خمسين سنةً، وهو ابنُ خمسٍ وسَبْعين.

ويقولون: هو فاختةُ البَلَد، من قول الشاعر:

أكــذبُ مــن فــاخــتــةٍ تــصــيــحُ فــوقَ الــكَــرَبِ
والــطَّــلْــعُ لــم يَــبْــدُ لــهــا: هــــذا أوانُ الــــرُّطَــــبِ

وقال آخر في المعنى:

حــديــثُ أبــي حــازمٍ كــلّــه كــقَــوْل الــفَــواخِــت: جــاءَ الــرُّطَــبْ
وهُــنّ وإن كــنّ يُــشْــبِــهْــنَــه فــلَــسْــنَ يُــدانِــيــنَــه فــي الــكَــذِبْ

ويَكنون عن النّمام بالزّجاج، لأنه يشِفّ على ما تحتَه، قال الشاعر:

أنمُّ بما استودعتُه من زُجاجةٍ يُرَى الشيءُ فيها ظاهراً وهو باطِنُ

ويَكنُون عنه بالنَّسيم، مِن قولِ الآخر:

وإنّك كلّما استُودِعتَ سِرًّا أنمُّ من النَّسيم على الرِّياضِ

ويقولون: إنه لصُبْح، وإنه لطِيب، كله في النّمام. ويقولون: ما زال يفتِل له في الذِّرْوة والغارِب حتى أسمَحتْ قَرُونته، وهي النفسُ، والذِّرْوة: أعلى السَّنام، والغارب: مقدمه.

ويقولون في الكِناية عن الجاهل: ما يَدرِي أيَّ طَرَفيه أطوَل، قالوا: ذكَرُهُ ولسانُه.

وقالوا: هل نَسَبُ أبيه أفضلُ أمْ نَسبُ أمّه؟

ومِثلُه: لا يَعرِف قطانه من لطانه، أي لا يعرف جَبْهته مما بين وَرِكَيه.

وقالوا: الحِدّة كُنْية الجَهْل، والاقتصاد كنية البُخْل، والاستقصاء كُنْية الظُّلْم.

وقالوا للجائع: عَضَّه الصَّفَر، وعضَّه شُجاع البَطْن.

وقال الهُذَليّ:

أَرُدُّ شُجاعَ البَطْنِ قد تعلمينَه وأُوثِر غَرْثَي مِن عِيالِكِ بالطُّعْمِ
مَخافةَ أن أحْيا بِرَغْمٍ وذِلّةٍ ولَلمَوْتُ خيرٌ من حَياةٍ على رَغْمِ

ويقولون: زوّدَه زادَ الضّبّ، أي لم يزوِّدْه شيئاً، لأنّ الضّبّ لا يشرَب الماء، وإنما يتغذّى بالرّيح والنَّسيم، ويأكُل القليل من عُشْب الأرض.

وقال ابن المعتزّ:

يقول أكلنا لحمَ جَدْيٍ وبطّة ... وعَشْرَ دجاجاتٍ شِواء بألبانِ
وقد كَذَبَ المَلْعونُ ما كان زادُه ... سِوَى زاد ضبٍّ يَبلع الرِّيحَ عَطْشان

وقال أبو الطّيّب:

لقد لَعِبَ البَيْنُ المُشِتُّ بها وَبِي ... وزوّدني في السَّيْر ما زَوّد الضَّبّا

ويقولون للمختلِفين من الناس: هم كنَعَم الصّدَقة، وهم كبَعْر الكَبْش، قال عمرو بن لجأ:

وشِعْر كبَعْر الكَبْش ألّفَ بَيْنَه ... لسانٌ دَعِيٌّ في القَرِيض دَخِيلُ

وذلك لأنّ بعرَ الكبش يقعُ متفرّقاً.

وقال بعضُ الشعراء لشاعر آخر: أنا أشعر منك لأني أقولُ البيت وأخاه، وتقول البيت وابن عمّه. فأما قولُ جرير في ذي الرمّة: إنّ شعره بعرظِباء ونقط عَروس، فقد فسره الأصمعيّ فقال: يريد أنّ شعره حُلْوٌ أول ما تَسمَعه، فإذا كُرِّر إنشادُه ضَعُف، لأنّ أبعَار الظّباء أول ما تشمّ توجد لها رائحةُ ما أكلتْ من الجَثْجاث والشّيح. والقَيْصوم، فإذا أدَمْتَ شمّها عُدِمَتْ تلك الرائحة، ونقط العَروس إذا غَسلتها ذهبتْ.

ويقولون أيضاً للمختلفين: أخياف، والخَيَف: سَوادُ إحدى العَيْنين وزرق الأخرى.

ويقولون فيهم أيضاً: أولادُ عَلاّت كالإخْوَة لأمّهاتٍ شَتّى، والعَلّة: الضَّرّة.

ويقولون فيهم: خبزُ كُتّاب، لأنه يكون مختلفاً، قال شاعرٌ يهجو الحجّاجَ بنَ يوسف:

أيَنْسَى كليبٌ زَمانَ الهُزالِ ... وتعليمه سُورة الكَوْثرِ
رغيفٌ له فَلْكة ما تُرَى ... وآخر كالقَمَر الأزْهَرِ

ومثله:

أما رأيت بني سَلْم وجُوههمُ ... كأنّها خبزُ كُتّابٍ وبَقّالِ

ويقال للمتساوين في الرداءة: كأسْنان الحِمار، قال الشاعر:

سواءٌ كأسْنان الحِمارِ فلا تَرَى ... لذِي شَيْبةٍ منهمْ على ناشىءٍ فَضْلا

وقال آخر:

شبابُهُم وشِيبُهم سواءٌ ... فهمْ في اللؤم أسنانُ الحِمارِ

وأنشد المبرّد في الكامل لأعرابي يصف قوماً من طيّىء بالتساوي في الرّداءة:

ولما أن رأيتُ بَني جُوَينٍ ... جُلوساً ليس بينهُم جَلِيسُ
يَئِسْت من الذي أقبَلْت أبغى ... لديهمْ، إنني رجلٌ يَئُوسُ
إذا ما قلتُ أيّهمُ لأيّ ... تَشابَهت المناكِب والرّؤوسُ

قال: فقوله: لَيسَ بينهُم جَليسُ» هِجاء قبيح، يقول: لا ينتجع الناس معروفهم، فليس بينهم

غيرهم. ويقولون في المتساوِيَين في الرَّداءة أيضاً: هما كحِماري العَبَاديّ، قيل له: أيُّ حِمارَيْك شرّ؟ قال: هذا ثمّ هذا. ويقال في التّساوِي في الشّرّ والخير: هم كأسْنان المُشْط، ويقال: وَقعا كركبتي البعير، وكرِجْلي النَّعامة.

وقال ابنُ الأعرابيّ: كلّ طائر إذا كُسِرَتْ إحدى رِجْليه تَحامَلَ على الأخرى إلا النعام فإنه متى كُسرتْ إحدى رِجليه جثم، فلذلك قال الشاعر يذكُر أخاه:

وإنـي وإيـاه كـرِجـلـيْ نَـعـامـةٍ ... عـلـى مـا بِـنَـا مـن ذي غِـنًـى وفَـقـيـرِ

وقال أبو سُفْيانَ بنُ حَرْب لعامر بن الطّفيل وعَلْقمة بن عُلاثة وقد تنافَرا إليه: أنتما كرُكْبَتَي البعير، فلم ينفّر واحداً منهما، فقالا: فأيّنا اليُمنى؟ فقال: كلٌّ منكما يُمنَى.

وسأل الحجّاج رجلاً عن أولاد المهلّب: أيُّهم أفضل؟ فقال: هم كالحلْقة الواحدة.

وسُئِل ابنُ دُرَيد عن المبرّد وثعلب، فأثنى عليهما، فقيل: فأبن قُتيبة؟ قال: رَبْوة بين جَبَلين، أي خَمَل ذِكْرُه بنباهتهما.

ويُكنى عن الموت بالقطع عن المنجّمين، وعن السّعاية بالنصيحة عند العمال، وعن الجماع بالوَطْء عند الفُقهاء، وعن السُّكر بطِيب النَّفْس عند النُّدَماء، وعن السّؤال بالزوّار عند الأجْواد، وعن الصَّدقة بما أفاءَ الله عند الصُّوفية.

ويقال للمتكلّف بمصالح الناس: إنه وصيّ آدم على وَلَدِه، وقد قال شاعرٌ في هذا الباب:

فـكـأنّ آدمَ عـنـد قـرب وفـاتِـه ... أوصـاكَ وهـو يـجـودُ بـالـحَـوْبـاءِ

بـبـنـيـه أنْ تـرعـاهُـمُ فَـرَعَـيْـتَـهـمْ ... وكَـفَـيْـتَ آدمَ عَـيْـلَـةَ الأبْـنـاءِ

ويقولون: فلانٌ خليفةُ الخَضِر إذا كان كثيرَ السَّفَرِ، قال أبو تمام:

خليفة الخضر مَنْ يَربَع على وَطَنٍ ... أو بَـلـدةٍ فـظُـهـور الـعِـيـس أوْطـانِـي

بَغدادُ أهْلي وبالشام الهوَى وأنا ... بـالـرَّقَّـتـيـن وبـالـفُـسْـطـاط إخـوانـي

وما أظنُّ النَّوى ترضى بما صَنَعتْ ... حـتـى تُـبـلِّـغَ بـي أقـصـى خُـراسـانِ

ويقولون للشيء المختار المنتخَب: هو ثمرة الغُراب لأنه ينتقي خيرَ الثمر.

ويقولون: سَمْنُ فلانٍ في أدِيمه، كناية عمّن لا يُنتَفع به، أي ما خَرج منه يرجع إليه، وأصلُه أنّ نِحْياً من السَّمْن انشقّ في ظَرْف من الدَّقيق، فقيل ذلك، قال الشاعر:

تَـرحَّـلْ فـمـا بـبـغـدادُ دارَ إقـامـةٍ ... ولا عـنـد مَـن أضـحَـى بـبـغـدادَ طـائِـلُ

مـحـلّ مُـلـوك سَـمْـنُـهـمْ فـي أدِيـمـهـمْ ... وكـلُّـهُـم مِـن حِـلْـيَـةِ الـمـجـدِ عـاطِـلُ

فلا غروَ أن شَلَّتْ يدُ المجدِ والعُلى ... وقَـلَّ سـمـاحٌ مِـن رجـالٍ ونـائِـلُ

إذا غَـضْـغَـض الـبـحرُ الـغطـامِطُ ماءه ... فـلـيـس عـجـيـبـاً أن تَـغِـيـض الـجـداوِل

ويقولون لمن لا يَفي بالعَهْد: فلان لا يَحفَظ أول المائدة، لأنّ أوّلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾[1].

ويقولون لمن كان حَسَن اللّباس ولا طائلَ عنده: هو مِشْجَب، والمِشْجَب: خَشبة القَصّار الّتي يَطرَح الثّياب عليها، قال ابن الحجّاج:

لي سادةٌ طائر السرور بهمْ ... يَطْرُده اليأسُ بالمقاليعِ
مَشاجِبٌ للثّياب كلّهمُ ... وهذه عادةُ المَشاقِيع
جائزتي عندهُمُ إذا سَمِعوا ... شِعْريَ: هذا كلامٌ مَطْبوعِ
وإنهم يَضحَكون إنْ ضَحكوا ... مِنّي وأبكي أنا مِن الجُوع

وقال آخر:

إذا لبِسوا دُكْنَ الخروز وخُضْرَها ... وراحوا فقد راحتْ عليك المَشاجِبُ

ورُوِي أنّ كَيْسانَ غلامَ أبي عُبَيدة وَفَد على بعض البَرامكة فلم يُعطِه شيئاً، فلما وافى البَصْرة قيل له: كيف وجدته؟ قال: وجدتُه مِشجَباً من حيث ما أتيتُه وَجدْتُه.

ويكنون عن الطُّفَيْليّ فيقولون: هو ذبابٌ، لأنه يقع في القُدور، قال الشاعر:

أتيتُك زائراً لِقضاءِ حَقٌّ ... فحال السّترُ دُونَك والحجابُ
ولستُ بواقعٍ في قِدْرِ قومٍ ... وإن كَرِهوا كما يَقَع الذُّبابُ

وقال آخر:

وأنتَ أخو السّلام وكيف أنتمْ ... ولستَ أخا الملمّاتِ الشّدادِ
وأطفل حين يُجفَى مِن ذُبابٍ ... وألزم حين يُدْعَى مِن قُرادِ

ويكنون عن الجَرَب بحَبّ الشّباب، قال الوزير المهلبيّ:

يا صُروف الدهرِ حَسْبي ... أيّ ذنب كان ذَنْبي!
عِلّة خَصّتْ وعَمّتْ ... في حبيبٍ ومُحبّ
دبٌّ في كفّيه يا مَن ... حبُّهُ دَبَّ بقلْب
فهو يشكو حرَّ حَبٍّ ... وشَكاتي حَرّ حُبّ

ويكنون عن القصير القامة بأبي زبيبة، وعن الطويل بخيط باطل. وكانت كُنْية مروان بن الحكم لأنه كان طويلاً مضطرباً، قال فيه الشاعر:

لحا اللّه قوماً أمّرُوا خَيْط باطلٍ ... على الناس يُعْطي من يَشاءُ ويمنَعُ

---

(1) سورة المائدة، الآية: ١.

وفي خيط باطلٍ قولان: أحدهما أنه الهباء الذي يدخل من ضَوء الشَمس في الكُوّة من البيت، وتسمّيه العامّة غَزْلَ الشَمْس، والثاني أنه الخيْط الذي يَخرُج من فَم العَنْكبوت، وتسمّيه العامّة مُخَاط الشَيطان.

وتقول العرب للملقوّ: لَطِيمُ الشيطان.

وكان لقبُ عَمْرو بن سعيد الأشدق، لأنّه كان مَلْقُوّاً.

وقال بعضهم لآخر: ما حَدَث؟ قال: قَتَل عبد الملك عمْراً، فقال: قتل أبو الذبان لَطِيم الشَّيطان، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾(١).

ويقولون للحزين المهموم: يَعُدّ الحصى، ويَخُطّ في الأرض، ويَقُتّ اليَرْمَع، قال المجنون:

عشيّةَ ما لي حِيلةٌ غيرَ أنّني ... بِلقْط الحَصَى والخطّ في الدار مُولَعُ

أخُطّ وأمْحو كلّ ما قد خطَطْتُه ... بدَمْعِيَ والغِرْبان حَوْلِيَ وُقّعُ

وهذا كالنّادم يَقْرَع السِّنّ، والبخيل يَنكُت الأرض ببَنانه، أو بعُودٍ عند الردّ، قال الشاعر:

عَبيدُ إخوانِهمْ حتى إذا رَكِبوا ... يوم الكَريهةِ فالآسادُ في الأجَمِ

يُرضُون في العُسْر والإيسارِ سائِلَهمْ ... لا يَقرَعون على الأسْنانِ مِن نَدَمِ

وقال آخر في نَكْت الأرض بالعِيدان:

قومٌ إذا نزل الغريب بدارِهمْ ... تَرَكوه رَبَّ صَواهِلٍ وقِيانِ

لا يَنْكُتون الأرض عند سؤالِهمْ ... لتطلّب العَلاّت بالعِيدانِ

ويقولون للفارغ: فؤادُ أمّ موسى.

ويقولون للمُثْري من المال: مُنْقرس، وذلك أنَّ عِلّة النِّقْرِس أكثر ما تَعترِي أهل الثّروة والتنعّم.

حَكى المبرّد، قال: كان الحِرْمازِيّ في ناحية عمرو بن مَسْعدة، وكان يُجْرِي عليه، فخرج عمرُو بن مسعدة إلى الشام، وتخلّف الحِرْمازِيّ ببغدادَ، فأصابه النِّقْرِس، فقال:

أقامَ بأرضِ الشّام فاختلّ جانبي ... ومَطلَبه بالشام غير قريبِ

ولا سيما من مُفْلِسٍ حِلْف نِقرِسٍ ... أما نِقرِسٌ في مُفلِسٍ بِعَجيبِ!

وقال بعضهم يهجو ابن زَيدان الكاتب:

تَواضَع النِّقرِسُ حتى لقد ... صار إلى رِجْلِ ابنِ زَيْدانِ

عِلّةُ إنسانٍ ولكنها ... قد وُجِدَتْ في غير إنسانِ

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٩.

ويقولون للمترَف: رقيقُ النَّعْل، وأصله قولُ النابغة:

رِقاقُ النِّعالِ طيِّبٌ حُجُزاتُهم يُحيَّوْن بالرَّيْحان يومَ السَّباسِب

يعني أنهم ملوكٌ، والملِك لا يخصِف نعله وإنما يخصف نعله من يمشي. وقوله: «طيّب حُجُزاتهم»، أي هم أعِفّاء الفروج، أي يشدّون حُجُزاتهم على عِفّة. وكذلك قولهم: فلانٌ مُسمَط النّعال، أي نعلُه طبقة واحدة غير مَخصوف، قال المَرّار بنِ سَعيد الفقْعَسيّ:

وجَدْتُ بني خفاجةَ في عَقيلٍ كِرامَ الناسِ مُسمَطةَ النِّعالِ

وقريبٌ من هذا قولُ النَّجاشيّ:

ولا يأكلُ الكلبُ السَّروقُ نِعالنا ولا ينتَقِي المُخَّ الذي في الجماجِمِ

يريد أن نعالهم سِبْت، والسِّبْت: جلودُ البقر المدبوغة بالقَرَظ، ولا تقرَبها الكلاب، وإنما تأكل الكلابُ غيرَ المدبوغ، لأنه إذا أصابه المَطَر دسَّمه فصار زَهِماً.

ويقولون للسّيّد: لا يطأ على قَدَم، أي هو يَتقدّم الناسَ ولا يتّبع أحداً فيَطأ على قَدَمه.

ويقولون: قد اخضرّت نِعالهم، أي صاروا في خِصْب وسَعة، قال الشاعر:

يَتّايَهون إذا اخضرّتْ نِعالُهُم وفي الحفيظةِ أبْرامٌ مَضاجِيرُ

وإذا دَعَوا على إنسان بالزَّمانة قالوا: خَلع الله نعليْه، لأنّ المُقعد لا يَحتاجُ إلى نَعْل.

ويقولون: أطفأ الله نورَه، كنايةٌ عن العَمَى وعن المَوْت أيضاً، لأنّ من يموت فقد طَفِئَتْ نارُه.

ويقولون: سقاهُ الله دَم جَوْفه، دُعاءٌ عليه بأن يَقتُل ولدَه، ويُضطَرَّ إلى أخذِ دِيتهِ إبلاً فيَشرَب ألبانَها.

ويقولون: رماه الله بليلةٍ لا أختَ لها، أي ليلة موته، لأنّ ليلَة المَوْت لا أختَ لها.

ويقولون: وَقَعوا في سَلا جَمَل، أي في داهية لا يُرى مِثلُها، لأنّ الجَمل لا سَلا له، وإنما السَّلا للناقة، وهي الجُلَيْدة التي تكون ملفوفةً على وَلَدها.

ويقولون: صارُوا في حُوَلاء ناقَة، إذ صاروا في خِصْب.

وكانوا إذا وَصَفوا الأرض بالخِصْب قالوا: كأنّها حُوَلاء ناقة.

ويقولون لأبناء الملوك والرؤساء ومن يَجري مَجراهُم: جُفاة المَحَزّ، قال الشاعر:

جُفاةُ المَحَزّ لا يُصيبون مِفْصَلاً ولا يأكُلون اللَّحم إلا تَخذُّما

يقول: هم ملوكٌ، وأشباهُ المُلوك لا حِذْقَ لهم بنَحْر الإبل والغَنَم ولا يَعرِفون التّجليد والسَّلْخ، ولهم من يتولّى ذلك عنهم، وإذا لم يَحضُرهم من يَجزُر الجَزور تكلّفوا هُمْ ذلك بأنفسِهم، فلم يُحسِنوا حزَّ المِفصَل كما يَفعَله الجَزّار، وقوله:

ولا يأكُلون اللَّحمَ إلا تَخذُّما

أي ليس بهم شَرَه فإذا أكلوا اللَّحمَ تخذَّموا قليلاً قليلاً، والخَذْم: القَطْع، وأنشد الجاحظ في مِثلِه:

وصُلْعُ الرّؤوسِ عِظامُ البطونِ   جُفاةُ المَحَزّ غِلاظُ القَصَرْ

لأنّ ذلك كلّه أمارات الملوك، وقريبٌ من ذلك قوله:

ليس براعِي إبلٍ ولا غَنَمْ   ولا بجَزّارٍ على ظهرِ وضَمْ

ويقولون: فلانٌ أملَس، يكنُون عمّن لا خَير فيه ولا شَرّ، أي لا يثبُت فيه حمدٌ ولا ذَمّ.

ويقولون: مِلْحُه على رُكْبَتِه، أي هو سيّىء الخُلُق، يُغضِبه أدنى شيء، قال:

لا تَلُمْها إنّها من عُصْبةٍ   مِلحُها موضوعةٌ فوقَ الرُّكَبْ

ويقولون: كنايةً عن مَجوسيّ: هو ممّن يخُطّ على النّمل، والنّمل جمع نَمْلة، وهي قَرْحة بالإنسان، كانت العربُ تَزْعم أنّ المجوسيَّ إذا كان من أختِه وخَطّ عليها بَرَأت، قال الشاعر:

ولا عيبَ فينا غيرَ عِرْقٍ لِمعشَر   كِرامٍ وأنّا لا نَخُطُّ على النَّمْل

ويقولون للصبيّ: قد قُطِفتْ ثمرته، أي خُتِن. وقال عُمارة بنُ عقيل بنِ بلالِ بن جَرير:

ما زال عِصيانُنا للّه يرذُلنا   حتّى دُفِعنا إلى يَحيَى ودِينارِ

إلا عُلَيْجَيْن لم تُقطَف ثِمارُهما   قد طالَما سَجَدَ للشّمس والنار

ويقولون: قِدْر حليمة، أي لا غَلَيَانَ فيها.

ويقولون لمن يصلّي صلاةً مختصَرة: هو راجزُ الصّلاة.

وقال أعرابيٌّ لرجل رآه يصلّي صلاةً خفيفة: صلاتُك هذه رَجَز.

ويقولون: فلانٌ عفيفُ الشَّفَة، أي قليلُ السّؤال، وفلانٌ خفيفُ الشفة، كثيرُ السؤال.

وتكنى العَرب عن المتيقّظ بالقُطاميّ، وهو الصَّقْر:

ويَكنُون عن الشّدّة والمَشقّة بعَرَق القِرْبة، يقولون: لقيتُ من فلانٍ عَرَقَ القِرْبَة، أي العَرَق الّذي يَحدُث بك من حَمْلها ونقلها، وذلك لأنّ أشدَّ العمل كان عندهم السَّقْي وما ناسَبَه من معالجة الإبل.

وتكني العَرب عن الحَشَرات وهَوامّ الأرض بجُنودِ سَعْد، يَعنُون سعدَ الأخبية، وذلك لأنّه إذا طَلَع انتشرتْ في ظاهِر الأرض، وخرج منها ما كان مستتِراً في باطنها، قال الشاعر:

قد جاء سعدٌ مُنذِراً بحرِّهِ   مُوعِدَةً جُنودُه بشَرِّهِ

ويَكني قومٌ عن السائلين على الأبواب بحُفّاظ سورة يوسف عليه السلام، لأنهم يعتَنون بحِفْظها دونَ غيرها، وقال عُمارة يهجُو محمّد بنَ وُهَيب:

تَشَبّهتَ بالأعراب أهلِ التَعجْرُفِ   فدَلّ على ما قلتَ قُبحُ التكلُّفِ

لســانٌ عِـراقـيٌّ إذا مـا صَـرَفْـتَـه ... إلـى لـغـةِ الأعـراب لـم يـتـصـرَّفِ
ولـم تَـنْـسَ ما قد كـان بـالأمـس حـاكـه ... أبـوكَ وعُـودُ الـجَـفّ لـم يـتـقـصَّـفِ
لـئن كـنـتَ لـلأشـعـار والـنحـوِ حـافـظاً ... لـقـد كـان مـن حُـفّـاظ سـورة يـوسـفِ

ويَكنُون عن اللّقيط بتربيةِ القاضي، وعن الرّقيب بثاني الحَبيب، لأنّه يُرَى معه أبداً، قال ابنُ الرّومي:

مَـوقِـفٌ لـلـرّقـيـب لا أنـسـاهُ ... لـسـتُ أخـتـاره ولا آبـاهُ
مـرحـبـاً بـالـرّقـيـب مـن غـيـر وَعْـدٍ ... جـاء يَـجْـلـو عـلـيَّ مَـن أهـواهُ
لا أُحِـبُّ الـرقـيـبَ إلّا لأنّـي ... لا أرَى مـن أُحِـبّ حـتّـى أراهُ

ويَكنُون عن الوَجْه المَليح بحُجّة المُذنِب، إشارة إلى قول الشاعر:

قـد وجـدْنـا غـفـلـةً مـن رَقـيـبِ ... فـسَـرَقْـنـا نـظـرةً مِـن حَـبـيـبِ
ورأيْـنـا ثـمّ وَجْـهـاً مَـلـيـحـاً ... فـوَجَـدْنـا حُـجّـةً لـلـذّنـوبِ

ويَكنُون عن الجاهل ذي النّعمة بحُجّة الزّنادقة، قال ابنُ الروميّ:

مَـهْـلاً أبـا الـصَّـقْـر فـكـم طـائـرٍ ... خَـرَّ صـريـعـاً بـعـد تَـحْـلـيـقِ
لا قُـدّسـتْ نُـعـمَـى تَـسـربَـلْـتَـهـا ... كـم حُـجّـةٍ فـيـهـا لـزِنْـديـقِ!

وقال ابنُ بَسام في أبي الصَّقْر أيضاً:

يـا حُـجّةَ الـلّـه فـي الأرزاقِ والـقِـسَـمِ ... وعـبـرةً لأولـي الألـبـاب والـفـهـمِ
تـراكَ أصـبـحـتَ فـي نَـعـماءِ سـابـغـة ... إلاّ وربُّـك غَـضْـبـانٌ عـلـى الـنِّـعَـمِ

فهذا ضد ذلك المقصد، لأنّ ذاكَ جَعلَه حُجّةً على الزَّنْدَقةِ، وهذا جَعلَه حجّة على قُدْرة الباريء سبحانه على عجائِب الأمور وغرائِبها، وأن النِّعم لا قَدْر لها عندَه سبحانه، حيث جَعَلَها عند أبي الصّقر مع دناءة منزِلته. وقال ابن الرّوميّ:

وقَـيْـنـةٍ أبـرَدُ مـن ثَـلْـجَـةْ ... تَـبـيـتُ مـنـهـا الـنـفـسُ فـي ضَـجّـةْ
كـأنـهـا مـن نـتـنـهـا صَـخْـةٌ ... لـكـنّـهـا فـي الـلّـون أُتـرُجّـةْ
تـفـاوتـتْ خِـلـقـتُـهـا فـاغـتـدَتْ ... لـكـلّ مَـنْ عُـطّـل مُـحْـتَـجّـةْ

وقد يُشابه ذلك قولَ أبي عليّ البَصير في ابن سعدان:

يـابـنَ سَـعـدانَ أجْـلَـحَ الـرِّزْقُ فـي أمـ ... ـرِكَ واسـتـحـسـن الـقـبـيـح بـمَـرّةْ
نـلـتَ مـا لـم تـكـن تَـمَـنّـى إذا مـا ... أسـرَفـت غـايـةُ الأمـانـيّ عـشـرةْ
لـيـس فـيـمـا أظـنّ إلّا لـكَـيْـلا ... يُـنـكِـر الـمُـنـكِـرون لِـلّـه قَـدْرَةْ

وللمفجّع في قريب منه:

إن كنتُ خُنتُكم المودّة غادِراً أو حُلْتُ عن سَنَن المحبّ الوامِقِ

فمُسِخْت في قُبْح ابنِ طَلْحة إنّه ما دلّ قطّ على كمال الخالِق

ويقولون: عَرَض فلانٌ عليّ الحاجة عَرْضاً سابِرياً، أي خفيفاً من غير استقصاء، تشبيهاً له بالثّوب السَّابِريّ، والدِّرْع السابريّة، وهي الخفيفة.

ويُحكَى أن مرتدّاً مَرَّ على قوم يأكلون وهو راكبٌ حِماراً، فقالوا: انزل إلينا، فقال: هذا عَرْضٌ سابِرِيّ، فقالوا: انزل يابن الفاعِلة. وهذا ظَرْفٌ ولبَاقة.

ويقولون في ذلك: وعدٌ سابِرِيّ، أي لا يُقرَن به وَفاء، وأصلُ السابِرِيّ، اللّطيف الرّقق.

وقال المبرِّد: سألتُ الجاحِظ: من أشعَر المولَّدين؟ فقال: القائل:

كأنّ ثِيابَه أطْلَعـ ـن من أزراره قمرَا

يزيدُك وجهُه حُسْناً إذا ما زدْتَه نَظَرا

بعَينٍ خالَط التفْتـ ـيرُ في أجفانِها الحَوَرا

ووجهٍ سابِرِيٍّ لو تَصوَّبَ ماؤه قَطَرا

يعني العبّاسَ بنَ الأحنف.

وتقول العرب في معنى قولِ المحدّثين: عَرض عليه كذا عَرْضاً سابِريًّا: عَرَض عليه عَرْضَ عالّة، أي عَرْض الماء على النّعم العالّة الّتي قد شَرِبتْ شُرْباً بعدَ شُرْب، وهو العَلَل، لأنّها تُعرَض على الماء عَرْضاً خفيفاً لا تبالغ فيه.

ومن الكنايات الحسنة قولُ أعرابية قالت لقيس بن سعد بن عُبادة: أشكو إليك قِلّة الجِرْذان في بيتي، فأستَحسَن منها ذلك، وقال لأكثرنّها، املؤوا لها بَيتَها خُبْزاً وتَمْراً وسَمْناً وأقِطاً ودَقيقاً.

وشبيهٌ بذلك ما رُوِي أنّ بعض الرؤساءِ سايَرَه صاحبٌ له على بِرْذَون مَهْزول، فقال له: ما أشدَّ هُزالَ دابّتك! فقال: يدُها مع أيْدِينا، ففطن لذلك ووَصَله.

وقريبٌ منه ما حُكِيَ أنّ المنصور قال لإنسان: ما مالُك؟ قال ما أصونُ به وَجْهي، ولا أعودُ به على صَدِيقي، فقال: لقد تلطّفْتَ في المسألة، وأمَر له بصِلَة.

وجاء أعرابيٌّ إلى أبي العبّاس ثَعْلب وعنده أصحابُه، فقال له: ما أراد القائلُ بقوله:

الحمدُ لله الوَهُوب المَنّانْ صارَ الشريد في رؤوس القُضْبانْ

فأقبَل ثَعلَب على أهل المجلس فقال: أجيبوه، فلم يكن عندهم جواب، وقال له نِفْطَوَيْه: الجواب منكَ يا سيّدي أحسَن، فقال: على أنّكم لا تَعلَمونه! قالوا: لا نَعلَمه، فقال الأعرابيّ،

قد سمعتُ ما قال القوم، فقال: ولا أنتَ أعزّكَ الله تَعلَمه، فقال ثعلب: أرادَ أن السُّنْبل قد أفرَك، قال: صدقتَ فأينَ حقّ الفائدة؟ فأشار إليهم ثعلَب، فبرُّوه، فقام قائلاً: بوركتَ من ثعلب، ما أعظَم برَكَتك!.

ويَكنُون عن الشَّيْب بغُبار العَسْكر، وبرغْوَة الشّباب، قال الشاعر:

قالت أرَى شَيباً براسِك، قلتُ لا ... هذا غبارٌ من غُبار العَسْكرِ

وقال آخَر - وسمّاه غُبارَ وقائِع الدّهر:

غَضِبت ظَلُوم وأزمعتْ هَجري ... وصَبَتْ ضمائرُها إلى الغَدْرِ

قالت أرَى شَيْباً فقلت لها: ... هذا غُبارُ وقائِع الدَّهرِ

ويقولون للسّحاب: فَحْل الأرض.

وقالوا: القلم أحدُ اللِّسانَين، ورداءَة الخَلْط أحدُ الزَّمانتين.

قال: وقال الجاحظ: رأيت رجلاً أعمَى يقول في الشّوارع وهو يَسأل: ارحموا ذَا الزَّمانتَين، قلتُ: وما هما؟ قال: أنا أعمى وصَوْتي قَبيح. وقد أشارَ شاعرٌ إلى هذا فقال:

اثنانِ إذا عُدّا ... حقيقٌ بِهِمَا المَوْتُ

فقيرٌ مالَه زُهْدٌ ... وأعمَى ما لَه صَوْتُ

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «إيّاكم وخَضراء الدِّمَن»، فلما سُئِل عنها قال: «المرأةُ الحَسْناء في المَنبِت السّوء»[1].

وقال عليه السلام في صُلحِ قومٍ من العرب: «إنّ بيننا وبينهم عَيْبة مكفوفة»، أي لا نكشفُ ما بيننا وبينهم من ضِغْن وحِقْد ودَم.

وقال عليه السلام: «الأنصارُ كَرِشي وعَيْبتي»، أي موضعُ سِرّي. وَكَرِشي: جَماعَتي.

ويقال: جاءَ فلانٌ رَبِذ العِنان، أي مُنهزماً.

وجاءَ ينفض مِذْرَوَيه، أي يتوعّد من غيرِ حقيقة.

وجاء يَنظُر عن شِماله، أي مُنهزِماً.

وتقول: فلانٌ عندي بالشِّمال، أي منزلَتُه خَسِيسة. وفلانٌ عندي باليَمين، أي بالمنزلة العُلْيا، قال أبو نُوَاس:

أقولُ لناقتي إذ بَلّغَتْني ... لقد أصبحتِ عندِي باليَمينِ

---

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (١٥٣٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٩٥٧)، وابن حجر في «التلخيص الحبير» (١٤٨١).

فلم أجعلكِ لِلغِرْبانِ نَهْباً ولم أقْلِ اشرَقِي بدَم الوَتين
حَرُمتِ على الأزِمّة والوَلايا وأعلاقِ الرّحالة والوَضِين

وقال ابن مَيّادة:

أبيني أفي يُمْنَى يَدَيكِ جَعَلتِني فأفرَح أم صيّرتني في شِمالِكِ!

وتقول العرب: التَقَى الثريّان في الأمْرَين يأتلِفان ويتّفقان، أو الرّجلين، قال أبو عبيدة: والثرَى: التّراب النّديّ في بطن الوادي، فإذا جاء المطر وسَحّ في بَطْن الوادي حتّى يَلتقي نَداه والنّدى الّذي في بطن الوادي يقال: الْتقى الثريّان.

ويقولون: هم في خيرٍ لا يُطَيّر غُرابُه، يريدون أنّهم في خيرٍ كثير وخِصْب عَظيم فيَقَع الغراب فلا يُنفَّر لكثرة الخِصْب.

وكذلك أمرٌ لا يُنادى وليدُه، أي أمرٌ عظيم يُنادى فيه الكبارُ دونَ الصّغار.

وقيل: المرادُ أنّ المرأة تَشتغِل عن وليدِها فلا تنادِيه لِعَظم الخَطْب، ومن هذا قولُ الشّاعر يصِف حَرْباً عظيمة:

إذا خَرِسَ الفَحْلُ وَسْط الحجُورِ وصاحَ الكِلابُ وعَقّ الوَلَدْ

يريد أنّ الفحل إذا عاين الجيشَ، والبارقةَ لم يلتفتْ لَفْت الحُجور ولم يَصهَل، وتَنبح الكلابُ أربابَها، لأنّها لا تَعرفهم للبسهم الحديد، وتَذهَل المرأةُ عن ولَدِها رعباً، فجعل ذلك عُقوقاً.

ويقولون: أصبحَ فلانٌ على قَرْن أعفَر، وهو الظَّبْي إذا أرادوا أصْبَح على خَطَر، وذلك لأنّ قَرْن الظّبي ليس يَصلُح مكاناً، فمن كان عليه فهو على خَطَر قال امرؤ القَيْس:

ولا مِثْل يومٍ بالعظالَى قَطعتُه كأنّي وأصحابي على قَرْن أعفَرا

وقال أبو العَلاء المَعَريّ:

كأنّني فوقَ رَوْق الظَّبْي من حَذَر

وأنشَدَ ابنُ دريد في هذا المعنى:

وما خيرُ عَيْشٍ لا يزال كأنّه محلّة يَعْسوبٍ برأسِ سِنانِ

يَعني من القلق وأنّه غيرُ مطمئِنّ.

ويقولون: به داءُ الظَّبْي، أي لا داءَ به، لأنّ الظّبي صحيحٌ لا يزال، والمَرَض قلّ أن يَعتريَه.

ويقولون للمتلوّن المختلف الأحوال: ظلّ الذّئب، لأنّه لا يزل مرّةً هكذا ومرّة هكذا.

ويقولون: به داءُ الذّئب، أي الجُوع.

وعهدُ فلان عهدُ الغُراب، يَعنُون أنّه غادر، قالوا: لأنّ كلّ طائر يألَفُ أنثاه إلّا الغراب، فإنّه إذا باضَتْ الأنثى تَرَكَها وصار إلى غيرِها.

ويقولون: ذهب سَمْعَ الأرض وبصَرَها، أي حيثُ لا يُدرَى أين هو!

وتقولون: أَلقَى عصاه، إذا أقامَ وأستقرّ، قال الشاعر:

فألقتْ عَصَاها واستقرَّ بها النَّوَى ... كما قَرّ عَيْناً بالإيابِ المُسافِرُ

ووقَع القضيبُ من يَدِ الحجّاج وهو يَخطُب، فتطيّر بذلك حتّى بانَ في وَجْهه، فقام إليه رجلٌ فقال: إنّه ليس ما سَبَق وهْم الأميرِ إليه، ولكنّه قولُ القائل، وأنشدَه البيت، فسُرِّيَ عنه.

ويقال للمختلِفين: طارت عَصاهمْ شِقَقاً.

ويقال: فلانٌ منقطِع القَبَال، أي لا رَأيَ له.

وفلان عريضُ البِطان، أي كثيرُ الثرْوة.

وفلانٌ رخيُّ اللبّ، أي في سَعَة.

وفلانٌ واقعُ الطائر، أي ساكنٌ.

وفلانٌ شديدُ الكاهل، أي مَنِيع الجانبِ.

وفلانٌ يَنظُر في أعقابِ نَجْم مُغرّب، أي هو نادِم آيس، قال الشاعر:

فأصبحتُ من ليلَى الغَداة كناظرٍ ... مع الصّبحِ في أعقابِ نجمِ مغرّبِ

وسُقِط في يدِه، أي أيقَن بالهَلَكة.

وقد ردَدْتُ يدَه إلى فيه، أي منعتُه من الكلام.

وبنو فلان يدٌ على بني فلان، أي مجتمِعون.

وأعطاه كذا عن ظَهْر يد، أي ابتداءً لا عن مُكافأة.

ويقولون: جاء فلانٌ ناشراً أُذُنَيه، أي جاء طامِعاً.

ويقال: هذه فرسٌ غيرُ محلِفة، أي لا تحوج صاحبَها إلى أن يَحلِفَ أنها كريمة، قال:

كُميتٌ غيرُ محلِفةٍ ولكنْ ... كلَوْن الصّرف عُلَّ به الأديمُ

وتقول: حَلَبَ فلانٌ الدهر أشطُرَه، أي مَرّت عليه صُروبه خيرُه وشَرُّه.

وقَرع فلانٌ لأمرٍ ظُنْبوبَه، أي جدّ فيه واجتهد.

وتقول: أبدَى الشرّ نواجِذَه، أي ظهر.

وقد كَشفت الحربُ عن ساقِها، وكشرتْ عن نابها.

وتقول: استَنْوَق الجَمَلُ، يقال ذلك للرّجل يكون في حديث ينتقل إلى غيره يَخلِطه به.

وتقول لمن يهون بعد عِزّ: اسْتَأْتَن العَيْر.

وتقول للضّعيف يَقوَى: اسْتَنْسر البُغاث.

ويقولون: شرابٌ بأنقُع، أي مُعاود للأمور، وقال الحجاج: يا أهل العِراق، إنكم شرّابون بأنقع، أي معتادون الخير والشرّ. والأنقع: جمع نَقْع، وهو ما استُنقِع من الغُدْران، وأصلُه في الطائر الحِذر يَرِدُ المناقِع في الفَلوات حيث لا يبلُغه قانِص، ولا ينصب له شَرَك.

خبر عن امرئ القيس

ونختم هذا الفصل في الكنايات بحكاية رواها أبو الفرج عليّ بنُ الحسين الأصبهاني، قال أبو الفرج: أخبَرَني محمد بنُ القاسم الأنباريّ، قال: حدثني ابنُ عمّي، قال: حدثنا أحمد بن عبد اللّه، عن الهيْثَم بن عَدِيّ. قال: وحدثني عمّي، قال: حدثنا محمد بن سعد الكرانيّ، قال: حدّثنا العُمَريّ، عن الهيْثم بنِ عَدِيّ، عن مجالِد بن سعيد، عن عبد الملك بن عمير، قال: قَدِم علينا عمرُ بن هُبَيرة الكوفة أميراً على العِراق، فأرسَلَ إلى عشرةٍ من وجوهِ أهل الكوفة أنا أحدُهم، فَسِرْنا عنده، فقال: ليُحدّثني كلّ رجل منكم أحدوثةً وابدأ أنت يا أبا عمرو، فقلت: أصلح الله الأمير! أحديث حَقّ أم حديث باطل؟ قال: بل حديث حَقّ. فقلتُ: إنّ امرأ القيْسِ كان آلَى ألِيّةً ألّا يتزوّج امرأةً حتى يسألها عن ثمانيةٍ وأربعةٍ واثنتين، فجعل يَخْطُب النّساء، فإذا سألهنّ عن هذا قلن: أربعة عشر، فبينا هو يسيرُ في جوف الليل إذا هو برجل يَحمِل ابنةً صغيرة له كأنها البَدْر لتمّه، فأعجبتْه، فقال لها: يا جارية، ما ثمانية، وأربعة، واثنتان؟ فقالت: أما ثمانية فأطْباء الكلبة، وأما أربعة: فأخلافُ الناقة، وأما اثنتان فثَدْيا المرأة، فخطبها إلى أبيها، فزوّجه إياها وشَرَطتْ عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال، فجعل لها ذلك، وعلى أن يَسُوق إليها مائةً من الإبل، وعشرة أعبد، وعَشْر وصائف، وثلاثة أفراس، ففعل ذلك، ثم بعث عبداً إلى المرأة، وأهدى إليها معه نِحياً من سَمْن ونِحْياً من عَسَل وحُلّة من عَصْب، فنزل العَبْد على بعض الماء، ونَشَر الحلّة فلبِسها فتعلقتْ بسَمُرة فانشقّت، وفَتح النِّحيين فأطعم أهل الماء منهما فنقصا، ثم قَدِم على المرأة وأهلُها خُلُوف فسألها عن أبيها وأمّها وأخيها، ودفع إليها هديتَها، فقالت: أعْلِمْ مولاك أنّ أبي ذهب يقرّب بعيداً، ويبعّد قريباً، وأن أمّي ذهبت تشُقّ النفس نَفْسَين، وأنّ أخي ذَهَب يُراعي الشمس، وأنّ سماءَكم انشقّت، وأن وعاءَيكم نضبا.

فقدِم الغلام على مولاه، فأخبَرَه فقال: أما قولها: إنّ أبي ذهب يُقرِّب بعيداً، ويبعِّد قريباً، فإنّ أباها ذهب يُحالف قوماً على قومه، وأمّا قولها: إن أمي ذهبتْ تَشُقّ النفس نفسين، فإن أمّها ذهبتْ تَقْبَل امرأةً نُفَساء. وأمّا قولها: إنّ أخي ذَهَب يُراعي الشمس، فإن أخاها في سَرْح له يَرْعاه، فهو ينتظر وجوب الشمس ليروحَ به، وأما قولها: إن سماءكم انشقّتْ، فإن البُرْد الذي بعثت به انشقّ، وأما قولها إنّ وعاءَيكم نَضَبا فإن النِّحْيَين اللّذين بعثت بهما نَقَصا، فاصْدُقْني. فقال: يا مولاي، إني نزلتُ بماءٍ مِن مياهِ العَرَب، فسألوني عن نَسَبي فأخبرتهم أني ابن عمّك،

ونشرتُ الحُلّة ولبستُها وتجمّلت بها، فتعلقتْ بسمُرة فانشقَّت، وفتحتُ النّحْيين فأطعمتُ منهما أهل الماء، فقال: أَوْلَى لك! ثمّ ساق مائةً من الإبل، وخرج نحوها ومعه العَبْد يسقي الإبل، فعَجَز، فأعانه امرؤ القيس، فرمى به العبد في البئر، وخرج حتى أتى إلى أهل الجارية بالإبل، فأخبرَهم أنه زَوْجُها، فقيل لها: قد جاء زوجُكِ، فقالت: والله ما أدري أزَوْجي هو أم لا! ولكن انحَرُوا له جَزُوراً وأطعِمُوه من كرشِها وذنبها، ففعلوا، فأكل ما أطعموه، فقالت: اسقوه لَبَناً حازراً وهو الحامضُ - فسَقَوْه فشرب، فقالت: افرشوا له عند الفَرْث والدم، فَفَرَشوا له، فنام فلما أصبحت أرسلت إليه: إني أريدُ أن أسألَك، فقال لها: سَلِي عمّا بَدا لَكِ، فقالت: مِمّ تختلج شفتاكَ؟ قال: مِنْ تقبِيلي إيّاك، فقالت: مِمّ يَختلج كَشْحاك، قال: لالتزامي إياك، قالت: فممّ يختلج فَخِذاك؟ قال: لتورّكي إيّاك، فقالت عليكم العبد فَشُدُّوا أيديَكم به، ففعلوا.

قال: ومرّ قوم فاستخرجوا امرأ القيس من البئر، فرَجَع إلى حَيِّه وساق مائةً من الإبل، وأقبل إلى امرأتِه فقيل لها: قد جاء زَوْجك، فقالت: والله ما أدري أزَوجي هو أم لا! ولكن انحروا له جَزُوراً، وأطعِمُوه من كَرِشها وذَنبها، ففعلوا، فلما أتَوْه بذلك قال: وأين الكبد والسَّنام والمَلْحاء، وأبى أن يأكل، فقالت اسقوه لَبَناً حازِراً، فأُتي به، فأبى أن يشربه، وقال: فأين الضَّرِيب والرَّثيئة؟ فقالت: افرشوا له عند الفَرْث والدم، ففرشوا له، فأبى أن ينام، وقال: افرشوا لي عند التلعة الحمراء، واضربوا لي عليها خِباءً، ثم أرسلت إليه: هلمّ شَريطتي عليك في المسائل الثلاث، فأرسل إليها أنْ سَلِي عمّا شِئتِ، فقالت: مم تختلِج شَفَتاك؟ فقال: لِشُربي المُشَعشعات، قالت: فمم يختلج كَشحاك؟ قال: للبسي الحِبَرات. قالت: فممّ تختلج فخذاك؟ قال: لرَكْضي المُطهّمات، فقالت: هذا زَوْجي لعمري، فعليكم به. فأهديَتْ إليه الجارية.

فقال ابن هُبيرة: حَسبكم، فلا خير في الحديث سائر الليلة بعد حديث أبي عمرو، ولن يأتيَنا أحدٌ منكم بأعجب منه، فانصرَفْنا وأمَرَ لي بجائزة.

- ٤٧٦ -

الأصل: وقالَ عَلَيْهِ السَّلامُ في كلامٍ لهُ: ووَلِيَهُمْ والٍ فأقامَ واستَقامَ، حَتَّى ضَرَبَ الدِّينُ بِجِرَانِهِ.

الشرح: الجِران: مقدَّم العُنُق، وهذا الوالي هو عمرُ بنُ الخَطاب.

وهذا الكلامُ من خُطْبةٍ خَطبها في أيّام خلافته طويلةٍ، يذكر فيها قُرْبه من النبيّ صلى الله عليه وآله واختصاصه له، وإفضاءَه بأسراره إليه، حتى قال فيها:

فاختار المسلمون بعده بآرائهم رجلاً منهم، فقارَبَ وسَدّد حَسَب استطاعته على ضعْفٍ وَحدّ كانا فيه، وليهم بعده وَالٍ، فأقامَ واستقامَ حتى ضَرَب الدِّينُ بِجرانه، على عَسْف وعَجْرَفيّة كانا فيه، ثمَّ اختلفوا ثالثاً لم يكن يملك من أمر نفسه شيئاً، غَلَب عليه أهلُه فقادوه إلى أهوائهم كما تقود الوليدةُ البعير المخْطوم، فلم يزل الأمرُ بينه وبين الناس يَبعُد تارة ويقرُب أخرى حتى نزَوْا عليه فَقَتَلوه، ثم جاؤوا بي مَدَبّ الدَّبا، يريدون بَيْعتي.

وتمام الخطبة معروف، فليطلب من الكُتُب الموضوعة لهذا الفن.

- ٤٧٧ -

الأصل: وقال عليه السلام: يأتِي على النَّاس زَمانٌ عَضُوضٌ، يَعَضُّ المُوسِرُ فيهِ على ما في يَدَيْهِ، ولَمْ يُؤْمَر بِذَلِكَ، قال اللّهُ سُبْحانَهُ: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾(١)، يَنْهدُ فِيهِ الأشْرَارُ، ويُسْتَذَلُّ الأخْيارُ، ويُبايعُ المُضطَرُّونَ، وقَدْ نَهى رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وآله عَنْ بَيْعِ المُضطَرِّينَ.

الشرح: زمانٌ عَضُوض، أي كلِبٌ على النّاس، كأنه يَعَضهم، وفَعول للمبالَغة، كالنُّفور العَقوق، ويجوز أن يكون من قولهم بئرٌ عَضُوض، أي بعيدةُ القَعْر ضَيّقة، وما كانت البئر عَضُوضاً، فأعضّت كقَوْلهم: ما كانت جَرُوراً فأجرّت، وهي كالعَضوض.

وعَضّ فلانٌ على ما في يده أي بَخِل وأمسك.

وينهد فيه الأشرار، ينهضون إلى الولايات والرّياسات، وترتفع أقدارُهم في الدنيا. ويُستَذَلّ فيه أهْل الخيْر والدِّين، ويكون فيه بَيْعٌ على وجه الاضطرار والإلجاء، كمن يبيعُ ضَيْعَته، وهو ذليل ضعيف، من ربِّ ضَيْعةٍ مجاورة لها ذي ثَرْوة وعِزّ وجاه فيلجِئه بمَنعه الماء واستذلاله الأكرةَ والوكيل إلى أن يبيعها عليه، وذلك منهيٌ عنه، لأنه حرامٌ مَحْض.

- ٤٧٨ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: يَهْلِكُ فِيَّ رَجُلان: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ، وباهِتٌ مُفْتَرٍ.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.

قالَ الرَّضيّ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: وهذَا مِثلُ قوْلِه عليه السلام: يَهْلِكُ فِيّ اثْنان: مُحِبٌّ غالٍ، ومُبْغِضٌ قالٍ.

الشرح: قد تقدّم شرحُ مِثلِ هذا الكلام، وخلاصة هذا القول: أن الهالك فيه المفرِط والمفرّط، أما المُفرِط فالغُلاة، ومن قال بتكفير أعيان الصّحابة ونِفاقِهم أو فِسْقهم، وأما المفرّط فمن استنقص به عليه السلام أو أبغَضَه أو حارَبَه أو أضمَر له غِلاًّ، ولهذا كان أصحابُنا أصحاب النّجاة والخلاص والفَوْز في هذه المسألة، لأنهم سَلَكوا طريقةً مقتصدة، قالوا: هو أفضل الخَلْق في الآخرة، وأعلاهُم منزلةً في الجنّة، وأفضل الخَلق في الدنيا، وأكثرهم خصائص ومزايًا ومناقب، وكلّ من عاداه أو حاربه أو أبغَضَه فإنه عدوٌّ لله سبحانه وخالدٌ في النار مع الكفّارِ والمنافقين، إلا أن يكون ممن قد ثبتتْ توبتُه، ومات على تولّيه وحُبِّه.

فأما الأفاضلُ مِن المهاجرين والأنصار الذين وَلُوا الإمامَة قبله فلو أنّه أنكر إمامَتهم وغضب عليهم، وسخط فعلهم، فضلاً عن أن يُشهِر عليهم السيف، أو يدعو إلى نفسه، لقُلْنا: إنهم من الهالكين، كما لو غضب عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله، لأنه قد ثبَت أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له: «حربُك حَرْبي، وسَلْمك سَلْمي»[1]، وأنه قال: «اللهم والِ مَن ولاه، وعاد من عاداه»[2]، وقال له: «لا يُحبُّك إلّا مُؤمن، وَلا يبغضك إلّا مُنافِق»[3]، ولكنا رأيناه رضيَ إمامَتَهم وبايعهم وصلى خلفهم وأنكحهم وأكل من فيئهم، فلم يكن لنا أن نتعدّى فعله، ولا نتجاوز ما اشتهر عنه، ألا ترى أنه لما برىء من معاوية برئْنا منه، ولمّا لَعَنه لعنّاه، ولمّا حَكم بضلال أهل الشام ومن كان فيهم من بقايا الصّحابة كعَمْرو بن العاص وعبد الله ابنه وغيرهما حكمنا أيضاً بضلالهم!

والحاصل أنا لم نَجْعل بينه وبين النبي صلى الله عليه وآله إلّا رتبة النبوّة، وأعطيناه كلّ ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبنيه، ولم نَطعَن في أكابر الصحابة الذين لم يصحّ عندنا أنه طعن فيهم، وعاملْناهم بما عامَلَهم عليه السلام به.

---

(١) ينابيع المودة: ١/ ١٧٢ - ٢٥٣، والشيعة في الفريقين: ٣٩ - ٤١ - ٢٠٥.

(٢) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٤٥٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٩٣١)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣٧٠) والطبراني في «الكبير» (٤٩٦٩).

(٣) أخرجه مسلم في «الإيمان» (٧٨)، والنسائي في الإيمان وشرائعه، باب: علامة الإيمان (٥٠١٨)، وأحمد في «مسنده» (٧٣٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٩٢٤). والترمذي في «المناقب» (٣٧٣٦)، والحميدي في «مسنده» (٥٨).

في التفضيل بين الصحابة

والقول بالتفضيل قولٌ قديم، قد قال به كثيرٌ من الصحابة والتابعين، فمن الصحابة عمّار، والمِقْداد، وأبو ذَرّ، وسلمان، وجابر بن عبد الله، وأبيّ بنُ كعْب، وحذيفة، وبُرَيدة، وأبو أيّوب، وسهل بن حُنَيف، وعثمان بن حنيف، وأبو الهيْثم بن التّيهان، وخزيمة بن ثابت، وأبو الطُّفيل عامر بن واثلة: والعباس بن عبد المطلب وبنوه، وبنو هاشم كافةً، وبنو المطلب كافةً.

وكان الزبيرُ من القائلين به في بدء الأمر، ثم رجع، وكان من بني أميّة قومٌ يقولون بذلك، منهم خالدُ بنُ سعيد بن العاص، ومنهم عمرُ بنُ عبد العزيز.

وأنا أذكر ها هنا الخبر المرويَّ المشهور عن عُمَر، وهو من رِواية ابن الكلبيّ، قال: بينا عمر بن عبد العزيز جالساً في مجلسه، دخل حاجِبُه ومعه امرأةٌ أدْماء طويلةٌ حَسَنَة الجسم والقامة، ورجُلان متعلّقان بها، ومعهم كتابٌ من مَيْمونِ بن مِهران إلى عمر، فدفعوا إليه الكتاب، ففضّه فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم. إلى أمير المؤمنين عمر بنِ عبد العزيز، من ميمون بنِ مِهْرَان، سلامٌ عليكَ ورحمةُ الله وبركاته، أمّا بعد، فإنه وَردَ علينا أمرٌ ضاقَتْ به الصّدور، وعجزتْ عنه الأوْساع، وهربْنا بأنفسِنا عنه، ووَكَلْناه إلى عالِمِه، لقولِ الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[1]، وهذه المرأة والرّجلان أحدهما زَوْجها والآخر أبوها، وإنّ أباها يا أميرَ المؤمنين زَعَم أنّ زوجَها حَلَف بطلاقها أنّ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام خيرُ هذه الأمّة وأوْلاها برسولِ الله صلّى الله عليه وآله، وأنّه يَزعُم أن ابنَته طلقتْ منه، وأنه لا يجوز له في دِينِه أن يتّخذه صِهْراً، وهو يَعلَم أنّها حرامٌ عليه كأمِّه. وإنّ الزّوْج يقول له: كذبتَ وأثِمْتَ، لقد بَرّ قَسَمي، وصدَقتْ مقالَتِي، وإنّها امرأتي على رَغْم أنفِك، وغَيْظ قلبِك، فاجتَمعوا إليّ يختصِمون في ذلك، فسألتُ الرجلَ عن يَمينِه، فقال: نعم، قد كان ذلك، وقد حلفتُ بطَلاقِها أنّ عليًّا خيرُ هذه الأمّة وأوْلاها برسولِ الله صلّى الله عليه وآله، عرَفه من عَرَفه، وأنكَرَه من أنكرَه، فليَغْضَب من غَضِب، وليَرْضَ من رَضِي، وتَسامعَ الناسُ بذلك، فاجتَمعوا له، وإن كانت الألسنُ مجتمِعةً فالقلوب شَتّى، وقد علمتَ يا أميرَ المؤمنين اختلافَ النّاس في أهوائهم، وتسرّعهم إلى ما فيه الفِتْنة، فأحجَمْنا عن الحُكْم لتَحكُم بما أراكَ الله. وإنهما تعلّقَا بها، وأقسَم أبوها ألا يَدَعَها معه، وأقسَم زَوْجها ألّا يفارقَها ولو ضُرِبتْ عُنقُها إلّا

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٣.

أن يحكُم عليه بذلك حاكم لا يَستطيع مُخالَفته والامتناعَ منه، فرفعناهمْ إليك يا أمير المؤمنين، أحسن الله توفيقَك وأرْشَدَك!. وكَتَب في أسفلِ الكتاب:

إذا مـا الـمُـشـكِـلاتُ ورَدْن يَـومـاً ... فـحـارَتْ فـي تـأمُّـلِـهـا الـعُـيـونُ

وضـاقَ الـقـومُ ذَرْعـاً عـن نـبـاهَـا ... فـأنـتَ لـهـا أبـا حـفـصٍ أمـيـنُ

لأنـك قـد حَـوَيْـتَ الـعِـلـمَ طُـرًّا ... وأحـكَـمَـكَ الـتـجـارِبُ والـشُّـؤونُ

وخَـلَّـفـكَ الإلٰـه عـلـى الـرّعـايَـا ... فَـحـظُّـك فـيـهـمُ الـحَـظّ الـثّـمـيـنُ

قال: فجمعَ عمرُ بنُ عبدُ العزيز بني هاشم وبني أميّة وأفخاذ قُرَيش، ثم قال لأبي المرأة: ما تقول أيّها الشيخ؟ قال: يا أمير المؤمنين، هذا الرجلُ زوّجْتُه ابنتي، وجهّزْتُها إليه بأحسَن ما يجهَّز به مِثْلُها، حتى إذا أمّلت خيرَه، ورجوتُ صلاحَه، حلَف بطلاقها كاذِباً، ثم أراد الإقامةَ معها، فقال له عمر: يا شيخ، لعلّه لم يُطلّق امرأتَه، فكيفَ حَلَف؟ قال الشيخ: سبحانَ الله! الذي حَلَفَ عليه لأبْيَنُ حِنثاً وأوضَح كذباً من أن يَختَلِج في صدري منه شكّ، مع سِنّي وعِلْمي، لأنّه زعم أنّ عليًا خيرُ هذه الأمّة وإلّا فامرأتُه طالق ثلاثاً. فقال للزّوج: ما تقول؟ أهكذا حَلَفتَ؟ قال: نعم، فقيل: إنّه لمّا قال: نَعَم، كادَ المجلسُ يَرْتجُ بأهلِهِ، وبنو أميّةَ يَنظُرُون إليه شَزْراً، إلّا أنّهم لم ينطِقوا بشيءٍ، كلٌّ ينظرُ إلى وجهِ عمر.

فأكبَّ عمر مَلِيًّا يَنكُتُ الأرضَ بيَدِه والقومُ صامِتون ينظُرُونَ ما يَقُولُه، ثمّ رفع رأسَه، وقال:

إذَا وَلِـيَ الـحـكـومـةَ بـيـنَ قـومٍ ... أصـاب الـحَـقَّ والـتـمـسَ الـسَّـدَادَا

ومـا خـيـرُ الإمـامِ إذا تَـعَـدَّى ... خـلافَ الـحَـقِّ وٱجْـتَـنَـبَ الـرَّشـادا

ثم قال للقوم: ما تقولونَ في يَمينِ هذا الرجل؟ فسَكَتُوا، فقال: سبحان الله! قولُوا: فقال رجلٌ من بني أميّة: هذا حُكْم في فرْج، ولسْنا نجترىءُ على القَوْل فيه، وأنتَ عالمٌ بالقولِ، مؤتمنٌ لهم وعليهم، قُلْ ما عندك، فإنّ القول ما لم يكن يُحِقّ باطلاً ويُبطِلُ حقًّا جائزٌ عليّ في مجلسي.

قال: لا أقولُ شيئاً، فالتفَتَ إلى رجلٍ من بني هاشم من وَلد عقيل بن أبي طالب، فقال له: ما تقول فيما حَلَفَ به هذا الرجل يا عَقِيليّ؟ فاغتَنَمها، فقال: يا أمير المؤمنين، إن جعلتُ قَوْلي حُكماً، أو حُكْمي جائزاً قلتُ، وإن لم يكن ذلك فالسّكوت أوسَع لي، وأبقَى للمودّة، قال: قل وقولُك حُكم، وحُكْمكَ ماض.

فلما سَمِع ذلك بنو أميّة قالوا: ما أنصفتَنا أميرَ المؤمنين إذ جعلتَ الحُكم إلى غيرنا، ونحن من لُحمَتك وأولي رَحِمِك! فقال عمر: اسكتُوا، أعجزاً ولُؤماً! عرضتُ ذلك عليكم آنِفاً فما انتَدبتم له. قالوا: لأنّك لم تُعطِنا ما أعطيتَ العَقِيليّ، ولا حكّمتنا كما حكّمتَه، فقال عمر: إن كانَ أصابَ وأخطأتُم، وحَزَم وعَجَزْتم، وأبصَر وعَمِيتم، فما ذَنْب عمَر، لا أبا لكم! أتدرون ما

مَثَلكم؟ قالوا: لا نَدْرِي، قال: لكنّ العقيليّ يَدْرِي، ثم قال: ما تقول يا رجل؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، كما قال الأوّل:

دُعِيتم إلى أمرٍ فلما عَجَزْتُم ... تَناوَله من لا يُداخِلُه عَجْزُ
فلمّا رأيتمْ ذاكَ أبدتْ نُفوسُكُمْ ... نِداماً وهل يُغني من القدر الحذْر!

فقال عمر: أحسنت وأصبْتَ، فقل ما سألتُك عنه. قال: يا أمير المؤمنين، بَرّ قَسَمهُ، ولم تَطلُق امرأتُه، قال: وأنّى علمتَ ذاك؟ قال: نشدتُكَ الله يا أمير المؤمنين، ألم تعلمْ أنّ رسولَ الله ﷺ قال لفاطمة عليها السلام وهوَ عندَها في بَيْتها عائدٌ لها: «يا بُنَيّة، ما عِلّتُك؟» قالت: الوَعَك يا أبَتاه - وكان عليٌّ غائباً في بعض حَوائج النبيّ ﷺ - فقال لها: «أتشتَهين شَيْئاً؟» قالت: نَعم أشتَهِي عِنَباً، وأنا أعلَم أنّه عَزيز، وليس وَقْت عِنَب، فقال ﷺ: «إن الله قادرٌ على أن يجيئنا به»، ثمّ قال: «اللهمّ ائتنا به مع أفضل أمّتي عندَك منزلةً»، فطَرَق عليٌّ الباب، ودَخَل ومعه مِكْتَل قد ألقَى عليه طرف ردائه، فقال له النبيّ ﷺ: «ما هذا يا عليٌّ؟» قال: عِنَبٌ التمستُه لفاطمةَ، فقال: «الله أكبر الله أكبر، اللهمّ كما سررْتني بأن خَصصتَ عليًّا بدَعْوَتي فاجعلْ فيه شفاءَ بنيّتي»، ثم قال: «كُلي على اسم الله يا بُنيّة»، فأكَلَت، وما خَرَج رسول الله ﷺ حتّى استقلّت وبَرَأَتْ[1]، فقال عمر: صدقتَ وبرَرْتَ، أشهَدُ لقد سمعتُه ووعيتُه، يا رجل، خذ بِيَد امرأتِك فإن عَرَض لك أبُوها فاهشِمْ أنفَه. ثم قال: يا بَني عبدِ مناف، والله ما نَجهل ما يَعلم غيرُنا، ولا بنا عمًى في ديننا، ولكنّا كما قال الأوّل:

تَصيّدتِ الدنيا رجالاً بفَخّها ... فلم يدرِكوا خيراً بل استَقبحُوا الشرّا
وأعماهُمُ حُبُّ الغنَى وأصَمَّهمْ ... فلم يُدرِكوا إلّا الخسارةَ والوزرَا

قيل: فكأنما ألْقَم بني أميّة حَجَراً، ومضى الرجل بامرأتِه.

وكتب عُمر إلى ميمونَ بن مِهْرانَ: عليك سلامٌ، فإنّي أحمَد إليك الله الّذي لا إلٰه إلّا هو، أمّا بعد، فإني قد فهمتُ كتابَك، ووَرَدَ الرّجلان والمرأة، وقد صَدَّق الله يَمينَ الزوج، وأبرَّ قسَمَه، وأثبته على نِكاحه، فاستيقنْ ذلك، واعملْ عليه، والسّلام عليكَ ورحمةُ الله وبركاته.

فأما مَن قال بتفضِيله على النّاس كافّةً من التابعين فَخَلْقٌ كثير كأُوَيْس القَرَنِيّ وزَيْد بن صُوحان، وصَعْصعة أخيه، وجُندُب الخير، وعُبيدة السّلْمانيّ وغيرهم ممّن لا يُحصَى كثرةً، ولم تكن لفظةُ الشّيعة تُعرف في ذلك العَصْر إلا لمن قال بتفضيله، ولم تكن مقالةُ الإماميّة ومَنْ نَحا نحوَها من الطّاعِنين في إمامةِ السّلف مشهورة حينئذٍ على هذا النحو من الاشتهار، فكان القائلون بالتفضيل هم المسمَّوْن الشّيعة، وجميعُ ما وَردَ من الآثار والأخبار في فضل الشّيعة

(١) أنظر كتاب الأربعين للشيرازي: ٥٠٠، ومواقف الشيعة: ١/ ٦١.

وأنهم مَوْعودُون بالجنّة، فهؤلاء هم المعنيّون به دون غيرِهم، ولذلك قال أصحابُنا المعتزلة في كُتُبِهم وتصانيفهم: نحن الشيعةَ حقًّا. فهذا القولُ هو أقرَبُ إلى السّلامة وأشبَهُ بالحقّ من القَوْلين المقتَسِمَيْنِ طرفَي الإفراط والتّفريط إن شاء الله[1].

- ٤٧٩ -

الأصل: وسُئِلَ عن التوْحيدِ والعَدْلِ، فقالَ: التَّوْحِيدُ ألّا تَتَوَهَّمَهُ، والْعَدْلُ ألّا تَتَّهِمَهُ.

الشرح: هذان الرّكنان هما رُكْنا علم الكلام، وهما شِعارُ أصحابنا المعتزلة، لنَفْيهم المعانيَ القديمة التي يُثبِتها الأشعريّ وأصحابُه، ولتنزيههم الباريء سبحانه عن فِعل القَبيح.

ومعنى قوله: «ألاّ تتوهّمه» أي ألا تتوهّمهُ جسْماً أو صورةً أو في جهةٍ مخصوصة، أو مالئاً لكلّ الجِهات كما ذَهَب إليه قومٌ، أو نُوراً من الأنوار، أو قوّة ساريةً في جميع العَالم، كما قالَه قومٌ، أو مِنْ جنس الأعْرَاض الّتي تَحُلّ الحال أو تَحُل المَحَلّ، وليس بعَرَض كما قاله النّصارى وغُلاة الشِّيعة، أو تحلّه المعاني والأعراض، فمتى تُوُهّم على شيء مِنْ هذا فقد خُولف التوحيد، وذلك لأنّ كل جِسْم أو عَرَض أو حالٌ في مَحَلّ أو محلّ الحالّ، أو مختص بجهة، لا بدّ أن يكون منقسِماً في ذاته، لا سيّما على قول مَنْ نَفَى الجزاء مطلقاً، وكلّ منقسم فليس بواحد، وقد ثبتَ أنّه واحد. وأضاف أصحابُنا إلى التّوحيد نَفي المعاني القديمة، ونَفي ثانٍ في الإلهية، ونفيَ الرؤية، ونفي كونه مشتهياً أو نافِراً أو ملتَذّاً أو آلِماً أو عالِماً بِعلم مُحْدَث، أو قادراً بقُدْرة محدثة، أو حَيًّا بحياةٍ محدَثة، أو نفي كونه عالماً بالمستقبَلات أبداً، أو نفي كونِه عالماً بكلّ معلوم أو قادراً على كلّ الأجناس وغير ذلك مِن مسائل عِلم الكلام التي يُدخِلها أصحابنا في الركن الأوّل، وهو التوحيد.

وأما الركن الثاني فهو ألّا تتّهمه، أي لا تتّهمه في أنه أجْبَرك على القبيح، ويعاقبك عليه، حاشَاه من ذلك! ولا تتّهمه في أنه مَكّن الكَذّابين من المعجزات، فأضلّ بهم الناس، ولا تتهمه في أنه كلّفك ما لا تُطِيقه، وغير ذلك مِن مسائل العَدْل الّتي يَذكُرها أصحابُنا مفصَّلةً في كتُبِهم كالعِوض عن الألـم، فإنه لا بدّ منه، والثواب على فِعل الواجبِ فإنه لا بدّ منه، وصدْق وعدِه ووعيدِه، فإنه لا بدّ منه. وجملة الأمر أنّ مذهبَ أصحابِنا في العَدْل والتوحيد مأخوذٌ عن أمير المؤمنين. وهذا المواضعُ من المَوضِع الّتي قد صَرّح فيها بمذهبِ أصحابِنا بعَيْنه، وفي فَرْش كلامِه من هذا النَّمط ما لا يُحصَى.

- ٤٨٠ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: في دعاءِ استَسْقى بِهِ: اللَّهُمَّ اسْقِنا ذُلُلَ السَّحائِبِ دُونَ صِعابِها.

قالَ الرَّضيّ رَحمهُ الله تعالى: وهذا مِنَ الْكَلامِ الْعَجِيبِ الفصاحةِ، وذلكَ أنهُ عليه السلام شَبَّهَ السُّحُبَ ذَوَاتِ الرُّعُودِ والبَوَارِقِ، والرِّياحِ والصَّواعِقِ، بالإبِلِ الصِّعابِ الَّتِي تَقْمُصُ بِرِحَالِهَا، وَتَتَوَقَّصُ بِرُكبانِها، وشَبَّهَ السَّحائبَ الخالِيَةَ مِنْ تِلْكَ الزوَابِعِ بالإبِلِ الذُّلُلِ الَّتِي تُحْتَلَبُ طَيِّعَةً، وتُقْتَعَدُ مُسْمِحَةً.

الشرح: قد كَفَانا الرضيُّ - رحمه الله - بشرْحه هذه الكلمةَ مَؤونَة الخَوْض في تفسيرها.

- ٤٨١ -

الأصل: وقيلَ لَهُ عليه السلام: لَوْ غَيَّرْتَ شَيْبَكَ يا أمِيرَ المُؤمِنِينَ! فقال: الْخِضَابُ زِينَةٌ، ونَحْنُ قَوْمٌ في مُصِيبَةٍ بِرَسُولِ الله صلى الله عليه وآله.

بعض ما قيل من الشعر في الشيب والخضاب

الشرح: قد تقدّم لنا في الخِضاب قولٌ كافٍ، وأنا أستملِح قولَ الصّابي فيه:

خضابٌ تقاسَمْناه بيني وبينَها ... ولكنّ شأني فيه خالَفَ شانَها
فيا قُبْحَه إذْ حَلَّ مِنّي بمَفرِقي ... ويا حُسْنه إذ حَلَّ منها بَنانَها
وسُحْقاً له عن لِمّتي حينَ شانَها ... وأهلاً به في كَفِّها حيث زانَها

وقال أبو تمّام:

لَعِب الشَّيبُ بالمَفارِق بل جـ ... ـدَّ فأبكى تُماضِراً ولَعُوبَا
خَضَبتْ خَدّها إلى لؤلؤ العِقْـ ... ـد دماً أنْ رأتْ شَوَاتي خَضِيبَا
كلّ داءٍ يُرجَى الدّواء له ... إلّا الفَظِيعَين: مَيْتة ومَشيبَا
يا نسيبَ الثّغام ذَنبك أبقَى ... حَسَناتي عند الحِسان ذُنوبَا
ولئن عِبْنَ ما رأينَ لقد أنـ ... ـكَرْنَ مستنكَراً وعِبْنَ مَعيبَا

لو رأى اللّهُ أنّ في الشّيب فَضلاً ... جاورتْه الأبرَارُ في الخُلْد شيبَا

وقال:

فإن يكن المشيبُ طَغَى علينا ... وأوْدَى بالبَشاشةِ والشَّبابِ

فإنّي لستُ أدفعُه بشَيْءٍ ... يكون عليه أثقلَ من خِضابِ

أردتُ بأنّ ذَاك وذا عذابٌ ... فسلّطت العذابَ على العَذابِ

ابنُ الرُّوميّ:

لم أخضِب الشَّيبَ للغَواني ... أبغِي به عندَهم ودادَا

لكنْ خضِابي على شَبابٍ ... لبستُ مِن بَعده حِدادَا

ومن مختارِ ما جاءَ من الشّعر في الشَّيب وإن لم يكن فيه ذِكر الخِضاب قولُ أبي تمّام:

نَسَجَ المَشيبُ له لفاعاً مُغدِفا ... يَقَقاً فقَنَّع مِذْرَوَيْه ونَصَّفَا

نَظَر الزمانُ إليه قطَّع دونَه ... نَظَر الشَّقيق تَحَسُّراً وتلهُّفا

ما اسوَدّ حتّى ابيضّ كالكرم الّذي ... لم يَبْدُ حتّى جيءَ كيْما يقطفَا

لما تفرّقت الخُطوبُ سَوادَها ... ببَياضِها عَبِثت به فتفوّفا

ما كان يَخطر قبل ذا في فِكْرِه ... للبَدْر قبلَ تمامِه أن يُكسَفا

وقال أيضاً:

غدَا الهَمُّ مختطًّا بفَوْدَيّ خِطّةً ... طريقُ الرّدَى منها إلى المَوت مَهْيَعُ

هو الزَّور يُجْفَى، والمُعاشرُ يُجتَوَى ... وذُو الإلْف يُقْلَى، والجديدُ يُرقَّعُ

له مَنظَر في العَيْن أبيضُ ناصعٌ ... ولكنّه في القلب أسوَدُ أسفَعُ

ونحن نُرَجّيه على الكُرْه والرِّضَا ... وأنْفُ الفَتَى من وجهِه وهو أجْدعُ

وقال أيضاً:

شُعلةٌ في المَفارِق استَوْدَعَتْني ... في صَميم الأحشاء ثُكلاً صَمِيما

تَستثيرُ الهمومَ ما اكتنّ منها ... صُعُداً وهي تَستثيرُ الهُمومَا

غُرة مُرّةٌ ألا إنّما كنـ ... ـت أغرّ أيّام كنتُ بَهيما

دقّةٌ في الحياةِ تُدعَى جَلالاً ... مِثل ما سُمّيَ اللّدِيغُ سَلِيما

حلّمتني زعمتُمُ وأراني ... قبلَ هذا التّحليم كنتُ حليما

وقال الصّابي وذكَر الخِضاب:

خضبتُ مَشِيبي للتّعلُّق بالصِّبا ... وأوهَمْتُ مَن أهواهُ أنيَ لم أشِبْ

فلمّا ادّعى منّي العِذارُ شبيبةً ... إذا صَلعِي قد صاحَ من فَوقه كَذَبْ

فكم طُرّةٍ طارَتْ ودانَتْ ذوائبٌ ... وكم وَجْنةٍ حالَتْ وماءٍ بها نَضَبْ

شواهدُ بالتزوير يَخوِينَ رَبَّها ... فهِجرانُه عند الأحِبّة قد وَجَبْ

البحتريّ:

بانَ الشَّبابُ فلا عَيْنٌ ولا أثَرٌ ... إلاّ بقيّة بُرْدٍ منه أسمالِ

قد كِدْت أخرِجه عن مُنتهَى عَدَدي ... يأساً وأسقِطُه إذْ فات مِن بالِي

سُوء العَواقِب يأسٌ قبلَه أمَلٌ ... وأعضَلُ الداءِ نِكْسٌ بعد إبْلالِ

والمرءُ طاعة أيّام تُنَقِّلُه ... تَنَقُّلَ الظلِّ من حالٍ إلى حالِ

\- ٤٨٢ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: ما المُجاهِدُ الشهيدُ في سَبِيلِ الله بِأعْظَمَ أجْراً مِمنْ قَدَرَ فَعَفَّ، لَكَادَ العَفِيفُ أنْ يكُونَ مَلَكاً مِن الملائِكَةِ.

الشرح: قد تقدّم القولُ في العِفّة، وهي ضُرُوب: عِفّة اليد، وعِفّة اللسان، وعِفّة الفرْج، وهي العُظْمَى، وقد جاء في الحديث المرفوع: «مَن عَشِق فكَتَم وعَفّ وصَبَر فماتَ ماتَ شهيداً ودخَل الجنّة»[1].

وفي حكمةِ سليمانَ بن داود: إن الغالبَ لِهوَاه أشدّ من الّذي يَفتَح المدينة وحدَه.

(١) ذكره ملا علي القاري في كتابه «الأسرار في الأخبار الموضوعة» (٥٠٨)، وذكره البغدادي في «تاريخه» (١١/ ٢٩٦)، وذكره أبو عبد الله الرزرعي في كتابه «فقد المنقول» (٢٢٤) وقال موضوع على رسول الله ﷺ.

نزل خارجيٌ على بعض إخوانه منهمْ مستتِراً من الحَجّاج، فشَخَص المنزولُ عليه لبعضِ حاجاته وقال لزوجته: يا ظَمياءُ، أوصيكِ بضَيْفي هذا خيراً - وكانتْ من أحسَنِ الناس - فلمّا عاد بعدَ شهر قال لها: كيف كان ضيفُكِ؟ قالت: ما أشغَلَه بالعَمَى عن كلّ شيء، وكان الضَّيف أطبَقَ جَفْنَيه فلم يَنظُر إلى المرأة ولا إلى منزلها إلى أن عاد زوجُها.

وقال الشاعر:

إن أكـنْ طـامِـحَ الـلّـحـاظِ فـإنّـي　　　والّـذي يَـمـلِـكُ الـقـلـوبَ عَـفِـيـفُ

خرجت امرأةٌ من صالحاتِ نساءِ قريش إلى بابها لتغلِقَه، ورأسُها مكشوف، فرآها رجلٌ أجنبيٌ فرجعتْ وحلقتْ شعرَها، وكانت من أحسَنِ النّساء شَعْراً، فقيل لها في ذلك، قالت: ما كنتُ لأدَعَ على رأسِي شَعْراً رآه من ليسَ لي بمَحرَم.

كان ابنُ سِيرِينَ يقول: ما غَشِيتُ امرأةً قطّ في يَقَظَةٍ ولا نَوْم غيرَ أمّ عبدِ اللّه وإنّي لأرَى المرأةَ في المَنام وأعلم أنها لا تَحِلّ لي فأصرف بَصَري عنها.

وقال بعضهم:

وإنـي لـعـفّ عـن فُـكـاهـةِ جـارَتـي　　　وإنّـي لـمَـشـنـوءٌ إلـيّ اغـتـيـابُـهـا

إذا غـابَ عَـنْـهَـا بـعـلُـهـا لـم أكُـنْ لـهـا　　　صَـدِيـقـاً ولـم تـأنَـسْ إلـيّ كِـلابُـهـا

ولـم أكُ طَـلاّبـاً أحـاديـثَ سِـرِّهـا　　　ولا عـالِـمـاً مـن أيّ حَـوْك ثـيـابُـهـا

دخلتْ بُثينةُ على عبدِ الملك بن مَرْوانَ، فقال: ما أَرَى فيك يا بُثَيْنة شيئاً ممّا كان يَلهَج به جَميل! فقالت: إنه كان يَرْنُو إليّ بعَيْنين ليستَا في رَأسِك يا أميرَ المؤمنين، قال: فكيف صادفتِه في عِفّته؟ قالت: كما وَصَفَ نفسَه إذ قال:

لا والّـذي تَـسـجُـد الـجِـبـاهُ لـه　　　مـا لـي بـمـا ضَـمّ ثـوبُـهـا خَـبَـرُ

ولا بـفِـيـهـا ولا هَـمَـمْـتُ بـه　　　مـا كـانَ إلّا الـحـديـثُ والـنّـظَـرُ

وقال أبو سَهْل الساعديّ: دخلت على جَميل في مرض مَوْته، فقال: يا أبا سَهْل، رجلٌ يَلقَى الله ولم يَسفِكْ دماً حراماً، ولم يَشرَبْ خمراً، ولم يأتِ فاحشةً، أترجو له الجنّة؟ قلتُ: إي والله فمن هوَ؟ قال: إني لأرجو أن أكون أنا ذلك، فذَكَرتُ له بُثينَة، فقال: إنّي لفِي آخر يومٍ من أيّام الدنيا، وأوّل يومٍ من أيّام الآخرة، لا نالَتْني شفاعة محمّد إنْ كنتُ حدّثتُ نفسِي بريبةٍ مَعَها أو مع غيرِها قطّ.

قال الشاعر:

قـالـتْ وقـلـتُ تَـرَفَّـقِـي فـصِـلِـي　　　حَـبْـلَ امـرِئٍ بـوِصـالـكـمْ صَـبِّ

صـادِقٌ إذاً بَـعْـلـي فـقـلـتُ لـهـا　　　الـغـدرُ شـيءٌ لـيـسَ مـن شَـعْـبـي

ثِنْتانِ لا أَصْبو لِوَصْلِهِما عِرْسُ الصدّيق وجارَة الجَنْبِ
أمّا الصديقُ فلستُ خائِنَهُ والجارُ أوْصاني به رَبّي

يقال: إنّ امرأةً ذات جمالٍ دَعتْ عبد اللّه بن عبد المطّلب إلى نفسها لما كانت تَرَى على وجهه من النُّور، فأبى وقال:

أمّا الحرامُ فالمماتُ دُونَهُ والحلّ لا حلّ فأستبينَهُ
فكيف بالأمرِ الذي تَبْغينهُ يَحمِي الكريمُ عِرْضَه ودِينَهُ

راوَدَ توبةُ بنُ الحمِّير ليلى الأخيليّة مرةً عن نفسها، فاشمأزّت منه وقالت:

وذي حاجةٍ قلنا له لا تَبُحْ بها فليس إليها ما حَيِيتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحبٌ وخَليلُ

ابنُ مَيّادة:

موانِعُ لا يُعطين حَبّةَ خَرْدلٍ وهنّ زَوانٍ في الحديث أوانسُ
ويَكرَهن أن يَسمعن في اللَّهوِ رِيبةً كما كرِهتْ صوتَ اللِّجام الشّوامِسُ

آخر:

بيضٌ أوانسُ ما هَمَمْنَ بريبةٍ كظِباء مَكّةَ صيدُهنّ حَرامُ
يُحسَبْن من لين الكلامِ زَوانياً ويصدُّهنّ عن الخنا الإسلامُ

في الحديث المرفوع: «لا تكوننّ حديدَ النّظر إلى ما ليس لك، فإنه لا يَزْني فَرْجُك ما حَفِظْتَ عَيْنَيك، وإن استطعت ألاّ تنظرُ إلى ثوب المرأة التي لا تَحلّ لك فافعل ولن تستطيع ذلك إلّا بإذن الله»[1].

كان ابن المولى الشاعر المدنيّ موصوفاً بالعفّة وطيب الإزار، فأنشد عبد الملك شعراً له من جُمْلته:

وأبكي فلا لَيْلَى بكتْ من صَبابةٍ لباكٍ ولا لَيلى لذي البَذل تبذُلُ
وأخنع بالعُتبَى إذا كنتُ مُذْنِباً وإن أذنبتْ كنتُ الذي أتنَصَّلُ

فقال عبدُ الملك: مَن ليلى هذه؟ إن كانت حرّة لأزَوّجنكها، وإن كنت أمةً لأشترينّها لك بالغة ما بلغتْ، فقال: كلاّ يا أمير المؤمنين، ما كنت لأصَعِّر وجه حُرٍّ أبداً في حُرَّته ولا في أمَتِه، وما ليلى التي أنِست بها إلا قَوْسي هذه سمّيتها ليلى لأنّ الشاعر لا بد له من النَّسيب.

ابن الملوّح المجنون:

كأن على أنيابها الخمر مَجّهُ بماءِ النّدَى من آخِر الليل غابِقُ

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول: ٣/ ١٨١.

وما ذُقتُه إلا بعَيني تفرُّساً ... كما شِيم من أعلى السَّحابة بارِقُ

هذا مثل بيت الحماسة:

بأعذبَ مِنْ فيها وما ذُقْتُ طَعْمَه ... ولكنني فيما ترَى العينُ فارِسُ

شاعر:

ما إن دعاني الهوَى لفاحِشَةٍ ... إلا نهاني الحياءُ والكَرَمُ

ولا إلى مَحرمٍ مددتُ يَدِي ... ولا مَشَت بي لرِيبةٍ قَدَمُ

العباس بنُ الأحْنَف:

أتأذَنون لصبٌ في زيارتِكُمْ ... فعندَكم شَهَوات السَّمْع والبَصَرِ

لا يُضمِرُ السُّوء إن طال الجلوس به ... عفُّ الضمير ولكنْ فاسقُ النَّظَرِ

قال بعضهم: رأيتُ امرأةً مستقبلة البيت في المَوْسم، وهي في غاية الضرِّ والنّحافة رافعةً يديها تدعو، فقلتُ لها: هل لكِ من حاجة؟ قالت: حاجتي أن تُنادِيَ في الموقف بقولي:

تزوَّدَ كلُّ الناس زاداً يُقيمُهُمْ ... ومالِيَ زادٌ والسّلام على نَفْسي

ففعلت، وإذا أنا بفَتى مَنْهوك، فقال: أنا الزاد، فمضيتُ به إليها، فما زادوا على النظر والبكاء، ثمّ قالت له: انصرف مُصاحَباً، فقلت: ما علمت أن التقاء كما يُقتصر فيه على هذا، فقالت: امسِكْ يا فتى، أما علمت أن ركوب العار ودُخول النار شديد.

قال بعضهم:

كم قد ظَفِرتُ بمن أهوَى فيَمنَعُني ... منهُ الحَياءُ وخوفُ الله والحَذَرُ

وكم خَلَوْتُ بمن أهوَى فيُقْنِعُني ... منه الفُكاهةُ والتّحديثُ والنَّظَرُ

أهوى المِلاحَ وأهوَى أن أجالِسَهمْ ... وليس لي في حَرامٍ منهمُ وَطَرُ

كذلك الحُبّ لا إتْيانِ معصيةٍ ... لا خَيرَ في لذّةٍ من بعدِها سَقَرُ

قال محمّد بن عبدِ اللّه بنِ طاهر لبنيه: اعشقُوا تَظرُفوا، وعِفُّوا تشرُفوا.

وَصَف أعرابيٌّ امرأةً طَرَقَها، فقال: ما زالَ القمرُ يُرينِيها فلمّا غاب أرتنيه، فقيل: فما كان بينكما؟ قال: ما أقربَ ما أحلّ الله ممّا حرّم، إشارة في غير باسٍ، ودنوٌّ مِن غير مساس، ولا وَجَع أشدّ من الذّنوب.

كثيِّر عَزّة:

وإنّي لأرضَى منكِ يا عَزّ بالّذي ... لو أبصَرَه الواشي لَقرّت بلابلُهْ

بِلا وبألاّ أستطيعَ وبالمُنى ... وبالوَعْد حتّى يسأمَ الوعدَ آمِلُهْ

وبالنّظرة العَجْلَى وبالحَوْل يَنقضِي ... أواخِرُه لا نلتقِي وأوائِلُهْ

وقال بعضُ الظُّرَفاء: كان أربابُ الهَوَى يسرّون فيما مضى، ويقنَعون بأن يَمضُغ أحدُهم لباناً قد مَضغَتْه محبوبتُه، أو يَسْتاك بسواكِها، ويرَوْن ذاك عظيماً، واليومَ يطلُب أحدهم الخَلْوة وإرخاء السُّتور، كأنّه قد أشهَد على نكاحِها أبا سعيدٍ وأبا هُريرة.

وقال أحمد بنُ أبي عثمان الكاتب:

وإنّي ليُرضِيني المرورُ ببابِها ... وأقنَعُ منها بالوَعِيد وبالزَّجْرِ

قال يوسف بن الماجِشون: أنشَدْتُ محمّد بن المنكدِر قول وَضّاح اليَمن:

إذا قلتُ هاتِي نَوّلِيني تبسّمتْ ... وقالت معاذَ اللّه مِنْ فِعْل ما حَرُمْ

فما نَوّلتْ حتّى تضرّعْتُ حَوْلها ... وعرّفْتُها ما رَخّص اللّه في اللَّمَمْ

فَضحِك وقال: إنْ كان وَضّاحٌ لَفَقِيهاً في نفسِه.

قال آخر:

فقالتْ بحَقّ اللّهِ إلا أتيتَنا ... إذا كان لَونُ اللّيل لونَ الطَّيالِسِ

فجئتُ وما في القومِ يقْظان غيرُها ... وقد نامَ عنها كلُّ والٍ وحارِسِ

فبِتْنا مَبِيتاً طيِّباً نستلذّه ... جميعاً ولم أمدُدْ لها كَفَّ لامِسِ

مرّت امرأة حَسْناءُ بقَوْم من بني نُمَير مجتَمعين في نادٍ لهم، فرَمقُوها بأبصارهم، وقال قائل منهم: ما أكمَلَها لولا أنّها رَسْحاء! فالتَفَتتْ إليهم، وقالت: والله يا بَني نمير، ما أطَعْتم الله ولا الشاعر، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾[1].

وقال الشاعر:

فغُضَّ الطَّرْفَ إنّك من نُمَيْرٍ ... فلا كَعباً بلغتَ ولا كِلابا

فاخجلَتْهم. وقال أبو صَخر الهُذَليُّ من شِعْر الحماسة:

للَيلةٌ منها تَعُود لنا ... من غير ما رَفَثٍ ولا إثْمِ

أشهَى إلى نفسِي ولو برحتْ ... ممّا ملكتُ ومِنْ بني سَهْم

آخَر:

وما نلتُ منها مَحْرَماً غير أنّني ... أقبّل بسّاماً من الثّغر أفلَجا

وألثمُ فَاها آخِذاً بقرُونِها ... وأترُك حاجاتِ النُّفوس تَحرُّجا

وأعفُّ من هذا الشّعر قولُ عبدِ بني الحَسْحاسِ على فِسْقه:

لعمرُ أبيها ما صَبَوْتُ ولا صَبَتْ ... إليَّ وإنّي من صِباً لَحلِيمُ

(١) سورة النور، الآية: ٣٠.

سِوَى قُبلةٍ أستغفِر اللّه ذَنْبها ... سأطعِم مسْكِيناً لها وأصُومُ

وقال آخَر:

ومجدُولةٍ جَدْلَ العَناقِ كأنما ... سَنَا البَرْق في داجِي الظّلام ابتسامُها
ضربتُ لها الميعادَ ليستْ بكنّةٍ ... ولا جارةٍ يُخشَى عليّ ذِمامُها
فلمّا التقَيْنا قالت الحُكْم فاحتَكَمْ ... سوى خِلّةٍ هَيهاتَ منكَ مرَامُها
فقلتُ مَعاذَ اللّه أن أركب التي ... تَبيدُ ويَبْقَى في المَعادِ أثامُها

قولُه: «ليست بكَنّة * ولا جارةٍ يُخشَى عليّ ذِمامُها»، مأخوذٌ من قول قيس بن الخَطِيم:

ومثلكِ قد أحبَبْتُ ليستْ بكَنَّةٍ ... ولا جارة ولا حَليلة صاحبِ

وهذا الشاعر قد زاد عليه بقوله: «ولا حليلة صاحب».

وأنشد ابن مَنْدُوَيه لبعضهم:

أنا زانِي اللّسانِ والطّرْفِ إلاّ ... أنّ قلبي يَعافُ ذاكَ ويأبَى
لا يَراني الإلهُ أشْرَب إلاّ ... كلُّ ما حَلَّ شُربُه لي وطابَا

آخر:

نَلهُو بهنّ كذا من غيرِ فاحشةٍ ... لهوَ الصِّيامِ بتُفّاح البَساتِينِ

بشّار بنُ بُرْد:

قالوا حرامٌ تَلاقِينا فقلتُ لهمْ ... ما فِي التزامِ ولا في قُبْلةٍ حَرَجُ
مَن راقَب الناسَ لم يَظفَر بحاجَتِه ... وفازَ بالطيّباتِ الفاتِكُ اللَّهِجُ

البيت الآخر مِثلُ قولِ القائل:

مَن راقبَ الناسَ ماتَ هَمًّا ... وفازَ باللّذّة الجَسُورُ

أبو الطيّب المتنبّي:

وتَرَى الفتوّة والمروّة والأبوّة ... فِيّ كُلُّ مليحة ضَرّاتِها
هنّ الثلاث المانِعاتِي لَذّتي ... في خَلْوَتي لا الخوفُ مِنْ تَبِعاتها
إنّي على شَغَفي بما في خَمْرِها ... لأعِفُّ عمّا في سَراويلاتِها

كان الصاحبُ رحمه الله يَستهجِن قولَه: «عمّا في سَراوِيلاتِها»، ويقول: إن كثيراً من العُهْر أحسَن من هذه العِفّة، ومعنى البيت الأوّل أن هذهِ الخِلالَ الثلاث تَراهُنّ المِلاح ضَرائرَ لهنّ لأنّهن يمنَعْنه عن الخَلْوَة بالمِلاح والتمتّع بهنّ. ثم قال: إنّ هذه الخلالَ هي الّتي تَمنَعه لا الخوفُ من تَبِعاتها، وقال قوم: هذا تَهاونٌ بالدِّين، ونوعٌ من الإلحاد. وعندي أنّ هذا مَذهبُ

للشّعراء معروف، لا يُريدون به التَهاوُنَ بالدِّين، بل المبالغةَ في وَصْف سجَاياهُم وأخلاقِهم بالطّهارة، وأنّهم يَتركُون القَبيح لأنّه قبيح، لا لورُود الشَّرْع به، وخوف العِقاب منه. ويُمكِن أيضاً أن يريدَ بِتَبِعاتها تبعات الدّنيا، أي لا أخاف من قوم هذه المحبوبة الّتي أَنِسْتُ بها، ولا أشفِق من حَرْبهم وكيدِهِم، فأمّا عفّة اليد وعفّة اللّسان فهما بابٌ آخَر. وقد ذكرْنا طَرفاً صالحاً من ذلك في الأجزاء المتقدّمة عند ذكرِنا الوَرَع.

وفي الحديث المرفوع: «لا يَبلُغ العبدُ أن يكون من المتّقين حتّى يترُك ما لا بأسَ به حذراً لما به البَأس»[١].

وقال أبو بكر في مرض موتِه: إنا منذُ وَلينا أمرَ المسلمين لم نأخذْ لهم دِرْهماً ولا ديناراً، وأكَلْنا من جَريش[٢] الطّعام، ولبِسْنا من خَشِن الثّياب، وليس عندَنا من فَيْءِ المسلمين إلّا هذا الناضح، وهذا العبد الحَبَشيّ، وهذه القطيفة، فإذا قُبِضْتُ فادفعوا ذلك إلى عُمرَ ليجعَلَه في بيتِ مالِ المسلمين، فلما ماتَ حُمِل ذلك إلى عمرَ، فبَكَى كثيراً ثم قال: رحِم الله أبا بكر، لقد أتعَبَ مَن بَعدَه!

قال سليمان بنُ داود: يا بني إسرائيل، أوصِيكم بأمْرَيْن أفلَح مَن فَعَلَهما: لا تُدخِلوا أجوافَكم إلّا الطّيِّب، ولا تُخرِجوا مِن أفواهِكم إلّا الطّيّب.

وقال بعضُ الحكماء: إذا شئتَ أن تَعرِف ربَّك معرفةً يقينيّة فاجعلْ بينَكَ وبين المحارم حائطاً من حديد، فسوفَ يَفتَح عليك أبواب مَعرِفته.

وممّا يُحكَى من وَرَع حسّان بن أبي سِنان أنّ غلاماً له كتب إليه من الأهواز: إن قَصبَ السكّر أصابتْه السَّنة آفة فابتعْ ما قَدَرْتَ عليه من السّكّر، فإنّك تجد له ربْحاً كثيراً فيما بعد، فابتاع، وطُلِبَ منه ما ابتاعَه بعد قليلٍ بربح ثلاثينَ ألف درهم، فاستقالَ البَيْع من صاحبه، وقال: إنه لَم يَعلَم ما كنتُ أعلم حين اشتريتُه منه، فقال البائع: قد علمتُ الآن مقدارَ الرِّبح، وقد طَيّبتُه لك وأحللْتُك، فلم يطمئنّ قلبُه، وما زال حتّى ردّه عليه.

يقال: إنّ غَنَم الغارة اختلَطَتْ بغَنَم أهلِ الكوفة، فتورّع أبو حنيفة أن يأكُلَ اللّحمَ، وسَأل كم تَعيشُ الشّاة؟ قالوا: سبعَ سنين، فترك أكْلَ لَحم الغَنَم سبعَ سِنين.

ويقال: إنّ المنصورَ حمل إليهِ بَدْرةً فَرَمَى بها إلى زاوِية البيت، فلمّا مات جاء بها ابنُه

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة، باب: ما جاء في صفة أواني الحوض (٢٤٥١). وابن ماجه في «الزهد»، باب الورع والتقوى (٤٢١٥). والحاكم في «مستدركه» (٧٨٩٨)، والبيهقي في «سننه الكبرى» (٥/ ٣٣٥).

(٢) الجريش: دقيق فيه غِلَظ. اللسان، مادة (جرش).

حمّاد بن أبي حنيفة إلى أبي الحسن بن أبي قحطبة، وقال: إنّ أبي أوْصاني أن أردَّ هذه عليك، وقال: إنّها كانت عندي كالوَدِيعة، فاصرِفْها فيما أمَرَكَ الله به، فقال أبو الحَسَن: رَحِمَ الله أبا حَنيفة! لقد شَحّ بدِينه إذ سَخَتْ به نفوسُ أقْوام.

وقال سُفْيانُ الثوريّ: انظر دِرْهمك من أين هُوَ، وَصَلّ في الصّفّ الأخير.

جابر، سمعتُ النّبيّ ﷺ يقول لكَعْب بن عُجْرة: «لا يَدخُل الجنّة لحمٌ نَبتَ من السُّحت، النّار أوْلَى به»[1].

الحَسَن: لو وجدتُ رَغِيفاً من حَلالٍ لأحْرَقْتُه ثم سحَقْتُه ثم جَعَلْتُه ذَرُوراً، ثم دَاوَيْتُ به المَرْضَى.

عائشة، قالت: يا رسول الله، مَن المؤمن؟ قال: من إذا أصبَح نَظَر إلى رغيفَيْه كيف يَكتَسِبُهما، قالت: يا رسول الله، أمَا إنّهم لو كُلِّفوا ذلك لتكلّفوه، فقال لها: إنهم قد كُلِّفوه، ولكنهم يَعسِفون الدّنيا عَسْفاً.

حُذَيفة بن اليَمان يَرفَعه: إنّ قوماً يَجيئون يومَ القيامة ولهمْ من الحَسَنات كأمثالِ الجِبال، فيجعَلها الله هَباءً مَنْثوراً، ثمّ يُؤمر بهم إلى النّار، فقيل: خَلِّهم لنا يا رسول الله، قال: إنّهم كانوا يُصلُّون ويَصُومون ويأخذون أُهْبَةً من اللّيل، ولكنهم كانوا إذا عُرِض عليهم الحرامُ وَثَبوا عليه.

- ٤٨٣ -

الأصل: وقالَ ﷺ: **الْقَنَاعَةُ مالٌ لا يَنْفَدُ.**

قال: وقدْ رَوَى بَعْضُهُم هَذَا الكلامَ عَن رَسُولِ الله ﷺ.

الشرح: قد تَقدَّم القولُ في هذا المعنى، وقد تكرّرتْ هذه اللّفظة بذاتِها في كلامِه ﷺ.

ومن جَيِّد القولِ في القناعة قولُ الغَزّيّ:

أنا كالثُّعْبانِ جِلْدِي مَلْبِسي لستُ محتاجاً إلى ثوبِ الجمَالِ
فالخُمولُ العِزّ واليأسُ الغِنَى والقُنوعُ المُلْك، هذا ما بَدا لي

وقال أيضاً:

(١) أخرجه الترمذي في الجمعة، باب: ما ذكر في فضل الصلاة (٦١٤)، وأحمد في «مسنده» (١٤٠٣٢)، واللفظ له. والدارمي في الرقاق، باب: في أكل السحت (٢٧٧٦).

لا تعجَبنّ لمن يهوَى ويَصعَد في دُنياه فالخَلق في أرجوحةِ القَدَرِ
واقنعْ بما قَلّ فالأوْشالُ صافيةٌ ولجّة البَحْرِ لا تَخلو من الكَدَرِ

- ٤٨٤ -

الأصل: وقال عليه السلام لزيادِ بْنِ أَبِيهِ وقَد استخلفهُ لعبدِ اللّه بنِ العبّاسِ على فارِسَ وأعمالِها، في كلامٍ طوِيلٍ كانَ بَيْنَهُمَا نَهَاهُ فيهِ عنْ تَقْدِيم الخَرَاجِ:

اسْتَعْمِلِ الْعَدْلَ، واحْذَرِ الْعَسْفَ والْحَيْفَ، فإِنَّ الْعَسْفَ يَعُودُ بالجَلاءِ، والحيفَ يَدْعُو إلى السَّيْفِ.

الشرح: قد سَبَقَ الكلامُ في العَدْل والجَوْر.

وكانت عادة أهلِ فارس في أيّام عثمانَ أن يطلُب الوالي منهم خراجَ أملاكِهم قبل بَيْع الثّمار على وَجْه الاستِسْلاف، أو لأنّهم كانوا يظنّون أن أوّل السّنة القَمَريّة هو مُبتدأ وجُوبِ الخَراج حَمْلاً للخرَاج التابع لسَنَة الشّمس على الحُقوق الهلاليّة التابعة لسَنَة القَمَر، كأُجرةِ العَقار، وجَوالِي أهلِ الذِّمّة، فكان ذلك يُجحف بالنّاس ويدعو إلى عَسْفِهم وحَيْفِهم.

وقد غلط في هذا المعنى جماعةٌ من الملوك في كثير من الأعصار، ولم يَعلَموا فَرْقَ ما بين السَّنَتين، ثم تنبّه له قومٌ من أذكِياء الناس فكَبَسوا وجعلوا السنينَ واحدةً، ثم أهملَ الناس الكَبْس، وانفرَج ما بين السّنَة القمريّة والسّنة الخراجيّة التي هي سَنَة الشمس انفراجاً كثيراً.

واستقصاءُ القول في ذلك لا يليقُ بهذا الموضع، لأنّه خارجٌ عن فنّ الأدب الّذي هو موضوعُ كِتابِنا هذا.

- ٤٨٥ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: أشَدُّ الذُّنُوبِ ما اسْتَخَفَّ بها صاحِبها.

الشرح: عُظْمُ المصيبةِ على حَسَب نِعْمة العاصي، ولهذا كان لَطْم الولد وجهَ الوَالِدِ كبيراً ليس كلَطْمة وجه غيرِ الوَالد.

ولمّا كان الباري، تعالى أعظَمَ المُنعِمين، بل لا نِعمةَ إلّا وهي في الحَقيقة مِن نِعَمه، ومنسوبة إليه، كانت مخالَفَته ومعصِيتَه عظمة جدًا، فلا ينبغي لأحدٍ أن يعصِيَه في أمرٍ وإن كان قليلاً في ظَنّه، ثم يستقلّه ويستهين به، ويُظهِر الاستخفافَ وقلّة الاحتفال بمواقَعته، فإنّه يكون قد جَمَع إلى المعصية معصيةً أخرى، وهي الاستخفاف بقَدْر تلك المعصية الّتي لو أمعَن النَّظَر لَعلم أنّها عظيمة، ينبغي له لو كان رشيداً أن يَبكِيَ عليها الدَّمَ فَضلاً عن الدَّمع، فلهذا قال عليه السلام: «أشدّ الذنوب ما استَخَفّ بها صاحِبها».

- ٤٨٦ -

الأصل: وقالَ عليه السلام: مَا أَخَذَ اللهُ عَلَى أَهْلِ الجَهْلِ أنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أخَذَ عَلَى أهْلِ الْعِلْمِ أنْ يُعَلِّمُوا.

الشرح: تعليمُ العِلْم فرضُ كفايةٍ، وفي الخَبَرِ المرفوعِ «من عَلِم عِلْماً وكَتَمه ألجمه الله يومَ القيامة بلِجامٍ من نار»(١).

ورَوَى معاذُ بنُ جَبَل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «تعلّموا العِلمَ فإنّ تعلُّمه خشية الله، ودِراستَه تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلَبه عبادة، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قُرْبة، لأنّه مَعالِم الحلال والحرام، وبيانُ سبيلِ الجنّة، والمؤنس في الوحشة، والمحدّث في الخلوة، والجليس في الوحدة، والصاحب في الغربة، والدليل على السّرّاء، والمُعين على الضرّاء، والزّين عند الإخلاء، والسلاح على الأعداء»(٢).

ورُئيَ واصل بن عطاء يكتب من صبيّ حديثاً، فقيل له: مثلك يكتب من هذا! فقال: أما إني أحفَظُ له منه، ولكني أردت أن أذيقه كأس الرياسة، ليدعوَه ذلك إلى الازدياد من العلم.

وقال الخليل: العلوم أقفال، والسؤالات مفاتيحها.

---

(١) أخرجه أبو داود في العلم، باب: كراهية منع العلم (٣٦٥٨) من حديث أبي هريرة وابن ماجه في المقدمة، باب: من سئل عن علم فكتمه (٢٦٥)، من حديث أبي سعيد الخدري وأحمد في «مسنده» (٨٣٢٨)، من حديث أبي هريرة واللفظ له.

(٢) ذكره الإمام السيوطي في كتابه «تدريب الراوي» (١/ ١٦٥) وقال أخرجه ابن عبد البر في كتابه: العم وقال: حديث حسن جداً ولكن ليس له إسناد قوي، فأراد بالحسن حسن اللفظ، لأنه من رواية موسى البلقاوي وهو كذاب نسب إلى الوضع عن عبد الرحيم العمي وهو متروك.

وقال بعضهم: كان أهل العلم يضنّون بعلمهم عن أهل الدنيا فيرغبون فيه ويبذلون لهم دنياهم، واليوم قد بذل أهل العلم علمهم لأهل الدنيا فزهدوا فيه وضنّوا عنهم بدنياهم.

وقال بعضهم: ابذل علمك لمن يطلبه، وادع إليه من لا يطلبه، وإلا كان مَثَلك كمن أُهْديت له فاكهة فلم يَطعَمْها ولم يُطعِمْها حتى فسدتْ.

- ٤٨٧ -

الأصل: وقال عليه السلام: شَرُّ الإِخْوَانِ مَنْ تَكَلِّفَ لَهُ.

الشرح: إنما كان كذلك لأنّ الإخاء الصادق بينهما يوجب الانبساط، وترك التكلف، فإذا احتيج إلى التكلّف له فقد دلّ ذلك على أن ليس هناك إخاء صادق، ومن ليس بأخٍ صادق فهو من شرّ الإخوان.

وروى ابن ناقيا في كتاب «ملح الممالحة»، قال: دخل الحسن بن سَهل على المأمون، فقال له: كيف علمك بالمروءة؟ قال: ما أعلم ما يريد أمير المؤمنين فأجيبَه؟ قال: عليك بعمرو بن مسعدة، قال: فوافيتُ عمراً وفي داره صنّاع، وهو جالس على آجُرّة ينظر إليهم، فقلت: إن أمير المؤمنين يأمرك أن تعلّمني المروءة، فدعا بآجرّة فأجلسني عليها، وتحدّثنا ملياً، وقد امتلأتُ غيظاً من تقصيره بي، ثم قال: يا غلام عندك شيء يؤكل؟ فقال: نَعَم، فقدّم طبَقاً لطيفاً، عليه رغيفان وثلاث سكرّجات، في إحداهنّ خَلّ، وفي الأخرى مرىء، وفي الأخرى مِلح، فأكلْنا، وجاء الفرّاش فوضّأنا، ثم قال: إذا شئت! فنهضت متحفّظاً، ولم أودّعه، فقال لي: إن رأيتَ أن تعود إليّ في يوم مثله! فلم أذكر للمأمون شيئاً مما جرى، فلما كان في اليوم الذي وعدني فيه لُقياه سرت إليه فاستؤذِن لي عليه، فتلقّاني على باب الدار، فعانقني، وقبّل بين عينيّ، وقدّمَني أمامه، ومشى خلفي حتى أقعدني في الدّست، وجلَس بين يديّ، وقد فرِشت الدار، وزُيِّنَت بأنواع الزينة، وأقبل يحدّثني ويتنادر معي إلى أن حضر وقت الطعام، فأمر فقدّمت أطباق الفاكهة، فأصبنا منها، ونصبت الموائد، فقدم عليها أنواع الأطعمة من حارّها وبارِدها، وحلوها وحامضها، ثم قال: أيّ الشراب أعجب إليك؟ فاقترحت عليه، وحضر الوصائف للخدمة، فلما أردت الانصراف حَمَل معي جميع ما أحضر من ذهب وفضة وفُرش وكِسوة، وقدم إلى البساط فرس بمركب ثقيل، فركبته وأمر من بحضرته من الغلمان الرّوم والوصائف حتى سعوْا بين يديّ، وقال: عليك وأمر من بحضرته من الغلمان الرّوم والوصائف

حتى سعوْا بين يديّ، وقال: عليك بهم فهم لك. ثم قال: إذا زارك أخوك فلا تتكلّف له، واقتصر على ما يحضرك، وإذا دعوته فاحتفل به واحتشد، ولا تدعَنّ ممكناً، كفعلنا إيّاك عند زيارتك إيّانا، وفعلنا يوم دعوناك.

– ٤٨٨ –

الأصل: وقالَ عليه السلام في كلامٍ له: إذَا احْتَشَمَ المُؤمِنُ أخاهُ فَقَدْ فَارَقَهُ.

الشرح: ليس يعني أن الاحتشام عِلّة الفرقة بل هو دلالة وأمارة على الفرقة، لأنه لو لم يَحْدُث عنه ما يقتضي الاحتشام لانبسط على عادته الأولى، فالانقباض أمارة المباينة.

هذا آخر ما دَوّنه الرَّضيّ أبو الحسن رحمه الله من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في «نهج البلاغةِ»، قد أتينا على شرحِه بمعونةِ الله تعالى.

ونحن الآن ذاكرون ما لم يذكره الرضيّ مما نسبه قوم إليه، فبعضهُ مشهور عنه، وبعضه ليس بذلك المشهور، لكنه قد روى عنه، وعُزيَ إليه، وبعضه من كلام غيره من الحكماء، ولكنه كالنّظير لكلامه، والمضارع لحكمته، ولما كان ذلك متضمناً فنوناً من الحكمة نافعة، رأينا ألّا نُخْليَ هذا الكتاب عنهُ، لأنّه كالتكملة والتتمّة لكتاب «نهج البلاغة».

وربما وقع في بعضه تكرار يسير شذّ عن أذهاننا التنبّه له، لطول الكتاب وتباعد أطرافه، وقد عددنا ذلك كلمة كلمة، فوجدناه ألف كلمة.

فإن اعترضنا معترض قال: فإذا كنتم قد أقررتم بأنّ بعضها ليس بكلام له، فلماذا ذكرتموه، وهل ذلك إلا نوع من التطويل!

أجبناه وقلنا: لو كان هذا الاعتراضُ لازماً لوجب ألّا نذكر شيئاً من الأشباه والنظائر لكلامه، فالعذر هاهنا هو العذر هناك، وهو أنّ الغرض بالكتاب الأدب والحكمة، فإذا وجدنا ما يناسب كلامه عليه السلام، وينصبّ في قالبه ويحتذي حذوَه، ويتقبّل منهاجَه، ذكَرناه على قاعدتنا في ذكر النّظير عند الخوض في شرح نظيره.

وهذا حِينُ الشروع فيها خاليةً عن الشرح لجلائها ووضوحها، وإنّ أكثرها قد سبقت نظائره وأمثاله، وبالله التوفيق.

الحكم المنسوبة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام

١ – كان كثيراً ما يقول إذا فرغ من صلاة الليل: أشهد أن السماوات والأرض وما بينهما آيات تدلّ عليك، وشواهد تشهد بما إليه دعوتَ. كلّ ما يؤدّي عنك الحجّة ويشهد لك بالرّبوبيّة، موسوم بآثار نعمتك ومعالم تدبيرك. علوتَ بها عن خَلْقِك، فأوصلتَ إلى القلوب من معرفتك ما آنسها من وحشة الفكر، وكفاها رجْم الاحتجاج، فهي مع معرفتها بك، وولهِها إليك، شاهدة بأنّك لا تأخذك الأوهام، ولا تدركُك العقول ولا الأبصار. أعوذ بك أنْ أشير بقلبٍ أو لسان أو يدٍ إلى غيرك، لا إله إلا أنتَ، واحداً أحداً، فرداً صَمَداً، ونحن لك مسلِمُون.

٢ – إلهي، كفاني فخراً أن تكون لي ربًا، وكفاني عزًا أن أكون لك عبداً، أنت كما أريد، فاجعلني كما تريد.

٣ – ما خاف امرؤ عَدَل في حكمِه، وأطعم من قُوتِه، وذَخَر من دنياه لآخرته.

٤ – أفضِلْ على مَنْ شِئْتَ تكنْ أميرَه، واستَغْنِ عمَّن شئتَ تكنْ نظيرَه، واحتجْ إلى مَنْ شئت تكن أسيرَه.

٥ – لولا ضعفُ اليَقين ما كان لنا أن نشكوَ محنةً يسيرةً نرجو في العاجل سرعةَ زوالِها، وفي الآجل عظيمَ ثوابها، بين أضعاف نِعَمٍ لو اجتمع أهلُ السماوات والأرضِ على إحصائها ما وفوْا بها فضلاً عن القيام بشكرها.

٦ – من علاماتِ المأمون على دينِ الله بعدَ الإقرار والعمل، الحزمُ في أمره، والصّدق في قوله، والعدل في حكمِه، والشفقة على رعيّته، لا تخرجه القدْرة إلى خُرْق، ولا اللّين إلى ضَعْف، ولا تمنعه العزّة من كرم عفو، ولا يدعوه العفْو إلى إضاعة حقّ، ولا يدخله الإعطاء في سَرَف، ولا يتخطّى به القصْد إلى بُخْل، ولا تأخذه نِعَمُ الله ببطرٍ.

٧ – الفِسْق نجاسةٌ في الهمّة، وكلَبٌ في الطّبيعة.

٨ – قلوب الجهال تستفزّها الأطماع، وترتهن بالأماني، وتتعلق بالخدائع. وكثرة الصمت زِمام اللسان، وحسْم الفطنة، وإماطة الخاطر، وعذاب الحسّ.

٩ – عَداوة الضّعفاءِ للأقوياءِ، والسفهاءِ للحلماءِ والأشرار للأخيارِ، طبعٌ لا يُستطاع تغييرُه.

١٠ – العقل في القلب، والرّحمة في الكبِدِ، والتنفُّس في الرّئةِ.

١١ – إذا أراد الله بعبدٍ خيراً حال بينه وبين شهوته، وحجز بينه وبين قلبِه، وإذا أراد به شرًا وكلَه إلى نفسه.

١٢ - الصَّبْر مطيّة لا تكبُو، والقناعة سيف لا ينبو.

١٣ - رحم اللهُ عبداً اتقى رَبَّهُ، وناصح نفسه، وقدَّم توبته، وغلب شهوته، فإنّ أجلَه مستورٌ عنه، وأمَلَهُ خادع له، والشيطان مُوَكَّلٌ بِهِ.

١٤ - مَرَّ بمقبرة فقال: السلام عليكم يا أهل الديار الموحِشَةِ، والمحالّ المقفرةِ، من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، أنتم لنا فَرَط، ونحن لكم تَبَعٌ نزوركم عمّا قليل، ونلحق بكم بعد زمان قصير. اللهُمَّ اغفر لنا ولهم، وتجاوز عنّا وعنهم الحمد لله الذي جعل الأرض كِفاتاً، أحياءً وأمواتاً. والحمد لله الذي منها خَلَقَنَا، وعليها مُمْشانا، وفيها معاشنا، وإليها يُعيدنا. طوبَى لمن ذكر المعاد، وقنع بالكفاف، وأعدّ للحساب!

١٥ - إنكم مخلوقون اقتداراً، ومربوبون اقتساراً، ومضمَّنُون أجداثاً، وكائنون رُفاتاً، ومبعوثون أفراداً، ومدينون حسابا. فرحِم الله امرأً اقترف فاعترف، ووجِل فعقل، وحاذر فبادر، وعُمِّر فاعتبر، وحُذِّر فازدجر، وأجاب فأناب، وراجع فتاب، واقتدى فاحتذى، وتأهّب للمعاد، واستظهر بالزّاد، ليوم رحيله، ووجه سبيله ولحال حاجته، وموطن فاقته، فقدّم أمامه لدار مقامه، فمهّدُوا لأنفسكم على سلامة الأبدان وفسحة الأعمار. فهل ينتظر أهلُ غضارة الشباب إلّا حوانيَ الهرم، وأهلُ بضاضة الصّحة إلّا نوازل السّقم، وأهل مدة البقاء إلا مفاجأة الفناء واقتراب الفوت، ومشارفة الانتقال، وإشفاء الزوال، وحَفْز الأنين ورشْح الجبين، وامتداد العِرْنين، وعَلَز القلق، وقَيْظ الرَّمَق وشدّة المضَض، وغَصص الجرَض.

١٦ - ثلاث منجيات: خشية الله في السرّ والعَلانية، والقَصْد في الفقر والغنى، والعَدْل في الغضب والرضا.

١٧ - إياكم والفُحش، فإنّ الله لا يحبّ الفُحش، وإيّاكم والشّحّ، فإنه أهلك مَنْ كان قبلكم، هو الذي سفك دماء الرّجال، وهو الذي قطّع أرحامها، فاجتنبوه.

١٨ - إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، وعلمٍ كان علّمه الناس فانتفعوا به، وولدٍ صالح يدعو له.

١٩ - إذا فعلتَ كلَّ شيء فكن كمن لم يفعل شيئاً.

٢٠ - سأله رجل، فقال: بماذا أسوء عدوّي؟ فقال: بأن تكون على غاية الفضائل، لأنه إن كان يسوءه أن يكون لك فرس فارهٌ، أو كلب صَيُود، فهو لأن تُذكَر بالجميل وينسب إليك أشدّ مساءةً.

٢١ - إذا قُذِفت بشيء فلا تتهاونْ به وإن كان كذباً، بل تحرّزْ من طرقِ القذف جُهدَكَ، فإنَّ القول وإن لم يثبت يوجب ريبةً وشكاً.

٢٢ - عدم الأدبِ سببُ كلِّ شرٍّ.

٢٣ - الجهل بالفضائل عِدْل الموتِ.

٢٤ - ما أصعب على من استعبدتْهُ الشّهوات أن يكون فاضلاً!

٢٥ - مَنْ لم يقهر حَسَدَهُ كانْ جَسَدُهُ قبراً لِنَفْسِهِ.

٢٦ - احمَد من يغلظ عليك ويعظك، لا من يزكّيك ويتملّقك.

٢٧ - اختر أن تكون مغلوباً وأنت منصِف، ولا تخْتَر أن تكون غالباً وأنت ظالم.

٢٨ - لا تهضمنّ محاسنك بالفَخْر والتكبّر.

٢٩ - لا تنفكّ المدنية من شرّ، حتى يجتمع مع قوّة السلطان قوّة دينه وقوة حِكمته.

٣٠ - إذَا أَرَدْتَ أنْ تُحْمَد فلا يظهر منك حرصٌ على الحَمْدِ.

٣١ - مَن كَثُر همّهُ سقم بدنه، ومَنْ ساء خُلُقه عَذَّب نفسه، ومن لاحَى الرّجال سقطت مروءته، وذهبت كرامته، وأفضل إيمانِ العبْدِ أن يعلم أنّ الله معه حيث كان.

٣٢ - كُنْ ورِعاً تكن مِنْ أعبدِ الناس، وارْضَ بما قَسَم الله لك تكن من أغنى الناس، وأحسنْ جوارَ مَنْ جاورك تكن مسلماً، ولا تكثرنّ الضِحك، فإنّ كثرته تميت القلب، وأخْرس لسانك، واجلس في بيتك، وابكِ على خطيئتك.

٣٣ - إنَّ الرَّجُل لَيُحَرم الرّزق بالذنب يصيبُه، ولا يردّ القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البرّ، ولا يزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعمّا عمل فيما علم!

٣٤ - في التجارب علم مستأنف، والاعتبار يفيدك الرشاد، وكفاك أدباً لنفسك ما كرهتَه من غيرك، وعليك لأخيك مثل الذي عليه لك.

٣٥ - الغضب يُثير كامن الحِقْد، ومَنْ عرف الأيام لم يُغفل الاستعداد، ومَنْ أمسك عن الفضول عدّلت رأيَه العقول.

٣٦ - اسكت واستر تسلم. وما أحسن العلم يزينه العمل، وما أحسن العمل يزينه الرّفق!

٣٧ - أكبرُ الفخر ألّا تفخر.

٣٨ - ما أصعب اكتساب الفضائل وأيسر إتلافها!

٣٩ - لا تنازع جاهلاً، ولا تشايع مائقاً[1]، ولا تعاد مسلّطاً.

---

(١) لا تشايع: لا تشارك. اللسان، مادة (شيع). المائق: الأحمق الغبي. للسان، مادة (موق).

٤٠ - الموت راحة للشيخ الفاني من العمل، وللشابّ السقيم من السُّقم، وللغلام الناشىء من استقبال الكدّ والجمع لغيره، ولمن ركبه الدَّيْن لغرمائه، وللمطلوب بالوَتر، وهو في جملة الأمر أمنيّة كلّ ملهوف مجهود.

٤١ - ما كنتَ كاتمه عدوّك من سرّ، فلا تطلعنّ عليه صديقك. واعرف قدرك يَستعلِ أمرُك، وكفى ما مضى مخبراً عمّا بقي!

٤٢ - لا تَعِدَنّ عِدَةً تحقّرها قلّةُ الثّقة بنفسك، ولا يغرنّك المرتقى السّهل إذا كان المنحدَر وَعْراً.

٤٣ - اتّق العواقب عالماً بأنّ للأعمال جزاءً وأجراً، واحذر تبعات الأمور بتقديم الحزم فيها.

٤٤ - مَن استَرْشَد غير العقل أخطأ منهاج الرّأي، ومَن أخطأته وجوه المطالب خذلته الحِيَل، ومن أخلّ بالصبر أخلّ به حسنُ العاقبة، فإنّ الصبر قوّة من قوى العقل، وبقدر موادّ العقل وقوّتها يَقوَى الصبر.

٤٥ - الخطأ في إعطاء من لا يبتغي ومنع من يبتغي واحد.

٤٦ - العِشقُ مَرَضٌ ليس فيه أجْرٌ ولا عِوَض.

٤٧ - أعظم الخطايا عند الله اللّسان الكذوب، وقائل كلمة الزّور ومن يمدّ بحبلها في الإثم سواء.

٤٨ - الخصومة تمحق الدّين.

٤٩ - الجهاد ثلاثة: جهاد باليد، وجهاد باللسان، وجهاد بالقلب، فأوّل ما يغلب عليه من الجهاد يدك ثم لسانك، ثم يصير إلى القلب، فإن كان لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً نُكِس فجعل أعلاه أسفله.

٥٠ - ما أنعم الله على عبد نعمةً فشكرها بقلبه إلّا استوجب المزيد عليها قبل ظهورها على لسانه.

٥١ - الحاجةُ مسألة، والدُّعاء زيادة، والحمدُ شكرٌ، والنَّدم توبة.

٥٢ - لِن واحلُم تنبُل، ولا تكُنْ معجِباً فتمقَت وتُمتهن.

٥٣ - ما لي أرَى النَّاس إذا قُرّب إليهم الطعام ليلاً تكلّفوا إنارة المصابيح ليبصروا ما يدخِلون بطونهم، ولا يهتمون بغذاء النّفس بأن ينيروا مصابيح ألبابهم بالعِلْم ليسلموا من لواحق الجهالة والذنوب في اعتقاداتهم وأعمالهم.

٥٤ - الفقر هو أصْل حسنِ سياسة النّاس، وذلك أنه إذا كان من حُسن السياسة أن يكون بعض الناس يسوس، وبعضهم يُساس، وكان مَنْ يُساس لا يستقيم أن يُساس من غير أن يكون فقيراً محتاجاً، فقد تبيّن أنّ الفقر هو السبب الذي به يقوم حسن السياسة.

٥٥ - لا تتكلّم بين يدي أحدٍ من النّاس دون أن تسمع كلامه، وتقيس ما في نفسك من العلم إلى ما في نفسه، فإن وجدت ما في نفسه أكثر، فحينئذٍ ينبغي لك أن ترُوم زيادة الشيء الذي به يفضل على ما عندك.

٥٦ - إذا كان اللّسان آلة لترجمة ما يخطِر في النفس، فليس ينبغي أن تستعمله فيما لم يخطر فيها.

٥٧ - إذا كان الآباء هم السبب في الحياة، فمعلّمو الحكمة والدين هم السبب في جودتها.

٥٨ - وشكا إليه رجلٌ تعذُّرَ الرّزق، فقال: مه، لا تجاهدِ الرّزق جهاد المغالب، ولا تتّكِلْ على القَدَر اتّكال المستسلم، فإنّ ابتغاء الفضل من السّنّة، والإجمال في الطّلب من العفّة، وليست العِفّة دافعةً رزقاً، ولا الحرصُ جالباً فضلاً، لأن الرّزق مقسوم، وفي شدّة الحرص اكتساب المآثم.

٥٩ - إذا استغنيت عن شيء فدعْه وخذ ما أنت محتاج إليه.

٦٠ - العمر أقصر من أن تعلّم كلّ ما يحسُن بك علمه، فتعلّم الأهمّ فالأهمّ.

٦١ - مَنْ رَضِيَ بما قُسِم له استراح قلبُه وبدنه.

٦٢ - أبعد ما يكون العبدُ من الله إذا كان هَمُّه بطنُه وفَرَجُه.

٦٣ - ليس في الحواسّ الظاهرة شيء أشرفُ من العَيْن لا تُعطوها سؤلها، فيشغلكم عن ذكر الله.

٦٤ - ارحموا ضعفاءكم فالرّحمة لهم سببُ رحمةِ الله لكم.

٦٥ - إزالة الجِبال أسهلُ من إزالة دولة قد أقبلتْ، فاستعينوا بالله واصبروا، فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء.

٦٦ - قال له عثمان في كلام تلاحَيا فيه حتى جرى ذكرُ أبي بكر وعمر: أبو بكر وعمر خيرٌ منك، فقال: أنا خيرٌ منك ومنهما، عبدْتُ الله قبلهما، وعبدته بعدهما.

٦٧ - أوثق سُلّم يُتَسَلّق عليه إلى الله تعالى أن يكون خيراً.

٦٨ - ليس المُوسِر مَنْ كان يساره باقياً عنده زماناً يسيراً، وكان يمكن أن يغتصبه غيره منه، ولا يبقى بعد موته له، لكن اليَسار على الحقيقة هو الباقي دائماً عند مالكه، ولا يمكن أن يؤخذ منه، ويبقى له بعد موته، وذلك هو الحكمة.

٦٩ - الشّرف اعتقاد المِنن في أعناق الرّجال.

٧٠ - يضرّ الناس أنفسَهم في ثلاثة أشياء: الإفراط في الأكل اتّكالاً على الصحّة، وتكلّف حمل ما لا يطاق اتّكالاً على القوة، والتفريط في العمل اتكالاً على القَدَر.

٧١ - أحزمُ النّاس مَن ملك جِدُّه هزله، وقهر رأيه هواهُ، وأعرب عن ضميرِه فعلُه، ولم يخدعْه رضاه عن حقّه، ولا غضبه عن كيده.

٧٢ - مَنْ لم يُصْلِح خلائقَه، لم ينفع النّاسَ تأديبُه.

٧٣ - من اتّبع هواه ضلّ، ومن حاد ساد، وخمود الذكر أجْمَل من نميم الذّكْر.

٧٤ - لهب الشّوْق أخفُّ محملاً من مقاساة الملالة.

٧٥ - بالرّفق تُنال الحاجة، وبِحُسْنِ التأنّي تسهل المطالب.

٧٦ - عزيمة الصّبر تُطفِىءُ نارَ الهوى، ونفي العجب يؤمن به كيد الحسّاد.

٧٧ - ما شيء أحقُّ بطولِ سِجْنٍ من لسان.

٧٨ - لا نَذْرَ في معصيةٍ، ولا يمينَ في قطيعةٍ.

٧٩ - لكلّ شيء ثمرة، وثمرة المعروف تعجيل السَّرَاح.

٨٠ - إيّاكم والكسل، فإنّه من كسل لم يؤدِّ لله حقًّا.

٨١ - احسبوا كلامكم من أعمالكم، وأقلّوه إلّا في الخير.

٨٢ - أحسِنُوا صحبةَ النّعم فإنّها تزول، وتشهد على صاحبها بما عمل فيها.

٨٣ - أكثِروا ذكرَ الموتِ، ويوم خروجكم من قبوركم، ويوم وقوفكم بين يدي الله عزّ وجلّ، يهُن عليكم المصاب.

٨٤ - بحسَب مجاهدة النّفوس وردّها عن شهواتها ومنعها عن مصافحة لذّاتها ومنع ما أدّت إليه العيون الطامحة من لحظاتِها - تكون المثوبات والعقوبات، والحازم مَنْ ملك هواه، فكان بملكِه له قاهراً، ولما قَدَحت الأفكار من سوء الظّنون زاجراً، فمتى لم تُرَدّ النّفس عن ذلك هجم عليها الفكر بمطالبة ما شُغِفت به، فعند ذلك تأنس بالآراء الفاسدة، والأطماع الكاذبة، والأماني المتلاشية، وكما أنّ البَصر إذا اعتلّ رأى أشباحاً وخيالات لا حقيقة لها، كذلك النّفس إذا اعتلّت بحبّ الشهوات وانطوت على قبيح الإرادات، رأت الآراء الكاذبة، فإلى الله سبحانه نرغب في إصلاح ما فسد من قلوبنا، وبه نستعين على إرشاد نفوسِنا، فإن القلُوب بيد يُصرّفها كيف شاء.

٨٥ - لا تؤاخينّ الفاجر، فإنه يُزيِّن لك فعلَه، ويودّ لو أنّك مثله، ويحسّن لك أقبح

خصاله، ومدخلُه ومخرجُه من عندك شينٌ وعار ونقص، ولا الأحمق فإنّه يجهَد لك نفسه ولا ينفعك، وربما أراد أن ينفعك فضرَّك، خيرٌ لك من نطقه، وبعده خير لك من قربه، وموته خير لك من حياته، ولا الكذّاب فإنّه لا ينفعك معه شيء، ينقل حديثك، وينقل الحديث إليك، حتى إنه ليحدّث بالصّدق فلا يصدّق.

٨٦ - ما استقصَى كريم قطّ، قال تعالى في وصف نبيه: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾[1].

٨٧ - ربّ كلمةٍ يخترعها حليم مخافة ما هو شرٌّ منها، وكفى بالحلم ناصراً.

٨٨ - مَنْ جمع ستّ خصال لم يَدَع للجنّة مطلباً، ولا عن النار مهرباً: مَنْ عرف الله فأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحقّ فاتبعه، وعرف الباطل فاتّقاه، وعرف الدّنيا فرفَضها، وعرف الآخرة فطلَبها.

٨٩ - مَن استحيا مِنَ النّاس ولم يستحي من نفسه فليس لنفسِه عند نفسه قدْر.

٩٠ - غايةُ الأدب أنْ يستحِيَ الإنسان من نفسِه.

٩١ - البلاغة النُّصر بالحُجّة، والمعرفة بمواضع الفُرصة، ومن البَصر بالحجّة أن تَدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاح أوعرَ طريقة، وكانت الكناية أبلغ في الدّرك وأحقّ بالظفر.

٩٢ - إيَّاك والشّهوات، وليكن مما تستعين به على كَفِّها علمك بأنها ملهية لعقلك، مهجّنة لرأيك، شائنة لغرضك، شاغلة لك عن معاظِم أمورك، مشتدّةٌ بها التّبعة عليك في آخرتك. إنما الشّهوات لعب، فإذا حضر اللّعبُ غاب الجِدّ، ولن يقام الدّين وتصلحَ الدّنيا إلا بالجِدّ، فإذا نازعتْك نفسك إلى اللّهو واللذات، فاعلم أنها قد نزعتْ بك إلى شرّ منزَع، وأرادت بك أفضح الفضوح، فغالبْها مغالبة ذلك، وامتنع منها امتناع ذلك، ولْيكن مرجعُك منها إلى الحقّ، فإنك مهما تتركْ من الحق لا تتركْه إلا إلى الباطل، ومهما تدَعْ من الصواب لا تَدَعْه إلا إلى الخطأ، فلا تداهننّ هواك في اليسير فيطمع منك في الكثير.

وليس شيء ممّا أوتيت فاضلاً عمّا يصلحك، وليس لِعُمْرك وإن طال فضل عمّا ينوبك من الحقّ اللازم لك، ولا بمالك وإن كثر فضل عمّا يجب عليك فيه، ولا بقوّتك وإن تمّتْ فضلٌ عن أداء حقّ الله عليك، ولا برأيك وإن حَزُمَ فضل عمّا لا تُعْذَرُ بالخطأ فيه، فليمنعنّك علمُك بذلك مِنْ أن تطيل لك عمراً في غير نفع، أو تضيّعَ لك مالاً في غير حقّ، أو أن تصرف لك قوة في غير عِبادة، أو تعدّل لك رأياً في غير رشد.

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٣.

فالحفظَ الحفظَ لما أوتيتَ، فإنّ بك إلى صغيرِ ما أوتيتَ الكثيرَ منه أشدُّ الحاجة.

وعليك بما أضعته منه أشدُّ الرزيّة، ولا سيما العمر الذي كل مَنفَذٍ سواه مستخلَف. وكلّ ذاهب بعده مرتجع.

فإن كنت شاغلاً نفسك بلذّة فلتكن لذتك في محادثة العلماء ودرس كتبهم، فإنّه ليس سرورك بالشّهوات بالغاً منك مبلغاً إلا وإكبابك على ذلك، ونظرُك فهي بالغهُ منك، غير أنّ ذلك يجمَعُ إلى عاجل السُّرور تمامَ السّعادة، وخلافُ ذلك يجمع إلى عاجل الغَيّ وخامةَ العاقبة، وقديماً قيل: أسعدُ النّاس أدركُهم لهواه إذا كان هواه في رشده، فإذا كان هواه في غير رشده. فقد شقِيَ بما أدرك منه. وقديماً قيل: عوّدْ نفسَك الجميلَ، فباعتيادك إيّاه يعود لذيذاً.

٩٣ - وُكِّلَ ثلاثٌ بثلاث: الرزق بالحمق، والحرمان بالعقل، والبلاء بالمنطق، ليعلمَ ابنُ آدم أنْ ليسَ له منَ الأمر شيء.

٩٤ - ثلاثةٌ إن لم تظْلمهم ظلمُوك: عبدُك، وزوجتُك، وابنك. وقد روينا هذه الكلمة لعُمر فيما تقدم.

٩٥ - للمنافقين علاماتٌ يعرفون بها: تحِيَّتهُم لعنة، وطعامهم نُهْمة، وغنيمتهم غلول، لا يعرفون المساجد إلّا هَجْراً، ولا يأتون الصلاة إلا دُبُراً، مستكبرون لا يألفون ولا يُؤلَفون، خُشبٌ بالليل صُخُب بالنهار.

٩٦ - الْحَسَدَ حُزْن لازمٌ، وعَقْلٌ هائم، ونَفَسٌ دائم، والنّعمة على المحسودِ نعمة، وهي على الحاسدِ نِقْمَة.

٩٧ - يا حَمَلة العلم، أتحملونه! فإنّما العِلْم لمن عَلِم ثم عَمِل، ووافَق عملُه علمَه، وسيكون أقوامٌ يحملون العِلْم، لا يجاوز تراقيَهم، تخالف سريرتُهم علانيتَهم، ويخالف عملُهم عِلْمَهم، يقعدون حَلَقاً فيباهي بعضُهم بعضاً، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيرِه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله سبحانه.

٩٨ - تعلّموا العلم صِغَاراً تسودُوا به كباراً، تعلّموا العلم ولو لغير الله، فإنه سيصير لله. العلم ذَكَرٌ لا يحبّه إلا ذُكَرٌ من الرجال.

٩٩ - ليس شيءٌ أحسن من عَقْل زانَه علم، ومِنْ عِلْم زانه حِلْم، ومن حِلْم زانه صِدْق، ومن صدق زانه رفق، ومن رفق تقوى. إنّ مِلاك العقلِ ومكارم الأخلاق صونُ العِرْض، والجزاء بالفرض، والأخذ بالفضل، والوفاء بالعَهد، والإنجاز للوعد. ومَنْ حاول أمراً بالمعصية كان أقربَ إلى ما يخاف، وأبعد مما يرجو.

١٠٠ - إذَا جَرت المقاديرُ بالمكارِه سبقت الآفة إلى العَقْل فحيَّرته، وأطلقت الألسن بما فيه تلف الأنفس.

١٠١ - لا تصحبوا الأشرار فإنّهم يمنّون عليكم بالسّلامة مِنهم.

١٠٢ - لا تقسِروا أولادكم على آدابكُم، فإنّهم مَخْلوقُون لزمانٍ غير زمانكم.

١٠٣ - لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويدَه، فإنّ النّاس لا يسألون في كمْ فَرَغ من العمل، إنما يَسْألُون عن جودةِ صنعته.

١٠٤ - ليس كلُّ ذي عين يُبْصِر، ولا كلّ ذي أُذنٍ يَسْمَع، فتصدَّقُوا على أولي العقول الزَّمِنة، والألباب الحائرة، بالعلوم التي هي أفضل صدَقاتِكم، ثم تَلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾(١).

١٠٥ - مَنْ أتتْ عليه الأربعُون من السِّنين قيل له: خذْ حذرَك من حلُول المقدور فإنَّكَ غير معذورٍ، وليس أبناء الأربعين بأحقّ بالحَذر من أبناءِ العشرين، فإنّ طالبَهما واحِدٌ، وليس عن الطلب براقدٍ، وهو الموت، فاعمل لما أمامَك من الهَوْل، ودع عنك زخرفَ القول.

١٠٦ - سُئِل عن القَدَر فقال: أقصر أم أطِيل؟ قيل: فقال: بل تُقْصِر، جلّ الله أن يُريدَ الفحشاء، وعزّ عن أن يكون له في المُلْك إلا ما يشاء.

١٠٧ - مَنْ علِم أنه يفارق الأحْباب، ويسكُن التُّراب، ويواجِهُ الحِساب، ويستغني عمّا ترك، ويفتقر إلى ما قدّم، كان حريًا بِقِصَر الأمل، وطول العمل.

١٠٨ - المؤمن لا تختِلُه كَثْرة المصائِب، وتَواتُر النَّوائِب عن التَّسليم لربِّه والرِّضا بقضائه، كالحمامة التي تُؤخذ فراخها من وكْرها ثم تعُود إليه.

١٠٩ - ما مَاتَ مَنْ أحْيَا عِلماً، ولا افْتَقَرَ مَنْ مَلَك فَهماً.

١١٠ - العِلْم صِبْغ النفس، وليس يفوق صِبْغ الشيء حتى يَنْظُف من كل دنَس.

١١١ - اعلم أنّ الذي مدحَك بما ليس فيك، إنما هو مخاطِب غيرَك، وثوابُه وجزاؤهُ قد سقطا عنك.

١١٢ - إحسانك إلى الحرِّ يُحَرِّكُهُ على المكافأةِ، وإحسانُك إلى النَّذْلِ يَبْعَثُهُ على مُعاوَدَة المَسْأَلَة.

١١٣ - الأشرار يتتبَّعُون مساوِىء الناس، ويتركون محاسنهم، كما يتتبّع الذُّبابُ المواضعَ الفاسدَة.

١١٤ - موت الرّؤساءِ أسهل من رياسة السِّفِلَة.

١١٥ - ينبغي لمن وَلِيَ أمرَ قوم أن يبدأ بتقويم نفسه قبل أن يشرع في تقويم رعيَّته، وإلا كان بمنزلة من رام استقامة ظِلِّ العُود قبلَ أن يستقيم ذَلِكَ العُود.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.

١١٦ - إذا قويَ الوالي في عمله حَرَّكَتْهُ ولايته على حسب ما هو مركوز في طبْعه من الخير والشرّ.

١١٧ - ينبغي للوالي أن يعمل بخصالٍ ثلاث: تأخيرِ العقوبة مِنهُ في سلطان الغضب، والأناةِ فيما يرتئيه من رأي، وتعجيل مكافأة المحسن بالإحسانِ، فإنّ في تأخير العقوبة إمكانَ العفوِ، وفي تعجيل المكافأةِ بالإحسان طاعةَ الرعيّة، وفي الأناة انفساحَ الرأي وحَمْدَ العاقبة وَوضُوحَ الصواب.

١١٨ - من حقّ العالم على المتعلّم ألّا يُكْثِرَ عليه السؤالَ، ولا يُعَنِّتَهُ في الجواب، ولا يُلِحّ عليه إذا كسل، ولا يُفْشيَ له سرًّا، ولا يغتابَ عنده أحداً، ولا يطلبَ عثْرَتَهُ، فإذا زلّ تأنَّيْتَ أوْبَتهُ، وقَبِلْتَ معذرته، وأنْ تُعَظِّمَهُ وتُوَقِّرَهُ ما حَفِظَ أمرَ الله وعظَّمه، وألاّ تجلس أمامَه، وإن كانت له حاجةٌ سبقت غيرَك إلى خدمته فيها. ولا تضجرنّ من صحبتهِ، فإنما هُو بمنزلةِ النّخْلة يُنتظَر متى يسقط عليك منها منفعةٌ. وخُصّه بالتَّحية، واحفظ شاهَده وغائبه، وليكن ذلك كُلّه لله عزّ وجلّ، فإنَّ العالِم أفضلُ من الصائم القائم المجاهد في سبيل الله. وإذا مات العالم ثُلِمَ في الإسلام ثُلْمةٌ لا يسدُّها إلّا خَلَفٌ منه. وطالبُ العلمِ تُشَيِّعهُ الملائكة حتى يرجع.

١١٩ - وَصُولٌ مُعْدِمٌ خيرٌ من جافٍ مُكْثِرٍ، ومن أرادَ أنْ ينظر ماله عند الله فلينظر ما لله عنده.

١٢٠ - لقد سبق إلى جنّات عدن أقوامٌ ما كانوا أكْثَرَ الناسِ صلاةً ولا صياماً ولا حجًّا ولا اعتماراً، ولكن عَقَلُوا عن الله أمرَه فحسنت طاعتهُم، وصحّ ورَعهمُ وكَمُلَ يقينُهُم، ففاقوا غيرهم بالحُظْوَةِ وَرَفيعِ المنزلَة.

١٢١ - ما من عَبْدٍ إلّا ومعه ملَك يقيه ما لم يُقَدَّرْ له، فإذا جاءَ القَدَرُ خلاّهُ وإياهُ.

١٢٢ - إنّ الله سبحانه أدّب نبيّهُ ﷺ بقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1]، فلما علم أنه قد تأدَّب، قال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]، فلما استحكم له من رسوله ما أحبّ قالَ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[3].

١٢٣ - كنت أنا والعبّاس وعمر نتذاكر المعروفَ، فقلت أنا: خير المعروفِ سَتْرُهُ، وقال العباسُ: خيرُهُ تصغيرُهُ، وقال عمر: خيرُهُ تعجيلهُ، فخرج علينا رسول الله، فقال: فيم أنتم؟ فذكرنا له، فقال: خيرُهُ أن يكونَ هٰذا كلّه فيه.

١٢٤ - العفوُ يفسد من اللئيم بقَدْرِ ما يصلح من الكريم.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩. (٢) سورة القلم، الآية: ٤.
(٣) سورة الحشر، الآية: ٧.

١٢٥ - إذا خَبُثَ الزّمانُ كَسَدَتِ الفضائلُ وضَرَّتْ، ونَفَقَتِ الرّذائلُ ونفعتْ، وكانَ خوفُ الموسرِ أشدَّ من خوف المعسرِ.

١٢٦ - انظرْ إلى المُتَنَصّحِ إليك، فإن دخل منْ حَيْثُ يُضارُّ الناسَ فلا تقبل نصيحته وتَحَرَّزْ منه، وَإن دَخَل من حيث العَدْلُ والصلاح فاقبلها منه.

١٢٧ - أعداءُ الرَّجل قد يكوُنُون أنفعَ منْ إخوّانه، لأنهمْ يهدونَ إليه عيوبه فيتجنّبها ويخاف شماتتهمْ به فيضبط نعمته ويتحرَّزُ من زوالها بغاية طوقه.

١٢٨ - المِرآةُ التي ينظر الإنسان فيها إلى أخلاقه هي النّاس، لأنه يرى محاسنه من أوليائه منهم، ومساويه من أعدائه فيهم.

١٢٩ - انظرْ وجهكَ كلّ وقت في المِرآةِ، فإن كان حسناً فاستقبح أن تضيف إليه فعلاً قبيحاً وتشينه به، وإن كان قبيحاً فاستقبح أن تَجمع بين قُبحيْن.

١٣٠ - موقع الصواب من الجُهّال مثل موقع الخطأ من العلماءِ.

١٣١ - ذَكِّ قَلبك بالأدَب كما تُذَكّي النار بالحطب.

١٣٢ - كفر النعمة لؤمٌ، وصحبة الجاهل شؤمٌ.

١٣٣ - عاديت من مارَيت.

١٣٤ - لا تصرمْ أخاك على ارتياب، ولا تقطعه دون استعتاب.

١٣٥ - خير المقال ما صدّقه الفعال.

١٣٦ - إذا لم ترزَقْ غِنًى فلا تُحْرَمَنَّ تقوى.

١٣٧ - مَنْ عرَفَ الدنيا لم يحزن للبلوى.

١٣٨ - دَعِ الكذِبَ تَكرُّماً إن لم تَدَعْهُ تأثُّماً.

١٣٩ - الدُّنيا طوّاحة طَرّاحةٌ فضّاحَةٌ، آسِيَةٌ جَرّاحَةٌ.

١٤٠ - الدنْيَا جَمّةُ المصائب، مُرّةُ المشارب، لا تُمَتّع صاحباً بصاحب.

١٤١ - المعتذر من غير ذنب، يوجب على نفسه الذنب.

١٤٢ - من كسل لم يُؤدّ حقًّا.

١٤٣ - كثرة الجدال تورثُ الشكَّ.

١٤٤ - خير القلوب أوعاها.

١٤٥ - الحياءُ لباس سابغٌ، وحجابٌ مانعٌ، وسِترٌ من المساوىء وَاقٍ، وحليفٌ للدِّين،

وموجبٌ للمحبّة، وعَيْنٌ كالئة تَذُودُ عنِ الفسادِ، وتنهى عن الفحشاء. والعجلة في الأمور مَكْسَبَةٌ للمذلّةِ، وزِمامٌ لِلنَّدَامَةِ، وسَلْبٌ للمُرُوءَةِ، وشَيْنٌ لِلْحِجَى، ودَليلٌ على ضَعْفِ العقِيدَةِ.

١٤٦ - إذا بلغ المرْءُ من الدُّنيا فوق قدْره تَنَكَّرَتْ للناس أخلاقُهُ.

١٤٧ - لا تصحب الشِّرِّيرَ فإنّ طبعك يَسْرِق من طبعه شرًّا وأنت لا تعلم.

١٤٨ - موتُ الصالح راحة لنفسه، وموت الطالح راحة للناس.

١٤٩ - ينبغي للعاقل أنْ يتذكّر عند حلاوة الغذاءِ مرارة الدواءِ.

١٥٠ - إن حَسَدَكَ أخٌ من إخوانك على فضيلة ظهرَت منك فسعى في مكروهك فلا تقابله بمثل ما كافحك به، فتعذِر نفسه في الإساءَة إليك، وَتشرع له طريقاً إلى ما يُحِبُّهُ فيك، لكن اجتَهِدْ في التَّزَيُّدِ من تلك الفضيلة التي حَسَدك عليها، فإنك تسوءُهُ من غير أن تُوجدَه حجةً عليك.

١٥١ - إذا أردت أن تعرف طبع الرَّجل فاسْتَشِرْهُ، فإنك تقف من مشورته على عدله وجَوْرِهِ، وخَيْرِه وشَرِّهِ.

١٥٢ - يَجبُ عَلَيْكَ أن تُشْفِقَ على وَلدكَ أكثر من إشفاقه عليك.

١٥٣ - زمان الجائر من السلاطين والولاة أقْصَرُ من زمان العادلِ، لأنّ الجائر مفسِد، والعادلَ مصلح، وإفساد الشيءِ أسْرع من إصلاحه.

١٥٤ - إذا خدمتَ رئيساً فلا تَلْبَسْ مثلَ ثوبه، ولا تركب مثل مَرْكوبه، ولا تستخدم كخدمِهِ، فعساك تسلم منه.

١٥٥ - لا تُحدِّثْ بالعلم السفهاءَ فيُكَذِّبوك، ولا الجهال فَيَسْتَثْقِلُوكَ، ولكن حَدِّثْ بهِ منْ يَتَلَقَّاهُ من أهله بقبولٍ وفَهمٍ يفهم عنكَ ما تَقول، ويكتم عليك ما يسمع، فإن لعلمِك عليك حقًّا، كما أنّ عليكَ في مالك حقًّا: بَذْلُهُ لمستحقه، ومنْعهُ عنْ غير مستحقِّه.

١٥٦ - اليقين فوق الإيمان، والصبر فوقَ الْيقينِ، ومن أفرط رَجاؤه غلبت الأماني على قلبه واستعبدَتْهُ.

١٥٧ - إيَّاكَ وصاحب السوءِ، فإنَّهُ كالسيف المسلول يروق منْظَرهُ، ويقبح أثرُهُ.

١٥٨ - يابن آدم، احْذرِ الموْت في هذه الدَّارِ قبل أن تصِيرَ إلى دَارٍ تتمنّى الموتَ فيها فلا تجدُهُ.

١٥٩ - منْ أخطأه سهم المنيّةِ قيّدهُ الهَرَمُ.

١٦٠ - منْ سَمِعَ بفاحِشةٍ فأبْدَاها كان كَمَنْ أتاها.

١٦١ - العاقل من اتّهمَ رأيَهُ ولمْ يثِقْ بِما سَوَّلَتْهُ له نفْسُهُ.

١٦٢ - مَنْ سامح نفسه فيما يحبّ أتعبها فيما لا يحبّ.

١٦٣ - كفى ما مضى مُخْبِراً عمَّا بَقِيَ، وكفى عِبَراً لِذَوي الألباب ما جَرَّبُوا.

١٦٤ - أمرٌ لا تَدْرِي متى يغْشاكَ، ما يَمنعك أن تستعدَّ له قبل أن يفجأك!

١٦٥ - ليس في البرْق الخاطف مُسْتَمْتَع لمن يخوض في الظلمة.

١٦٦ - إذا أعْجَبَك ما يَتَواصَفُهُ النَّاسُ مِنْ مَحاسِنِكَ، فانْظُرْ فيما بطن من مَساوِئك، ولتَكُنْ معرفَتُك بنَفْسِكَ أوثَقَ عِنْدَكَ مِنْ مَدْحِ المادِحِينَ لك.

١٦٧ - مَنْ مدحك بما ليس فِيكَ من الجميل وهُو رَاضٍ عنك ذَمَّك بما لَيْسَ فِيكَ مِنَ القَبِيح وَهُوَ ساخِطٌ عَلَيْكَ.

١٦٨ - إذا تَشَبَّه صاحِبُ الرياءِ بالمُخْلصِين في الهيْئة كانَ مثْلَ الوَارِمِ الّذِي يوهِمُ النَّاسَ أنّهُ سَمِينٌ، فَيَظُنُّ النَّاس ذلِكَ فِيهِ وَهُو يستر ما يَلْقىٰ مِنَ الألَمِ التَّابع لِلوَرَمِ.

١٦٩ - إذا قويَتْ نَفْس الإنْسانِ انْقَطَع إلى الرَّأي، وَإذ ضعفتْ انقطعَ إلى البَخْتِ.

١٧٠ - الرغبة إلى الكريم تُحَرِّكُهُ على البذلِ، وإلى الخسِيسِ تَغْرِيهِ بالمَنْعِ.

١٧١ - خيارُ النَّاسِ يَتَرَفَّعُون عنْ ذِكْر مَعايبِ النَّاسِ، ويتهمُون المُخْبِرَ بِها، ويأثرُونَ الفَضائل، ويَتَعَصَّبُونَ لِأهْلِها، ويستعرضُونَ مآثِرَ الرُّؤساءِ، وإفضالَهُمْ عليهم، ويُطالِبُون أنفسهمْ بالمكافأةِ عَليها وَحُسْنِ الرِّعايةِ لَها.

١٧٢ - لِكلِّ شيءٍ قُوتٌ، وأنتم قوتُ الهوامِّ، ومَن مشى على ظهر الأرضِ فإنّ مصيرَهُ إلى بطنها.

١٧٣ - منْ كرم المرْءِ بكاؤُهُ على ما مضىٰ مِنْ زَمانِهِ، وحنينُهُ إلى أوْطانه، وحفظُهُ قديمَ إخوانِهِ.

١٧٤ - وَمنْ دُعائِهِ: اللَّهُمَّ إنْ كنَّا قد قصَّرْنا عن بُلوغِ طاعتِك فقدْ تمسكْنا مِنَ طاعتكَ بأحبّها إليْكَ، لا إلهَ إلَّا أنْت جاءَتْ بالحقِّ مِنْ عِنْدَكِ.

١٧٥ - أصابَتِ الدُّنْيا منْ أمِنَها وأصابَ الدُّنْيا من حَذِرَها.

١٧٦ - ووَقَفَ على قَوْمٍ أُصِيبُوا بمصيبةٍ، فقال: إنْ تَجْزَعُوا فَحَقَّ الرَّحِم بلغتُمْ، وإنْ تَصْبِرُوا فَحَقَّ الله أدّيتم.

١٧٧ - مَكارمُ الأخلاقِ عَشرُ خِصالٍ: السّخاءُ، والحياءُ، والصِّدْقُ، وأداءُ الأمانةِ، والتَّواضعُ، والغَيْرةُ، والشجاعةُ، والحلمُ، والصَّبرُ، والشكرُ.

١٧٨ - منْ أداءِ الأمانَةِ المكافأةُ على الصَّنِيعةِ لأنها كالوَدِيعةِ عِنْدَكَ.

١٧٩ - الخيِّرُ النَّفْسِ تَكُونُ الحرَكَةُ في الخيْرِ عَلَيْهِ سَهلةً مُتيسرةً، والحرَكَةُ في الإِضْرَارِ عَسرةً بَطيئَةً، والشِّرِّيرُ بالضدِّ منْ ذلكَ.

١٨٠ - البُخَلاءُ مِنَ النَّاسِ يَكُونُ تغافلهمْ عنْ عظيم الجرْمِ أسْهَل عليهمْ منَ المكافأةِ على يَسِير الإحْسان.

١٨١ - مثلُ الإنسانِ الحصيف مثلُ الجسمِ الصلْبِ الكثِيف، يَسْخُنُ بطيئاً، وتبرُدُ تلْكَ السُّخونَةُ بأطْوَلَ مِنْ ذَلكَ الزَّمانِ.

١٨٢ - ثلاثةٌ يُرْحمُونَ: عاقِلٌ يجري عليْه حُكمُ جاهلٍ، وضعيفٌ في يدِ ظالِم قويٍّ، وكَرِيمُ قَوْمِ احتاجَ إلى لئيم.

١٨٣ - منْ صحبَ السلطانَ وجبَ أنْ يكُونَ معهُ كرَاكبِ البحْرِ، إنْ سلِم بجسْمه منَ الغَرَق لمْ يسلم بقلبه منَ الفَرَق.

١٨٤ - لا تقبلنَّ في استعمالٍ عمَّا لكَ وأمرائكَ شفاعَةً إلَّا شفاعةَ الكفايةِ والأمانةِ.

١٨٥ - إذا استشارَكَ عدوُّك فجرِّدْ لهُ النصيحةَ، لأنه باستشارتك قَدْ خَرَجَ منْ عدواتك ودخل في مودّتك.

١٨٦ - العدلُ صورةٌ واحدةٌ، والجوْرُ صورٌ كثيرةٌ، ولهذا سهلَ ارتكابُ الجَوْر وصعبَ تحرِّي العدلِ، وهما يشبهانِ الإصابَةَ في الرِّمايةِ والخطأ فيها، وإن الإصابةَ تحتاجُ إلى ارْتياضٍ وتعهّدٍ، والخطأ لا يحتاجُ إلى شيءٍ منْ ذلكَ.

١٨٧ - لا يُخْطىءُ المخلصُ في الدعاءِ إحْدَى ثلاث: ذنبٌ يغفرُ، أو خيرٌ يُعجّلُ، أو شرٌّ يؤجلُ.

١٨٨ - لا ينتصفُ ثلاثةٌ من ثلاثةٍ: برٌّ من فاجرٍ، وعاقلٌ من جاهلٍ، وكريمٌ من لئيمٍ.

١٨٩ - أشرف الملوكِ منْ لم يخالطهُ البطرُ. ولمْ يَحُلْ عن الحقِّ، وأغْنى الأغْنياءِ من لمْ يكُنْ للحرْص أسيراً، وخيْرُ الأصدقاءِ منْ لم يكنْ على إخوانِه مستصعباً، وخيرُ الأخلاق أعونها على التُّقَى والوَرَع.

١٩٠ - أربع القليل منهنّ كثير: النار، والعداوة، والمرض، والفقر.

١٩١ - أربعة من الشقاءِ: جارُ السوءِ، وولد السوءِ، وامْرأةُ السوءِ، والمنزلُ الضيِّقُ.

١٩٢ - أربعة تدعو إلى الجنّةِ: كتمان المصيبةِ، وَكِتمانُ الصدقةِ، وبرُّ الولدينِ، والإكثار من قول لا إله إلّا الله.

١٩٣ - لا تصحبِ الجاهلَ، فإنَّ فيه خصالاً، فاعرفوه بها، يغضب من غير غضب، ويتكلّم في غير نفعٍ، ويُعطي في غير موضعِ الإعطاء، ولا يعرف صديقه من عدوِّه، ويفشي سرّه إلى كلّ أحدٍ.

١٩٤ - إيّاك ومواقفَ الاعتذارِ، فَرُبَّ عذرٍ أثبت الحجّة على صاحبه وإن كان بريئاً.

١٩٥ - الصراطُ ميدانٌ يكثُرُ فيه العثارُ، فالسالم ناجٍ، والعاثرُ هالكٌ.

١٩٦ - لا يعرفُ الفضلَ لأهل الفضل إلا أولو الفضل.

١٩٧ - إنّ لله عباداً في الأرض كأنما رأوا أهلَ الجنةِ في جنّتهم وأهلَ النار في نارهم: اليقين وأنواره لامعةٌ على وجوههم. قلوبهم محزونة، وشرورُهم مأمونةٌ، وأنفسهم عفيفةٌ، وحوائجهم خفيفةٌ، صبروا أياماً قليلةً لراحةٍ طويلة، أما الليل فصافُّون أقدامَهم، تجري دموعهم على خدودهم، يَجْأرون إلى الله سبحانه بأدعيتهم، قد حلا في أفواههم، وحلا في قلوبهم طعمُ مناجاته ولذيذ الخلوة به، قد أقسم الله على نفسه بجلال عزته ليُورثنّهم المقام الأعلى في مقعد صدق عنده، وأما نهارهم فحلماء علماء، بررة، أتقياء، كالقِداح ينظر إليهم الناظر فيقول: مرضى، وما بالقوم من مرضٍ، أوْ يقول: قد خُولطوا: ولعمري لقد خالطهم أمر عظيم جليل.

١٩٨ - عاتبه عثمان فأكثر وهو ساكت، فقال: ما لك لا تقولُ! قال: إن قلت لم أقل إلا ما تكره، وليس لك عندي إلا ما تحبّ.

١٩٩ - بُليتُ في حربِ الجمل بأشدّ الخلقِ شجاعةً، وأكثرِ الخلقِ ثروةً وبذلاً، وأعظِم الخلق في الخلق طاعةً، وأوفى الخلق كيداً وتكثُّراً، بُليتُ بالزبير، لم يردَّ وجهه قطّ، وبيعلى بن منيّة يحمل المال على الإبل الكثيرة ويعطي كلّ رجل ثلاثين ديناراً وفرساً على أنْ يقاتلني، وبعائشةَ ما قالت قطّ بيدها هكذا إلا واتّبعها الناس، وبطلحة لا يدرَكُ غورهِ، ولا يُطال مكره.

٢٠٠ - بعث عثمان بن حُنيف إلى طلحة والزبير، فعاد فقال: يا أميرَ المؤمنين، جئتك بالخيبةِ، فقال: كَلاّ! أصبت خيراً وأُجرت، ثم قال: إن من العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وخلافهما عليّ، أما والله إنهما ليعلمان أني لستُ بدون واحدٍ منهما، اللهم عليك بهما.

٢٠١ - الرِّزق مقسومٌ، والأيامُ دُوَلٌ، والناسُ شرَعٌ سواءٌ، آدم أبوهم، وحوّاء أمهم.

٢٠٢ - قوتُ الأجسام الغذاءُ، وقوت العقول الحكمة، فمتى فقدَ واحد منهما قوّته بار واضمحلّ.

٢٠٣ - الصبر على مشقة العباد يترقى بك إلى شرف الفوز الأكبر.

٢٠٤ - الرُّوحُ حياة البدن والعقل حياة الروح.

٢٠٥ - حقيق بالإنسان أن يخشى الله بالغيب، ويحرس نفسه من العيب، ويزداد خيراً مع الشَّيب.

٢٠٦ - أفضلُ الوُلاة من بقيَ بالعدل ذكره، واستمده من يأتي بعده.

٢٠٧ - قدّم العدل على البطش تظفر بالمحبّة، ولا تستعمل الفعل حيث ينجعُ القول.

٢٠٨ - البخيلُ يسخو من عِرضه بمقدار ما يبخل به من ماله، والسخيُّ يبخل من عِرضه بمقدار ما يسخو به من ماله.

٢٠٩ - فُضِّلَ العقلُ على الهوى، لأنّ العقل يُمَلِّكُكَ الزمان، والهوَى يستعبدك للزّمان.

٢١٠ - كُلُّ ما حملت عليه الحُرَّ احتمله، ورآه زيادة في شرفه، إلا ما حطه جزءاً من حريته، فإنه يأباه ولا يجيب إليه.

٢١١ - إذا منعكَ اللئيمُ البِرّ مع إعظامه حقك، كان أحسن من بذل السخيّ لك إياه مع الاستخفاف بك.

٢١٢ - الملكُ كالنهر العظيم، تستمدُّ منه الجداول، فإنْ كان عذباً عذُبتْ، وإنْ كان ملْحاً مَلحتْ.

٢١٣ - الفرق بين السخاءِ والتبذيرِ أنّ السخيّ يسمح بها يعرف مقداره ومقدار الرغبة فيه إليه، ويضعه بحيث يحسن وضعه، وتزكو عارفته، والمُبذر يسمح بما لا يوازنُ به رغبة الراغب، ولا حقّ القاصد، ولا مقدار ما أولى، ويستفزُّه لذلك خطرةٌ من خطراته، والتصدّي لإطراء مُطْرٍ له بينهما بونٌ بعيد.

٢١٤ - لا تُلاجُ الغضبان، فإنّك تقلقه باللّجاج، ولا تردّه إلى الصواب.

٢١٥ - لا تفرح بسقطة غيرك، فإنك لا تدري ما تتصرّف الأيام بك!

٢١٦ - قليل العلم إذا وقر في القلب كالطَّلّ يصيب الأرض المطمئنّة فتعشب.

٢١٧ - مثلُ المؤمنِ الذي يقرأُ القرآن كمثل الأتْرُجّةِ ريحُها طيّب، وطعمُها طيّب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل الريحانة، ريحها طيّب وطعمها مُرٌّ، ومثل الفاجِر الذي لا يقرأ القرآن مثلُ الحنظلة طعمها مُرٌّ ولا ريح لها.

٢١٨ - المؤمن إذا نظر اعتبر، وإذا سكتَ تفكَّرَ، وإذا تكلم ذكَّرَ، وإذا استغنى شكر، وإذا أصابته شدّة صبر، فهو قريب الرّضا، بعيد السخط، يرضيه عن الله اليسير، ولا يسخطه البلاء الكثير، قوّته لا تبلغ به، ونيّته تبلغ، مغموسة في الخير يدهُ، ينوي كثيراً منَ الخيرِ، ويعملُ بطائفةٍ منهُ، ويتلهفُ على ما فاته منَ الخيرِ كيف لم يعمل بِهِ!

والمنافقُ إذا نظرَ لها، وإذا سكتَ سهَا، وإذا تكلَّمَ لغا، وإذا أصابهُ شِدّةٌ شكا، فهوَ قريبُ السخطِ بعيدُ الرّضا، يُسْخطه على الله اليسيرُ، ولا يُرْضِيهِ الكثيرُ، قُوّتُه تبلُغُ، ونِيّتُهُ لا تبلُغُ، مغموسَةٌ في الشرِّ يدُهُ، ينوي كثيراً من الشَّرِّ، ويعملُ بطائفةٍ منه فيتلهفُ على ما فاتَهُ منَ الشَّرِّ كيفَ لم يأمُرْ بِهِ، وكيفَ لم يعملْ به!

على لِسانِ المؤمنِ نورٌ يسطعُ، وعلى لِسانِ المنافقِ شيطانٌ ينطِقُ.

٢١٩ - سوءُ الظنِّ يَدوِي القلوبَ، ويَتّهِمُ المأمونَ، ويوحِشُ المستأنسَ، ويُغَيِّرُ مودّةَ الإخوانِ.

٢٢٠ - إذا لم يكن في الدُّنيا إلا محتاجٌ فأغنىٰ الناسِ أقنعُهمْ بما رُزِق.

٢٢١ - قيل لَهُ: إنّ دِرْعَكَ صدرٌ لا ظَهْرَ لها، إنَّا نخاف أنْ تُؤْتَى منْ قِبَلِ ظَهْرِكِ، فقالَ: إذا وَلَّيْتُ فلا وَاءَلْتُ.

٢٢٢ - أشدُّ الأشياءِ الإنسانُ، لأنّ أشدّها - فيما يُرَى - الجَبَلُ، والحديد ينحتُ الجبل، والنَّار تأكل الحديدَ، والماءُ يُطْفي النَّارَ، والسحاب يَحْمِل الماءَ، والرِّيحُ يُفرِّقُ السحابَ، والإنسانُ يتّقي منَ الرِّيحِ.

٢٢٣ - إنّما الناسُ في نَفَسٍ معدودٍ، وأمَلٍ ممدودٍ، وأجَلٍ محدودٍ، فلا بُدَّ لِلأجلِ أنْ يتناهى، ولِلنَّفَسِ أنْ يُحصَى، وَلِلأمَلِ أنْ يَنقَضِيَ، ثم قرَأَ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١﴾[1].

٢٢٤ - اللَّهُمَّ لا تجعل الدُّنيا لي سِجناً، ولا فراقَها عَلَيَّ حُزناً، أعوذُ بِكَ منْ دُنْيا تحرِمُني الآخرةَ، ومِنْ أمَلٍ يحرمُني العملَ، ومِنْ حياةٍ تحْرِمُني خيرَ المماتِ.

٢٢٥ - تَعَطَّرُوا بالاستغفارِ لا تفضحكُمْ رائحةُ الذنوبِ.

٢٢٦ - لِلنَّكباتِ غاياتٌ تنتهي إليها، ودَواؤها الصبرُ عَنْها وتَرْكُ الحيلَةِ في إزالتِها، فإنَّ الحيلةَ في إزالتها قَبْلَ انْقِضاءِ مدّتها سببٌ لزيادَتها.

٢٢٧ - لا يَرْضى عنك الحاسِدُ حتى يموت أحدكما.

٢٢٨ - لا يكُون الرَّجلُ سيِّدَ قومِه حتى لا يُبالي أي ثَوْبَيْهِ لَبِس!

٢٢٩ - كتب إلى عامِلٍ له: اعمل بالحق ليومٍ لا يقْضَى فيه إلا بالحقِّ.

٢٣٠ - نظر إلى رجلٍ يغتابُ آخَرَ عِند ابنه الحسن، فقال: يا بنيَّ نزِّه سمعك عنه، فإنه نظر إلى أخبث ما في وعائهِ فأفرغهُ في وعائك.

---

(١) سورة الانفطار، الآيتان: ١٠، ١١.

٢٣١ - احذروا الكلامَ في مجالس الخوف، فإنَّ الخوفَ يُذْهِلُ العقل الذي منه نستمد، ويشغلُهُ بحراسة النفس عن حراسة المذهب الذي نَرُوم نُصرته. واحذر الغضب ممن يحمِلُكَ عليه، فإنهُ مميتٌ للخواطِر، مانعٌ مِن التثبُّت. واحذر مَن تبغِضُه فإن بغضك له يدعوك إلى الضجرِ به، وقليلُ الغَضَب كثير في أذَى النفس والعقل، والضجرُ مضيِّقٌ لِلصَّدر، مُضعفٌ لِقُوَى العقل، واحْذرِ المحافل التي لا إنْصاف لأهلها في التسوية بينك وبين خصمك في الإقبال والاستماع، ولا أدب لهمْ يمنعهم من جَوْرِ الحُكم لك وعليك. واحذر حين تظهرُ العصبية لخصمك بالاعْتراض عَليك وتشييد قَوْله وحجته، فإنَّ ذَلك يهيجُ العصبيّة، والاعتراضُ على هذا الوجه يخلِق الكلام، ويُذْهِبُ بهجة المعاني. واحذر كلام من لا يفهمُ عنك فإنه يُضْجِرك، واحذر استصْغار الخصم فإنه يمنع من التحفُّظِ، ورُبَّ صغير غلب كبيراً!

٢٣٢ - لا تقبلِ الرياسةَ على أهلِ مدينتكَ، فإنهم لا يستقيمونَ لكَ إلا بما تخرج به من شرطِ الرئيس الفاضل.

٢٣٣ - لا تهزأ بخطأ غيرك، فإن المنطق لا يملكهُ، وأَقْلِلْ من الخطأ الَّذِي أنت فيه بقدرِ الصبرِ، واجْعل العقل والحقَّ إمامَيك تَنَل البغية بِهما.

٢٣٤ - الرَّأي يُرِيك غاية الأمر مَبدأهُ.

٢٣٥ - الخيِّرُ من الناس مَن قدر على أن يُصَرِّف نفسه كما يشاءُ ويدفعها عن الشُّرُورِ، والشرِّير من لم يكن كذلك.

٢٣٦ - السُّلْطان الفاضل هو الذي يَحْرُس الفَضائل، ويجود بها لمن دونه، ويرعاها من خاصّته وعامته، حتى تكثر في أيّامه، ويتحسن بها من لم تكن فيه.

٢٣٧ - لِلْكَرِيم رباطان: أحدُهما الرعاية لصديقه وذوي الحرمَة به، والآخر الوفاءُ لمن ألزمه الفضل ما يجب له عليه.

٢٣٨ - إذا تحرَّكتْ صورة الشَّرّ ولم تظهر ولّدت الفَزَع، فإذا ظهرت وَلّدت الألم، وإذا تَحرّكت صورة الخير ولم تظهر وَلدت الفرج، فإذا ظهرت وَلّدَت اللَّذة.

٢٣٩ - الفرقُ بين الاقتصادِ والبُخل، أنّ الاقتصادَ تمسُّك الإنسان بما في يدِه خوفاً على حريَّتِهِ وجاهه من المسألة، فهو يضع الشيء موضعه، ويصبر عمّا لا تدعو ضرورةٌ إليه، ويصل صغير برّه بعظيم بِشره، ولا يستكثر من المودات خوفاً من فرط الإجْحاف به، والبخيل لا يكافىءُ على ما يسدَى إليه، ويمنع أيْضاً اليَسِير من استحَقَّ الكثير، ويصبر لصغير ما يجري عليه على كثيرِ من الذِّلة.

٢٤٠ - لا تحتقِرنّ صغيراً يمكن أن يكبر، ولا قليلاً يمكن أنْ يكثر.

٢٤١ - ما زلتُ مظلوماً مُنذ قَبض الله نبيهُ حتى يوم الناس هذا، ولقد كنت أظلم قبل ظهور الإسلام، ولقد كان أخي عَقِيلٌ يذْنبُ أخي جعْفَر فيضرِبُني.

٢٤٢ - لو كُسِرتْ لي الوسادة لقضيت بين أهل التوراةِ بتوراتهم، وبينَ أهلِ الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهلِ الفرقان بفرقانهم، حتى تُزْهِر تِلْك القضايا إلى الله عَزّ وجَلّ وتقول: يا رب، إن عليًا قضى بين خلقك بقضائك.

٢٤٣ - مَرَّ بدارٍ بالْكوفة في مُراد تبنَى فوقعت مِنها شَظِيَّةٌ على صَلْعَتِهِ فأدمتها، فقال: ما يومي من مُرادٍ بواحِدٍ! اللّهُمّ لا ترفَعها، قالوا: فوالله لقدْ رأينا تلك الدار بين الدور كالشاة الجمّاءِ بين الغنم ذوات القُرُون.

٢٤٤ - أقتلُ الأشياء لعدوك ألّا تُعَرِّفَهُ أنك اتخذته عدوًا.

٢٤٥ - الخِيَرَةُ في ترْكِ الطِّيَرَةِ.

٢٤٦ - قيل له في بعض الحروب: إن جالت الخيلُ أين نطلُبُك؟ قال: حيْثُ تركتموني.

٢٤٧ - شَفيعُ المُذْنب إقراره، وتوْبتهُ اعْتِذَاره.

٢٤٨ - قصمَ ظهري رجلان: جاهل متنسّكٌ وعالمٌ متهتّكٌ.

٢٤٩ - ألا أخبركم بذات نفسي! أما الحسن ففتًى من الفتيان، وصاحبُ جفنةٍ وخوان، ولَوْ التقت حلْقتا البِطان لم يغن عنكم في الحرب غناءَ عُصْفورٍ، وأمّا عبدُ اللّهِ بن جعفر فصاحبُ لهو وظلّ باطل، وأمّا أنا والحُسيْنُ فنحن منكم وأنتم منا.

٢٥٠ - قال في المنبَرِيّةِ: صار ثُمُنُها تُسْعاً على البَدِيهة وهذا من العجائب.

٢٥١ - جاء الأشعَثُ إليه وهو على المنبرِ، فجعل يتخطّى رِقاب النّاس حتى قَرُبَ مِنه ثمَّ قال: يا أمِيرَ المُؤمنين، غلبتنا هذه الحمراءُ على قُرْبِكَ - يعني العجم - فركض المنبر بِرِجله، حتى قال صَعْصَعةُ بنُ صُوحان: ما لنا ولِلأشعث! ليقولَنَّ أمير المؤمنين عليه السلام اليوم في العربِ قولاً لا يزالُ يُذْكرُ، فقال عليه السلام: مَنْ يعذرُني من هؤلاء الضياطرة[1]! يتمرَّغُ أحدهم على فراشه تمرُّغ الحمار، ويَهْجُر قوماً للذكر، أفَتأمُرونني أن أطردهم! ما كنت لِأطردهم فأكون من الجاهلين! أما والذي فلق الحبّة، وبَرَأَ النّسَمة، ليضرِبُنّكُمْ على الدين عَوْداً كما ضربْتُمُوهم عليه بَدْءاً.

٢٥٢ - كان إذا رأى ابْنَ مُلْجَمٍ يقول: أُرِيدُ حَيَاتَهُ... البيت، فيقالُ لهُ: فاقْتُله، فيقولُ: كيف أقتلُ قاتلي!

---

(١) الضياطرة: الضّخام الذين لا غَنَاء عندهم، والواحد ضيطار. اللسان، مادة (ضطر).

٢٥٣ - إلهي ما قدر ذُنوبٍ أُقابلُ بها كرَمك، وما قَدْرُ عِبادةٍ أقابل بها نِعمك! وإني لأرجو أن تَسْتغرق ذُنوبي في كرمِك، كما استغرقتَ أعمالي في نِعَمك.

٢٥٤ - إذا غضب الكريمُ فألِنْ له الكلام، وإذا غضب اللئيمُ فخذ له العصا.

٢٥٥ - غضب العاقل في فعلِهِ، وغضب الجاهل في قولِهِ.

٢٥٦ - رأى رَجلاً يُحدِّث مُنكر الحديث، فقال: يا هذا، أنصف أذُنيك مِن فمك، فإنما جعل الأذنان اثنتين، والفم واحداً، لتسمع أكثر ممَّا تقول.

٢٥٧ - إيَّاك وكثرة الاعتذار، فإن الكذب كثيراً ما يُخالِطُ المعاذير.

٢٥٨ - اشكر لمن أنعم عليك وأنعم على مَنْ شكرك.

٢٥٩ - سلْ مَسْألَةَ الحمقى واحفظ حفظ الأكياس.

٢٦٠ - مرُوا الأحداثَ بالمراءِ والجِدَال، والكهُولَ بالفكرِ، والشيوخَ بالصمْتِ.

٢٦١ - عوِّدْ نفسكَ الصبْر على جليس السوءِ، فليْسَ يكادُ يخطئكَ.

٢٦٢ - يا بنيَّ إنّ الشَّرّ تارِكُكَ إنْ تركْتَهُ.

٢٦٣ - لا تطلبوا الحاجَة إلى ثلاثة: إلى الكَذُوبِ، فإنهُ يقرِّبُها وإن كانت بعيدةً، ولا إلى أحمقَ، فإنه يريدُ أن ينفعك فيضرُّك، ولا إلى رجل له إلى صاحب الحاجة حاجةٌ، فإنهُ يجعلُ حاجتكَ وقايةً لحاجتهِ.

٢٦٤ - إياكَ وصدرَ المجلسِ فإنهُ مَجلسُ قُلْعةٍ.

٢٦٥ - احذرُوا صوْلة الكريمِ إذا جاع، وصوْلة اللّئيم إذَا شبعَ.

٢٦٦ - سرُّكَ دمكَ فلا تُجْرِينّه إلّا في أوْدَاجك.

٢٦٧ - وسُئل عنِ الفرق بين الغمِّ والخوْفِ، فقال: الخوفُ مجاهدةُ الأمرِ المخوفِ قبل وُقُوعِهِ، والغمُّ ما يلحقُ الإنسانَ من وقوعهِ.

٢٦٨ - المعْروف كنْز فانظرْ عند من تودعهُ.

٢٦٩ - إذا أرْسِلت لبعْر فلا تأت بتمرٍ فيؤكلُ تمرُك وتعنف على خلافك.

٢٧٠ - إذا وقع في يدِك يومُ السُّرُورِ فلا تخلّه فإنّك إذا وقعت في يدِ يومِ الغم لمْ يُخلّك.

٢٧١ - إذا أردتَ أنْ تصادقَ رجلاً فانظرْ، من عدوُّه؟

٢٧٢ - الانقباضُ من النَّاس مكْسبةٌ للعداوَةِ، والانبساطُ مجلبةٌ لقرين السوءِ، فكن بيْن المنقبض والمسترْسل، فإن خيْر الأمور أوساطها.

٢٧٣ - أنا عبد اللّه، وأخو رسولِ الله، لا يقولها بعْدِي إلّا كذّابٌ.

٢٧٤ - أخذ رسول الله ﷺ بيدِي فهزّها، وقالَ: ما أوّلُ نعمةٍ أنعمَ الله بها عَليك؟ قلتُ: أنْ خلقني حيًا، وأقْدَرَني، وأكمل حواسِّي ومشاعري وقوَاي، قال: ثم ماذا؟ قلتُ: أن جعلني ذَكراً، ولم يَجعلني أنثى، قالَ والثّالثةُ: قلت: أن هداني للإسلام، قال: والرابعة؟ قلت: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[1].

٢٧٥ - اللهم إني أسألكَ إخباتَ المخبتين، وإخلاص الموقنين، ومرافقة الأبرار، والعزيمةَ في كلِّ برٍّ، والسلامة منْ كلّ إثم، والفوْز بالجنَّةِ، والنجاةَ من النارِ.

٢٧٦ - لما ضربه ابن ملجم وأوْصى ابنيه بما أوصاهما قالَ لابن الحنفيّة: هل فهمت ما أوصيتُ به أخويك؟ قال: نعمْ، قال: فإني أوصيكَ بمثله وبتوقيرِ أخويك، واتباع أمرهما، وألاّ تبرم أمراً دونهما، ثم قال لهما: أوصيكما بهِ فإنهُ شقيقكما وابن أبيكما، وقد علمتما أن أباكما كان يحبّه فأحِبّاهُ.

٢٧٧ - أمّا هذا الأعور - يعني الأشعث - فإن الله لم يرفعْ شَرَفاً إلّا حسده، ولا أظهَر فضلاً إلا عابهُ وهوَ يُمنِّي نفسَهُ ويخدعها، يخافُ ويرجو، فهُوَ بينهما لا يثِقُ بواحِدٍ منهما، وقَدْ منَّ الله عليه بأن جعلَهُ جباناً، ولو كانَ شجاعاً لقتلهُ الحقُّ، وأمّا هذا الأكثفُ عندَ الجاهليّةِ - يعني جَريرَ بن عبد اللّه البَجَليّ - فهو يرى كلَّ أحَدٍ دونَهُ، ويستصغرُ كُلَّ أحَدٍ ويحتقرُهُ، قد مُلِيءَ ناراً، وهُوَ مع ذلك يطلبُ رئاسَةً، ويَرُومُ إمارةً، وهذا الأعورُ يُغْويه ويُطْغيه، إن حدَّثَهُ كَذَبَهُ، وإن قامَ دُونَهُ نَكصَ عنهُ، فهما كالشيطانِ إذ قالَ للإنسانِ: اكفُرْ فلمّا كَفَرَ قالَ إنّي بَريءٌ منكَ إنّي أخافُ الله رَبَّ العالمينَ.

٢٧٨ - بُلوغُ أعْلَى المنازِلِ بِغيرِ استحقاقٍ منْ أكبرِ أسبابِ الهلَكةِ.

٢٧٩ - الكلمةُ إذا خرجتْ منَ القلبِ وقعتْ في القلبِ، وإذا خَرَجَتْ منَ اللسانِ لم تجاوِزِ الآذانَ.

٢٨٠ - الكرمُ حسنُ الفِطْنةِ، واللؤمُ سوءُ التّغافُلِ.

٢٨١ - أسْوأُ النّاسِ حالاً من اتّسَعَتْ معرفته، وبَعُدَتْ هِمّتُهُ، وضاقَتْ قُدْرَتُهُ.

٢٨٢ - أمران لا ينفكّان مِن الكَذِب: كثْرَةُ المواعيدِ، وشدَّةُ الاعتذارِ.

٢٨٣ - عادَةُ النَّوْكى الجلوسُ فوق القدْر، والمجيءُ في غيرِ الوقت.

٢٨٤ - العافيةُ المُلْكُ الخفيُّ.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٨.

٢٨٥ - سوءُ حمْلِ الغِنَى يورثُ مقتاً، وسوءُ حمل الفاقَةِ يضع شرفاً.

٢٨٦ - لا ينبغي لأحدٍ أن يدَعَ الحزمَ لظفرٍ ناله عاجزٌ، ولا يسامح نفسه في التفريطِ لنكبةٍ دخلتْ على حازمٍ.

٢٨٧ - ليس مِن حسنِ التوكل أن يقالَ العاثِرُ عثرَةً، ثم يركبها ثانية.

٢٨٨ - سوءُ القالةِ في الإنسان إذا كان كذباً نظيرُ الموتِ لفسادِ دنياه، فإن كان صدْقاً فأشدُّ مِنَ الموتِ لفسادِ آخرتهِ.

٢٨٩ - ترضى الكرامُ بالكلامِ، وتُصادُ اللِّئامُ بالمالِ، وتُسْتصلَحُ السِّفلةُ بالهوانِ.

٢٩٠ - لا يزالُ المرءُ مستمرًّا ما لم يعثرْ، فإذا عثَرَ مرَّةً لَجَّ بهِ العِثار ولو كان في جَدَدٍ.

٢٩١ - المتواضع كالوهْدَةِ يجتمعُ فيها قَطْرُها وقَطْرُ غيرها، والمُتَكَبِّرُ كالرَّبْوَةِ لا يقرُّ عليها قطرُها، ولا قطرُ غيرِها.

٢٩٢ - لا يصبرُ على الحربِ ويَصْدُقُ في اللقاءِ إلا ثلاثةٌ: مستبصِرٌ في دِينٍ، أو غيْرَانٌ على حُرْمَةٍ، أو ممتعِضٌ من ذُلٍّ.

٢٩٣ - مجاوزتك ما يكفيك فَقْرٌ لا منتهى لهُ.

٢٩٤ - قيل له: أيّ الأمورِ أعْجَلُ عقوبةً، وأسرع لصاحِبها صرْعةً؟ فقال: ظلم مَنْ لا ناصِرَ له إلّا الله، ومجازاةُ النِّعَمِ بالتَّقْصِيرِ، واستطالَةُ الغَنِيّ على الفقيرِ.

٢٩٥ - الجِماعُ للمِحَنِ جَمَّاعٌ، وللخيراتِ منَّاعٌ، حياءٌ يرتفعُ، وعوراتٌ تجتمعُ، أشبه شيءٍ بالجُنُونِ، ولذلك حُجِبَ عنِ العيونِ، نتيجتُهُ ولَدٌ فَتُونٌ، إن عاشَ كدَّ، وإن ماتَ هدَّ.

٢٩٦ - ما شيءٌ أهْونَ مِنْ ورعٍ، وإذا رابكَ أمرٌ فَدَعْهُ.

٢٩٧ - إذا أتى عَلَيَّ يومٌ لا أزدادُ فيه عملاً يقرِّبُني إلى الله، فلا بورِكَ لي في طلوع شمسِ ذلك اليومِ.

٢٩٨ - أشرف الأشياءِ العلمُ، والله تعالى عالِمٌ يُحِبُّ كل عالِمٍ.

٢٩٩ - ليْتَ شعْري أيَّ شيءٍ أدركَ مَنْ فاتهُ العلمُ! بل أيّ شيءٍ فات من أدْرك العلْم!

٣٠٠ - لا يسودُ الرجل حتَّى لا يُبالي في أيّ ثوبيه ظهرَ.

٣٠١ - سمع رجلاً يدعُو لصاحبه، فقال: لا أراك الله مكرُوهاً، فقال: إنما دعوْتَ لهُ بالموْت، لأنّ منْ عاشَ في الدُّنيا لا بُدَّ أن يرَى المكْروهَ.

٣٠٢ - من صفةِ العاقل ألّا يَتَحدّث بما يُسْتطاعُ تكْذيبهُ فيه.

٣٠٣ - السعيدُ منْ وُعظَ بغيرِهِ، والشقيّ من اتَّعظ به غيرُه.

٣٠٤ - ذو الهمّة وإنْ حطّ نفسَه يأبى إلّا علوًّا، كالشعلة مَن النّار يخفيها صاحبها، وتأبى إلّا ارتفاعاً.

٣٠٥ - الدَّينُ غلّ الله في أرْضِهِ، إذا أراد أن يُذِلّ عبداً جعلَه في عنقِهِ.

٣٠٦ - العاقل إذا تكلم بكلمة أتبعها حكْمةً ومثلاً، والأحمقُ إذا تكلم بكلمةٍ أتبعها حَلِفاً.

٣٠٧ - الحركةُ لقاح الجدِّ العظيمِ.

٣٠٨ - ثلاثةٌ لا يُستحى من الختْم عليْها: المالُ لنفي التهْمةِ، والجوهرُ لنفاسته، والدواءُ للاحتياطِ مِن العدوّ.

٣٠٩ - إذا أيسرت فكلُّ الرجال رجالك، وإذا أعسرتَ أنكرك أهلك.

٣١٠ - من الحكمة جعل المَال في أيْدِي الجهال، فإنَّهُ لو خُصَّ به العقلاءُ لمات الجهالُ جُوعاً، ولكنهُ جُعلَ في أيدي الجهّالِ، ثم استنزلهمْ عنه العقلاءُ بلطفهم وفطنتهم.

٣١١ - ما ردَّ أحدٌ أحداً عن حاجة إلّا وتبيَّنَ العزُّ في قفاه، والذلُّ في وجههِ.

٣١٢ - ابتداءُ الصنيعة نافلةٌ، وربُّها فريضةٌ.

٣١٣ - الحاسدُ المبطنُ للحسدِ كالنحلِ يمجُّ الدَّوَاءَ، ويبطنُ الداءَ.

٣١٤ - الحاسدُ يرى زوَال نعمتِكَ نعمةً عليْهِ.

٣١٥ - التَّواضع إحْدى مصايد الشرف.

٣١٦ - تواضعُ الرَّجُل في مرتبتِه ذَبٌّ للشماتةِ عنهُ عِندَ سقْطتهِ.

٣١٧ - رُبَّ صلَفٍ أدَّى إلى تلَف.

٣١٨ - سوءُ الخلقِ يُعْدِي، وذاكَ أنهُ يدْعُو صاحبك إلى أن يقابلكَ بمثْلِهِ.

٣١٩ - المروءة التّامة مُبايَنةُ العامَّةِ.

٣٢٠ - أسوأ ما في الكرِيم أن يمنعك نداهُ، وأحسنُ ما في اللّئيم أنْ يكفَّ عنك أذاهُ.

٣٢١ - السفلةُ إذا تعلمُوا تكبّرُوا، وإذا تموَّلُوا اسْتطالُوا، والعِلْيةُ إذا تعلّمُوا تواضعوا، وإذا افتقروا صالُوا.

٣٢٢ - ثلاثٌ لا يُسْتصلَحُ فسادُهُنَّ بحيلةٍ أصْلاً: العداوةُ بيْنَ الأقاربِ، وتحاسدُ الأكْفاءِ، وركاكةُ المُلُوكِ.

٣٢٣ - السخيُّ شُجاعُ القلب، والبخيلُ شُجاعُ الوجهِ.

٣٢٤ - العزلة توفِّر العرضَ وتستُر الفاقةَ، وترفعُ ثقل المكافأةِ.

٣٢٥ - ما احتنكَ أحدٌ قطُّ إلا أحبَّ الخلوةَ والعزلة.

٣٢٦ - خيرُ الناس من لَمْ تجرِّبْهُ.

٣٢٧ - الكريم لا يلينُ على قسرٍ، ولا يَقْسُو على يسرٍ.

٣٢٨ - المرأةُ إذا أحبتك آذتك، وإذا أبغضتك خانتك وربما قتلتكَ، فحُبُّها أذى، وبغضها داءٌ بلا دَوَاءٍ.

٣٢٩ - المرأةُ تكتمُ الحبّ أربعين سنةً، ولا تكتمُ البغض ساعةً وَاحِدةً.

٣٣٠ - المُمتحنُ كالمختنق، كلَّما ازْداد اضطراباً ازداد اختناقاً.

٣٣١ - كلُّ ما لا ينتقلُ بانتقالك مِنْ مالك فهو كفيل بك.

٣٣٢ - أجلُّ ما يَنزِلُ مِن السماء التوْفيقُ، وأجلُّ ما يصعدُ مِنَ الأرْض الإخلاصُ.

٣٣٣ - اثنان يهونُ عليهما كلُّ شيءٍ: عالمٌ عرَف العواقب، وجاهل يجهلُ ما هو فيهِ.

٣٣٤ - شرٌّ من المؤتِ ما إذا نزلَ تمنَّيتَ بنزولهِ الموتَ، وخيْرٌ من الحياةِ ما إذا فقدته أبغضتَ لفقْدِه الحياةَ.

٣٣٥ - ما وَضعَ أحدٌ يدَهُ في طعامِ أحدٍ إلا ذلّ له.

٣٣٦ - المرأةُ كالنعل يلبسها الرجلُ إذا شاء، لا إذا شاءَتْ.

٣٣٧ - أبصرُ الناس لعوَار النَّاس المِعورُ.

٣٣٨ - العجبُ ممنْ يخافُ عقوبة السلطان وهي منقطعةٌ، ولا يخافُ عقوبة الدَّيان وهي دائمة.

٣٣٩ - من عرف نفسَهُ فقد عرف ربّه.

٣٤٠ - من عجز عن معْرِفةِ نفسِهِ فهو عن معرفة خالقهِ أعجزُ.

٣٤١ - لو تكاشفتُمْ لما تدافنتُمْ.

٣٤٢ - شيطان كلّ إنسانٍ نفسهُ.

٣٤٣ - إنْ لمْ تعلمْ منْ أينَ جِئت، لمْ تَعْلَمْ إلى أيْن تذهبُ!

٣٤٤ - غايةُ كلّ مُتعمِّقٍ في معرفَةِ الخالقِ سبحانهُ الاعترافُ بالقصورِ عن إدراكها.

٣٤٥ - الكمالُ في خمس: ألّا يعيبَ الرجلُ أحداً بعيبٍ فيهِ مثلهُ حتَّى يصلِحَ ذَلكَ الْعَيْب مِنْ نفسهِ، فإنهُ لا يفرغُ منْ إصلاحِ عيْبٍ من عُيوبهِ حتَّى يهجم على آخرَ فتشغله عُيوبهُ عن عُيوب النَّاس، وألاّ يطلقَ لسانه ويدهُ حتَّى يعلم أفِي طاعةٍ ذلك أمْ في معصيةٍ، وألاّ يلتمسَ مِن النَّاسِ

إلّا ما يعطيهمْ منْ نفسهِ مثلَهُ، وأنْ يَسلَم منَ النّاسِ باستشعارِ مُداراتهمْ وتوفيتهمْ حُقوقهمْ، وأن يُنفقَ الفضلَ منْ ماله، ويمسكَ الفضل منْ قولهِ.

٣٤٦ - صَدِيق البخيل مَن لم يُجَرِّبْهُ.

٣٤٧ - من الخيط الضعيف يُفْتَل الحبل الحَصيف، ومن مقدحةٍ صغيرةٍ تحترق مدينةٌ كبيرةٌ، ومن لَبِنَةٍ لَبِنَةٍ تُبنى قَرْيَةٌ حصينةٌ.

٣٤٨ - مُحِبُّ الدراهِمِ مَعذُورٌ وإن أدْنَتْهُ من الدُّنْيا، لأنها صانتهُ عن أبناءِ الدُّنيا.

٣٤٩ - عجباً لمن قيل فيهِ الخيرُ وليس فيه كيف يَفْرَح! وعجباً لمن قِيل فيه الشرُّ وليْسَ فيه كيف يغضبُ!

٣٥٠ - ثلاث مُوبقاتٌ: الكِبْرُ فإنه حطَّ إبليس عن مَرْتبتِهِ، والحِرْصُ فإنه أخرج آدم من الجنّةِ، والحسَدُ فإنّهُ دعا ابن آدم إلى قَتْلِ أخِيهِ.

٣٥١ - الفِطامُ عن الحُطامِ شَدِيدٌ.

٣٥٢ - إذا أقبلَتِ الدُّنيا أقبلت على حِمارٍ قَطوفٍ، وإذا أدْبَرَتْ أدبَرَتْ على البُراقِ.

٣٥٣ - أصاب مُتأمّلٌ أو كاد، وأخطأ مستعجلٌ أو كاد.

٣٥٤ - سِتّةٌ لا تُخْطِئُهُمْ الكآبةُ: فَقيرٌ حديث عهدٍ بِغِنًى، ومُكْثِرٌ يخاف على ماله، وطالِبُ مرتبةٍ فَوْق قدرِهِ، والحسودُ، والحقودُ، ومخالِطُ أهل الأدب وليس بأدِيبٍ.

٣٥٥ - طَلَبْتُ الراحة لنفسي فلم أجد شيئاً أروح من تَرْك ما لا يعنيني، وتوحَّشْت في القفرِ البَلْقعِ فلم أرَ وَحْشةً أشدّ من قرين السوء، وشهدت الزُّحوف ولقِيتُ الأقران، فلم أر قِرناً أغلب من المرأةِ، ونظرت إلى كلِّ ما يُذِلُّ العزيز ويكسِرُهُ، فلم أرَ شيئاً أذَلَّ لهُ ولا أكسر من الفاقة.

٣٥٦ - أوّل رأي العاقل آخِرُ رأي الجاهل.

٣٥٧ - المُسْترشِد مُوَقًّى، والمُحْتَرِسُ مُلَقًّى.

٣٥٨ - الحُرُّ عبْدٌ ما طَمِع، والعبْدُ حُرٌّ ما قَنَعَ.

٣٥٩ - ما أحْسَنَ حُسْنَ الظنِّ إلا أنّ فيهِ العَجْزَ، وما أقبَحَ سوءَ الظَّنِّ إلّا أنّ فيه الحزْمَ!

٣٦٠ - ما الحيلَةُ فيما أعْيَى إلا الكفُّ عنه، ولا الرّأي فيما يُنال إلا اليأسُ منه.

٣٦١ - الأحمقُ إذا حُدِّث ذَهل، وإذا حَدَّث عَجِل، وإذا حُمِل على القبيح فعل.

٣٦٢ - إثبات الحُجَّةِ على الجاهل سهلٌ، ولكن إقرارُهُ بها صعبٌ.

٣٦٣ - كما تُعْرف أواني الفَخّار بامْتِحانِها بأصواتها فيعلَمُ الصَّحيح مِنها من المكْسورِ، كذلك يُمْتحنُ الإنسان بمنطِقِهِ فيعرفُ ما عِندَهُ.

٣٦٤ - احتمال الفقرِ أحْسَنُ من احتمال الذُّلّ، لأنّ الصبر على الفقر قناعَةٌ، والصبر على الذل ضراعَةٌ.

٣٦٥ - الدنيا حمقاءُ لا تميلُ إلا إلى أشباهها.

٣٦٦ - السفرُ ميزانُ الأخلاق.

٣٦٧ - العقل مَلِكٌ والخصالُ رعيّتُهُ، فإذا ضعف عن القيام عليها وَصل الخَلَلُ إليها.

٣٦٨ - الكَذَّابُ يُخيف نفسه وهو آمِنٌ.

٣٦٩ - لولا ثلاث لم يُسْلل سَيفٌ: سِلِكٌ أدقُّ من سِلِك، ووَجهٌ أصْبَحُ من وجْهٍ، ولُقْمَةٌ أسْوَغُ من لُقمةٍ.

٣٧٠ - قد يَحْسُن الامتنانُ بالنعمةِ وذلك عند كُفْرانِها، ولولا أن بني إسْرائيل كفرُوا النِّعْمة لما قال الله لهم: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[1].

٣٧١ - إذا تناهَى الغَمُّ انقطَعَ الدمْعُ.

٣٧٢ - إذا وُلِّيَ صديقك ولايَةً فأصَبْتَه على العُشْرِ مِن صَدَاقَتِهِ فَلَيْسَ بصاحبِ سُوءٍ.

٣٧٣ - أعْجَبُ الأشياءِ بديهةُ أمْنٍ وَرَدَتْ في مَقامِ خَوْفٍ.

٣٧٤ - الحرصُ مَحْرمَةٌ والجبنُ مقتَلةٌ، وإلا فانظر فيمن رأيت وسمعت: أمَنْ قُتِلَ في الحربِ مُقبلاً أكثرُ، أم مَن قُتل مُدْبراً! وانظر: أمَن يَطلُب بالإجمال والتكَرُّم أحقُّ أن تسخو نَفْسُكَ لَهُ أمْ مَن يطْلُبُ بالشرَهِ والحِرْص!

٣٧٥ - إذا كان العقل تسعة أجزاء احتاج إلى جُزْء من جهل ليُقْدِم به صاحبه على الأمور، فإنّ العاقل أبداً متوانٍ مترقب متخوّف.

٣٧٦ - عملُ الرَّجلِ بما يعلمُ أنه خطأٌ هَوًى، والهوَى آفةُ العفافِ، وتَرْكُ العملِ بما يعلمُ أنه صوابٌ تهاوُنٌ، والتهاوُنُ آفةُ الدينِ، وإقدامُه على ما لا يدري أصوابٌ هو أم خطأٌ لجاجٌ واللجاج آفةُ العقل.

٣٧٧ - ضعفُ العقل أمانٌ منَ الغمّ.

٣٧٨ - لا ينبغي للعاقلِ أنْ يمدحَ امرأةً حتى تموتَ، ولا طعاماً حتى يستمرئه، ولا صديقاً حتى يستقرضهُ، وليس مِنْ حُسْنِ الجِوارِ تَرْكُ الأذى، ولكن حُسْنُ الجِوارِ الصبرُ على الأذى.

٣٧٩ - لا يتأدبُ العبدُ بالكلامِ إذا وثِقَ بأنه لا يُضرَبُ.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٢.

٣٨٠ - الفَرْقُ بين المؤمنِ والكافِرِ الصلاةُ، فمن تركها وادّعى الإيمان كذَّبه فِعْلُهُ، وكان عليه شاهدٌ مِنْ نَفْسِهِ.

٣٨١ - منْ خاف الله خافه كل شيء.

٣٨٢ - منَ النقصِ أن يكونُ شفيعُكَ شيئاً خارجاً عن ذاتِكَ وصفاتِكَ.

٣٨٣ - ويلي على العبدِ اللئيم، عبد بني ربيعةَ! نزع به عِرْقُ الشِّركِ العبشِميّ إلى مساءتي، وتذكَّرُ دَمِ الوليدِ وعتبةَ وشيبةَ أَوْلَى له، والله ليرَيَنّي في موقِفٍ يسوءُهُ ثم لا يجدُ هناكَ فُلاناً وفلاناً - يعني سالماً مَوْلَى حُذَيْفَةَ.

٣٨٤ - أنا قاتِلُ الأقرَان، ومُجَدِّلُ الشجْعانِ، أنا الذي فقأْتُ عينَ الشِّرْكِ، وثَلَلْتُ عرشَهُ، غيرَ مُمْتَنٍّ على الله بجِهادي، ولا مُدِلٌ إليه بطاعتي، ولكن أُحَدِّثُ بنعمة ربِّي.

٣٨٥ - الصَّوْمُ عبادةٌ بين العبدِ وخالقهِ، لا يَطّلِعُ عليها غيرُه، وكذلك لا يجازي عنها غيْرُه.

٣٨٦ - طوبى لِمَن شغله عَيْبُهُ عن عيوب الناس! طوبى لِمَنْ لا يعرفُ الناسَ ولا يعرِفُهُ الناسُ! طوبَى لمن كان حيًا كميّتٍ، وموجوداً كمعْدُومٍ، قد كفى جاره خَيرَهُ وشَرَّهُ، لا يسألُ عنِ الناس، ولا يسألُ الناسُ عنه.

٣٨٧ - ما السيفُ الصارمُ في كفّ الشجاعِ بأعَزّ له من الصِّدْقِ.

٣٨٨ - لا يكن فَقْرُكَ كُفراً، وغناك طغياناً.

٣٨٩ - ثمرةُ القناعةِ الرَّاحةُ، وثمرةُ التَّواضُع المحبّة.

٣٩٠ - الكريمُ يلينُ إذا استُعطِفَ، واللئيمُ يقسو إذا لُوطِفَ.

٣٩١ - أنْكَى لِعَدُوِّك ألّا تُريَهُ أنك اتَّخَذْته عدوًا.

٣٩٢ - عذابانِ لا يأْبَهُ الناسُ لهما: السفرُ البعيدُ، والبناءُ الكثير.

٣٩٣ - ثلاثة يُؤْثرون المالَ على أنفسهم: تاجر البحر، وصاحب السلطان، والمُرْتَشِي في الحكمِ.

٣٩٤ - أعْجَزُ الناسِ مَنْ قَصَّرَ في طلب الصديق، وأعْجَزُ منه منْ وَجَدَهُ فَضَيَّعَهُ.

٣٩٥ - أشدُّ المشاقّ وعدُ كذَّابٍ لِحَرِيصٍ.

٣٩٦ - العادات قاهِرَاتٌ، فمن اعتاد شيئاً في سرّه وخلوته فضحهُ في جَهْرِهِ وعلانيته.

٣٩٧ - الأخ البارّ مغِيضُ الأسرار.

٣٩٨ - عدمُ المعرفة بالكتابة زمانةٌ خَفِيَّةٌ.

٣٩٩ - قديمُ الحُرْمَةِ وحديثُ التَّوْبَةِ يمحقانِ ما بينهما من الإساءةِ.

٤٠٠ - ركوبُ الخيلِ عِزٌّ، ورُكُوبُ البراذينِ لذَّةٌ، ورُكوبُ البغالِ مَهْرَمَةٌ، ورُكوبُ الحميرِ مَذَلّةٌ.

٤٠١ - العقلُ يظهرُ بالمعاملة، وشِيَمُ الرِّجالِ تُعْرَفُ بالولايةِ.

٤٠٢ - قال له قائلٌ: علِّمْني الحلم، فقال: هوَ الذُّلُّ، فاصطبرْ عليه إنِ استطعتَ.

٤٠٣ - قلتمْ: إنّ فلاناً أفادَ مالاً عظيماً، فهلْ أفادَ أيّاماً يُنفقُهُ فيها!

٤٠٤ - عيادةُ النَّوْكَى أشدُّ على المريضِ منْ وَجَعِهِ.

٤٠٥ - المريضُ يعادُ، والصحيحُ يُزَارُ.

٤٠٦ - الشيءُ الذي لا يحسُنُ أنْ يقالَ وإن كان حقًّا، مدحُ الإنسانِ نفسَهُ.

٤٠٧ - الشيءُ الذي لا يُسْتغنَى عنه بحالٍ من الأحوالِ التوفيقُ.

٤٠٨ - أوْسعُ ما يكونُ الكريمُ مغفرةً، إذا ضاقَتْ بالذنبِ المعذِرَةُ.

٤٠٩ - سترُ ما عاينتَ أحسنُ منْ إشاعَةِ ما ظننْتَ.

٤١٠ - التَكبُّرُ على المتكبّرينَ هوَ التواضُعُ بعينه.

٤١١ - إذا رفعْتَ أحداً فوق قدرِهِ فتوقعْ منهُ أن يحطَّ منكَ بقدرِ ما رفعْتَ منه.

٤١٢ - إساءةُ المحسنِ أن يمنعك جذواهُ، وإحسانُ المُسيءِ أن يكفَّ عنكَ أذاهُ.

٤١٣ - اللهمّ إني أستعديكَ على قريش، فإنهمْ أضمَرُوا لِرَسُولِكَ ﷺ ضروباً منَ الشَّرِّ والغدرِ، فعجزوا عنها، وحُلْتَ بينهم وبينها، فكانتِ الوجْبةُ بي، والدَّائرةُ عليّ. اللهمّ احفَظْ حسناً وحسيناً، ولا تمكن فجرةَ قريشٍ منهما ما دمتُ حيًّا، فإذا توفَّيتَني فأنتَ الرَّقيبُ عليهمْ، وأنتَ على كُلِّ شيء شهيدٌ.

٤١٤ - قال له قائلٌ: يا أمير المؤمنينَ، أرأيت لو كان رسولُ الله ﷺ تركَ ولداً ذكراً قد بلغَ الحُلمَ، وآنسَ منه الرشدَ، أكانَتِ العربُ تسلِّم إليه أمرها؟ قال: لا، بل كانتْ تقتُلُه إن لم يفعلْ ما فعلْتُ، إنّ العربَ كَرِهَتْ أمر محمّدٍ ﷺ وحسدتهُ على ما آتاهُ الله منْ فضلِهِ، واستطالت أيّامَهُ حتى قذفَتْ زوجَتهُ، ونَفَّرَتْ به ناقتهُ، مع عظيم إحسانه إليها، وجسيم مِنَنِهِ عندها، وأجمعتْ مُذْ كان حيًّا على صرفِ الأمرِ عن أهلِ بيتِهِ بعد موتِه، ولولا أنّ قريشاً جعلَتِ اسمه ذريعةً إلى الرِّياسةِ، وسُلَّماً إلى العزِّ والإمرةِ، لما عبدت الله بعدَ موتِهِ يوماً واحداً، ولارْتَدَّتْ في حافرتها، وعادَ قارِحُها جَذَعاً، وبازلُها بَكْراً، ثم فتحَ الله عليها الفُتوحَ، فأثرتْ بعد الفاقةِ، وتموّلتْ بعدَ الجُهْدِ والمخمصةِ، فحُسنَ في عيونِها منَ الإسلامِ ما كان سَمِجاً[1]،

---

(١) أي قبيحاً. القاموس، مادة (سمج).

وثبت في قلوب كثير منها من الدِّين ما كان مضطرباً، وقالت: لولا أنّه حقٌّ لما كان كذا، ثم نسبتْ تلكَ الفتوحَ إلى آراءِ وُلاتها، وحُسْنِ تدبيرِ الأمراءِ القائمينَ بها، فتأكَّدَ عندَ الناسِ نباهةُ قومٍ وخمولُ آخرين، فكُنّا نحنُ ممَّنْ خَمل ذكرُهُ، وخبتْ نارُ، وانقطعَ صوتُه وصيتُهُ، حتى أكلَ الدَّهرُ علينا وشربَ، ومضتِ السُّنُونَ والأحقابُ بما فيها، وماتَ كثير ممن يُعرَف، ونشأ كثيرٌ ممنْ لا يُعرَفُ. وما عسى أنْ يكونَ الولدُ لو كان! إنّ رسولَ الله ﷺ لم يُقرِّبْني بما تعلمونهُ منَ القُرْبِ للنسبِ واللُّحمَةِ، بل للجهادِ والنصيحةِ، أفتراهُ لو كان لهُ ولدٌ هل كان يفعلُ ما فعلْتُ! وكذاكَ لم يكنْ يقرّبُ ما قرّبت، ثم لم يكنْ عندَ قريش والعربِ سبباً لِلْحُظْوَةِ والمنزلةِ، بل للحرمانِ والجفوَةِ. اللهمّ إنّكَ تعلمُ أنّي لم أُرِدِ الإمرةَ، ولا علوَّ الملك والرياسة، وإنَّما أردْت القيامَ بحدودكَ، والأداءَ لشرعكَ، ووضعَ الأمورِ في مواضعها، وتوفيرَ الحُقُوقِ على أهلها، والمُضِيَّ على منهاجِ نبيِّكَ، وإرشادَى الضَّالّ إلى أنوارِ هدايتكَ.

٤١٥ - البرُّ ما سكنَتْ إليهِ نفسُكَ، واطمأنّ إليه قلبُكَ، والإثمُ ما جال في نفسك وتردَّدَ في صدرِك.

٤١٦ - الزكاةُ نقصٌ في الصورةِ، وزيادةٌ في المعنى.

٤١٧ - ليس الصومُ الإمساك عن المَأكَلِ والمشربِ، الصومُ الإمساك عنْ كلِّ ما يكرَهُهُ الله سبحانَهُ.

٤١٨ - إذا كان الرّاعي ذِئباً، فالشَّاةُ منْ يحفظُها!

٤١٩ - كلّ شيءٍ يعصيكَ إذا أغضبْتَهُ إلّا الدُّنيا، فإنها تُطيعُكَ إذا أغضبْتَها.

٤٢٠ - رُبَّ مغبوطٍ بنعمةٍ هيَ داؤهُ، ومَرْحومٍ منْ سقم هو شفاؤهُ.

٤٢١ - إذا أرادَ الله أنْ يسلّطَ على عبدٍ عدوًّا لا يرحمه سلط عليهِ حاسداً.

٤٢٢ - شربُ الدَّواءِ للجسدِ كالصابونِ للثّوب، يُنقّيهِ ولكن يُخْلِقه.

٤٢٣ - الحسد خُلقٌ دنيءٌ، ومنْ دناءَتِهِ أنه موكّلٌ بالأقربِ فالأقرب.

٤٢٤ - لو كانَ أحدٌ مكتفياً منَ العلمِ لاكتفى نبيُّ الله موسى، وقد سمعتم قوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[1].

٤٢٥ - أستغفرُ الله ممَّا أمْلك، وأستصلحه فيما لا أملك.

٤٢٦ - إذا قعدتَ وأنتَ صغيرٌ حيث تجِبُ، قعدْتَ وأنتَ كبيرٌ حيث تكْرَه.

٤٢٧ - الولد العاقُّ كالإصبع الزائدةِ، إنْ تُرِكتْ شانت، وإنْ قطعتِ آلَمَتْ.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٦٦.

٤٢٨ - خرجَ العزّ والغِنَى يجولانِ فلقِيا القناعةَ فاستقرّ.

٤٢٩ - الصديق نسيبُ الرُّوح، والأخُ نسيبُ الجسم.

٤٣٠ - جِزْيةُ المؤمن كِرَاءُ منزله، وعذابُهُ سوءُ خُلُقِ زوجته.

٤٣١ - الوَعْدُ وجهٌ والإنجازُ محاسنُهُ.

٤٣٢ - أنعمُ النَّاس عيشاً منْ عاشَ في عيشهِ غيرُهُ.

٤٣٣ - لا تشاتمنّ أحداً، ولا تَرُدَّنَّ سائِلاً، إمَّا هو كريمٌ تَسُدُّ خَلَّته، أو لئيمٌ تشتري عِرضك منه.

٤٣٤ - النَّمّام سهم قاتِلٌ.

٤٣٥ - ثلاثةُ أشياءَ لا دوام لها: المال في يَدِ المُبذِّر، وسحابة الصيف، وغضب العاشق.

٤٣٦ - الزَّاهد في الدِّينار والدِّرهم أعزُّ منَ الدينار والدرهم.

٤٣٧ - ربَّ حربٍ أحيِيَت بلفظةٍ، وربَّ وُدٍّ غُرِس بلحظة.

٤٣٨ - إذا تزوَّج الرَّجل فقد ركب البحر، فإن ولِدَ له فقد كُسِرَ به.

٤٣٩ - صلاحُ كلّ ذي نعمةٍ في خلاف ما فسد عليه.

٤٤٠ - أنعم الناس عيشةً مَن تحلّى بالعفاف، ورضيَ بالكفافِ، وتَجاوَزَ ما يُخاف إلى ما لا يخافُ.

٤٤١ - التَّواضع نعمةٌ لا يفطنُ لها الحاسد.

٤٤٢ - ينبغي للعاقل أن يمنع معروفه الجاهل واللئيم والسفيه، أما الجاهلُ فلا يعرف المعروف ولا يشكر عليه، وأما اللئيم فأرضٌ سِبخة لا تنبِتُ، وأما السفيهُ فيقولُ: إنما أعطاني فَرَقاً من لساني.

٤٤٣ - خير العيش ما لا يُطغيك، ولا يلهيك.

٤٤٤ - ما ضرب الله العباد بسوط أوْجعَ من الفقر.

٤٤٥ - إذا أراد الله أن يزيل عَنْ عبدٍ نعمة كان أول ما يغيِّرُ منه عَقْلُهُ.

٤٤٦ - خيرُ الدُّنيا والآخِرَةِ في خَصْلتين: الغِنَى والتُّقى، وشَرُّ الدُّنيا والآخرة في خصلتين: الفَقْرِ والفُجُورِ.

٤٤٧ - ثمانية إذا أُهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم: الآتي طعاماً لم يُدْعَ إليه، والمُتأمِّرُ على ربِّ البيت في بيتِهِ، وطالب المعروف من غير أهله، والداخل بين اثنين لم يدخلاه، والمستخِفُّ بالسلطان، والجالس مجلساً ليس له بأهلٍ، والمقبلُ بحديثه على مَن لا يسمعهُ، ومن جرَّب المجرَّب.

٤٤٨ - أنفسُ الأعلاق عقلٌ قُرن إليهِ حَظٌّ.

٤٤٩ - اللطافَةُ في الحاجة أجدى من الوسيلة.

٤٥٠ - احتمال نَخْوَةِ الشرف أشدُّ من احتمال بطرِ الغنى، وذلّةُ الفقرِ مانعةٌ من الصبرِ، كما أن عزّ الغنى مانعٌ من كرم الإنصاف، إلا لمن كانَ في غريزته فضْلُ قُوَّة، وأعراقٌ تنازعه إلى بُعد الهمة.

٤٥١ - أبعد الناس سفراً مَن كان في طلب صديقٍ يَرْضاه.

٤٥٢ - استشارَةُ الأعداءِ من باب الخِذْلانِ.

٤٥٣ - الجاهلُ يُعْرَفُ بِستِّ خِصال: الغضب من غير شيء، والكلامِ في غير نفعٍ، والعطيّةِ في غير موضعها، وألاّ يعرف صديقَهُ من عدوّهِ، وإفشاء السِّرّ، والثقةِ بكلِّ أحدٍ.

٤٥٤ - سوءُ العادَةِ كمينٌ لا يُؤْمَنُ.

٤٥٥ - العادةُ طَبيعةٌ ثانيةٌ غالبةٌ.

٤٥٦ - التجَنّي وافِدُ القَطيعةِ.

٤٥٧ - صديقكَ مَن نَهاك، وعدوّك من أغراك.

٤٥٨ - يا عَجَباً من غفلةِ الحسادِ عن سلامَةِ الأجسادِ!

٤٥٩ - من سعادةِ المرْءِ أن يَطُول عمرهُ، ويرى في أعدائه ما يسرّهُ.

٤٦٠ - الضَّغائن تورَثُ كما تورث الأموالِ.

٤٦١ - رُبّ عزيزٍ أذَلّهُ خُرقُهُ، وذَليلٍ أعزَّهُ خُلُقُهُ.

٤٦٢ - لا يصلحُ اللئيمُ لأحدٍ، ولا يستقيمُ إلا من فرَقٍ أو حاجةٍ، فإذا استغنى أو ذهب خوفُهُ عاد إليه جوهرهُ.

٤٦٣ - ثلاثةٌ في المجلس وليسوا فيه: الحاقنُ، والضَّيقُ الخفّ، والسّيِّءُ الظنِّ بأهلهِ.

٤٦٤ - وسُئِلَ: ما أبقى الأشياء في نفوس الناس؟ فقال: أمّا في أنفس العُلماء فالنَّدامَةُ على الذنوب، وأما في نفوس السفهاءِ فالحقدُ.

٤٦٥ - إذا انقضى مُلكُ قوم خُيِّبُوا في آرائهم.

٤٦٦ - الضعيفُ المحترس من العدوِّ القوي أقربُ إلى السلامَةِ مِن القَوي المُغترّ بالعَدُوِّ الضعيفِ.

٤٦٧ - الحزْنُ سوء استكانةٍ، والغضَبُ لُؤْمُ قُدْرَةٍ.

٤٦٨ - كلُّ ما يؤكلُ يُنْتِنُ، وكلُّ ما يوهَبُ يأرَجُ.

٤٦٩ - الطَّرَش في الكرام، والهوَج في الطّوال، والكيْس في القصار، والنُّبْلُ في الرَّبْعةِ، وحسن الخلُق في الحُول، والكِبْر في العُور، والبَهْت في العميان، والذكاء في الخُرْس.

٤٧٠ - ألأم النَّاس مَن سعى بإنسان ضعيف إلى سُلطان جائر.

٤٧١ - أعسر الحِيَل تَصْوير الباطل في صورة الحقّ عند العاقل المُمَيِّز.

٤٧٢ - الغَدْر ذلٌّ حاضِر، والغِيبَةُ لُؤم باطن.

٤٧٣ - القلب الفارغ يبحث عن السوءِ واليد الفارغة تنازع إلى الإثم.

٤٧٤ - لا كثير مع إسْرافٍ، ولا قليل مع احتراف، ولا ذنب مع اعتراف.

٤٧٥ - المُتَعَبِّدُ على غير فِقهٍ كحمارِ الرحا يدور ولا يبرح.

٤٧٦ - المحرومُ منْ طالَ نصبُهُ، وكان لغيرِه مكسبهُ.

٤٧٧ - في الاعتبار غنًى عنِ الاختبار.

٤٧٨ - غيظ البخيلِ على الجوادِ أعجبُ من بخلهِ.

٤٧٩ - أذلُّ الناس مُعتذرٌ إلى اللئيم.

٤٨٠ - أشجعُ الناس أثبتهمْ عقلاً في بداهةِ الخوْف.

٤٨١ - المعتذرُ منتصرٌ، والمعاتبُ مُغاضبٌ.

٤٨٢ - المُروءةُ بلا مالٍ كالأسدِ الذي يُهابُ ولم يفترسْ، وكالسيْف الذي يخافُ وهو مغمدٌ، والمالُ بلا مُرُوءَةٍ كالكلب الذي يجتنبُ عقراً ولم يعقرْ.

٤٨٣ - عليكم بالأدب، فإن كُنتمْ مُلوكاً برزتمْ، وإن كُنتم وَسطاً فقتمْ، وإن أعوزتْكم المعيشةُ عشتم بأدبكم.

٤٨٤ - الملوك حُكّامٌ على الناس، والعلماءُ حُكامٌ على الملوكِ.

٤٨٥ - لا ينبغي للعاقِل أن يكُون إلّا في إحْدى منزلتيْن: إمّا في الغاية القصوى مِن مطالبِ الدُّنْيا، وإمّا في الغايةِ القصوى من الترْك لهَا.

٤٨٦ - من أفضل أعمال البرِّ الجودُ في العسْرِ، والصدقُ في الغضبِ، والعفوُ عنْد القدْرَةِ.

٤٨٧ - إن الله أنعم على العبادِ بقدْرِ قدْرتهِ، وكلفهمْ من الشكْرِ بقدْر قدْرتهمْ.

٤٨٨ - العيشُ في ثلاث: صديقٌ لا يعدُّ عليكَ في أيام صداقتكَ ما يرضى به أيامُ عَداوتكَ، وَزوْجةٌ تسرُّكَ إذا دخلتَ عليها وتحفظ غيبكَ إذا غبتَ عنها، وغلامٌ يأْتي على ما في نفسك كأنهُ قد علمَ ما تريد.

٤٨٩ - تحتاجُ القرابةُ إلى مودَّةٍ ولا تحتاج المودة إلى قرابة.

٤٩٠ - الصابرُ على مخالطةِ الأشرارِ وصحبتهمْ، كراكبِ البحرِ إنْ سلمَ ببَدَنِهِ منَ التلفِ، لم يسلم بقلبه من الحذَر.

٤٩١ - لأخيك عليكَ إذا حزبه أمرٌ أن تشير عليهِ بالرَّأي ما أطاعكَ، وتبذلَ لهُ النصرَ إذا عصاكَ.

٤٩٢ - الغِيبةُ ربيعُ اللئام.

٤٩٣ - أطولُ الناس نصَباً الحريصُ إذا طمع، والحقودُ إذا مُنع.

٤٩٤ - الشريف دُونَ حقِّه يُقتَل ويعطِي نافلةً فوْق الحقّ عليهِ.

٤٩٥ - اجعل عمرَك كنفقةٍ دُفعتْ إليكَ، فكما لا تحبُّ أنْ يذهبَ ما تنفقُ ضياعاً، فلا تذهب عمركَ ضياعاً.

٤٩٦ - منْ أظهر شكْركَ فِيما لم تأتِ إليه، فاحْذر أنْ يكفركَ فِيما أسديْتَ إليه.

٤٩٧ - لا تستعنْ في حاجتكَ بمن هُو للمطلوبِ إليه أنصحُ منهُ لك.

٤٩٨ - لا يؤْمِنَنّك من شرِّ جاهلٍ قرابةٌ ولا جَوارٌ، فإنّ أخوفَ ما تكونُ لحريق النارِ أقربُ ما تكونُ إليها.

٤٩٩ - كنْ في الحرْص على تفقُّدِ عيوبِك كعدوِّكَ.

٥٠٠ - عليك بسوءِ الظنّ، فإنْ أصاب فالحزْم وإلا فالسلامةُ.

٥٠١ - رضا الناسِ غايةٌ لا تدركُ، فتحرَّ الخيْر بجهدِكَ، ولا تبال بسخط من يرضيه الباطلُ.

٥٠٢ - لا تماكِسْ في البيع والشراء، فما يضيعُ من عرضِك أكثرُ مما تنالُ من عَرَضِكَ.

٥٠٣ - الدَّينُ رِقٌّ فلا تبذلْ رِقّكَ لِمَنْ لا يعرفُ حقَّك.

٥٠٤ - احذرْ كلَّ الحذر أنِ يخدعَك الشَّيطان فيمثّل لَكَ التواني في صُورَةِ التَّوكُّل، ويورثُك الهوينَى بالإحالة على القَدَرِ، فإن الله أمَر بالتوكّلِ عِند انقطاع الحيَل، وبالتسليم للقضاءِ بعد الإعذار، فقال: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[1]، ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[2]، وقال النبيّ ﷺ: «اعْقِلْها وتوكل»[3].

(١) سورة النساء، الآية: ٧١. (٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة، باب: منه (٢٥١٧).

٥٠٥ - لا تصحب في السفر غَنيًا، فإنّكَ إنْ ساوَيْتَهُ في الإنفاق أضرَّ بِكَ، وإنْ تَفَضَّلَ عَلَيْكَ اسْتَذَلَّكَ.

٥٠٦ - إذا سألت كريماً حاجَةً فَدَعْهُ يُفَكِّرُ، فإنه لا يفكر إلا في خيرٍ، وإذا سألْتَ لئيماً حاجَةً فغافِصْهُ فإنه إذا فكّر عادَ إلى طَبْعِهِ.

٥٠٧ - ما أقبح بالصَّبيح الوجْهِ أنْ يكون جاهِلاً! كدَارٍ حسنةِ البناء وساكنها شَرٌّ، وكجنة يعمرها بُومٌ، أو صِرْمَةٍ يحرسها ذِئْبٌ.

٥٠٨ - قبيح بذي العقل أنْ يكون بهيمةً وقد أمكنه أن يكون إنساناً، وقد أمكنهُ أن يكون ملَكاً، وأن يرضى لنفسه بقُنْيَةٍ[1] مُعارةٍ وحياةٍ مُسْتَرَدّةٍ، وله أن يتخذ قُنْيَةً مُخَلَّدَةً وحياة مُؤبَّدَةً.

٥٠٩ - الذي يَستحِقُّ اسْم السَّعادة على الحقيقة سعادة الآخرة، وهي أربعة أنواع: بقاءٌ بلا فناءٍ، وعلم بلا جهلٍ، وقُدْرة بلا عجزٍ، وغنًى بلا فقرٍ.

٥١٠ - ما خابَ مَن اسْتَخارَ.

٥١١ - الدَّيِّنُ قد كَشف عن غِطاءِ قلبه، يَرَى مطلوبَه قد طبَّق الخافقين فلا يقعُ بَصَرُهُ على شيءٍ إلَّا رَآهُ فيه.

٥١٢ - من غَرَس النّخل أكلَ الرُّطب، ومَن غرس الصَّفْصاف والعُلَّيْق عدِم ثمرتهُ، وذَهَبَتْ ضياعاً خدمته.

٥١٣ - إذا أردْت العلم والخير فانفض عن يدك أداة الجهل والشرّ، فإنّ الصائغ لا يتهيَّأُ له الصِّياغَةُ إلَّا إذا ألقى أداةَ الفلاحَة عَن يده.

٥١٤ - الصبر مِفتاحُ الفَرَج.

٥١٥ - غاية كلِّ مُتعمِّقٍ في علمنا أن يجهل.

٥١٦ - ستعرف الحال على حقيقتها، ولكن حيثُ لا تستطيع أن تذاكر أحداً بها.

٥١٧ - السعادة التامّة بالعلم، والسعادة الناقصة بالزهد، والعبادةُ من غير علمٍ ولا زهادة تعب الجسد.

٥١٨ - الآمال مطايا، وربما حَسِرتْ، ونَقِبَتْ أخفافُها.

٥١٩ - حبُّ الرياسةِ شاغلٌ عن حبّ الله سبحانه.

٥٢٠ - يا أبا عبيدة، طال عليك العهدُ فنسيت، أم نافَسْت فأنسيت؟ لقد سمعتَها ووعيتَها فَهلاَّ رعيْتَها!

---

(١) القنية: الكِسبة، أي ما اكتسب. القاموس، مادة (قني).

٥٢١ - قال لَمّا سمعتُ خطبة عمرَ بالمدينة التي شرح فيها قصة السقيفةِ: معذرةٌ وربِّ الكعبة، ولكن بعد ماذا! هيهات علقت مَعالِقها، وصَرَّ الجُنْدُب.

٥٢٢ - أوّلُ مَنْ جَرَّأَ الناسَ علينا سعدُ بنُ عبادة، فتح باباً ولَجَهُ غيرُهُ، وأضرمَ ناراً كان لَهبُها عليه، وضوءُها لِأعدائه.

٥٢٣ - ما لنا ولِقُريش! يخْضِمون الدنيا باسمنا، ويطَؤون على رِقابنا، فيالله ولِلعجب! ما اسمِ جليلٍ لِمُسَمّى ذَليلٍ!

٥٢٤ - الخيرُ كُلُّهُ في السيفِ، وما قام هذا الدِّينُ إلّا بالسيف، أتعلمون ما معنى قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[1]؟ هذا هو السيفُ.

٥٢٥ - لم يفُتْ مَن لم يَمُتْ.

٥٢٦ - مَن فسدت بِطانَتُهُ كان كمن غَصَّ بالماء، فإنه لو غَصَّ بغَيْرِه لَأساغ الماءُ غُصّتَهُ.

٥٢٧ - مَن ضَنَّ بِعِرْضِهِ فَلْيَدَعِ المِرَاءَ.

٥٢٨ - مَن أيْقَظ فِتْنةً فهو آكلُها.

٥٢٩ - مَن أثرى كَرُم على أهْله، وَمَن أمْلق هان على وَلَدِهِ.

٥٣٠ - مَن أمّل أحداً هابَهُ، ومَن جهل شيئاً عابَهُ.

٥٣١ - أسْوأُ الناس حالاً مَن لا يثِقُ بأحد لِسُوءِ ظنّه، ولا يثِقُ بِهِ أحدٌ لِسُوءِ أثرِهِ.

٥٣٢ - أحَبُّ النَّاس إليك مَن كثُرَتْ أيادِيه عندك، فإن لم يكن فمن كثرت أياديك عِندهُ.

٥٣٣ - من طال صمتُهُ اجْتَلب من الهيبةِ ما ينفعُهُ، ومن الْوَحشةِ ما لا يَضُرُّهُ.

٥٣٤ - مَن زَاد عقلُه نقص حَظُّهُ، وما جعل الله لأحدٍ عقلاً وافراً إلّا احْتَسَبَ بِهِ عليه من رِزْقه.

٥٣٥ - مَن عمل بالْعَدْل فيمَنْ دُونه، رُزِق العدْل ممَّنْ فوقه.

٥٣٦ - مَن طَلَبَ عِزًّا بِظُلْمٍ وباطلٍ أوْرَثَهُ الله ذلاً بإنْصاف وحقٍّ.

٥٣٧ - من وَطِئتْهُ الأعيُنُ، وطِئَتْهُ الأرجُل.

٥٣٨ - ينادِي مُنادٍ يَوْم القِيامَةِ: مَن كان لهُ أجْرٌ على الله فليقُمْ، فيَقُوم العافون عن الناس، ثم تلا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[2].

٥٣٩ - اصْحَب الناس بأيِّ خُلُقٍ شِئْتَ يَصْحَبُوك بمثلِهِ.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

٥٤٠ - كأنك بالدُّنيا لم تكُنْ، وكأنك بالآخرةِ لم تَزَل.

٥٤١ - قال لِمَرِيضٍ أبَلَّ مِن مَرَضِهِ: إن الله ذكرك فاذْكُرْهُ، وأقالَكَ فاشْكُرْهُ.

٥٤٢ - الدّار دار مَن لا دار لهُ، وبها يفرحُ مَن لا عقل لهُ، فأنْزِلوها مَنْزِلَتَها.

٥٤٣ - لا تَسْتَصْغِرَنَّ أمْر عَدُوِّك إذا حارَبْتَهُ، فإنك إن ظفرت به لم تُحْمَدْ، وإن ظفر بك لم تُعْذَرْ، والضَّعيفُ المحترِس من العدوِّ القَوِي أقرَبُ إلى السلامَةِ مِن القوي المُغْتَرِّ بالضعيف.

٥٤٤ - لا تَصْحب مَن تحتاج إلى أن تكْتمهُ ما يعرف الله مِنك.

٥٤٥ - لا تسأل غير الله، فإنه إن أعْطاك أغناك.

٥٤٦ - الصَّاحبُ كالرُّقعةِ في الثَّوْبِ، فاتخِذْهُ مُشاكِلاً.

٥٤٧ - إياك وَكثرةَ الإخوان، فإنه لا يُؤْذِيك إلا مَن يعرِفُكَ.

٥٤٨ - دَعِ اليمين لله إجْلالاً، ولِلنَّاس إجمالاً.

٥٤٩ - العادَات قاهِراتٌ، فَمَنِ اعْتادَ شَيئاً في سِرِّهِ فَضَحَهُ في عَلانِيَتِهِ.

٥٥٠ - إذا كان لك صَديقٌ ولم تحمد إخاءهُ ومودّتَهُ فلا تُظْهِرْ ذلِكَ للناس، فإنما هو بِمنزِلةِ السَّيف الكليل في مَنْزِل الرَّجُلِ، يُرْهِبُ بِهِ عَدُوَّهُ، ولا يَعْلَمُ العَدُوُّ أصارِمٌ هو أم كليلٌ!

٥٥١ - دَعِ الذنوب قبل أن تَدَعَك.

٥٥٢ - إذا نزل بِكَ مَكروهٌ فانظرْ، فإن كان لك حيلةٌ فلا تَعجز، وإن لم يكُن فيهِ حيلة فلا تجزع.

٥٥٣ - تَعَلَّموا العِلْمَ، فإنهُ زَيْنٌ للغنِيّ وعونٌ للفقير، ولستُ أقولُ إنَّهُ يَطْلبُ بهِ، ولكن يدعُوهُ إلى القناعَةِ.

٥٥٤ - لا تَرضَيَنَّ قَوْلَ أحدٍ حَتَّى تَرْضى فعلَهُ، ولا تَرْضَ فِعْله حَتى تَرْضى عقله، ولا تَرْض عقله حتى تَرْضى حياءَهُ، فإن الإنسان مَطبوعٌ على كرمٍ ولُؤْمٍ، فإن قَوِي الحياءُ عندهُ قويَ الكرمُ، وإن ضَعُفَ الحياءُ قَوِي اللُّؤْمُ.

٥٥٥ - تَعَلَّمُوا العِلْمَ وإن لَمْ تنالوا بهِ حظًّا، فَلأَن يُذَمّ الزَّمان لَكُم أحْسَن من أن يُذَمّ بِكُمْ.

٥٥٦ - اجعل سِرّك إلى واحد، ومشوَرَتَك إلى ألف.

٥٥٧ - إن الله خلق النِّساءَ من عِيٍّ وعَوْرَةٍ، فَدَاوُوا عِيَّهُنَّ بالسكوت، واسْتُرُوا العَوْرَة بالبُيُوتِ.

٥٥٨ - لا تَعِدَنَّ عِدَة لا تثق من نَفسِك بإنجازِها، ولا يَغُرَّنَّك المُرْتَقى السهلُ إذا كان المنْحَدَرُ وَعراً. واعلم أن لِلأعمال جَزاءً فاتّقِ العواقِب، وأنَّ لِلأُمُورِ بَغتاتٍ فَكُنْ على حَذَرٍ.

٥٥٩ - لا تجاهِدِ الطَّلب جهاد المُغالب، ولا تتّكِلْ على القَدَر اتّكالَ المُستَسْلم، فإنّ ابْتغاءَ الفَضْلِ مِن السُّنَّةِ، والإجمال في الطلب من العِفَّةِ، وليست العِفّةُ برافعةٍ رِزْقاً، ولا الحرص بجالبٍ فضلاً.

٥٦٠ - مَن لَمْ تستقم لهُ نفسُهُ، فلا يَلُومَنَّ من لَمْ يَسْتَقِم له.

٥٦١ - من رُجِي الرِّزْقُ لديه صُرِفت أعْناقُ الرِّجال إليه.

٥٦٢ - من انتجَعَكَ مُؤمِّلاً فقد أسْلَفَكَ حُسْن الظنّ.

٥٦٣ - إذا شئت أنْ تُطاعَ فاسْألْ ما يُسْتَطاعُ.

٥٦٤ - من أعذر كمن أنجح.

٥٦٥ - مَنْ كانت الدنيا هَمَّهُ كثُرَ في القيامة غمُّه.

٥٦٦ - من أجمل في الطَّلَب أتاهُ رِزْقُهُ من حَيْثُ لا يحتَسِبُ.

٥٦٧ - مَن ركِب العَجَلة لم يأمن الكبْوَة.

٥٦٨ - مَن لم يثق لم يُوثَق بِه.

٥٦٩ - مَن أفاده الدهرُ أفادَ مِنهُ.

٥٧٠ - مَنْ أكْثَرَ ذِكْرَ الضَّغائِنِ اكْتَسَبَ العَدَاوَةَ.

٥٧١ - منْ لم يَحْمدْ صاحِبَهُ على حسنِ النِّيَّةِ لم يحمدْهُ على حسنِ الصنيعة.

٥٧٢ - تأمّلْ ما تتحدَّث بهِ، فإنما تُمْلي على كاتبيكَ صَحِيفةً يُوصِلانها إلى ربكَ، فانظرْ على منْ تملِي، وإلى منْ تكتبُ.

٥٧٣ - أقم الرَّغبة إليكَ مقَام الحرْمةِ بك، وعظِّمْ نفسكَ عن التعظُّمِ، وتطوَّل ولا تتطاوَلْ.

٥٧٤ - عامِلوا الأحْرارَ بالكرامةِ المحضَة، والأوساط بالرغبة والرَّهْبة، والسِّفلَة بالهوانِ.

٥٧٥ - كنْ للعدُوّ المكاتِم أشدَّ حذراً مِنْك للعدُوّ المبارزِ.

٥٧٦ - احْفظْ شَيْئكَ ممّنْ تَسْتَحْيِي أنْ تسألهُ عنْ مثلِ ذلك الشيءِ إذا ضاعَ لَكَ.

٥٧٧ - إذا كُنتَ في مجلسٍ ولم تكن المحدِّث ولا المحدَّث فقمْ.

٥٧٨ - لا تَسْتصْغرَنَّ حدَثاً من قريش، ولا صَغِيراً من الكُتّاب، ولا صعلوكاً من الفرسانِ. ولا تصادقَنَّ ذمّياً ولا خَصِيًا ولا مؤنثاً، فلا ثبات لمودَّاتهمْ.

٥٧٩ - لا تُدْخِلْ في مشورتكَ بخيلاً فيقصّرَ بفعلِك، ولا جبَاناً فيخوّفَكَ ما لا تخافُ، ولا حريصاً فيعدَكَ ما لا يُرْجَى، فإنَّ الجبنَ والبُخْل والحرْص طبيعة وَاحدةٌ، يجمعها سُوءُ الظنِّ بالله تعالى.

٥٨٠ - لا تكن مِمَّنْ تغلبهُ نفسهُ على ما يظنُّ، ولا يغلبُها على ما يَستيْقِنُ.

٥٨١ - اعصِ هوَاك والنساءَ وافعلْ ما بدَا لكَ.

٥٨٢ - ما كُنتَ كاتمهُ منْ عدوّكَ فلا تظْهرْ عليهِ صديقَكَ.

٥٨٣ - كلْ من الطعام ما تشتهي، والْبَس من الثِّياب ما يَشتهي الناسُ.

٥٨٤ - ولتكن داركَ أوّلَ ما يُبْتاعُ وآخِرَ ما يُباعُ.

٥٨٥ - منْ كانَ في يدِهِ شيءٌ من رِزق الله سبحانهُ فليصلِحْهُ، فإنَّكُمْ في زَمان إذا احتاجَ المرْءُ فيهِ إلى النَّاسِ كان أوَّلَ ما يبذلُهُ لهمْ دينُهُ.

٥٨٦ - ابذلْ لصديقكَ مالكَ، ولمعرفتكَ رفْدَك ومحضَرَكَ، وللعامّةِ بِشرَكَ وتحنُّنكَ، ولعدُوّكَ عذلَكَ وإنصافكَ، واضْنُنْ بدِينكَ وعِرْضِك عن كلّ أحد.

٥٨٧ - جالس العقلاءَ أعداءً كانوا أوْ أصدقاءَ، فإن العقل يقع على العقل.

٥٨٨ - كُنْ في الحرب بحيلَتكَ أوثقَ منك بشدّتك، وبِحذَرِك أفْرَحَ منكَ بنجدَتِك، فإن الحَرْبَ حرْبُ المُتَهَوِّرِ، وغنيمةُ المتحَذِّرِ.

٥٨٩ - النِّعمُ وحشيَّةٌ فقيِّدُوها بالمعْرُوفِ.

٥٩٠ - إذا أخطأتْكَ الصنيعةُ إلى منْ يَتّقي الله فاصنعها إلى من يتّقي العارَ.

٥٩١ - لا تشتَغلْ بالرزْق المضمونِ عن العملِ المفروضِ.

٥٩٢ - إذا أكرمكَ الناسُ لمالٍ أو سُلطانٍ فلا يُعْجِبنَّكَ ذاكَ، فإنّ زوال الكرامَةِ بزَوالِهما، ولكنْ ليُعجبك إنْ أكرمَكَ الناسُ لدينٍ أو أدبٍ.

٥٩٣ - يَنبغي لمنْ لم يكْرِمْ وجهه عنْ مسألتكَ أنْ تُكْرمَ وَجْهكَ عن رَدّهِ.

٥٩٤ - إيَّاكَ ومشاوَرَةَ النِّساءِ، فإنَّ رَأيَهُنَّ إلى أفْنٍ[1]، وعزْمَهُنَّ إلى وَهَنٍ، واكْفُفْ من أبصارِهِنَّ بحجابكَ إيَّاهُنَّ، فإنّ شدَّةِ الحجابِ خيرٌ لكَ منَ الارتياب، وليْسَ خُروجُهُنَّ بأشدَّ عليك من دخولِ منْ لا تَثقُ به عليْهِنَّ، وإن اسْتطعْتَ ألّا يعْرِفْن غيركَ فافعلْ، ولا تمكّن امْرأةً منَ الأمْرِ ما جاوز نفْسها، فإنَّ ذلكَ أنعمُ لِبالِها، وأرخى لحالِها، وإنما المرْأةُ رَيْحانةٌ وليْسَتْ بقهْرَمانةٍ[2]، فلا تعدُ بكرامتها نفسها، ولا تُعطها أن تَشفَعَ لِغيْرها، ولا تُطِل الخَلْوَةَ مَعَهُنَّ فيملَلْنَكَ وتملُّهُنَّ، واستبْقِ من نفسكَ بقيَّةً، فإن إمْساكَكَ عنهُنَّ وهُنَّ يرِدْنكَ ذلكَ باقتدارٍ، خيرٌ من

---

(١) الأفن: النقص. اللسان، مادة (أفن).

(٢) القهرمانة: مدبرة البيت ومتولية شؤونه، معرب، المعجم الوسيط، مادة (قهرم).

أن يهجُمْنَ منكَ على انكسارٍ. وإيّاكَ والتَّغايُرَ في غيرِ مَوْضِعِ الغَيْرَةِ، فإنَّ ذلكَ يدعو الصَّحيحةَ منهُنَّ إلى السُّقمِ.

٥٩٥ - إذا أَرَدتَ أن تَختمَ على كتاب، فأَعِدِ النَّظَرَ فيهِ، فإنَّما تختمُ على عقْلِكَ.

٥٩٦ - إنّ يَوْماً أَسْكَرَ الكِبارَ وَشَيَّبَ الصِّغارَ لشديدٌ.

٥٩٧ - كَمْ منْ مُبَرَّدٍ لهُ المَاءُ والحميمُ يُغْلَى لهُ.

٥٩٨ - الصلاةُ صابونُ الخطايا.

٥٩٩ - إنَّ امْرَأً عَرَفَ حقيقَةَ الأمرِ، وزَهِدَ فيهِ لأحمقُ، وإنّ امْرَأً جهلَ حقيقَةَ الأَمْرِ معَ وُضُوحِهِ لجاهِلٌ.

٦٠٠ - إذا قالَ أحدكم: والله، فلينظُرْ ما يضيفُ إليها.

٦٠١ - رَأيُكَ لا يتَّسِعُ لِكلِّ شيءٍ، ففَرِّغْهُ للمهمِّ منْ أُمُورِكَ، ومالُكَ لا يُغنِي النَّاسَ كلَّهُمْ فاخصُصْ به أهْلَ الحقِّ، وكرامتُكَ لا تطيقُ بذْلها في العامَّةِ، فَتَوَخَّ بها أهلَ الفضلِ، وليلُكَ ونهارُكَ لا يَستوْعِبانِ حَوائجكَ، فأَحْسنِ القِسْمةَ بَيْنَ عملِكَ ودَعَتِكَ.

٦٠٢ - أخي المعْروفَ بإماتتِهِ.

٦٠٣ - اصحبُوا منْ يذْكُرُ إحْسانكُمْ إليهِ، وَينسى أياديَهُ عندكم.

٦٠٤ - جاهِدُوا أهواءَكم كما تجاهِدُونَ أعداءَكم.

٦٠٥ - إذا رغبْتَ في المكارمِ فاجتنب المحارمَ.

٦٠٦ - لا تثقَنَّ كلّ الثقةِ بأخِيكَ، فإن سُرْعةَ الاسْترْسالِ لا تقالُ.

٦٠٧ - انتقم من الحرص بالقناعةِ، كما تنتقم من العدوّ بالقِصاصِ.

٦٠٨ - إذا قصُرَتْ يدُكَ عن المكافأةِ، فليطلْ لسانُكَ بالشكرِ.

٦٠٩ - منْ لمْ ينشطْ لحدِيثِكَ فارْفعْ عنهُ مُؤْنَةَ الاستماع منك.

٦١٠ - الزمانُ ذُو ألوانٍ، ومنْ يصْحَب الزّمانَ يَرَ الهوانَ.

٦١١ - لا تزْهَدَنّ في معرُوف، فإنّ الدَّهْر ذو صُرُوف، كم من راغبٍ أَصبح مرْغوباً إليْهِ، ومتْبوعٍ أمْسى تابعاً.

٦١٢ - إن غُلبتَ يوْماً على المالِ فلا تُغلبَنَّ على الحيلة على كلِّ حالٍ.

٦١٣ - كُنْ أحسنَ ما تكونُ في الظاهِرِ حالاً أقلَّ ما تكون في الباطنِ مالاً.

٦١٤ - لا تكونَنَّ المحدِّثَ منْ لا يَسمعُ منهُ، والدَّاخلَ في سِرِّ اثنينِ لم يُدْخِلاهُ فيهِ، ولا

الآتيَ وليمةً لم يُدْعَ إليها، ولا الجالِسَ في مجلِسٍ لا يستحقُّهُ، ولا طالِبَ الفضلِ مِنْ أيدي اللِّئامِ، ولا المتحمّقَ في الدَّالّةِ، ولا المتعرِّضَ للخيرِ مِنْ عندِ العدُوِّ.

٦١٥ - اطبعِ الطِّينَ ما دامَ رطباً، واغرِسِ العودَ ما دَامَ لَدْناً.

٦١٦ - خَفِ الله حتى كأنَّكَ لمْ تُطِعْهُ، وارْجُ الله حتى كأنَّكَ لم تعصِهِ.

٦١٧ - لا تبلُغْ في سلامِكَ على الإخوانِ حدَّ النِّفاقِ، ولا تقصُرْهُمْ عنْ درجةِ الاستحقاقِ.

٦١٨ - انْصَحْ لكلِّ مستَشِيرٍ، ولا تستَشِرْ إلّا النَّاصحَ اللّبيبَ.

٦١٩ - ما أقبحَ بِكَ أن ينادَى غداً: يا أهلَ خطيئةِ كذا، فتقومَ معهم، ثم ينادي ثانياً: يا أهلَ خطيئةِ كذا، فتقومَ معهمْ. ما أراكَ يا مسكينُ إلّا تقومُ معَ أهلِ كُلِّ خطيئةٍ!

٦٢٠ - ما أصابَ أحدٌ ذنباً ليلاً إلّا أصبحَ وعليهِ مَذَلَّتُهُ.

٦٢١ - الاستغفارُ يحُتُّ الذنوبَ حَتَّ الورق، ثمَّ تلا قولَه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(١).

٦٢٢ - أيُّها المُستكثِرُ منَ الذُّنوبِ، إنّ أباكَ أُخرِجَ منَ الجنّةِ بذنْبٍ واحدٍ.

٦٢٣ - إذا عصى الرَّبَّ منْ يعرفُهُ سلَّطَ عليه منْ لا يعرفُهُ.

٦٢٤ - لقاءُ أهلِ الخيرِ عمارةُ القلوبِ.

٦٢٥ - أنا منْ رسولِ الله ﷺ كالعَضُدِ مِنَ المِنْكَبِ، وكالذِّراعِ منَ العَضُدِ، وكالكَفِّ منَ الذراعِ، ربّاني صغيراً، وآخاني كبيراً، ولقدْ عَلِمْتُمْ أني كانَ لي منهُ مجلِسُ سِرٍّ لا يطَّلِعُ عليه غيري، وأنَّهُ أوْصى إليَّ دونَ أصحابِهِ وأهلِ بيتِهِ، ولأقولنَّ ما لم أقُلْهُ لأحد قبلَ هذا اليوم، سألتُهُ مَرّةً أن يدعُوَ لي بالمغفرة فقال: أفعلُ، ثم قامَ فصلّى، فلمّا رفعَ يدهُ لِلدُّعاءِ استمعْتُ عليه، فإذا هو قائلٌ: اللّهمّ بحقِّ عليٍّ عندكَ اغفِرْ لعليٍّ، فقلتُ: يا رسولَ الله، ما هذا؟ فقال: أوَاحِدٌ أكرمُ منكَ عليهِ فأسْتَشْفِعَ بِهِ إليه!

٦٢٦ - والله ما قلعتُ بابَ خَيْبَرَ، ودَكْدَكْتُ حِصْنَ يهودٍ بقُوّةٍ جسْمانيّةٍ بل بقُوّةٍ إلٰهيّةٍ.

٦٢٧ - يابنَ عَوْفٍ، كيفَ رأيتَ صنيعَكَ مَع عُثمانَ! رُبَّ واثِقٍ خَجِلَ، ومَنْ لم يتوخَّ بعملِهِ وجْهَ الله عادَ مادِحُهُ منَ الناسِ له ذامًّا.

٦٢٨ - لو رأيْتَ ما في ميزانِكَ لختمْتَ على لسانِكَ.

٦٢٩ - ليس الحلمُ ما كان حالَ الرِّضا، بل الحلمُ ما كان حالَ الغضبِ.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٠.

٦٣٠ - ليس شيءٌ أقطعَ لظهرِ إبليس منْ قولهِ: «لا إلهَ إلا الله»، كلمةِ التَّقوى.

٦٣١ - لا تحملوا ذنوبكمْ وخطاياكم على الله، وتذَرُوا أنفسكمْ والشَّيْطانَ.

٦٣٢ - إنّ أخوفَ ما أخاف على هذه الأمَّةِ منَ الدَّجّالِ، أئِمَّةٌ مُضِلُّونَ وهُمْ رُؤساءُ أهلِ البِدَعِ.

٦٣٣ - إذا زلَلْتَ فارجعْ، وإذا ندمتَ فأقلِعْ، وإذا أسأت فاندمْ، وإذا مننْتَ فاكتُمْ، وإذا منعتَ فأجْمِلْ، ومنْ يُسْلِفِ المعروفَ يكنْ رِبْحُهُ الحمدَ.

٦٣٤ - استشرْ عدوَّك تَجربةً لتعلمَ مقدارَ عداوتِهِ.

٦٣٥ - لا تطلُبَنَّ منْ نفسكَ العامَ ما وعدتْكَ عاماً أوَّلَ.

٦٣٦ - أطولُ الناس عُمُراً منْ كثُرَ علمُهُ، فَتَأَدَّبَ به مَنْ بعدهُ، أو كَثُرَ معروفُهُ فشرُفَ به عقِبُهُ.

٦٣٧ - استهينوا بالموت فإنّ مرارتَه في خوفِهِ.

٦٣٨ - لا دينَ لمنْ لا نِيَّةَ لهُ، ولا مالَ لمنْ لا تدبيرَ لهُ، ولا عيشَ لِمَنْ لا رِفْقَ لهُ.

٦٣٩ - مَنِ اشتغلَ بتفقُّدِ اللَّفظةِ، وطلبِ السَّجعَةِ، نسيَ الحُجّةَ.

٦٤٠ - الدُّنيا مطيَّةُ المؤمنِ، عليها يرتحل إلى رَبِّهِ، فأصلحوا مطاياكُمْ تُبلِّغكمْ إلى رَبِّكمْ.

٦٤١ - من رأى أنهُ مسيءٌ فهو محسنٌ، ومن رأى أنهُ محسنٌ فهو مسيءٌ.

٦٤٢ - سيِّئةٌ تسوءُكَ خيرٌ منْ حسنةٍ تعجبُكَ.

٦٤٣ - اطلبوا الحاجاتِ بعزَّةِ الأنفُسِ، فإنَّ بيدِ الله قضاءَها.

٦٤٤ - عَذِّبْ حُسّادَكَ بالإحسان إليهمْ.

٦٤٥ - إظهارُ الفاقةِ من خمولِ الهمّةِ.

٦٤٦ - يا عالِمُ، قد قامَ عليكَ حُجّةُ العِلْمِ، فاستيقِظْ من رقدتِكَ.

٦٤٧ - الرِّفقُ يفُلُّ حدَّ المخالفةِ.

٦٤٨ - أرْجَحُ النّاسِ عقلاً، وأكملهمْ فضلاً، منْ صحب أيّامَهُ بالموادعةِ وإخوانه بالمسالمةِ، وقَبِلَ من الزّمانِ عفْوَهُ.

٦٤٩ - الوُجُوهُ إذا كثُرَ تقابُلُها، اعتصَرَ بعضُها ماءَ بَعض.

٦٥٠ - أداءُ الأمانَةِ مِفْتاحُ الرِّزْق.

٦٥١ - حَصّن عِلْمَكَ منَ العُجب، ووقارَك من الكِبْر، وعطاءَكَ منَ السَّرَفِ، وصرامتكَ منَ

العجلةِ، وعقوبتكَ من الإفراطِ، وعَفْوكَ من تعطيلِ الحدودِ، وصَمْتَكَ منَ العِيّ، واستماعَكَ مِنْ سُوءِ الفَهْم، واستئناسَك من البَذاءِ، وخَلَواتِكَ مِنَ الإضاعةِ، وغَراماتِك مِنَ اللّجاجة وَرَوَغانِكَ منَ الاستسلامِ، وحَذَراتِكَ منَ الجُبْن.

٦٥٢ - لا تجدُ للموتورِ المحقودِ أماناً مِنْ أذاهُ أوْثقَ من البعد عنه، والاحتراسِ منه.

٦٥٣ - احذرْ من أصحابك ومخالطيكَ الكثيرَ المسألة، الخشنَ البَحْثِ، اللّطيفَ الاستدراج، الذي يحفَظُ أوّلَ كلامَكَ على آخرِهِ، ويَعتبرُ ما أخرْتَ بما قَدَّمْتَ، ولا تُظْهرنّ له المخافة فيرى أنك قد تحرَّزْتَ وتحفَّظْتَ. واعلم أن من يقظةِ الفِطنةِ إظهارَ الغفلةِ معَ شدَّةِ الحَذَر، فخالِطْ هذا مخالطةَ الآمِنِ، وتحفّظ منهُ تحفُّظ الخائفِ، فإنَّ البَحْثَ يُظهرُ الخفيَّ ويُبْدي المستورَ الكامنَ.

٦٥٤ - من سَرَّهُ الغِنى بلا سلطان، والكثرةُ بلا عشيرةٍ، فليخرجْ من ذُلِّ معصيةِ الله إلى عزِّ طاعتِه، فإنّهُ واجدٌ ذلكَ كله.

٦٥٥ - الشيْبُ إعذارُ الموتِ.

٦٥٦ - منْ ساسَ نفسهُ بالصبرِ على جهْلِ النّاسِ صَلَحَ أنْ يكونَ سائساً.

٦٥٧ - لله تعالى كلَّ لحظةٍ ثلاثةُ عساكرَ: فعسكرٌ ينزِلُ من الأصلابِ إلى الأرحامِ، وعسكرٌ ينزِلُ منَ الأرحامِ إلى الأرضِ، وعسكر يرتحلُ من الدُّنيا إلى الآخرة.

٦٥٨ - اللّهُمَّ ارحمني رحمةَ الغفرانِ، إنْ لمْ ترحمني رحمةَ الرضا.

٦٥٩ - إلٰهي كيفَ لا يحسُنُ منّي الظّنُّ وقدْ حسُنَ منكَ المنُّ! إلٰهي إنْ عاملتنا بعدْلِكَ لَمْ يبقَ لنا حسنةٌ، وإنْ أنلْتنا فضلكَ لمْ يبقَ لنا سيّئةٌ.

٦٦٠ - العلمُ سُلطانٌ، منْ وجدهُ صالَ به، ومنْ لم يجدْهُ صيلَ عليه.

٦٦١ - يابنَ آدمَ إنّما أنتَ أيّامٌ مجموعةٌ، فإذا مضى يومٌ مضى بعضُكَ.

٦٦٢ - حيثُ تكونُ الحكمةُ تكونُ خشيةُ الله، وحيثُ تكونُ خشيتُهُ تكونُ رحمته.

٦٦٣ - اللّهُمَّ إني أرَى لدَيَّ منْ فضلكَ ما لمْ أسألكَ، فعلمت أنَّ لديكَ من الرحمة ما لا أعلم، فصغرتْ قيمةُ مطلبي فيما عاينت، وقصرتْ غايةُ أملي عندَما رجوت، فإنْ ألحفت في سُؤالي فَلِفاقتي إلى ما عندك، وإن قصَّرْتُ في دعائي فبما عَوَّدْتَ من ابتدائك.

٦٦٤ - منْ كانَ همّتهُ ما يدْخُلُ جوْفهُ كانت قيمتُهُ ما يخرج منهُ.

٦٦٥ - يقولُ الله تعالى: يابْنَ آدَمَ، لم أخلقكَ لأربح عليكَ، إنما خَلَقْتُك لِتَرْبَحَ عليَّ، فاتَّخِذْني بدلاً من كلِّ شيء فإني ناصر لك من كل شيء.

٦٦٦ - الرَّجاءُ للخالقِ سُبحانه أقوى منَ الخوْفِ، لأنك تخافهُ لذنبك، وترجوه لجودِهِ، فالخوف لك والرَّجاءُ لهُ.

٦٦٧ - أسألُك بعزَّةِ الوحْدانيّةِ، وكرَمِ الإلٰهيَّة، ألّا تقطعَ عَنّي بِرَّكَ بَعْدَ مماتي، كما لم تزلْ تَراني أيّامَ حياتي، أنْتَ الَّذِي تجيبُ مَنْ دعاكَ، ولا تخيبُ منْ رَجاكَ، ضلَّ منْ يدعُو إلّا إيَّاكَ، فإنك لا تحْجُبُ من أتاكَ، وتُفْضِلُ على منْ عصاكَ، ولا يفوتُك من ناوَاك، ولا يُعْجِزُك منْ عادَاك، كلٌّ في قُدْرتك، وكلٌّ يأكلُ رِزقكَ.

٦٦٨ - لا تطلبنَّ إلى أحدٍ حاجةً ليلاً، فإنّ الحياءَ في العينينِ.

٦٦٩ - منِ ازْدَاد علماً فليحذرْ منْ توكيدِ الحجَّةِ عليْهِ.

٦٧٠ - العاقلُ ينَافسُ الصالِحينَ ليلحقَ بهمْ، ويحبُّهُمْ ليشارِكَهُمْ بمحبتهِ، وإن قَصَّر عنْ مِثْلِ عملهمْ، والجاهِلُ يذمُّ الدُّنيا ولا يَسخو بإخراجِ أقلِّها، يمدحُ الجُودَ، ويبخلُ بالبَذل، يتمنَّى التوْبة بطولِ الأمَلِ، ولا يُعجلُها لخوْفِ حُلولِ الأجلِ، يرْجُو ثوابَ عملٍ لم يعملْ به، ويفرُّ من الناسِ ليطلبَ، ويخفي شخصهُ لِيشتَهِرَ، ويذمُّ نفسه ليمدَحَ، وينهى عن مدْحهِ وهو يحبُّ ألّا ينتهي من الثناءِ عليه.

٦٧١ - الأنسُ بالعلمِ من نبْل الهمَّةِ.

٦٧٢ - اللّهمَّ كما صُنت وَجهي عن السُّجودِ لغيْرك، فصُنْ وجهي عن مسألة غيرك.

٦٧٣ - من الناسِ منْ ينقصكَ إذا زِدتهُ، ويهُونُ عليكَ إذا خاصَمتهُ، ليسَ لرضاهُ موْضعٌ تعرفهُ، ولا لسخطِه مكانٌ تحذَرُهُ، فإذا لقِيت أولئكَ فابذلْ لهم موْضعَ الموَدَّةِ العامَّةِ، واحْرِمهمْ موْضعَ الخاصَّةِ، ليكُونَ ما بذلْت لهمْ منْ ذلك حائلاً دونَ شرِّهمْ، وما حَرَمْتهمْ منْ هذا قاطعاً لحرْمتهم.

٦٧٤ - مَن شَبِع عُوقب في الحالِ ثلاث عُقوباتٍ: يُلْقَى الغطاءُ على قَلْبِهِ، والنُّعاس على عينِهِ، والكسلُ على بَدَنِه.

٦٧٥ - ذَمُّ العُقَلاء أشَدُّ من عُقُوبة السلطانِ.

٦٧٦ - يقطعُ البليغَ عن المسألة أمْرانِ: ذُلُّ الطَّلب، وخَوْفُ الرَّدِّ.

٦٧٧ - المؤمِن محدَّثٌ.

٦٧٨ - قلّ أن ينطق لِسانُ الدَّعْوى إلا ويُخْرِسه كِعامُ الامتحان.

٦٧٩ - انظر ما عندك فلا تَضَعْهُ إلا في حَقِّه، وما عند غيرك فلا تأخُذْهُ إلا بحقِهِ.

٦٨٠ - إذا صافاك عَدُوُّك رِياءً مِنه فَتَلَقَّ ذَلك بأوْكد مودَّةٍ، فإنه إن ألِف ذَلك واعتادَهُ خَلُصَت لك مَودَّتهُ.

٦٨١ - لا تألَفْ المسألة فيألفك المَنعُ.

٦٨٢ - لا تسْأل الحوَائجَ غيْر أهْلها، ولا تسْألها في غيْرِ حينِها، ولا تسأَلْ ما لسْتَ لهُ مُستحقًّا فتكونَ للحرْمانِ مُستوجِباً.

٦٨٣ - إذا غشّكَ صديقكَ فاجْعَلْهُ معَ عدوّكَ.

٦٨٤ - لا تعدَّنَّ منْ إخْوانكَ منْ آخاكَ في أيّام مقْدَرتكَ للمقْدُرة، واعلم أنه ينتقلُ عنكَ في أحْوالٍ ثلاثٍ: يَكُونُ صديقاً يوْمَ حاجته إليْك، ومُعرِضاً يوْم غناهُ عنكَ، وعدُوًّا يومَ حاجتكَ إليْهِ.

٦٨٥ - لا تُسرَّنَّ بكثْرَةِ الإخوَان ما لمْ يَكُونُوا أخْياراً، فإنَّ الإخوانَ بمنزلةِ النَّار الَّتي قَلِيلها متاعٌ، وكثيرُها بوَارٌ.

٦٨٦ - كفاكَ خيانةً أنْ تَكُونَ أميناً للْخَونةِ.

٦٨٧ - لا تحقرنّ شيئاً من الخير وإن صغر، فإنك إذا رأيته سرّك مكانه، ولا تحقرنّ شيئاً من الشرّ وإن صغر، فإنك إذا رأيته ساءَكَ مكانه.

٦٨٨ - يابن آدم، ليْس بِكَ غَناءٌ عنْ نصيبكَ مِن الدُّنْيا، وأنْتَ إلى نصيبك منَ الآخرةِ أفقرُ.

٦٨٩ - معصيةُ العالم إذا خفِيَتْ لمْ تضرَّ إلَّا صاحبها، وإذا ظهرتْ ضرّتْ صاحبها والعامّةَ.

٦٩٠ - يجبُ على العاقل أنْ يَكُونَ بما أحْيا عقْلَهُ من الحكْمةِ أكْلَفَ منْهُ بما أحيا جسمَهُ مِنَ الغِذاءِ.

٦٩١ - أعسرُ العيُوبِ صلاحاً العُجْبُ واللّجاجة.

٦٩٢ - لِكلِّ نعمةٍ مِفتاحٌ ومغْلاقٌ، فمفْتاحُها الصبرُ، ومغْلاقُها الكسلُ.

٦٩٣ - الحزْنُ والغضبُ أميرَانِ تابِعانِ لوقُوع الأمْرِ بخلافِ ما تُحِب، إلَّا أن المكرُوهَ إذَا أتاك ممَّنْ فوقكَ نَتَجَ عليكَ حُزْناً، وإن أتاكَ ممَّن دونك نَتَج عليكَ غَضَباً.

٦٩٤ - أولُ المعروفِ مُستخَفٌّ، وآخرهُ مُستثقلٌ، تكادُ أوائله تكُونُ لِلهوَى دُونَ الرَّأي، وَأوخرُهُ للرَّأي دُونَ الهوَى، ولذلك قيلَ: ربُّ الصنيعةِ أشدُّ من الابْتداءِ بها.

٦٩٥ - لا تدعُ الله أنْ يُغنيكَ عنِ النَّاسِ فإن حاجات الناسِ بعضهمْ إلى بَعْض مُتصلةٌ كاتصالِ الأعْضاءِ فمتى يستغْني المرْءُ عن يدِهِ أوْ رِجلُه! ولكن ادْعُ الله أنْ يُغنيَكَ عنْ شِرارِهمْ.

٦٩٦ - احترسْ مِنْ ذِكرِ العلمِ عند منْ لا يرْغبُ فيهِ، ومِنْ ذِكر قدِيمِ الشَّرَف عِند منْ لا قَدِيم لهُ، فإنّ ذلكَ ممَّا يحقدُهُما عليكَ.

٦٩٧ - يَنبغي لِذوي القَرَابات أن يَتزاوَرُوا ولا يَتجاوَرُوا.

٦٩٨ - لاتواخِ شاعِراً فإنهُ يَمْدحُكَ بثمن، ويَهْجُوكَ مجّاناً.

٦٩٩ - لا تُنزِلْ حوائجكَ بجيِّدِ اللِّسانِ، ولا بمتَسَرِّعٍ إلى الضمانِ.

٧٠٠ - كلُّ شيءٍ طلبتَهُ في وقتِهِ فقدْ فات وقتهُ.

٧٠١ - إذا شككْتَ في مودة إنسان فاسْألْ قلبكَ عنه.

٧٠٢ - العقلُ لم يجْنِ على صاحبِه قطُّ، والعلمُ مِنْ غيرِ عقلٍ يَجْني على صاحبِه.

٧٠٣ - يابن آدمَ، هلْ تنتظرُ إلّا هَرَماً حائلاً، أوْ مرضاً شاغِلاً، أوْ موْتاً نازِلاً!

٧٠٤ - ابنك يأكلُكَ صَغِيراً ويَرِثُك كبيراً، وابنتكَ تأكلُ مِنْ وِعائكَ، وترثُ مِنْ أعْدائكَ، وابن عمك عدوُّكَ وعدوُّ عدوِّكَ، وزَوْجتك إذا قلْتَ لها قُومي قامَتْ.

٧٠٥ - إذا ظفرْتُمْ فأكْرِمُوا الغَلَبَةَ، وعليكمْ بالتغافُلِ فإنهُ فعلُ الكرَام، وإيّاكُمْ والمنَّ فإنهُ مَهْدمةٌ للصنيعةِ، منبهةٌ للضغِينةِ.

٧٠٦ - منْ لمْ يرْجُ إلّا ما يستوْجِبُه أدْرَك حاجَتُه.

٧٠٧ - بلغَ منْ خَدع النّاسِ، أن جعلُوا شكرَ الموْتى تجارةً عِندَ الأحْياءِ، والثناءَ على الغائبِ استِمالة للشاهِدِ.

٧٠٨ - من احْتاج إليكَ ثقُلَ عليكَ، ومنْ لمْ يُصْلِحهُ الخيرُ أصْلحَهُ الشرُّ، ومنْ لمْ يُصْلِحهُ الطالي أصلحهُ الكاوِي.

٧٠٩ - منْ أكثرَ منْ شيءٍ عُرِف بهِ، ومنْ زَنى زُني بهِ، ومنْ طَلَب عظيماً خاطَر بعظمَتِه، ومنْ أحبَّ أنْ يصرِمَ أخاهُ فليُقْرِضْهُ ثم ليتقاضهُ، ومن أحبّك لشيءٍ ملّكَ عنْدَ انقضائِه، ومن عُرِفَ بالحكْمةِ لاحظتْه العُيُونُ بالوقارِ.

٧١٠ - منْ بلغَ السَّبعينَ اشْتكى مِنْ غيرِ عِلّةٍ.

٧١١ - في المالِ ثلاثُ خِصالٍ مَذْمُومةٌ: إمّا أنْ يُكتَسَبَ مِنْ غيرِ حِلِّهِ، أوْ يَمْنَعَ إنفاقهُ في حقِّهِ، أوْ يُشغلَ بإصلاحِهِ عنْ عِبادَةِ الله تعالى.

٧١٢ - يُباعدك مِنْ غضبِ الله ألّا تغضبَ.

٧١٣ - لا تستبدلنَّ بأخٍ لَكَ قَدِيم أخاً مُستفَاداً ما استقامَ لَكَ، فإنكَ إنْ فعلْتَ فقدْ غيَّرتَ، وإن غيّرتَ تغيَّرتْ نعمُ الله عليْكَ.

٧١٤ - أشدُّ مِنَ البَلاءِ شماتةُ الأعْداءِ.

٧١٥ - لَيْسَ يزْني فَرْجُكَ إنْ غَضَضتَ طرْفكَ.

٧١٦ - كما تركَ لكُمُ المُلُوكُ الحِكْمَةَ والعِلْمَ فاتركُوا لهمُ الدُّنيا.

٧١٧ - الهديَّةُ تفقأ عيْن الحكيمِ.

٧١٨ - ليكُنْ أصْدِقاؤكَ كثيراً، واجْعلْ سرَّكَ منهمْ إلى واحدٍ.

٧١٩ - يا عَبيدَ الدُّنيا، كَيْفَ تُخالِفُ فُرُوعُكُمْ أصولَكُمْ، وعُقولُكُمْ أهوَاءَكُمْ، قوْلُكُمْ شفاءٌ يُبْرِىءُ الدَّاءَ، وعملكم داءٌ لا يقبلُ الدَّوَاءَ، ولَسْتُمْ كالكَرْمَةِ الَّتي حسنَ ورقُها، وطابَ ثمرُها، وسهُل مُرْتقاها، ولكِنَّكُمْ كالشجرَةِ الَّتي قَلَّ ورقُها، وكَثُر شوْكُها، وخُبثَ ثمرُها، وصعُبَ مرْتقَاها. جَعَلْتُمْ العلم تحت أقْدَامِكُمْ، والدُّنيا فوْق رؤوسِكُمْ، فالعلمُ عندكُمْ مُذالٌ ممتهنٌ، والدُّنيا لا يُستطاعُ تناولها، فقدْ مَنَعتُم كُلَّ أحَدٍ منَ الوُصُول إليها، فلا أحْرارٌ كرامٌ أنتُمْ، ولا عبِيدٌ أتقياءُ. ويْحكُم يا أُجَراء السُّوءِ! أمّا الأجْرَ فتأخُذُونَ، وأمّا العملَ فلا تعْملُون، إن عملتمْ فللعمل تُفسدُون، وسوْف تَلْقَوْن ما تفعلُون، يُوشكُ ربُّ العملِ أنْ ينظُر في عملِه الَّذِي أفْسَدْتُمْ، وفي أجْرِه الَّذِي أخذْتُم. يا غرماءَ السُّوءِ، تبدؤون بالهديّة قبلَ قضاءِ الدَّين، تتطوَّعُون بالنَوافلِ ولا تُؤدُّون الفرائضَ، إن رَبَّ الدَّيْنِ لا يرْضى بالهديَةِ حتَّى يُقْضى دَينهُ.

٧٢٠ - الدُّنيا مزْرَعةُ إبْليس، وأهلُها أكَرةٌ حرَّاثون لهُ فيها.

٧٢١ - واعجبًا ممَّنْ يَعملُ للدُّنْيَا وَهُوَ يرزَقُ فيها بغيْر عمل، ولا يعملُ للآخرَةِ وهوَ لا يرْزقُ فيها إلّا بالعملِ!

٧٢٢ - لا تُجالسُوا إلّا من يذكِّرُكُمُ الله رؤيته، ويزيدُ في عملكمْ منطقه، ويرغِّبكُمْ في الآخِرةِ عملُه.

٧٢٣ - كثرةُ الطعامِ تميتُ القلبَ كما تميتُ كثرةُ الماء الزَرْعَ.

٧٢٤ - ضربُ الوَالِدِ الولَدَ كالسَّمادِ للزرع.

٧٢٥ - إذا أردْتَ أن تصادِق رجلاً فأغضبْهُ، فإن أنصفك في غضبِهِ وإلّا فدعهُ.

٧٢٦ - إذ أتيْتَ مجلِسَ قوم فارمهمْ بِسَهْمِ الإسلامِ، ثمَّ اجلِسْ - يعني السَّلامَ - فإنْ أفاضوا في ذكرِ الله فأجِلْ سهمَكَ معَ سِهامهم، وإنْ أفاضوا في غيرهِ فخلِّهمْ وانهضْ.

٧٢٧ - الأوْطار تكسِبُ الأوزارَ، فارفُضْ وطَرَكَ، واغْضُضْ بصرَكَ.

٧٢٨ - إذا قعدْت عندَ سُلطانٍ فليكنْ بينَكَ وبينهُ مقعدُ رجلٍ، فلعلَّهُ أنْ يأتيَهُ منْ هو آثرُ عنده منك، فيريدُ أنْ تتنَحّى عن مجلِسكَ، فيكونُ ذلكَ نقصاً عليك وشَيْناً.

٧٢٩ - ارحمِ الفقراءَ لقلَّةِ صبرهم، والأغنياءَ لقلَّةِ شُكْرهم، وارحمِ الجميع لِطُول غفلتِهِمْ.

٧٣٠ - العالِمُ مصباحُ الله في الأرضِ، فمنْ أرادَ الله به خيراً اقتبسَ منه.

٧٣١ - لا يهونَنَّ عليك من قُبحَ منظرُهُ ورَثّ لباسُهُ، فإنَّ الله تعالى ينظُرُ إلى القلوبِ ويُجازِي بالأعمالِ.

٧٣٢ - منْ كَذَبَ ذَهَبَ بماءِ وجهِهِ، ومنْ ساءَ خُلُقُهُ كثُرَ غَمُّه، ونقْلُ الصخورِ مِنْ مواضعها أهْوَنُ مِنْ تفهيمِ مَن لا يفهمُ.

٧٣٣ - كنتُ في أيّامِ رَسُولِ الله ﷺ كجزءٍ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، ينظُرُ إليّ الناسُ كما يُنظَرُ إلى الكواكِبِ في أُفق السماءِ، ثم غضّ الدّهْرُ منّي، فقُرنَ بي فلانٌ وفلانٌ، ثم قُرِنْتُ بخمسةٍ أمثلُهُمْ عثمانُ، فقلتُ: واذَفَراهُ! ثم لم يَرْضَ الدهرُ لي بذلِكَ، حتى أرذلني، فجعلني نظيراً لابْنِ هِنْدٍ وابْنِ النابِغَةِ! لقد استنّت الفصالُ حتى القَرْعى.

٧٣٤ - أما والّذِي فلقَ الحبّةَ، وبَرَأَ النَّسَمَةَ، إنّه لَعَهْدُ النَّبِيِّ الأُميّ إليّ أنَّ الأمّةَ ستغدِرُ بك مِنْ بعدي.

٧٣٥ - لامَتْهُ فاطمةُ على قُعُودِهِ وأطالت تعنيفهُ، وهو ساكتٌ حتى أذّنَ المُؤذّنُ، فلما بلغَ إلى قوله: «أشهدُ أنّ مُحَمَّداً رسولُ الله»، قالَ لها: أتُحبّينَ أنْ تَزُولَ هذهِ الدعوةُ منَ الدُّنيا؟ قالت: لا، قالَ: فهُوَ ما أقولُ لَكِ.

٧٣٦ - قالَ ليَ رَسُولُ الله ﷺ: «إن اجتمعوا عليكَ فاصنعْ ما أمرتُكَ، وإلّا فألْصِق كَلْكَلَكَ بالأرضِ، فلما تفرّقوا عَنّي جررتُ على المكْرُوهِ ذيلي، وأغضيْتُ على القَذَى جفني، وألصقتُ بالأرضِ كَلْكَلِي».

٧٣٧ - الدُّنيا حُلْمٌ والآخرةُ يقظةٌ، ونحنُ بينَهُما أضغاثُ أحلامٍ.

٧٣٨ - لَمّا عرَف أهلُ النقص حالَهُمْ عندَ أهلِ الكمالِ، استعانوا بالكبْرِ ليُعَظِّمَ صغيراً، ويرفعَ حقيراً، وليسَ بفاعلٍ.

٧٣٩ - لو تميّزَتِ الأشياء كانَ الكَذِبُ مع الجُبْنِ، والصّدقُ مع الشجاعَةِ، والرّاحةُ مع اليَأسِ، والتّعَبُ مع الطمعِ، والحرمانُ مع الحرصِ، والذُّلُّ مع الدَّيْنِ.

٧٤٠ - المعروفُ غُلٌّ لا يَفُكُّه إلّا شكرٌ أو مكافاةٌ.

٧٤١ - كثرةُ مال الميّتِ تسلّي ورثتَهُ عنه.

٧٤٢ - منْ كَرُمتْ عليهِ نفْسُهُ هانَ عليه مالُهُ.

٧٤٣ - من كَثُرَ مُزَاحُهُ لم يسلَمْ منَ استخفافٍ به، أو حقدٍ عليه.

٧٤٤ - كثرةُ الدَّيْنِ تضطرُّ الصادقَ إلى الكذبِ والواعدَ إلى الإخلافِ.

٧٤٥ - عارُ النَّصيحةِ يكدّرُ لَذّتها.

٧٤٦ - أوّلُ الغَضبِ جنونٌ، وآخِرُهُ ندمٌ.

٧٤٧ - انفردْ بسرّكَ ولا تودعهُ حازماً فيزلّ، ولا جاهِلاً فيخونَ.

٧٤٨ - لا تقطعْ أخاكَ إلّا بعدَ عجزِ الحيلَةِ عن استصلاحِهِ، ولا تُتبعه بعدَ القطيعةِ وقيعةً فيه، فتَسُدَّ طريقَهُ عنِ الرُّجوعِ إليك، ولعلَّ التجارِبَ أنْ تردَّهُ عليك وتُصْلحَهُ لكَ.

٧٤٩ - منْ أحسَّ بضعفِ حيلتِهِ عن الاكتسابِ بخلَ.

٧٥٠ - الجاهلُ صغيرٌ وإنْ كانَ شيخاً، والعالِمُ كبيرٌ وإنْ كان حَدَثاً.

٧٥١ - الميّتُ يَقِلُّ الحسدُ له، ويكْثُرُ الكذبُ عليهِ.

٧٥٢ - إذا نزلَتْ بك النعمةُ فاجعلْ قِراها الشكْرَ.

٧٥٣ - الحِرْصُ ينقُصُ من قدرِ الإنسانِ ولا يزيدُ في حَظِّهِ.

٧٥٤ - الفرصةُ سريعةُ الفوتِ بطيئةُ العوْدِ.

٧٥٥ - أبخَلُ الناسِ بمالِهِ أجودهم بعِرْضه.

٧٥٦ - لا تتبِعِ الذنبَ العقوبة واجعلْ بينهما وقتاً للاعتذارِ.

٧٥٧ - اذكُرْ عندَ الظلمِ عدلَ الله فيكَ، وعندَ القدرةِ قدرةَ الله عليك.

٧٥٨ - لا يحملنَّكَ الحَنَقُ على اقترافِ الإثمِ فتَشفيَ غيظك وتسقم دينك.

٧٥٩ - المُلْكُ بالدِّين يبقى والدِّينُ بالملكِ يقْوَى.

٧٦٠ - كأنّ الحاسدَ إنّما خلقَ ليغتاظَ.

٧٦١ - عقلُ الكاتبِ في قلمِه.

٧٦٢ - اقتصِرْ منْ شهوةٍ خالفت عقلكَ بالخلافِ عليها.

٧٦٣ - اللهُمَّ صُنْ وجهي باليسارِ، ولا تبذلْ جاهي بالإقتارِ، فأسترزقَ طالبي رزقِكَ، وأستعطفَ شِرَارَ خلقك، وأُبتَلَى بحمد منْ أعطاني، وأفتتِنَ بذمِّ من منعني، وأنتَ منْ وراءِ ذلكَ وليُّ الإعطاءِ والمنعِ، إنّكَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

٧٦٤ - كلُّ حقدٍ حقدتْهُ قريشٌ على رسول الله ﷺ أظهرتْهُ فيَّ وستُظهِرُهُ في ولدي من بعدي، ما لِيَ ولقريشٍ! إنما وتَرْتُهُمْ بأمرِ الله وأمرِ رَسُولِهِ، أفهذا جزاءُ مَنْ أطاعَ الله ورَسُولَهُ إن كانوا مسلمينَ!

٧٦٥ - عجباً لسعدٍ وابْنِ عمر! يزعمانِ أني أحاربُ على الدُّنيا، أفكانَ رَسُولُ الله ﷺ يحاربُ على الدنيا! فإنْ زعما أنّ رَسُولَ الله ﷺ حاربَ لتكسير الأصنامِ، وعبادةِ الرَّحمٰنِ، فإنما حاربْتُ لدفعِ الضلالِ والنَّهْيِ عنِ الفحشاءِ والفساد، أفمثلي يُزَنُّ بحبِّ الدُّنيا! والله لو تمثّلَتْ لي بَشَراً سويّاً لضربتُها بالسيف.

٧٦٦ - اللهُمَّ أنتَ خلقتني كما شئتَ، فارحمني كيف شِئتَ، ووفّقني لطاعتكَ، حتى تكونَ ثقتي كلّها بكَ، وخَوْفي كله منكَ.

٧٦٧ - لا تَسُبَّنَّ إبليسَ في العلانِيَةِ وأنت صديقُهُ في السِّرِّ.

٧٦٨ - منْ لم يأخذْ أُهْبَةَ الصلاةِ قبلَ وقتها فما وقّرَها.

٧٦٩ - لا تطمعْ في كلِّ ما تسمعُ.

٧٧٠ - منْ عاتَبَ ووبَّخَ فقد استوفَى حقَّهُ.

٧٧١ - الجودُ الذي يستطاعُ أن يُتناوَل به كلُّ أحدٍ، هوَ أن ينوِيَ الخيرُ لكلِّ أحدٍ.

٧٧٢ - منْ صحبَ السلطانَ بالصحّةِ والنصيحةِ كان أكثرَ عدوًّا مِمَّنْ صحبَهُ بالغشِّ والخيانةِ.

٧٧٣ - منْ عابَ سَفِلةً فقد رفعهُ، ومن عابَ كريماً فقد وضعَ نفسهُ.

٧٧٤ - الموالي ينصرونَ، وبنو العمِّ يحسدونَ.

٧٧٥ - الصدقُ عزٌّ، والكَذِبُ مذلّةٌ، ومنْ عرفَ بالصدقِ جازَ كذبُهُ، ومَن عرفَ بالكذبِ لم يجز صدقُهُ.

٧٧٦ - إذا سمعْتَ الكلمة تُؤذيكَ فطأطِىءْ لها فإنّها تتخطّاكَ.

٧٧٧ - نحنُ نريدُ ألّا نموتَ حتى نتوبَ، ونحنُ لا نتوبُ حتى نموتَ.

٧٧٨ - أنزِلِ الصديقَ منزلةَ العدُوِّ في رفعِ المؤنةِ عنهُ، وأنْزِلِ العدُوَّ منزلةَ الصديقِ في تحمُّلِ المؤنة لهُ.

٧٧٩ - أوّلُ عقوبةِ الكاذب أنَّ صدقَهُ يُرَدُّ عليه.

٧٨٠ - الأدبُ عندَ الأحمقِ كالماءِ العذبِ في أصولِ الحنظلِ، كلما ازداد رِيًّا ازداد مرارةً.

٧٨١ - إيَّاكم وحميَّةَ الأوغادِ، فإنَّهُمْ يروْنَ العفو ضيْماً.

٧٨٢ - الكريمُ لا يستقصي في مُحاقَّةِ المعتذرِ، خوفاً أن يجزي من لا يجدُ مخرجاً من ذنْبِهِ.

٧٨٣ - العفوُ عن المقرِّ لا عن المُصِرِّ.

٧٨٤ - ما استغنى أحدٌ بالله إلا افتقرَ الناسُ إليه.

٧٨٥ - منْ جادَ بمالِهِ فقد جادَ بنفسِهِ، فإن لم يكنْ جادَ بها بعينها فقد جادَ بِقِوامِها.

٧٨٦ - الدَّينُ ميسمُ الكرامِ، وطالما وُقِّرَ الكرامُ بالدَّين!

٧٨٧ - الماضي قبلكَ هوَ الباقي بعدَكَ، والتَّهْنئةُ بآجل الثوابِ أوْلَى منَ التَّعزيَةِ بعاجِلِ المُصابِ.

٧٨٨ - مِمَّا تكتسبُ به المحبّةُ أن تكونَ عالماً كجاهلٍ، وواعظاً كموعوظٍ.

٧٨٩ - لا تحمدنَّ الصبيّ إذا كان سخيًّا، فإنّهُ لا يعرفُ فضيلةَ السخاءِ، وإنَّما يعطي ما في يده ضعفاً.

٧٩٠ - خيرُ الإخوان من إذا استغنيتَ عنه لم يزدْ في المودَّة، وإن احتجتَ إليه لم ينقُصْكَ منها.

٧٩١ - عَجَباً للسلطانِ، كيفَ يُحْسِنُ، وهو إذا أساءَ وجدَ من يزكِّيهِ ويمدحُهُ!

٧٩٢ - إذا صادقْتَ إنساناً وجبَ عليكَ أن تكونَ صديقَ صديقِهِ، وليسَ يجبُ عليكَ أن تكونَ عدوَّ عدُوِّهِ، لأنّ هذا إنما يجِبُ على خادِمِهِ وليسَ يجبُ على مُماثِلٍ له.

٧٩٣ - ليس تكملُ فضيلة الرَّجُلِ حتَّى يَكونَ صديقاً لمتعادِيَيْنِ.

٧٩٤ - منْ سَعادَةِ الحدِثِ ألّا يتمّ لهُ فضيلةٌ في رَذيلةٍ.

٧٩٥ - إذا مُنِعْتَ منْ شيءٍ قدِ التمسْتَهُ، فلْيكنْ غيظُك منه على نفسِك في المسألةِ أكثَر منْ غظيكَ على منْ منعكَ.

٧٩٦ - الأسْخياء يشمتونَ بالبُخلاء عند الموْت، والبخلاءُ يَشمتونَ بالأسْخياءِ عند الفقرِ.

٧٩٧ - ليسَ يضبطُ العددَ الكثير منْ لا يضبطُ نفسهُ الواحدَةَ.

٧٩٨ - إذا أحسَنَ أحدٌ منْ أصحابك فلا تخرُجْ إليهِ بغاية برِّكَ، ولكن اترُكْ منهُ شيئاً تزيدُهُ إيّاهُ عندَ تبيُّنك منهُ الزّيادةَ في نصيحتِهِ.

٧٩٩ - الوُقوعُ في المكرُوهِ أسهلُ منْ تَوَقُّع المكرُوهِ.

٨٠٠ - الحسُودُ ظالِمٌ، ضعفتْ يدُهُ عن انتزاعِ ما حسدكَ عليه، فلمَّا قصُرَ عليك بعثَ إليكَ تأسُّفهُ.

٨٠١ - أعمُّ الأشياءِ نَفْعاً موتُ الأشرارِ.

٨٠٢ - الشيءُ المعزّي للناسِ عنْ مَصائبهمْ عِلمُ العُلماءِ أنها نفماءُ اضرارِيةٌ وتأسّي العامَّةِ بعضها ببعضٍ.

٨٠٣ - العقلُ الإصابةُ بالظنّ ومعْرفةُ ما لم يكنْ بما كانَ.

٨٠٤ - يا عَجَباً للناسِ قد مكَّنَهم الله من الاقتداءَ به، فيدَعُون ذلكَ إلى الاقتداءِ بالبهائم!

٨٠٥ - سلُوا القلوبَ عنِ الموداتِ، فإنها شُهودٌ لا تقبلُ الرّشا.

٨٠٦ - إنما يحزَنُ الحسدةُ أبداً لأنهمْ لا يحزنون لِما ينزلُ بهمْ منَ الشرّ فقط، بلْ ولما ينالُ الناس منَ الخيْرِ.

٨٠٧ - العشقُ جهدٌ عارضٌ صادفَ قلباً فارغاً.

٨٠٨ - تُعرَفُ خساسةُ المَرءِ بكثرةِ كلامِهِ فِيما لا يَعْنيهِ، وإخبارِهِ عمَّا لا يُسْأَلُ عنهُ.

٨٠٩ - لا تؤخِّرْ إنالةَ المحْتاجِ إلى غدٍ، فإنّك لا تعرفُ ما يعرِض في غدٍ.

٨١٠ - إنْ تتعَبْ في البرِّ، فإن التعب يَزُولُ والبرَّ يبْقى.

٨١١ - أجْهلُ الجهالِ منْ عثرَ بحجرٍ مرتيْنِ.

٨١٢ - كفاكَ مُوبِّخاً على الكذبِ عِلمُكَ بأنَّك كاذِبٌ، وكفاك ناهِياً عنه خوْفُكَ مِنْ تكذيبك حالَ إخبارِكَ.

٨١٣ - العالمُ يَعرفُ الجاهِل لأنهُ كان جاهلاً، والجاهلُ لا يَعرفُ العالمَ لأنهُ لم يكن عالِماً.

٨١٤ - لا تتكلوا على البَختِ فرُبما لم يكنْ وربما كان وزالَ، ولا على الحسَبِ فطالما كان بلاءً على أهْله، يقالُ للنَّاقِص: هذا ابن فلانٍ الفاضلِ، فيتضاعفُ غمهُ وعارُهُ، ولكنْ عليكم بالعلمْ والأدبِ، فإنّ العالم يُكرَمُ وإنْ لمْ ينتسبْ، ويكرم وإن كان فقيراً، ويكرمُ وإن كان حدِثاً.

٨١٥ - خيرُ ما عُوشرَ به الملكُ قلةُ الخلافِ وتخفيفُ المؤنة، وأصعبُ الأشياءِ على الإنسان أنْ يعرفَ نفسه، وأن يكتم سرّهُ.

٨١٦ - العدلُ أفضلُ منَ الشجاعةِ، لأنَّ الناسَ لو استعملوا العدلَ عموماً في جميعهم لاستغنوا عن الشجاعةِ.

٨١٧ - أولى الأشياءِ أن يتعلَّمها الأحْداثُ الأشياءُ التي إذا صاروا رجالاً احتاجُوا إليها.

٨١٨ - لا ترغبْ في اقتناءِ الأموالِ، وكيفَ ترغبُ فيما ينالُ بالبخت لا بالاستحقاقِ، ويأمر البخلُ والشرَهُ بحفظه والجود والزهدُ بإخراجِه!

٨١٩ - إذا عاتبت الحدَث فاترك لهُ موضعاً من ذنبه، لئلاً يحملهُ الإخراجُ على المكابرةِ.

٨٢٠ - ما انتقم الإنسانُ منْ عدوّهِ بأعظم من أن يزداد من الفضائلِ.

٨٢١ - إنما لم تجتمع الحكمةُ والمالُ، لعزّةِ وجُود الكمالِ.

٨٢٢ - يَمنعُ الجاهلَ أن يجدَ ألم الحمق المستقرّ في قلبِه ما يمنع السكرانَ أنْ يجد مسَّ الشوْكة في يدِه.

٨٢٣ - القُنية مخدومةٌ، ومن خدمَ غير نفسِه فليس بحرٍّ.

٨٢٤ - لا تطلبِ الحياةَ لتأكلَ، بل اطلُبِ الأكل لتحيا.

٨٢٥ - إذا رأتِ العامّةُ منازلَ الخاصّةِ من السلطانِ حسدتها عليْها، وتمنّتْ أمثالها، فإذا رأتْ مصارعها بدا لها.

٨٢٦ - الشيءُ الذي لا يستغني عنهُ أحدٌ هوَ التوْفيق.

٨٢٧ - ليْسَ ينبغي أن يقعَ التصديقُ إلا بما يصحُّ، ولا العملُ إلا بما يحِلُّ، ولا الابتداءُ إلا بما تحسنُ فيهِ العاقبةُ.

٨٢٨ - الوحدةُ خيْرٌ مِن رفيقِ السوءِ.

٨٢٩ - لكل شيءٍ صناعةٌ، وحسنُ الاختبارِ صناعةُ العقلِ.

٨٣٠ - من حَسدَكَ لم يشكرْكَ على إحسانك إليهِ.

٨٣١ - البغيُ آخرُ مدّةِ الملوكِ.

٨٣٢ - لأنْ يكون الحرُّ عبداً لعبيده خيرٌ من أن يكون عبداً لشهواتِه.

٨٣٣ - من أمْضى يومه في غيرِ حقٍّ قضاهُ، أو فرضٍ أدّاهُ، أوْ مجدٍ بناهُ، أو حَمْدٍ حصَّلَهُ، أو خيرٍ أسّسهُ، أو علم اقتبسهُ، فقد عقَّ يوْمهُ.

٨٣٤ - أرسلَ إليهِ عمرو بن العاص يعيبُه بأشياءَ، منها أنّهُ يسمِّي حَسَناً وحُسَيْناً: ولدي رَسُولِ الله ﷺ فقالَ لِرَسُولِهِ: قل للشّانىء[1] ابن الشّانىء، لو لم يكونا ولَدَيْه لكانَ أبترَ، كما زعمه أبوك!

٨٣٥ - قالَ معاوية لما قُتِلَ عمارٌ واضطربَ أهلُ الشام لرواية عمرو بن العاص كانت لهم: «تقتُلُه الفئةُ الباغيةُ»: إنّما قتله منْ أخرجهُ إلى الحرب وعَرَّضَه للقتل، فقال أميرُ المؤمنين عليه السلام: فرسولُ الله ﷺ إذَنْ قاتِلُ حمزةَ!

٨٣٦ - هذا يدي - يعني محمَد بن الحنفيّة - وهذان عيناي - يعني حَسَناً وحُسَيْناً - وما زَال الإنسانُ يَذُبُّ بِيَدِهِ عنْ عينيْهِ، قالها لمنْ قال له: إنّكَ تُعَرِّضُ محمَّداً للقتل، وتقْذِفُ به في نحور الأعداءِ دونَ أخَوَيه.

٨٣٧ - شكَرْتَ الواهب، وبُورِكَ لك في الموهوب، ورُزِقْتَ خيرهُ وبِرَّهُ، خذْ إليكَ أبا الأملاك، قالها لعبد الله بن العباس لما وُلِدَ ابْنُهُ عليُّ بن عبد الله.

٨٣٨ - ما يَسُرُّني أني كُفِيتُ أمرَ الدُّنيا كلَّه، لأني أكرهُ عادةَ العجزِ.

٨٣٩ - اجتماعُ المالِ عندَ الأسخياءِ أحدُ الخِصْبَيْنِ، واجتماعُ المالِ عندَ البخلاءِ أحدُ الجَدْبَيْنِ.

---

(١) الشانىء: المبغض. القاموس، مادة (شنأ).

٨٤٠ - منْ عَمِلَ عَمَلَ أبيه كُفِيَ نصفَ التَّعَبِ.

٨٤١ - المُصطَنِعُ إلى اللَّئيمِ كمنْ طَوَّقَ الخِنزيرَ تِبْراً، وقَرَّطَ الكلبَ دُرًّا، وألبسَ الحمارَ وَشْياً، وألقم الأفعى شهداً.

٨٤٢ - الحازِمِ إذا أشكلَ عليهِ الرَّأيِ بمنزلة منْ أضل لُؤلُؤةً، فجمعَ ما حوْلَ مسقطها مِنَ الترابِ ثم التمسها حتى وجدها، ولذلك الحازِمُ يجمعُ وُجُوهَ الرَّأيِ في الأمر المشكل، ثم يضربُ بعضه ببعضٍ حتى يخلُصَ إليهِ الصَّوابُ.

٨٤٣ - الأشرافُ يعاقَبُون بالهِجْرانِ لا بالحرمان.

٨٤٤ - الشُّحُّ أضرُّ على الإنسانِ مِن الفَقْرِ، لأن الفقير إذا وجد اتَّسع، والشحيح لا يتَّسعُ وإن وَجَد.

٨٤٥ - أحَبُّ الناس إلى العاقل أن يكون عاقلاً عَدُوُّهُ، لأنهُ إذا كان عاقِلاً كان مِنْه في عافيةٍ.

٨٤٦ - عليك بِمَجالسةِ أصحابِ التَّجاربِ، فإنها تُقَوَّمُ عليهم بأغلى الغلاءِ، وتأخذها مِنهم بأرْخَص الرُّخص.

٨٤٧ - مَن لم يحمَدْكَ على حُسْنِ النِّيَّةِ لم يَشْكُرْكَ على جَمِيل العَطِيَّةِ.

٨٤٨ - لا تنكحوا النساءَ لِحُسنهنَّ، فعسى حُسْنُهُنَّ أن يُرْدِيَهنَّ، ولا لِأَمْوالهنَّ فعسى أمْوالُهنَّ أن تُطْغِيَهُنَّ، وانكِحُوهُنَّ على الدِّين، ولأمَةٌ سوْداءُ خَرْماءُ ذَاتُ دِين أفْضَلُ.

٨٤٩ - أفْضَلُ العبادَةِ الإمْساك عن المعصيةِ، والوُقوفُ عِنْد الشُّبْهَةِ.

٨٥٠ - ذَمُّ الرَّجل نفسه في العلانية مَدْحٌ لها في السِّرِّ.

٨٥١ - مَن عَدِم فَضِيلة الصدق في منطقِهِ فَقَدْ فُجِعَ بأكْرَم أخلاقِهِ.

٨٥٢ - ليس يضُرُّك أنْ تَرَى صدِيقك عنْدَ عدُوِّك، فإنهُ إن لم يَنْفعك لم يَضُرَّكَ.

٨٥٣ - قَلَّ أن تَرَى أحداً تكبَّرَ على مَن دُونه إلا وبذلك المِقدارِ يجودُ بالذُّلِّ لمَنْ فوْقَهُ.

٨٥٤ - مَن عَظُمَتْ عَلَيْهِ مُصيبةٌ فلْيذْكُرِ المَوْتَ، فإنها تَهُونُ عَلَيْهِ، ومَنْ ضاق بِهِ أمْرٌ فلْيَذْكُرِ القبر فإنه يتَّسعُ.

٨٥٥ - خَيْرُ الشِّعْرِ ما كان مَثَلاً، وَخَيْرُ الأمْثالِ ما لم يَكن شِعْراً.

٨٥٦ - إلق الناس عِند حاجتهم إليك بالبشر والتواضُعِ، فإن نابَتك نائِبَةٌ، وحالَتْ بك حالٌ لَقِيتَهُمْ، وقَدْ أمِنت ذِلَّةَ التَّنصُّل إليهم والتواضع.

٨٥٧ - إن الله يحبُّ أن يُعفَى عن زَلَّةِ السَّرِيِّ.

٨٥٨ - من طال لِسانُهُ وحَسُن بَيانُهُ، فليترك التَّحدث بغرائِبِ ما سمع، فإنّ الحسد لِحُسن ما يظهرُ منهُ يحمِلُ أكْثرَ الناس على تكذِيبه، ومَن عرَفَ أسرَارَ الأمورِ الإلٰهية فلْيَتْرُكِ الخوض فيها، وإلّا حملتهم المنافسةُ على تكْفيرِهِ.

٨٥٩ - لَيْسَ كلُّ مَكتومٍ يَسُوغ إظهارُهُ لك، ولا كلُّ مَعْلُومٍ يَجوزُ أن تُعَلِّمَهُ غَيْرك.

٨٦٠ - ليسَ يفهَمُ كلامَكَ منْ كان كلامُهُ لك أحبَّ إليه مِنَ الاستماعِ منك، ولا يعلَمُ نصيحَتَكَ مَنْ غلَبَ هواهُ على رَأْيِكَ، ولا يسلِّمُ لكَ منِ اعتقَدَ أنّه أتمُّ معرفةً بما أشرتَ عليهِ به منْكَ.

٨٦١ - خَفِ الضعيفَ إذا كان تحتَ راية الإنصاف أكثرَ منْ خوفِك القويّ تحت راية الجورِ، فإنّ النَّصر يأتيهِ من حيثُ لا يشعر، وجُرحُه لا يندملُ.

٨٦٢ - إخافةُ العبيد والتضييقُ عليهمْ يزيد في عبوديّتهم وصيانتِهِمْ، وإظهارُ الثقةِ بهم يكسِبُهُمْ أنفةً وجبريّةً.

٨٦٣ - أضرُّ الأشياءِ عليك أن تُعْلم رئيسك أنّكَ أعرفُ بالرّياسة منه.

٨٦٤ - عداوةُ العاقلينَ أشدُّ العداواتِ وأنكاها، فإنها لا تقع إلا بعد الإعذار والإنذار، وبعد أن ييْس إصلاح ما بينهما.

٨٦٥ - لا تخْدِمَنّ رئيساً كنتَ تعرفُهُ بالخُمُولِ، وسمَتْ به الحالُ، ويعرفُ منك أنّكَ تعرفُ قديمهُ، فإنَّهُ وإن سُرَّ بمكانكَ مِنْ خدمَتِهِ، إلا أنه يعلَمُ العينَ التي تراه بها، فينقبِضُ عنك بحسب ذلك.

٨٦٦ - إذا احتجتَ إلى المشورة في أمرٍ قد طَرَأَ عليك فاستَبْدِهِ ببداية الشُّبّان، فإنهم أحدّ أذهاناً وأسرَعُ حَدْساً، ثم رُدَّهُ بعدَ ذلك إلى رأيِ الكُهولِ والشيوخِ ليستعقِبُوهُ، ويُحْسِنُوا الاختيارَ له، فإنّ تجربتهم أكثرُ.

٨٦٧ - الإنسانُ في سعيه وتصرفاته كالعائِمِ في اللّجّةِ، فهو يكافِحُ الجرية في إدباره، ويجري معها في إقبالهِ.

٨٦٨ - ينبغي للعاقلِ أن يستعملَ فيما يَلتمِسهُ الرفقَ، ومُجانبةَ الهذَرِ، فإن العَلَقَةَ تأخذ بهدوئها مِنَ الدَّمِ ما لا تأخذهُ البَعوضةُ باضطرابها وفرطِ صِياحِها.

٨٦٩ - أقوى ما يكونُ التصنُّعُ في أوائِلهِ، وأقوى ما يكونُ التطبُّعُ في أواخرِهِ.

٨٧٠ - غاية المُروءة أنْ يستحيي الإنسانُ من نفسهِ، وذلكَ أنّهُ ليسَ العِلّةُ في الحياءِ مِنَ الشيخ كِبَرَ سِنِّهِ ولا بياضَ لِحْيَتِه، وإنما عِلّةُ الحياء منهُ عقلُه، فينبغي إن كان هذا الجَوْهَر فينا أنْ نستحييَ منهُ ولا نُحضرَه قبيحاً.

٨٧١ - منْ ساس رعِيّةً حَرُمَ عليه السُّكرُ عَقْلاً، لأنّهُ قبيحٌ أنْ يحتاجَ الحارسُ إلى منْ يحرسُهُ.

٨٧٢ - لا تبتاعنَّ مملوكاً قويَّ الشهْوَةِ، فإنَّ له مولًى غيركَ، ولا غَضُوباً فإنَّهُ يُؤذِيكَ في أستخدامِكَ له، ولا قَوِيّ الرَّأي فإنَّهُ يستعمِلُ الحيلَةَ عليك، لكن اطلُبْ منَ العبيدِ مَنْ كانَ قَوِيَّ الجِسْمِ حَسنَ الطَّاعَةِ، شديدَ الحياءِ.

٨٧٣ - لا تُعادوا الدُّولَ المُقبلةَ، وتُشرِبوا قلوبَكم بُغْضَها، فتُدبِرُوا بإقبالها.

٨٧٤ - الغَريبُ كالفرسِ الذي زايل شِرْبَهُ، وفارقَ أرضهُ، فهو ذاوٍ لا يتّقِدُ وذابِلٌ لا يُثمرُ.

٨٧٥ - السفرُ قطعةٌ منَ العذابِ، والرَّفيقُ السوءُ قطعةٌ منَ النَّارِ.

٨٧٦ - كلُّ خُلُقٍ من الأخلاقِ فإنَّه يكسُدُ عندَ قومٍ مِنَ الناسِ إلّا الأمانَة فإنها نافِقَةٌ عندَ أصنافِ الناسِ، يُفضَّل بها من كانت فيه، حتى إن الآنِيَةَ إن لم تُنَشِّفْ وبَقِيَ ما يودَعُ فيها على حاله لم ينقُصْ - كانت أكثر ثناءً مِنْ غيرها مِما يرشَحُ أو يُنشِّفُ.

٨٧٧ - اصْبِرْ على سلطانِكَ في حاجاتِكَ، فلستَ أكبرَ شغلهِ، ولا بك قِوامُ أمرِهِ.

٨٧٨ - قُوّةُ الاستشعارِ منْ ضعفِ اليقينِ.

٨٧٩ - إذا أحسسْتَ منْ رأيكَ بإكدادٍ، ومِنْ تصوُّرِكَ بفسادٍ، فاتّهِمْ نفسك بمجالستِكَ لعاميِّ الطبعِ، أو لِسَيِّءِ الفكْرِ، وتدارَكْ إصلاحَ مزاجِ تخيُّلكَ بمكاثرةِ أهلِ الحكمةِ، ومجالسةِ ذوِي السدَاد، فإن مفاوضتهُمْ تريحُ الرَّأيَ المكدودَ، وتردُّ ضالّةَ الصوابِ المفقودِ.

٨٨٠ - منْ جلسَ في ظلّ الملقِ[1]، لم يستقرَّ به موضعُه، لكثرةِ تنقُّلِهِ وتصرُّفِه معَ الطباعِ، وعرفَهُ النَّاسُ بالخديعَةِ.

٨٨١ - كثيرٌ من الحاجاتِ تُقضَى بَرَماً لا كرَماً.

٨٨٢ - أصحابُ السلطان في المَثلِ كقومٍ رقوا جبلاً ثم سقطوا منهُ، فأقربُهُمْ إلى الهَلَكَةِ والتّلَفِ أبعدهمْ كان في المرتقَى.

٨٨٣ - لا تضَعْ سِرَّكَ عندَ منْ لا سِرَّ له عندكَ.

٨٨٤ - سَعَةُ الأخلاقِ كِيمياء الأرزاق.

٨٨٥ - العلمُ أفضلُ الكُنوزِ وأجملُها، خفيفُ المحمَلِ، عظيمُ الجدوى، في الملأ جمالٌ، وفي الوحدةِ أُنسٌ.

---

(١) المَلَق: الودّ واللطف الشديد، وقيل: الترفق والمداراة. اللسان، مادة (ملق).

٨٨٦ - السِّبابُ مُزَاحُ النَّوْكَى[1]، ولا بأسَ بالمفاكهةِ، يُرَوِّحُ بها الإنسانُ عنْ نفسهِ، ويخْرُجُ عنْ حدِّ العُبُوسِ.

٨٨٧ - ثلاثةُ أشياءَ تدلُّ على عقولِ أربابِها: الهَدِيَّةُ، والرَّسُولُ، والكتابُ.

٨٨٨ - التعزيةُ بعدَ ثلاثٍ تجديدٌ للمصيبة، والتهنئةُ بعدَ ثلاثٍ استخفافٌ بالمودَّةِ.

٨٨٩ - أنتَ مخيَّرٌ في الإحسانِ إلى منْ تحسنُ إليهِ، ومرتَهَنٌ بدوامِ الإحسانِ إلى منْ أحسنْتَ إليهِ، لأنكَ إنْ قطعتهُ فقدْ أهدرتهُ، وإنْ أهدرته فلمَ فعلْتَهُ!

٨٩٠ - الناس مِن خوف الذُّلِّ في ذُلٍّ.

٨٩١ - إذا كانَ الإيجازُ كافياً كان الإكثارُ عِيًّا، وإذا كان الإيجازُ مقصِّراً كان الإكثارُ واجباً.

٨٩٢ - بئسَ الزَّادُ إلى المَعادِ، العُدوانُ على العِبادِ.

٨٩٣ - الخلقُ عِيالُ الله، وأحبُّ النَّاس إلى الله أشفقهم على عيالِهِ.

٨٩٤ - تحريكُ الساكنِ أسهلُ منْ تسكينَ المتحرِّك.

٨٩٥ - العاقلُ بخشونةِ العيشِ معَ العُقلاءِ، آنسُ منه بلينِ العيش مع السُّفهَاءِ.

٨٩٦ - الانقباضُ بينَ المنبسطين ثِقلٌ، والانبساطُ بينَ المنقبضين سخفٌ.

٨٩٧ - السخاءُ والجودُ بالطعامِ لا بالمالِ، ومنْ وهبَ ألفاً وشَحَّ بصحفةِ طعامٍ فليسَ بجوَادٍ.

٨٩٨ - إنْ بقيتَ لم يبقَ الهمُّ.

٨٩٩ - لا يقومُ عزُّ الغضبِ بذلَّةِ الاعتذارِ.

٩٠٠ - الشفيعُ جناحُ الطالبِ.

٩٠١ - الأملُ رفيقٌ مُؤنِسٌ، إنْ لم يبلِّغْكَ فقدِ استمتَعْتَ به.

٩٠٢ - إعادةُ الاعتذار تذكيرٌ بالذَّنْبِ.

٩٠٣ - الصبرُ في العواقِبِ شافٍ أو مريحٌ.

٩٠٤ - من طالَ عمرُهُ، رأى في أعدائِهِ ما يسرُّهُ.

٩٠٥ - لا نعمةَ في الدُّنيا أعظمُ منْ طولِ العمر، وصحّةِ الجسدِ.

٩٠٦ - الناسُ رجلان: إمّا مُؤجّلٌ لفقدِ أحبابِهِ، أو معجّلٌ بفقدِ نفسِه.

---

(١) النّوكى: الحمقى، مفرده: أنوك، اللسان، مادة (نوك).

٩٠٧ - العقلُ غريزةٌ تربّيها التّجارِبُ.

٩٠٨ - النُّصْحُ بينَ الملأ تقريعٌ.

٩٠٩ - لا تُنكِحْ خاطبَ سِرِّكَ.

٩١٠ - منْ زادَ أدبُهُ على عقلِهِ كان كالرّاعي الضعيفِ معَ الغنمِ الكثير.

٩١١ - الدّارُ الضّيّقةُ العمى الأصغرُ.

٩١٢ - النّمّام جسرُ الشرِّ.

٩١٣ - لا تَشِن وجهَ العفو بالتقريع.

٩١٤ - كثرة النصح تهجم بك على كثرة الظِّنَّةِ.

٩١٥ - لكلّ ساقطة لاقطة.

٩١٦ - ستساق إلى ما أنت لاقٍ.

٩١٧ - عاداك من لاحاك.

٩١٨ - جَدّك لا كدّك.

٩١٩ - تذكر قبل الورْدِ الصدَرَ، والحذر لا يغني من القدر، والصبر منْ أسباب الظفر.

٩٢٠ - عارُ النساءِ باقٍ يلحق الأبناءَ بعد الآباءِ.

٩٢١ - أعجل العقوبةِ عقوبةُ البغي والغدرِ واليمينِ الكاذبة، ومنْ إذا تُضُرِّعَ إليهِ وسُئِلَ العفو لم يغفر.

٩٢٢ - لا تردّ بأس العدُوّ القويّ وغضبه بمثل الخضوعِ والذُّلّ، كسلامة الحشيش منَ الريح العاصف بانثنائه معها كيْفَما مالت.

٩٢٣ - قارِبْ عدوّك بعض المقاربةِ تنلْ حاجتك، ولا تُفْرط في مقارَبته فتذلّ نفسك وناصرك، وتأمّل حال الخشبة المنصوبة في الشمس التي إنْ أمَلتها زاد ظلها، وإنْ أفرطت في الإمالة نقص الظلّ.

٩٢٤ - إذا زال المحسود عَلَيْهِ علمت أنّ الحاسد كان يَحْسُدُ على غير شيء.

٩٢٥ - العجز نائم، والحزم يقظان.

٩٢٦ - من تجرّأ لَكَ تجرّأ عَليك.

٩٢٧ - ما عفا عن الذنب مَن قَرَّع بِهِ.

٩٢٨ - عبد الشهوة أذلُّ من عبد الرِّقِّ.

٩٢٩ - لَيْسَ ينبغي للعاقل أنْ يطلب طاعة غيره، وطاعةُ نفسه عَلَيْهِ مُمْتَنِعَةٌ.

٩٣٠ - الناسُ رَجلان: واجدٌ لا يكتفي، وطالب لا يجد.

٩٣١ - كُلّما كثر خُزّان الأسرار، زادت ضياعاً.

٩٣٢ - كثرة الآراءِ مفسدة، كالقِدْرِ لا تطيب إذ كثر طَبّاخُوها.

٩٣٣ - مَن اشتاق خَدَمَ، ومَن خَدم اتَّصَل، ومَن اتّصل وصل، ومَن وصَل عَرَف.

٩٣٤ - عَجَباً لِمنْ يخرُج إلى البساتين للفُرْجَةِ على القُدْرَة، وَهَلاَّ شَغَلَتهُ رُؤيَةُ القادِرِ عَن رُؤيَةِ القُدْرَةِ!

٩٣٥ - كلُّ الناسِ أُمِروا بأنْ يَقُولُوا: لا إله إلا الله، إلا رسولَ الله، فإنَّهُ رُفِعَ قَدْرُهُ عَن ذَلك، وقيل لَهُ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾(١)، فأُمِرَ بالعلْمِ لا بالقَوْلِ.

٩٣٦ - كُلُّ مُصطنع عارفةٍ فإنّما يصنع إلى نفسه، فلا تلتمس مِن غيرك شكر ما أتيْتَه إلى نفسك وتمَّمت به لذَّتَكَ، ووقيْتَ بِهِ عِرْضَك.

٩٣٧ - ولَدُك رَيْحانَتُك سَبْعاً، وخادِمُك سَبْعاً، ثمّ هُوَ عَدُوّك أو صديقك.

٩٣٨ - مَن قَبِل معرُوفَكَ فَقَدْ باعَكَ مُرُوءَتَهُ.

٩٣٩ - إلى الله أشكو بلادَة الأمين ويقظة الخائنِ.

٩٤٠ - مَن أكثر المشورة لم يَعْدَم عند الصواب مادحاً، وعند الخطأ عاذِراً.

٩٤١ - من كثر حقده قَلَّ عتابُهُ.

٩٤٢ - الحازمُ مَن لم يَشغَلْهُ البَطرُ بالنعْمَةِ عَن العمل للعاقِبَةِ، والهَمُّ بالحادِثَةِ عن الحيلةِ لدفْعها.

٩٤٣ - كلَّما حَسُنتْ نِعْمَةُ الجاهِل ازْدَادَ قُبْحاً فيها.

٩٤٤ - مَن قَبِلَ عَطاءَكَ فقدْ أعانك على الكرمِ، ولولا مَن يَقْبلُ الجودَ لم يكُنْ مَن يَجُودُ.

٩٤٥ - إخوانُ السوءِ كشجرةِ النار، يُحْرق بعضها بعضاً.

٩٤٦ - زلة العالمِ كانكسار السفينةِ تغرق ويَغْرَقُ معها خلق.

٩٤٧ - أهْوَنُ الأعْدَاءِ كيْداً أظهرهم لِعَدَاوَتِه.

٩٤٨ - أبْقِ لِرِضاك مِنْ غَضَبِك، وإذا طِرْتَ فَقَعْ قَريباً.

٩٤٩ - لا تَلْتَبِسْ بالسُّلْطانِ في وقْتِ اضْطِرابَ الأُمُورِ عَلَيْهِ، فإنَّ البَحْر لا يَكادُ يسلمُ صاحِبُهُ في حالِ سُكُونِهِ، فكيف يسلم مَع اختلاف رياحِهِ واضطِرابِ أمْواجِهِ!

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٩.

٩٥٠ - إذا خُلّي عِنان العقل، ولم يحبس على هوى نفسٍ، أو عادةِ دينٍ، أو عصبيَّةٍ لسلف، ورد بصاحِبه على النجاة.

٩٥١ - إذا زادك المُلك تأنيساً فزده إجلالاً.

٩٥٢ - مَن تكلَّف ما لا يعنيه فاته ما يعنيه.

٩٥٣ - قليلٌ يُتَرَقّى مِنه إلى كثيرٍ خَيْرٌ مِن كثيرٍ ينحطُّ عَنْهُ إلى قليل.

٩٥٤ - جَنّبوا مَوتاكم في مدافِنهم جار السُّوءِ، فإنّ الجارَ الصالح يَنْفَعُ في الآخِرةِ كما ينفعُ في الدُّنيا.

٩٥٥ - زُر القُبورَ تَذْكر بها الآخرة، وغسِّل الموتى يتحرَّك قلبك، فإنّ الجسد الخاوي عظةٌ بليغةٌ، وصلّ على الجنائزِ لعلّهُ يُحْزنكَ، فإنَّ الحزين قَرِيبٌ منَ الله.

٩٥٦ - الموتُ خيرٌ لِلْمُؤمِنِ والكافرِ، أمّا المؤمنُ فيتعجّل لهُ النعيم، وأمّا الكافرُ فيقلُّ عذابهُ، وآيةُ ذلك من كتاب الله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾[1]، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾[2].

٩٥٧ - جَزعُك في مُصيبَةِ صديقك أحْسَنُ مِنْ صَبْرِك، وصبْرُك في مُصيبتِكَ أحْسَنُ من جَزَعِك.

٩٥٨ - مَنْ خافَ إساءَتكَ اعتقد مَساءَتَكَ، ومَن رهِبَ صَوْلَتَكَ ناصَبَ دَوْلَتك.

٩٥٩ - من فَعَلَ ما شاءَ لَقِيَ ما شاءَ.

٩٦٠ - يَسُرُّني مِن القُرْآنِ كلِمَةٌ أرْجُوها لِمنْ أسْرَفَ على نَفْسِه ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾[3] فَجعَلَ الرَّحْمَةَ عُموماً والعَذابَ خُصُوصاً.

٩٦١ - الاسْتِئْثارُ يُوجِبُ الحسد، والحَسَدُ يوجب البِغْضَةَ، والبِغضةُ تُوجِب الاخْتِلافَ، والاختلافُ يوجب الفرقَةَ، والفرقةُ توجب الضَّعْفَ، والضّعفُ يوجب الذُّلَّ، والذُّلُّ يوجب زَوال الدَّولةِ، وذهاب النِّعْمَةِ.

٩٦٢ - لا يكاد يَصِحّ رُؤيا الكذّابِ، لأنه يخبرُ في اليقظة بما لم يَكُن، فأخرِ بِهِ أن يرى في المنام ما لا يكون.

٩٦٣ - يُفسِدك الظَّنُّ على صَديقٍ قَدْ أصلحك اليقين لهُ.

٩٦٤ - لا تكادُ الظُّنون تزدحم عل أمرٍ مستور إلا كشفته.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

٩٦٥ - المشورة رَاحةٌ لَكَ وتعبٌ على غَيْرِك.

٩٦٦ - حقُّ كلِّ سرٍّ أن يصان، وأحقُّ الأسرار بالصيانة سرُّك مع مولاك، وسِرُّهُ مَعَك، واعلم أنَّ مَن فَضَح فُضِح، ومَن باح فَلِدَمِهِ أباح.

٩٦٧ - يا مَنْ أَلَمَّ بجناب الجلال، احفظ ما عرفت، واكتم ما استودعت، واعلم أنك قَدْ رشحت لأمْرٍ فافطن له، ولا ترض لِنَفْسِك أن تكون خائِناً، فمن يُؤدِّ الأمانة فيما استودِع، أخلَقُ الناس بِسِمة الخيانةِ، وأجدرُ الناسِ بالإبعادِ والإهانة!

٩٦٨ - لا تعامل العامّةَ فيما أنعم به عليك من العلم، كما تعامل الخاصّةَ، واعلم أن الله سبحانه رجالاً أوْدَعَهُمْ أسراراً خفيةً، ومَنَعَهُمْ عن إشاعتها، واذكرْ قَوْلَ العَبْدِ الصالح لموسى وقد قال له: هل أَتَّبِعُك على أن تعلِّمَنِ مما عُلِّمْتَ رُشْداً. قال: إنك لن تستطيع معي صبراً، وكيف تَصْبِرُ على ما لَمْ تُحِطْ به خبراً!

٩٦٩ - لكلِّ دارٍ بابٌ، وباب دار الآخرة الموت.

٩٧٠ - إن لك فِيمن مضى من آبائك وإخوانك لعبرةً، وإن ملك الموت دخل على داودَ النبيّ، فقال: مَنْ أنت؟ قال: مَن لا يهابُ الملوك، ولا تمنعُ منه القصور، ولا يَقْبَلُ الرّشا، قالَ: فإذَنْ أنت ملك الموت جئت، ولم أستعِدّ بعد! فقال: فأين فلان جارُك، أين فلان نسيبك؟ قال: ماتُوا، قال: ألم يكن لك في هؤلاء عبرة لتستعدَّ!

٩٧١ - ما أخسر صفقة الملوك إلّا مَن عصم الله، باعوا الآخرة بِنَوْمَةٍ.

٩٧٢ - إن هذا الموت قد أفسد على الناس نعيم الدنيا، فما لكم لا تلتمسون نعيماً لا موت بعده!

٩٧٣ - انظر العمل الذي يسرّك أنْ يأتيَك الموت وأنت عليه فافعله الآن، فلستَ تأمَنُ أن تموت الآن.

٩٧٤ - لا تَسْتَبْطِىءُ القيامةَ فتَسْكن إلى طول المدّة الآتية عليك بعد المَوْت، فإنك لا تُفرق بعد عودِك بين ألفِ سنةٍ وبين ساعةٍ واحدةٍ، ثمَّ قرأ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾[1] الآية.

٩٧٥ - لا بدَّ لك من رَفيقٍ في قَبرك، فاجعله حَسن الوجه طيب الريح، وهو العمل الصالح.

٩٧٦ - رُبَّ مُرْتاحٍ إلى بلد وهو لا يدري أن حمامه في ذلك البلد.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٤٥.

٩٧٧ - الموت قانص يُصبِي ولا يشوِي.

٩٧٨ - ما من يَوْمٍ إلا يتصفح ملك الموت فيه وجوه الخلائق، فمن رآه على معصيةٍ أو لهوٍ، أو رَآهُ ضاحكاً فَرِحاً، قال لهُ يا مسكين: ما أغفلك عمَّا يُرَادُ بك! اعمل ما شِئت، فإن لي فيك غمرة أقطع بها وتينَك.

٩٧٩ - إذا وُضع الميّتُ في قَبْره اعتورَتْه نيرانٌ أربعُ، فتجيءُ الصلاة فتطْفىءُ واحدَةً، ويجيءُ الصومُ فيطفىءُ واحدةً، وتجيءُ الصدقَةُ فتطْفِيءُ واحدةً، ويجيءُ العِلم فيطْفِيءُ الرَّابعةَ، ويقول: لو أدركتهنَّ لأطفأتهنَّ كلّهنَّ، فقرَّ عيناً فأنا معك، ولن ترى بُؤساً.

٩٨٠ - استجيروا بالله تعالى، واستخيروه في أموركم، فإنه لا يُسلِم مستجيراً، ولا يَحرم مُستخيراً.

٩٨١ - ألأ أدلُّكم على ثمرة الجنة! لا إله إلا الله بشرط الإخلاص.

٩٨٢ - مِنْ شَرف هذِه الكلمة وهي الحمدُ لله. أنّ الله تَعالى جعلها فاتحةَ كتابه، وجعلها خاتمةَ دَعْوى أهل جنتِه، فقال: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَنٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

٩٨٣ - ذَاكِرُ الله في الغافلين كالشجرةِ الخضراء في وَسط الهشيم، وكالدَّارِ العامرةِ بين الرُّبوع الخربةِ.

٩٨٤ - أفضلُ الأعمال أن تموتَ ولسانُكَ رطبٌ بذكْر الله سبحانُه.

٩٨٥ - الذِّكر ذِكرانِ: أحدُهما ذكر الله وتحميدُه، فما أحسنَه وأعظم أجرهُ! والثاني ذكر الله عندما حرَّم الله وهو أفضلُ من الأوّل!

٩٨٦ - ما أضيقَ الطريق على من لمْ يكُن الحقُّ تعالى دَليله، وما أوحشها على منْ لم يكن أنيسَهُ! ومن اعتزّ بغير عزِّ الله ذلَّ، ومن تكثّر بغير الله قلَّ.

٩٨٧ - اللهمَّ إن فهِهتُ عن مسألتي، أو عمهتُ عن طلبتي، فدُلَّني على مصالحي، وخذْ بناصيتي إلى مراشِدي. اللهمَّ احملني على عفوك، ولا تحملني على عذلك.

٩٨٨ - مُخّ الإيمان التقْوى والورعُ، وهما من أفعال القلوبِ، وأحسنُ أفعال الجوارح ألّا تزال مالِئاً فاكَ بذكرِ الله سبحانه.

٩٨٩ - اللهمّ فرّغني لما خلقتني لهُ، ولا تشغلْني بما تكفّلْت لي به، ولا تَحْرِمني وأنا أسألُك، ولا تعذّبني وأنا أستغفرك.

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٠.

٩٩٠ - سُبحان من ندعوهُ لحظِّنا فيسرعُ! ويدْعونا لحظِّنا فنبطىءُ! خيْرُه إلينا نازلٌ، وشرُّنا إليه صاعدٌ، وهو مالكٌ قادِرٌ.

٩٩١ - اللهمّ إنا نعوذُ بك منْ بَياتِ غفلة وصباح ندامةٍ.

٩٩٢ - اللهمّ إني أستغفرك لما تبت منهُ إليك ثمّ عذت فيهِ، وأستغفركَ لما وَعدْتُك من نفسي ثمّ أخلفتك، وأستغفرك للنعم التي أنعمت بها عليَّ فتقوّيتُ بها على مَعْصِيَتِكَ.

٩٩٣ - اللهمّ إني أعوذُ بكَ أنْ أقولَ حقًّا ليس فيه رضاكَ ألتمسُ به أحداً سِواكَ، وأعوذُ بك أن أتزيّن للناسِ بشيءٍ يشينني عندَك، وأعوذُ بك أنْ أكونَ عبْرةً لأحدٍ منْ خلقك، وأعوذُ بك أن يكون أحدٌ منْ خلقك أسعد بما علَّمْتني مِنّي.

٩٩٤ - يا من ليسَ إلا هوَ، يا من لا يعلمُ ما هو إلّا هو، اعف عنّي.

٩٩٥ - اللهمّ إن الآمال مَنوطةٌ بكرمك، فلا تقطعْ علائقها بسخطك. اللهم إني أبرأ من الحوْل والقوّة إلّا بك، وأدْرأ بنفسي عن التوكل على غيركَ.

٩٩٦ - اللهم صلّ على محمّدٍ وآل محمّدٍ، كلما ذكرهُ الذاكرونَ، وصلّ على محمّدٍ وآلِ محمّدٍ كلما غَفَل عن ذِكرهِ الغافلون. اللهم صلّ على محمدٍ وآل محمدٍ عَدَدَ كلماتك، وعددَ معلوماتك، صلاةً لا نهاية لها، ولا غايةَ لأمَدِها.

٩٩٧ - سبحانَ الواحِد الذي ليس غيرُه، سبحان الدائم الذي لا نفاد لهُ، سبحانَ القديم الذي لا ابتداءَ لهُ، سبحانَ الغنيّ عن كلّ شيء ولا شيءَ من الأشياء يغني عنه!

٩٩٨ - يا الله يا رحمنُ يا رَحيمُ يا حَيُّ يا قيُّومُ يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلالِ والإكرامِ اعفُ عَنّي.

وهذا حِين انتهاءِ قولنا في شَرح نهج البلاغة، ولم ندركْ ما أدركناهُ منهُ بقوّتنا وحوْلنا، فإنّا عاجزون عمّا هو دُونهُ، ولقد شرعْنا فيه وإنّهُ لفي أنفسنا كالطَّوْدِ[1] الأمْلَسِ تَزِلُّ الوُعولُ العُصْمُ عن قَذَفاتِهِ، بل كالفلك الأطلسِ لا تبلُغُ الأوهامُ والعُقولُ إلى حدودِ غاياته، فما زالتْ معونةُ الله سبحانهُ وتعالى تُسَهِّلُ لنا حَزنَه، وتذلّلُ لنا صعبَهُ، حتّى أصحَبَ أبيّهُ، وأطاعَ عَصيّهُ، وفُتِحَتْ علينا - بحُسن النيّة وإخلاص الطَّويّةِ - في تصنيفهِ أبوابُ البركات، وتيسَّرتْ علينا مطالب الخيراتِ، حتّى لقد كان الكلامُ ينثالُ علينا انثيالاً، ويُواتينا بَديهَةً وارتجالاً، فَتمّ تصنيفُهُ في مدّةٍ قدرها أربعُ سنينَ وثمانية أشهرٍ، وأوّلها غرّة شهر رجب من سنة أربع وأربعين وستمائة. وآخرُها سَلْخ صفر من سنة تسعٍ وأربعين وستمائة، وهو مقدار مدّة خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، وما كان

(١) الطّود: الجبل. القاموس، مادة (طود).

في الظنّ والتقدير أنّ الفراغَ منهُ يقعُ في أقلّ من عشرِ سنينَ، إلّا أنّ الألطاف الإلٰهيَّة والعنايَةَ السماوية، شملتنا بارتفاع العوائقِ، وانتفاء الصَّوارفِ، وشحذَتْ بصيرتنا فيه، وأرهفتْ همَّتنا في تشييدِ مبانيهِ، وتنضيدِ ألفاظه ومعانيه.

وكان لسعادة المجلس المولَويّ المُؤيّدِي الوزيريّ أجرى الله بالخير أقلامهُ، وأمضى في طُلَى[1] الأعداء حُسامهُ في المعونة عليه أوفَرُ قِسطٍ، وأوفى نصيب وحظٍ، إذ كان مصنوعاً لِخِزانتهِ، ومَوْسُوماً بِسِمَتِهِ، ولأنّ همتهُ أعلاها الله ما زالت تتقاضى عندهُ بإتمامِهِ، وتحثُّهُ على إنجازه وإبرامِهِ، وناهِيك بها من همةٍ راضَتِ الصَّعب الجامِح، وخَفَّفَتِ العِبءَ الفادحَ، ويَسَّرَت الأمر العسير، وقطَعَت المَدَى الطَّويل في الزّمن القصير.

وقد استعملتُ في كثيرٍ من فُصوله فيما يتعلَّق بكلام المُتكلمين. والحُكماءِ خاصة ألفاظ القوم، مع علمي بأنّ العربية لا تُجيزُها، نحو قولهمُ: المحسوسات، وقولهمْ: الكلُّ والبَعْضُ، وقولَهم: الصفاتُ الذاتيَّةُ، وقولهم: الجُسْمانياتُ، وقولهم: أمَّا أوّلاً فالحال كذا، ونحو ذلك مما لا يخفى عمَّنْ له أدنى أُنْسٍ بالأدبِ، ولكنَّا استهجَنَّا تبديل ألفاظهم وتغيير عباراتِهم، فمن كلَّمَ قوماً كلَّمهم باصطلاحِهم، ومَن دخل ظَفارِ حَمَّرَ.

والنسخةُ التي بُنِيَ هذا الشرحُ على نصِّها أتمُّ نسخةٍ وجدنَّا بنهج البلاغةِ، فإنها مشتملةٌ على زياداتٍ تخلو عنها أكثرُ النسخ.

وأنا أستغفرُ الله العظيم من كلِّ ذنب يُبْعِدُ من رحمتِهِ، ومن كل خاطرٍ يدْعُو إلى الخروج عن طاعتِه، وأستَشفعُ إليه بمن أنصبْتُ جسدِي، وأسهرْتُ عيني، وأعملت فكري، واستغرَقْتُ طائفَةً من عمُري، في شرح كلامِهِ، والتَّقرُّبِ إلى الله بتعظيمِ منزلته ومقامِهِ، أن يعتق رقبتي من النَّارِ، وألاّ يبتليني في الدُّنيا ببلاءٍ تَعْجَزُ عنه قُوَّتي، وتَضعفُ عنه طاقَتِي، وأن يصون وجْهي عن المخلوقين، ويَكُفَّ عَنّي عادِيَة الظالمين، إنه سَمِيعٌ مُجيبٌ، وحَسْبُنا الله وحدهُ وصلواتُهُ على سينا محمَّدٍ النَّبيِّ وآلِهِ وسلامُه.

آخر الجُزءِ العشرين تمَّ الكتاب

---

(١) الطُّلى: الأعناق. اللسان، مادة (طلي).

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الجزء التاسع عشر

الجزء العشرون